



لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُهُ صَلَّى

عَلَى عَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ وَالْبَتَّانِيِّ

تاریخ
الادب
العربی



العصر العباسي الثاني

تأليف
الأديب العربي

٤

العصر العباسي الثاني

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ بديل < mktba.net



منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربي (ج ٤)
المؤلف :	شوقي الضيف
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الثاني
تاريخ الطبع :	١٤٢٧
الكمية :	١٥٠٠ نسخة
المطبعة :	سليمانزاده
شماره مجوز كتاب :	ف / ٢٦ / ٣ / ٢٥٨٠٣ - ٨٤ / ٤ / ٣٠
شابك دوره ٤ جلدي :	٩٦٤ - ٥١٨ - ٠٣٥ - X
شابك ج ٤ :	٩٦٤ - ٥١٨ - ٠٣٤ - ١

مركز التوزيع : قم - پاساژ قدس - الطابق الاول - رقم ٥٩ - تليفون : ٧٧٤٤٦٦٣ - ٢٥١ - ٩٨ +

العراق - النجف الأشرف - سوق الحويش - النقال : ٧٨٠١٠٠٣٥٧٢ +

العراق - البصرة - العشار - النقال : ٧٨٠١٠٤٦٢١٣ +

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربي خاصّ بالعصر العباسي الثاني ، وقد تناولتُ فيه الحياة السياسية وما حدث فيها من تحوّل مقاليد الحكم من أيدي الفُرس إلى أيدي التُرك . ولم يكونوا أصحاب ثقافة ولا حضارة ، ولا كان لهم معرفةٌ بإدارة ولا بنظم سياسية ، ففسدت الأداة الحكومية فساداً شديداً . وكانت هناك طبقةٌ تغرق في الترف والنعيم ، وكان جمهور الشعب يعيش في الضنك والبؤس . وظلت الحياة العقلية مزدهرةً بما نُقل - وما كان يُنقلُ - من الثقافات الأجنبية . مما هيأَ لظهور فلاسفة عظام وعلماء بارعين في جميع العاوم اللغوية والبلاغية والنقدية والتاريخية والإسلامية والكلامية .

وصوّرتُ نشاط الشعر حينئذ وكيف تمثّل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً ، وكيف أوْدعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة ، مما جعلهم يجدّون في الموضوعات القديمة والأخرى المُستحدثة في العصر العباسي الأول صوراً مختلفة من التجديد ، تحفيلُ بما لا يكاد يُحصى أو يُستقصى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المُبتدعة . وظلّوا يُنمّون الشعر التعليمي وينظّمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة .

وبحثُ بحثاً تحليلياً تاريخياً أعلام الشعراء في العصر ، وهم علي بن الجهمّ والبُحترى وابن الرومي وابن المعتز والصنوبري ، أما ابن الجهمّ فكان داعيةً للمتوكل يصبح مهللاً مع كل عمل له ، وأروعُ أشعاره ما نظمه في الاستعطاف وفي تصوير صلابة نفسه حين ادهمت له الخطوب ونزلت به الكوارث . وكان البُحترى الشاعر الرسمي في بلاط الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد ، وأشعاره تمثل النزعة المحافظة التي سادت حينئذ في الشعر ونقده وتذوقه ، مع ما سُخرَ

له فيها من تلاوين الجمال الموسيقى الأسر وأنغامه وألحانه الرائعة ، ومع مهارته في وصف المعارك البحرية ومظاهر الحضارة والعُمُران . وكان يقابله ابن الرومي ممثل النزعة التجديدية في الشعر وموضوعاته وأساليبه ومعانيه ، وقد نفذ بعبقريته النادرة إلى لون جديد من شعر الطبيعة الرائع ولون جديد آخر من الهجاء الساخر ، غير أفكار وخواطر وتصويرات لم تخطر لمعاصريه ولا لسابقيه على بال . وتبرز حياة ابن المعتز وبيئته المترفة ومأساة أبيه وجده في أشعاره ، وهي تزخر بالصور والأخيلة . وكان الصنوبري يُعنى بصنغته الشعرية ، وهو من شعراء الطبيعة ، ويُعدّ أول ناظم للثلجيات في العربية .

وعرضتُ لكثيرين وراء هؤلاء الأعلام ، ووزعتهم على طوائف متقابلة ، فشعراءُ للسياسة مع الخلفاء العباسيين أو مع الشيعة أو مع بعض الثوّار ، وشعراء لبعض الوزراء والولاة والقواد ، وشعراء هجاء عاديّ أو مرير ، وشعراء غزل غفيف أو ماديّ صريح ، وشعراء لهُو ومحجون ، وشعراء زهد وتصوف ، وشعراء شعبيون . وحاولتُ أن أتحدث في كل طائفة عن خير من يمثلونها ، مع تصوير موجز لشخصياتهم الأدبية .

ومضيتُ أبحث النثر والتحام الفلسفة فيه بالعبارة الأدبية مصوراً كيف تعاونتُ بيناتٌ مختلفة في وضع مقاييسه البلاغية ، وكانت الخطابة قد ضعفت ، ولكن الوعظ نشط نشاطاً واسعاً ، وتحول من مواعظ زُهدية إلى مواعظ صوفية ، وأخذ ينشأ نثر صوفيّ شعبيّ يعتمد على القصص والحكاية بأسلوب بسيط تفهمه العامة . وتكثر المناظرات في جميع البيئات العلمية ، وتصبح من طوابع الكتابات الأدبية . وتُجمعُ أقاصيص كثيرة عربية وغير عربية في صور متقابلة من القُدح والمدح . وتظل الرسائل الديوانية مزدهرة بفضل كتّابها النابهين . وتنشط الرسائل الإخوانية ، ويساعد ضيق رُقعتها على أن يتكاثر فيها التأنق والتنميق . ويكتب ابن المعتز رسالةً أدبية يملؤها بسجع كثير . ولا نصل إلى عصر الخليفة المقتدر حتى يصبح السجع اللغة العامة للنثر الأدبي جميعه .

وبحثتُ أعلام الكتاب حيثُذ ، وهم إبراهيم بن العباس الصوليّ ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، وسعيد بن حميد ، وأبو العباس بن ثواب . وكان الصوليّ أول رئيس

لديوان الرسائل في العصر ، وعنه كانت تَصْدُر الكتابات الديوانية من منشورات وغير منشورات ، وهو يُعْنَى بدقة ألفاظه واصطفاء كلماته وحُسْن جَرَسِهَا في الأداء . والجاحظ أكبر كَتَّاب العصر غير منازع ، وكتاباتهِ رآة صافية لعصره بجميع طبقاته ، مع ما يَسْتَرى فيها من الاستطراد ومن روح الدعابة ، ومع ما تموج به من أسلوب الازدواج الرائع . وقد عرضت خمسة ألوان من فنه النَشْرى ، هى المناظرة ، والرسائل الإخوانية ، والرسائل الأدبية ، والقَصَص ، والنوادر . وابن قتيبة أكبر مؤلف أدبى بعده ، وهو يمزج في كتابه : « عيون الأخبار » بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية وكذلك ثقافة أهل الكتاب . وبذلك ألغى الحواجز بين تلك الثقافات مَثْبِتاً أنها أقواس وهمية ، فقد استخالت جميعها في كتابه ثقافة عربية ، وقلما ارتفع بعده أصوت للشعبوية . ويتشبه ابن قتيبة كثيراً بالجاحظ في تمسكه بالواقع ومزج المزج بالجد وفي استخدامه لأسلوب الازدواج من حين إلى حين . وما زال سعيد بن حميد يَرْقَى في الدواوين ، حتى تُسَنِّد له ديوان الرسائل ، وكان يُعْنَى بالتدقيق في ألفاظه ومعانيه ، نافذاً من خلال حَيْلٍ عذبة كثيرة إلى أفكار مبتكرة طريفة ، مع تقطيعات صوتية تُضْفِى على أسلوبه جمالا . ويَلْمَعُ اسم أبى العباس بن ثَوَابَة ، وكان بدوره من رؤساء ديوان الرسائل ، وكان يكثر من التأنيق والتكلف في كتابته ، مما جعله يَسْتَعْمِل فيها أحياناً السجع ، مع العناية بالتصوير ، ومع وزن الكلام بمعيار بيانى دقيق . والله وَلِىُّ الْهُدَى والتَّوْفِيق .

القاهرة في أول مايو سنة ١٩٧٣ م .

شوقى ضيف

الفصل الأول

الحياة السياسية

١

استيلاء الترك على مقاليد الحكم

مرّ بنا في العصر العباسي الأول كيف هيأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريّة لإمام هاشمي يخلّص الموالى فُرْسًا وغير فرس من حكم بني أمية الجائر، محقّقاً لهم المساواة المشروعة - بحكم الإسلام - بينهم وبين العرب في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاء مبرماً . وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم والخلافة، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين ، مما جعل كثيرين منهم يثورون عليهم طوال العصر ، كما جعل أنصارهم يدعون لبيتهم العلوي سرّاً كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، في حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم والسلطان وتمادوا في حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجب ، أما الشعب فلم يزد في رأيهم عن أن يكون أدوات مسخرة لجمع الخراج والضرائب الفادحة ، مما دفع أقيام ثورات إيرانية مختلفة ، على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول . وحقّاً كانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس ، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد ، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية ، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بني سهل . ونشب من جرّاء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب ، فالعرب يريدون استرداد مجدهم في العصر الأموي والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث في الدولة ، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقّاً ، مما أعدّ

لظهور تيار شعوبى بغىض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلُّ عنه عنُفًا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعًا . وفى أثناء ذلك كانت الثورات مضطربة فى شرق الدولة ، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى ، وكان آخرها اندلاعًا ثورة بابك الخرمى فى آذربيجان التى ظلت نحو عشرين عامًا ، والتى كلفت الدولة كثيرًا من الجيوش إلى أن سَحَقَهَا المعتصم وقواده سَحَقًا .

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى الفرس ، فنوراتهم لا تنقطع ، وأهاليهم فى إحياء مجدهم القومى لا تعمد ، واستظهارهم للشعبوية والزندقة لا تهدأ فورته ، وهذاه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ظلال الرماح ، مع حذقه بالرى بمنة ويسرة ومقبلا ومدبرًا ، وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق ، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفرغانة وأشروسنة إلى أن بلغت عدته ثمانية عشر ألفًا^(١) ، وكل يوم يزيد ، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها . وكان جمهور هذا الرقيق بدوًا جفأ فكانوا يركبون الخيل ويركضونها فى الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء ، مما اضطر المعتصم أن يبنى لهم مدينة سامراء^(٢) شمالى بغداد ، وانتقل معهم إليها ، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتصم سنة ٢٧٦ للهجرة .

وكان ذلك تحولًا خطيرًا فى تاريخ الدولة العباسية ، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبشوها فى الحياة العربية ، وأعدوا لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة ، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية . أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة ، إذ كانوا بدوًا لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة ، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس ، وقد صوَّروهم الجاحظ تصويرًا دقيقًا فى رسالته التى

(١) النجوم الزاهرة ٢ / ٢٣٣ .

وسامراء فى دائرة المعارف الإسلامية وبلدان الخلافة الشرقية تاليف لسترانج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد .

(٢) انظر فى تخطيط سامراء والسبب فى بنائها كتاب البلدان للياقوتى ومعجم البلدان لياقوت

تحدث فيها عن مناقبهم قائلا: « الترك أصحاب عَمَد (خيام) وسكان فياف وأرباب مواش ، وهم أعراب العجم . . . فعجن لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ، ولا غَرْسٌ ولا بُشْيَانٌ ولا شَقٌّ أنهار ولا جباية غلَّات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصَّيْد وركوب الخَيْل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت همهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهن وملكتهن وفخرهن وحديثهن وسمرن ، فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات... وكآل ساسان في الملك والرياسة » .

وهؤلاء البدو الموغلون في البداوة الذين لم يُعرَفوا بمحضارة ولا ثقافة ولا عُرُفوا بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسلطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم ، والمعتمَص هو الذي هبَّأ لهم ذلك لا يجعلهم جُنْد الخلافة العباسية فحسب ، بل أيضاً باتخاذهم لهم مدينة خاصة وجعلها عاصمة الدولة ، فأتاح لهم الفرصة كي يُخَلِّقَ بينهم في المستقبل وبين الخلفاء ، فيصبحوا مسخرين بأيديهم يصرفونهم كما يشاءون . وليس ذلك كل ما صنع فقد ولَّى كبيرهم « إشناس » مصر وجعل له الحق في أن يولَّى عليها ولاية من قبيله ، فكان يُدْعَى له فيها على المنابر^(١) . وبذلك فتح المعتمَص الباب لقواد الترك كي يمسكوا بزمام الشؤون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشؤون العسكرية . وخلفه ابنه الواثق فزاد الطين بِلَّةً إذ ولَّى إشناس من بابه في بغداد إلى آخر أعمال المغرب ، جاعلا له أمر كل هذه البلدان يولَّى عليها من شاء بدون مراجعته ، واستخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين بجوهر^(٢) . وليس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك ، فقد ولَّى على الجانب الشرق للدولة من كُور دجلة حتى خراسان والسند « إيتاخ »^(٣) حتى إذا توفى إشناس سنة ٢٣٠ منحه مَرَّتَبته وأكثر أعماله^(٤) . ولم يقف تجنُّى الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد ، فقد ارتكب خطأ خطيراً في حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولي عهد بعده للخلافة ، وسرعان

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٩ .

(٢) اليعقوبي ٣/ ٢٠٥ .

(٣) اليعقوبي (طبعة النجف) ٢٠٥/٣ .

(٤) اليعقوبي ٣/ ٢٠٦ .

والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٥٢ .

ما استغلّ قوادُ الترك : إيتاخُ وصاحباه وصيف وبُغا الكبير هذه الفرصة حين توفى سنة ٢٣٢ للهجرة ، إذ حملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل ، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك ، وعمّا قليل سيصبح عزلهم — كما سنرى — بأيديهم ، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه ، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسي الثاني .

ويبدو أن المتوكل تنبّه — منذ استيلائه على الحكم — إلى خطورة ازدياد النفوذ التركى ، مما دفعه إلى التخلص سريعاً من إيتاخ ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالى وديوان الخبر أو البريد والحجّابة والقيام على دار الخلافة ، وكأنه نائب للخليفة ، بل لئلاً ما أصبح الخليفة ولا سلطان له ، مما جعل المتوكل يوحى إلى بعض أوليائه أن يثيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج ، وما إن خرج من سامراء وأبعد في الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجّابة وولاها وصيفاً التركى ^(١) . وهى سياسة سيتبناها الخلفاء بعد المتوكل أن يضربوا قواد الأتراك بعضهم ببعض . وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيداً بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥ . ولكن المتوكل لم يسدّد للترك ضربة قاضية ، بل أخذ يراوغهم ، مما جعله يضيف بُغا الكبير إلى وصيف في الحجّابة . وتتوالى السنوات وهو ضيقُ بقيادة الترك ويفكر في التخلص منهم جميعاً ويهديه تفكيره في سنة ٢٤٣ أن يترك سامراء ويتخذ دمشق حاضرة له ، حتى يصبح بمنأى عن الترك وشروهم ، ويستشخصُ إليها في ذى القعدة ، ويبدو أن فكرته ذاعت في الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبى ينشد من قصيدة طويّة ^(٢) :

أظنّ الشام تشمت بالعراق إذا عزم الإمام على انطـلاق
فإن تدع العراق وساكنيها فقد تُبلى المليحة بالطلاق

ودخل المتوكل دمشق في صفر لسنة ٢٤٤ عازماً على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها ، وأمر أن يُبَسّى له بها بعض القصور . غير أن الترك فطنوا لمأربه ، وأنه يريد الإطاحة بهم فطالبوا بروتبهم ، وهو سيف سيظلون يشهرونه على الخلفاء

(٢) الطبرى ٢٠٩/٩ .

(١) تاريخ الطبرى (طبع دار المعارف)

١٦٧/٩ وما بعدها .

كلما أرادوا منهم أمراً أو أرادوا لهم عزلاً ، واضطر المتوكل أن ينزل على إرادتهم وأن يبرح دمشق بعد نحو شهرين^(١) . وعادته الفكرة ، ولكن لا بعيداً ، بل قريباً ، شمالى سامراء ، إذ فكر فى انتقاله إلى الماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ منها وأقطع القواد وحواشيه فيها ، سماها « الجعفرية » ، وبنى لنفسه فيها قصره « الجعفرى » وقصراً سماه « اللؤلؤة » وقصوراً أخرى . وفى أثناء ذلك أخذ يحفّو الترك ويحيل الآراء فى استئصالهم والاستبدال بهم ، وكان أول ما صنعه من ذلك أن ضمَّ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان اثنى عشر ألفاً من العرب^(٢) ، وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته . وترامت شائعات بأنه يريد أن يفتك بحاجبيه وصيف وبُغا الكبير وغيرهما من قواد الترك ، فصمّموا على مبادرتهم ، وكانت الأمور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولى عهده ، فوضع يده فى أيديهم ، وعزموا على قتله والتخلص منه ، وأعدّوا لذلك نفرّاً من أصاغر الترك . منهم بُغا الشراى وباغر وموسى بن بُغا الكبير فدخلوا عليه هو ووزير الفتاح بن خاقان فى ليلة من ليلالى شوال سنة ٢٤٧ للهجرة ، وقتلوهما غير مراعين فيهما عهداً ولا ذِمّةً^(٣) . ومن حينئذ أصبح للترك كل شىء فى الدولة ولم يعد للخلفاء شىء ، وفى ذلك يقول ابن الطقطقى : « استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه »^(٤) .

واعتلى المنتصر عرش الخلافة بأيدى قتلة أبيه من الترك ، بايعوه ثم أخذوا له البيعة من الناس ، ولم يلبثوا أن حضّموه على خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بعده ، وكان المتوكل أبرمهما لهما مع المنتصر ، فخشى الترك أن يخلفه أحدهما فيبطش بهم ثاراً لأبيه ، وتسمَّ خلعهما . وتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته لسنة ٢٤٨ فاجتمع بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش ابن أخت بُغا الكبير ، وكانوا قد أخذوا المواثيق على من سواهم من قواد الترك والمغاربة والأشروسنية على

(١) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار

(٣) طبرى ٢٢٥/٩

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع

الأندلس) ٣٢/٤ والطبرى ٢١٠/٩ .

(٢) التنبية والإشراف للمسعودى (طبعة أوروبا)

المطبعة الرحمانية بمصر) ص ١٨١ .

أن يرتضوا من يرضونه للخلافة، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم وأقبوه بالمستعين ، وبايعوه وبايعه الناس . وتوفى بغا الكبير وأصبح أوتامش المتصرف الأول في شؤون الدولة ، وأخذ يخزن أموالها هو وشاهك وأم المستعين ، فكل ما يرد من الآفاق يصير إلى الثلاثة ، ووصيف وبغا الشراي الصغير بمعزل من ذلك مما أثار حفيظتهما على أوتامش وجعلهما يغريان به القواد الآخرين حتى ثاروا عليه وسفكوا دمه وانتهبوا داره^(١) . واستدارا إلى باغر قاتل المتوكل ، وكان شره قد تعاظم في قصر الخلافة فقتلوه بدوره . وسُم المستعين حركات الترك ودسائسهم ، فرأى النزول إلى بغداد والاستقرار بها ، وجزعوا لصنيعه ، فأرسلوا إليه وفداً يسترضيه سنة ٢٥١ ، ولكنه رفض العودة إلى سامراء ، فخلعوه ، وبايعوا المعتز بالله ولي العهد القديم للمتوكل بعد المنتصر ، فكان هناك خليفة مولى بسامراء وخليفة معزول ببغداد ، هو المستعين ، ونشبت الحرب بينهم وبينه ، وحاصروا بغداد ، وما زالوا به حتى خلع نفسه من الخلافة وانحدروا به إلى « واسط » وهناك تم تدبير قتله^(٢) . وبذلك أصبحت الخلافة خالصة للمعتز سنة ٢٥٢ وسُمع بأن نفرأ من الترك يراودون أخاه المؤيد على تولي الخلافة وعزله ، فسجنه ثم فتل به . وأخذ يحاول الفتك بقواد الترك مستثيراً ضدهم المغاربة والفراغنة ، وفتك بوصيف وبغا الشراي الصغير قاتل أبيه ، يقول المسعودي : « ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة في إفنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وجعلوا يقرعون بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال (رواتبهم) وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك^(٣) . وأرسلوا تنواً إلى بغداد في طلب محمد بن الواثق ، وأمروا المعتز بأن يخلع نفسه من الخلافة وصدع بأمرهم ، وبايعوا محمداً وأقبوه بالمهتدي ، وسجنوا المعتز ثم قتلوه سريعاً . وحاول المهتدي أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز في العدل ورفع المظالم والاقتصاد في النفقات ، ويقال إنه أمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكُسرت وضربت دنانير ودرهم ، وقرب العلماء ورفع منازل الفقهاء وحرّم الشراب ونهى عن القيان فنقلت وطأته على الخاصة والعامة . وكان قد مضى مثل ابن عمه المعتز يفتك برؤساء الأتراك وقادتهم

(٣) مروج الذهب ٩٣/٤ .

(١) طبرى ٩/٢٦٣ .

(٢) طبرى ٩/٣٤٨ ومروج الذهب ٤/٧٧ .

وفي مقدمتهم صالح بن وصيف وبايكباك أحد زعمائهم ، فقتلوه في رجب (١) سنة ٢٥٦ .

ويتولى الخلافة المعتمد أحمد بن المتوكل ، ببايعه الترك ثم تبايعه العامة ، وكانت ثورة الزنج قد نشبت في عصر المهتدي ، وعشياً استطاع قواد الترك أن يُجهزوا عليها ، إذ استفحل شرها وتفاقم ، فضعف شأنهم من جهة ، وشغلوا من جهة ثانية عن لعبهم المعتاد بالخلفاء ، وخذلهم وسفك دمائهم . ويتاح للمعتمد ودواته قائد عظيم من أهل بيته هو أخوه أبو أحمد طلحة الملقب بالموفق فيفقد بنفسه المعارك مع الزنج ومع مَنْ ثاروا بليزان ويكتسب له الظفر والقضاء على الزنج قضاء مبرماً ، وبذلك يرد إلى الخلافة العباسية هيبتها ، ويحسنى الترك رعوسهم لها ولا نعود نسمع بفقنة حُجَّاب الخليفة عليه وتدبيرهم لخلعه ، وكانوا حينئذ يارجوخ وكيغلف وكنمر بن طاشتمر ، وقد ظلوا جميعاً يصدعون لأوامره وأوامر أخيه الموفق حتى توفيا جميعاً ، وبويع من بعده لسنة ٢٧٩ ابن أخيه الموفق أبو العباس أحمد ولقب بالمعتضد ، وكان قد أبلى مع أبيه في حرب الزنج وغيرها من الحروب بلاء حسناً فهابه الترك وقوادهم ، ونزاه في سنة ٢٨٢ يقبض على كبيرهم بكنمر بن طاشتمر ويسجنه ويصادر أمواله وضياعه ولا يحركون ساكناً رهبة منه وهيبة له (٢) ، وظلوا من بعده خانعين لابنه المكتفي الذي ولي الخلافة سنة ٢٨٩ غير أنه اقترف خطأ فاحشاً إذ ارتضى أخاه المقتدر وهو صبي ولياً للعهد من بعده ، وكان حرياً به أن يجعل ولاية العهد في شخص حصيف من أهل بيته يستطيع أن يقف الترك وقادتهم عند حد من السلطان لا يتجاوزونه . وتوفي سنة ٢٩٥ فخلفه المقتدر وهو في الثالثة عشرة من عمره ، وعظم كلام الناس فيه ، وقالوا كيف يلي الخلافة من لم يبلغ الحلم ، وأجمع أمرهم على أن يتولاها عبد الله بن المعتز ، وأخذ له البيعة على الناس محمد بن داود ابن الجراح الفقيه والأديب المشهور ، وبايعه القضاة والعدول ، وتلقب بالمنتصف وقيل بالراضى وقيل بالقائم بالحق وتقلد ابن الجراح الوزارة ولكن الأمر لم يدم له أكثر من يوم وليلة ، إذ ثار الترك عليه يتقدمهم كبيرهم مؤنس ، وأخذ عنوةً وقُتل ، وتفجّع عليه كثير من الشعراء . أما ابن الجراح فاستمر مدة ثم انكشف أمره ،

(٢) طبرى ٤٠/١٠ .

(١) طبرى ٤٥٦/٩ ومروج الذهب ٩٦/٤ .

وقُتِل بدوره ، وعادت الخلافة إلى المقتدر^(١) ، وعاد الترك إلى نفوذهم القديم قبل المعتمد وأخيه الموفق . وزاد الأمور سوءاً أن أم المقتدر « شغب » وهى أم ولد رومية شربت مؤنساً فى تصريح شئون الحكم والسياسة ، فكانت الوزارة لا تُسندُ إلى شخص فى عام حتى ينجح عنها فى عام قابل ، ودارت الأيام ، فإذا مؤنس يسخط على المقتدر وتعود مع السخط قصة رواتب الجند ، ويتفاقم الأمر بينهما فى سنة ٣١٧ ويُعزَلُ الخليفة ويولَّى أخوه محمد ويلقب بلقب القاهر بالله ، ويُرْتَقَى الفتق بين مؤنس والمقتدر فيعيده إلى الخلافة ويحدّد له البيعة^(٢) . وما تلبث السماء أن تكفهر ، فيعود الصدام بين مؤنس والمقتدر ، ويُقتل الخليفة سنة ٣٢٠ ويولَّى مؤنس الخلافة بعده القاهر بالله ، وكان شجاعاً غير أنه كان أحرق أهوج شديد الإقدام على سفك الدماء ، وكان لا يكاد يصحو من سكر ، ومع ذلك حرّم على الناس الخمر والسماع ، واستطاع القضاء على مؤنس ونفر من القواد^(٣) ففسد ما بينه وبين الترك وسرعان ما خلعه سنة ٣٢٢ وسملوا عينيه^(٤) ، وبايعوا بعده الراضى بالله أبا العباس أحمد بن المقتدر ، وظل إلى الخلافة حتى توفى سنة ٣٢٩ ، وفى عهده تغلب أصحاب السيوف ولم يعد للخليفة سوى الاسم . وكان شاعراً بليغاً سمحاً واسع العطاء مات وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، وخلفه أخوه المتقى بالله ، وكان تقياً صالحاً ، إلا أنه لم يكن على بصر بالحكم والسياسة ، فحدثت فى زمنه فتن وحروب كثيرة بين الجند ونُهب دار الخلافة ، وقُبِض عليه لسنة ٣٣٣ وخُلِع وسُملت عيناه^(٥) . وتولاها بعده المستكفى بالله ابن المكتفى ، ولم يكد يدور به عام فى خلافته حتى نزل معز الدواة البويهى ببغداد ، فلقبهُ المستكفى بأمر الأمراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقد له لواء . غير أن معز الدواة لم يلبث أن أمر بالقبض عليه ، فخُلِع من الخلافة ونُهب داره وسُملت عيناه^(٦) ، وبذلك ينتهى العصر العباسى الثانى بدخول البويهيين القرس ببغداد وزوال تسلط الترك وقوادهم على مقاليد الحكم دون مآب .

والهمدانى ص ٨٠ .

(١) طبرى ١٠/١٤٠ - ١٤١ .

(٥) الفخرى ص ٢١٠ ومروج الذهب ٤/٢٤٧ .

(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع المطبعة .

والهمدانى ص ١٤٣ .

الكاثوليكية ببيروت) ص ٥٨ .

(٦) مروج الذهب ٤/٢٧٦ والفخرى ص ٢١٢ .

(٣) مروج الذهب ٤/٢٢١ والهمدانى ص ٧٨ .

والهمدانى ص ١٤٩ .

(٤) مروج الذهب ٤/٢٢١ والفخرى ص ٢٠٥ .

تدهور الخلافة

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل في السنوات الثمان التي تلتها ، ثم منذ عصر المقتدر ، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة ، ولم يكن للخلفاء حينئذ أى سلطان ، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولّونهم ويعزّونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم ؟ وصوّر ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ، فقال ^(١) :

خليفةٌ في قَفَصٍ بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالوا له كما يقول البُغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون ببغاء في قفص يردّ ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه ، فالأمر كله لحاجبيه : وصيف وبغا ، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذنبيهما خلعه ، وولّيا بعده المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) ويروى أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابه المنجمين وسألوهم كم يظل خليفة للمسلمين ؟ وكم يعيش ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ فقال : طالما أراد الترك ذلك ، فلم يبق في المجلس أحد إلا غلبه الضحك ^(٢) . ولم يمكث المعتز في دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه ، ولولوا بعده المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) وكان حسن السيرة ورعاً تقيّاً اطرح الملامى وحرّم الشراب والغناء ، وكأنما آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه ، ولولوا المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ، وكان منهمكاً في اللهو واللذات غير أن أخاه طلحة الذى لُقب بالموفق نهض بالأمر من دونه فنبّت الخلافة إلى أبعد حد ، وأعاد إليها بحزمه وعزمه وجِدّه هيبتها ومكانتها المهذرة ، وقد ترك

(٢) الفخرى ص ١٨١ .

(١) مروج الذهب ٦١/٤ .

أخاه عاكفاً على ملذاته ، واحتمل أعباء الخلافة في البطوة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب ، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيقي ، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصور ذلك بنفسه قائلاً (١) :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذُ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

وتصادف أن توفي الموفق قبل المعتمد بقليل وكان ولياً للعهد ، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلا مغواراً ، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، فأكل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة ، فلم يرتفع للترك في عهده صوت ، وكان اسمه - كما مرّ بنا - أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله ، وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان المعتضد شجاعاً مهيباً أسمر نحيفاً معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجال بني العباس وشجعانهم ، كان يتقدم إلى الأسد وحده » ، ويقول : « هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده في إداره » (٢) . وخلفه ابنه المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وكان قصير النظر فاتخذ ولي عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبيّاً ، فولى بعده الخلافة (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ، وسنه ثلاث عشرة ، فكأن كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد أقوضه في لحظات ، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء ، وزادوا ستمل الأعين .

وإذا كان المكتفي أخطأ في أواخر العصر بتولّي أخيه المقتدر للعهد وهو صبي فإن المتوكل اقترف بدوره خطأ عظيماً في أوائل العصر ، إذ عقد ولاية العهد لثلاثة من أبنائه (٣) ، وكان حريّاً به أن يتعظ بجمده الرشيد وتوليته العهد للأمين والمأمون والقاسم ، مما جرّ بلاء كبيراً ذهب صحبته الأمين وأحرقت بغداد على نحو ما مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول ، فكان حريّاً بالمتوكل ألا يعرض أبنائه

(١) الديارات للشابشي (الطبعة الثانية - مطبعة . (٣) طبرى ١٧٥/٩ وروج الذهب ٥/٤

والنجوم الزاهرة ٢٨٠/٢

المعارف ببغداد) ص ١٠١ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٧/٣ - ١٢٨ .

للتنافس على الخلافة ، وكان المنتصر أولهم في الولاية ، وبليه المعتز والمؤيد ، فأوغر المتوكل صدره حتى أصبح خصماً له . وإذا كانت حادثة الرشيد جرّت مقتل ابنه الأمين فإن صنيع المتوكل أدى إلى مقتله وسفك دمه . وكأن المتوكل هو الذى هباً للترك أن يغلبوا على الخلافة وأن يصبحوا هم أصحاب السلطان الحقيقى يولّون ويَعزّلون ويَسْجِنون ويقتلون ، وتماذوا في ذلك حتى ردّ الموفق إلى الخلافة مهاجتها ، وتبعه في صنيعه ابنه المعتضد ، واكن لم يلبث المكثف أن هوى بها من حائق ، فعاد إلى الترك كل سلطانهم وكل بغيهم وعدوانهم على الخلافة والخلفاء .

وكان من أهم الأسباب في تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست في اللهو والترف والإقبال على كل متاع مادي من بناء قصور باذخة ومعيشة كُفّلت لها كل وسائل النعيم وأدواته ، وأولهم المتوكل ، ونراه لا يبنى لنفسه بسامراء قصرأ واحداً ، بل قصوراً ينفق عليها أموالاً طائلة ، منها الشاه والعروس والشبذاز والبديع والغريب والبرج ، ويقال إنه أنفق على القصر الأخير مليوناً وسبعمائة ألف دينار . وبنى في سنة ٢٤٦ بالمحوزة على بعد ثلاثة فراسخ من سامراء شمالاً قصوراً عدة ، منها الجعفرى والهارونى واللؤلؤة ، كلفته ملايين الدنانير ^(١) . ويروى أنه سأل شخصاً حين أتمَّ بناء الجعفرى كيف قولك في دارنا هذه ؟ فأجابه بقوله : إن الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في دارك ^(٢) ، وهو سَفَهٌ وخُرْقٌ ، فالخليفة لا يفكر إلا في نفسه وملذاته ، وكأن ليس هناك جيوش تُعَدُّ لحرب بأسلحتها وعددها الكثيرة ، وكأن ليس هناك رعية يقوم الخليفة على مصالحها ، فيبنى لها المستشفيات ويوفر لها الغذاء والكساء ، بل الرعية تكدح وتشقى وتذوق مرارة الشقاء والكدح لينعم الخليفة ويلهو ويبنى القصور ويملأها بالبحارى من كل لون . وتبع الخلفاء المتوكل يقتدون بسيرته السيئة ، ما عدا المهتدى والمتقى وكانت مدة خلافتها قصيرة ، وحتى المعتضد الفارس الحازم حزمأ لا يدانيه حزم يقول عنه المسعودى لم تكن له رغبة إلا في النساء والبناء ، ويذكر أنه أنفق على قصره المعروف بالثرى أربعمائة ألف دينار ، وكان مجموعة من الدور والقصور تمتد ثلاثة فراسخ ^(٣) . ثم تكون النكبة الكبرى بتولى المقتدر الخلافة وهو صبي ، ويقال إنه كان في قصره أحد عشر

(٢) مروج الذهب ١٤٧/٤ .

(٣) مروج الذهب ١٤٥/٤ .

(١) معجم البلدان في سامراء والطبرى ٩/٢١٢ .

ومروج الذهب ٤٠/٤ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ .

ألف غلام خصي من الروم والصقالبة والسودان ، ويقال أيضاً إنه أتلف من الأموال ثمانين مليوناً من الدنانير ^(١) غير ما بدده من الجواهر الثمينة التي كانت تحتفظ بها خزائن الدولة منذ خلفائها الأوائل .

وطبيعاً أن يقضى هذا السفه على هيئة الخلافة وأن يستلها الترك وخاصة حين يطلبون للجيش رواتبه فيجدون الخزينة خالية الوفاض . وقد فسد حينئذ الحكم فساداً شديداً ، إذ كان الوزراء يرتشون ومثلهم الولاة على الأقاليم وكبار الكتاب ، بل إنهم جميعاً كانوا يختلسون أموال الخراج والضرائب وما كان يصير إلى الدولة من البلدان المختلفة ، وقد بدأ هذا الوباء بأخرة من العصر العباسي الأول في زمن الواثق إذ صادر في سنة ٢٢٩ للهجرة كتاب الدواوين واستخلص منهم نحو مليون دينار ^(٢) ، وكلما تقدمنا في العصر العباسي الثاني اتسع الخرق ولم يعد من الممكن رتقُه ، ولذلك مظهر واضح هو كثرة المصادرات لأموال الوزراء والكتّاب ، إذ نرى المتوكل يصادر أموال ابن الزيات وزير آبائه ، ويصادر أموال كاتبه عمر بن الفرج الرُّخَجِيّ ، ويقال إنه أخذ من أمواله ما قيمته مائة وعشرون ألف دينار وأخذ من أخيه نحو مائة وخمسين ألفاً ^(٣) ، ونكب كاتباً ثانياً استوزره مدة قليلة يسمى أبا الوزير واستخلص منه مائتي ألف دينار ^(٤) ، ونكب كاتباً ثالثاً من كتاب التوقيع يسمى نجاح بن سلمة وأخذ منه ومن ابنه مائة وأربعين ألف دينار ^(٥) ، ونكب القاضي أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد واستخلص منه مائة وستين ألف دينار ^(٦) ، ونكب يحيى بن أكرم قاضي قضاياه واستخلص منه خمسة وسبعين ألف دينار ^(٧) . وأثرى قواد الترك في السنوات التي تلت ثراء فاحشاً وأثرى كثير من الوزراء . ونرى المعتمد يصادر أموال وزيره إسماعيل بن بلبل ويسفلك دمه كما يصادر أموال وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ويستخلص منهما تسعمائة ألف دينار ^(٨) .

ومعنى ذلك أن الوزراء ومثلهم الكتّاب والولاة كانوا يختلسون أموال الدولة والأمة ، ويخيّل إلى الإنسان أنه لم يعد هناك موظف كبير في الدولة لا يقترف

(١) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣٤ .

(٥) طبري ٩/ ٢١٥ .

(٦) مروج الذهب ٤/ ١٤ .

(٢) طبري ٩/ ١٢٥ .

(٧) طبري ٩/ ١٩٧ .

(٣) طبري ٩/ ١٥٨ ومروج الذهب ٤/ ١٩ .

(٨) النجوم الزاهرة ٣/ ٤٠ .

(٤) الفخري ص ١٧٧ .

هذه الجريمة النكراء . وكان الولاة يرشون الوزراء ليظلوا في ولاياتهم ، وبلغت الرشوة أحياناً مائتي ألف دينار غير ما يرافقها من التحف والهدايا^(١) ، وحتى رجال الحسبة كانوا يرتشون ويختلسون الأموال ، في أثناء مراقبتهم للتجار وحركة البيع والشراء في الأسواق على نحو ما يروى عن أحمد بن الطيب بن مروان السرخسي الفيلسوف ، إذ خان الأمانة في ولايته الحسبة ببغداد ، وكان جملة ما أخذَه مائة وخمسين ألف دينار^(٢) . ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان يتورط في هذا الاختلاس وما يطوى فيه من الرشوة أكثر موظفي الدولة ، وخاصة من كانوا منهم يقومون على جباية الضرائب وأموال الخراج ، وكثيراً ما كانوا يعدّون أصحاب الضياع والأعيان وذوى الوجاهة بالضرب والسحب على الوجوه والرسف في القيود وصَبُّ الزيت على رؤوسهم أو النفط وتعليقهم في الجُدر من أيديهم وأرجلهم ، حتى يستخرجوا منهم كل ما يريدون من أموال ، ويصور ذلك ابن المعتز في أرجوزته^(٣) التي أرخ فيها خلافة المعتضد وأعماله الجلييلة مبيّناً كيف كانت تجبى أموال الخراج قبله في قسوة بل في عنف بل في أهوال من التعذيب والتنكيل ، يقول :

فَكَمْ وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ نَبِيلٍ	ذِي هَيْبَةٍ وَمَرْكَبٍ جَلِيلٍ
رَأَيْتُهُ يُعْتَلُّ بِالْأَعْوَانِ	إِلَى الْحُبُوسِ وَإِلَى الدِّيَوَانِ
وَجَعَلُوا فِي يَدِهِ جِبَالاً	مِنْ قَنْبٍ يَقْطَعُ الْأَوْصَالَ
وَعَلَّقُوهُ فِي عُرَى الْجُدَارِ	كَأَنَّهُ بَرَادَةٌ فِي الدَّارِ
وَصَفَّقُوا قَفَاهُ صَفْقَ الطَّبْلِ	نَضْباً بَعِينَ شَامِتٍ وَخِلٍّ
وَصَبَّ سَجَّانٌ عَلَيْهِ الزَّيْتَا	فَصَارَ بَعْدَ بَرْقَةٍ كُمَيْتَا

وبعضى ابن المعتز فيذكر أنهم ما يزالون يعدّون المرء بصنوف العذاب حتى لا تبقى فيه قدرة على المقاومة ، فيتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار كي يقرضوه بعض أموالهم ، أو حتى يبيعهم بعض عقاره ، وأن يُوجَّاهوه لذلك خمسة أيام . وبعد لأيٍ يجعلونها أربعة ، ويأتيه أصحاب الربا الفجرة ، فيقرضونه واحداً

(٣) انظر الديوان (طبعة دار صادر بيروت)

(١) الفخرى ص ١٧٨ .

(٢) مروج الذهب ١٧٠/٤ .

بعشرة ، ويكتبون عليه صكاً بأنه باع ضيعته ، وينزل على إرادتهم ، حتى يخلص من هذا التعذيب الذى لا يطاق بدفع ما يريده أرباب الحراج . ويقول ابن المعتز إن المعتضد أزال هذا التعذيب وقمع هذا الظلم الصارخ ، ولكنه كان قمعاً إلى أجل محدود ، إن كان حقاً قمعه أو استطاع قمعه . وبصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الجباة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة ، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة ، فقد كانوا يدعون عليه أن لاسلطان عنده ودائع يجب أن يردها ، وكانوا لا يزالون يتفننون فى تعذيبه :

حتى إذا ملَّ الحياةَ وضَجِرَ وقال ليت المال جمعاً فى سَقَرِ
أعطاهمُ ما طلبوا فأُطْلِقَا يستعمل المشى ويمشي العنقا

والعنقُ مشية سريعة . وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب ، فهو يطير طيراناً . وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثاً ضخماً ، فقد كانوا يحاولون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى ، إذ يسجنونه ، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى ، وما يزالون يضرّبونه ويلكمونه ويصفعونه ، يقول ابن المعتز :

وأسرفوا فى لكمٍ ودفعِهِ وانطلقت أكفهم فى صَفْعِهِ
ولم يزل فى أَضْبِقِ الحُبُوسِ حتى رى إليهمُ بالكيسِ

وكاننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية ، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق . وما إن يجثم عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فساداً لا حد له ، وقد استوزر اثني عشر وزيراً منهم من وزر له المرتين والثلاث ، أولهم ابن الفرات ، ويروى أنه حاسب كتّاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة ألف دينار^(١) ، ولم يلبث المقتدر أن صادره فى سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته ، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من الدنانير^(٢) ، ومع الشك فى أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى فى سنة ٣١٢ وجُد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين^(٣) . وولى الوزارة بعد إقالته الأولى منها

(٣) النجوم الزاهرة ٣/ ٢١٢ .

(١) صلة تاريخ الطبرى لمريب ص ٢٥ .

(٢) عريب ص ٢٩ .

الخاقاني ، وكان سييُ السيرة ، فأخذ يبيع الولايات غير مراعى للأمة عهداً ولا ذمة ، ويقال إنه ولى على الكوفة فى يوم واحد تسعة عشر والياً أخذاً من كل واحد منهم رشوة حسبما تيسر ، وفيه يقول بعض معاصريه^(١) :

وزيرٌ لا يملُ من الرِّقَاعَةِ يولّى ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهلُ الرُّشَا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه

ونعجب أن تُدرّ إقطاعات الوزير فى عهد المقتدر مائة وسبعين ألف دينار سنوياً^(٢) ، ولا يكفيه هذا الراتب الضخم ويختلس ويسرق أموال الدولة والأمة حتى يصبح من ذوى الملايين . وبذلك نفهم كيف كان بعض الوزراء حينئذ يبدل فى سبيل حصوله على الوزارة خمسمائة^(٣) ألف دينار ، مؤملاً أن يستردها فى أسرع وقت . ويروى أن حامد بن العباس حين وزر للمقتدر أهدها بستائناً أنفق عليه مائة ألف دينار وفرشه باللبود الخراسانية^(٤) . واستوزر المقتدر بعده ابن الفرات ثانية ، فاستخلص منه مليوناً وثلاثمائة ألف ، ويقال إنه كان ينفق على موائده يومياً مائتى دينار^(٥) ، فى حين كان المستكنى ينفق بأخرة من العصر على مائده كل يوم خمسين ألف درهم^(٦) . وكان الولاة يستنون سنة الوزراء فى نهب الأموال واختلاسها^(٧) .

وبهذه الصورة كانت أموال الدولة تُختلس وتُسهب ، ينهبها ويختلسها الولاة والكتّاب والوزراء ، ينعمون ويترفون ، والشعب يتمرغ فى البؤس والحرمان والشفاء ، وكأنما تعطلت أداة الحكم ، بل لقد فسد فساداً لا يقف عند حد . وكان مما زاد فى هذا الفساد غلبة النساء على الحكم ، فكان كثير ما يصرفنه بحسب أهوائهن ، وكن يقتنين الجواهر الباهظة الأثمان والضياع والعقارات والأموال الطائلة ، حتى يقال إن المستعين مات وفى خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار ، على حين كان فى خزائن أمه مليون دينار كاملة^(٨) ، وكانت أم المعز أكثر منها جشعاً ، ويقال إن

(١) الفخرى ص ١٩٨ وعريب ص ٢٩-٣٠ .
(٢) الهدانى ص ٥١ .
(٣) الفخرى ص ٢٠٢ .
(٤) الهدانى ص ٢٢ .
(٥) الهدانى ص ٣٦ .
(٦) الهدانى ص ١٤٨ .
(٧) النجوم الزاهرة ١٨٣/٣ وعريب ص ٣١ والهدانى ص ١٣ .
(٨) طبرى ٢٨٤/٩ .

قواد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله خمسين ألف دينار ، فلم يجدها في خزائن الدولة ، ففرغ إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ ، حتى يَفْقِدَ نفسه به من القتل ، فأنكرت أن يكون عندها مال ، وخُلِعَ ابنها وقُتِلَ بعد أيام ، وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف ، ومأله العجب حين وجد في خزانة لها مليوناً من الدنانير ، غير جواهر قُدِّرَت قيمتها بمليون دينار . ولا رأى وصيف ذلك قال : قُبِّحَها الله ، عرَّضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش ، وعندها هذا كله في خزانة واحدة من خزائنها ^(١) . وثالثة الدواهي الطامة شغب أم المقتدر ، وهي أم ولد رومية ، كانت تمسك بيديها زمام الأمر والنهي في الدولة ، وكانت تستعين بقهرمانتها «ثمل» وأقعدتها في الرُصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم ، فكانت تكتب بأحكامها على رفاع الناس بحضرة الفقهاء والقضاة ^(٢) . وأثرت «شغب» حتى كان دخلها في العام من غلات ضباها مليون دينار ^(٣) ، ويقال إنها غضبت على إحدى وصيفاتها ، فاستخلصت ثمل منها مليوناً من الدنانير ^(٤) ، كأن مليون دينار في أيدي نساء القصر وجواريه شيء عادي تتملكه أي وصيفة . وكان المقتدر متلافياً فأنفق أموال الدولة على النساء وأهداهن جواهرها وتحفها النفيسة ، من ذلك إهداؤه الدرة اليتيمة — التي ظل آباؤه يحتفظون بها حقبةً طويلاً — لبعض حظاياها ، وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل . وأهدى حظية ثانية سُبْحَةَ جواهر لم يُرَ مثلاً ، قيمتها ثلثمائة ألف دينار ، وأهدى حظية ثالثة فَصَّ ياقوت اشتراه الرشيد بثلثمائة ألف دينار ، ويقال إنه أنفق على ختان أبنائه ستمائة ألف دينار ^(٥) . وكان كل ذلك وقع في يد معتوه ، فهو ينثره يميناً وشمالاً . واستولى قواد الترك لعهدده على كثير من الإقطاعات والضياح ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفق المتوفى سنة ٣١١ كانت تغل له سنوياً ثلاثين ألف دينار ^(٦) . وكانت قهرمانة شريرة هي علم الشيرازية تستولى على كل أمور الدولة لعهد المستكفي ^(٧) .

وعلى هذا النحو لم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد المقتدر المشنوم ، فقد أصبح

-
- (١) طبرى ٣٩٥/٩ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣ . (٥) الهمداني ص ٦٥ والفخرى ص ١٩٢ .
 (٢) عريب ص ٥٠ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣ .
 (٣) النجوم الزاهرة ٢٣٩/٣ . (٦) عريب ص ٨٠ .
 (٤) الهمداني ص ٣١ . (٧) الهمداني ص ١٤٣ .

الترك والنساء والجند هم الذين بصرّون أمور الدولة ، وعمّ الفساد وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وفسدت أداة الحكم فساداً شديداً ، حتى لنجد أبا جعفر بن شيرزاد حاكم بغداد نيابة عن توزون العهد الخليفة المتقي يؤمّن إيصاً فاتكاً هو حمدي ، ويشترط عليه أن يدفع له شهرياً خمسة عشر ألف دينار ، في حين يكبس هو بيوت الناس بالمشاعل والشموع وينهب منها ما يريد من الأموال والجواهر . ويستظهر ابن تغرى بردى أن هذا اللص هو الذي سُمّي عند العامة في سالف الأعصار أحمد الذنف ، وقصته في ألف ليلة وليلة مشهورة^(١) .

وهيّا ذلك منذ أوائل العصر لا إلى نهب الأموال والجواهر فحسب ، بل إلى نهب الأقاليم والولايات ، فإذا أسره طاهر بن الحسين قائد المأمون تقيم نفسها في خراسان إمارة تظل بها حتى سنة ٢٥٩ غير أن صلتهم بالدولة ظلت حسنة وظلوا يرسلون لها الضرائب ، وكان منهم نفر يتولون شرطة بغداد حتى بعد انتهاء حكمهم لخراسان وما وراء النهر . وفي سنة ٢٤٧ للهجرة استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقيم الإمارة الصفارية في إقليم بلوخرستان شرقي إيران ، ومدّ حدودها حتى شملت كرمان إلى الجنوب من إيران كما شملت أفغانستان والسند ، واستولى على ما بيد محمد بن طاهر آخر الحكام الطاهريين في خراسان . وتوفي يعقوب لسنة ٢٦٥ فخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٧ إذ قضى عليه السامانيون حكام ما وراء النهر . وحدث في سنة ٢٥٥ أن أهدي المعتز بايكباك حاجبه مصر فولّي عليها أحمد بن طواون فاستقلّ بها ومدّ حكمه إلى الشام ، وخلفه على الإقليمين ابنه خمارويه ، وزوج ابنته بوران من المعتضد مشهور . وظلت تلك الإمارة الطولونية في أبناء أحمد بن طواون وأحفاده حتى سنة ٢٩٢ إذ عادت في عهد المكتفي إلى حظيرة الدولة ، فولّي عليها عيسى النوشري ، وتبعه ولاية مختلفون إلى أن وليها محمد ابن طُغْجُج الإخشيد ولايته الثانية سنة ٣٢٣ فأسس بها الإمارة الإخشيدية التي ظلت تلي شئون مصر حتى تسلمها منها المعز الفاطمي سنة ٣٥٨ . وإمارة السامانيين في خراسان وما وراء النهر أطول هذه الإمارات عمراً ، فقد بدأت حوالي سنة ٢٦١ وظلت إلى ما بعد هذا العصر حتى سنة ٣٨٩ وكانت العلاقة بينها وبين الخلافة

العباسية حسنة ، فكان أمراؤها يتولونها بعهود من الخلفاء حتى تكون ولايتهم شرعية ، وأذن لهم الخلفاء في أن تُذكرَ أسماءهم معهم في خطبة الجمعة وأن يضرّبوا أسماءهم على الدنانير ، وكانوا سُنِّيَّين ، ودعم ذلك الصلة بينهم وبين الخلافة .

ولا فصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، فتصبح فارس والرّي وأصبهان والجل في أيدي بني بويه ، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني ، وطَبَرِسْتَان وجرّجان في يد الديلم ، وكرمان في يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر في أيدي بني حمدان ، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريدي ، واليامة والبحرين في يد أبي طاهر الجَسَّابِي القرمطي ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج الإخشيد ، والمغرب وإفريقية في يد القائم بأمر الله ابن المهدي الفاطمي المتلقب بأمر المؤمنين ، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي . ولم يبق في يد الخليفة سوى بغداد ، واستولى عليها منه — كما أسلفنا — البويهيون وخلعوه ، وولّوا المطيع لله ، وأصبحوا هم الذين يولّون الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة ، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمي وأن يُدعى له على المنابر ، وخفّضت نفقاته ، وقُرّرت له نفقة طفيفة .

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني ، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة ، وخاصة ثورتي الزنج والقرامطة ، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقضي بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرماً ، وأما القرامطة فقد ظلوا حتى نهاية العصر يتنازلون الدولة ويتنازلون بها خسائر فادحة في الرجال والأموال ، وأهل من الخير أن نخص كلا من الثورتين بكلمة موجزة .

ثورة الزنج

شغلت هذه الثورة الدولة أربع عشرة سنة ونحو أربعة أشهر لم تتخف فيها الحرب أوزارها منذ رمضان سنة ٢٥٥ للهجرة حتى صفر سنة ٢٧٠ وكان الذي

أعدَّ لها وأشعلها رجل فارسي من ورزَين: قرية من قرى الرّميّ بإيران ، زعم في أول الأمر أنه من بني عبد القيس سكان البحرين ، وفيهم أخذ ينشر آراءه الثورية ضد الدولة لأوائل العقد السادس من القرن الثالث الهجري ، فتبعه نفر قليل . وأحسَّ كأن البحرين لن تتبعه ، فتركها إلى البصرة لسنة ٢٥٤ وأخذ ينشر فيها آراءه ، وارتفع أمره إلى الوالي فطلبه ، غير أنه أسرع بالخروج منها إلى بغداد ، حتى إذا استدار العام عاد بفكرة جديدة هي أن يثير الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ هناك ، وكان يسخرهم كبار الملاك الإقطاعيين في هذا الكسح وفي زرع أرضهم لقاء أجر زهيد لا يسدّ ما يحتاجون إليه من الغذاء البسيط والكساء الخشن . ومضى يثيرهم ويتجمعون إليه ، ورأى إحكاماً الدعوت أنه يُسبغ عليها صبغة دينية ، فزعم أنه يُوحى إليه وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من جور الملاك الظالمين ، وأشاع أن اسمه على بن محمد ووصل نسبه بإمام الزيدية : زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، حتى يثبت حقه الشرعي في الثورة ضد الخلافة العباسية^(١) ، وهو نسب مكذوب إذ هو فارسي كما قدمنا ، وحقاً نجد ابن المعتز ينعتة في الأرجوزة التي تمثلنا ببعض أبياتها فيما أسلفنا بأنه علوي إذ يقول عنه :

والعلويّ قائدُ الفُسّاقِ وبائعُ الأحرارِ في الأسواقِ

ونؤمن بأن ابن المعتز تعمد ذلك حتى يلطّخ العلويين خصوم أسرته بعارٍ هذا الرجل الذي لم يكن يرعى في الأمة إلاّ ولا ذمة على نحو ما سيتضح عما قليل . وكان لا يزال يردّد بأن العباسيين انغمسوا في إثم الخمر والمجون والمعاصي ، وأنه تجب حربهم حتى يتخلص الناس من شرورهم ، وحتى يُردّد الأمر إلى نصابه وإلى مستحقّيه العلويين من أمثاله المنتسبين إليهم زوراً وبهتاناً .

وكان الزنج يبلغون ألوفاً ، وكلهم يعملون في كسّح السباخ والزراعة ، وكانوا يُجلبسون من شبرق إفريقيا ، وسرعان ما التفوا حول هذا الثائر والتف معهم كثير من عبيد الفرات بحيث غدت الثورة كأنها ثورة العبيد على السادة الجائرين ، وثبتت

ودراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز
الدوري (طبع بغداد) ص ٧٩ .

(١) طبري ٤١٠/٩ وروج الذهب ١٠٨/٤
والفخرى ص ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٢١/٣

ذلك في نفوسهم أن صاحبهم كان يدعو إلى تحريرهم ، وهي دعوة كريمة ، غير أنه لم يمحض فيها إلى النهاية ، إذ استباح في حروبه استرقاق الأحرار ، مما يؤكد أنه لم يكن يفكر جدياً في إلغاء الرق . ويدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن محرراً للعبيد حقاً ولا كان علوياً ما رواه المسعودي عنه من أنه « كان ينادى في عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس بن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ومن سائر العرب وأبناء الناس ، فتباع الجارية بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان ، ولكل زنجى منهن العشرة والعشرون والثلاثون . . . واستغاثت به امرأة هاشمية من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه ، فقال لها : هو مولك وأولى بك من غيره»^(١). ولو كان علوياً ما استباح استرقاق العلويات ، ولو كان ثائراً على الرق داعياً إلى تحرير العبيد بإخلاص ما أسقط العبودية عن الزوج وردّها على الأحرار ، بل كان يُبتقى لهم حريتهم . ويبدو أنه لم تدر بذهنه خطة واضحة لنمط من أنماط الاشتراكية يصحح به معيشة الناس عبيداً وأحراراً ويصلح به أوضاعهم المالية والاقتصادية. ولذلك حوّل ثورته سريعاً من ثورة ضد الملاك الإقطاعيين إلى ثورة ضد الدولة ، فاللدولة يجب أن تقاوم ويقاوم معها الخلفاء وولاتهم . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعتقد آراء الأزارقة من الخوارج إذ كان يستحلّ مثلهم قتل نساء المسلمين وأطفالهم ، وكان يرى رأيهم في أن المسلمين جميعاً كافرون وينبغي قتالهم واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ويحاول المسعودي أن يبرهن على أنه كان يؤمن بمبادئ الخوارج بشواهد مختلفة ، منها أنه كان يبدأ خطبه بعبارة الخوارج المشهورة التي رددوها حين ثاروا في وجه علي بن أبي طالب : « ألا لا حكم إلا لله » ، وأنه كان يردد أن الذنوب تفضي إلى الشرك على نحو ما كان يقول الخوارج من قديم بأن مرتكب الكبيرة كافر ، وأنه هو وأصحابه كانوا إذا خطبوا على المنابر ترحموا - مثل الخوارج الأولين - على أبي بكر وعمر ولم يذكروا عثمان وعلياً غضباً عليهما ولعنوا جبابرة الأمويين والعباسيين^(٢) . وعلى نحو ما اعتزل الخوارج الأولون على بن أبي طالب إلى حرواء بقرب الكوفة مهاجرين عن الجماعة

وراجع النجوم الزاهرة ٤٨/٣ .

(١) مروج الذهب ١٢٠/٤ .

(٢) انظر مروج الذهب ١٠٨/٤ ، ١١٩ .

الضالة ، كما هاجر الرسول عليه السلام عن أهل مكة إلى المدينة ، كذلك هاجر صاحب الزنج بأتباعه إلى سَبَخَة بِمَآخِرِ أَنْهَارِ الْبَصْرَةِ تسمى سَبَخَة أَبِي قَرَّةَ ، فأقام فيها ، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ بها ، وبثَّ الزنج والسود يُغيّر بهم على القرى وينهب الأموال والدواب^(١) ، ثم تحوّل إلى الجانب الغربي من نهر أبي الحصب واتخذ عليه مدينة^(٢) سماها « المختارة » بنى له فيها دوراً حصينة ، وأمر أصحابه بالبناء فيها .

وكرّرت إغاراته على البصرة وقراها ، فاستغاث أهلها بالخليفة المهتدى ، فأرسل إليهم في سنة ٢٥٦ جيشاً أكثره من الفرسان فلم يستطع الوصول إلى مدينة صاحب الزنج لكثرة ما كان يقوم دونها من القنوات والنخيل والأدغال . ويشعر صاحب الزنج بقوته ، فيفتح مدينة الأبلّة مما يلي نهر دجلة ويقتل بها خلقاً كثيراً ، ويُسّهل بها ناراً تأتي على كثير من منازلها ، إذ كانت مبنية من خشب الساج ، ويُعمل فيها النهب والسلب . ويهاجم بعدها مدينة عبيّآدان ، وكان أهلها قد سمعوا ما صنعه بمدينة الأبلّة ، فألقوا له عن يد ، وانضمّ إليه من كان بها من العبيد ، ونهب كل ما كان بها من السلاح والمثونة . وولّى وجهه نحو مدينة الأهواز فدخلها بعد مناوشات قليلة ، واستولى على كل ما كان بها من الأسلاب والأمتعة^(٣) .

وتولى المعتمد الخلافة ، فأرسل إليه في سنة ٢٥٧ هـ جيشاً كثيفاً انتصر على بعض كتائبه ، غير أن الزنج استروا منه بالقنات والأدغال ، فاضطر إلى الانسحاب ، ونازلهم منصور بن جعفر بجيش ثان لم يصنع شيئاً^(٤) . وما يلبث صاحبهم أن يهاجم البصرة . وكان يردّد على مسامع أصحابه أنه اجتهد في الدعاء عليها أن يصيبها الخراب من جميع جهاتها ، وأنه خطوب في أمرها ، فقبل له : إنما البصرة خُبْرَةٌ لك تأكلها من جوانبها . وانضمّ إليه حينئذ كثير من الأعراب ، هاجمها بهم وبأتباعه من الزنج والعبيد في أثناء صلاة أهلها إحدى الجمعات ، وقد انقضّ عليها من ثلاث جهات ، فعملا فيها النهب والسلب والقتل وإشعال

(٢) انظر الطبري ٩/٤٧٠ ما بعدها .

(٤) طبري ٩/٤٧٨ .

(١) طبري ٩/٤٣٧ .

(٢) طبري ٩/٤٧٠ .

النار^(١) ، وتقول أقل الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل وإنه أحرق المسجد الجامع وأحال البلدة أنقاضاً ، يقول المسعودي : « واختفى الناس ذعراً في الدور والآبار ، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبجونها ويأكلونها ، وكذلك الفئران والسنابير ، وأنها حتى لم يقدرها منها على شيء ، وكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه ، وعدموا مع ذلك الماء العذب »^(٢) وتسامع الناس والشعراء في بغداد وسامراء بهذه النكبة المروعة التي حلت بالبصرة ، فبكوها بدموع غزار ، وفي مقدمتهم ابن الرومي ، وقصيدته :

ذادَ عن مُقلتي لذيذَ المنامِ شغلُها عنه بالدموع السَّجَامِ

نذب حاراً لها وتفجع وتوجع لما نزل بها من تلك الكارثة التي لا تكاد تتخيلها الأهوام ، وقد مضى يصور قتلى الزنج وصرعاهم وانتهاكهم الحرمات وسببهم الحرائر المصونات ممزقات الثياب داميات الوجوه ، وكيف أشعلوا النيران فيها وحوّلوا قصورها تلالاً ورماداً ، وكيف ملثوا شوارعها بالرعوس والجثث والأيدى والأرجل المبتورة ، وهو في تضاعيف ذلك يستصرخ الأمة لنجدة البصرة والذّياد عن الحرمات والفتك بالزنج الذين ارتكبوا آثاماً يشيب لها الولدان فتكماً لا يُبقي ولا يتدرّ .

وكانما استجابت الدولة لصرخة ابن الرومي ، فجهزت جيشاً ضخماً بقيادة الموفق أخى الخليفة المعتمد ، وكان بطلاً لا يبارى وصاحب رأى وحزم لا يدانيه حزم وتدبير لا يشبهه تدبير ، غير أن الزنج وصاحبهم استتروا منه بالقنوات وبالأدغال الملتفة والنخيل الكثيف . فندب إليهم منصور بن جعفر بن دينار فاستباحوا عسكره وقتلوه . فتقدم الموفق إلى نهير يسمى نهير معقل ، ونازل الزنج وهزمهم مراراً وأسر قائداً من قوادهم هو يحيى البحراني وأرسل به إلى سامراء حيث ذُبِح وأُحرق^(٣) . وعاد الموفق إلى سامراء ، وخلف على قتال الزنج موسى بن بغا ، ونشبت حروب متتابعة قُتل فيها كثير من الجانبين^(٤) . ويولّى المعتمد في سنة ٢٦١ على الأهواز قائداً من قواده يسمى أبا الساج ، وينازل الزنج وترجح كفتهم ، ويلدخلون الأهواز وينهبونها ويحرقون دورها^(٥) .

(٤) طبرى ٥٠٤/٩ .

(٥) طبرى ٥١٣/٩ .

(١) طبرى ٤٨١/٩ .

(٢) مروج الذهب ١١٩/٤ .

(٣) طبرى ٤٩١/٩ .

وتُشْغَلُ السُّلَّةُ وقائدها الموفق يعقوب بن الليث الصفار ، وكان قد استولى على سجستان وكرمان وفارس وقضى على الطاهريين واستولى منهم على خراسان ، وأقبل بجموعه في سنة ٢٦٢ يريد الاستيلاء على بغداد ، ولم يكذب ولم يبدر العاقول على بعد اثني عشر ميلاً منها حتى تصدّى له الموفق وهزمه هزيمة ساحقة ، فرّ على أثرها إلى الأهواز ، وإلى ذلك يشير ابن المعتز في أرجوزته آنفة الذكر إذ يقول عن الموفق :

وحاربَ الصَّفَّارَ بعدَ الزَّنجِ فطارَ إلّا أنه في سَرَجِ
وفرَّ من قُدَّامِهِ فِرَارًا وكان قِدَمًا بطلا كَرَارًا

وظل الموفق مشغولاً به بعد هزيمته إلى أن توفي سنة ٢٦٥ . وفي هذه الأثناء وجد صاحب الزنج الفرصة سانحة له ، فكان يُغيّر على بعض المدن ، يفتك بأهلها وينهبها من مثل الأهواز وواسط ودست ميسان . وكانت أنبأؤه لا تزال تصل إلى الموفق ، فصمم على منازلته ثانياً ، وجهّز لحربه جيشاً جراراً تسنده سفن حربية ، وأسند قيادته إلى ابنه أبي العباس . (الذي ولى الخلافة بعد عمه المعتمد وتلقّب بالمعتضد) وكان شجاعاً حازماً من أهل الرأي الصائب مثل أبيه . فحفّ إليه في ربيع الآخر لسنة ٢٦٧ فواقع قائداً يسمى سليمان بن جامع ومزق جنوده واستولى على ما كان بيده من قرى دجلة^(١) ، ودخل مدينة واسط وردّها على أهلها ، وعسكر بجيشه في جوارها ، وأخذ يقف بنفسه على القرى والمسالك المؤدية إلى صاحب الزنج ومدينته . وجمع له الزنج وحشدوا واتخذوا سفناً تسمى بالسُمَيْرِيَّات ، لكل منها أربعون مجدفاً والملاحون من فوقها يحملون السيوف والرمح والتروس ، ولكن أبا العباس عرف كيف يُنزل بهم هزيمة نكراء ، استولى في أثناءها على أكثر سُمَيْرِيَّاتهم^(٢) ، وأخذت هزائمهم تتلاحق . وبلغ الموفق نبأ بأن صاحب الزنج يعدّ جيشاً كثيفاً لمساعدة قائديه: سليمان بن جامع وعلى بن أبان ، فأعدّ جيشاً ضخماً بدوره لنصرة ابنه ، ومضى معه إلى حصن الزنج الشامي في البطيحة الذي سموه باسم « المدينة المنيرة » وأوقعا بقائدهم يسمى الشعراني ويجنده وقعة ماحقة . واتخذ

(١) طبرى ٥٥٧/٩ وما بعدها .

(٢) طبرى ٥٦١/٩ .

الموفق حيثئذ خطة سديدة أن يعفو عن يستسلم له من جند العدو ويضمه إلى جيشه واستسلم له كثيرون^(١). واتجه إلى حصن الزنج الأوسط الذى سموه مدينة « المنصورة » وكان بجوار « طهيثا » والتقى هناك بسليمان بن جامع وأصحابه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، واستولى على المدينة وكل ما بها من الأموال والذخائر والميرة ، وفرَّ سليمان على وجهه لا يلوى ، وفرَّ كثيرون من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة ، وأعلن الموفق مرة ثانية أنه يعفو عفوًا تامًّا عن كل من يستسلم راضيًا ، واستسلم له كثيرون ، فكان يخلع عليهم ويضمهم إلى جيشه . وكانت سياسة قوية إذ أخذ كثيرون من أتباع صاحب الزنج يغادرون معسكره إلى معسكر الموفق^(٢). ومضى إلى الأهواز والقرى التى بينها وبين فارس ، وفرَّ عنها سريعًا قائدان من قواد الزنج هما المهلبى وبهبوذ بن عبد الوهاب تاركين وراءهما عنادًا ضخمًا من الميرة احتواها الموفق . وكاتبه كثيرون من فرسان هذين القائدين وجنودهما يطلبون الأمان فأمنهم وسلكهم فى جيشه ، واستأمن قائد اسمه « متاب » وكثير من المقاتلين فى سميريات الزنج وسفنههم^(٣). وتقدم الموفق بجموعه إلى المدينة « المختارة » حاضرة صاحب الزنج آخر معاقله . ورأى من مناعتها ما جعله يؤمن بأن حصارها سيطول ، فبنى لجيشه أمامها على الضفة الثانية لدجلة مدينة سماها « الموقية » شيد فيها جميع المرافق ، وساق إليها أصناف المنافع ، وشدَّد فى حصار المختارة ، حتى غدت كأنها سجن كبير لصاحبها وأتباعه ، ونادى بأن الأمان مبسوط للناس أحمرهم وأسودهم ، واستسلمت له من الزنج جموع كثيرة ، إذ رأوا صاحبهم كالأسير وقد عزَّته الميرة والمؤن ، وفى ذلك يقول ابن الرومى للموفق من قصيدة طويالة^(٤) :

حَصَرْتَ عَمِيدَ الزَّنجِ حَتَّى تَخَاذَلْتُ قُـوَاهُ وَأَوْدَى زَاوَهُ الْمُتَزَوِّدُ
فَظُلُّ وَلَمْ تَقْتُلْهُ يَلْفِظُ نَفْسَهُ وَظَلَّ وَلَمْ تَأْسِرْهُ وَهُوَ مَقِيدُ
تُفَرِّقُ عَنْهُ بِالْمَكَايِدِ جُنْدَهُ وَتَزِدَادُهُمْ جُنْدًا ، وَجُنْدُكَ مُحْصَدُ^(٥)
وما زال الموفق يحاصر المدينة وصاحبها حتى رأى أن يَشُنَّ عليها حِمْيَ حَاسِمَةً
سنة ٢٦٩ إذ هاجمت سفنه الحربية قصر صاحب الزنج وصمم على الفرار منه ، والتقى

(٤) زهر الآداب للحصرى ١٩٤/٣ .

(٥) محصد : مجتمع محكم .

(١) طبرى ٥٦٦/٩ وما بعدها .

(٢) طبرى ٥٧١/٩ وما بعدها .

(٣) طبرى ٥٧٥/٩ وما بعدها .

الموفق في هذه الأثناء يجيش له في غربي نهر أبي الحصيب فمزقه شر ممزق ، وطلب الأمان كثيرون من الزنج وقوادهم وفي مقدمتهم الشعراني وشبل^(١) بن سالم وجمع الموفق المستأمنة من الزنوج العارفين بمسالك المدينة «المختارة» ومضايق طرقها وحصونها كي يحضوه النصيحة في الوصول إلى صاحبها ، ودلّوه راضين ، فاستولى على قصره في صفر لسنة ٢٧٠ بعد موقعة عظيمة ، ووافاه البشير بقتله ، فخرّ الله ساجداً على ما أولاه ، وأمر بصلب قائدبيه سليمان بن جامع وعلى^(٢) بن أبان المهلبي . وكان الموفق قد جرح جرحاً بليغاً في صدره في أثناء المعارك الأخيرة ، ولم يشنه ذلك من الحرب حتى كتّبت له فيها النصر المبين ، ولذلك يقول ابن المعتز في تهنئته بهذا النصر من قصيدة صور فيها بطوانه :^(٣) .

شَقَّ الصَّفوفَ بسيفِهِ وَشَفَى حَزَازَاتِ الإِخْنِ
دَامِيَ الجِرَاحِ كَأَنهَا وَرَدُ تَفْتَحَ فِي غُصْنِ

وبذلك انتهت ثورة الزنج ، ويقال إنه ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف ، وأمر الموفق بالنداء في أهل البصرة والأبلة وكور دجلة والأهواز واسط بقتل صاحب الزنج ورجوع كل مواطن إلى داره وبلده آمناً على نفسه وماله وأهله^(٤) .

٤

ثورة القرامطة

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الشيعة كانوا فرقاً ، وظلت هذه الفرق نشطة في العصر العباسي الثاني ، وأهمها فرقة الزيدية التي حملت السلاح داعماً في وجوه العباسيين ، ثم فرقة الإمامية التي كانت تعيش على التقية وتعمل سراً ضد العباسيين ، وقد انقسمت مبكرة إلى اثني عشرية آمنت بأن الإمامة توالى في اثني عشر إماماً ، آخرهم محمد المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة ، وإلى إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفي قبل أبيه ، فقالوا إن

(٣) ذيل زهر الآداب ص ١٥٧ .

(٤) طبري ٩ / ٦٠٣ .

(١) طبري ٣ / ٦٤٣ .

(٢) طبري ٩ / ٦٥٤ وما بعدها .

الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتمًا إلى الابن الأكبر ، حتى لو مات في عهد أبيه . وأخذت تتكوّن سريعًا حول محمد الحركة ^(١) الإسماعيلية ، وكان الذى نظّمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسى كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان ، وأخذ في سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تقويض الدولة العباسية ، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تناسب مع كل شخص ، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة ، وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك . وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص ، ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك في كل ما يكسبون مقيمًا بينهم ضربًا من الألفة . وبدأ بدعوته في موطنه بالأهواز ، ثم تركها إلى البصرة ومعه رفيقه الحسين الأهوازي ، وأحس بمطاردة وإلى البصرة لهما ، فهرب مع رفيقه إلى « سَلَمِيَّة » بقرب اللاذقية في الشام ، ومن هناك أخذ يرسل دعائه إلى العراق ، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثنا فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية . ودعا في قوة إلى فكرة التأويل في الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التي تروى إليها من بعيد . وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات ، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة ، سابعهم هو الإمام الناطق الذى ينسخ بشريته ما قبله من الشرائع ، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون . وزعم أيضًا أن أئمة الدعوة قسمان : أئمة حقيقيون مستورون أو مستقرون ، وأئمة بجانبيهم مستودعون وهم رؤوس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك أصبح هو نفسه إمامًا مستودعًا ، وتبعه على ذلك أبناؤه ، ومن هنا جاء الشك في نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التي حكمت مصر نحو قرنين من الزمان ، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين ؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون ، وهي سبع مراتب ، مرتبة للعامة ، ومرتبة لمن فوقهم ، ومرتبة لمن مرّ عليه عام ، ومرتبة لمن مرّ عليه عامان ، ومرتبة لمن مرّ عليه ثلاثة أعوام ، ومرتبة لمن مرّ عليه أربعة أعوام ، ثم المرتبة السابعة ، وجعلت المراتب فيما بعد تسعًا .

وما يلبث عبد الله بن ميدون — وقيل بل ابنه أحمد خلفه — أن يرسل الحسين

(١) انظر في الحركة الإسماعيلية والقرامطة كتاب عبد العزيز الدويرى ص ١٢٦ وما بعدها .

الأهوازي إلى الكوفة وسوادها ليدعو إلى الجمعية ، فالتقى في السواد بنبطي يحمل بعض الغلات على أنوار له اسمه حمدان ، كان أهل قريته يلقبونه — فيما زعم الطبري — لقباً نبطيّاً هو قرهط لاحمرار عينيه الدائم^(١) ، وزعم بروكلمان أن معنى هذا اللقب المعلم السري^(٢) . وكأنا وجد الأهوازي في هذا الرجل طلبته ، فدعاه إلى مذهبه واستجاب له في حماسة بالغة ، وأحسن الأهوازي بدنو أجله ، فعهد إليه برياسة الدعوة ، وجدّ فيها حتى أصبحت له فرقة كبيرة دُعيت جميعها باسم القرامطة نسبة إليه . وكان داهية فأخذ في تنظيم الحركة ، وفرض على جميع أتباعه أن يدفع كل منهم سنوياً درهماً واحداً ، ثم جعله ديناراً تأهباً للانتقال إلى دار الهجرة ، وفرض على أهل المرتبة السابعة سبعة دنانير ، ولم يلبث أن فرض على كل إنسان من أتباعه أن يؤدي إليه خمس ماله ، وأخيراً فرض عليهم جميعاً الألفة ، وهي الشركة في الأموال ، وبذلك هيأ لظهور نظام اشتراكي كامل . ولما اطمأن إلى نجاح دعوته أخذ يحلّ لأتباعه ترك الفرائض الدينية وأن يتخذوا بيت المقدس قبلتهم ويحجّوا إليه ، وزعم لهم أن الصوم يومان في السنة : يوم عيد المهرجان ويوم عيد النيروز وأن النيذ حرام والخمر حلال ، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه وخالفه يجب أخذ الجزية منه^(٣) . وفي سنة ٢٧٧ اتخذ لأتباعه دار هجرة بقرب الكوفة سماها « مهما باد » نزلها كثيرون من الرجال والنساء . وكان أكبر معاونيه في حركته صهره عبدان ، ويُنْذَرُ له كتاب صورّ فيه طريق التابع ومراتبه السبع آتفة الذكر التي تنتهي به إلى الخضوع المطلق للإمام الخفي أو المستر ومثليه من الأئمة المستودعين .

وأقبل على الانضمام إلى الدعوة كثير من الفلاحين في سواد الكوفة والبصرة لما وعدتهم به من تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة ، إذ كان الملاك الإقطاعيون يسومونهم سوء العذاب مع التقدير الشديد في الأجور ، وانضم إليها أيضاً كثير من الطبقة الكادحة في المدن ممن كانوا يعيشون في بؤس مدقع ، وقد وعدهم جميعاً حمدان وأتباعه بأنهم سينقلونهم من الشقاء إلى السعادة ومن الفقر وذلة إلى الغنى وعزه . غير أنهم لم يقفوا

(١) طبري ٢٦/١٠ .

(الطبعة العربية) ص ٢٢٩ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان

(٣) طبري ٢٥/١٠ وما بعدها .

جميعاً بدعوتهم عند إنشاء مجتمع اشتراكي ، إذ مضوا يدعون إلى التحلل من الدين الخفيف وفروضة حتى ليقول البغدادي إنهم أنكروا البعث والحساب والجنة والنار ، وقالوا : هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والتَّصَبُّب في الصلاة والصيام والحج والجهاد ^(١) ، وزعموا : « أن الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أخبروا الزعامة على العامة ، فخدعهم بنيرانجات واستبعدوهم بشرائعهم » ^(٢) . ومضى حمدان يتخذ لهم أعلاماً بيضاء دلالة على أن دينهم دين النور ، ويقال إنه كان يكتب عليها : (ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) .

وقد أرسل مبكراً دعوة إلى اليمن جاهدوا فيها بدعوته وأحدثوا شغباً كبيراً ، ونزل « كلواذي » وأخذ يدير منها دعوته ، ومن أهم دعائه الذين اتخذهم حشداً أبو سعيد الحسن بن بهرام الحنَّابِي ، وجَنَابَة من قرى بحر فارس ، وقد أرسل به إلى جنوبي إيران ، واستطاع أن ينشر هناك الدعوة ، والتفَّ حوله كثيرون اتخذ من نفسه مشرفاً على إدارة أموالهم . غير أن ولاية العباسيين تنبهوا لحركته هناك وصادروا ما جمع من أموال ، ففرَّ على وجهه إلى حمدان ، يبلغه الخبر ، فأمره أن يتجه إلى منطقة أخرى ، واختار له الأحساء في منطقة البحرين ، وهناك استجابت له قبيلة عبد القيس وعشائرها البدوية ، واستطاع لسنة ٢٨٦ أن ينشئ في تلك الأصقاع النائية دولة اشتراكية جعل عاصمتها « المؤمنية » بدلا من « هجر » العاصمة القديمة وهي المسماة اليوم باسم « الهفوف » « وفي السنة نفسها أغار على « القطيف » القريبة من البصرة وقتل من لقيه بها من الرجال والنساء ^(٣) . وفي السنة التالية هددت جنوده البصرة ^(٤) . وأحسَّ حمدان بقوته فأخذ يدفع أتباعه إلى الإغارة على قرى السواد ، وتصدَّى لهم بدر غلام الطائي ، وأوقع بهم على غرة بنواحي روضمستان وقتل منهم مقتلة عظيمة ^(٥) . ويعودون إلى الانتشار في سواد الكوفة لسنة ٢٨٩ ويفتك بهم شبل غلام الطائي ويقع في أسره قائدهم المعروف بابن أبي قوس ^(٦) ، فيرسل به إلى المعتضد ،

(٤) طبرى ١٠ / ٧٥ .

(٥) طبرى ١٠ / ٨٢ .

(٦) في الطبرى : فارس .

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (طبعة محمد

محيى الدين عبد الحميد ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٢ .

(٣) طبرى ١٠ / ٧١ .

فبضرب عنقه ، ويصلبه على الجسر في جماعة من القرامطة ، ويذكر ذلك ابن المعتز في أرجوزته آفة الذكر ، مندداً بالدعوة القرمطية ، قائلاً :

ابنُ أبي قَوْسٍ لَهُمْ نَبِيٌّ إِمَامٌ عَدَلٍ لَهُمْ مَرَضِيٌّ
خَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ صَلَاةِ الْفَرَضِ وَقَالَ : نَابَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضِ
فَاذْهَبْ إِلَى الْجِسْرِ تَجِدْهُ فَارْسًا عَلَى طَيْرٍ^(١) لَأَسِيرٍ جَالِسًا
وَتِلْكَ عَقَبِي الْغَيُّ وَالضَّلَالِ وَالْكُفْرُ بِالرَّحْمَنِ ذِي الْجَلَالِ

وهو يسجل هنا على القرامطة جهلهم حتى ايزعمون أن ابن أبي قوس نبي ، مع تخفيفهم للصلاة وكفرهم بالرحمن ، وسجل عليهم في الأرجوزة قبل هذه الأبيات الشريعة الجديدة التي اتخذوها وأنهم يجاهدون فيها عن إمام مختف لا يظهر أبداً

ومنذ هذا التاريخ الذي قُتل فيه ابن أبي قوس يختفي من العراق وسواده اسم حمدان وصهره عبدان ، ونفاجاً بداعية يتولى زعامة القرامطة مكانهما يسمى زَكْرُويَه^(٢) . ويبدو أنهما أحسّا بتغير في المبادئ التي^(٣) كانا يدعوان إليها ، فأرسل حمدان بعبدان إلى سَلَمِيَّةَ ليقف على حقائق الأمور ، فوجد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح ترفى وخلفه ابنه الحسين ، ولما اجتمع به سأله عن الإمام الذي يدعون إليه وعن حُجَّتِهِ ، فعجب الحسين من سؤاله ، وقال له : « من هو الإمام إذن ؟ » فأجابه عبدان إنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذي دعا له أبوك وكان حجته ، فاستنكر الحسين القداحي إجابته ، وقال له : إن الإمام إنما كان والده ، وحلَّ هو محله الآن . وعندئذ أدرك عبدان حقيقة القَدَّاحين وأنهم تظاهروا بالدعوة لمحمد بن إسماعيل خداعاً للناس وتمويهاً عليهم حتى يجتذبوهم إلى صفوفهم . وعاد عبدان إلى حمدان فوقفه على حقيقة الأمر ، وأشار عليه بوقف الدعوة وأن يجمع الدعاة ويبين لهم الحقيقة . وأخذ حمدان برأيه ، فوقف الدعوة في الأماكن القريبة منه ، ولم يستطع توضيحها لمن كانوا في الأماكن النائية ، وترك كلواذى واختفى هو وصهره عبدان من مسرح التاريخ ، ويبدو أن

القдахين عملوا على اغتيالهما ، واتخذ زكرويه أداة لتنفيذ هذا الاغتيال .
وعلى هذا النحو صارت رئاسة الدعوة في سواد الكوفة والعراق إلى زكرويه
الدَّنداني ، وكان أعظم نشاطاً من حمدان قرمط وصهره عبدان ، ولما رأى الدولة
تتعقب القرامطة بسواد الكوفة وأنه لا غناء عندهم سعى في استغواء البدو من أسد
وطي وقيم وغيرهم ، وتابعته منهم جماعات ، غير أن كثرة البدو المحيطين بجنوبي
العراق لم تستجب له ، فأرسل أولاده يحيى والحسين ومحمداً إلى عشائر قبيلة كلب
في بادية السماوة بين العراق والشام ، فأصاخوا لهم وبايعوهم ، وكان مما زعموه
لهم أنهم من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، حتى إذا رأوهم يدعونهم
إلى العقيدة القرمطية نفروا منهم ولم يتابعهم إلا بنو العُلَيص ، إذ بايعوا في آخر
سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه متلقباً لهم بالشيخ وزاعماً أنه أبو عبد الله علي بن محمد
ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل بل زعم أن اسمه محمد بن عبد الله . وزعم
لهم فيما زعم أن أباه — ودعاه أبا محمود — يدعو له ، وأنه يتبعه في السواد بالعراق وفي
المشرق والمغرب مائة ألف ، وأيضاً زعم لهم فيما زعم أن ناقته التي يركبها مأمورة ،
وأنهم إذا اتبعوها في لقاء عدو نزل عليهم الفتح المبين ، وتكهّن لهم أو ادعى
فيهم الكهانة ، وأظهر لهم عضداً له ناقصة ، وذكر أنها آيته ^(١) . ومضى في
سنة ٢٩٠ بمن تبعوه يعيش فساداً في المدن السورية ، وكانت تتبع حينئذ الدولة
الطوارنية ، وكانت تعاني من ضعف شديد ، وكانت قد ولت عليها طُغْجاً
الإخشيدى قبل ولايته على مصر ، فأرسل لابن زكرويه جيشاً سرعان ما هُزم
وقُتل قائده ^(٢) . وقصد ابن زكرويه الرقة في جمع كثير يَتَمَتَّلُ وينهب ، وواقع
هناك جيشاً للخليفة المكتنّى وهزمه وقتل قائده . وحاصر دمشق غير أنها
صمدت لحصاره ، وسرعان ما قُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا
به خليفة من بعده ، وزعم لهم بدوره أنه أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر
الصادق ، وأظهر لهم شامة في وجهه المثلث ذكر أنها آيته ، ولذلك سُمِّيَ بصاحب
الشامة ، ووفد عليه ابن عم له يسمى عيسى بن مهرويه ، فزعم أنه مثله من نسل
جعفر الصادق وألقبه المدَّثر ، وزعم أنه المقصود بسورة المدثر ^(٣) ! وأجابه كثير

(٣) طبرى ١٠ / ٩٦ .

(١) طبرى ١٠ / ٩٥ .

(٢) طبرى ١٠ / ٩٧ .

من البدو ، واشتدت شوكته ، فزحف بجموعه على دمشق وخافه أهلها فصالحوه على خراج يؤدونه إليه . وتقدم إلى حمص ، فتغلب عليها ، وخُطب له على منابرها باسم المهدي المنتظر ، ثم سار إلى حماة والمرة وبعلبك يقتل ويسفك الدماء وينهب . ونزل سلمسية ، وبدأ بقتل مَنْ بها من بني هاشم ثم قتل أهلها أجمعين حتى صبيان الكتائب ، ولم يَبْقَ بها عينا تطرف^(١) . ويظهر أنه كان يريد القضاء على الأئمة المستودعين من أسرة القداحين ومن وراءهم من الأئمة المستورين إن كان يوجد أحد منهم حقاً ، حتى يصفو الجو له وإمامته ودعوته وخلافته ، ونرى الطبري يحتفظ بكتاب منه إلى بعض عماله يستهله على هذا النمط : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي ، المنصور بالله ، الناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعي إلى كتاب الله ، الذابّ عن حرّم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، ومذلّ المنافقين ، خليفة الله على العالمين ، وحاصد الظالمين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد الملحدّين ، وقاتل القاسطين ، ومهلك المفسدين ، وسراج المبصرين ، وضياء المستضيئين ، ومشتت المخالفين ، والقائم بسند سيد المرسلين ، وولد خير الوصيين ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين ، وسلّم كثيراً . . . »^(٢) .

وواضح أن الحسين بن زكرويه لم يكتف بأن يكون إماماً مستودعاً مثل القداحين ، بل رأى أن يكون الإمام المستور نفسه . ولذلك ادّعى له نسباً إلى محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتلقب بالمهدي وخليفة الله أمير المؤمنين . وفرّ منه عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية ، ومضى في فراره حتى شاماً إفريقيا . ولما تكاثرت فظائعه وضجّ أهل الشام منه بالشكوى إلى الخليفة المكتفي أرسل إليهم جيشاً جراراً بقيادة محمد بن سليمان ، فنازل الحسين وأتباعه بالقرب من حماة في الحرم لسنة ٢٩١ وسحقهم سحقاً ذريعاً ، ففرّ كثيرون من جنده إلى البوادي ، وفر على وجهه مع بعض خاصته إلى الشرق ميمماً الفرات ، وأسروا هناك جميعاً ، وصلّبوا ببغداد مع عشرات من القرامطة جيء بهم من الكوفة ، وكان بينهم بغداديون ذاقوا المصير نفسه^(٣) . ويذكر الطبري أن أخاً لصاحب الشامة - لعله الأخ الثاني

(٣) طبري ١٠ / ١٠٨ .

(١) طبري ١٠ / ١٠٠ .

(٢) طبري ١٠ / ١٠٥ .

المسمى محمداً — عاث ببعض الأعراب في نواحي دمشق لسنة ٢٩٣ ثم صار إلى طبرية فغلب عليها ودخلها وقتل عامة أهلها من الرجال والنساء ونهبها وانصرف إلى ناحية البادية^(١). وأرسل زكرويه في السنة نفسها داعية له إلى بادية الشام يسمى أبا غانم ، فالتفت حوله كثيرون وانتهب بهم بعض المدن القريبة من البوادي مثل بُصْرَى وأذرعَات ، وتعقبتهُم جنود الخلافة من ماء إلى ماء ، وقتل أبا غانم أحدُ أتباعه^(٢) فقضى على تلك الثورة . وبذلك تنتهى حركة زكرويه في بوادي الشام ، إذ يقضى العباسيون عليهم هناك قضاء مبرماً ، وأحكم لهم ذلك أنهم قضوا في الوقت نفسه على الدولة الطولونية التي كانت قد ضعفت ضعفاً شديداً ، مما مكن لزكرويه وأبنائه وأتباعه أن يحدّثوا هناك شغباً وفتناً كثيرة .

واستعادت الدولة سيطرتها كاملة على سواد الكوفة ومن كان به من أتباع زكرويه ويذكر المؤرخون أنه أنفذ إلى البدو داعية له من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد يدعوهُم للخروج معه ومع شيعته من سواد الكوفة . واجتمع له كثيرون ، حتى إذا كان المحرم من سنة ٢٩٤ هاجم قوافل الحجاج في أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قُدّرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير وقتل من الحاج نحو عشرين ألفاً ، وبلغ النبا بغداد ، فندب له الخليفة المكتفي وصيف بن صوارتكين في جيش جرار ، فلقيه في الرابع من شهر ربيع الأول وقتل من شيعته مقتلة عظيمة ، وخلص بعض الجند إلى زكرويه فضر به بالسيف وهو فارّ ضربة اتصلت برأسه ، فاستسلم ، وأخذهُ أسيراً ، وأسروا نائبه وخواصه وابنه وأقاربه وكاتبه وامراته ، وحمل وهو جريح فتوفى في الطريق إلى بغداد من أثر الضربة^(٣) . وبذلك قضى على حركة زكرويه في سواد الكوفة وبوادي الشام قضاء نهائياً .

وإذا كانت حركة القرامطة قد باءت في هاتين المنطقتين بإخفاق ذريع فإنها نجمحت إلى حد بعيد في منطقة الأحساء والبحرين على يد أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الذي مرّ ذكره آنفاً ، وكان من كبار دعاة حمدان قرمط ، واستطاع أن

(٣) طبرى ١٠/١٢٤ وعريب ص ١١ والنجوم الزاهرة ٣/١٥٩ .

(١) طبرى ١٠/١٢١ والنجوم الزاهرة ٣/١٥٨ .

(٢) طبرى ١٠/١٢٢ .

يؤسس هناك دولة ظلت آماداً متطاولة إلى نحو منتصف القرن الرابع إذ دخلوا منذ سنة ٣٥٨ في طاعة الخليفة العباسي وخطبوا له على المنابر . وكانت تسود في دولة أبي سعيد الروح الاشتراكية التي بشَّها أستاذه حمدان قرمط ، وعظم أمره . وكثيراً ما كان يحدث لعهد الخليفة المكتفي أن يتقدم بجنوده نحو البصرة ، وتلقاه جيوش الخلافة ، ويقتتل الطرفان قتالاً شديداً^(١) . وما زال يسوس دولته ، حتى قتله غلام له صقلبي في سنة ٣٠١ وقتل معه جماعة من قواده^(٢) ، فقام بالأمر من بعده ابنه أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي ، ونراه يهاجم البصرة بأتباعه بمجرد استيلائه على الحكم^(٣) ، حتى إذا كانت سنة ٣٠٧ عاد إلى مهاجمتها وإعمال النهب والسلب فيها^(٤) . ودخلها لسنة ٣١١ في ألف وسبعمئة من أتباعه ، وضعوا السيف في أهلها ، وقتلوا واليها سبكاً المفلحي ، وأحرقوا المريد وبعض الجامع ومسجد قبر طلحة ، وظل بها سبعة عشر يوماً يحمل على إبله ما نهبه من الأموال والمتاع^(٥) . وفي السنة التالية رصد الحاج في مقدمهم من مكة لشهر الحرَّم وأخذ يوقع بقوافلهم ، وينهب الأموال ، ويأسر ويقتل ، وجاء الخبر إلى بغداد بذلك فوقع النوح والبكاء وخرج النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه يلطن ويندبن^(٦) . وفي سنة ٣١٣ سار الحجاج من بغداد ومعهم جعفر بن ورقاء في ألف فارس ، فلقبهم أبو طاهر ، فناوشهم بالحرب ، فخاف الناس ورجعوا إلى بغداد ، فاتجه إلى الكوفة ، فقاتلوه ورجعت كفته ودخل البلدة وأقام بها ستة أيام ينهب ويسلب ، وكان مما نهب منها أربعة آلاف ثوب وشي وثلاثمائة راوية زيت^(٧) . وفي سنة ٣١٥ خرج في ألف فارس وخمسة آلاف راجل متجهين إلى الكوفة ، وعلم المقتدر فجهز لحربه يوسف بن أبي الساج في عشرين ألفاً ، وتقاتلا على أبواب الكوفة ، ودارت الدوائر على ابن أبي الساج وأسر جريحاً ، وقتلت جماعة كثيرة من أصحابه . وبلغ ذلك المقتدر فزاعه الخبر ، وندب مؤنساً لقتاله ، فخرج بالعساكر إلى الأنبار في أربعين ألفاً ، وانضم إليه أبو الهيثماء بن حمدان وإخوته في أصحابهم وأعوانهم ، وقعت بينهما

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٧ .

(١) طبرى ١٠ / ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٥ .

(٥) الهمداني ص ٤٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٠٧ .

(٢) طبرى ١٠ / ١٤٨ والهمداني ص ١٤

(٦) الهمداني ص ٤٣ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢١١ .

والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٢ .

(٧) الهمداني ص ٤٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢١٣ .

(٣) الهمداني ص ١٤ .

مناوشات ليست بذات بال ، مما أغرى أبا طاهر بمنازلة بلدان كثيرة في جنوب العراق سالباً ناهباً سافكاً للدماء^(١). وفي السنة التالية دخل الرجة جنوبى قَرْقِيسِيَاء شمالى العراق ، ووضع فيها السيف ، فبعث إليه أهل قَرْقِيسِيَاء يطلبون الأمان فأمنها ، ثم دخلها . وتوجه إلى الرقة ، فأخذها ، وتفاقم أمره وكثر أتباعه^(٢). حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاج يوم التَّروِيَةِ ، وهم يهلُّون ويلبُّون ، وقتل الحجاج قتلاً ذريعاً في فيجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف ، طُرح كثير منهم في بئر ززم ، وعُسرَى البيت من كسوته وقلع بابَه واقتلع الحجر الأسود وأخذَه معه إلى هجر ، وظل هناك حتى رُدَّ إلى موضعه في عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩ . ونهب جميع التحف التى زينَ بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصَّعوها به من الجواهر النفيسة ، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يُصْرَعون حوله فى المسجد الحرام ، وهو ينشد مثل قوله :

أنا لله وبالله أنا يَخْلُقُ الخلقَ وأفنيهم أنا

ويقال إنه كان زنديقاً لا يصلى ولا يصوم ولا يؤدى فرائض الإسلام ، مع تظاهره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدي بإفريقيا^(٣). ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦ ، خوفاً من شره وشر أتباعه من القرامطة ، غير أن شره لم ينحسر عن العراق ، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩ ، وعاود الهجوم عليها فى سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة فى سنة ٣٣٠ ، ومات فى شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجُدري بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، وبعد أن طال عذابه ورأى فى جسده العِبر . وخلفه أخوه سعيد^(٤) بن الحسن الجنائى ، وهو الذى رُدَّ الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة ، وكان العراق قد دخل فى حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء ، واضطروا بأخرة إلى الدخول فى طاعة الخلافة العباسية ونسبوا عقيدتهم القرمطية .

الزاهرة ٣ / ٢٢٤ .

(١) الهمداني ص ٥٢ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢١٧ .

(٤) الهمداني ص ١٠٢ ، ١٣٩ والنجوم

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٠ .

الزاهرة ٣ / ٢٢٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ .

(٣) الهمداني ص ٦٢ عريب ص ٩٥ والنجوم

أحداث مختلفة

لعل أهم ما أمر به المتوكل في أوائل خلافته وَقَفُ القول بخلق القرآن وإنهاء حمل الناس بالقوة عليه وما كان من العنف بجلَّة الفقهاء السنيين وفي مقدمتهم أحمد ابن حنبل ممن رَفَضُوا اعتناق هذا القول، وكانت المحنة بذلك بدأت — كما مرَّ في كتابنا العصر العباسي الأول — منذ عصر المأمون سنة ٢١٢ ، إذ جعل القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة وكتب إلى الآفاق بامتحان الفقهاء فيها ، فمن لم يعلن جهاراً اعتناقه لها ضُرب وقُيِّد وأُرسل إلى بغداد لحاكمته وحبسه . وتظل المحنة قائمة في عهد المعتصم ، وإن خَفَّت حِدَّتُها كثيراً ، ثم تعود إلى الاشتداد لعهد الواثق ويعود معها العنف بالفقهاء ممن لا يجاهرون بأن القرآن مخلوق . حتى إذا ولي المتوكل أمر بوقف هذا العنف وكل ما اتصل به من امتحان وأن يترك الناس الخوض في ذلك ويهتموا بالحديث والسنة^(١) . وبذلك هياً لأن يأفل شأن الاعتزال ورجاله الذين دفعوا إلى هذه المحنة وظلوا يمدونها بالخطب الجزل ، حتى أطفأ المتوكل نارها المشتعلة وأحالتها رماداً ، وكان لذلك أثر بعيد في الحياة العقلية والفنية ، فقد أفل نجم المعتزلة أصحاب الفكر الحر ، وتأتى نجم أهل السنة المحافظين ، وأخذ الذوق المحافظ يسود في كل شيء في الشعر وفي الغناء ، وحتى في الدراسات الدينية ، إذ ظهر مذهب داود الظاهري الذي يرفض القياس .

وثار في أذربيجان لسنة ٢٣٤ ، محمد بن البعيث وقضى على ثورته . وتدخل سنة ٢٣٦ ، فيأمر المتوكل بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يُحَرِّثَ ويُبذر ويُسْقَى موضع قبره ويُمنَع الناس من إتيانه ، فحُرِّثَ الموضع وزُرِع ما حواله حتى يزول أثره ، وحلت بذلك محنة عظيمة على آل أبي طالب وشيعتهم . ويقول المسعودي إنه حين انتهى الفعلة إلى الحفرة وموضع اللحد لم يروا فيه أثر جثة ولا غيرها^(٢) . ويقول الطبري : نُودى في

(١) مروج الذهب ٣/٤ والنجوم الزاهرة ٢/٢٧٥ (٢) مروج الذهب ٤/٥١ .

الناس : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى السجن ، فامتنع الناس من المصير إليه^(١). وكان ذلك إنذاراً شديداً للعلويين ، فلم يتحرك منهم أحد لعهد المتوكل خشية بطشه ، وبالمثل لم يتحرك الخوارج لا في الموصل ولا في خراسان .

وتظل الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين - ويسمونها الصائفة - قائمة طوال عصر المتوكل ، وينزلون في سنة ٢٣٩ دمياط وينهبون كثيراً من الأمتعة والأموال ، ثم يفرون إلى البحر المتوسط وما وراءه^(٢). ويحاولون الإغارة على سُمَيْسَاط وبعض الثغور في شمالي الشام والموصل ، ويُنْزِلُ بهم علي بن يحيى الأرمني في سنة ٢٤٥ هـ ملاحقة^(٣) ، ويدور العام ، فينكل بهم في غزو الصائفة ويعود بأسلاب وغنائم كثيرة ، كما ينكل بهم الفارس المغوار عمر بن عبد الله الأقطع وتكثر مغامره ، ويغزوهم الفضل بن قارن في عشرين مركباً ويفتح حصن أنطاكية^(٤). وما يزال غزو صقلية مستمراً في عهد المتوكل منذ نزول العرب بها في عصر المأمون حتى تستسلم نهائياً^(٥). وفي ديوان البحرى غزوة بحرية دمر فيها أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول الروم لم يعرض لها المؤرخون^(٦).

ويولّى المتوكل سنة ٢٣٧ محمد بن عبد الله بن طاهر الشرطة وأعمال السواد في العراق ونيابته في بغداد ، وهى وظيفة تشبه وظيفة المحافظ لعصرنا ، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٢٥٣ وظلت بعده في بيته طويلاً . وفي سنة ٢٤١ ثارت البجة في شمالي السودان على والى مصر وامتنعت من دفع الخراج ، واشتبك معها محمد بن عبد الله المعروف بالقمى في سلسلة من المعارك توالى فيها انتصاراته ، وما زال يقاتلهم حتى أنابوا إلى الطاعة وعادوا إلى أداء ما كانوا يؤدونه من الخراج^(٧). وفي سنة ٢٤٤ غضب المتوكل على بخنیشوع المتطرب وصادر أمواله وأمر بنفيه إلى البحرين^(٨). ويقول المسعودى : « كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل »^(٩).

١٨٠ ، ٢٢٨ وما بعدها .
(٦) ديوان البحرى (طبع دار المعارف) ٩٨٠/٢ .
(٧) طبرى ٩ / ٢٠٣ وما بعدها .
(٨) طبرى ٩ / ٢١١ .
(٩) مروج الذهب ٤ / ٤ .

(١) طبرى ٩ / ١٨٥ .
(٢) طبرى ٩ / ١٩٣ وانظر العرب والروم لغازيليف ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ص ١٨٧ .
(٣) طبرى ٩ / ٢١٨ .
(٤) طبرى ٩ / ٢١٩ .
(٥) العرب والروم ص ١١٥ ، ١٢٩ ،

وخلفه ابنه المنتصر في شوال سنة ٢٤٧ ، وكانت خلافته قصيرة لم تزد على ستة أشهر ، وفيها وجه جيشاً كثيفاً بقيادة وصيف لغزو الصائفة^(١) . ولعل أهم أعماله أنه أمر بالكف عن العلويين وألا يمنع أحد من زيارة كربلاء والنجف وما بهما من قبور آل أبي طالب ، وأمر برد أرض فندك في الحجاز إلى أولاد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف العلويين جميعاً وأمر ألا يتعرض أحد لشيعتهم بأذى أو مكروه^(٢) . وخرج لعهد محمد بن عمرو الشاري بناحية الموصل ، وتجمع حوله كثيرون من الخوارج تزعمهم وحضهم على الثورة وانضم إليهم كثيرون من الأكراد ، فوجه إليه جيشاً بقيادة سبأ التركي ، هزمه هزيمة ساحقة ، وساقه مع طائفة من أصحابه أسيراً إلى سامراء ، فقتلوا وصلبوا جميعاً^(٣) . وفي عهده بدأ يعقوب ابن الليث الصفار ثورته في سجستان وتحرك إلى هراة^(٤) .

ويتولى الخلافة المستعين بالله نحو ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفي عهده يعود أبناء عمه الطالبين إلى التحرك ، فيخرج بالكوفة لسنة ٢٤٨ يحيى بن عمر الطاطبي حفيد زيد بن علي زين العابدين ، ويرسل إليه المستعين بجيش كثيف يقضي على ثورته ويقتل ويحمل رأسه إلى بغداد ويصلب ويبكيه كثير من الشعراء لورعه وتقواه^(٥) ، وجيمية ابن الرومي في رثائه والتفجع عليه مشهورة ، وفيها يقول :

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظل سَجَسَجٌ^(٦)

وفي سنة ٢٥٠ يخرج الحسن بن زيد ، وهو من حفدة زيد بن علي زين العابدين ابن علي بن أبي طالب ، وكان خروجه بطبرستان ويغلب هناك على بلاد الديلم جميعها^(٧) ، ويظل ثابتاً لجيوش الدولة العباسية حتى يلبي نداء ربه لعهد المعتمد سنة ٢٧٠ ويخلفه من بعده أخوه محمد^(٨) . ويخرج على المستعين علويون مختلفون

(١) طبري ٢٤٠/٩ والعرب والروم ص ٢١٧ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٥١ .

(٣) طبري ٢٥٥/٩ ومروج الذهب ٤ / ٥٣ .

(٤) طبري ٢٥٥/٩ .

(٥) طبري ٢٦٦/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٣ .

والفخرى ص ٢٤٠ .

(٦) سجع : معتدل لا حار ولا شديد البرد .

(٧) طبري ٢٧١/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ .

(٨) طبري ٢٦٦/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ :

١٧٧ .

بالرعى وقزوين والكوفة ويقضى عليهم جميعاً^(١). ويتحرك بعض الخوارج ويلقاهم المصير نفسه^(٢). وتحدث حينئذ أكبر فاجعة أصابت الغزاة المقاتلين في جبهة الروم إذ استشهد في سنة ٢٤٩ بطلان مغواران من أهل البأس والنجدة والمكيدة في الحروب ، هما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرنؤى اللذان طالما دوّخا الروم وأنزلا بهم هزائم ساحقة ، أما عمر فكان يغزو الصائفة في جمع من أهل مَسَاطِيَةِ فلقية لإمبراطور بيزنطة في جيش جرار بلغ خمسين ألفاً ، ونشب القتال بينهما ، واستبسل عمر في الجموع القليلة التي كانت معه استبسالاً رائعاً ، ولكنهم استطاعوا لكثرتهم أن يحيطوا به ، فاستشهد في ألف من المسلمين الأبرار ، بعد أن أبلوا في المعركة بلاءً عظيماً . وأما على فكان قد انصرف من الثغور إلى ديار بكر شمالي العراق ، وجاءه نعي عمر المفجع ، فاستشاط غضباً وأسرع إليه في أربعمئة مقاتل ، وهو لا يعلم عدّة الروم ، فأحاطوا به مثل صاحبه ، ومضى إلى ربه شهيداً^(٣).

وبويع بالخلافة المعتز في المحرم من سنة ٢٥٢ وفي عهده أوقع مفلح بعبد العزيز ابن أبي دلف الثائر بالكرج وهزمه هزيمة نكراء^(٤) ، ودخل مفلح لسنة ٢٥٥ طبرستان ، وهزم الحسن بن زيد العلوى وأحرق منازله ، وفر الحسن إلى الديلم ، وتوجه مفلح نحوه^(٥). وعلا حينئذ شأن يعقوب بن الليث الصفار ، واستولى على كرمان وفارس^(٦). وأقطع المعتز حاجبه بایکباک مصر لسنة ٢٥٤ فولى عليها أحمد بن طولون ، وسرعان ما أسس بها الدولة الطولونية .

وتولى الخلافة المهتدى في سنة ٢٥٥ ومكث في الخلافة أحد عشر شهراً ، وكان صالحاً تقيّاً عادلاً طاهر السيرة ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرّم الشراب والاختلاف إلى القيان للسمع ، وبني قبة جلس فيها لاستقبال العام والخاص ، والنظر في المظالم وأقل من المطعم والمشرب ، وكان يخطب بنفسه خطبة الجمعة ويؤم الناس في المسجد الجامع ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على مواعدها في كل يوم

(٤) طبرى ٩/٣٧٣ .

(١) مروج الذهب ٤/٦٩ .

(٥) طبرى ٩/٣٨٢ .

(٢) طبرى ٩/٣٠٨ .

(٦) طبرى ٩/٣٨٢ وما بعدها .

(٣) طبرى ٩/٢٦١ ومروج الذهب ٤/١٢٥ .

والعرب والروم ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ .

عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لثألته وسائر مؤنه كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل العبادة والصيام^(١) ، فبدا غريباً عن روح العصر ، وثقل حكمه على الأتراك فأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه . وفي عهده بدأ أمر صاحب الزنج يظهر على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع .

وخلفه المعتمد في رجب سنة ٢٥٦ وكان يؤثر اللذة ويعكف على الملاهي غير أنه رُزق حظوة بأخيه أبي أحمد الموفق وكان حازماً مقداماً بعيد النظر عارفاً بأمور الحرب وشئون السياسة ، فغلب على الخلافة وتديبرها ، وأصبح المعتمد معه كالحجور عليه . وكانت الخلافة العباسية تردت في هوة بعيدة القرار ، فأعاد إليها هيبتها ، وقضى كما مرَّ بنا على ثورة الزنج قضاء مبرماً ، وهزم يعقوب بن الليث الصفار هزيمة نكراء ، اضطّر على إثرها إلى الفرار إبقاء على نفسه من الموفق وجنوده . وتحركت حينئذ الخوارج في الموصل وخراسان ، وقضى على حركاتهم جميعاً^(٢) . وكان القواد من أصحاب الثغور وغيرهم لا يزالون ينازلون الروم في الصوائف وفي مقدمتهم البطل يازمان الذي نكّل بهم لسنة ٢٧٤ ودارت السنة فغزاهم في البحر ، وأخذ لهم أربعة مراكب^(٣) .

وبلى الخلافة المعتضد لسنة ٢٧٩ ، وكان صورة قوية للحزم والجد اللذين ليس بعدهما جد وحزم ، كما كان فارساً شجاعاً وبطلا مغواراً أنقذ الخلافة مع أبيه الموفق من الزنج الثائرين الذين دوخوا القواد قائداً تاو قائداً . وفي أيامه سكنت الفتن وصلحت البلدان واستقامت له الأمور ورخصت الأسعار . وأدبل له دائماً من الخالفين عليه ، وكانت جيوشه تغدو وتروح بالنصر ، ومن ظفر بهم هرون الشاري الذي خرج بالموصل^(٤) ، وثار عليه بأصبهان والجل في سنة ٢٨٣ بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي الشيباني فوجه إليه عيسى النوشري ففرَّ من أمامه ، ثم عاد إلى الظهور في سنة ٢٨٤ ، وقضى على ثورته . ونازل له السامانيون محمد بن زيد العلوي أخا الحسن الذي مر ذكره ، إذ هاجموه بطبرستان وقتلوه على أبوابها^(٥) لسنة ٢٨٧ . ونالوا له الترك وفتحوا حاضرتهم وأسرروا ملكهم وامراته خاتون ونحواً من

(١) مروج الذهب ٩٧/٤ ، ١٠٣ .

(٢) طبري ٩/٥١٢ ، ٥٣٢ .

(٣) طبري ١٠/١٣ وما بعدها .

(٤) طبري ١٠/٤٣ .

(٥) طبري ١٠/٨١ ومروج الذهب ١٧٧/٤ .

عشرة آلاف مع ما أخذوا من الأسلاب والغنائم الوافرة^(١)، وغزت جيوشه الروم وكبدتهم خسائر فادحة ، وغزاهم قائده راغب في البحر لسنة ٢٨٥ ، واستولى منهم على مراكب كثيرة ، غير ما أغرقه ، وضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم وفتح كثيراً من حصونهم^(٢). ويغادر أبو عبد الله الشيعي في عهده الشام إلى المغرب وينزل بقبيلة كتامة ويدعوهم إلى عبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين الذي كان قد فرّ من الحسين بن زكرويه ، على نحو ما أسلفنا في حديثنا عن القرامطة والإسماعيلية^(٣). ويحدث لعهد المعتضد حادث مفرح إذ يوغر دميانة أحد قواده في الثغور صدره على أهل طرسوس لشيء كان في نفسه منهم . ويشير عليه أن يحرق سفنهم التي كانوا يغزون فيها الروم . والعجب العجائب أن يصيح له المعتضد المعروف بكياسته ، غير أن هذا الشيطان عرف كيف يؤثر فيه ، فأمر بإحراق جميع سفنهم البحرية وإحراق جميع آلاتها الحربية ، يقول الطبري : « وكانت خمسين مركباً قد أنفقت عليها أموال جليلة فأضرّ ذلك بالمسلمين وكسر في أعضادهم وقوّى به الروم وأمنوا أن يغزّوا في البحر أو تُدَمَّرَ سفنهم وأساطيلهم فيه »^(٤).

ويتولى الخلافة المكتفي سنة ٢٨٩ ، وكان يتوخى العدل والإنصاف في حكمه ، فردّ المظالم إلى أهلها ومالت إليه قلوب الرعية . وفي عهده تَمَّ القضاء على زكرويه القرمطي ومن بقي من أبنائه وفتح جيشه المقيم بطرسوس أنطاكية على ساحل البحر المتوسط عنوة ، وقتل من أهلها خمسة آلاف ، وأسر مثلهم ، واستولى على ستين مركباً للروم حملاًها ما غنم من الرقيق والمتاع والذهب والفضة^(٥). ويذكر آدم ميز أنه في السنة نفسها ، وهي سنة ٢٩٣ ، استولى المسلمون على مدينة سالونقي ثانية مدن الدولة البيزنطية وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً^(٦). وفي السنة التالية غزت جنود المكتفي سلندو وآلس وفتح الله عليهم وقتلوا من أهلها مقتلة كبيرة^(٧). وفي السنة نفسها ظهر السفياقي بالشام ، ودعا إلى نفسه ، وتبعه نفر ، فحُمِلوا جميعاً مقيّدين إلى باب المكتفي^(٨).

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم

ميتز ترجمة الدكتور أبي ريذة (الطبعة الأولى)

٥ / ١ .

(٧) طبرى ١٣٠ / ١٠ .

(٨) طبرى ١٣٥ / ١٠ .

(١) طبرى ٣٤ / ١٠ .

(٢) طبرى ٦٨ / ١٠ .

(٣) انظر النجوم الزاهرة ١٢٤ / ٣ .

(٤) طبرى ٨٠ / ١٠ .

(٥) طبرى ١١٧ / ١٠ .

ويخلفه أخوه المقتدر سنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وما يوافق شهر ربيع الأول لسنة ٢٩٦ ، حتى يجتمع كثيرون من الكتاب والقضاة وذوى الرأى ويُجْمَعوا على خلعه وتولية ابن المعتز ، وتم له البيعة ، ولا يكاد يمضى عليه يوم وليلة حتى ينتفض الأمر عليه كما مر بنا فى غير هذا الموضع : فيُقْتَل وتُردّ الخلافة على المقتدر ، ويصبح لعبة فى أيدي الترك يحركونه كما يشاءون ، وتعود الدولة إلى سيرتها القديمة السيئة قبل المعتمد وأخيه الموفق . وكان فى بيت المال يوم تولى الخلافة خمسة عشر مليوناً من الدنانير بدّدها كلها ، وبدّد معها القناطير المقنطرة من الأموال التى كانت تُجَبَى من أطراف الدولة الواسعة . وتحكمت أمه « شغب » ووصيفاتها فى شئون الدولة ، وعاد الأتراك إلى طغيانهم وفسادهم ، فكثرت الرشوة وعمّ الظلم والبغى ، وكثر الوزراء وكثرت مصادراتهم ومصادرات الكتّاب والتجار . كما كثر الاستيلاء على أموال ذوى اليسار بغير حق . مما ألّمنا به فى غير هذا الموضع . وكان هذا الفساد سبباً فى كثرة الفتن والثورات ، وما توفى سنة ٣٠٠ للهجرة حتى يثور على الدولة بطبرستان والديلم الأطروش العلوى وهو الحسن بن على الحسنى . انقلب نفسه بالداعى ، واستطاع أن يندخل فى الإسلام كثيرين استجابوا له ، وبني لهم المساجد ، وكان حصيفاً فاضلاً أصلح الله الديلم به ^(١) . وأغار الروم على اللاذقية بَحْرًا وَسَبَوُا منها خلقاً كثيراً ، وردّ دميانة قائد الأسطول العربى فى البحر المتوسط على هذا الغزو فى السنة نفسها وهى سنة ٢٩٨ فغزا بأسطوله قبرص وفتح بها كثيراً من الحصون وحرق وسبى كثيرين ^(٢) . وفى سنة ٣٠٤ غزا مؤنس بلاد الروم من ناحية مَلَطِيَّة وفتح حصوناً كثيرة ^(٣) ، وردّ الروم على هذا الغزو فى سنة ٣١٤ فدخلوا مَلَطِيَّة بالسيف ، وقتلوا وسبوا ، وظلوا فيها أياماً ^(٤) . وفى سنة ٣١٣ فتحت بلوخستان ، وكانت لا تزال وثنية فدخلت فى دين الله .

وتولى الخلافة القاهر بالله سنة ٣٢٠ ، وكان مولعاً بالشراب والغناء ، وكان سفاكاً للدماء ، شديد البطش بمن يغضب عليه من الأتراك ، وقتل منهم نفرًا فى مقدمتهم مؤنس الملقب بالمظفر أكبر الحجاب فى عصره وعصر المقتدر ، وهابه الناس وخشوا

(١) طبرى ١٤٩/١٠ ومروج الذهب ٢١٩/٤ (٣) النجوم الزاهرة ٣/ ١٩٠ .

والنجوم الزاهرة ٣/ ١٨٥ . (٤) النجوم الزاهرة ٣/ ٢١٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/ ٢١٨ .

صولاته ، ومع إدمانه للخمر أمر بتحريمها وتحريم السماع وقبض على المغنين وكسر آلات اللّهُو وأمر بتتبع الجوّارى من المغنيات^(١) ، وما زال مخوف السطوة حتّى احتيل عليه بعد سنة ونصف من خلافته فخلع وسُملت عيناه ، وهو أول من عوقب هذا العقاب الصّارم من الخلفاء ، وهى عادة بيزنطية ذميمة ، وقد عاش بعدها سبعة عشر عاماً .

وخلفه الرّاضى بالله ابن أخيه المقتدر سنة ٣٢٢ ، وكان سمحاً جواداً مقرباً للعلماء والأدباء ، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه إلا بخافة أو صلّة ، ومن أهمهم أستاذه الصّولى أبو بكر محمد بن يحيى وابن الأنبارى . وخصّه الصّولى بترجمة ضافية فى كتابه الأوراق ، فى القسم الخاص بأبناء الخلفاء ، روى فيها طائفة كبيرة من أشعاره ، وهو آخر خليفة له شعر مدوّن ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب فى صلاة الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء^(٢) . وفى عهده قُتل ابن مقلّة الأديب والخطاط المشهور بعد أن اعتلى كرسي الوزارة مراراً . وعظّم أمر ابن رائق بعد توليه الوزارة ، إذ قلّده الرّاضى جميع أمور الدّولة ، غير أنه لم يلبث أن صار محجوراً عليه وكالأسير فى يده^(٣) . وفى أوائل عهده سنة ٣٢٤ شتّن سيف الدّولة الحمدانى أول حرب على الدّمستق فى آمد^(٤) ، وتوالى بعد ذلك حروبه مع البيزنطيين .

ويتولى الخلافة المتقى سنة ٣٢٩ ، وكان ناسكاً تقيّاً يصوم الدهر ، ولم يشرب النّبذ قط ولا اتخذ جلساء ولا ندماء ، وكان يقول : المصحف نديمى ولا أريد جلساً غيره ، غير أنه كان تعسّ الحظ إذ جاء بأخرة وقد فسدت الأمور وأفلت الزّمام من يد الدّولة ، لاشتداد المنافسة بين الوزراء والأمراء وخاصة آل البريدى بالموصل . وبلغ من اضطراب الأحوال أن استولى أبو الحسين البريدى على بغداد ، ومضى البريدى يسوم الناس ظلماً فادحاً فى الخراج وغير الخراج ، ويأخذ أموال التجار وغيرهم غصباً ، أما الخليفة فلجأ إلى الحمدانيين فى الجزيرة ،

(١) التنبية والإشراف

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٨ .

ص ٣٨٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٧١ .

وما زال ينتقل معهم إلى أن قدموا به إلى بغداد . وهرب منها البريدى ، وخلع حينئذ على الحسن بن عبد الله بن حمدان ولقبه بناصر الدولة وعلى أخيه على ولقبه بسيف الدولة^(١) . ولم تهدأ الأمور في بغداد فقد تفاقم أمر العبيّارين وازداد النهب حتى خلت الدور من أهلها وعُطلت المساجد والأسواق وأغلقت الحمامات . وكأنما كُتب على المتقى أن يعيش سنى خلافته بائساً تعيشاً . حتى القصور وقبائها يصيبها الدمار فقد سقطت لأوائل خلافته قبة قصر المنصور الخضراء ، وكأنما كان ذلك إيذاناً بأفول نجم الدولة العباسية ، إذ كانت تلك القبة تاج بغداد وعلمها المعلم^(٢) . وفى سنة ٣٣١ زحف الروم على أرزن بأرمينية وميافارقين ونصيبين بديار بكر ، فقتلوا وسبوا كثيرين ، وطلبوا من أهل مدينة الرُّها منديلا من كنيستها زعموا أن المسيح عليه السلام مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه ، وقالوا إن سلمتموه لنا أطلقنا كل من بأيدينا من أسرى المسلمين . وكوبت الخليفة المتقى فى ذلك ، فاستفتى الفقهاء والقضاة ، واختلفوا فى الرأى . ورجحت كفة من قالوا بإعطائهم إياه ، لأن خلاص المسلمين من الأسر أوجب . فأرسل المنديل إلى الروم وأطاعت الأسارى ، وحملوا المنديل إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك ورجال الدين والدولة لاستقباله فى موكب كبير^(٣) . وما زالت الأمور تسوء والحكم يزداد فساداً ، وتوقف جهاد الروم ، ونُهب الحجاج وقُطعت الطرق ، وأخذت دعائم الدولة تتداعى تداعياً شديداً ، ولم يلبث توزون القائد التركى للمتنقى أن غدر به ، فقبض عليه وخلعه ، لقاء ستمائة ألف دينار أخذها من أحد الطامحين إلى الاستيلاء على الخلافة ، وتولت الجارية الشيرازية «حُسْن» حمل عينيه بيد غلام لها سندی . وعاش بعد خلعه خمساً وعشرين سنة^(٤) ، ومات توزون بعد خلعه بقليل .

ويخلفه المستكنى سنة ٣٣٣ بعد أن تأمر عليه مع توزون والجارية الشيرازية ، ونادراً ما كان يهناً بأيامه فى الخلافة ، إذ كان يتقاذفه الترك وهذه المرأة الخشعة ، فلم يهدأ له بال . ولم يدرك عليه عام فى خلافته حتى دخل بنوبويه بغداد وصارت

(١) النجوم الزاهرة ٢٧٤/٣ وما بعدها . ٢٧٨/٣ ومتر ٥/١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٧٠/٣ (٤) الهداى ص ١٤٢ والنجوم الزاهرة

(٣) الهداى ص ١٣٥ والنجوم الزاهرة . ٢٨٢/٢ ومتر ١٦/١ .

إليهم مقاليد الأمور ، وسرعان ما طلبوا إليه أن يخلع نفسه ، فتزل على مشيئتهم ، غير أنه اشترط ألا يقطع شيء من أعضائه ، وكان المطيع أخو المتقي هو الذي خلفه فأمر بأن تُسَمَّل عيناه انتقاماً لأخيه . وبذلك انتهت الحقب التي استولى فيها الأتراك على مقاليد الخلافة العباسية ، وأنزلوا بالخلفاء ما لا يطاق من الذل والهوان .

الفضل الثاني

الحياة الاجتماعية

١

طبقات المجتمع

كان يتوزع مجتمع العصر العباسي الثاني ثلاث طبقات أساسية : طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورعوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوى اليسار ، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفى الدواوين والتجار والصناع الممتازين ، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزّراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق ، ويأتى فى إثر تلك الطبقات أهل الدمة .

وكانت الطبقة الأولى تفرق فى النعيم ، يتقدمها الخلفاء وكانت تُجسّس إلىهم أموال الخراج من سواد العراق وأقصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبي من المكوس على الواردات والصادرات ، وعادة كان الولى يرسل إلى بغداد ما تبقى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبيارات ومن بها من الجند والموظفين . وذكر ابن خرداذبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليوناً من الدراهم ، وبلغ دخل جزء منه فى عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفاً من الدنانير^(١) . وتدهور الدخل فى عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يبلغ مليوناً وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار ، ويورد الصابى مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهدده فى سنة ٣٠٦ ، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليوناً وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين ديناراً^(٢) .

(٢) رسوم دار الخلافة للهلال الصابى ص

(١) كتاب الوزراء للهلال بن الحسن الصابى

وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير تُسْفَقُ سنوياً ، وقلما كان يتبقى منها شيء ويقال إنه لما ولي المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) ادّخر من كل سنة من سني خلافته مليون دينار ، وبلغ ما ادخره تسعة ملايين ^(١) ، وخلفه ابنه المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) ، فبلغ بالمُدَّخَر أربعة عشر مليوناً ^(٢) . وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب ، بل أُلْف كل المدّخر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنوياً ، وما كانت تُغَلّه الضياع السلطانية الواسعة ، حتى قالوا إنه بدّد - كما مرّ بنا في الفصل الماضي - ثمانين مليوناً من الدنانير . ويورد الصابي في كتابه : الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتاً ^(٣) بما كان يُسْفَقُ على حواشي الخليفة وداره في عصر المعتضد والمقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ، وهي تصور عِظَم هذه النفقات ، فقد كان يُسْفَقُ على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهرياً وكان يُسْفَقُ على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهرياً ، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفاً ، غير ما يُسْفَقُ على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار ، وغير ما يُسْفَقُ على الممالك والحرس وكانوا يُعَدُّون بالآلاف ، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القراء وأصحاب الأخبار والمنجمين والبوقيين والمضحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاحين في السفن وأصحاب المشاعل والأطباء ، ويقول الصابي إن نفقة ذلك كله وما يجري مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنوياً . ويقال إنه كان في الدار لأيام المكتفي عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصفالبة ، أما في أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود وأربعة من الصفالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وأوف من الغلمان الحُجْريّة (المقيمين في الحُجْر) ، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس ، وكان عدد الفراشين ثمانمائة ^(٤) . ويروى المؤرخون أن الرازي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) ، عمل على القصّد الشديد في نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٩ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٩٠ .

(٣) الوزراء ص ١١ وما بعدها ورسوم دار الخلافة ص ٢١ ويذكر الصابي في الكتاب الأول أن نفقات الحضرة له

المعتضد كانت سبعة آلاف دينار يومياً .

(٤) رسوم دار الخلافة ص ١٠ ويقال

إن الخدم في عهد المتوكل كانوا سبعمائة . انظر الدبارات للشابشي (الطبعة الثانية) ص ١٦٠ .

شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار ^(١) يومياً .

وقد بدأ العصر بالمتوكل ، ويقال إن النفقات لم تبلغ في عصر من عصور الخلفاء ما بلغت في عصره ، وخاصة في بناء القصور ، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيرى ، وكان يُجعل فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام ، وكان في الرواق مجلس الخليفة ، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يُحتَاج إليه من الشراب ^(٢) . وكان كلما بنى قصرأ أتبعه بآخر ، حتى بلغت قصوره نحو العشرين ، وهى : بركوار (دار الهناة) والشاه والعروس والبركة والجوسق والمختار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمليح والشبذاز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو واللؤلؤة ، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليوناً من الدراهم ^(٣) . وكان البرج من أجملها زينة إذ جعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة جعل فرشها ظاهراً وباطناً صفائح الفضة ، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرد وتصفر مكللة بالجوهر ، وسميت طوبى (من أشجار الجنة) . واتخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالاً سبعين عظيمين ودرج عليه صور السباع والنسور . وألبست حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب ، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليوناً وسبعمائة ألف دينار ^(٤) . وتبارى الخلفاء بعد المتوكل في بناء القصور ، فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج أو الساج وكان قصرأ ضخماً ^(٥) ، وبنى المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة ^(٦) ، وبنى المعتضد قصر الشريأ ، وكان أبنية متلاصقة ، ووصل بينها وبين قصر التاج بسرداب طويل لتمشى فيه حظاياها ، وفيه يقول ابن المعتز ^(٧) :

وَبُنَيَانُ قَصْرِ قَدْ عُلَتْ شُرْفَاتُهُ كَصَفِّ نِسَاءٍ قَدْ تَرَبَّعْنَ فِي الْأَزْرِ

(٥) انظر ياقوت في التاج وديوان البحري

(طبع دار المعارف) ١٤٨٣/٣ .

(٦) ديوان البحري ١٤٦٧/٣ .

(٧) ديوان ابن المعتز (طبعة دار صادر

بيروت) ص ٢١٥ وانظر معجم البلدان في

الثرأ .

(١) رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤ .

(٣) الديارات للشاشنى (الطبعة الثانية) ص

١٥٩ .

(٤) الديارات ص ١٦٠ وانظر المروج

٤٠/٤ .

ولعل في كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت واسعة ، وكان القصر الواحد أحياناً يمتد إلى فرسخ أو يزيد ، ويقال إن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاثة فراسخ وإنه كلف المعتضد - كما قدمنا في الفصل الماضي - أربعمئة ألف دينار . وكأنما كانت دار الخلافة وقصورها أشبه بمدينة ، ومرّ بنا آنفاً عدد من كان بها في عصر المكتفي والمقتدر من الغلمان والحرس والخدم ، وأنهم كانوا يُعَدُّون بالآلاف ، فطبيعي أن يكون بها فلاحون وأكرّة للعمل ومساجد وحمامات تفوت الحصر حتى قالوا إن الحمامات بلغت بها أحياناً أربعمئة ^(١) . وكانت الدار تشمل على بساتين وجداول متصلة بدجلة وقباب شتى وأروقة وبرك ومياه جارية .

وكان الوزراء يعيشون في هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة ، ويقال إن الوزير كان يأخذ إقطاعاً يدرّ عليه مائة وسبعين ألف دينار ، حتى إذا كان عهد المقتدر أجري عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار في كل شهر ، ثم صار سبعة آلاف ^(٢) . ولكي نتصور مبلغ ثراء الوزراء يكفي أن نعرف أن المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) استخلص - كما مر بنا في الفصل الماضي - من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله نحو مليون دينار ، ويروى أنه أحصى ما وجد لوزيره صاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات في خاصة نفسه دون ما وجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار ، وكان مبلغ غلته في سائر ضياعه مليوناً وثلثمائة ألف ^(٣) . ويذكر المؤرخون عن ابن الفرات وزير المقتدر أنه كان يملك - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - من الفضة والضياع والأثاث ما يزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكانت لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة ٣٢٠ ، وكانت تسمى دار المحرّم ، وكانت مساحتها تربو على ثلثمائة ألف ذراع ^(٤) . وكانت دار ابن الفرات مدينة ضخمة حتى كان بها فوجان من الخياطين ^(٥) ، ويقال إنه

(٤) مسكويه ٤١٠/٥ .

(١) رسوم دار الخلافة ص ٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ .

(٣) مروج الذهب ١٢١/٤ .

لما عُيِّنَ وزيراً زاد ثمن الشمع في يوم تعيينه لأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة، وسُقِيَ في داره في ذلك اليوم وليلته أربعون ألف رطل ثلجاً^(١).

وكان للوزير بدار الخلافة بناء مفرد يجلس فيه والخواص والخواشي بين يديه إلى أن يستدعيه الخليفة، وكان يَخْدُو إليه الكِتَابَ، فيقْفهم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم إلى كل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد منه، ثم يروحون إليه بما عملوا، وفي أثناء ذلك تُعْرَضُ عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسابات^(٢)، والكتّاب جلوس بين يديه كلٌّ في مكانه ومعه دواته.

وكان الوزير يتخذ مثل الخليفة حرساً على باب داره وقد يُعَدُّون بالعشرات^(٣) وكان مجلسه يَخْصُ بغلمان مسلّحين، وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان، ويقال إنه كان لحامد بن العباس أحد وزراء المقتدر أربعمائة مملوك يحملون السلاح أمامه، ولكل مملوك نفر من المماليك والغلمان يتبعونه، ويَروى بعض الكتاب أنه أحصى الموائد المنصوبة في داره فوجدها ثلاثين ونيفاً ويقال، بل كانت أربعين، وكان يجلس إلى كل مائدة ثلاثون رجلاً، وعلى كل واحدة جلدى أو جداء وبقارد وحلوى مما لذ وطاب^(٤). وكان الوزير يتولّى إدارة مائة البلاد والقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب. واشتهر غير بيت بتوليه الوزارة مثل بيت بنى وهب وأصلهم من نصارى العراق، وعمل كثير منهم في الدواوين وبلغوا فيها أعلى المناصب، أما الوزارة فتولاها منهم في هذا العصر أربعة، كان في مقدمتهم سليمان بن وهب الذي مرّ بنا ذكره ثم ابنه عبيد الله، ثم ابن عبيد الله القاسم، ويقال إن المكتفى زوج ابنه أبا أحمد من ابنته، وإنه خلع عليه أربعمائة خلعة، أما الصداق فكان مائة ألف دينار^(٥)، وأنفق على

(١) كتاب الوزراء ص ٦٣، ١٩٥.

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٣٨.

(٣) كتاب الوزراء ص ١٢١.

(٤) كتاب الوزراء ص ١١٢ والنجوم

الزاهرة ٢٠٨/٣ والهمدانى ص ٢٠، ٣٧.

(٥) النجوم ١٣١/٣.

الوليمة أكثر من عشرين ألف دينار^(١).

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون في هذا القرف كان يعيش فيه أيضاً القواد ، وكان بيدهم مصير الخلفاء وكانوا يفدون أنفسهم منهم بكل ما يطلبون من أموال ، وكانوا يُقَطِّعونهم إقطاعات كثيرة على نحو ما كانوا يقطعون الوزراء ، فكانت لهم ضياع واسعة تغلُّ عليهم أموالاً وفيرة ، ولعل خليفة لم يكن من الإقطاع لهم كما أكثر المقتدر ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقي في عهده كانت تغلُّ سنوياً ثلاثين ألف دينار . وبلغ حينئذ من مكانة القواد أن خلع المقتدر على مؤنس لقب المظفر^(٢) ، ولما قدم بغداد في عام ٣١٢ للهجرة ركب الوزير ابن الفرات للسلام عليه وتهنئته بمقدمه^(٣) ، وهو ما لم تجربه عادة وزير من قبله ، فقد أصبح القواد يقدِّمون على الوزراء . وكان لهم حجائبهم وممايلكهم وحشمهم وخدمهم ونفقاتهم الواسعة على نحو ما كان للوزراء . وبالمثل كان ولاية الأقاليم ، وكان حامد ابن العباس الذي مر بنا ذكره قبل توليته الوزارة للمقتدر والياً على فارس والبصرة ومن ولايتهما كَوْن ثروته الواسعة . ويروى أن خمارويه صاحب مصر حين زوَّج ابنته قطر اندى من المعتضد الخليفة العباسي حمل معها من الجهاز ما لم ير مثله ولا سُمع به ، وكان ابن الجصاص الجواهرى البغدادى القائم على الجهاز ، ويقال إنه سأله هل بقي بيني وبينك من الحساب شيء ؟ فأجابه كَسْرٌ (باق) طفيف وإذا هو أربعمائة ألف دينار^(٤) ، فما بالنا إذن بنفقات الجهاز كله . ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا هدايا الصفار والى فارس للمعتضد وما كان معها من تماثيل وملايين الدراهم وصناديق الثياب^(٥) . وكان مما أرسله إسماعيل بن أحمد الساماني والى خراسان إلى المكتفى سنة ٢٩٢ ثلثمائة بعير عليها صناديق فيها المسك والعنبر والثياب من كل لون^(٦) . وكانما أموال الولايات ودخولها كانت ملكاً للولاة ينفقونها في بذخهم ويهدونها بحسب مشيئاتهم . وتوفي لسنة ٣٠١ على بن أحمد الراسي وكان متولياً من حدود واسط في العراق إلى جُنْدِسابور ومن السوس إلى شهرزور ، وخلف مليون دينار ومن آنية الذهب والفضة ما قيمته مائة ألف دينار

(٤) النجوم ٦٢/٣ .

(١) عريب ص ٥٣ .

(٥) مروج الذهب ١٤٨/٤ .

(٢) النجوم ٢٠٣/٣ .

(٦) النجوم ١٥٦/٣ .

(٣) الوزراء ص ٥٠ .

ومن الخبز ألف ثوب ، وخلف ألف فرس وألف بغل وألف بعير ، وكان له ثمانون طرازاً (مصنع ثياب) تُنسج فيها الثياب التي للمبوسه^(١) وملبوس حرّمه وحواشيه وخدمه .

وكان أبناء البيت العباسي يتقاضون من الدولة رواتب ثابتة ، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة ، وكثيرون منهم كانوا يتولون مناصب مهمة ، وكان منهم دائماً من يحج بالناس في كل عام . وكان الخلفاء ما يزالون يقطعون المقرّبين منهم إقطاعات وضياعاً كثيرة ، بالإضافة إلى كثير من الضياع التي كانوا يترثونها عن آبائهم وأجدادهم . وكان الوزراء كثيراً ما يتقربون إليهم بالهدايا والعطايا ، ويقال إن علي بن عيسى وزير المقتدر كان ينفق في كل سنة - على شحّه - أربعين ألف درهم في صلات اللطاليين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح الحرمين^(٢) وكان المعتضد يُجسّري على أبناء المتوكل وأولادهم ذكوراً وإناثاً ألف دينار شهرياً ، وكان يُجسّري على أولاد الواثق والمهتدي والمستعين خمسمائة دينار في الشهر^(٣) .

وأعان ذلك كله على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيال من أبنائها غارقة في الدعة والنعم ، وفي مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء وبالمثل أبناء كبار الكتاب ، وكثيراً ما كان يصل آباؤهم إلى الوزارة ، وحتى من لم يصل إلى الوزارة كان يتقاضى أحياناً مائة دينار في الشهر وقد يرتفع راتبه إلى خمسمائة^(٤) ، غير ما كان يأتيهم من الهدايا وأحياناً من الرشوة وخاصة من عمال الخراج . وكان منصب القاضي منصباً رفيعاً ، وكان يتقاضى راتباً عالياً مائة وعشرين أو مائتين من الدنانير^(٥) ، ومن الحق أن منهم من كان يتعفف عن أخذ شيء نظير عمله ، ولكن من الحق أيضاً أن منهم من كان مترقاً موسّع الرزق مثل إبراهيم بن جابر القاضي بحلب والعواصم من أرض الشام إذ يروى المسعودي أنه « قطع لزوجته أربعين ثوباً تُسْتَرِي وقصبة » (حريراً) وأشبه ذلك من الثياب في يوم واحد وخلف أموالاً عظيمة^(٦) .

٢٠ ، ٣١٤ .

(١) النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٣ .

(٥) الولاة والقضاة للكندي ص ٣٧٧ ،

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

٤٢١ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

(٦) مروج الذهب ٤/ ١٧٤ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٦ وأنظر ص

وكان يدخل في هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضيايع الواسعة وكبار التجار الذين كانوا يتجرون بروع أموال ضخمة في مطالب تلك الطبقة من أدوات الترف والزينة ، وكان في مقدمتهم النحاسون الذين كانوا يجلبون الرقيق والجواري من أطراف الأرض ، وتجار الطرف النفيسة التي كانت تجلبها السفن من جميع أنحاء العالم . وبالمثل تجار الجواهر ويكنى أن نذكر ابن الجصاص التاجر الجوهري البغدادى الذى أشرف على جهاز قطر الندى بنت خمارويه كما أسلفنا ، فقد هيا لها من الثياب والجواهر وأدوات الزينة ما كلف أباه مائات الألوف ، وحين صودرت أمواله لعهد المقتدر سنة ٣٠٢ للهجرة أخذ منه من المال والجواهر ما عد بالملايين حتى قيل إنه بلغ ستة عشر مليوناً من الدنانير ، ويقول المسعودى : « الذى صحَّ مما قبض من ماله من العين (الذهب) والورق (الفضة) والجواهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار »^(١) . وكانت كل طائفة من التجار تقيم في سوق واحد فيقال سوق النحاسين وسوق الوراقين ، وكان من أقربهم إلى الترف البزازون (تجار الأقمشة) والعطاريون . وكانت أسواق الأخيرين وأصحاب الدهون والخزازين (تجار الحرير) والجوهريين والصيدالة بعضها إلى جانب بعض ببغداد . وكان الأطباء يحصلون على أموال ضخمة ، وخاصة أطباء دار الخلافة وبمارستانات بغداد ، وتزخر كتب طبقات الأطباء بملايين الدراهم والدنانير التي صارت إليهم من الخلفاء ، ويقول محمد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور إن سبب تعلقه بتعلم الطب إنه أصيب برمد في عينيه ، فأبى الطبيب الذى عرض نفسه عليه أن يعالجه إلا بخمسمائة دينار^(٢) . وحتى الشعراء والعلماء والندماء كان منهم من يغدق عليهم الخلفاء الصلوات ، وكذلك الوزراء ، حتى ليغدون من عليّة القوم مثل علي بن يحيى المنجم الذى أثرى ثراء طائلا من منادمتة للخلفاء .

وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وجدنا كثيرين يندمجون فيها ، وفي مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث ، وكان كثير منهم يأخذ رواتب

(٢) حكماء الإسلام للبيهقي ص ٢١ .

(١) مروج الذهب ٢١٨/٤ والنجوم

من الدولة ، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة ، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة ، حتى لقد تكون رغفاناً من الخبز أحياناً ، وكانت هذه الرغفان تختلف باختلاف أسر الصبيان في الغنى والفقر ، ولذلك ضربت الأمثال في الاختلاف والتفاوت بتفاوت رغفان المعلم واختلافها في الجودة ، وكان من الآباء من يدفع أجر أولاده دراهم معدودة . وكان من يعلم أولاد الطبقة العليا تنهال عليه الهبات ويقدر له راتب شهري معلوم .

ويدخل في عداد هذه الطبقة المغنون والشعراء وكان كثير منهم تتدفق عليه الأموال تدفقاً ، وسنعرض لذلك في موضع آخر ، والمهم أن هذا التدفق كان خاصاً بأفراد منهم ارتفعوا إلى الطبقة الأرستقراطية وعاشوا في بذخ وترف شديد ، أما عاينهم فيسلكون في الطبقة الوسطى ، وقد رأينا كبار الكتاب في الدواوين ينتظمون في الطبقة العليا ، ولكن كان وراءهم عشرات إن لم يكن مئات يعملون في الدواوين ويأخذون رواتب متوسطة ، وخاصة في دواوين الخراج ودواوين الجيش وفي أعمال الحسبة ورقابة الأسواق وفي البريد ودواوين الأخبار وفي المكوس والضرائب الجمركية . ويضمّ إلى كتّاب الدواوين وعمّالها رؤساء الجند ممن يملكون القادة ، فلم تكن لهم رواتبهم الرفيعة ، ولكن كانت لهم رواتب متوسطة تكفل لهم رزقاً حسناً .

ومن هذه الطبقة أوساط الصنّاع وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام ، ويدخل في الأثاث صناعة البسط والسجاجيد والمارق والمقاعد والتخوت والوسائد . وكان مركز الصناعات الأسواق مثلها مثل التجارات ، وكانوا جميعاً يتناولون غذاءهم بمطاعم في أسواقهم أو في دكاكينهم ، وكانوا لا يتركونها إلا في المساء . وكان هناك جهابذة كثيرون لاستبدال النقود ، وكانت هناك فنادق للغرباء ، وكانت المساكن تستأجر وكذلك أثاثها . وإذا عرفنا أنه كان يسكن بغداد بضعة ملايين في تقدير بعض المؤرخين عرفنا كثرة من كان بها من التجار والصنّاع ، ونجد من كبارهم من كان يربح في صفقة واحدة ألوف الدنانير^(١) ، أما أوساطهم

(١) الوزراء والكتاب للجيشياري (طبعة

الجلبي) ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

فقلما كان يزيد رأس أموالهم في تجارتهم على ثلاثة آلاف دينار^(١)، وكان الناس يودعون أموالهم لدى بعض التجار الأمناء للتجار لهم بها مناصفة في الأرباح . ونستطيع أن نتصور مستوى المعيشة في بغداد مما يروى من أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهرياً خمسة وعشرون درهماً ، كأن نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد^(٢) . وفي الفرج بعد الشدة للتوخى خبر يدل على مستوى الحياة وأوسط ما كان الناس يتجرون فيه ، إذ يروى عن شخص رقيق الحال أنه ورث أربعين ألف دينار فجأة وعلى غير انتظار ، فبنى لنفسه داراً بألف دينار ، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري ثلاثاً بسبعة آلاف دينار ، وأعطى تاجراً ألفي دينار ليتاجر له فيها ، وخزن عشرة آلاف للشدائد ، واشترى بالباقي ضيعة تُخلل له في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته^(٣) . وقد لا يصور ذلك حياة الطبقة الوسطى تماماً ، ولكنه يشير إلى أن نفقاتها لم تكن كبيرة ، وكان يُعَدُّ من يقتنى سبعمائة دينار صاحب ثروة كبيرة ، وكثير من الصناع والتجار لم تكن ثرواتهم تزيد على ذلك ، وهم الذين كانوا يندمجون في الطبقة الوسطى من الأمة .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهى التى كان يقع عليها عبء العمل كله في الزراعة وفي الصناعات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور ، فهى التى تعمل في الإقطاعات والضبايع ، وهى التى تقوم على تقديم أسباب الحياتين للطبقتين الوسطى والعليا ، عاملة تارة أو صانعة ، أو خادمة تارة ثانية . فكل ما تنقلب فيه الطبقتان من النعيم إنما هو من أيدي هذه الطبقة العامة ، يسلبونه منها بطرق شتى ولا يبقون لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء . ومرة بنا في الفصل السابق ثورة الزنج وكيف أنهم كادوا يدمروا الدولة تدميراً ، لشدة نقمتهم على الأوضاع التى كانت سائدة ، وما كادت تخدم حتى هبت ثورة القرامطة ، وغنت بالدولة هى الأخرى عنفاً شديداً ، وشاعت معها فكرة المهدي المنتظر الذى ينشر العدالة بين الناس في الأرض ، ولو أن دعوة القرامطة وُجِّهت توجيهاً سليماً على أساس العدالة التى

(٢) مصارع العشاق ص ١٥٩ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتوخى ١٧/٢ .

(١) البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكتاب

المصرى) ص ١٠١ .

لا تصلح حياة الناس بدونها وبيان فساد الحكم العباسي حينئذ وما داخله من جور وعسف لنجحت إلى أقصى حد ، ولكنها وُجِهُت توجيهاً خاطئاً على أساس دعوة باطنية ، حتى لكأنما مُحى منها مقصد الإصلاح الاجتماعي ، ولذلك أخفقت إخفاقاً ذريعاً .

ووسائل شتى كانت تُبَسَّرُ بها أعمال هذه الطبقة العامة وما بأيديها من أموال قليلة ، أما من يعملون في الأرض من الأكرّة والزراع فكانوا عبيداً لا يُتْرَكُ لهم إلا ما يسدُّ رمقهم ، وإنَّ سدّه كان ذلك شيئاً كثيراً . وأما صغار الصناع والتجار الأصاغر والفسّلة والفترّاشون والبوابون وكل من يُؤاَفون الطبقة العامة فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يتبلّغون به إلا نادراً وحين يعملون في الدولة بأجر مهما يكن طفيفاً ، لأنه يضمن لهم القوت اليومي . وكان مَنْ يوجد لديه مال كأنما يقع تحت طائلة العقاب بسبب كثرة الضرائب التي كانت تُفَرَضُ حتى على الأسواق وما يُصنَعُ فيها وما يباع ويُسْتَرى . وما زاد هذه الطبقة بُؤساً أن الأسعار لم تكن ثابتة ، فكثيراً ما كان يرتفع ثمن القمح والشعير حتى يصبح حصول العامة عليهما عسيراً وحتى لتجار بالشكوى إلى الخليفة ، على نحو ما صنع أهل البصرة في عهد المعتضد إذ أرسلوا وفداً كبيراً إليه يشكو ما نزل بمدينةتهم من غلاء فاحش آمليْن أن يمدَّ الخليفة لهم يد المساعدة^(١)

وكانت هذه الطبقة تعمل في كل المهن الحفيرة ، ومن المؤكد أنه نشأت طبقات كثيرة حينئذ من الحرّفيين أو المهنيين وأن التخصص أخذ طريقه إليهم ، فكان لكل حرفة أصحابها الخاصون ، يؤكد ذلك ما روى من أن الجاحظ لم تكن له حلقة على وجه بابه إذا أراد اصطفاقه فطلب من نجار أن يثقب له موضعها ، فلما ثقبه قال له : قد جودت الثقب وانظرْ أَى نجّار يدق فيها « الرُّزّة »^(٢) وكأن من النجارين مَنْ كان للثقب ومَنْ كان لتركيب الرزة ، وهو ما يعنى الاختصاص الدقيق . ولا ريب في أن ذلك هو الذي أدّى إلى أن تنشأ في العالم العربي من قديم فكرة النقابات للحرّفيين والصناع وإن كانت حينئذ

لا تعدو دَوْرَ النشأة البسيطة .

وأدّى بؤس هذه الطبقة العامة إلى أن ينشأ فيها كثير من القَرَّادِين وأصحاب الملاهي الصغيرة الطَّوَّافِين والحَوَّاثِين كما ينشأ فيها كثير من المهرجين الذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا ، وكان منهم من يتصل بخليفة أو وزير فتبسم له الدنيا . ونشأ فيها أيضاً كثير من رَاضَةِ الخيل والسَّوَّاس وأصحاب القنص والصيد بالكلاب والفهود . ونشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمُكْنَدِين ، وكانوا حينئذ خليطاً من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك ، مستعملين كل حيلة من شعر أو تُقْسَى أو رُقِيَّة ، فهم يطلبون المال من كل طريق ، مستخدمين كل حيلة . ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المر أن كثر بها اللصوص ، حتى غدوا في أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد ، لكثرتهم ، ولشدة فتكهم ، ويشير الجاحظ إليهم في كتاباته مراراً كما يشير إلى رؤسائهم وأنه كانت لهم مروعة الفرسان ، وكأنهم كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية^(١) .

ووراء تلك الطبقات الدنيا والوسطى والعليا كان هناك عدد ضخم من أهل الديانات الأخرى ، من النصارى واليهود والمجوس والصابئة ، وكانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم في ذمة الإسلام وعهده ورعايته وما وضعه من مبادئ التسامح الرائع ، فإذا هم يَصَانُون وَيُحَرَّسُونَ وَيُحَرَّسُونَ نساؤهم وأسرهم ، حتى ليصبح لكل أهل ملة منهم كياناتهم الخاص فلهم معابدهم ولهم رؤساؤهم الدينيون : للنصارى مثلاً الجاثليق والبطرك . ولهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم في خصوصياتهم . تسامح لم يَعْرِفْهُ دين ولم تَعْرِفْهُ أمة قبل الإسلام ، ولا ظلم ولا جور ، بل عدالة مطلقة تهمهم وحماية بدون حدود ، وليس عليهم للدولة إلا ضريبة مالية محدودة هي الجزية التي لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، أما المريض بعلة لا بُرءَ منها وذوو العاهات والأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين في كل ملة فلا يؤدون شيئاً ، ولم تكن هذه الضريبة أو الجزية تتعدى ثلاثة دنانير لأصحاب

(١) انظر قصة خالد بن يزيد في مطالع كتاب البغلاء .

الثراء الطائل منهم ودينارين متوسطى الثراء وديناراً لعامتهم ممن يتكسبون كسباً لا يضيرهم معه دفعه . وكانت قيمة الدينار حينئذ نحو اثني عشر درهماً ، وهذا كل ما يدفعونه فى العام المتطاوّل ، وهو فى حقيقته لم يكن سوى ضريبة دفاع عنهم . ويتراوح ما كان يؤديه أهل الزمة ببغداد فى أوائل القرن الثالث بين مائة وعشرين ألف درهم ومائتى ألف^(١) ، مما يدل على أن دافعى الجزية فى تلك الحقب كانوا لا يزيدون على نحو عشرين ألفاً ، فإذا أضفنا إليهم العاجزين عن الكسب من النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً تبين أن عدد أهل الزمة حينئذ ببغداد كان لا يقلّ عن نحو ستين ألفاً . وكانوا جميعاً يشدّون إلى أوساطهم زناير أشبه بأحزمة .

وكان أهل بغداد وغير بغداد من المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة ، فكانوا يوسعون لهم فى كل عمل معهم ، وكانت العامة تأنس خاصة للمسيحيين منهم ، إذ كانوا يؤثرونهم على المجوس ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود ، كما يقول الجاحظ فى رسالته الرد^(٢) على النصارى ، وفيها يذكر أن الخلفاء والولاة قربوهم منهم واستخدموهم فى الدواوين وقاموا لهم على كثير من شئونهم وأنهم كانوا ينهضون بحرف جليّة مثل العطارة والصيرفة ، وكان منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعليّة القوم وأطباء البيمارستانات ، حتى استقر فى أنفس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحياً . أما اليهود فكانوا يعملون فى أسقر المهن ، حتى ليقول الجاحظ فى الرسالة آنفة الذكر : « لا تجد اليهودى إلا صباغاً أو دبّاغاً أو قصّاباً (جزاراً) أو شعّاباً (مصلح جرار وأحذية) » ؛ ويقول ابن قتيبة إنهم أنثى خلق الله فناء^(٣) . وكان النصارى يتخذون أفخر الدواب والثياب والخدم ويتمتعون مثل العلية بلعب الصوالحة ، وحتى تسموا بأسماء المسلمين مثل الحسن والحسين كما يقول الجاحظ .

ويأمر المتوكّل لسنة ٢٣٥ ، بأن يلبس أهل الزمة كلهم الطيلاس العسليّة

(١) كتاب الحراج لقدامة (طبع ليدن) (٢) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن)

ص ٦٦ .

ص ٢٥١ وابن خرداذبة ص ١٢٠ .

(٢) انظرها فى ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكر .

ويشدوا في أوساطهم الزنانير وأن يركبوا السروج بركب الخشب ويجعلوا على مؤخرها كرتين ومن لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين يجعل عليها زرين ، وأمر أيضاً أن يجعلوا رقعتين على ثياب مماليكهم يخالف لونهما لون الثوب الموضوعين عليه ، وتوضع إحدى الرقعتين على الصدر والأخرى خلف الظهر ، وكل من الرقعتين بمقدار أربع أصابع ويكون لونها عسلياً ، وتلبس المرأة منهم إزاراً عسلياً وأمر بهدم بيعتهم وكنائسهم المحذثة والأيستعان بهم في الدواوين وأعمال الدولة ، حتى لا تجرى أحكامهم على المسلمين^(١).

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفّف عن النصارى حتى لنجدته هو نفسه يجعل النفقة في سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرى بيد دُليل بن يعقوب النصراني كاتب بُغا^(٢). وكثر أهل الذمة بعده في الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة في سنة ٢٧٢ للهجرة تتور عليهم^(٣).

ويعظم أمر أهل الذمة في أواخر القرن الثالث ، إذ يكثر استخدامهم في الكتابة وفي أمور المسلمين فدأمر المقتدر لسنة ٢٩٦ بالآلا يستخدم أحد منهم إلا في الطب والجهينة وأن يطالبوا بلبس العسلى وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم^(٤) ، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتّاب كان يدعوهم يومياً إلى طعامه مع خمسة آخرين اختصّ بهم جميعاً^(٥).

وواضح من هذا كله ما يدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأوامر التي كانت تصدر أحياناً بالاشتديد عليهم لم تكن تنفذ ، وأنهم كانوا يعملون في مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج . وكان كثير منهم — وخاصة من النصارى — يعيشون في نعيم غدق لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة .

(١) طبرى ١٧١/٩ وانظر ١٩٦/٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣/١٦٥ .

(٢) طبرى ٢٧٢/٩ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٤٥ وانظر ص ٩٥ .

(٣) طبرى ٩/١٠ .

الحضارة والترّف والملاهى

رأينا تفنّن الخلفاء والوزراء فى بناء القصور ، حتى يشبه بعضها مدناً صغرى تمتلئ بالآبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والحدّاول والبرك والنافورات ، مع التأنق فى أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفه حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها ، ومع ما يمجج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر .

وقد افتتح العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التى كلفت الدولة ملايين الدنانير ، ويكفى لتصور ما كان فى عصره من بذخ وترّف شديد أن نروى ما قصّه الرواة عن حفّله الذى أقامه بمناسبة إعدّار (ختان) ابنه المعتز ، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتبس فى خزائن الفرش بساطاً لإيوان قصر البركوار الذى أقام فيه الإعدّار ، وأن يكون فى طوله وعرضه ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ، ووجد طلبته : بساطاً مذهباً مبطناً ، يقال إن التجار قوّموه بعشرة آلاف دينار . وبُسط فى الإيوان ووُضع للمتوكل فى صدره سرير ، مُدّ بين يديه أربعة آلاف مرفع (كرسى) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والندّ والكافور . ومدّت الموائد وتغدّى المتوكل والناس . وجلس على السرير ، وأحضِرَ الأمراء والقواد والندماء فأجلسوا على مراتبهم ، وجيء بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، صبّت فيها حتى ارتفعت . ووزّع الغلمان الشراب ، ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث جففات أو ما حملت يده من ذلك المال . وكان الناس يجمعونه فى أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم . وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدراهم حتى يعود كما كان . وخلع على سائر

مَنْ حضر ثلاث خلع ، وحُمِّلوا عند انصرافهم من الحفل على الخيل المطهَّمة ، وأعتق المتوكل ألف رقبة ، وأمر لكل عتيق بمائة درهم وثلاثة أثواب . وكان في صحن الدار بين يدي الإيوان أربعمائة جارية بين أيديهن أطباق الفواكه من كل صنف ، وخمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج . ترف لا يماثله ترف ! . ونثر المتوكل على هؤلاء الجوارى وخدم الدار والحاشية عشرين مليون درهم ، ونثرت زوجته قبيصة أم المعتز مليون درهم على المزين ومن كانوا في جانبه من الغلمان وبعض الجنود وقهارة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان . مال ينفق ويبعث بدون حساب ، وكأنما أمسك به سفهاء ، لا يعرفون حقوقاً لرعية ولا يقدرّون مسئولية . وحضر الحفل كثير من الندماء في مقدمتهم ابن حمدون وابن المنجم ، وكثير من الشعراء في مقدمتهم الحسين بن الضحاك وعلى ابن الجهم ، وكثير من المغنين في مقدمتهم عمرو بن بانه وابن المكى وعشعث وسليمان الطبال وصالح الدفاف وزُناَم الزامر ، وكثير من المغنيات في مقدمتهن عريب وبدعة جاريتهما وشارية وجواريها . ويُقال إنه أنفقَ على هذا الإعداد أوالختان . وثمانون مليوناً من الدراهم^(١) . سفه ما بعده سفه !

وعلى هذا النحو كانت ملايين الدراهم والدنانير تُنْفَقُ بدون حساب وبدون أى رقابة في حفلات القصر ، وهى حفلات أمدّت القصص في كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع في الخيال الواهم من بذخ وترف لا ضفاف له ، وبدلاً من أن توجه هذه الملايين إلى مرافق الشعب وحاجاته أو إلى إعداد الجيوش في حروب الترك والبيزنطيين كانت تبدّد هذا التبديد الأحقر والشعب يكدح ويشقى ويسيل عرقه مدراراً ويتجرّع غُصَص البؤس والحرمان ليعبث المتوكل وغير المتوكل بأمواله ، فإذا قصور شاء تُبْسَنى ويُنفق فيها الملايين تلو الملايين ، وإذا هـي تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس وتُنشَر حمول الذهب والفضة . ويروى أن المتوكل شرب يوماً في القصر السالف ذكره المسحى بالبركوار ، فقال لندمائِه ، ولم تكن الأيام أيام ورود ورياحين : أرأيتم إن عملنا احتفالاً بالورود

(١) الديارات للشاهشي (الطبعة الثانية)

أو كما نطقه بالفارسية : « شاذكلاه » ، فقالوا له : لا يكون الشاذكلاه إلا بالورد ، وليست الأيام أيام ورد ، فقال : ادعوا لى عبيد الله بن يحيى — وكان أحد وزرائه — فحضر ، فقال له : اضرب لى دراهم ، فى كل درهم حبسّتان من الفضة ، فسأله : كم المقدار يا أمير المؤمنين ، فأجابه خمسة ملايين درهم ، فأمر عبيد الله بضربها ، فضرِبَتْ . وأنبا المتوكل بضربها ، فقال له : اصبغ طائفة منها بالحمرة وطائفة بالصفرة وطائفة بالسواد ، واترك طائفة على حالها . فصنع عبيد الله ما أمره به ، ثم تقدم المتوكل إلى خدمه وحواشيه — وكانوا سبعمائة — فأمرهم أن يُعِدَّ كل منهم قباءً جديداً وقلنسوةً بخلاف لون قباء صاحبه وقلنسوته ، ففعلوا . ثم تحيّن يوماً فيه ريح ، فأمر أن تُنْصَبَ قُبَّةٌ لها أربعون باباً ، فاصطحب فيها والندماء حوله ، وعلى الخدم الكسوة الجديدة ، وأمر المتوكل بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، طائفة طائفة ، فنُثِرَتْ تبعاً ، وكانت الريح تحملها لخفتها ، فتتطاير فى الهواء كما يتطاير الورد^(١) .

وكل هذا من الفراخ ومن الترف المفرط ، فإذا الخلفاء ينعمون بالحياة إلى حد السفه والهوس . وطبقات من ورائهم قُتِرَ عليها فى الرزق ، فهى تعيش فى ضنك وضيق شديد . ولعل هذا هو السبب فى أن الشعب لم يهتم أى اهتمام بما كان يجرى فى القصر من تحكّم الأتراك فى الخلفاء ، كأنهم لا يعنونهم فى شيء . وكل يوم يسمعون بجديد من هوسهم وسفههم ، كأن يسمعو بأن المتوكل حين انتهى من بناء قصره الجعفرى استدعى أصحاب الملاهى ، فقدموا له بعض المساخروالملاعب المضحكة ، ومنحهم مليونين من الدراهم^(٢) . وبحقّ يقول المسعودى إن النفقات لم تبلغ فى وقت من الأوقات ما بلغت فى أيام المتوكل^(٣) . وكان أكثر أبنائه على غراره من مثل المعتز ، وكان يكثر من عقد مجالس الشراب فى قصوره ، وهو أول من ركب من الخلفاء بحلية الذهب^(٤) . ولم يتوقف هذا البذخ والترف طوال العصر ، ويصوّر ذلك من بعض الوجوه استقبال المقتدر لرسول ملك الروم سنة ٣٠٥ للهجرة وقد جاءوا يطلبون عقد هدنة ، إذ فُرِشت قصوره بأجمل الفرش ومُلئت دار الخلافة

(٣) مروج الذهب ٣٩/٤ .

(٤) مروج الذهب ٩٤/٤ .

(١) الديارات ص ١٦٠ .

(٢) طبرى ٢١٢/٩ .

ودها ليزها وممراتها وصحونها بالهند والسلاح ، وابتدأ ذلك من باب السَّماسية إلى دار الخلافة ، وكان عدد الجند مائة وستين ألفاً بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة ، وكان عَدَدُ الغلمان سبعة آلاف خادِم وسبعمائة حاجب بالبيزَّة الرافقة والسيوف والمناطق المحلاة . وكان في دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والشبَّارات والزلاّلات والسَّميريات (سفن شتى) بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة . وسار رسل ملك الروم ومن معهم من المواكب إلى أن وصلوا إلى دار الخلافة ، ودخلوا قصر الجوسق بين بستانين رائعين ، ورأوا بركة عجيبة يمدُّها جدول وبها أربع طيارات مذهبة مزينة بالدبيق المطرز ، ثم أدخلوا قصر الشجرة ، وهي شجرة من الفضة كانت قائمة وسط بركة مدورة ، ولها ثمانية عشر غصناً عليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة تصفر ، والشجرة تتمايل وورقها يتحرك على نحو ما تُحدث الرياح للأشجار الطبيعية ، ثم أدخلوا إلى قصر الفردوس وبه من القرش ما لا يقوّم ، وفي الدهاليز عشرة آلاف درع مذهبة معلقة ^(١) ، مما راع رسل ملك الروم روعة شديدة .

ويقول هلال بن المحسن الصابى جرت العادة أن يكون جلوس الخليفة على كرسي مرتفع في عرش أرمي من الحرير أو من الحرّ وأن يلبس قباء أسود من الإبريسم (الحرير) وعلى رأسه معمة سوداء ، ويتقلّد سيف الرسول عليه السلام ويلبس خفّاً أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بُردة النبي صلى الله عليه وسلم ويمسك بقضيبه ، ويقف الغلمان والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم الطَّبَرَزِيَّاتُ والدَّبَائِيسُ (من أسلحة الحروب) . وكان يقوم من وراء السرير وجانيه خدم صقالبة يذبّون عن الخليفة بالمذابِ المقمّعة بالذهب والفضة ، وتُمدّ أمامه ستارة ديباج إذا دخل الناس رُفعت ، وإذا أريد صَرَفُهم مُدَّت . ورُتّب في الدار قريباً من المجلس خدم بأيديهم قِسيّ البندق يرمون بها الغربان والطيور لثلاثين ناعب أو يصوت مصوت . ترف ليس قوفة ترف ، حتّى أذن الخليفة يحرسونها من أصوات الغربان والطيور . وكان زىّ الأمراء من أهل البيت العباسي الأقبية السود ، ويلبس القضاة الطيااسة .

(١) رسوم دار الخلافة للصابى ص ١١ وما بعدها والنجوم الزاهرة ١٩٢/٣ .

والقلنسوات الضخمة^(١). ويلبس الوزراء الأقبية السود وينتطقون بالسيوف وقد يلبسون دراعة وقميصاً ومبطنة وخفّاً^(٢). وكان السود هو اللباس الرسمي العام، وكانوا يلبسون في أرجلهم الجوارب والأحذية السود المشدودة بالزنابير. وفي يوم الموكب كان يحضر حاجب الحجاب بأكل لباسه من القباء الأسود والعمامة السوداء والسيف والمنطقة، وأمامه الحجاب ونوابهم، ويجلس في الدهليز من وراء الستر، ثم يحضر الوزير وقائد الجيش، ويتكامل الناس فيراسل حاجب الحجاب الخليفة، فإذا أذن الإذن العام دخل وحده حتى يقف في الصحن ويقبل الأرض، ثم يؤذن له بتقديم الناس، فيخرج ويدعو ولي العهد إن وجد، وكذلك أولاد الخليفة، إن كان له أولاد، ثم يدخل الوزير، ويمشي الحجاب بين يديه إلى مقربة من العرش، فإذا قرب تأخروا عنه، وتقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فإن مدّ يده إليه أخذها وقبلها وتراجع حتى يقف في يمين العرش على بعد خمسة أذرع منه، ويدخل بعده قائد الجيش أو أميره فيقبل الأرض ويقف على يسار العرش، ثم يدخل أصحاب الدواوين والكتّاب، ثم القواد ونواب الحاجب على مراتبهم، ويقفون يميناً وشمالاً على رسومهم، ثم ينادى على بني هاشم والقضاة ومن يلبسون القلانس ويسلمون ويقفون منفردين، ثم يقع الإذن العام فيدخل الجنود ويقفون صفين. وكل ذلك تعقيد أدت إليه الحضارة والترف وأن الناس لا يشتركون في الحكم ولا يشاطرون فيه، فتحول إلى رسوم وشكليات وآداب لا يعرفها العرب ولا يعرفها الإسلام. وكان للوزراء بالمثل مواكبهم، وكذلك كان للقواد، ويروى أن نازوك أحد قواد المقتدر كان يمشي في موكبه بين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى حملة المشاعل^(٣).

وكان يرافق هذه الأبهة أبهة في المسكن والملبس والمطعم، فكانت السور الجميلة تعلّق دائماً على حيطان المسكن، وكانت تُفَرّش أرض غرفه وممراته وصحنه بالبسط والسجاجيد، وتمتد فوقها المقاعد والوسائد والمارق، وكانت القصور تكتظ بذلك اكتظاظاً شديداً، ويصوّر ذلك من بعض الوجوه أن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرُخَّجِيّ أحد كبار موظفي الدولة، وصادر أمواله،

(٣) رسوم دار الخلافة ص ١٠.

(١) رسوم دار الخلافة ص ٩٠.

(٢) كتاب الوزراء للصافي ص ٣٢٥.

حملت فُرُشٌ وأمتعة من داره على خمسين بعيراً^(١)، فما بالنا بما كان في قصور الوزراء، فضلاً عن الخلفاء، من فرش فخمة. وعلى نحو ما كانوا يهتمون بالفرش كانوا يهتمون بالثياب، حتى كانت صناعتها أهم الصناعات وأرقاها، وكان الصانع يتفنن في صنعها من الخَزِّ والديباج والحرير. ويروى صاحب الديارات أن المتوكل جلس يوماً في أحد قصوره على عرش من الذهب وعليه ثياب وشئ مُثْقَلَةٌ، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا في ثياب وشئ مثله^(٢)، وكان الخدم يقفون بين يديه وعليهم ثياب حمراء موروثة^(٢). ويقال إن المستعين هو الذي أحدث لبس الأكام الواسعة فجعل عرضها ثلاثة أشبار، وصغر القلائس وكانت طويلة كأقباع القضاة^(٤). وكان المعتضد يلبس الثياب الدبيقية الرقيقة التي كانت تُصنع بمصر والثياب الحريرية التي كانت تصنع بمدينة تُسْتَر وغيرها من المدن الفارسية^(٥). ويروى أن إسحق بن إبراهيم المصعبي حاكم بغداد لعهد المتوكل أهدى إلى عمرو بن بانة مغني العصر عشرة أثواب خز أقلها قيمة بمائة دينار^(٦)، وكان خليفته على بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر يتأنق في ثيابه، وقيل إنه كان بينها ثوبان من الوشئ قيمتهما ألف وخمسمائة دينار^(٧)، ومروء بنا أن الراسبي والى إيران كان له مصنع خاص تنسج فيه ثيابه وثياب حواشيه وأصحابه. وكان الشعراء مثل المغنين يلبسون الخز والوشئ والثياب الحريرية^(٨). وكانوا يلبسون في الشتاء القراء والثياب الصوفية، واشتهر ثوب باسم الممطر كان يُصنع من القماش المشمع للوقاية من المطر، ونرى البحري يسأل إبراهيم بن الحسن بن سهل ثوباً منه^(٩). ولبسوا الجوارب الصوفية والقطنية والحريرية والأحذية الحمراء^(١٠). ويبدو أن الرجال كانوا يتنافسون في اقتناء الحجارة الكريمة، إذ نرى نفرًا منهم حين تصادر أمواله تصادر بينها جواهر ثمينة تبلغ قيمتها ألوف الدنانير^(١١). وكانت خزائن الخلفاء تكتظ بالجواهر من كل صنف،

(٧) الديارات ص ١٢٣.

(١) طبري ٩/ ١٦١.

(٨) البيان والدين ٣/ ١١٥.

(٢) الديارات ص ١٦١.

(٥) ديوان البحري (مضع دار المعارف) ٢/ ٨٩٢.

(٢) ان بارات ص ٥٧.

(١٠) تاريخ بغداد ١١/ ١٦٦ والأغاني ٦/ ٨٥.

(٤) مروء - الذهب ١/ ٩٤.

(١١) طبري ٩/ ١٦١.

(٥) مروج للذهب ٤/ ١٦٨.

(٦) الديارات ص ٤٤.

ويُذَكِّرُ أنه كان عند المستعين فَصٌّ ياقوت أحمر اشتراه الرشيد بأربعين ألف دينار^(١)، ويُرَوَّى أن المقتدر طلب الصناديق وأوعيتها المحفوظة بالخزائن ، فاختار منها مائة حبة ، ونظمها سُبُحَةً يسبح بها وعُرِضَتْ على تجار الجواهر فقوّموا كل حبة منها بمائة ألف دينار أو تزيد^(٢).

وكان النساء حرائر وجواري يبالغن في أناقتهن وزينتهن ، فكان يَلْبَسْنَ ثياب السندس والإستبرق والوثنى النفيس من كل لون وكن يتجلين بالجواهر من كل صنف : من الذهب والفضة والزمرد والياقوت واللؤلؤ ، وكنَّ يتخذن منها تيجاناً وعقوداً وأقراطاً وخلائيل ، وكنَّ يَضَعْنَها بصور مختلفة على عصائبهن ومراوحهن . ويُرَوَّى أنه كان لدى قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز ثلاثة أسفاط : سَفَطٌ مملوء زمرداً ، وسَفَطٌ مملوء ياقوتاً وسفط مملوء دُرّاً كبيراً ، وقوِّمَتِ الأسفاط فبلغت قيمتها مليونين من الدنانير . وكان النساء يتخذن أمشاطاً من الصدف والصندل^(٣) . وكن ينفغن في أوضاع شعورهن على رعوسهن وجباههن ، وقد يلوينها على أصداعهن في هيئة حرف النون أو على هيئة العقرب ، وفي ذلك يقول ابن المعتز^(٤) :

لَوَى صُدْغُهُ كَالنُّونِ مِنْ تَحْتِ طَرَّةٍ مُمَسَّكَةٍ تَزْهَى بِعَاجِ جَبِينِ
وَيَقُولُ أَيْضاً^(٥) :

رِسْمٌ يَتَّبِعُ بِحَسَنِ صَوْرَتِهِ عَبَثَ الْفَتُورِ بِلَحْظِ مُقْلَتِهِ
وَكَاَنَّ عَقْرَبَ صُدْغِهِ وَقَفَتْ لَمَّا دَنَتْ مِنْ نَارِ وَجْنَتِهِ

وكن يتعطرن بطيب المسك كما أشار إلى ذلك ابن المعتز في البيت الأول وبطيب الغالية والزعفران والعنبر . ويقال إن عَرِيبَ المَغْنِيَةِ المتوفاة سنة ٢٧٧ عن سِنِّ عالية كانت تغسل شعرها من أسبوع إلى أسبوع وتغلفه في كل غَسَلَةٍ بستين مثقالاً من المسك والعنبر^(٦) . ويقول الجاحظ إن المرأة من الطبقة الوسطى حين كانت تهَيِّئُ ابنتها للزواج كانت تحليها بالذهب والفضة وتكسوها الثياب الحريرية وتغمرها

(١) مروج الذهب ٤/ ٨٣ . (٤) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر بيروت)

(٢) طبرى ٩/ ٣٩٥ . ص ٤٤٠ .

(٣) نساء الخلفاء لابن السامى (طبع دار . (٥) الديوان ص ١٠٠ .

(٦) المعارف ص ١٠٦ . (٦) أغاني (طبعة السامى) ١٨/ ٨٧ .

بالطبيب العَبَّيق^(١) . وازدهرت حينئذ بفارس صناعة الروائح العطرية من الزهور والورود والرياحين المتنوعة .

وتفننوا في المطاعم إلى غير حد ، تدل على ذلك المصنفات الكثيرة التي ألقت حينئذ في فن الطبخ للحارث بن بُسْخَنَر (من المغنين) ولإبراهيم بن العباس الصولي ولعلي بن يحيى المنجم ولجسَّطَة البرمكى وغيرهم على نحو ما يشير إلى ذلك ابن النديم في كتابه الفهرست^(٢) ، وكان الخلفاء يأكلون في آنية الذهب والفضة ، ويذكر أن المكتفى كانت تقدِّم على مائدته عشرة ألوان في كل يوم سوى صنوف الحلواء^(٣) ، وكان ما يقدم قبل الخليفة القاهر على مائدة الخلفاء من صنوف الطعام والحلواء يقدر بثلاثين ديناراً^(٤) ، ويقال إن ثمن المسك الذي كان يُسْتَفَقُ يومياً في مطبخه عشرة دنانير^(٥) فما بالنا بما كان ينفق على الطعام والحلواء والفاكهة . . . وبالمثل كان الوزراء يسرفون في الإنفاق على طعامهم وموائدهم ، ومراً بنا أنه كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها في كل غداء أفواج من الناس . ويقول الصابى في كتابه الوزراء إنه كان لابن الفرات مطبخان : مطبخ للخاصة ، ومطبخ للعامة ، وكان يقدم إلى الأخير يومياً تسعون رأساً من الغنم وثلاثون جدياً غير المئات من الدجاج ، وكان الخبازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار . ويصف لنا الصابى مائدته الخاصة به وبأصحابه المقربين ، فيقول : إنه كان يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من أصفيائه الكتاب ، وكان بينهم أربعة نصارى : « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء ، ثم يجتمعون في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكثرى ، ومعه طست زجاج يرُمسى فيه بالثفل . فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شربت الأطباق وقُدِّمت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشاة بدبيق فوق مكبة خيازر ، ومن تحتها سفرة (مفرش) آدم فاضلة عنها ، وحواليها مناديل . . . فإذا

(١) البخلاء (طبعة دار الكاتب المصري) ص ٢٥ . (٢) مروج الذهب ١٩١/٤ .

(٢) الفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية) (٤) عريب ص ١٨٣ .

المكتبة التجارية بمصر) ص ٤٥٤ . (٥) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ .

وُضعت رُفعت المكبة (غطاء الآنية) والأغشية ، وأخذ القوم في الأكل ، وابن
الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم . فلا يزال على ذلك ، والألوان تُوضَعُ
وتُرفعُ أكثر من ساعتين . ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه
ويغسلون أيديهم ، والفَرَاشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم
المناديل الدبقيّة ورطليّات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم^(١) ، وكان
العباسيين لم يتركوا للمدنية الحديثة شيئاً .

وكان في بيوت الكبراء شرابى يعنى بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح^(٢) ، وكان
يجانبه الشوّاء والطبّاخ والخبّاز والخبّاص وهو الذى يصنع الحلوى ، وفي كتاب
البخلاء للجاحظ وغيره من كتب العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل السكّاج ، وهو
لحم يُطَبّخُ بخلّ ويضاف إليه شئ من الزعفران لتطيب رائحته ، والمَصْبُور
وهى لحم ممزوج ببعض التوابل ، والشبارقات وهى شرائح مشوية من اللحم ، والطباهج
وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والمريسة وهى لحم وماء وسميد إلى غير ذلك من
أطعمة كثيرة . ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ، ومنها اللوزينج ، وكان يتخذ من
اللوز والدقيق والفسق ويزرّسُ بماء الورد ، ومنها الفالودج وهو حلوى من
النشا وعسل النحل والسمن ، والخشكّنان وهو كعك يُحشّى بالجوز والسكر .
ثم الأشربة ومنها الجلاب وهو شراب ممزوج بماء الورد . وكانت تقدّم مع الطعام
المشهيّات ويسمونها النُقُل ، وكانت تتألّف — كما فى عصرنا — من أشياء حريفة .
وكتبوا كثيراً عن آداب الطعام نجد ذلك منشوراً فى كتاب البخلاء للجاحظ وعيون
الأخبار لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم وكتاب الموشى للوشاء ، وفيه فصل طريف
عن زى الظرفاء فى الطعام .

وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام ، وفيه يكون السمر ، وداًئماً
نجد الندماء ، وكان لكل خليفة ندماءه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يوردون

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة للتونى ١١/٢ .

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

النوادر والفكاهات ومن يعرفون كيف يرضونه في ساعات صفوه وساعات سخطه ، وكانت تغمرهم الصلوات السنية على نحو ما يُروى عن علي بن يحيى المنجم وما قيل من أنه وصله من المتوكل وحده ثلثمائة ألف دينار ، وكان نديماً ممتازاً ، فهو شاعر وطبيب وأديب ومضحك وصاحب نوادر . وتخصصت أسرة حمدون بهذه الصناعة ، وهى من سلالة حمدويه صاحب الزنادقة في عصر المهدي ، فكان إبراهيم بن حمدون ينادم المعتصم ثم الواثق ولحق عصر المتوكل ، وكان ينادم المعتمد منهم أبو محمد بن حمدون ، أما أبو عبد الله أحمد بن حمدون فكان ينادم المتوكل وغيره من الخلفاء ، ويقال إن المتوكل وصله في مدة خلافته بثلثمائة وستين ألف دينار وإن المستعين وصله بأكثر مما وصله به المتوكل^(١) . ونجد في بلاط المتوكل كثيرين من الندماء ، ومنهم أبو العبر وأبو العنيس الصيمرى الذى قلد أمامه البحرى في إنشاده الشعر تقليداً مضحكاً . وكان المعتمد كثير الندماء مثل المتوكل . وفي مروج الذهب حديث دقيق لبعض ندمائه عن آلات الطرب والغناء والرقص ، ويقول المسعودى بعقب ذلك : « وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس في أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وذكر فضائله »^(٢) ، ولا بد أن يكون كشاحم استفاد في كتابه « أدب النديم » من ذلك فوائد كثيرة . وكان المعتضد يفرد حجرة للندماء ، ليستدعيهم منها ، وكان لكل منهم نوبته أو دوره^(٣) . واشتهر الراضى بأنه كان يوسع في مجالسه للندماء « ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه في أى يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب ، منهم محمد بن يحيى الصولى وواحد من بنى حمدون »^(٤) . وكان للوزراء ندمائهم ، بل كان أيضاً لعليّة القوم وكبار الموظفين في الدولة ، ويكفى أن نعرف مثلاً أن أحمد بن المدبر كان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم^(٥) ، ومن المؤكد أن وظيفة هؤلاء الندماء هى التى دفعت الجاحظ إلى كتابة مصنفه البخلاء للتسلية والتندير ، وكثر من حوله

(١) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢/٢١٧ . (٤) مروج الذهب ٤/٢٤٤ .

(٢) مروج الذهب ٤/١٣٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٧/٣٨٠ .

(٥) مروج الذهب ٤/١٦٣ .

التأليف في المغفلين وأصحاب النوادر والفكاهات ^(١) .

وكانوا يُشَغِفُونَ - وفي مقدمتهم الخلفاء - بضروب كثيرة من الملاهي ، ويقال إن مجالس المتوكل كانت تمتلئ* باللعب والهزل ^(٢) ، ومن كان يعجب بهم أصحاب السماجة أو كما نقول الآن التمثيل الهزلي ، الذين كانوا يقلدون الناس في حركاتهم وأصواتهم ^(٣) . وكان هو وخلفاؤه كثيراً ما يتفرجون على نطاح الكباش والديكة ^(٤) وتواب السباع والفيلة . ويحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتز استدعاه ، حتى إذا كان بمجلسه أسمع غناء شارية وزمرزنام ، وأراه آلة عملها أحمد بن موسى الخوارزمي من نحاس يُرسل فيها الماء فيُسمع لها زمر السرناي (آلة من آلات الطرب) ، ثم أدخله إلى نافذة رأى منها الفيل والسبع كيف يتوثبان ^(٥) . ومن أهم ملاهيهم لعبة الشطرنج ، وكان من يحسنها تُفْتَحُ له أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مثل أبي القاسم التوزي الشطرنجي ، ومثل محمد بن يحيى الصولي ، ويقال إن المكتفي استقدمه حين علم بإحسانه لعبة الشطرنج ، وجعله يلعب بين يديه مع لاعب آخر كان مشهوراً بلعبه هو الماوردي ، ولكن الصولي قهره وغلبه ^(٦) . ويحدثنا المسعودي بعقب ذكره ذلك عن الشطرنج وكيف أنه كان يُلْعَبُ على رُقْعَة آدم مربعة حمراء ، ويعرض لآلاته وأنواعها واختلاف هياتها ، فيذكر بجانب الرقعة المربعة السالفة رقعة مستطيلة ورقعة مدورة ورقعة نجومية وتسمى الفلكية . ويقول المسعودي إنه استحدثت في زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية ، سَمَّوْا كل بيت من أبياتها باسم جارحة من جوارح الإنسان ، ويقول إن للاعبينها وهواتها فنوناً من الهزل والنوادر البديعة . وكانوا يقامرون ويراهنون في لعبة الشطرنج ، وكذلك في لعبة النرد (الطاواة) وكانوا يلعبونها عادة على رقعة

كان بدار الخلافة منذ المعتصم حظيرة للحيوان

تسمى حير الحيوان . انظر الأغاني (طبعة

السامي) ١٣٠/١٠ .

(٦) مروج الذهب ٤ / ٢٣٢ .

(١) الفهرست ص ٤٤٩ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٤ .

(٣) الديارات ص ٣٩ .

(٤) مروج الذهب ٤ / ١٠٣ .

(٥) الديارات ص ١١٠ ومعروف أنه

بها أربعة وعشرون منزلاً بثلاثين حجراً وفصين يجرى بهما اللعب كما هو معروف في عصرنا . وكان إبراهيم بن المدبر وزير المعتمد مشغوقاً به وكان ماهراً فيه ، فكان يطلب بلعبه القمار وكسب الرهان ، ويروى صاحب الديارات أنه ربح من شخص ذات يوم عشرين ديناراً^(١) .

واعلم ملهى لم يشغل الناس كما شغلهم الغناء ، وسنعرض لذلك في موضع آخر ، وكثيراً ما كانوا يتجمعون في تلك الحقب للفرجة على سباق الخيل ، حتى كانت أيامه أشبه بأيام الأعياد . وكذلك كان اللعب بالصوالحة على الخيل ، حيث تضرب كرة ويتقاذفها الحيالة والفرسان ، وكانت في دور الخلفاء ميادين خاصة لتلك اللعبة^(٢) ، وكان يلعبها الخلفاء والوزراء والقواد وحواشيهم ، ويروى أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد دخل ميداناً في داره يوم جمعة ليضرب الصوالحة مع بعض غلمانة ، فركب فرسه ، وثقل ، فصدمه غلامه رشيق ، فسقط عن فرسه ميتاً^(٣) . ويصور ابن فتيه هذه اللعبة والتفوق فيها ، فيقول إن الضارب يضرب الكرة بالصولحان خلسةً من تحت مخزّم الدابة لتقاء لبّتها ، وعليه أن يحسن كفّ الدابة في شدة جريانها متوقياً من الصرعة والصدمة المفاجئة .

وكانوا يخرجون للصيد والقنص أفواجاً ، واشتهر غير خليفة بالخروج له ومعه الكلاب والصقور والفهود ، وكان من أشد الخلفاء شغفاً به المعتضد « وكان كالمعتصم في أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر بيته وبنيه من الخلفاء في محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبههما ، ولم يكن ينفك من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب ، وكان يخرج لصيد الأسد ، فيخيم عليها حتى لا يبقى منها بقية »^(٤) وكان ابنه المكتفي مشغوقاً مثله بالصيد « وكان أكثر ما يُد منه الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سبباً الضواري والبحوارح ، ويباشر ذلك بنفسه ويمتحنها فيه لشدة الشغف به

(١) كتاب الديارات ص ١١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/ ٣٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .

(٤) المصايل والمطارد لكشاجم (طبع بغداد) ص ٥ .

والارتياح إليه^(١). ومنذ أبي نواس والشعراء يكثرون من النظم فيه بجميع صوره ، ويعرض كشاحم آلاته عرضاً مفصلاً في كتابه المصايد والمطارد ، كما يعرض روائع ما قيل فيه من أراجيز وأشعار كانوا يسمونها الطرديات . ومن طريف ملاهيهم المهارشة بين القردة والفيلة^(٢).

وكانت العامة تجد تسليتها المحببة عند قُصَّاص كانوا منتشرين في طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها ، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى لرى المعتمد يأمر في سنة ٢٧٩ بالنداء في بغداد ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاص^٣ ولا صاحب نجوم ولا زاجر^(٣). وكان اللعب بخيال الظل معروفاً حينئذ ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك^(٤). وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفنون في طرق الهزل ، وكان كثير منهم يخلط هزله بحكاية لهجات النازلين ببغداد من الأعراب والخراسانيين والزوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان ، وكأنما يجمع الحاكى سمات من يحكيه جميعاً ، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير^(٥). ومن أشهر هؤلاء الحكَّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازل ، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخباراً ونوادر ومضاحك ، وكان في نهاية الحذق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك ، وكان لا يدع حكايته لأعرابي أو مكى أو نَجْدِي أو تركي أو نبطي أو زنجي أو سِنْدِي إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى ، وسمع به المعتضد فأحضره ، فما زال يذكر له نوادر وهو متماسك ، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك ، ففُضِرَ بيده وفحص الأرض بقدمه ، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه^(٦).

(٤) الديارات ص ١٨٧ وما بعدها .

(١) المصايد والمطارد ص ٧ .

(٥) البيان والتبيين ٦٩/١ .

(٢) الحيوان ٧/٦٢ .

(٦) مروج الذهب ١٦٣/٤ .

(٣) طبري ٨٤٤/١٠ والنجوم الزاهرة ٨٠/٣ .

الرقيق والحوارى والغناء

كان الرقيق منتشرًا في كل مكان ، في القصور وفي الأكواخ وفي الصناعات وفي الزراعة ، وكان كثيرًا كثرة مفرطة ، فنه السندى ومنه الإفريقى الزنجى والحبشى والسودانى ومنه التركى والصقلى ، ومنه الصينى والخراسانى والأرمنى والبربرى ، وكأنما كانت تجتمع فيه كل الأجناس . ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ في الحرب أسيرًا كافرًا ، فقد مضى المسلمون — محاكين شعوب العالم القديم — يفسحون للتجارة فيه وجعلته من البلاد الأجنبية ، وكأنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظرًا ، بل لقد شاركهم فيها . ولم تلبث تجارة الرقيق في ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيم ، حتى أيسبى لها في كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى قيّم الرقيق . ويذكر اليعقوبى أن سوق سامراء في القرن الثالث الهجرى كانت مربعة ، وبها طرق متشعبة ، وفيها الخمر والغرف والخوانيت^(١) .

ومعروف أن الإسلام عمل على تحرير الرقيق بوسائل شتى ، إذ جعله فداء لأعظم الجنايات مثل القتل خطأ وأخفها مثل الحنث في اليمين ، وأباح للعبد حق التملك وأن يكاتب صاحبه على جزء من المال يدّخره من العمل ، حتى إذا وفّاه رُدَّتْ إليه حريته . واستطاع كثير من الأرقاء المحرّرين أن يصلوا إلى أعظم المناصب في الدولة ، وكان من هؤلاء الأرقاء من يتمتعون بجاه عظيم مثل قواد الترك طوال العصر ، غير أن جمهوراً كبيراً منهم كان يعاملُ معاملة سيئة ، وخاصة الزوج الذين كانوا يقومون بأعمال الحرث والزراعة في البصرة ، مما جعلهم يشيرون لعصر المعتمد — كما مرَّ بنا — ثورة عارمة . ولا ريب في أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة ، لا من حيث استرقاق الناس بالشراء لا بالحرب فقط ، بل أيضًا من حيث أخذهم بالعنف والعسف والظلم ، فقد دعا القرآن

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٩ .

والحديث جميعاً إلى الإحسان للأرقاء والبرّ بهم والمعاملة الكريمة على نحو ما يلقانا في آية سورة النساء: (وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى . . . وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) ، وفي الحديث النبوي: « شر الناس من أكل وحده ومنع رِفْدَه (عطاءه) وضرب عبده » ، وفيه أيضاً: « العبيد إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وكانت الجارية بمجرد أن يستولدها سيدها تصبح أم ولده ، وليس له حق بيعها ، وابنها حر مثل أبيه ، وبمجرد موت سيدها تصبح حرة . وفي مواضع كثيرة من القرآن والحديث نجد الدعوة قوية إلى تحرير العبيد ، ولذلك كان كثيراً ما يوصى الرسول من ملكوهم بعقبتهم بعد موتهم ، ويُروى أن المعتصم أوصى بعد موته بعق ثمانية آلاف من مماليكه ، ومثله كان يصنع الوزراء والكبراء من الأمة .

على كل حال كان الأرقاء كثيرون كثرة مفرطة ، وكان أهم ما يقومون به في المدن الخدمة ، ويقول المسعودي إن الخدم كانوا عادة من السودان أو الصقالبة أو الروم أو الصين^(١) . ويبدو أن جمهورهم كانوا من الحصيان ، ومع أن الإسلام حرّم الخساء تحريمًا باتًا نجد الحصيان منتشرين في العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً . وكانوا يُخصّصون خارج حدود الدولة الإسلامية : في بيزنطة وأواسط آسيا ، ثم يُجلبسون ويباعون في أسواق الرقيق ببغداد وغير بغداد ، ويتردّد ذكرهم كثيراً منذ أواخر القرن الثاني الهجري . « وكان انتشارهم باعثاً على أن تلبس بعض الجواري المسمّين بالغلّاميات ملابسهم ، وترتبط بذلك حادثة مشهورة فإن زبيدة أم الأمين حين رآته يستكثر من الحصيان اتخذت الجوارى المقدودات الحسن الوجوه ، وعممت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداع والأقفية (صور من تجميل أوضاع الشعر على الرأس تشبهاً بالفتيان) والبستهنّ الأقبية والقراطين والمناطق (ملابس الفتيان) فاستقدودهن وبرزت أردافهن ، وبعث بهن إلى ابنها الأمين ، فاختلن بين يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبه إليهن وأبرزن للناس »^(٢) فقدّنه كثير من أهل بغداد ، وظل ذلك من بعده حتى عصر الخليفة القاهر المتوفى

(١) مروج الذهب ٤/ ١٥٨ .

(٢) مروج الذهب ٤/ ٢٢٦ .

سنة ٣٢٢ إذ يروى بعض الإخباريين أنه رأى في قصره جوارى يلبسن القراطق والأقمية والطُرَر ومناطق الذهب والفضة^(١).

وكثرة الحصيان هي التي هيَّأت لظهور هؤلاء الغلاميات ، ويكفي أن نذكر ما قاله المؤرخون من أنه كان في قصر المقتدر أحد عشر ألف غلام خصي^(٢) . ومنذ أواسط القرن الثالث أخذ الناس — احتراماً لمن صارت إليهم مقاليد الأمور منهم ، وخاصة من الترك — يسمون النخصيَّ الخادم والأستاذ^(٣) . ولم يكونوا يستطيعون التعرض للخصيان البيض خوفاً من الترك وبطشهم ، أما السود فكانت العامة تكثر من الصباح بهم : يا عقيق^(٤) . ويروى المسمودي أن الخدم السود جأروا بالشكوى إلى المعتضد لما يلحقهم في الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام إذ كانوا جميعاً يصيحون بهم : « يا عقيق صُبْ ماء واطرح دقيق يا غاق (صوت الغراب) يا طويل الساق »^(٥) . وكان المضحكون الهزليون في الطرق كثيراً ما يحاكون الخدم المختلفين وأصواتهم^(٦) .

وكانت الإماء والجوارى في الدور والقصور أكثر من الحصيان وأرقاء الرجال ، إذ أباح الإسلام للمسلم أن يملك ما شاء من الجوارى والإماء ، وكثير من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة ، ولم يكن بينهن وبين الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللاتي يقتنون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئاً ، بخلاف البخارية فإنها كانت معرضة لهم في دور النخاسين ، فكانوا يختارونها بحسب مشيتهم وموقعها في أنفسهم ، بخلاف الحرائر فقد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن ، وكانوا يُضْطَرُّون لاتخاذ دلائل يصفونهن لهم ، وقلما يتطابق الوصف مع الحقيقة . وكان بين الجوارى المعروضات للبيع دائماً كثير من الفاتنات الفارسيات والخراسانيات والأرمنيّات والتركيات والروميات ، فكن يستأثرن بقلوب الرجال . ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم ، فقد كفاهم اتخاذ الجوارى والإماء هذا التعدد ، وأكبوا عليه إكباباً .

(١) مروج الذهب ٢٢٧/٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ .

(٣) مروج الذهب ١٧٨/٤ ، ١٨٠ .

(٤) طبري ٥٣/١٠ .

(٥) مروج الذهب ١٧١/٤ .

(٦) مروج الذهب ١٦٢/٤ ، ١٦٤ .

وكان إمامهم في ذلك الخلفاء فإنهم أكثروا من الجوارى كثرة مفرطة ، حتى ليروى أنه كان لدى المتوكل منهم أربعة آلاف جارية ^(١) ، وهى رواية مبالغ فيها ، غير أنها تدل على ما ثبت لدى الناس من كثرة جواريه ، ويقال إنه لما أفضت إليه الخلافة أهداه عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة ، وكان فى الهدية محبوبة ^(٢) . وكانت شاعرة مغنية فوقعت عنده أعظم موقع واقرن بها ، ووفت له بعد موته وفاء منقطع النظير . وظلت هذه السيول تتدافع إلى قصر الخلافة طوال العصر من كل قطر ، ويروى أن زيادة الله بن الأغلب أهدى المكتفى حين ولى الخلافة مائة وخمسين جارية ^(٣) . ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن أمهات الخلفاء فى العصر كنَّ من الجوارى ، وخاصة جوارى الترك والروم ، وكُنَّ يتدخلن فى شئون الحكم ، فكل جارية تحاول أن تقيم فى المناصب العليا أقباءها والمقربين منها ، على نحو ما كانت تصنع أم المقتدر بأخرة من العصر ، حتى فسد الحكم لعهد فساداً لا يمكن إصلاحه ، وفسحت لأخيها الروى المسمى غريباً فى النفوذ والسلطان ، فزاد الطين بلة ، وزاد بلة ثانية بما أتاحت لقهرمانتها أم موسى من إسنادها نقابة بنى هاشم لأخيها ، وأتاحت لقهرمانتها الثانية ثمل — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — أن تقعد فى الرصافة كل يوم جمعة للنظر فى المظالم .

وكانت الجارية الجميلة تباع بألف دينار وأكثر ، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجديديات من الجوارى الفاتنات ، وكان النخاسون يجمعون منهم كثيرات ، حتى لقد كانت رعوس أموالهم تبلغ الألوف ، ويقول ابن المعتز عن نخّاس منهم يسمى أحمد بن الحارث إنه كان يجتمع أحياناً عنده من الرقيق ما يبلغ مائة ألف دينار ^(٤) ، ويذكر أبو الفرج الأصبهاني عن نخّاس يسمى أبا عمير أنه كان له جوارلهن ظرف وأدب ، وكان ابن البواب الشاعر يألف جارية منهم يقال لها عبادة ويكثر غشيان منزل أبى عمير من أجلها فأصابه ضيق شديد ، فانقطع عن زيارتها ثم نازعته نفسه إلى

(١) مروج الذهب ٤/٤٠ .

(٢) أغاني (سالى) ١٩/١٣٢ ونساء

الخلفاء لابن الساعى ص ٩٢ .

(٣) مروج الذهب ٤/٢٠٠ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار

المعارف) ص ٤٢٦ .

لقائها وصعب عليه الصبر عنها ، فأثى عبادة ، ووجد الجارية ورفاقه يعاتبونه على تأخره عنهم وعن صاحبتة ، ولم يلبث أن أنشأ يقول :

لو تشكّى أبو عمير قليلاً لأتيناك من طريق العباد
فقضينا من العبادة حقاً ونظرنا في مقلتي عباده

فقال أبو عمير : مالى ولك يا أخى ، انظر فى مقلتى عبادة متى شئت غير ممنوع ، ودعنى أنا فى عافية لا تتمنى لى المرض لتعودنى ^(١) . ووضح من امتناع ابن البواب عن زيارة أبى عمير حين ألت به ضيقة أن الشعراء وغيرهم حين كانوا يختلفون إلى دور النخاسين كانوا يحملون معهم كثيراً من الهدايا للنخاسين وجواريتهم ، مما كان يكلفهم أموالاً كثيرة ، وإلى ذلك يشير الجاحظ فى رسالته عن القيان إذ يذكر عن النخاس « أن من فضائله أن الناس يقصدونه بالرغبة كما يقصدونها بالخلفاء والعظماء فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحتمل على الصلة ، ويهدى إليه ولا تقضى منه الهدية » ^(٢) . ويصور الجاحظ تفنن الجارية فى اللعب بالباب الرجال ، إذ لا تزال تنصب أشراكها باللحظ والتبسم وإظهار الشوق إلى طول مكث من يختلف إليها والحزن لفراقه والصبابة لسرعة عودته ، فإذا أحسست أنه وقع فى الشرك أوهمته أنها تعلقت به وأنه شجوها فى فكرها وضميرها ولبيلها ونهارها وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه وأنها لا تبغيه ماله وهداياها وإنما لنفسه ، ثم جمسته بعضوض تفاحها وتحيات من ريحانها وزودته بخصلة من شعرها وقطعة من ثيابها ، يقول الجاحظ وربما زارته فى بيته وأمكنته من القبلة فما فوقها . لذلك لا نعجب حين نراهن يسعرن قلوب الشعراء ، وحين نرى الشعراء عاكفين عليهن وقد بذلن لهن كل ما استطاعوا من هدايا وتحف وطرف نفيسة ، وفى ذلك يقول على بن الجهم متحدثاً عن جوارى نخاس يسمى المفضل وابتزازهن وابتزاز صاحبهن أموال من يزورونهن ^(٣) :

أوانس ما فيهن للضيف حشمة ولا ربهن بالمهيب المجل

(٣) ديوان ابن الجهم (نشر المجمع العلمى

العربى بدمشق) ص ٥٢ .

(١) أغاني (ساسى) ٢٠ / ٤٣ .

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٧٣ .

يُسْرُ إِذَا مَا الضَّيْفُ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَيَغْفُلُ عَنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَغْفُلٍ
وَلَا يَدْفَعُ الْأَيْدَى السَّفِيهَةَ غَيْرَةً إِذَا نَالَ حِطًّا مِنْ لِبُوسٍ وَمَأْكَلٍ
لَكَ الْبَيْتُ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً وَذُمْتَ مَلِيًّا بِالشَّرَابِ الْمَعْسَلِ

وكان دار النخاس تعد « باراً » كبيراً وجواريه ما يزلن يختلفن إلى رؤاده .
وكان كثيرات منهن مثقفات بفنون الآداب ، فكن يجذبن الرجال والشباب
والشعراء بجمالهن وعذوبة حديثهن ، بل كان منهن كثيرات يحسنن نظم الشعر مثل
فضل الشاعرة ومثل محبوبة جارية المتوكل .

ولم يكن المجتمع العباسي يُعنى بفن كما كان يعنى بالغناء والموسيقى ، ويتضح
ذلك من كثرة الكتب المترجمة منذ مطالع العصر في الفن الموسيقي على نحو
ما يتضح في أوائل ترجمة إسحق الموصلي في كتاب الأغاني وكذلك ما ساقه منها
كتاب الفهرست لابن النديم ، ولم يلبث العرب أن شاركوا مشاركة قوية في هذا التأليف
منذ الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة . ويتكاثر هذا
التأليف في القرن الثالث ، وخاصة في بيئة المتفلسفة مثل الكندي وله في الموسيقى
كتب مختلفة^(١) ، وكذلك لتلميذه^(٢) أبي الطيب السرخسي واقسطا^(٣) بن لوقا
البلعبيكي ، فلكل هؤلاء مؤلفات في الموسيقى أحصاها ابن النديم في فهرسته .
وخلف من بعدهم الفارابي بأخرة ، من العصر فأربنى على كل سالف وخالف من
اليونان والعرب جميعاً على نحو ما يتضح في مصنفه كتاب الموسيقى الكبير ، وقد
استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية . وعلى نحو ما يسوق
ابن النديم كتب المتفلسفة في الموسيقى يسوق كتب المغنين فيها وفي الغناء والمغنين
والمغنيات ، ولإسحق الموصلي في ذلك نشاط واسع ، ومن أشهر من خلفوه في القرن
الثالث على التأليف في هذا الفن بتدل^(٤) ، وكان لها كتاب في الأغاني يشتمل
على اثني عشر ألف صوت ، ودنانير البرمكية ويقول أبو الفرج لها كتاب مجرد
في الأغاني مشهور^(٥) ، ومن ذكرهم ابن النديم النصبي وله كتاب في الأغاني ألفه

(٤) الأغاني (سأسي) ١٥ / ١٣٨ .

(٥) الأغاني (سأسي) ١٦ / ١٣١ .

(١) الفهرست ص ٣٧٣ .

(٢) الفهرست ٢١٩ ، ٣٨٠ .

(٣) الفهرست ص ٤٢٤ .

على حروف المعجم للمتوكل^(١).

ومنهم جمحظة وله كتاب في الطَّنْبُورِيَّين^(٢)، ويذكر أبو الفرج أن لعمر وابن بانة كتاباً في الأغاني يُعَدُّ من الأصول المهمة فيها^(٣)، كما يذكر أنه كان لأحمد ابن يحيى المكي كتاب سماه المجرد في الأغاني كان يحتوي على أربعة عشر ألف صوت^(٤)، وكان لمحمد بن علي بن أمية المعروف باسم أبي حشيشة كتاب في أخبار الطَّنْبُورِيَّين^(٥). وعمل في هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغديته بالألحان الأجنبية، وخاصة أن كثرتهم كانت من الموالى فُرساً وغير فرس، بل إن منهم من اخترع بعض الآلات مثل زُناَم الزَّامر، فقد اخترع نايّاً نُسب إليه، فقيل ناي زُناَمي^(٦). وما يدل على ما كان للغناء حينئذ من سمو المنزلة أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك في وضع أصواته مثل المنتصر^(٧) والمعتز^(٨) والمعتد^(٩) وابن المعتز^(١٠) وعبيد^(١١) الله بن عبد الله بن طاهر، واشتهر بأنه كان يستطيع أن يجمع ألحاناً كثيرة في صوت واحد، وكانت له كتب في النغم وعلل الأغاني.

وكانت تتقابل في الغناء حينئذ مدرستان: مدرسة محافظة تمسك بالأصول والأوضاع الموروثة ويمثلها إسحق الموصلي، ومدرسة مجددة لا تزال تضيف إلى التراث الفني في الغناء أصواتاً وأنغاماً وألحاناً ويمثلها إبراهيم بن المهدي، ويحكي أبو الفرج بعض وجوه الخلاف بينه وبين إسحق، فيقول إنهما كانا يختلفان في مدلول بعض المصطلحات، فما كان يسميه إسحق ثقيلاً أولاً وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدي ثقيلاً ثانياً وخفيفه، وما كان يسميه إسحق ثقيلاً ثانياً وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدي ثقيلاً أولاً وخفيفه، ويقول أبو الفرج: «وأما التجزئة والقسمة فإنهما أفنيا أعماهما في تنازعهما فيهما، حتى كان يَمْضِي لهما

(٧) أغاني (دار الكتب) ٣٠٩/٩ وانظر

في أصوات أخيه أبي عيسى الأغاني ٢٠١/١٠.

(٨) أغاني ٢٠٥/٩.

(٩) أغاني ٣٢٣/٩.

(١٠) أغاني ٢٧٧/١٠.

(١١) أغاني ٤٠/٩ وما بعدها.

(١) الفهرست ص ٢١٤.

(٢) الفهرست ص ٢١٤.

(٣) أغاني (دار الكتب) ٢٦٩/١٥.

(٤) أغاني ٣١١/١٦.

(٥) الفهرست ص ٢١٤.

(٦) تاج العروس لقرطبي ٣٣٠/٨.

الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتها ومكاتبتهما في قسمة وتجزئة صوت واحد^(١) . وقد توزعاً المغنين والمغنيات في القرن الثالث ، فكان من ينكر تغيير الغناء القديم يأخذ بمذهب إسحق ، ومن رأى التجديد والتغيير في الألحان يأخذ بمذهب ابن المهدي . ونستطيع أن نعين أهم من تعصبوا لهذا أو ذاك ، فمن كان يتعصب لإسحق من المغنين المشهورين في هذا العصر أحمد بن يحيى المكي ، وله ترجمة^(٢) في كتاب الأغاني وكان إسحق يقدمه ويؤثره ، ولحق عصر المستعين ، وكان ابنه محمد يحذق الغناء على شاكلة ولحق عصر المعتمد . ومن كان ينهج منهج إسحق بنان ، وكان أخص الناس بالمتوكل والمنتصر ، وكان إذا اجتمع هو وزنم الزامر على الضرب بالعود والزمراً حسناً وفتناً وأعجبا . ومنهم أيضاً عبد الله^(٣) بن أبي العلاء ، وقد عُمر إلى آخر أيام المعتصد وكانت تقوم دابته وثيابه إذا ركب بألف دينار ، وابنه أحمد كان من المغنين النابيين . ومن كان على نهج إسحق أيضاً القاسم بن زُرُور وولده وجواري آل هاشم وآل الفضل بن الربيع ومن جرى مجراه من تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه^(٤) . ومن كان على مثاله أيضاً الزبير بن دحمان ، وكان متعصباً لإسحق ، في حين كان أخوه عبد الله يتعصب لابن المهدي ، فكان كل منهما يرفع من صاحبه ويشيد بذكوره ، يقول أبو الفرج : « فعلا الزبير بتقديم إسحق له » لجلالته عند الناس وتمكنه منهم وقبولهم منه^(٥) ، وكان أنصار إسحق كانوا أكثر نفراً إذ كان الذوق العام يميل إلى المحافظة أكثر مما يميل إلى التجديد ، ولم يكن ذلك شيئاً خاصاً بالغناء ، بل كان عاماً فيه وفي الشعراء ، فقد كان الشعراء والمغنون جميعاً يستمسكون بالتقاليد الموروثة . ومن كان ينزع منزع إبراهيم بن المهدي ورغباته في التجديد بالغناء عمرو بن بانه ، المنسوب إلى أمه ، وكان المتوكل أنيساً به ، ونال منه جوائز كثيرة « وكان يذهب بمذهب إبراهيم بن المهدي في الغناء وتجنيسه ويخالف إسحق ويتعصب عليه تعصباً شديداً ويواجهه بذلك وينصر إبراهيم بن المهدي عليه »^(٦) ، ويقول أبو الفرج إنه علم الغناء عشرة من الغلمان ، وطال عمره حتى سنة ٢٧٨ وكان يشاركه في مذهبه محمد بن الحارث بن بسخر ،

(٤) أغاني (دار الكتب) ٧٠/١٠ .

(٥) أغاني (سأى) ١٤٤/٢٠ .

(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٦٩/١٥ .

(١) أغاني ٩٦/١٠ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣١١/١٦ .

(٣) أغاني سأى ١١٤/٢٠ .

وكان من المتعصبين على إسحق ، ويقول أبو الفرج : « أخذ الغناء عن إبراهيم بن المهدي ومن بحره استقى » ، وكان يُغَنَّى على المعزفة فنقله ابن المهدي إلى العود وواظب عليه حتى حذقه ^(١) ، وكان الخلفاء يسكبون عليه أموالهم سكباً ، وخرَّج كثيرات من الجوارى اللاتي برعن في الغناء .

وعلى نحو ما كان المغنون حزبيين : حزباً يتبع إسحق الموصلی وحزباً يتبع إبراهيم بن المهدي كذلك كانت المغنيات ، ومن كان يأخذ منهن بمذهب إسحق عَرِيب وجواربها من أمثال تحفة الزمارة وبدعة ، وترجم أبو الفرج ترجمة ضافية لها ^(٢) ذكر في صدرها أنها كانت نهاية في الجمال والظرف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والألحان ورواية الأشعار ، اشتراها الأمين من مولاها المراكبي وكان عمرها سبعة عشر عاماً ونظمها في جواربه الغلاميات ، واشترها المأمون بعده بخمسين ألف درهم ، ثم اشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهي مولاته ، وظلت تغنى طوال حياتها وماتت عن سن عالية سنة ٢٧٧ لهجده المعتصم ، وقد أمر على بن يحيى المنجم أن يجمع غناءها الذي صنعتها فأخذ منها دفاترها وصُحفها التي كانت سجلت فيها أصواتها ، وكتب ذلك كله فكان ألف صوت بارع ، واشتهرت جاريته بدعة ^(٣) بالغناء وإتقانه على طريقة الموصلی ، وعاشت حتى سنة ٣٠٢ . وحاول بعض أعيان بغداد شراءها فطلب إلى على بن يحيى المنجم أن يفاوض عريب في شرائها بمائة ألف دينار ، وجعل له عشرين ألفاً ، ورفضت بدعة فأعتقتها عريب ، ويقال إنها خلفت مالا كثيراً وجوهرأ وضياعاً وعقارات . أما اللاتي كن يتعصبن لإبراهيم بن المهدي فعلى رأسهن شارية ^(٤) جاريته ، وكان قد اشتراها بثمانية آلاف درهم ، حتى إذا خرَّجها وذاع صيتها عرض عليه المعتصم فيها سبعين ألف دينار ، فأبى أن يبيعهما له ضناً بها ، واشترها المعتصم بعد ذلك من تركته بخمسة آلاف وخمسمائة دينار . وكان المعتز يأنس لغنائها ، وظالت حياتها حتى لحقت المعتصم ، وكان نابئ أن يلحن له أشعاره سواها وسوى عريب ، وأمرها ذات مرة وقد غنته صوتاً بألف ثوب من الثياب الأنيقة . ومن جواربها اللاتي

(١) أغاني (سأى) ٨٢/٢٠ .

(٢) أغاني ١٧٥/١٨ وما بعدها .

(٣) أغاني ١٢٥/١٩ وعريب ٢٨ والطبري .

١٥٠/١٠ والهمداني ص ١٥ .

(٤) أغاني (دار الكتب) ٣/١٦ وما

بعدها .

اشتهر بالغناء على طريقتها وطريقة ابن المهدي : مهرجان ومطرب وقمرية وشرّة وقد اشترها المعتمد بعشرة آلاف دينار

ومن كنّ يحسنّ الغناء فريدة^(١) زوجة المتوكل وجاريتته محبوبة^(٢) وقلم^(٣) الصالحية وشاجي^(٤) جارية عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نسب إليها كل ما صنع من الغناء والأصوات . وكانت هناك جماعة كبيرة اشتهرت بالغناء على الطنبور في مقدمتها أبو حشيشة^(٥) الطنبوري الذي عاش إلى عصر المعتمد ، وسليمان^(٦) بن القصار الطنبوري . وكان المعتمد أنيساً به ، ويقال إنه غناه يوماً صوتاً فأعطاه مائة دينار مكيّة ومائتين مما ضرب لخزائنه ، وجحظة البرمكي وله ترجمة طويلة في معجم الأدباء ، وعمر^(٧) الميداني ولم يكن في الطنبوريين أصح غناء وأكثر تصرفاً منه ، وعبيدة^(٨) الطنبورية ، وكانت تتقن الضرب على الطنبور إتقاناً بعيداً . وكثيراً ما كان يأخذ الغناء شكل جوقة ، وكانت آلات الغناء عادة أربعاً هي العود والحنك والقانون والمزمار . وقد يوضع مكان القانون الطنبور^(٩) . وكثيراً أيضاً ما كان يقترن الغناء بالرقص . وفي مروج الذهب للمسعودي فصل^(١٠) طريف يوضح صلته بالغناء والموسيقى وما كانت ترتفع به الحناجر من أشعار ، وفيه تسمّى أنواع الرقص وفنونه بأسماء أوزان الشعر من مثل الخفيف والرمل والهزج ، بالمثل كانوا يقيسون الغناء ، مما يدل أقوى الدلالة على الصلة الوثيقة بين الفنون الأربعة : الغناء والموسيقى والرقص والشعر .

وكان للجواري في هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الظرف والرفة واللفظ ، إذ دفعوا الشباب والشيوخ إلى تمثل كثير من العواطف والمشاعر التي تملأ قلوبهم لينماً وبسراً وعطفاً ووداً . وقد خلبوا ألبابهم بحديثهن الساحر الذي يصب في القلوب تارة رحيقاً وتارة حريقاً ، حديث العشق وما يشيع فيه من

(١) أغاني ١١٤ / ٤ .

والفهرست ص ٢١٤ .

(٢) أغاني (سأى) ١٣٢ / ١٩ .

(٦) أغاني (دار الكتب) ١١٢ / ١٤ .

(٣) أغاني (دار الكتب) ٣٤٧ / ١٣ .

(٧) أغاني (سأى) ٦٦ / ٢٠ .

(٤) أغاني (سأى) ٤٢ / ٨ ونشوار المحاضرة

(٨) أغاني ١٣٤ / ١٩ .

٦٣ / ١ والديارات ص ١١١ وما بعدها .

(٩) التنوخي على المستطرف ١٤٤ / ٢ .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥٧ / ٣

(١٠) مروج الذهب ١٣٧ / ٤ .

العواطف والمواجيد ونور الأمل وظلام اليأس وما قد يتحول إليه من حب مادي كثير الشباك : شباك التضرع والأمل والطلب ، وحب أفلاطوني نقي كثير الحجب : حجب الطُّهر واليأس والبراءة ، مما جعل الشعر يكتظ بمعاني الرقة واللفظ المفرطين كما يكتظ بالظرف حتى ليصبح للظرفاء تقاليد خاصة في الزى والنظر وتناول الطعام والشراب ، وقد أفرد لها الوشاء فصلاً خاصاً في كتابه « الموشى » يدل على رقة الحسّ أوسع دلالة . ونستطيع أن ندخل في فنون الظرف التي أشاعها الجوى حيثلذ إعجابهن بالأزهار وتعلقهن بها وشغف كثيرات منهن بكل زهر وريحان ، حتى لتلحق بالقصور حدائق كثيرة ويقام كثير من البساتين . وألهمت الأزهار الشعراء بكثير من الأشعار ، حتى ليصبح وصف الطبيعة باباً مهماً من أبواب الشعر ، وليس ذلك فحسب ، فقد أحس الشعراء في الأزهار معاني السلوى في الحب والوصل ودنوه واتصاله وانقطاعه ، إلى غير ذلك من معاني لا تحصى ، كأن يحس شاعر في معنى الورد الحجل لاحمراره ويحس آخر انقطاع الوصل لسرعة ذبوله ، أو يحس شخص في البنفسج عودة الوصل ورجوعه . وكانوا يتهادون بالأزهار والرياحين دالين بها على أمثال تلك المعاني ، كما كان يجيئ بها بعضهم بعضاً ، وكثرت التحية عندهم بالتفاح ، وكانت البخارية ترك على التفاحة أثر أخذها بفمها ، وقد تشققها بالمسك أو بالغالية أو بغيرهما من أنواع الطيب ، وقد تكتب عليها بيتاً أو بيتين تدل بهما على اللوعة ، ويقول ابن المعتز^(١) :

وأثار وصلٍ في هوائٍ حفظتها نحيات ريحانٍ وعَضَاتُ تَفَاحٍ

وكن يكتبن أبيات الحب الرقيقة على الثياب والأكمام والقلائس والعصابات والطرر والذوائب والمناديل والبسط والوسائد والأسرة^(٢) ، ويروى أن عريب كانت تلبس قميصاً موشحاً بالذهب ، كتب في وشاحه :

وإني لأهواه مسيئاً ومحسنأ وأقضى على قلبي له بالذى يقضى
فحتي متى روح الرضا لا ينالني وحتى متى أيام سنخك لا تمضى

(١) الديوان ص ١٣٩ . (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٢٥/٦

وما بعدها .

(٢) انظر الموشى للوشاء والعقد الفريد

وكن يتنافسن في التهادى بالتحف الحميمة وتبعهم الشباب والرجال . وليس ذلك فحسب ، فقد كن يتشققن بثقافات العصر ، وعلمن على شيوع الثقافة ، إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار ، وينظمن الشعر نظماً بديعاً .

٤

المجون والشعبوية والزندقة

رأينا في كتابنا العصر العباسي الأول كيف كانت موجة المجون حادة ، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها ، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة ، إذ ظل الناس يُسْمَعُونَ في شرب الخمر واحتساء كثوسها ، مدمنين عليها لا يرعون ولا يزدجرون . ومعروف أن القرآن الكريم حرّمها ، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها ، لمحجىء ذلك بنص القرآن ، وما كان محرّماً بنصه لا يحلّ منه قليل ولا كثير . أما النبيذ فسكره محرم أيضاً بالقياس ، غير أن اجتهد بعض فقهاء العراق الأحناف أدامهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبذ التمر والعسل والتين والبُرِّ وكالزبيب المطبوع أدنى طبخ . فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء ، وتجاوزوا ما حلّله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

أباح العراقيُّ النبيذَ وشُرْبَهُ وقال حَرَامَانُ : المُدَامَةُ والسُّكْرُ
وقال الحجازيُّ : الشرابان واحدٌ فحلُّ لنا من بين قوليهما الخمرُ
سأخذ من قوليهما طرفيهما وأشربها لا فارق الوازرَ الوزرُ

وابن الرومي يريد بالحجازي الشافعي وبالعراقي أبا حنيفة ، وقد استحدث لنفسه مذهباً ثالثاً لم يحل فيه الأنبذة المسكرة فحسب بل أحلّ أيضاً الخمر ، وساد هذا المذهب لا بين أضرايه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس ، وإن كان يجب أن نحتاط بالقياس إلى الخلفاء ، وأن نظن أنهم إنما تورطوا في

الأنبذة فلم يقفوا عند أنواعها المحللة ، بل شربوا أنواعها المسكرة . وكان المتوكل يعقد في قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب ، وكان يحب الشرب ومن حواه الورود والرياحين^(١) وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب^(٢) ، وكان يشرب في قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه ، كما كان يشرب في البساتين^(٣) . وفرغ المعتد — كما مر بنا في غير هذا الموضع — للهو والشراب ، ويقول المسعودي : « كان مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي^(٤) ، وديوان ابن المعتز مليء بالخمير ودنانها وكثوسها وغبوقها وصبوحها . وكان القاهر مدمناً شرب الخمر^(٥) كما كان مولعاً بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجوارى المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان ، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعبأ وحده^(٦) ، وكان الراضى عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه لجلسائه وندمائيه بالشراب ، ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفر عنها وعاد إلى الشراب ، وآخر الخلفاء في العصر المستكفي وكان قد ترك الشراب ، فلما ولي الخلافة دعا به تَوّاً وعاد إلى شربه^(٧)

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة في عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء ، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب في الدولة وعلية القوم ، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق التبيذ المحلل ، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دُرَيْد ، كان يعكف عليها عكوفاً شديداً ، ويقول أبو حفص بن شاهين : « كنا ندخل عليه فنستحي مما نرى من العידان المعلقة والشراب وقد جاوز التسعين^(٨) . وأوغل الشعراء فيها إيغالا . ومن يتصفح كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يحس أن بعض الناس أدمنوها إدماناً شديداً . وكانوا يعتقدون لها المجالس في المساء والليل والصباح ، وآثروا ألا يقل عدد

(٥) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٤٥ .

(٦) ابن الأثير (طبعة أوربا) ٨/ ٢٠٤ .

(٧) مروج الذهب ٤/ ٢٦٧ .

(٨) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٤١ .

(١) الديارات ص ١٦٠ وانظر في صبح .

المتنصر أغاني (سامي) ١٧/ ١٣٠ .

(٢) الديارات ص ١٦٤ وما بعدها .

(٣) الديارات ص ١٦٦ وما بعدها .

(٤) مروج الذهب ٤/ ١٣١ .

الندماء عن ثلاثة ، وكان يدور عليهم بها السقا والساقيات من الغلمان والحوارى وكانوا يزینون مجالس الشراب بالورود والرياحين ، كما كانوا يزینون رموسهم أحياناً بأكاليل الزهر .

وكان كرخ بغداد يكتظ بالمقينين وكانوا منبئين أيضاً في سامراء ، وتحولوا بدورهم إلى ما يشبه حانات كبيرة ، ففيها الخمر ، وفيها القيان المغنيات ، وفيها الحواري الطريقات الأدبيات ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور أو قل إلى هذه الحانات ومثلهم الناس من حولهم فيعبون من كثوسها ويتمتعون بالسماع ومغازلة الحواري والقيان .

وكانت البساتين حول سامراء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسماع ، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها ، وقد يختلفون بأنفسهم إلى زاوية في بستان ويتخذون منها لأنفسهم حانة ، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تملئ بجمال الحواري وأذنانهم تتمتع بالسماع ، وكثيراً ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول البحتري ^(١) :

اشربْ على زهر الرياض يَشُوبه زَهْرُ الخدود وزهرة الصَّهْبَاءِ
من قهوة تُنْسِي الهمومَ وتبعث الـ شَوْقَ الذي قد ضَلَّ في الأحشاءِ

وكان من يعملون بالحانات من الأجانب سواء الرجال والنساء ، ويقول الجاحظ : « من تمام آلة الخمار أن يكون ذميّاً وأن يكون اسمه آذين أو مازيار أو أزدانقاذار أو ميشا أو شلوما ويكون أرقط الثياب مخنوم العنق » ^(٢) وتختلط في النص أسماء فارسية ونصرانية ويهودية . أما الحواري فكان من القيان الأجنبية غالباً ، وكانت تعج بهم حانات البساتين وحانات الكرخ ودور المقينين ، والشباب والشعراء يختلفون إليهن ، وكن من أجناس مختلفة ، وقاما كن يشعرن بشيء من الكرامة أو يستشعرن شيئاً من التحفظ والاحتشام ، بل لقد كن يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الرجال ، وكن يستكثرن من الخلان بطرق غير مستقيمة ، فدفعن إلى

(١) الديوان ١ / ٦ .

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٩٢/١ .

كثير من الفجر والحجون ، وكل شيء من حولهن يُغريهن على هذا السلوك الآثم ، وصوّر ذلك الجاحظ ، فقال : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتعلّم الألسن والأخلاق بالمشأ ، وهي إنما تنشأ من الدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عن ذكر الله من هو الحديث . . . وبين الخلعاء والحجان ومن لا يُسمّع منه كلمة جيّد ، ولا يُرجعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروعة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بُنيت كلها على ذكر . . . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغلّة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبة عليها تأخذها من المطارحين الذين طرّحهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة ^(١) . وكان الزوار يناولون منهن ما يريدون ما داموا يقدمون للمقيّنين هداياهم النفيسة ، وكان بدورهن يتخلدن من بينهم المعشوقين ، فما يزلن يغمزن هذا بعين وذاك بعين ، وما يزلن يُقمن من حولهن الشباك ، وكثير من الشعراء والشباب يتعثرون فيها ، وكثيرون كانوا يصلون إلى قلوبهن ، وهن لا يحتشمن ولا يتحرّجن ، ودائماً يُقمن حفلات الغناء والموسيقى والرقص .

واستحالت الأدبيرة في هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو ، وهياً لها ذلك أنها كانت تقدّم لرؤاها الخمور المعتقة . وكانت متناثرة في ضواحي بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق ، فحوّلها الشعراء والناس إلى مجالس للخمر والحجون ، وأكثروا من التغنى بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات ، حتى لتؤلّف في ذلك كتب مستقلة مثل كتاب « الديارات » للشابشي وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره ، وله يذكر ليااليه بالمطيرة لإحدى متزهات سامراء وبالكرخ وحاناته وبدير السوسى وراهباته ^(٢) :

(٢) الديارات ص ١٤٩ .

(١) انظر ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل

ص ٧١ وما بعدها .

باليالى بالمطيرة والكرّ خ ودير السوسى بالله عودى
كنتِ عندي أنموذجاتٍ من الجَدِّ لَكُنْها بغيرِ خلود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء وبغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهي أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصارى ، وكانت تشبه كرنفالات ضخمة يلهو الناس فيها لهواً مباحاً وغير مباح ويتفرجون على القصّاص والحكّائين وأصحاب الماساخر الهزليين ، أما أعياد الإسلام فهي أعياد رأس السنة الهجرية وعيد الفطر وعيد الأضحى . وفي ديوانى البحرى وابن المعتز إشارات لهما مختلفة^(١) ، وأما أعياد الفرس فن أهمها عيد النيروز في أول الربيع ، وهو أول السنة الفارسية ، وينوه الشعراء بذكره كثيراً كقول البحرى يهنئ المعتمد به وبلحظات سروره^(٢) :

لا تَخْلُ من عيش يكرّ سروره أبداً ونَيْرُوزٍ عليك معادٍ

وكانو يكرّون من التهادى فيه ، ويروى أن المتوكل كان يهدى فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء^(٣) . وكانو يخرجون فيه إلى المنتزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهى مختلفة . ومن أعياد الفرس عيد المهرجان في أول الشتاء ، وفيه يقول البحرى^(٤) :

وكانَ الأيامُ أوثر بالحُسْنِ نِ عليها ذو المهرجان الكبيرِ

ولابن الرومى قصيدة طويلة يهنئ فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به ، وقد حشد فيها كثيراً من فنون اللهو فيه^(٥) ، وكان للفرس عيد يسمى عيد السّدق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال ، ويظلون يجمعون لها الأحطاب أياماً ، ومن أشهر ما كان في هذا العيد احتفال مرداويج الديلمي أمير الجبل في غربى إيران به ، ويقال كان في السماء الذى صنعه فيه ألف رأس من البقر^(٦) .

(٥) ديوان ابن الرومى (نشر كيلانى)

ص ٨٢ .

(٦) مسكويه ٤٧٩/٥ وأبو الفدا في عام

٣٢٣ وابن الأثير ٢٢٢/٨ .

(١) انظر ديوان البحرى ١٠٧١/٢ ،

١٠٩٦ وديوان ابن المعتز ص ١٨١ ، ٢٤٧ .

(٢) ديوان البحرى ٧٣٤/٢ .

(٣) الديارات ص ٥٧ .

(٤) الديوان ٨٨٧/٢ .

أمّا أعياد النصارى فكان تقريباً لكل دير عيد يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون والهزل ، وكانت لهم أعياد عامة ، منها عيد الميلاد وكانو يكثرّون فيه من إيقاد الشموع والنيّران^(١) ، ومنها عيد الشعانين أو عيد الزيتونة وهو يقع في يوم الأحد الذي يسبق عيد الفصح من كل سنة ، وكان النصارى يتقلّدون فيه الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون . وكان الدير الأعلى في الموصل يحتفل بهذا العيد احتفالاً كبيراً . ومن أعيادهم عيد الفصح ، وعندهم أن عيسى قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به دير سمالو شرق بغداد : ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللّهو إلا قصده للقصف والمجون ، وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمي^(٢) :

ولربّ يومٍ في سمالو تمّ لي فيه السرور وغيّبتْ أحزانهُ
فتلاعبتْ بعقولنا نشواته وتوقّدتْ بخدودنا نيرانه
حتى حسبتُ لنا البساط سفينَةً والديرَ ترقص حولنا حيطانه .

وكان يقام في أكتوبر عيد للقديسة أشمونى في قُطرَبُل ، وهى قرية في شمالي بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين ، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب أرضاً والسفن في دجلة بجرأ ، متنافسين فيما يَظْهرونه هناك من زيههم وزينتهم ومباهين بما يُعِدُّونه لقصفهم ، وكانوا يضربون في شط القرية وديورها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان وهم يحتسون كئوس الخمر ، وبالمثل كانوا يصنعون في عيد دير الزندورد بالجانب الشرقى لبغداد ، وفيه يقول جحظة^(٣) :

ديرٌ تدور به الأفداحُ مترعَةً من كفِّ ساقٍ مريض الطَّرفِ وسنانِ
والعودُ يتبعه نايٌ يوافقه والشَّدوُّ يُحكِّمه غُصْنٌ من البانِ

ولا شك في أن كل ما قدمنا أعده لانتشار المجون والخلاعة في سامراء وبغداد ،

(٢) الديارات ص ١٤ .

(٣) الديارات ص ٣٣٨ .

(١) ابن الأثير ٢٢٢/٨ وأبو الفدا في

عام ٣٢٣ .

إذ كانت الخمر في كل مكان ومعها القيان والحواري المتبدلات ، فكان طبيعياً أن يعم كثير من الشعر الصريح ، بل المفرط في إباحيته وفي التعبير عن الغرائز الجسدية . ولم يكن كل ما في المدينتين العراقيتين الكبيرتين المحجون وآثامه ، بل كان هناك تقي كثير ونسك وعبادة ، وهو ما حماهما من السقوط . على أن هؤلاء الحبان والخلعة تورطوا في آفة مزرية ، هي آفة الشغف بالغلمان المرد ، وهي آفة ورثوها عن العصر العباسي الأول . على أن من أصحاب هذا الغزل المزري من ارتفعوا به عن أدرا ن المادة ، وجعلوه غزلاً أفلاطونياً نقياً ، وسنفصل القول في ذلك في أثناء حديثنا عن شعراء الغزل ، على نحو ما هو معروف عن الفقيه محمد بن داود الأصفهاني وتعلقه بمحمد بن جامع الصيدلاني . ولا بد أن نذكر أن كثيرين من الفقهاء وعلماء الدين والوعاظ كانوا لا يزالون يشددون النكير على المحجون وما اتصل به من خمر وممن سماع ، وبتأثيرهم حاول — كما قدمنا — المهتدي أن يحمل الناس على الجادة ، فحرم الشراب ونهى عن القيان والسماع إليهن ، غير أن العامة والخاصة استطالوا حكمه واحتال عليه الأتراك حتى قتلوه بعد سنة واحدة من خلافته ، وصنع صنيعه بأخرة من العصر المتقي ، ولكنه لقي سريعاً المصير نفسه . ويذكر ابن الأثير أنه في عام ٣٢٣ للهجرة دبّر الحنابلة ببغداد حملة شعواء على المحجون وفتشوا دور القواد والعامة . وكانوا كلما وجدوا نبذاً أراقوه أو آلة للغناء حطموها أو مغنية ضربوها ، وحرّموا على الرجال رفقة الصبيان والغلمان^(١) .

وظلت مستعرة في هذا العصر نيران الشعوبية على نحو ما كانت مستعرة في العصر العباسي الأول ، إذ مضى كثيرون يشيدون بفضائل الشعوب القديمة وحضارتها ومدنيتها ، وفي مقدمتها الفرس بسياساتهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية . وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى ، من النبط والسريان وغيرهما ، منوهين جميعاً بما كان بديارهم من علوم وآداب وفنون وعمارة . وكأنما ذهبت أدراج الرياح مناداة الإسلام بهدم الفوارق العصبية بين القبائل والفوارق الجنسية بين الشعوب ، وكأنما كان هؤلاء الشعوبيون يبتغون أن يحدّثوا صدّعاً لا يلتئم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة ، وقد لجّئوا في

(١) ابن الأثير ٢٢٩/٨ وما بعدها .

تصوير ما كان عليه الجاهليون - وعرب البوادي لعصرهم - من العيش الخشن ومن الغلظة والأطعمة اليابسة الجافة ، وكيف أن العرب كانوا - ولا يزال كثير من منهم - بدواً رعاة أغنام وإبل ، وأين هم من ملك الأكاسرة والقيصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية الرومية ؟ وأين هم من علوم الروم والفرس ؟ وكان كثير من العلماء قد كتب في إفاضة عن مثالب القبائل في القديم ، فاستغل الشعوبيون ذلك واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم ، وحتى فضائل العرب من مثل الكرم والشجاعة حاولوا طمسها . ناقضين لها نقضاً .

وتصدى الجاحظ وابن قتيبة لهذه النزعة الآثمة ورداً عليها ردّاً عنيماً ، أما الجاحظ فعقد في كتابه « البيان والتبيين » باباً طويلاً سماه « كتاب العصا » صور فيه طعن الشعوبية على العرب في خطابتهم ، إذ كانوا يشيرون فيها بالعصى والمحاصر ، كما كانوا يتكثرون على القسي ، مما يصرف - في رأى الشعوبيين - الخاطر ويشغل الذهن في أثناء الخطابة . وزعموا أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، إذ هي في جميع الأمم حتى الزنج . وزعموا - فيما زعموا - أن الفرس أخطب من العرب وأن لهم في صناعة البلاغة كتباً متوارثة . وطعنوا على العرب أيضاً في أسلحتهم الحربية الساذجة بالقياس إلى أسلحة الفرس والروم وما عرفنا به من التنظيمات الحربية وآلات الحرب الضخمة من مثل المجانيق والعرادات . وكل ذلك نازعهم فيه الجاحظ في عنف شديد ، ولكنى يبلغ كل ما كان يريد من إفحامهم ومقاومتهم جعل كتابه « البيان والتبيين » ردّاً مفحماً عليهم ، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة في صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كى يروا رؤية العين ما في هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى رشدهم . وأما ابن قتيبة فألف في الرد عليهم مبحثاً سماه ^(١) « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وهو في مطالعه يذكر أن من أشد الشعوبيين عداوة للعرب قوماً من كتّاب الدواوين امتعضوا لآداب أقوامهم ، حتى اعتزى أو انتسب نفر منهم إلى أشراف العجم وأساورتهم ، داخلين بذلك في باب فسيح من الدعوى

والنسب المتهم لا حجاب عليه ولا مدافع عنه ، ويقول إنهم كانوا يُزرون على الحكم والأمثال العربية ويتبجحون بما يروون عن الفرس واليونان من آداب وعلوم . ولم يكتف بعنفه عليهم في هذا المبحث الطريف ، فقد عنف بهم في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » مصوراً قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية في الدواوين لنقص ثقافتهم العربية ، وحاول محاولة طريقة في كتابه « عيون الأخبار » أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من الوجوه . مما قضى على الشعبية قضاء مبرماً على نحو ما سنُصوّر ذلك في الفصول التالية .

ومن أهم الكتاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء سعيد بن حميد بن البَحْتِكان ، وكان من أبناء دهاقين الفرس وزعم أنه من سلالة ملوكهم ، وله في الشعبية والتعصب لقومه كتب مختلفة ، منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها^(١) . ويبدو أن الجاحظ وابن قتبية جميعاً استطاعا أن يقضيا قضاء مبرماً على الشعبية فقلما نسمع بعدهما بشعر شعوبى أو بمن ألف في الشعبية وانصر لها . وقد أشرنا في كتاب العصر العباسى الأول إلى أن بعض الباحثين أدخل في هؤلاء الشعبيين مَنْ يقولون بالتسوية بين العرب وغيرهم ، ويجب أن ينحوا عن هذه الجماعة الضالة ، لأنهم كانوا في الواقع ينادون بنظرية الإسلام وما دعا إليه من المساواة بين جميع الأفراد في الأمة عرباً وغير عرب ، مساواة تشمل جميع الحقوق والواجبات بحيث لا يَفْضَلُ مسلم صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء في الذكر الحكيم : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) إِنَّا أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .) . وأيضاً كما جاء في خطبة حجة الوداع : « أَيُّهَا النَّاسُ إِن رِبْكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِن أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، كُلُّكُمْ لَأَدَمٌ وَأَدَمٌ مِنْ تَرَابٍ ، أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ ، وَلَيْسَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِي فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى » ، وبذلك يتضح أن التسوية بين الشعوب هي نظرية الإسلام ، فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً من حيث النسب والقومية ، إذ ليست العروبة ولا العجمية في الإسلام ميزة تُعلَى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواسية . وإذن فمن

الخطأ أن نَحْمِلَ القائلين بالتسوية على الشعبيين أو على القول بالشعبية، إنما الشعبيون هم الذين يُعْلَنون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حانقين حنقاً شديداً على كل ما هو عربي ، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلا فإذا هم يودون لو ثاروا لآبائهم من العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين . ومن كان يذهب هذا المذهب في الحماسة والجهالة والعداوة للعرب المتوكلي الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه ، إذ يقول في شعوبية حاقدة ذميمة^(١) :

أنا ابنُ الأكارم من نَسْلِ جَمٍّ وحائِزُ إرثِ ملوكِ العجمِ
وطالبُ أوتارهم جَهْرَةً فمن نام عن حقِّهم لم أنمِ
فقلْ لبني هاشمٍ أجمعين هلموا إلى الخَلْعِ قبل النَّدَمِ
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأَكُلَ الضُّبابِ ورَعِي الغَنَمِ
فإني سأعلو سريراً الملوك بحدِّ الحُسامِ وحَرْفِ القَلَمِ

وواضح أن قلب المتوكلي يضطرم حقداً وضغينة على العرب ، حتى ليظن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسيّ القديم وأنه قد وُكِّل إليه أخذ الثأر أو الأثأر من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه ، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بني هاشم مهتدداً لهم متوعداً ومنذراً أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلي في الحجاز ، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها البرابيع والضباب ، ويرعون الأغنام ، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة القفر والفلوات ، وكأنه نسي أن بني هاشم من قريش سكان مكة في القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام ، ولكنها الشعبية العمياء الرَّعْناء .

ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعبية الحمقاء الزندقة والزنادقة الذين كانوا يبغضون العرب وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام ، ويوضح ذلك الجاحظ قائلاً : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعبية والتماذى فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك

الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وهي السلف والقدوة ^(١) . ومَرَّ بنا في العصر العباسي الأول أن الزندقة إنما كان يُوصَمُ بها أولاً من يتابعون ماني في عقيدة النور والظلمة وما اتصل بها من مبادئ ، بالضبط كما كانت تطلق عند الفرس . والزنادقة المعتنقون لهذه الأفكارهم الذين كانوا يحاكون زمن المهدي وابنه الرشيد ، ثم اتسع مدلولها فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية من نحل المجوس كنحلة المزدكية وما دعت إليه من التحلل الخلقي والإباحية المسرفة ، واتسعت أوسع من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الخفيف أو بالديانات مطلقاً وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفسق . ومَرَّ بنا أيضاً في العصر العباسي الأول كيف أن المتكلمين - وفي مقدمتهم المعتزلة - تجردوا لخداهم ونَقَضُوا أقوالهم وآرائهم الخبيثة ، وعقدوا لذلك مناظرات كانوا يُفَحِّمونهم فيها إفحاماً شديداً ، على نحو ما صوّر ذلك الجاحظ عن النظّام في كتابه الحيوان ، وألّفوا أيضاً الكتب والرسائل الطوال .

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة في هذا العصر التالي ، بل لقد اشتد أوارها ، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك في النبوات عامة ، وكان من أشدهم نَقَرٌ بدعوا حياتهم في صفوف المعتزلة . وما زالوا يُسَبِّحون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم ، وفي طليعتهم أبو عيسى الوراق المتوفى سنة ٢٤٧ للهجرة ^(٢) وكان في أول أمره معتزلياً ، وأحسن المعتزلة فيه إلحاده فطرده عنهم ، فتحول شيعياً رافضياً ، وينعته الخياط بأنه كان مانوياً يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم ^(٣) ، ويدّو أنه أنكر النبوات وأن له في ذلك بعض الرسائل ^(٤) . وقد أثر تأثيراً واسعاً في تلميذه أبي الحسين أحمد بن إسحق الرّاوندي ^(٥) المولود فيما بين سنتي ٢٠٥ و ٢١٥

١. الإسلام لعبد الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة المصرية) وانظر في ترجمة ابن الراوندي ووفاته مروج الذهب ٢٣/٤ وابن خلكان ومعاهد التنصيص (طبعة بولاق) ١/٧٦ ورمّة الجنان لليافعي ١٤٤/٢ ، ٢٣٧ والنجوم الزاهرة ١٧٥/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٣٥/٢ ومقدمة نيرج لكتاب الانتصار وقاربخ أبي الفدا في عام ٢٩٣ .

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .
(٢) مروج الذهب ٢٣/٤ .
(٣) كتاب الانتصار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٢ .
(٤) انظر مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف في الإسلام لماسينيون (طبع باريس ١٩٢٩) ص ٨٢ .
(٥) انظر في ابن الراوندي وأستاذه أبي عيسى الوراق كتاب من تاريخ الإلحاد في

وكان يعتنق في أول الأمر الاعتزال وصنّف عدداً من الكتب في مناصرته ونشره بين الناس ، ثم تحول عنه إلى التشيع على مذهب الرافضة مثل أستاذه أبي عيسى وصار أعنف خصوم المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، بل لقد تهادى في ذلك حتى كفر بالدين وجميع الديانات وألف في ذلك كتباً مختلفة يسميها صاحب الفهرست باسم الكُفُريّات . ولما ارتفع اسمه إلى مسامع الحكام خشي مغبة ذلك وأن يُرمَى به في غياهب السجون فاخْتَبَأَ في منزل أبي عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازي ، وله صنّف بعض كفرياته ، وما زال محتبئاً بمنزله حتى توفي على ما يقول المسعودي وابن خلكان حوالى سنة ٢٥٠ للهجرة وقال ابن الجوزى وابن تغرى بردى إنه توفي سنة ٢٩٨ ويرجع التاريخ الثاني ما يذكره ابن الأنباري في نزهة الألباء بترجمة المبرد عن كتابه المقنضب وأنه لم يكتب له الرواج ، لأن ابن الراوندى الملحد رواه .

وسقطت كتب ابن الراوندى في العصور التالية من أيدي الزمن ، فلم يصلنا منها شيء ، ولكن وصلتنا شذور ومقتطفات في كتب بعض من ردوا عليه أو من ترجموا له ، من ذلك كتاب المجالس المؤيدية لهبة الله الشيرازى داعى دعاة الفاطميين لعصر المستنصر إذ جلب اقتباسات^(١) من كتابه «الزمردة في دفع النبوات» وفيها نراه يردُّ إنكار النبوات إلى البراهمة الهندو تضليلاً حتى يبعد التهمة عن نفسه ، وكأنه إنما يتكلم بلسانهم ، وهو يستهلُّ كلامه بأن الله أنعم على الإنسان بالعقل ليميز الحسن من القبيح والخير من الشر ، وإذن فلا داعى للرسول ، لأنهم إما أن يؤكدوا هذا التمييز العقلى الذى يُغْنى عنهم فيه العقل ، وإما أن يبطلوه أو ينقضوه وحينئذ تكون نبوتهم عبثاً ولا حاجة للإنسان بها ، ويقول إن الرسول عليه السلام أتى بما ينافر العقول من مثل الصلاة وشعائر الحج ومناسكه ، وينفى المعجزات النبوية ، ويزعم أن فصاحة القرآن ليست معجزة وخاصة بالقياس إلى العجم الذين لا يدركون الفصاحة العربية . ويردد نفي المعجزات النبوية وأن الملائكة نصروا رسول الله في غزوة بدر وأنه أسرى به إلى بيت المقدس ، ويمضى في لغو من هذا النوع ، ونرى ابن الجوزى ينقل في كتابه المنتظم شذرات^(٢) أخرى من مصنفه الزمردة ،

(١) انظر في هذه الاقتباسات وتحليلها (٢) راجعها في كتاب من تاريخ الإلحاد كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ٧٥-١٨٨ .
 (٢) راجعها في كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ١١١ .

ويبدو أن ابن تغرى بردى نقلها عنه ، من ذلك أنه كان يقول : « إنا نجد في كلام أكرم بن صيني الحكيم الجاهلي أحسن من (إنا أعطيناك الكوثر) و (قل أعوذ برب الفلق) وإن الأنبياء وقعوا (اهتدوا إلى) بطلسيات تجذب كما أن المغنطيس يجذب الحديد أما قوله صلى الله عليه وسلم لعمار : تقتلك الفئة الباغية (كان مع على بن أبي طالب في صفين وقتله جيش معاوية) : فلإن المنجم - في رأيه - يقول مثل هذا إذا عرف المولد وأخذ الطالع . ويقول ابن الجوزي : « كان ابن الرواندي وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد يتراميان بكتاب « الزمرد » ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه ، وكانا يتوافقان على الطعن في القرآن^(١) . أما كتابه الكفرى الثانى الذى خصَّ به الرد على القرآن فهو كتاب « الدامغ » ، ويقال إنه صنف هذا الكتاب لإرضاء لليهودى الذى كان يؤوِّيه ، وهو فيه ينكر إعجاز القرآن كما مر بنا في حديث داعى الدعاة الفاطمى ، ويزعم أن في كلام الجاهليين ما هو أفصح منه وأبلغ ، ويقول ابن الجوزي إنه بدأ فيه بالطعن في القرآن وبلاغته حتى لقد زعم - بهتاناً وزوراً كبيراً - أن به أخطاء لغوية .

ولعل في ذلك ما يصور - من بعض الوجوه - الهجمات العنيفة التى كان يصوّبها الملحدون في القرن الثالث الهجرى إلى الإسلام والقرآن الكريم بل إلى الديانات عامة . ومن هنا نفهم السر في أن الخليفة المعتمد حلّف الوراقين لسنة ٢٧٩ أولاً يبيعوا كتب الكلام والحدل والفلسفة^(٢) ، فقد كان من المتفلسفة والمتكلمين من يبتنون الإلحاد^(٣) والزندقة ويدخلونهما على ما يصنفون من الكتب . وكان أهمّ من نقض على ابن الرّاوندى كفرياته معاصره أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعروف بالخيّاط ، وقد نشر له المستشرق نيجرج كتابه « الانتصار والرد على ابن الرواندي الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم » ، وكذلك عُنّي بالرد عليه معاصره أبو على^(٤) محمد بن عبد الوهاب

(١) من كتاب تاريخ الإلحاد في الإسلام

ص ١١٣ .

(٢) طبرى ٢٨/١٠ وابن تغرى بردى ٨٠/٣ .

(٣) الفهرست ص ٤٨٧ .

(٤) يقول ابن الجوزي إنه نقض خمسة

كتب له في مقدّمها الزمرد والدامغ .

انظر من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ١٦٢

ويورد الكتاب هنا من نقضوا كتابه في تفصيل

وإسهاب .

الجسباني . وكان أهم من ورث عن ابن الراوندي إلحاده وزندقته وطعنه على الدين الخفيف ، بل على جميع الديانات الطيب أبو بكر محمد^(١) بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ ، وكان كيميائياً ماهراً إلا أنه اتبع هواه وضل ضللاً بعيداً إذ مضى على هدى ابن الراوندي وأشباهه ينكر النبوات وألف في ذلك كتابه « مخاريق الأنبياء » وسقط بدوره من يد الزمن ، إلا أن أبا حاتم الرازي أورد في كتابه « أعلام النبوة » اقتباسات كثيرة منه ردّاً عليها ونقضها نقضاً ، وقد حلّلتها الدكتور بدوي تحليلاً^(٢) جيداً ، وأظهر أنه يتابع في حججه وأدائه ابن الراوندي ، فالعقل يكفي وحده لمعرفة الخير والشر ، ولا حكمة ولا داعي لإرسال الأنبياء ، وأيضاً لا معنى لأن يخص الله نفرأ (يريد الأنبياء) من البشر لإرشادهم وتوجيههم ، والناس جميعاً متساوون في الفطن والمواهب . وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم ، زاعماً أن اختلافهم لم يصدر عن الله جاهلاً بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفاً على الناس ورحمة بهم . وينقد الأديان عامة ويدخل فيها ديانات المجوسية ، كما ينقد الكتب المقدسة ، ويزعم أنها جميعها زاهرة بالتناقض ، وأن خيراً منها للناس العلوم التي استنبطها الفلاسفة والعلماء بعقولهم . وهو خلط بين حاجات البشر المادية وحاجاتهم الروحية . ولعل في هذا كله ما يصور نشاط الملحدين والزنادقة في العصر وكان لهم المعتزلة والمتكلمون بالمرصاد فتقصوا آراءهم وأوضحوا ما فيها من فساد وزيف ودحضوها دحضاً .

٥

الزهد والتصوف

يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعبوية والمجون في العصر العباسي الثاني أنه كان عصرأ مُلحدأ غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون

(٢) انظر كتاب من تاريخ الإلحاد في

الإسلام ص ١٩٨ .

(١) انظر في ترجمته الفهرست ص ٥١٨

وابن أبي أصيبعة والفقطنى ص ٢٧١ ودائرة

المعارف الإسلامية .

والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع في طبقات خاصة، أما المجنون فكان يشيع في الطبقة المترفة، وأما الشعوبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد. ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجان وعلى الشعوبيين والملاحدين من أعداء الإسلام والعروبة.

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت في بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمير والقيان والضرب على الآلات الموسيقية، وشركتها في ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعباد والنسك وكانوا أكثر كثرة من المجان وأهل الفساد. وكان في كل مسجد حلقة، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فلما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم. واختلط الوعظ بقصص ديني كثير على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول، وكثر حينئذ النسك والزهاد في متاع الحياة الدنيا، وعاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة، وأقرأ في تراجم الفقهاء والمحدثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثرتهم وهم يعدون في العالم الإسلامي بالملئات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا، بل لكأنما تجردوا للجهاد في سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذي لا يزول. ويكفي أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم^(١) بن إسحق الحربي، وكان من كبار المحدثين، وكان لا يأخذ على محاضراته في الحديث أجراً من أحد، إذ عزف عن كل متاع في الحياة، وعاش معيشة زاهدة مبالغه في الزهد إلى أقصى حد، حتى إنه ليرفض

١٩٠/٢ والنجوم الزاهرة ١١٦/٣ ويقال :

كان يقاس بابن حنبل في علمه وزهده .

(١) راجع في ترجمته تاريخ بغداد ٢٧/٦

ومعجم الأدياء ١١٢/١ والأنساب للسماعى

١٦٢ وصفة الصفوة ٢٢٨/٢ وشذرات الذهب

في إباء أى مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه ، ويُرَوَى أن المعتضد أرسل إليه عشرة آلاف درهم مع بعض أتباعه ، فردّها ، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها في جيرانك ، فقال له : عافاك الله ، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقه ، قل لأمر المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحوّلنا عن جوارك .

وظل يلزمه صداع خمساً وأربعين سنة بدون أن يخبر به أحداً ، وقد أفنى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيفاً واحداً في اليوم والليلة ، إن جاءته به زوجته أو إحدى بناته أكله وإلا بقي جائعاً ظامئاً إلى الليلة الثانية . وهى درجة رفيعة في الزهد ، وكان على غراره كثيرون من المحدثين والفقهاء يصومون الدهر ويعيشون على الكفاف بل على أقل من الكفاف كما يعيشون على العبادة والورع .

وأخذت تتسع في هذا العصر موجة التصوف ، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى عند إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخى صاحب اليد الطولى في مبدأ التوكل وإشاعته^(١) بين أوائل المتصوفة ومعروف الكرخى الذى أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة^(٢) ، ويعرض القشيري في رسالته أقوالاً مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرّفّة والتنعّم ، أو هى من الصّفاء أو هى من الصّفّة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد لعهد الرسول عليه السلام ، ولا يُدلى القشيري برأى حاسم ، وذهب البيرونى إلى أنها مشتقة من كلمة صوفيا اليونانية بمعنى الحكمة^(٣) . ويبدو أن أوجه الآراء الرأى القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف لأن كثيرين من الزهاد في القرن الثانى الهجرى كانوا يلبسونه ، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك .

ومنذ أواسط القرن الماضى يُعنى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التى أثرت في نشأته وتطوره ، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كرىمر ،

(١) النجوم الزاهرة ٢١/٢ .

والنشر ص ٥ .

(٢) في التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة

(٣) ما لهنت من مقولة البيرونى (الطبعة

أبي العلا عفيفى وطبع لجنة التأليف والترجمة

الأوربية) ص ١٦ .

وكان يذهب إلى أن التصوف يشتمل على عنصرين أساسيين ، عنصر مسيحي وعنصر بوذي هندي ، ويتضح العنصر الثاني — عنده — في فكرة وحدة الوجود التي تمثلها ، كما يقول ، الحلاج في أواخر القرن الثالث^(١) الهجري . وذهب نيكلسون فيما بعد إلى أن الحلاج لم يتمثل هذه الفكرة لاهو ولا غيره من متصوفة القرن الثالث . ومن شدد على التأثير الأجنبي جولدتسبر ، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود ، كما ربط بينه وبين البوذية^(٢) الهندية . وخفف من حدة القول بهذا التأثير الأجنبي ماسينيون في بحوثه عن الحلاج ، إذ ذهب إلى أن التصوف نشأ من صميم الإسلام نفسه ، وإن تأثر في الطريق بمؤثرات الثقافة الهلينية التي كانت منتشرة في الشرق منذ ميلاد المسيح^(٣) . وبالمثل خفف من حدة القول بالتأثير الأجنبي نيكلسون ، وإن لاحظ مع مر الزمن ، كما هو الشأن عند ذى النون وتأثره في رأيه بالأفلاطونية الحديثة إذ كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة في عصره ، وأيضاً كما هو الشأن عند أبى يزيد البسطامي وتأثره في رأيه بالفلسفة الهندية الفارسية . على أنه مضى في بحوثه يُعلّي من شأن التأثير الإسلامي في نشأة التصوف ، ويقلل من أهمية التأثيرات الأجنبية ، وكان أهم معول هدم به القول بهذه التأثيرات ما كان قد تبادل لكثير من الباحثين من إيمان أبى يزيد البسطامي والحلاج بنظرية وحدة الوجود ، فقد نفاهما عنهما ، ولم يثبتها إلا منذ ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ . وبذلك انتهى إلى القول بأن جميع الأفكار التي وُصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية إنما هي وليدة الزهد والتصوف اللذين نشأ في الإسلام وكانا إسلاميين في الصميم^(٤) .

وإذن فالتصوف إسلامي في جوهره وفي نشأته ونموه وتطوره ، وهو الرأى العلمى الصحيح ، ولكى نتصور التصوف في دقة في أثناء هذا العصر ، يحسن أن نستعرض أئمتة الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته ومصطلحاته في نفوس العصور التالية ،

(٣) راجع مقدمة عفيفى لكتاب نيكلسون السالف .

(٤) انظر مقدمة عفيفى . وكتاب في التصوف الإسلامى في مواضع مختلفة .

(١) انظر نيكلسون في مبحثه عن الحلاج ومقدمة عفيفى .

(٢) العقيدة والشرعية في الإسلام لجولدتسبر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٣٦ وما بعدها.

وأولم الحارث^(١) بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد نُشرت له رسائل مختلفة ، وهى تدل بوضوح على أنه جَدٌّ فى ربط التصوف بالشرعية على طريقة أهل السنة ، وكان يعتنق مذهب الشافعى ويرى أن الرافضة خرجوا على حدود الإسلام وملته ، ولذلك يروى أنه لما مات أبوه وكان هو فى عَمَوز وإملاق فى حين خَلَفَ أبوه ثروة طائلة رفض أن يأخذ منها درهمًا ، لأن أباه كان رافضيًا ، وقال : أهل ملتين لا يتوارثان . ومن أهم ما يميزه بين خلفائه ومعاصريه من المتصوفة أنه دعا فى قوة إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها وتزكيتها باتباع الكتاب والسنة ، وهو أول من فرق بين التوكل على الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه ، وجعله — وتابعه فى ذلك متصوفة العراق — من الأحوال التى لا تكتسب ، على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات^(٢) ، ورفض أن يفضى التوكل إلى عدم التكسب ، فلا بد من السعى فى الأرض سعيًا ينال به الإنسان الفضل والثواب .

وكان يعاصره ذو النون^(٣) المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ ويرى نيكلسون أنه الواضع الحقيقى لأسس التصوف ، إذ هو — كما يقول ابن تغرى بردى — أول من تكلم فى مصر فى الأحوال والمقامات ، ويعمم ذلك نيكلسون ، فيجعله لا أستاذ المصريين وحدهم فى التصوف بل أستاذ المشاركة أيضًا ، وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى حديثه عن العارف والمعرفة ، وفيه قسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسمًا مشتركًا بين عامة المسلمين ، وقسمًا خاصًا بالفلاسفة والعلماء ، وقسمًا خاصًا بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك فَصَّلَ المعرفة الصوفية عن المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية ، تنزع نحو القلب ، وتعتمد على التجربة الحسية ، والثانية عقلية

(١) نشأ فى البصرة ثم انتقل فى شبابه إلى بغداد ، انظر فى ترجمته تاريخ بغداد ٢١١/٨ والأنساب للسماعى ٥٠٩ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٧٥ ومرآة الجنان ١٤٢/٢ والنجوم الزاهرة ٢/٣١٦ والتهذيب لابن حجر ٢/١٣٤ وكتاب طبقات الصوفية للسلمى (طبع بباريس) ص ٤٦ .

(٢) انظر باب الرضا فى الرسالة القشيرية .

(٣) راجع فى ترجمة ذى النون وآرائه الفهرست

ص ٥١٧ وطبقات الصوفية للسلمى ص ٢٣ ، وتاريخ بغداد ٣٩٣/٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٢٧١ ومرآة الجنان للياقنى ٢/١٤٩ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ والطبقات الكبرى للشعرانى ١/٥٩ وأخبار الحكماء للقفطى ١٨٥ وشذرات الذهب ٢/١٠٧ ورسالة القشيرية فى ص ٩ وفى مواضع متفرقة ونيكلسون ص ٧ وما بعدها .

تعتمد على الأفكار كما تعتمد على المنطق . ومن هنا كان التصوف ليس علمًا ولا فلسفة ولا مذهبًا ، وإنما هو أحوال ومقامات ، ويقال إنه سُئل كيف عرف ربّه ؟ فقال : « عرفتُ رَبِّيَ برَبِّي ولولا رَبِّي لما عرفتُ رَبِّي » ، وسُئل عن الذكر ، فقال : « هو غيبة الذاكر عن الذكر » ، وقال : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله » . وكأنه هو الذى وصل فى قوة بين التصوف وعلم الباطن ، أو قل هو الذى فسح فيه للباطن ، وقد قال إنه مقصور على الخواص من أهل الله ومن هنا فرق دائماً بين الخواص والعوام ، ومن قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » . وكان يقول : « إياك أن تكون بالمعرفة مدّعياً » يقصد معرفة الصوفية القلبية القائمة على الإدراك الحدسى . ومن قوله أيضاً : « الصوفى مَنْ إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق » وكان يقول إن العارف (الصوفى) لا يلزم ربه فى حالة واحدة وإنما يلزمه فى الحالات كلها . وكانت تجرى فى كلامه ألفاظ المحبة والوجد ، وكان يقول علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات الحب لله متابعة حبيب الله فى أخلافه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أى انفصام بين التصوف والشريعة ، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية ، بل هو لا يكون له قوام بدونها ، وبدون ما شرعت من فرائض ونوافل وعبادة وتقوى .

وكان السَّريّ^(١) السَّقَطِيّ المتوفى سنة ٢٥١ شيخ منصوفة بغداد وإمامهم فى وقته ، وكان تاجراً فهجر التجارة ولزم بيته وانقطع للعبادة ، ويقال إنه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، أو هو بعبارة أخرى أول من تكلم فى المقامات والأحوال هناك ، وبذلك يكون أول تال لذى النون تحدث فيها حديثاً مستفيضاً . وكان يقول : « التوكل الانخلاع عن الحول والقوة » و : « من علامات المعرفة بالله القيام بحقوق الله » ، وهو بذلك كان يصل بين التصوف والشريعة ، بل يجعلها قوامه ، ويوضح ذلك أنه سُئل عن المتصوف من هو ؟ فقال :

« هو اسم لثلاثة معان ، هو الذى لا يطفى نور مغرفته نور ورعه ولا يتكلم بباطن عن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله »^(١) ، وهو يذكر الكرامات ولعله لم يكن يريد معناها الدقيق الذى عُرِف للكلمة فيها بعد وأن الله يُجْرى على أيدى الأولياء ما يشبه معجزات الأنبياء . وكان يكثر من الحديث عن محبة الله منشداً :

مَنْ لَمْ يَبْتَ وَالْحَبُّ حَشْوُ فُؤَادِهِ لَمْ يَذَرْ كَيْفَ تَفَتَّتِ الْأَكْبَادُ
ويبدو أنه كان يأخذ نفسه بمجاهدات زهدية وتقشفية عنيفة .

وإذا كان ذوالنون هو الذى أدخل فى التصوف بقوة النزعة نحو المعرفة الإلهية ، فإن أبا يزيد طيفور^(٢) بن عيسى البسطامي المتوفى سنة ٢٦١ هو الذى أدخل فيه — على ما يظهر — فكرة الفناء فى الذات العلية ، وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله : « للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه مُحِيت رسومه وفنيت هُويَّته بهُويَّة غيره ، وغُيِّبَتْ آثاره بآثار غيره » ، وقوله : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فى : يا مَنْ أَنْتَ أَنَا ! فقد تحققت بمقام الفناء فى الله » . وروى من أقواله التى تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله : « سبحانه ما أعظم شانى » وقوله : « خرجتُ من بايزيديَّتى كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمحشوق والعشق واحد ، لأن الكل واحد فى عالم التوحيد » . ويمكن أن يُردَّ هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقوال له أخرى إلى فكرة الفناء . ومما نسبوه إليه أيضاً قصة معراجهِ إلى السماء وقد قصَّها العطار بالتفصيل إذ رُوى عنه قوله : « صعدت إلى السماء وضربت قَبَتى بإزاء العرش » . ولا شك فى أنها قصة منحولة عليه هى وأقواله التى قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال إذ قال : « وقد نقلوا عنه أشياء يشك فى صحتها عنه ، منها : « سبحانه » و : « ما فى الجُبَّةِ إلا الله » و : « ما النار ؟ ! لأستندنَّ إليها غداً وأقول

مختلفة وطبقات الشعرا ١/٦٥ وميزان الاعتدال

للذهبى ٢/٣٤٦ والنجوم الزاهرة ٣/٣٥

ونيكلسون ص ٢٢ وما بعدها .

(١) تهذيب ابن عساكر ٦/٧٨ ونيكلسون

ص ٢٩ .

(٢) انظر فى ترجمته طبقات الصوفية للسلى

ص ٦٠ وابن خلكان والرسالة للقشيري فى مواضع

اجعلنى لأهلها فداءً ، وما الجنة ؟ إنها لعبة صبيان . ونسب إليه أهل بلدتها بسطام - في الجنوب الشرقى لبحر الخزر - أنه زعم أن له معراجاً إلى السماء كمعراج الرسول عليه السلام . ولعل في ذلك ما يدل على أنه وضعت على لسانه من قديم أقوال وقصص غريبة ، وكأنه تحول شخصية أسطورية في تاريخ التصوف ورجاله ، ويبدو أنه كانت تجرى على لسانه شطحات وعبارات موهمة كثيرة أعدت لأن تصبح له هذه الشخصية ، غير أنه مما لا ريب فيه أنه صاحب فكرة الفناء في الذات الإلهية ، تلك الفكرة التي أخذت مكاناً مهماً في التصوف الإسلامى . ويبدو أنه أول من أدخل في التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهى ، وفي الرسالة القشيرية أن معاصره الصوفى يحيى بن معاذ كتب إليه : « سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبة الله » فأجابه : « غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ولسانه خارج من العطش ، ويقول هل من مزيد »^(١) ، وكان ينكر ما يردده الناس عن كرامات الصوفية . وكان يؤمن بأن التصوف لا يقوم بدون الشريعة والمحافظة على فرائضها والصدوق بأوامرها ونواهيها^(٢) .

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت في الوضوح منذ أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، حتى لتنشأ طبقه تحاضر فيه مثل يحيى بن معاذ الذى ذكرناه آنفاً ، ومثل أبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ ، وهو أول من تكلم على رموز المنابر ببغداد في اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع الهمة والعشق والقرب والأنس^(٣) ، ومثل أبى سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ وهو أول من توسع في الكلام عن الفناء^(٤) . ويظهر حينئذ حمدون^(٥) القصص النيسابورى المتوفى عام ٢٧١ وقد ذهب بعيداً في تفشفه ، إذ دَعَا مريديه إلى سلوك طريق الملامة بأن يتظاهروا

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٦ وانظر شذرات الذهب ١٤٣/٢ .

(٢) انظر ترجمته في ميزان الاعتدال ، ويقول الذهبي : ما أحل قوله : لو نظرت لى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تفترأ به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر

والهى وحفظ حدود الشريعة .

(٣) النجوم الزاهرة ٤٦/٣ .

(٤) طبقات الصوفية للسلى ص ٢٢٣ .

(٥) انظر السلى ص ١١٤ وكتاب الملامية

والصوفية وأهل الفترة لأبى العلا عفيفى .

باتخاذ أشياء ينكرها الشرع ، حتى يتلومهم العوام من حولهم فلا يقفوا على حقيقة تصوفهم وإخلاصهم لله ، ومنهم انتشر مذهب الملامتية بنيسابور ، إذ يُبْذَنون في مظهر المذنبين دائماً ، مما أعدّ للقعود — فيما بعد — عن النهوض بفرائض الشريعة . أما في هذا العصر فنجد المتصوفة دائماً يعلنون تمسكهم بها ، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التستري الصوفي المتوفى سنة ٢٨٣ : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق »^(١) وفي رسالة القشيري أنه كان ينكر الكرامات إنكاراً شديداً .

وأهم صوفي ظهر بأخرة من القرن الثالث الجنيد^(٢) المتوفى سنة ٢٩٧ ويُنعت بالقراري الحزاز ، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هو يبيع الخز ، وأصله من نهاوند بالقرب من همدان ، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد ، وهو ابن أخت السري السقطي وعنه أخذ الطريقة ، وأخذها السري بدوره عن معروف الكرخي . وكان ورده في اليوم ثلثمائة ركعة وثلثين ألف تسبيحة ، وفي طبقات الصوفية للسلمي أنه كان يقول : « ما أخذنا التصوف عن القليل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنتات » ، ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، وكان يصلي كل ليلة أربعمائة ركعة . وكان يقول : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يُقْتَدَى به » . وتتردد على لسانه كلمتا الطريق والمريد ، مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسي الثاني نظام الطرق والمريدين في التصوف ، فلإمام الصوفي طريقة ، يحملها عنه مريده من تلاميذه وأتباعه وينشرونها في موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامي . وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية ، وصَبَّغها بصبغة جماهيرية شعبية ، وإن كان قد رَشَّح لأن يكون الارتباط في الطريقة بالإمام الصوفي نفسه لا بمبادئه وأفكاره ، وبذلك أوجد صلة وثيقة بين الشيخ

الشافعية للسبكي ٢/٢٦٠ ومراة الجنان لليافعي

٢/٢٥١ والنجوم الزاهرة ٣/١٦٩ وشذرات

الذهب ٢/٢٢٨ .

(١) السلمي ص ٢٠٣ .

(٢) انظر في ترجمة الجنيد تاريخ بغداد

٧/٢٤١ والرسالة القشيرية في مواضع مختلفة

وابن خلكان والسلمي ص ١٤١ وطبقات

ومريديه وتلاميذه ، فكانوا يأترون بتوجيهاته ، وكانوا يحيطونه بهالة من الإجلال والتوقير ، هيأت فيما بعد لأن تصبح لكل شيخ قداسته . وكان الجنيد يستخدم أسلوباً مليئاً بالمبالغات في الرغبة والتهيب زائراً بالألناظ الطنانة الكثيرة الإيهام والإيحاء ، وأخذ عنه تلاميذه العلاج هذا الأسلوب وأصبح ميزة أساسية له في أقواله وأشعاره ، وهو أسلوب كثرت فيه الشطحات ، ولا حظ ذلك القدماء على الجنيد إذ نرى السراج في كتابه الملع يعرض طائفة من شطحاته ويفسرهما تفسيراً بيناً . وأشهر تلاميذ الجنيد الحسين بن منصور المشهور باسم العلاج وسنعرض له بالحديث في غير هذا الموضع .

ومن أهم الصوفيين المتأخرين في العصر الحكيم^(١) الترمذى محمد بن علي بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام ، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق في دراسة اتجاهات الشيعة ، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتباً كثيرة . ويقال إنه هو الذى أدخل بقوة نظرية الولاية في البيئات الصوفية وكل ما جرت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته في خلقه ، وقد ألف فيها كتاباً سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام : « يغبطهم النبيون والشهداء » إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم ! ! وذكر في الكتاب المذكور أن عيسى يعود في آخر الزمان ، وبذلك يكون خاتم الأولياء ، وثار عليه أهل بلده « ترمذ » ففر إلى نيسابور وبها توفى . وقال السبكي : دافع عنه السلمى معتدراً عنه ببعده فهم الفاهمين . وعلى كل حال يُعَدُّ الترمذى الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات .

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجرى تلقانا ظاهرة جديدة في بيئات المتصوفة ، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين ، وهم في أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد ، أما منذ أبي الحسين النورى

ورسالة القشيري في مواضع مختلفة وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢/ ٢١٨ .

(١) انظر في ترجمة الحكيم الترمذى طبقات الصوفية للسلمى ص ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٤٥ وطبقات الشعرائى ١/ ١٠٦

المتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين ينظمون الشعر معبرين به عن التياح قلوبهم في الحب آملين في الشهود مستعطفين متضرعين ، مصورين كيف يستأثر حبههم لربهم بأفئدتهم استشاراً مطلقاً ، نذكر منهم سمنون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا على الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ والشبلي دُلف بن جحدر المتوفى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنيد .

وواضح مما تقدم أن العصر العباسي الثاني لم يكد ينتهى حتى تأصلت في التصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله ، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أولياء الله ، وسرى في موضع آخر كيف أن الحلاج أحاط الرسول عليه السلام بهالة قدسية تشبه الهالة التي يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام ، وكان لكل ذلك أثر عميق في حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال .

الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الحركة العلمية

دعا الإسلام أمته في قوة إلى العلم والتعلم ، فبمجرد أن اكتسح العرب العراق وإيران والشام ومصر مضوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف التي كانت منبثة في هذه البلدان ، وأسعفهم في ذلك أنهم عرباً شعوبها وأخذت بنفسها تعرب لهم كل مدخراتها وكنوزها الثقافية ، وتجرد بعض العرب لمعرفة اللغات الأجنبية التي كانت تحمل تلك الكنوز والمدخرات ، وما ينقضي القرن الثاني الهجري حتى تكون قد دخلت العربية سيول ثقافية وعلمية لا حصر لها ، مما مكّن العرب أن يتحولوا سريعاً إلى أمة علمية تُعنى بكل جوانب العلم الذي كان معروفاً عند الأمم القديمة وخاصة الفرس والهنود والسرّيان واليونان ، وتشارك فيه مشاركة جادة خصبة ، وتضيف إليه علومًا جديدة تتصل بالقرآن والشريعة والشعر واللغة والنحو والعروض .

ونشط التعليم حينئذ نشاطاً واسعاً فن تعليم للناشئة بالكتاتيب إلى تعليم للشباب بالمساجد، وكان الناشئة يبدعون بتعلم الخط والكتابة والقراءة ويحفظون بعض السور القرآنية ، ويسندون بعض الأشعار والأمثال ، ويدرسون شيئاً من الحساب والسنن والفرائض والنحو والعروض ، وعنى معلمو البنات بتحفيظهن القرآن وخاصة سورة النور ، على نحو ما صورنا ذلك كله في كتاب العصر العباسي الأول نقلاً عن

الجاحظ ، وذكر هو وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب ، ونراه يخصّهم برسالة لا تزال منها بقايا بين رسائله المطبوعة على هامش كتاب الكامل للمبرد ، وفيها تصوّر نوادرهم وحماقاتهم المضحكة ، ومن حينئذ أصبحت شخصية معلم الكتّاب تدور بين الشخصيات الهزلية فى أدبنا العربى ، ويقول محمد بن حبيب العالم اللغوى المتوفى سنة ٢٤٥ : إذا قلت للرجل ما صناعتك ؟ فقال : معلم صبيان فاصفّ ، يشير إلى حماقته ، وكان ينشد :

مَنْ عَلَّمَ الصَّبِيَّانَ صَبَّوْا عَقْلَهُ حَتَّى بَنَى الْخُلَفَاءَ وَالْخُلَفَاءُ^(١)
وَصَبَّوْا عَقْلَهُ : جعلوه مثل عقلهم : عقل الصبيان حمقاً وبلاهة ، وكأنما تصيب عقله عدوى من عقولهم لطول ملابستهم لهم ، وابن حبيب يعنى ذلك حتى فيمن يعلمون أبناء الخلفاء وآباءهم حين كانوا فى المهد صغاراً . ويقول ابن قتيبة إنهم كانوا يعلمون الصبيان على حسب الهدايا التى كانت تأتيتهم من آبائهم^(٢) ، أو عبارة أدق على حسب الأجور التى كانوا يأخذونها منهم .

وطبعى ألا تكون حياة معلم الكتّاب على هذا النحو رافهة ، بل كان كثيراً ما يحفّ بها الضيق والبؤس على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ وكان فى بدء حياته معلم كتّاب ، وقد شكّا شكوى مرة حينذاك من حياته^(٣) البائسة . وكثير من اللغويين والنحاة قبل أن ينالوا شهرتهم العلمية بدعوا معلمى صبية مثل يعقوب بن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣ ، فقد كانت له فى مطالع حياته حلقة فى درب القنطرة ببغداد يؤدّب فيها مع أبيه صبيان العامة^(٤) . ويخيّل إلى الإنسان كأنما أولاد العامة جميعاً كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما استقر فى نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وأنه مثل الطعام والشراب لا يمكن الاستغناء عنه ، وأن من لم يتعلم فى صغره فاته العلم فى كبره ، ومثّلوا العلم فى الكبر بالنقش على الماء ، وفى الصغر بالنقش على الحجر يثبت ولا يزول أبداً . وكان الأولاد يكتبون فى ألواح من الآبنوس أو الخشب ، كل على حسب قدرة أبيه

(١) معجم الأدباء لياقوت (طبعة القاهرة) (المصرية) ٣٩/٤ .

(٢) معجم الأدباء ٣/٨١٠٦٥ .

١١٢/١٨ .

(٣) عيون الأخبار (طبعة دار الكتب) (٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٤/٢٧٣ .

المادية ، وكان المعلمون يأخذونهم بالتأديب ، فيضربونهم أحياناً أو يحبسونهم ، حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه .

وكان معلمو أبناء الخاصة أحسن حالاً ومعاشاً من معلمى أبناء العامة ، ومع ذلك نرى الجاحظ يأسئ لحالهم إذ يقول : « يكون الرجل نحوياً عروصياً وقسماً فترضياً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً ، ولو أن رجلاً كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم »^(١) وهذا إنما ينصب على معلمى أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار فكانوا يحظون برواتب كبيرة ، فمثلاً يعقوب ابن السكيت الذى بدأ ، كما أسلفنا ، معلم كتابات حين عهد إليه بعض الحكام فى تعليم ابنه جعل له راتباً شهرياً خمسمائة درهم وسرعان ما جعلها ألفاً ، واتخذته المتوكل لتعليم ولده وأسنى له الراتب وأجزل فى العطاء^(٢) . ولما أسند محمد بن عبد الله ابن طاهر نائب المتوكل على بغداد وجماعة من الخلفاء بعده تعليم ابنه إلى ثعلب الإمام الكوفى النحوى المشهور ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه على مائدته ، وفرض له أن يأخذ يومياً خبزاً فاخراً ولحماً كثيراً حين انصرافه إلى منزله وجعل له ألف درهم شهرياً . وقالوا إنه حين مات خلف واحداً وعشرين ألف درهم وأنى دينار وحوانيت أو دكاكين بباب الشام فى بغداد قيمتها ثلاثة آلاف دينار^(٣) ، ويقال إن الخاقانى وزير المقتدر أولم وليمة ضخمة بمناسبة دخول ابن له الكتّاب وأعطى المعلم ألف دينار .

ولم تكن هناك مراحل للتعليم مثلنا اليوم ، بل كان الكتّاب يحل محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى ، ومن يريد أن يكمل تعلمه بعده يختلف إلى حلقات المساجد ، وكانت أشبه بمعاهد عليا ، فلم تكن فقط دوراً للعبادة ، بل كانت أيضاً دوراً ، بل قل جامعات ، للعلم والعلماء ، إذ كان لكل عالم فى كل فرع من فروع

المصرية) ١٤٧/١ وما بعدها ومجم

الأدباء ١٢٥/٥ .

(١) البيان والتبيين ٤٠٣/١ .

(٢) تاريخ بغداد ٢٧٣/١٤ .

(٣) إنباه الرواة للقططى (طبعة دار الكتب

العلم حلقة كبرى ، يتحلّق فيها طلابه من حوله . وكان عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد ، ثم يملئ محاضراته والطلاب يكتبون ، وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردّد مُستَمَلّ كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته ، وكان العالم لا يغير مكان حلقة الذي اختاره منذ نهض بالتدريس ، ويروى أن نَقْطَوْنَه المتوفى سنة ٣٢٣ ظل يملئ دروسه في اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها لا يزايل مكانه منها^(١) . وكانت أكثر الحلقات طلاباً حلقات المتكلمين والفقهاء ، أما المتكلمون فأكثرة ما كان يجري بينهم من مناظرات كان الطلاب يختلفون إليها للفرجة والتعلم ، وأما الفقهاء فلائن الإلمام بالفقه كان الوسيلة إلى تولي مناصب الحسبة والشرطة والقضاء والولاية أحياناً . وكان الطلاب يمسكون في أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة وأمامهم محابريهم ، وكانوا يُعَدُّون بالثبات في بعض الحلقات ، ويروى أن الطبري حين سأله الطلاب الحنابلة عن إمامهم ابن حنبل وخلافه مع بعض الفقهاء وأجابهم بأن خلافه لا يُعَدُّ أو لا يُؤَبَّه له رموه بمحابريهم وكانت ألوفاً^(٢) .

وكانت المساجد حينئذ أشبه بجامعات حرة ، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أى شرط ، منهم من يأخذ الفقه أو الكلام أو الحديث النبوي أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر ، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ ، ثم يتحول عنه إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى . ويبدو أن بعض علماء النحو واللغة كان يتقاضى من طلابه أجوراً على حسب قدرتهم ، ففي أخبار الزجاج أنه رغب في تعلم النحو فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه ، فسأله أى شيء صناعتك ؟ فأجابته : أخطرت الزجاج وكسبني في كل يوم درهم ونصف ، وأريد أن تهتم بتعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً ، وسأظل أعطيك إياه أبد الدهر ، فلزمه وعنى بتخريجهم ، وطلبت منه أسرة معلماً شاباً يعلم أولادهم النحو فسمّاه لهم ، وعلم أولادهم وظل يعطى المبرد في كل شهر ثلاثين درهماً ويزيده بما يقدر عليه^(٣) . ويبدو أن المبرد كان شحيحاً بعلمه ، إذ في تاريخه أن المتوكل والفتح بن خاقان وزيره كانا يجزلان له في العطاء حتى إذا توفيا أجرى عليه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد راتباً

(٣) معجم الأدباء ١ / ١٣١ .

(١) معجم الأدباء ١ / ٢٥٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٥٨ .

شهرياً ، ويتوفى فيتابع أخوه عبيد الله الذى خلفه على بغداد إجراء الرواتب عليه ، وهو مع ذلك كله لا يتورع عن أن يأخذ من طالب فقير درهماً كل يوم .

على كل حال كان المبرد مثله مثل المحاضرين الكبار بالمساجد ترعاهم الدولة وتفرض لهم رواتب شهرية ، وكانوا أنواعاً كثيرة ، فمنهم فقهاء ومنهم لغويون ونحاة ومنهم محدثون ومفسرون ، ومنهم أدباء يأخذون من كل علم بطرف وعلى أيديهم كان يتخرج الندماء . وكان كل عالم وصاحب فن يأخذ راتبه مع جماعته ، وكان منهم من يُسلَّكُ في جماعات كثيرة ، فيأخذ مع كل جماعة الراتب الذى تأخذه ، كما تزجج تلميذ المبرد ، فقد جعل المعتضد له راتباً في الفقهاء وراتباً في العلماء وراتباً في الندماء ، فبلغ راتبه من الدولة ثلثمائة دينار شهرياً^(١) . وكان الموفق يُجرى على ثعلب راتباً سنياً^(٢) . وكان المقتدر يجرى على ابن دريد العالم للغوى المتوفى سنة ٣٢١ خمسين ديناراً في كل شهر^(٣) . وكان أبو الحسن بن الفرات وزير المقتدر يطلق لطلاب الحديث سنوياً عشرين ألف درهم^(٤) . وكان القضاة ورجال الحسبة من الفقهاء يتقاضون رواتب كثيرة ، حتى ليُشرى بعضهم من راتبه ثراء طائلاً ، على نحو ما مرَّ بنا في الفصل الماضى عن إبراهيم بن جابر القاضى بحلب .

ولم يكن الخلفاء العباسيون ووزرائهم وحدهم الذين عملوا على تنشيط العلم وإعطاء الرواتب الجزيلة للقضاة والعلماء من كل صنف ، فقد كان يشركهم في ذلك حكام الولايات ، وفي مقدمتهم أسرة الصفاريين حكام سجستان ، إذ نرى أبا عبد الله البوشننجى شيخ أهل الحديث بنيسابور المتوفى سنة ٢٩١ يذكر أنه أخذ من تلك الأسرة سبعمائة ألف درهم ، ولما دالت دولتهم تحول عنهم إلى السامانيين ببخارى ، ففرضوا له راتباً مجزياً^(٥) ، وقد بعثوا في إمارتهم بتشجيعهم للعلماء نهضة علمية عظيمة ، ويروى أن أميرهم إسماعيل بن أحمد الساماني كان يصل محمد بن نصر المروزي إمام المحدثين في دياره المتوفى سنة ٢٩٤ بأربعة آلاف درهم كل سنة ، وكان أخوه إسحق يصله بمثلها ، كما يصله بمثلها سكان موطنه سمرقند^(٦) .

(٤) كتاب الوزراء للصابي ص ٢٠١ .

(١) الفهرست ص ٩٦ وإنباء الرواة ١٦١ / ١٦١ .

(٥) طبقات الشافعية للسبكي ٢ / ١٩٢ .

(٢) معجم الأدباء ١٤١ / ٥ وإنباء الرواة

(٦) السبكي ٢ / ٢٤٨ .

١٤٢ / ١

(٣) انظر ترجمته في ابن خلكان .

ولم يكن حكام الولايات يُنفقون على علماء ولايتهم وحدهم ، بل كانوا ينفقون أيضاً على كل من ينزل بها من العلماء الوافدين الذين قد يقيمون بها شهراً أو أشهراً ، ومن طريف ما يُروى من ذلك أن الرحلة في طلب الحديث إلى مصر جمعت بين محمد ابن نصر المروزي آنف الذكر ومحمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري المتوفى سنة ٣١١ ، ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ ومحمد بن هرون الروياني المتوفى سنة ٣٠٧ ولم يبق عندهم ما يقوتهم ، فاتفق رأيهم على أن يخرج أحدهم فيسأل لأصحابه الطعام ، وإذا هم بالشموع ورسول من قبل والى مصر يدقّ عليهم الباب ، وسألهم أين محمد بن نصر فقبل له هو هذا فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال لهم أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا هو هذا ، فأعطاه صرة فيها خمسون ديناراً ، وكذلك صنع مع محمد بن إسحق بن خزيمة ومحمد بن هرون الروياني ، ثم قال لهم إن الأمير يقسم عليكم إذا نفذت هذه الدنانير أن تبعثوا إليه أحدكم^(١) . على أنه يجب أن نعرف أنه كان هناك كثيرون وراء الولاة والوزراء والخلفاء من أعيان الأمة وأثريائها يمدّون العلماء بالمكافآت والأموال الجزيلة بل ربما أمدوا الطلاب تشجيعاً وحثاً على طلب العلم ، ويروى أن ابن زرعة قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٠٢ كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني في الفقه الشافعي مائة دينار^(٢) . وكان ابن ماسي يُنفذ إلى أبي عمر اللغوي المعروف باسم غلام ثعلب من وقت إلى وقت كفايته^(٣) ، وسنرى في حديثنا عن علوم الأوائل القناطير المقنطرة من الأموال التي كانت تنفق على الأطباء والمترجمين . ولا بد أن نشير هنا إلى أن نقرأ من الفقهاء والمحدثين وحتى من القضاة كانوا يأبون أن يأخذوا على عملهم وتعليمهم أجراً ، كما مر بنا في الحديث عن زهاد الأمة أمثال إبراهيم الحربي ، وكان كثيرون منهم يعيشون من التجارة أو من الوراثة أو من بعض الحرف الصغيرة . غير أن الكثرة الغامرة كانت تعيش من رواتب الدولة ، ومن وضعوا أنفسهم موضع الحماة للعلوم والآداب من الوزراء والسراة ، وكان كثيراً ما يهديهم العلماء والأدباء آثارهم ، فيهدونهم بدورهم كثيراً من أموالهم وخير مثل يصور ذلك الجاحظ ، فقد أهدى كتابه « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف

(١) السبكي ٢/ ٢٥١ .

(٣) السبكي ٣/ ١٩٠ .

(٢) السبكي ٣/ ١٩٧ .

دينار ، وأهدى كتابه «البيان والتبيين» إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه أيضاً خمسة آلاف دينار ، وأهدى كتابه : «الزرع والنخيل» إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطاه مثلهما خمسة آلاف دينار . وكلهم كانوا من كبار رجال الدولة . وصنف للفتح ابن خاقان وزير المتوكل رسالته في فضائل الترك فأجرى عليه راتباً شهرياً من خزانة الدولة^(١) . وأمثال الجاحظ كثيرون في كل فن وفي كل علم كانوا ينالون هذه العطايا الجزيلة ويأخذون الرواتب السنية على جهودهم في المحاضرات للطلاب وفي تأليف الكتب وتصنيفها ، مما أشعل في نفوس الشباب والناس محبة العلم والعكوف عليه ، حتى يُعَدُّوا من أهله ، وفي شرفه وفضله يقول الجاحظ^(٢) :

يُطِيبُ الْعَيْشُ إِذْ تَلَقَّى لَبِيباً غَدَاهُ الْعِلْمُ وَالرَّأْيُ الْمَصِيبُ
فِيكْشِفُ عَنْكَ حَيْرَةً كُلَّ جَهْلٍ وَفَضْلُ الْعِلْمِ يَعْرِفُهُ الْأَرِيبُ
سِقَامُ الْجَرِّصِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ وَدَاءُ الْجَهْلِ لَيْسَ لَهُ طَبِيبُ

وكانت الطريقة الشائعة في المحاضرات ، وخاصة محاضرات المتكلمين والمحدثين واللغويين هي الإملاء ، ويعرض السيوطي لإملاء اللغويين حينئذ ، فيقول : «أملئ ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخيم ، وأملئ ابن دُرَيْدَ مجالس كثيرة ، وأملئ أبو محمد القاسم بن الأنباري وولده أبو بكر ما لا يحصى ، وطريقهم في الإملاء كطريقة المحدثين سواء ، يكتب المستملئ أول القائمة : «مجلس أملاء شيخنا فلان يجامع كذا في يوم كذا ، ويورد التاريخ ، ثم يورد المُملئُ بأسناده كلاماً عن العرب والنصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره . . . وآخر من علامته أملئ على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي له أمال كثيرة في مجلد ضخيم ، وكانت وفاته سنة ٣٣٩هـ^(٣) . وبلغ من عناية العلماء المملئين حينئذ أن كانوا — وخاصة أهل الحديث — يراجعون ما كتبه تلاميذهم ، ويكتبون لمن يأنسون منهم القدرة على روايته عنهم شهادة بأنهم أجازوا لهم تلك الرواية ، ويسمى ذلك

(١) معجم الأدباء ٧٩/١٦ ، ٩٩ . (طبع إدارة الطباعة المنيرية بمصر) ٥٨/١ .

(٢) المزهر (طبعة الحلبي) ٣١٣/٢ .

وأمال المرقفي (طبعة الحلبي) ١٩٥/١ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

عند المحدثين باسم الإجازة ، وهي شهادة قيمة على صحة الرواية^(١) . وقد يسجل التلميذ على نسخته أنها من سماع هذا الشيخ أو ذاك ، وقد يسجل أنه قرأها عليه ، وقد يسجل له ذلك الشيخ . وكان الشيخ أحياناً يعلى عملاً له في بلد ، ثم ينتقل إلى بلدة أخرى ويمليه مضيفاً إليه أو مهذباً ، وكانوا ينصّون على ذلك ، مثل معجم الجهمرة لابن درّيد ، إذ نصّوا على أنه مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان ، لأنه أملاه مراراً بفارس وببغداد ، فلما تعدد الإملاء زاد المعجم ونقص ، ويقول ابن النديم أصبح النسخ نسخة أبي الفتح عبد الله بن أحمد النحوي ، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه^(٢) . وتلك هي أعلى مرتبة في تحقيقنا العلمي الحديث للكتب ، إذ نراجع مخطوطات الكتاب ونعرضه عليها ، ونستخلص منه أصلاً صحيحاً غاية الصحة ، وقد اهتموا مبكرين إلى ذلك يرشدتهم نظر علمي سديد . وكان كثير من العلماء حين يُسَمَّل كتاباً ثم يزيد فيه ويضيف يهمل نسخته أو نسخه الأولى ، ولا يقرّ سوى النسخة الأخيرة ، على نحو ما يلقانا عند أبي عمرو المطرز ، فإنه أملى في سنة ٣٢٦ كتابه الياقوت في اللغة ، ثم رأى الزيادة فيه فأمله على تلاميذه ثانية سنة ٣٢٩ ، ثم رأى أن يضيف إليه بعض إضافات ، فجمع نسخه وعارضها بعضها على بعض سنة ٣٣١ وجعل هذه العرضة الصورة النهائية للكتاب وأهدرنا سواها من الصور السابقة^(٣) .

وكان من أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات العلماء في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء في الكلام وفي الفقه وفي اللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التي كان يشتد فيها الخلاف والجدل . وكان الشباب يختلف في المساجد إلى هذه المناظرات ، ليتعلم قرع الحجة بالحجة وغلبة الخصم بالحق وبالباطل أحياناً ، وتفيض كتب المتكلمين بأخبار هذه المناظرات وكذلك كتب الفقهاء واللغويين والنحاة وكثيراً ما أثبتت في أثناء هذه المحاورات بعض القضايا والمسائل كقضية العشق في مجلس المنتصر^(٤) وأنواع اللهو والملاهي في مجلس المعتمد^(٥) .

(٣) الفهرست ص ١١٩
(٤) مروج الذهب ٤ / ٥٥
(٥) مروج الذهب ٤ / ١٣١

(١) انظر في أقدم هذه الإجازات كتابنا
البحث الأدبي ص ١٥٧
(٢) الفهرست ص ٩٧

وكان استخدام الورق في الكتابة وتصنيف الكتب استخداماً عاماً منذ عصر الرشيد عاملاً مهماً في ازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد كانوا يكتبون قبل عصره غالباً في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى وكانوا يكتبون في ورق الكاغد المستورد من الصين وكان مرتفع الثمن جداً ، فنقلوا صناعته إلى بغداد في عصر الرشيد ، إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكي وزيره مصنعاً للورق ، فرخص ثمنه ، وانتشرت الكتابة فيه لخفته ، وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات ، كما كثر الوراقون الذين يعمشون من نسخها ، وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها ، واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء الكتب والمؤلفات فحسب ، بل ليقروا فيها وينهلوا من مصنفاتها ، وكانوا يكترونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح ويقيّدون أو ينسخون ما يشاءون من الأفكار والصحف والرسائل . وعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة ، إذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب والشباب وبأيديهم ، يتزودون منها كما يريدون أزواذاً كانت أيسر وأسهل من التلّقى عن الشيوخ والعلماء في المساجد ، إذ كانت تجمع لهم مسائل العلم الذي يريدونه وأصوله وفروعه ، ويصور ذلك الجاحظ مقارناً بين من يطلب الفقه عن طريق الاختلاف إلى حلقات العلماء ومن يطلبه عن طريق الكتب ودكاكين الوراقين ، يقول : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار (الحديث) وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً ، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحري ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان »^(١) . ولرواج هذه التجارة حينئذ اتخذ كثير من العلماء المحاضرين بالمساجد وراقين يقيّدون إملأاتهم ويذيعونها في الناس ، ويذكر ابن النديم وراقى المبرد إسماعيل بن أحمد الزجاجي وإبراهيم بن محمد الساسي^(٢) ، ويذكر ياقوت من وراقى الجاحظ زكريا^(٣) بن يحيى ، ومن حين إلى آخر تلقانا أسماء هؤلاء الوراقين في تراجم العلماء وأخبارهم .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ١٠٦ .

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٨٧ / ١ .

(٢) الفهرست ص ٩٥ .

وبجانب الوراقين ودكاكينهم التي كانت تحلّ حينئذ محل دور النشر والطباعة كانت هناك مكتبات يختلف إليها الناس والشباب في كل مكان ، ويشيد أبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ بعناية ملوك الفرس بالمكتبات وما كان بها من كتب مودعة أصناف علوم الأوائل^(١) ، وقد ذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول خزانة الحكمة التي شادها ببغداد هرون الرشيد ، وأقام عليها يوحنا بن ماسويه لترجمة الكتب الطبية القديمة ، وكيف تحوّل بها المأمون إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً إذ ألحق بها مرصداً ضخماً ، ووظّف بها كثيرين للترجمة . وقد تأسست مكتبات كثيرة في العصر ، منها ما كان عاماً ، ومنها ما كان خاصاً ، أما العام فعلى رأسه مكتبات المساجد ، إذ كان كثير من العلماء يقفون كتبهم عليها ليفيد منها الطلاب ، ولقد هم في ذلك السّراة . وعنى بعض المثقفين والعلماء ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزواداً علمية مختلفة ، ومن أشهرها حينئذ مكتبة علي بن يحيى المنجم نديم الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد وكان أديباً مثقفاً ثقافة واسعة كما كان شاعراً ، وكانت له ضيعة نفيسة بنى فيها قصرأ جليلاً جعله خزانة كتب عظيمة وسماه خزانة الحكمة مشاكلة لخزانة الرشيد والمأمون ، وكان الناس يؤمنونها من كل بلد ، فيقيمون فيها ويعكفون على المصنفات العلمية دارسين ، والكتب مبدولة لهم ، والنفقة مشتملة عليهم من مال علي بن يحيى ، فقدم عليها أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن شيئاً ذا بال من النجوم ، فلما رآها هاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم وتعمق فيه حتى أُلحد كما يقول ياقوت ، وحتى كان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً^(٢) . ويذكر ياقوت أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الشافعي — من أدياء العصر وعلمائه — أسس مكتبة ملاءها بكتب من جميع العلوم والفنون ، وقفها على كل طالب للعلم ، وكان لا يمنع أحداً من دخولها ، فهي مفتوحة للجميع ، وإذا ألمّ بها معسراً أو بائس فقير صُرّف له ورق للكتابة فيه وفضة أودراهم لمعاشه . وكانت تُفتَحُ في كل يوم ، وكان ابن حمدان يجلس في بعض غرفها ، ويحاضر قاصديها مملئاً عليهم من أشعاره وأشعار غيره وحكايات مستطرفة وشذوراً من الفقه وما يتعلق به^(٣) . ولا يكاد يكون

(٣) - معجم الأدياء ٧ / ١٩١

(١) الفهرست ص ٣٤٨

(٢) معجم الأدياء ١٥ / ١٥٧

هناك عالم أو أريب نابه أو سرّى إلا وله مكتبة خاصة تموج بالكتب ، وكانوا يوظفون لها بعض الوراقين كما كانوا يجلّدونها^(١) ويتفننون في العناية بكتابتها وتجليدها ، وكان المانوية شديدي الاهتمام بزخرفة كتبهم^(٢) يريدون أن يجعلوها تحفاً فنية اسمالة للقراء . ويتوقف الجاحظ في كتابه « الحيوان » ليعجب من مكتبة إسحق بن سليمان العباسي وما كانت تزخر به من الكتب والأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر^(٣) ، وكانت لابن حنبل مكتبة قدّرت كتبها باني عشر حملاً وعدلاً^(٤) ، أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل المتوفى سنة ٢٤٨ فكانت له خزانة كتب جمعها له علي بن يحيى المنجم لم يُرَ أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر مجلسه فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة^(٥) ، وكانت لثعلب مكتبة حافلة ، قوم خيران الورّاق ما يساوي عشرة دنائير منها بثلاثة ، ومع ذلك بلغ ثمنها ثلثمائة دينار^(٦) ، وكذلك كانت لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري مكتبة كبيرة ، وسأله بعض أصحابه كم يحفظ منها ؟ قال : ثلاثة عشر صندوقاً^(٧) . ونسوق خبراً يدل على عظم المكتبات الخاصة عند بعض الأفراد ، فقد روى الرواة أن أبا عمر غلام ثعلب كان يؤدّب ولد القاضي أبي عمر محمد بن يوسف فأملى عليه ثلاثين مسألة بشواهدا من كلام العرب واستشهد في تضاعيفها بيتين غريبين جداً ، فعرضهما القاضي أبو عمر على ابن دريد وابن الأنباري وابن مِقْسَم فلم يعرفوهما ولا عرفوا غالب ما استشهد به من أبيات : وقال ابن دريد : هذا مما وضعه أبو عمر من عنده . فلما جاء أبو عمر ذكر له القاضي ما قال ابن دريد . فطلب من القاضي أن يحضر له ما في داره من دواوين العرب ، فلم يزل يأتيه منها بشاهد لما ذكره بعد شاهد ، حتى خرج من الثلاثين مسألة وشواهدا ، ثم قال للقاضي : وأما البيتان فإن ثعلباً أنشدناهما وأنت حاضر فكتبتهما في دفترك فطلب القاضي دفتره ، فإذا هما فيه^(٨) وتلك مكتبة قاض كان بها جميع دواوين العرب ، ولو لم تحدث هذه القصة لما عرفنا شيئاً

(٥) معجم الأدباء ١٦ / ١٧٤ .

(٦) إنباء الرواة ١ / ١٤٨ .

(٧) معجم الأدباء ١٨ / ٣٠٧ .

(٨) السبكي ٣ / ١٩١ .

(١) رسائل الجاحظ (طبع مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ص ٧٤ .

(٢) الحيوان ١ / ٥٥ .

(٣) الحيوان ١ / ٦٠ .

(٤) السبكي ٢ / ٢٧ .

عنها ، فما بالنّا بمكتبات المؤلفين العظام فى العصر ، وكثير منهم ألف مكتبة ضخمة فلو لم يكن له سوى مؤلفاته لكانت لديه منها خزانة كتب حافلة ، ويكفى أن نذكر مثلاً الجاحظ وقد خلف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يؤلف مكتبة كبيرة . وما لا ريب فيه أن مكتبته كانت تحتوى المصنفات التى جمع منها المادة اللغوية والأدبية والكلامية لكتبه . ونذكر بجانبه الطبرى ، وقد أحصى بعض تلاميذه الأوراق التى كتبها وألف منها كتبه ، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين ورقة، وحسب آخرون أوراق كتبه من يوم ولد إلى أن مات فوجدوه كتب كل يوم أربع عشرة ورقة^(١) .

ويحسُّ كل من يتعقب الحركة العلمية فى العصر كأن سباقاً نشب بين العلماء والعلم ، فهم يجدُّون فى طلبه وتحصيله وهم يصارعونه صراعاً متصلاً يريدون أن يذلّوه ويقهرّوه فى جميع الميادين . وهو صراع كان يداخله شغف شديد به ، كما كان يداخله إيمان بأنه لن يخضع لهم إلا إذا تجرّدوا له وتوفّروا عليه وأمضوا فيه بياض النهار وسواد الليل فى غير كلل ولا ملل ، بل فى حب لا يفوقه حب ، ويحدثنا الرواة عن كثيرين عشقوا الكتب أو بعارة أخرى العلم عشقاً لا يشبهه عشق ، ويقول أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب أكثر من ثلاثة : الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان حتى إنه كان يكرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، والفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كفه أو خُفّه وقرأه فى مجلس المتوكل إلى حين عوّذه إليه ، وإسماعيل بن إسحق القاضى فإنى ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر فى كتاب أو يقلب كتباً أو يستنفضها^(٢) » .

وهذا الشغف العلمى الشديد هو الذى دفع العلماء إلى الرحلة من بلد بعيد إلى بلد بعيد طلباً للعلم ، مهما تجشّموا فى ذلك من مشاق ، فكان اللغويون يرحلون إلى البوادر محتملين ما فيها من شظف العيش وخشونته فى سبيل جمع اللغة ، وكان الفقهاء يرحلون بدورهم للتتلمذ على أئمتهم ، ومثلهم العلماء المختلفون فى كل فرع من فروع العلم ، ومن خير ما يصور ذلك ما رواه ياقوت عن أبى زيد البسّخى أحمد

(١) السبكي ١٢٢/٣ وما بعده

(٢) معجم الأدباء ١٦/٧٥

ابن سهل من أن نفسه دعتة وهو في عنفوان شبابه إلى أن يرحل عن بَلْخَ ويدخل أرض العراق ويبحث بين أيدي العلماء ويقتبس منهم العلوم ، فتوجهَ إليها راحلاً مع الحاج وأقام بها ثمانى سنوات ، فطوَّف البلاد المتاخمة لها ، ولقى الكبار والأعيان وتلمذ لأبى يوسف يعقوب بن إسحق الكندى ، وحصل من عنده علومًا جمّة ، وتعمّق في علم الفلسفة ، وهجم على أسرار علم التنجيم والهيئة ، وبرّز في علوم الطب والطبائع وبحث في أصول الدين^(١) . وأكبر من شُغفوا بالرحلة في العصر المحدثون ، لأن الصحابة كانوا قد نزلوا في أمصار العالم الإسلامى من إيران إلى المغرب ، وكانوا يروون أحاديث كثيرة عن الرسول حملها عنهم تلاميذهم من التابعين ومن جاءوا بعدهم ، فكان في كل مصر أحاديث لا تعرفها الأمصار الأخرى ، فرحل مصنفو الحديث وحفّاظه في طلبها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ورحلة البخارى من خراسان إلى مدن إيران والعراق والحجاز والشام ومصر مشهورة ، ومثله بقية المحدثين الذين جمعوا متفرقات الأحاديث في العالم الإسلامى . وسرى الرحلة تشيع بين المترجمين إلى بلاد الروم ، كما سنها تشيع بين الجغرافيين ليصفوا ما شاهدوه بأعينهم ، وكذلك سنها تشيع بين المؤرخين من أمثال المسعودى .

ويبدو أن الشغف المفرط بالعلم لم يكن مقصوراً على الطبقات الخاصة من العلماء ومن يبتغون من الطلاب أن يكونوا على شاكلة أساتذتهم المتخصصين ، بل كان حظاً مشتركاً بين الطبقات العامة ، إذ كان العلم مطروحاً في المساجد مباحاً للجميع ، وكذلك في المكتبات العامة ، ولم يكن هناك كتاب طريف إلا وتعرضه دكاكين الوراقين . ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلى تراجم العلماء مسجّد كثرتهم الغامرة من الطبقة العامة ، وتصور ذلك ألقابهم من مثل الحدّاد والخزّاز والقوّاريرى والتمّار والقوّاس والنبّال والقلائل والطار والمطرز . وأبعد من ذلك وأعق أن نجد الجاحظ في رسالته «الرد على النصارى» يشكو من مناقشة العامة للملحدّين والزنادقة في آرائهم الضالة ، لعدم معرفتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يفندوها من الأدلة الساطعة ، حتى ليقول : «ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحقّ بمحاجة الملحدّين من أحد» ، وكأن كل

فرد من أفراد العامة لعصره كان يظن نفسه نال حظاً أو حظوظاً من مناهج المتكلمين في جدال أصحاب الملل والنحل الضالة . وظاهرة ثانية تدل على مدى تغلغل الثقافة بين جميع أفراد الأمة بلا استثناء ، إذ نرى من النساء من يختلفن إلى حلقات المتكلمين^(١) والفقهاء وغيرهم ، ويبدو أنه برزت حينئذ في الثقافة الدينية غير امرأة حتى لنرى - كما مر بنا - قهرمانة لأم المقتدر ، هي ثمّل ، تجلس في سنة ٣٠٦ لسماع المظالم والحكم بين المتظالمين ويجلس معها القضاة والعلماء ، واختلف الفقهاء حينئذ في جواز ولاية المرأة للقضاء ، وأجاز ذلك الطبري^(٢) ، وهي فتوى تدل على ما بلغته المرأة من التعمق في الفقه وعلوم الشريعة لهذا العصر ، ولابن بسام المتوفى سنة ٣٠٣ أبيات يقول فيها^(٣) :

ما للنساء وللكتا بة والعِمالَة والخطابة

وقد يدل البيت على أن من النساء حينئذ من كنّ يطالبن بمساواة المرأة بالرجل في الوظائف المهمة مثل كتابة الدواوين وولاية الأقاليم والخطابة في المحافل العظام .

ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمار اشتراك الطبقة الشعبية العامة في العلم والثقافة ، فقد كانت هناك ثمرة مهمة غاية الأهمية ، هي محاولة أن يصبح العلم شعبياً بحيث لا يعلو على أفهام العامة ، وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها ، ويتضح ذلك عند الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وعند ابن قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » . ومرّ بنا أن الجاحظ أراد بكتابة « البيان والتبيين » أن يردّ على الشعبية ردّاً مفحماً ببيان ما تحمل الثقافة العربية في الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغية رائعة ، ونضيف هنا أنه أراد أن يدلّل هذه الثقافة بعرضها في أسلوب عصري يقرّبها من أفهام العامة بحيث تُسيغها بدون أي عسر أو مشقة . وبوّن بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويين من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد وعرضها عند الجاحظ في البيان والتبيين ، فهي عند الأولين جافة جفافاً شديداً ولا يستطيع غير المتخصصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة ، أما في البيان والتبيين فهذه سائفة لا للطبقة الوسطى من المثقفين فقط . بل أيضاً للطبقة الشعبية الدنيا . وبالمثل عرضه

(١) انظر ترجمة الأشمري في ابن خلكان . (٣) صح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية)

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٠٧ . ٦٤/١

لهذه الثقافة في كتابه الثاني « الحيوان » فهو يقرب هذه الثقافة من الشعب ، بحيث يجد فيها لذة ومتاعاً ، وهو يمزج بينها وبين ما عُرِف عند أرسطو وغيره من علم الحيوان ، ليتضح أن هذا العلم لم يكن غريباً ولا بعيداً عن العرب ، بل لقد استظهروا منه كثيراً في أشعارهم . وهو لا يقرب هذا العلم من العامة وحده ، بل يقرب أيضاً علم الكلام ونظريات أصحابه من المعنزة أمثال النظام ، بل أدق الدقائق من هذه النظريات وما حملت من براهين عقلية سديدة ، وكأنما كان يريد للعامة أن تتمثل هذه البراهين حتى تتسلح عقلياً في مناقشتها للمسائل ومحاورتها لأصحاب الملل وخاصة النصارى كما أسلفنا منذ قليل . وأما كتاب عيون الأخبار فقد عرض في مجلداته الأربعة الثقافات المعاصرة له عرضاً بسيطاً سهلاً ، حتى يجعل قطوفها دانية للعامة ، وحتى لا يظنوا - كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع - أن بينها تعارضاً ، فتلك آداب الفرس وتقاليدهم في السياسة والحكم ، وتلك وصايا العرب في القضاء وغير القضاء وخطبهم وأشعارهم ، وتلك أقوال المسيح عليه السلام وأقوال أصحاب الكتب السماوية في الزهد ، وتلك أحكام وقواعد في الطعام والنبات والحيوان منقولة عن اليونان . وكل ذلك يسوّى منه الكتاب في لغة سهلة يسيرة واضحة أشد الوضوح ، بحيث يتيح له أن يتغلغل في طبقة الشعب ، وبحيث يتبين في وضوح أنه لا توجد حواجز ولا سدود بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية وما قد يُظَنّ من ذلك كله إنما هو أقواس وهمية . وبلغ من قرب هذا الكتاب من نفوس جميع طبقات الشعب الخاصة والعامة أن أكبَّ الناس على ما فيه من آداب الفرس وأهملوا كل ما صورَّ هذه الآداب من كتب أخرى ، إذ استطاع ابن قتيبة أن يعطيها صبغة شعبية تجعلها واضحة كل الوضوح ، كما استطاع أن يكسوها بأساليبه البديعة ثوباً عربياً ناصعاً ، بحيث أصبحت في ثوبها الجديد أنصع وأبهى وأنضر من ثوبها القديم .

٢

علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف

تحدثنا في كتاب العصر العباسي الأول عن حركة الترجمة فيه وكيف أنها شملت كل ما استطاع العرب نقله من علوم الهند والفرس واليونان ، وكان أكثر ما نقلوه عن الفرس والهند في مجال الفلك والرياضيات ، ونقلوا عن اليونان العصر العباسي الثاني

إما عن اليونانية مباشرة وإما عن السريانية والفارسية مجموعات العلوم التي تتصل بهم من الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسرعان ما أخذوا يشاركون في هذا التراث فإذا يوحنا بن ماسويه ينفذ إلى إضافة مباحث جديدة في التشريح ، وإذا هم يضعون لحركات الأفلاك زيجات وجداول جديدة أكثر دقة من المأثورات الفارسية واليونانية ، وإذا محمد بن موسى الخوارزمي ينشئ عصرأ جديداً في التاريخ العالمي للرياضيات فيكشف علم الجبر وقواعده ويعطيه اسمه الذي عُرف به في العالم كله . والدولة هي التي هيأت لذلك كله منذ أبي جعفر المنصور ، فقد شجعت على الترجمة والنقل بكل الوسائل ، ولم يلبث هرون الرشيد أن أنشأ دار الحكمة وجلب إليها المترجمين من مدرسة جنديسابور الفارسية ومن السريان والفرس ، وخلفه المأمون فاستحالت هذه الدار جامعة كبرى ، إذ ألحق بها مرصداً ومكتبة ضخمة ، وأرسل البعوث إلى بيزنطة وبلاد الروم تأتية بالمأثورات اليونانية المختلفة ، وأخذت هذه المأثورات تستوى على معظم النشاط في النقل والترجمة ، حتى أصبحت لها نهائياً الغلبة على المأثورات الفارسية والهندية .

وأشرنا في حديثنا عن الترجمة في العصر العباسي الأول إلى ما تُرجم عن اليونانية من الأصول المختلفة ، فقد ترجمت في الرياضيات النظريات الفلكية الإغريقية ومن أهم مصنفاتها التي عُنِيَ النقلة بترجمتها كتاب المجسطي لبطليموس الإسكندري ، كما عُنِيَ بترجمة كتاب الأصول لإقليدس في الهندسة ، وترجموا كثيراً من المؤلفات اليونانية في العلوم الطبيعية وخاصة ما اتصل عند أرسطو بعلم الحيوان وبوصف النباتات مما يهم الصيدالة ، وترجموا في الطب مصنفات جالينوس وبقراط . وترجموا لكثيرين من اليونان غير أرسطو ، فترجموا لأفلاطون وغير أفلاطون مصنفات مختلفة . ويلاحظ أن العرب استعانوا في هذه الترجمة بالسريان ، وكانوا قد نقلوا إلى لغتهم قبل الإسلام كثيراً من المأثورات اليونانية ، وتصادف أن أخذوها من علماء المذهب الأفلاطوني الجديد ، مع ما أضافوه إليها من شروح اقتبسوها من آراء أفلاطون أو من الأفلاطونية الجديدة المتأثرة بفيثاغورس أو بالرواقيين . وليس ذلك فحسب ، فإن السريان فيما يبدو نسبوا إلى أرسطو وأفلاطون كتباً كثيرة ، ونُقلت إلى العرب بهذه النسبة الخاطئة ، مثل كتاب

الرؤية المنسوب خطأ إلى أرسطو ومحوره بحوث في النفس والإنسان تُمزجُ بقرصص كثيرة وبقواعد في السياسة والصحة والتغذية . على أن كثيراً مما نسبوه إليه صحيح وخاصة ما يتصل بالطب والحيوان والعلوم الطبيعية . وكلما تقدمنا مع الزمن كثر الاهتمام به وبترجمة آثاره ، حتى غدا المعلم الأول للعرب وعلمائهم وفلاسفتهم المختلفين ، وخاصة في علم المنطق والطبيعات ، أما في الرياضيات فكان أساتذتهم فيها فيثاغورس وبطليموس وإقليدس .

ويذهب العصر العباسي الأول ، ونعني في العصر العباسي الثاني فنجد حركة النقل والترجمة تزداد حدة وقوة وتنمو الترجمة عن اليونانية نمواً عظيماً ، ويتم لها الانتقال من الترجمة الحرفية التي تمتلئ بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى ترجمة الفقر والعبارات بالمعنى ترجمة دقيقة . وهذا هو السر في أننا نجد كثيراً في ترجمات المترجمين أنهم أعادوا ترجمة هذا الكتاب أو ذاك مما ترجمه الحجاج بن مطر وغيره من مترجمي العصر العباسي الأول . ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا حينئذ كتاباً يونانياً في أصله اليوناني أو في ترجمته السريانية إلا ترجموه إلى العربية . وكان الذي أذكى الترجمة والنقل حينئذ الأموال الضخمة التي كان يُغندقها المتوكل وغيره من الخلفاء على المترجمين ، ويكفي أن نذكر ما أهداه المتوكل إلى حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٤ فإنه أهداه ثلاث دور من دوره وحمل إليها كل ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً خمسة عشر ألف درهم غير ثلاثة خدام من الروم وغير ما أسبغه على أهله من الأموال والخيل والإقطاعات^(١) . وكان الوزراء بدورهم يغدقون على المترجمين أموالاً كثيرة ، سواء أهدوا إليهم بعض ترجماتهم أو بعض ما ألفوه على هدى ما قرءوه في اللغتين اليونانية والسريانية ، وفي أخبار قسطنطين بن لوقا أنه أهدى إبراهيم بن المدبر كتابين كما أهدى الحسن بن مخلد وزير المعتمد كتاباً^(٢) . وفي أخبار إسحق بن حنين أنه كان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد^(٣) . وكان ثابت بن قرة لا ينقطع عن إسماعيل

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٣٣٠ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٧٤ .

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

(نشر مكتبة دار الحياة بيروت) ص ٢٧٠ .

ابن بلبل وزير المعتمد وله أُلّف مقالة في الهندسة.^(١) وكان كثير من الأطباء يكلفون المترجمين نقل كتب طبية أو كتب تتصل بالطب ، يقول ابن أبي أصيبعة : « وكان مما نُقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وابنه بختيشوع ودادود بن سرايون وسلمون بن بنان واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفورى وحبيش بن الحسن »^(٢) . وكانت هناك أسر وأفراد كثيرون يَعُدُّون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين ، وكانوا يتنافسون في هذه الحماية مع أنفسهم ومع الخلفاء ، ذكر منهم ابن أبي أصيبعة طائفة^(٣) ، منها على^(٤) بن يحيى المنجم صاحب خزانة الحكمة التي سبق أن تحدثنا عنها ، وأحمد بن المدبر . ومن نَوّه بهم القدماء طويلاً في هذا الجانب بنو موسى^(٥) بن شاكر وهم محمد والحسن وأحمد ، وكان الأول والثاني يُشغَفان بالهندسة في حين شُغِف الثالث بالحيل (الميكانيكا) وكان لهم مرصد أسسوه على دجلة ، وكانوا يُغْدِقون رواتب شهرية على جماعة من المترجمين بينهم حنين بن إسحق وحبيش ابن أخته وثابت بن قرة ، ويقال إنها كانت تبلغ في الشهر خمسمائة دينار^(٦) . وكل هذا الاهتمام بالترجمة والإففاق عليها والتنافس فيها أحدث ازدهاراً عظيماً لها في العصر العباسي الثاني فقد أكبَّ المترجمون على المأثورات الإغريقية في كل فروع العلم والفلسفة يترجمونها ، وكادوا لا يقرون كتاباً بدون ترجمة وبدون شرح أو تلخيص . ومن يرجع إلى ابن أبي أصيبعة والقفطى تهوله الكثرة الغامرة مما ترجموه ، إذ يبلغ أحياناً عند المترجم الواحد مئات الكتب والرسائل ، سوى ما أُلّفه وصنفوه .

وأهم المترجمين حينئذ وأشهرهم حنين^(٧) بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٤ وكان طبيباً

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٣٠٠ .
ترجمة الرازي ص ٤١٤ وكثرة من أُلّف الكتب بأسماهم وأهداها إليهم .
(٧) انظره في الفهرست ص ١٢٣ والقفطى ص ١٧١ وابن أبي أصيبعة ص ٢٥٧ والدوميل ص ١٣٢ ، ١٣٩ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الرابعة) ص ٣٧ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٣٠٠ .
(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٤ .
(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٣ .
(٤) انظر أيضاً تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليزر) ص ١٣٢ .
(٥) راجع في بنى موسى ابن أبي أصيبعة ص ٢٦٠ والفهرست ص ٣٩٢ والقفطى ص ٣١٥ ، ٤٤١ والعلم عند العرب للدوميل .
(٦) نشر الجامعة العربية) ص ١٣٩ .

مسيحيًا نستطوريًا من مدرسة جنديسابور ، رحل إلى بلاد الروم وتعلم اليونانية وكان يحيد بجانبها السريانية والفارسية والعربية ، وهو وابنه إسحق^(١) وابن أخته حبش^(٢) أكثر المترجمين في العصر لإنتاجًا ، وكانوا يعملون معًا ، فنسبت بعض الترجمات لهذا تارة وذاك تارة أخرى . وكان يعاونهم تلاميذ كثيرون ، يدل على ذلك ما جاء في ترجمة حنين من أن الخليفة المتوكل « جعل له كتابًا نحاريير عالمان بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما ترجموا ، وفي مقدمتهم أصططن بن بسيل^(٣) » ، ويبدو من اسمه أنه يوناني الأصل . وكان حنين يُشغف بترجمة الكتب الطبية ، وقد ترجم لجالينوس منها عشرات إلى العربية والسريانية ، غير ما أصلحه لتلاميذه من آثاره مما ترجموه إلى اللغتين . ويصور لنا في مقدمة بعض الكتب التي ترجمها مدى دقته العلمية في الترجمة إذ كان لا يزال يجمع للكتاب الذي يريد ترجمته كل ما يمكنه من نسخ ، حتى إذا اجتمعت له قابل بينها وعارض عباراتها بعضها على بعض واستخلص للكتاب ترجمة دقيقة^(٤) . وكان ابنه إسحق يعني بترجمة الكتب الحكيمة والفلسفية ، فلم يقف عنايته مثله على الكتب الطبية ، ولذلك كثرت ترجماته لأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس . أما حبش فعُني مثل خاله بترجمة الكتب الطبية . واشتهر أصططن بأنه كان أول من ترجم كتاب ديوسقوريدس في النبات وكتاب أوريباسيوس في الأدوية المفردة^(٥) .

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة للترجمة وأستاذها حنين كان هناك مترجمون يفوقون الحصر ، من أشهرهم ثابت^(٦) بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ ومن أهم ما ترجمه كتاب الأصول لإقليدس ، ويقول ألدومبيلي إن النص العربي يصلح النص الإغريقي في

(٤) انظر أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجسترا سر (طبع مطبعة دار الكتب المصرية) ص ٩٤ .

(٥) القفطي ص ٧٤ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(٦) راجع الفهرست ص ٣٩٤ والقفطي

ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ص ٢٩٥ ودي

بورص ٣٧ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(١) راجع الفهرست ص ٤٢٩ والقفطي

ص ٨٠ وابن أبي أصيبعة ص ٢٧٤ ودي

بورص ٣٧ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(٢) انظر الفهرست ص ٤٢٨ والقفطي

ص ١٧٧ وابن أبي أصيبعة ص ٢٧٦

و دي بورص ٣٧ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٦٣ والقفطي

ص ١٧١ .

مواضع مختلفة ، وترجم كتاب أرسطو في النبات تفسير نيقولاوس ، وله كتاب قرسطون في نظرية الميزان واعتدال الأجسام الميكانيكية ، وكان له أثر كبير في لاتينية العصور الوسطى كما يقول ألدوميللي ، ومن مصنفاته كتاب الذخيرة في الطب ألفه لابنه سنان . ومن أنبه المترجمين حيثند قسطا^(١) بن لوقا البعلبكي المتوفى سنة ٣٠٠ وكان مسيحياً من أصل يوناني ، ومن ترجماته شرح الإسكندر الأفروديسي وشرح جون فيلوبون على السماع الطبيعي وكتاب آراء الفلاسفة المنسوب إلى فلوطرخس وكتاب الحيل لهيرون المنشور في ليبزج سنة ١٩٠٠ وكان قد ترجمه للخليفة المستعين . وترجم لإبراهيم بن المدبر كتابه الجامع في الدخول إلى علم الطب غير كتب أخرى ألفها أو ترجمها لكثيرين . وله رسالة صغيرة في الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اللاتينية . وخاتمة هؤلاء المترجمين النابهين أبو بشر مني^(٢) بن يونس ، وكان من أصل يوناني ، وقد عني بترجمة جميع آثار أرسطو في المنطق وغير المنطق ، وترجم له كتاب الشعر ترجمة مضطربة ، لأنه يدور - كما هو معروف - حول المأساة اليونانية ، ولم يكن العرب ولا المترجمون حينئذ يتصورونها، ولذلك يكون لمتى عذره في اضطراب ترجمته لهذا الكتاب^(٣) . وقد انتهت إليه رئاسة المنطقيين في عصره ، وله مناظرة في المنطق والنحو مع السيرافي سنة ٣٢٠ احتفظ بها ياقوت في معجمه^(٤) .

ويعني بن يونس ينتهي عصر الترجمة العظيم ، ومنذ أوائل هذا العصر ، بل منذ عصر المأمون ، يشارك العرب في علوم الأوائل التي ترجموها ، بحيث يظهر عندهم علماء يزاحمون العلماء الأوائل عند الأمم القديمة بمناكب ضخمة، ويكنى أن نذكر محمد بن موسى الخوارزمي وابتكاره لعلم الجبر الذي أشرنا إليه في غير هذا

الرحمن بدوي في كتاب فن الشعر لأرسطو مع الترجمة العربية القديمة لمتى بن يونس نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٢) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٧٦ .

(٤) انظر معجم الأدباء ١٨٠/٨ .

(١) انظر الفهرست ص ٤٢٤ والقفطي

ص ٢٦٢ وابن أبي أصيبعة ص ٣٢٩ ،

والدوميللي ص ٤٢٤ والقفطي ص ٢٦٢

وإبن أبي أصيبعة ص ٣٢٩ والدوميللي

ص ١٥٥ ، ١٦٥ ودی بورص ص ٣٩ .

(٢) راجع الفهرست ص ٤٢٩ وابن أبي

أصيبعة ص ٣١٧ والقفطي ص ٣٢٣ وعبد

الموضع والذي ليس له سابقة عند علماء الأوائل ، وله شروح على كتاب إقليدس في الهندسة وكتاب بطليموس في الجغرافية ، وقد خلّف فيها أول كتاب عربى جغرافى سماه صورة الأرض ، ونشطت الكتب والمباحث الجغرافية منذ هذا التاريخ المبكر. ومع افتتاح هذا العصر العباسى الثانى يؤلف عبيد الله بن خرداذبة الفارسى الأصل كتابه « المسالك والممالك » وهو يصرح فى مطالعه بأنه اعتمد فى بيان حدود الأرض ومسالكها على كتابات بطليموس . وأخذ غير عالم يتناول هذا الموضوع ، تناوله أبو عبد الله الجيهانى وأبو زيد البلخى ، وأهم منهما ابن الفقيه ، غير أنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ولذلك سُمى كتابه « البلدان » . وأدق منه وأمهر علمياً يعقوبى أحمد بن يعقوب العباسى ، إذ نراه فى كتابه الذى سماه أيضاً باسم البلدان يعتمد على الرحلة والطواف ببلاد ديار الإسلام واصفاً لها وصف المشاهد المثبت من الأخبار . وبذلك تم تكامل علم الجغرافيا عند العرب . واهتموا حينئذ بإفراد جزيرة العرب وجغرافيتها ببعض الكتب على نحو ما نجده عند الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ فى كتابه « صفة جزيرة العرب » .

وعلى نحو ما نهضوا حينئذ بعلم الجغرافيا نهضوا بالرياضيات والفلك ، يتقدمهم محمد بن موسى الخوارزمى ، ومن تلاميذه فى مرصد المأمون حبش الحاسب ، وله جداول فلكية مهمة . ومن نابهى الفلكيين فى أواسط العصر أحمد ابن محمد بن كثير الفرغانى وكتابه : « أصول الفلك » له ترجمات كثيرة إلى اللاتينية ، وترك هناك تأثيراً كبيراً حتى عصر كوبرنيكوس^(١) ، وله كتب مختلفة فى الإسطرلاب . ومن الفلكيين الذين اشتهروا حينئذ شهرة واسعة أبو معشر الباهلى المتوفى سنة ٢٧٢ وكان له تأثير واسع فى العرب ومسيحيي العصور الوسطى وترجمت له كتب كثيرة إلى اللغة اللاتينية^(٢) . ومن الفلكيين النابهيّين فى العصر الفضل^(٣) بن حاتم النيريزى المتوفى سنة ٣١٠ وكان متقدماً فى علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله شروح على أصول إقليدس ترجمها جيرار دى كريمونا ونشرها كورتزه فى ليبزج سنة ١٨٩٩ وله شروح أيضاً على كتاب بطليموس فى الفلك وزيج على مذهب

(١) ألدوميل ص ١٦٧ وانظر فى ترجمة

الفرغانى الفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٦ . (٣) انظر فيه ألدوميل ص ١٥٥ ، ١٦٢

(٢) ألدوميل ص ٢٦٩ وراجع ترجمته والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٥٤ .

الهند وكتابتها « السند هند » وكتاب سمت القبلة أو معرفة اتجاهها . وكان يعاصره البتاني^(١) محمد بن جابر بن سنان المتوفى سنة ٣١٧ « ولا يُعلَم أحد في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها » وكان له مرصد في الرقة على نهر الفرات ، وله زيج جليل ضمَّنه أرصاد النيرين وإصلاح الحركات المثبتة لهما في كتاب المجسطى لبطليموس ، وترجم زيجه إلى اللاتينية ، وقد لخص نلِّينو أهمية مباحثه الفلكية وتصحيحه لبطليموس كثيراً من أخطائه في دراسته القيمة عنه بدائرة المعارف الإسلامية .

وبالمثل نهضت العلوم الطبية والطبيعية وكانت تشمل حينئذ الصيدلة والكيمياء ، وقد أنتج العصر العباسي الأول أكبر كيميائي في تلك الحقب القديمة ، وهو جابر بن حيان ، وسبق أن ألمانا به في كتابنا عن العصر المذكور ، وكان قد تُرجم كتاب الحيوان لأرسطو وعلى هديه ألف الجاحظ كتابه « الحيوان » في هذا العلم ، وحلَّل بلاسيوس هذا الكتاب في مجلة إيزيس العدد الرابع عشر سنة ١٩٣٩ مبيِّناً ما يشتمل عليه من الطبيعة الكيميائية وعلم الحيوان وعلم الإنسان^(٢) . وظل المترجمون يتوفرون على ترجمة كتب الصيدلة والكيمياء والطب ، وكل يحاول تصحيح ترجمة من سبقه وإفادة الأطباء بكل ما يستطيع . ومرَّ بنا أنهم كانوا يشجعون بأموالهم الغدقة الترجمة وأن كثيراً من الكتب تُرجم باسمهم . ومن أهمهم بختيشوع^(٣) ابن جبرائيل بن بختيشوع ، وبلغ من كثرة ثرائه أن كان يضاهي الخليفة المتوكل في الزينة والفرش والمأكول والمشرب ، ويقال إنه وصف لامتوكل دواء في بعض وعكاته فأمر له بثلاثمائة ألف درهم وثلاثين تختاً من الثياب ، ونقل له حنَّين كثيراً من كتب جالينوس الطبية . وكان يعاصره سابور^(٤) بن سهل المسيحي صاحب بيارستان جنديسابور المتوفى سنة ٢٥٥ واشتهر بكتاب له في الصيدلة كان يقع في ٢٢ باباً وظل الأطباء والصيدالة يعتمدون عليه حتى ظهر كتاب ابن التلاميذ في القرن السادس .

القفطي أنه كان يلبس الجبة المثقلة بالوشى
قيمتها ألف دينار .

(٤) انظر في سابور الفهرست ص ٤٢٧ .

والقفطي ص ٢٠٧ وابن أبي أصيبعة ص ٢٣٠
والدوبييل ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

(١) انظر فيه الدوبييل ص ١٥٥ ، ١٦٨

والفهرست ص ٤٠٣ والقفطي ص ٢٨٠ .

(٢) الدوبييل ص ٩٦ .

(٣) راجع فيه الفهرست ص ٤٢٧ والقفطي

ص ١٠٢ وابن أبي أصيبعة ص ٢٠١ وفي

ومن كبار الأطباء في العصر سنان^(١) بن ثابت بن قرة الذي أسلم على يد الخليفة الفاهر بالله ، وقد عاش حتى سنة ٣٣١ وتقلد مارستانات بغداد الخمسة سنة ٣٠٤ وبني في سنة ٣٠٦ مارستانين كبيرين ، أحدهما للخليفة المقتدر وكانت نفقته مائتي دينار في كل شهره والثاني لأمه وكانت النفقة عليه شهرياً ستمائة دينار وأقام للوزير ابن الفرات مارستاناً ثالثاً ببغداد سنة ٣١١ كانت النفقة عليه شهرياً ، مائتي دينار ، وبني لبجكم حاكم بغداد سنة ٣٢٩ مارستاناً رابعاً ببغداد على الشاطئ الغربي لدجلة وزوّده بالأطباء والأدوات المختلفة . ومن طريف ما يروى أن نجد حامد بن العباس أحد وزراء الخليفة المقتدر يأمره أن يفرد أطباء للمسجونين يزورونهم يومياً ومعهم الأدوية والأشربة ، وظل ذلك تقليداً مرعياً حتى نهاية العصر ، وفراه يأمره أيضاً بإرسال متطبين إلى الفلاحين في سواد العراق بحوض دجلة والفرات يطوفون به ويقيمون في كل جانب منه المدّة التي تدعو إليها الحاجة ، ومعهم خزانة الأدوية والأشربة . ويبدو أن المتطبين كثروا في العصر ، حتى ليذكر ابن أبي أصيبعة أن عددهم في جانبي بغداد وحدها بلغ في سنة ٣١٩ ثمانمائة رجل ونيفاً وستين سوى من كان في خدمة السلطان .

وطبيب المسلمين غير مدافع في العصر ، كما يقول القفطى ، هو أبو بكر محمد^(٢) بن زكريا الرازي المتوفى حوالي سنة ٣٢٠ ولّد كما يتبين من اسمه بالرى ، وسبق أن عرضنا له في حديثنا عن الزندقة وألمنا بكتابه « مخاريق الأنبياء » وقد بدأ حياته بدراسة العلوم الرياضية ، ثم اشتغل بالكيمياء والطب ، وعمل في بمارستان موطنه وبمارستانات بغداد وتنقل في مدن إيران وخراسان ، وألف باسم كثيرين من الأمراء وذوى الجاه طائفة من كتبه المهمة ، وترجم إلى اللاتينية كثير من كتبه الطبية وظل حجة الطب غير مدافع حتى القرن السابع عشر ، وما زال المستشرقون يُعَنِّون به وبآثاره حتى اليوم وقد نُشر في باريس سنة ١٩٣٣ .

(٢) انظر في ترجمته المراجع المذكورة في حديثنا عنه بين الزندقة في الفصل السابق ، وراجع دى بور ص ١٤٧ والدوميليل ص ١٧١ - ١٧٨ .

(١) راجع سنان بن ثابت في الفهرست ص ٣٩٤ ، ٤٣٥ والقفطى ص ١٩٠ وابن أبي أصيبعة ص ٣٠٠ والنجوم الزاهرة ٢٧٩ ، ١٩٣ / ٣ .

فهرس كتبه الذى ذكره البيرونى ومنه تبين أنه خلّف فى الطب ٥٦ كتاباً وفى الطبيعيات ٣٣ وفى الفلسفة ١٧ وفى الرياضيات ١٠ وفى الميتافيزيقا ٦ وفى المنطق ٨ وفى علم الكلام ١٤ وفى الكيمياء ٢٣. وأكبر كتبه فى الطب كتابه الحارّى ، وهو دائرة معارف طبية ضخمة ، وقد ترجمت منه أجزاء إلى اللاتينية ، واستخرج منه ماكس ما يرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية لها خطرها . وبلى هذا الكتاب الطبى فى الأهمية كتابه المنصورى الذى أهداه إلى الأمير السامانى بخراسان المنصور بن إسحق ، وهو كتاب نفيس ، تُرجم إلى اللاتينية مراراً فى العصور الوسطى وعصر النهضة . وتُرجم له أيضاً إلى اللاتينية مراراً كتابه فى الجُدَرى والحصبة ، وهو بحث طبي رائع فى الوبائيات ، وله ترجمات حديثة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية . ولم يُعَنَّ بالطب الجسمى وحده فقد عنى أيضاً بالطب النفسى ، إذ ألف كتاباً فى الطب الروحانى نشرته جامعة القاهرة ، وهو فيه يُكَبِّر من شأن العقل عارضاً النقاىص الخلقية التى تسبب الأمراض والعلل النفسية مبيناً أن المصاب بها إذا حَكَم معياره العقلى موازناً بين نفعه وضرره تخلص من تلك العلل والأمراض وفارقتة إلى غير مأب . وكان ينصح الأطباء أن يوهموا مرضاهم أنهم أصحاء وإن لم يثقوا بذلك لأن مزاج الجسم فى رأيه تابع لأخلاق النفس . وكان يهتم بالكيمياء معلناً أن الفيلسوف لا يكون فيلسوفاً حقاً إلا إذا تعلم صناعة الكيمياء ومهر فيها ، وله فيها كتب مختلفة كما قدمنا . وكان يؤمن بخمسة مبادئ قديمة تأثر فيها بفلاسفة اليونان مثل إنبادوقليس وأنكساجوراس وهى : الله تعالى والنفس الكلية والهوى الأولى والمكان المطلق والزمان المطلق ، وكان يؤمن بقدوم هذه المبادئ وأنه لا بد منها لوجود العالم .

وكان طبيعياً وقد تُقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية أن تصبح للعرب بدورهم فلسفة ذات طوابع مستقلة ، ومر بنا أن ما تُرجم إليهم من تلك الفلسفة صُبغ بالمصبغة الأفلاطونية الجديدة عن طريق تأثر السريان بها ، وكان ذلك سبباً فى أن تشوب فلسفتهم تلك النزعة . ولعل أول فيلسوف عربى بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف نلتقى به فى هذا العصر هو الكندى^(١) يعقوب بن إسحق ، وهو عربى أصيل من

الإسلامية وبعثاً للشيخ مصطفى عبد الرزاق
فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة لعام =

(١) انظر فى الكندى فهرست ص ٣٧١ والقفطى
ص ٣٦٦ وابن أبى أصيبعة ص ٢٨٥ ودائرة المعارف

قبيلة كندة ، ولذلك لُقّب فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة ثم تركها إلى بغداد ويبدو أنه أكسبَ في نشأته على الاعتزال ، ولعل ذلك ماجعل نجمه يأفل فيما بعد حين أفل نجم المعتزلة لعهد المتوكل . ولا تُعرَفُ سنة وفاته ويبدو أنه عاش حتى أواخر العقد السادس من القرن الثالث . وله كتب ورسائل تعد بالعشرات بل بالمئات ، وهى تبلغ عند ابن النديم نحو مائتين وأربعين وعند القفطى نحو ما تثنى وثلاثين وعند ابن أبى أصيبعة نحو مائتين وثمانين ، وتتناول العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق والأخلاق والسياسة والكلام والجلد والطب . وقد تُرجم كثير منها إلى اللاتينية وأثّر في شعوبها تأثيراً عميقاً ، ويقول ألدومبيل إن كتابه فى الهندسة أثّر تأثيراً ملحوظاً فى روجر بيكون . وقد يفهم من بعض ما كتبه ابن أبى أصيبعة وغيره عنه أنه كان يترجم عن اليونانية والسريانية ويرى الباحثون أنه لم يكن يعرفهما ، إنما كان يُصلّح ويصحح بعض ما تُرجم عنهما ، وله تهذيبات لكثير مما تُرجم ، وله أيضاً شروح وتعليقات . ويذكر ابن النديم وغيره أن له كتباً فى التوحيد والعدل والاستطاعة أو حرية الإرادة ، مما قد يدل على اتجاهه الاعتزالى ، ومما يدل بقوة على هذا الاتجاه عنده إشادته بالعقل . وهو فيلسوف إسلامى بالمعنى الدقيق ، إذ له رسائل فى إثبات النبوة والدفاع عنها دفاعاً قوياً ، وكان يذهب إلى أن العالم محدث مخالفًا بذلك أرسطو فى زعمه أنه قديم ، وذهب إلى أن النفس بسيطة وأنها من نور الله ، وعنّها صدر عالم الأفلاك ، والنفس الإنسانية تفيض عن هذه النفس الكلية ، وهى تتصل بالجدس ، ولكنها تظل فى جوهرها مستقلة عنه ، حتى إذا فارقت التذت لذّة كبيرة ، وقال إن الكواكب لا تؤثر فيها ، لأنها إنما تؤثر فى الأمور الطبيعية . وله بحوث فلسفية فى الرياضة ، ولكنها دون بحوثه الطبيعية وفيما وراء الطبيعة . وربما كانت أهم نظرية فلسفية له طبع بها الفلسفة الإسلامية هى نظريته فى أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه له إلى عقل فاعل هو الله ، وعقل

نؤاد الأهواى لمجموعة أخرى من رسائله ،
وكتاب دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى
لعبد الرحمن بدوى (طبع دار الآداب
بيروت) .

= ١٩٣٣ دوى بوزّ ج ١٧٦ وألدومبيل
ص ١٤٩ ، ١٥٣ ومقدمة الدكتور
محمد عبد الهادى أبى ريدة لرسائل
الكندى الفلسفية . طبع مطبعة الاعتماد
بالقاهرة ، وكذلك مقدمة الدكتور أحمد

بالقوة يكمن في داخل الإنسان ، وعقل بالملكة هو العقل المنفعل بعد حصول المعقولات فيه ، وعقل مبين يؤدي للغير معقولاته . وما قرره أن الحواس تُدرك الجزئيات والصور المادية في حين أن العقل يُدرك الكليات وما يتصل بها من الأنواع والأجناس . وذهب إلى تناهي الجسم والزمان والحركة من جهة الفعل لا من جهة القوة ، وهاجم الكيمياء هجومًا عنيفًا ، وأكبر الظن أنه إنما كان يقصد ضربًا خاصًا من الكيمياء شاع في عصره ، هو المتصل بالسحر والخرافة وكشف الأسرار .

وإذا كان العصر قد افتتح بفيلسوف هو الكندي فإنه اختتم أيضًا بفيلسوف له مكانة كبيرة في الفلسفة الإسلامية هو الفارابي ^(١) أبو نصر محمد بن محمد ابن طرخان المتوفى سنة ٣٣٩ ويقال إنه من أصل فارسي ، وُلد في فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر . ويبدو أنه تلقى في نشأته ما كان في خراسان من علوم الأوائل وسرعان ما مضى يطلبها في بغداد ، وأكبَّ على الرياضيات والطبيعات والإلهيات واستوعب ذلك كله استيعابًا منقطع القرن ، وسرعان ما أخذ يوفق بينه وبين الدين الحنيف من جهة وبينه وبين العقل الذي أكبره الكندي من جهة أخرى ، واستطاع أن يتفد من خلال ذلك إلى تشكيل الفلسفة الإسلامية في صورتها المبكرة ، بحيث عُدَّ فيلسوف المسامحين غير مدافع . ولعل أول ما يلاحظ على فلسفته أنها تعنى بالإلهيات، فهو لا يعنى بالطبيعات، وهو يرغب عن فيثاغورس وأضرابه من الرياضيين . ويتضح إكباره العقل في اهتمامه بالمنطق وما يؤدي إليه من استنباطات كلية مما جعله يُعَنَى بشرح كتبه عند أرسطو وتفصيل مسأله من تصور وتصديق وقضايا وبراهين وأقيسة ومراتب ظنٍّ متفاوتة ، ويتعمق في بحث الكليات : وفي كل جانب من فلسفته الإلهية يتضح فكره العقلي المنطقي ، من ذلك ذهابه إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن ، وبذلك جعل أول صفة لله هي أنه

بورس ١٩٢ ومقدمة ديتريش لرسائله (طبعة لندن) ، وانظر مجموعة أخرى طبعت في حيدر آباد وظهر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ٢ : ١٣١ .

(١) راجع في الفارابي الفهرست ص ٣٨٢ والقفطي ص ٢٧٧ وابن أبي أصيبعة ص ٦٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثًا للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق في الجزء السابع من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ودى

الموجود الواجب الوجود في حين أن كل ما عداه ممكن الوجود أو بعبارة أخرى حادث فهو القديم وحده . وصلة هذه الفكرة بالدين الحنيف واضحة ، وهو عنده الموجود الأول الفرد بالذات ولاجنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حده ، إذ هو لا يتحيز في مكان ، وهو أكمل الموجودات ويجب أن تكون معرفتنا به أكمل معرفة . وإذا كانت معرفتنا بالرياضيات أكمل من معرفتنا بالطبيعيات للتعميم السارى في قضاياها وجب أن تكون معرفتنا به فوق معرفتنا بالرياضيات والطبيعيات جميعاً . ويقبس من الفلسفة قسماً يمزجه بقبس آخر من التصوف لعصره ، فإذا هو يذهب إلى أن الله يفرض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذى يحرك الفلك الأكبر ، وتلى هذا العقل عقول الأفلاك الثمانية ، وهى التى تصدر عنها الأجرام السماوية ، والعقول التسعة مجتمعة هى ملائكة السماء ومرتبهم في الوجود مرتبة ثانية ، وفي المرتبة الثالثة العقل الفعال في الإنسان وهو روح القدس الذى يصل العالم العلوى بالعالم السفلى . وفي المرتبة الرابعة النفس الكلية . ومنها ومن العقل تتكاثر أفراد الإنسان . وفي المرتبة الخامسة الصورة . وفي السادسة المادة . والمراتب الثلاث الأولى : الله وعقول الأفلاك والعقل الفعال ليست أجساماً ، أما المراتب الأخرى فتلابس الأجسام . وواضح الأثر الإسلامى في هذا التفلسف ، فقد ذكر الله وهو العلة الأولى عند الفلاسفة وذكرت الملائكة وروح القدس مع محاولة وضع تفسير جديد لهما . وكان يذهب إلى أن النفس كمال الجسم ، أما كمال النفس فهو العقل . وبحث في السعادة مبحثاً تأثر فيه أيضاً بالتصوف تحدث فيه عن شروطها ودرجاتها ، وصرح في قوة بأن اللذات العقلية والروحية تفوق اللذات المادية الجسمية ، وأن السعادة لا تُطلب لغاية وراءها وإنما تُطلب لذاتها ، وأداتها في رأيه الأفعال والأخلاق الحميلة ، وهى لا تُدرك إلا إذا تحررت النفس الناطقة من أغلال المادة والشهوات . ويصرح في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة بأن الحاكم ينبغي أن يكون متحلياً بكل الفضائل الإسلامية والفلسفية متجنباً اللذات الجسمية ، إذ فيه تتمثل المدينة بخيرها وشرها ، فإذا كان خيراً فاضلاً كانت المدينة فاضلة ، وإذا كان شريراً فاسقاً انهارت المدينة وفسد الحكم فيها فساداً شديداً . وهو يذكر النبوة كثيراً ، وهى عنده أعلى مرتبة يبلغها الإنسان في العلم والعمل ، وهو يضعها - كى يوضحها - في مرتبة وسطى بين الإدراك الحسى

والمعرفة العقلية لخالصة . ونحن إنما لمسنا السطح فقط لنصور فلسفة الفارابي ، وهي فلسفة إسلامية عقلية استمدت من روحانية الإسلام ومن نظريات العقل ومن أفكار الفلاسفة وخاصة أرسطو وأفلاطون مازجة بين هذه العناصر جميعاً ، مستخلصة منها فلسفتنا الإسلامية الوسيطة وأصولها السديدة .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول مدى التنافس الذي نشب بين علماء البصرة والكوفة في جمع اللغة وكيف كانوا يرحلون إلى نجد والبادي ومعهم قوارير المداد وأحمال الصحف ليدونوا كلمات اللغة من ينابيعها الأصلية . وقدمضى كثيرون من علماء البلدين وتلاميذهما ببغداد في هذا العصر يخرجون إلى البادية ونجد لمشاهدة الأعراب والسماع منهم لما يجري على ألسنتهم من أقوال وأشعار وأضافوا إلى ذلك ما سمعوه من أساتذتهم الأصمعي والمفضل الضبي وأبي زيد وأضرابهم . وأخذ تلاميذهم يحملون عنهم رواياتهم ، وسرعان ما تكون في هذا العصر السند ، إذ يقول العالم اللغوي مثل الأشناندي أبي عثمان سعيد بن هرون المتوفى سنة ٢٨٨ : عن التوزي أبي محمد عبد الله بن محمد بن هرون المتوفى سنة ٢٣٣ عن أبي نصر أحمد ابن حاتم الباهلي عن الأصمعي . ومعروف أن علم الأصمعي حملة مع أحمد بن حاتم جماعة منهم الأثرم أبو الحسن على بن المغيرة المتوفى سنة ٢٣١ والزيايدي أبو إسحق إبراهيم بن سفيان المتوفى سنة ٢٤٩ والرياشي العباس بن الفرج المتوفى سنة ٢٥٧ . وكل أولئك وأضرابهم من رواة اللغويين القدماء كانوا يعتمدون قبل كل شيء على الإملاء ، وكان تلاميذهم يحرسون عليه مخافة دخول غلط عليهم في قراءة النصوص . ومع ذلك كان منهم من يأخذ أحياناً عن الكتب ، وكانوا يميزونه من سواه ، خشية أن يكون قد صحف فيما قرأ ، واتسع التصحيف حتى ألف فيه العلماء كتباً مفردة . وجعلهم الاهتمام بالسند يتأثرون برجال الحديث في تجريح الرواة وتعديلهم ، وكان علماء البصرة في ذلك أشد تحرجاً من علماء الكوفة وبغداد ، وبالمثل تأثروا بهم في تلقيب بعض الروايات بألقاب الجودة والضعف ، ويؤثر عن ابن الأنباري

الكوفي المتوفى سنة ٣٢٨ قوله : « الكلمات قسمان : كلمات متواترة وآحاد ، فأما المتواترة فلغة القرآن وما تواتر من السنة وكلام العرب ، وهذا قطعى يفيد العلم ، وأما الآحاد فما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر^(١) . وكانوا يجمعون فيها يُمْلُونَهُ أَشْثَاتًا من بعض أقوال العرب وأشعارهم وأقاصيصهم ، وبما يصور ذلك مجالس ثعلب الكوفي المتوفى سنة ٢٩١ . وأحياناً كانوا يؤلفون الكتاب فى أقوال وأشعار وأمثال حيثما اتفق مثل صنيع ثعلب فى مجالسه ، وأحياناً يجمعون كلمات فى موضوع واحد مثل كتاب المذكر والمؤنث ليعقوب بن السكيت الكوفى المتوفى سنة ٢٤٣ وكتاب النخل وكتاب الطير لأبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى البصرى المتوفى سنة ٢٥٠ . وكان طبيعياً أن تظهر حينئذ معاجم تحصى كلمات اللغة إحصاءً دقيقاً دالة على معانيها ، وتداول الوراقون معجم العين المنسوب إلى الخليل حتى إذا كان ابن دريد محمد بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٣٢١ وجدناه يؤلف معجمه اللغوى الكبير : الجمهرة فى اللغة ، وعلى الرغم من نقد القدماء له وقول نقطويه الكوفى معاصره المتوفى سنة ٣٢٨ إنه ليس أكثر من تحريف لمعجم العين للخليل يعدّ عملاً باهراً . ودَفَعَتْهُمْ فكرة تعليم اللغة للناشئة إلى أن يجمعوا كثيراً من الألفاظ والعبارات الغريبة فى طائفة من الموضوعات والمعانى ويؤلفوا فيها كتاباً مثل كتاب الألفاظ لابن السكيت ، وهو يحتوى كثيراً من أبيات الرجز المسرفة فى الغرابة ومن الألفاظ المهجورة ، وهو جانب يميز اللغويين الكوفيين إذ كانوا يكثرّون من رواية الغريب المهجور فى مصنفاتهم . وعُنُوا فى هذا العصر أشد العناية بجمع دواوين الشعر القديم جَمْعاً علمياً ، عماده التوثق والتحقيق ، وهو عمل يُعَدُّ مَتَمِّمًا لما نهض به فى العصر الماضى المفضل الضبى والأصمعى وابن الأعرابى ، وكانوا يضيفون إلى الدواوين غالباً شروحاً للتوضيح ، ويشتهر فى هذا المجال محمد ابن حبيب البصرى وثعلب الكوفى والسكرى أبو سعيد الحسن بن الحسين البصرى تلميذ الرياشى وأصغر تلاميذ الأصمعى المتوفى سنة ٢٧٥ وكان شديد الطموح ، فلم يكتف بجمع دواوين طائفة كبيرة من الشعراء ، بل مضى يجمع دواوين القبائل ، ويقال إنه جمع منها نيفاً وثمانين ، لم يُبْقِ الزمن منها إلا قطعاً من ديوان هذيل

نُشرت في خمس مجموعات أربع منها في أوروبا وواحدة طُبعت في دار الكتب المصرية ، ودائماً نراه يذكر ما اختلف فيه أئمة البصريين والكوفيين في رواية الأبيات وألفاظها المختلفة. وصنفوا كثيراً من المختارات الشعرية، وكان مما صنفوه في العصر الماضي المعلقة والمفضليات والأصمعيات ، أما في هذا العصر فن أهم ما صنفوه من كتب الاختيارات جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ولا تُعَلِّمُ سنة وفاته بالضبط ، ولكن الوسائط في مقدمته لكتابته بينه وبين علماء القرن الثاني جيلان أو ثلاثة مما يؤكد أنه عاش في أواخر القرن الثالث الهجري ، ومختاراته تضم تسعاً وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام ، في كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات ، وتغلب القصائد الجاهلية على المجموعة ، وتتماز بالقصائد الطويلة . ويُعَسِّى ابن الأنباري بشرح مفصل على المفضليات يسوق فيه الفروق بين الروايتين البصرية والكوفية لأبيات هذه المجموعة الكبيرة . وعُتِيَ حينئذٍ شاعران بعمل ديوانين للحماسة هما أبو تمام والبحترى ، وكان اللغويين جعلوا فكرة الاختيار من الشعر القديم والحديث تعم في جميع البيئات . وظهرت عندهم بقوة فكرة عمل مختارات من الشعر والنثر تُقَرَّرَ بهما من أفهام الشباب والناشئين عامة ، فصنع المبرد كتابه « الكامل » وبه مختارات كثيرة ذلَّلها ويسَّرها لشُداة الأدب واللغة . وكانما أحسن الجاحظ وابن قتيبة ، كما مر بنا ، أن غاية اللغويين من هذا التيسير والتذليل لا تزال أبعد من أن يحققوها ، لأن فكرة التعليم اللغوي من أجل اللغة قبل كل شيء لا تزال غالبية عليهم ، فألف الجاحظ البيان والتبيين ليدخل على هذه الفكرة الأفكار الجمالية والبلاغية ، وألف ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار ليدخل بدوره عليها الأفكار الفارسية واليونانية، مازجاً بينها مزجاً يثير رغبة الناشئة والشباب في قراءته ، وألف بجانبه مصنفه « أدب الكاتب » ليضرم في قلوبهم الحمية للفصحى وتنقية اللغة مما لا بسها أويكاد يلابسها من الشوائب الأعجمية والعامية . وأُلِّفَت في العصر كتب كثيرة ^(١) تصوِّر ما يلحن فيه العامة ، منها ما هو لأحمد بن حاتم الذي مر ذكره أو لأبي حاتم السجستاني أو للمازني أبي عثمان بكر بن محمد البصري المتوفى سنة ٢٤٩ أو لامفضل بن سلامة

(١) انظر كتاب الفهرست ص ٨٩ ،

الكوفي المتوفى سنة ٢٩٠هـ ونيف بقصد جذب الشباب والمتأدبين إلى دوائر الفصحى، وللغاية نفسها ألف ثعلب كتابه «الفصح» جامعاً فيه كثيراً من الصياغات الفصيحة الناصعة، كما ألف عبد الرحمن بن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٣٢٧هـ^(١) مصنفه «الألفاظ الكتابية» وهي عقود نظم فيها درراً من الصياغات البليغة الزاخرة بجوية دافقة: وعلى غرارها ما جمعه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧هـ في كتابه «جواهر الألفاظ» وبذلك بثّ اللغويون في نفوس كثيرين مشاركتهم في تحبيب العربية للناشئة والشباب المتأدبين بوسائل كثيرة. ومنها وسيلة لم نتحدث حتى الآن عنها، ونقصه ما حاوله بعض اللغويين من اتخاذ بعض القصص وسيلة تعليمية، إذ كانوا يقصون بعض حكايات عن الأعراب، مدججين فيها بعض ألفاظ غريبة كي يسهل على الناشئة حفظها، ومن اشتهر باتخاذ هذه الوسيلة التعليمية ابن دريد إذ ألف أربعين أقصوصة قصيرة - كان يسمى كلا منها حديثاً -^(٢) لغرض التعليم اللغوي وتبسيطه وتيسيره، وبذلك أوحى لبديع الزمان أن يؤلف فيما بعد مقاماته مبتغياً بها الوجهة التعليمية نفسها.

ومن يرجع إلى كتابنا «المدارس النحوية» يطلع في وضوح على نشاط النحاة في العصر، فقد كانت المدرستان البصرية والكوفية قائمتين، وأخذت المدرسة البغدادية طريقها إلى الظهور بأخرة من العصر. وإلى المدرسة البصرية يرجع الفضل في إقامة صرح النحو العربي بكل ما يتصل به من قواعد، لا في هذا العصر بل في العصر السابق له، وخاصة منذ الخليل بن أحمد، فهو الذي صاغه في صورته العامة المعروفة بأبوابه وعوامله ومعمولاته وكل ما سند بناءه من سماع وتعليل وقياس قويم. وأتم سيبويه صنيعه في مصنفه «الكتاب» الذي عدّه النحاة آية كبرى لا سابقة لها ولا لاحقة. وخلفه الأخفش الأوسط، ففسح للغات والقراءات الشاذة محتجاً لها ومدافعاً دفاعاً سديداً. وفي هذه الأثناء استطاع الكسائي وتلاميذه القراءة أن يشيدا في الكوفة مدرسة نحوية، تعتمد على صورة النحو البصري العامة وتستقل بطوايع تميزها، من حيث بسط القياس وقبضه ومن حيث الاتساع في الرواية ومن

(١) راجع مقدمة الألفاظ الكتابية (طبعة (٢) زهر الآداب للحصري ٣٠٧/١

بيروت سنة ١٨٨٥).

حيث وضع بعض المصطلحات الجديدة ، ومن حيث تلقيب بعض العوامل والمعمولات ، وعُنى الفراء خاصة بإنكار بعض القراءات الشاذة .

وعلى هذه الشاكلة لا ينتهى العصر العباسى الأول ، حتى تكون المدرستان البصرية والكوفية تميزتا تميزاً تاماً ، وكان أهم الأئمة البصريين فى هذا العصر المازنى والمبرد ، أما المازنى فهو بكر^(١) بن محمد الملقب بأبى عثمان المتوفى كما مر آنفاً سنة ٢٤٩ وهو تلميذ الأخفش الأوسط ، وكان لساناً قوى الحجة ، وله مناظرات مأثورة مع ابن السكيت وغيره من الكوفيين أفحمهم فيها بأدلة القاطعة ، وعاش يدرس لطلابه وتلاميذه كتاب سيبويه ، وله حوله تعليقات وشروح عدة ، منها تفاسير كتاب سيبويه والديباج فى جوامع ، وصنف فى علل النحو كتاباً ، وعنى بالتصريف عناية واسعة جعلته يخصه بكتاب التصريف ، ولابن جنى عليه شرح مبسوط سماه « المنصف » . وفى كتاب « المدارس النحوية » طائفة من آرائه فى النحو احتفظ بها النحاة فى مصنفاتهم ، وهو أول من أعطى علم التصريف صيغته النهائية فى كتابه السالف ذكره ، ويقول فى مطالعه بعد ذكره أمثلة الأسماء والأفعال المجردة والمزيدة : « إنما كتبت لك فى صدر هذا الكتاب هذه الأمثلة (الأبنية) لتعلم كيف مذاهب العرب فيما بنت من الأسماء والأفعال ، فإذا سئلت عن مسألة فانظر هل بنت العرب على مثالها ، فإن كانت بَسَتْ فابن مثل ما بنت . . . وسأصنع لك من كل شيء من هذا الباب رسماً تقيس عليه ما كان مثله^(٢) » . وهو يُعَدُّ أول من فتح بقوة باب التمارين غير العملية فى الصرف ، إذ نراه يبنى من ضرب على مثال جعفر أو على مثال سفرجل وما إلى ذلك من أبنية غير مستعملة فى اللغة^(٣) . وكان يتشدد فى الأخذ بالقياس ، مما جعله يردّ — على هدى الفراء — بعض القراءات التى تشذ على قواعد النحو ومقاييسه^(٤) . وأنبه تلاميذه المبرد محمد^(٥) ابن يزيد الأزدي إمام نحاة البصرة لزمنه المتوفى سنة ٢٨٥ وهو آخر أئمتهم المهمين ،

(١) انظر فى ترجمة المازنى تاريخ بغداد

ص ١١٩ .

(٢) راجع فى ترجمة المبرد تاريخ بغداد

٣٨٠ / ٣ وإنباه الرواة ٢٤١ / ٣ ومعجم

الأدباء ١٩ / ١١١ .

(٣) انظر فى ترجمة المازنى تاريخ بغداد

٩٣ / ٧ ، وإنباه الرواة ٢٤٦ / ١ ومعجم

الأدباء ٧ / ١٠٧ .

(٤) راجع المنصف على التصريف ٩٥ / ١ .

(٥) انظر المنصف ١٧٣ / ١ وما بعدها .

وفيه يقول ابن جني : « كان يُعَدُّ جيلاً في العلم ، وإليه أفضت مقالات أصحابنا (البصريين) وهو الذي نقلها وحرَّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها ^(١) » وكان يشرح لتلاميذه كتاب سيبويه وكتب الأخفش والمازني وله مصنفات كثيرة ، منها كتاب الكامل في اللغة والأدب الذي أشرنا إليه فيما أسلفنا من حديث وكتاب المقتضب في النحو المطبوع في القاهرة بتحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، وهو كتاب نفيس ، وطُبِعَ له كتابه « الفاضل » ونسب عدنان وقحطان ، وسقطت من يد الزمن مصنفات له كثيرة . وأهميته في تاريخ النحو البصري إنما ترجع - كما لاحظ ابن جني - إلى أنه حرَّر مسائل هذا النحو وقواعده ، وإلى أنه اشتق من أصوله فروعاً كثيرة ، وإلى أنه بسط فيه كثيراً من العلل والمقاييس التي لم يُسَبِّقَ إليها ، وقد نفذ إلى كثير من التعريفات والآراء المبتكرة في العوامل المحذوفة والمضمرة والمفوضة ، وبالمثل في المعاملات ومواقعها في الإعراب ، واستكثر من العلل كثرة مفرطة ، فكل رأى لا بد له من علة أو علل تسنده ، كما استكثر من القياس ، مع اعتداده بالسماع عن العرب ومع حس أدبي دقيق في التدقيق اللغوي . وله تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم الزجاج لإبراهيم بن السريّ المتوفى سنة ٣١٠ وهو امتداد له في عنايته بكتاب سيبويه وفي تصنيفه لبعض الكتب النحوية وفي محاولته النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة مع العناية بالتعليل والقياس . ومن تلاميذه المهين ابن السراج أبو بكر محمد بن السريّ المتوفى سنة ٣١٦ وقد عكف على المنطق حتى أتقنه ، وعاش يقرأ لتلاميذه كتاب سيبويه وفي مقلدتهم السيرافي وأبو علي الفارسي ، وله كتاب الأصول عُنِيَ فيه عناية واسعة بعلل النحو ومقاييسه ، انتزعه من كتاب سيبويه ، وأثّرُ دراسته للمنطق واضحة فيه وفي تقاسيمه .

وإذا تركنا المدرسة البصرية إلى المدرسة الكوفية وجدنا لها إماماً مشهوراً في هذا العصر هو ثعلب ^(٢) أبو العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ وقد قرأ على شاذلة أستاذه الكسائي والقراء كتاب سيبويه وكتب الأخفش ، وأضاف إلى ذلك زاداً كبيراً حصَّله من الشعر القديم ودواوينه ومن القراءات والحديث النبوي . وذكر

(١) سر صناعة الإعراب لابن جني ١ / ١٣٠ . وإنباء الرواة ١ / ١٣٨ ومعجم الأدباء

مترجموه له مصنفات كثيرة في النحو واللغة والقراءات والأمثال والمنتخبات الشعرية والنثرية ، وقد وصلنا منها « الفصيح » الذي عرضنا له في غير هذا الموضع والذي ابتغى به تقويم ألسنة المبتدئين. وطُبع له كتابه « المجالس » وهو إملاءات لمختارات شعرية ونثرية تكتظ بالنحو والأشعار الغريبة والشاذة والقراءات والأمثال والأخبار والأقوال المثورة . وصنَّع طائفة كبيرة من الدواوين القديمة . ومن يرجع إلى كتابه المجالس وما تناثر في كتب النحاة له من آراء يحده يطبق تطبيقاً دقيقاً آراء أستاذه الفراء وأستاذيهما جميعاً الكسائي وكل ما أصَّلاه لمدرستهما الكوفية من أصول في النحو ومن مصطلحات وألقاب جديدة وما كانا يأخذان به أنفسهما من التوسع في الرواية عن العرب والاعتداد بالشواذ اللغوية . وله كتاب مطبوع يسمى قواعد الشعر ، وسنعرض له في حديثنا عن البلاغة والنقد . وله — مثل المبرد منافسه — تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفى — كما مر بنا — سنة ٣٢٨ ، وتضاف إليه مصنفات كثيرة في غريب الحديث وعلوم القرآن وفي اللغة وكتابه الأضداد فيها مطبوع وأيضاً في النحو . وعُني مثل أستاذه بإخراج الدواوين الشعرية القديمة ، وسبق أن تحدثنا عن شرحه للمفضليات ، وهو ملء بمعارفه الواسعة في اللغة والأشعار والأخبار . وكان — فيما يظهر — مثقفاً ثقافة منطقية ، فدعم النحو الكوفي بكثير من العلل السديدة .

وتنشأ بأخرة من العصر المدرسة البغدادية متميزة بمنهجها القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع النفوذ إلى كثير من الآراء المبكرة ، وقد تداولها جيلان : جيل مبكر كانت تغلب عليه النزعة الكوفية من أمثال ابن كيَّسان ، وجيل تال كانت تغلب عليه النزعة البصرية من أمثال الزجاجي . ولكي تنضح المدرسة وهاتان النزعتان نقف قليلاً عند ابن كيَّسان والزجاجي . أما ابن كيَّسان^(١) فهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيَّسان المتوفى سنة ٢٩٩ وهو تلميذ ثعلب والمبرد ، وأهله ذلك لكي ينتخب من آرائهما آراءه النحوية ، ولم يكتف بذلك فقد حاول النفوذ إلى بعض الآراء الجديدة ، وكان في أول أمره كوفياً ، فعُني ببسط

العلل لآراء الأئمة الكوفيين ، تُسَعِّفه في ذلك ثقافة منطقية عميقة ، وجعله ذلك يصطبغ بصبغة كوفية ، حتى بعد استقلاله عن تلك المدرسة ، وقد أُلِّفَ فيها وفي المدرسة البصرية كتابه « اختلاف البصريين والكوفيين » وله وراءه كتب في النحو والتصريف ، وكتاب مهم في علل النحو قال القدماء إنه كان يقع في ثلاثة مجلدات ، وإعلاله هو الذي عرض فيه احتجاجاته لآراء المدرسة الكوفية . ويعرض كتابنا المدارس النحوية ما اختاره من آراء المدرسة البصرية وكذلك من آراء المدرسة الكوفية ، ثم ما نفذ إليه من آراء اجتهادية انفرد بها من دون غيره من أئمة المدرستين . وهو بذلك مثل دقيق من أمثلة المدرسة البغدادية التي كانت تمزج بين آراء المدرستين السالفتين وتحاول أن تتخذ لنفسها آراء جديدة فريدة . والزجاجي^(١) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق المتوفى سنة ٣٣٧ تلميذ الزجاج البصري ، وله مصنفات كثيرة ، طُبِعَ منها كتاب الحمل وهو مختصر في النحو كانت له شهرة مدوية في العصور الوسطى وشرح شروحاً لا تكاد تحصى ، وطُبِعَ أيضاً له أماليه الوسطى مع تعليقات للشنقيطي ، ومجالس العلماء وهي مناظرات بينهم في مسائل لغوية ونحوية ، وكتاب الإيضاح في علل النحو ، وقد عرض فيه علل النحو عند البصريين والكوفيين ملاحظاً أن ابن كيسان وأضرابه من الجيل البغدادى الأول هم الذين وضعوا للنحو الكوفي أكثر علله واحتجاجاته ، وقد يضيف من عنده وجوهاً من العلل ، يدعم بها العلل الكوفية والبصرية جميعاً . وهو بالمثل في النحو ينتخب من آراء الطرفين ويضيف آراء جديدة ، وإذا كان ابن كيسان تنضح عنده نزعة كوفية فالزجاجي على العكس تنضح عنده نزعة بصرية ، إذ كثيراً ما يقف مع البصريين مناضلاً مدافعاً ، وكأنه كان إرهاباً لغاية النزعة البصرية على النزعة الكوفية في المدرسة البغدادية ، على نحو ما سيتضح فيما بعد عند أبى على الفارسي وابن جنى .

ونشطت في العصر الأنظار البلاغية ، وفي كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ » ما يصور مراحل نشأتها في العصر العباسي الأول ونموها في هذا العصر ، فقد مضى كثيرون من الكتّاب مثل ابن المقفع ومن الشعراء مثل بشار يبدون بعض

ملاحظات بلاغية على ما يُكسبُ الكلام حسناً وجمالاً حتى إذا ظهر مسلم بن الوليد اتخذ ما اكتشفه الأدباء من محسنات مذهباً وأطلق عليه لأول مرة اسم البديع ، وكان يشمل وجوه حُسْنِ بيانية وبديعية ، وأخذ اللغويون من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة في هذه الأثناء يبدون بعض ملاحظات على وجوه الحسن في الكلام ، وألف الأصمعي كتاباً في التجنيس وسجل بعض ألوان هنا وهناك مثل الطباق والالتفات ، في حين عُنِيَ أبو عبيدة معاصره - وخاصة في كتابه « مجاز القرآن - ببيان بعض الخصائص البلاغية مثل التقديم والتأخير والتشبيه والكناية والاستعارة . وأخذ المتكلمون - وخاصة المعتزلة - يعنون بالبحث في وجوه البلاغة ، وجعلهم ذلك يحاولون التعرف على ما عند الأمم الأجنبية منها وأضافوا إليه كثيراً من ملاحظاتهم . ومضى اللغويون والأدباء طوال القرن الثالث للهجرة يحاولون التعرف على مواطن الجمال والبلاغة في الكلام ، ونثر ابن قتيبة في كتابه : « تأويل مشكل القرآن » ملاحظات متنوعة عن الخصائص البيانية والأسلوبية ، على حين ألم المبرد في كتابه « الكامل » بالكناية والتشبيه ، وفصّل القول فيهما تفصيلاً جيداً ، وانسابت من ذلك كله مسارب إلى كتاب قواعد الشعر لثعلب . غير أن هذه الجهود كلها ليست شيئاً بالقياس إلى ما نثره الجاحظ المعتزلي المتكلم المتوفى سنة ٢٥٥ في كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وهو يتحدث طويلاً عن فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي شاعت فيما بعد عند البلاغيين ، ويتسع في الحديث عن الإيجاز والإطناب ومواضعهما وعن أصوات الكلام وموسيقاه ومواقع الألفاظ ومواضعها التي لا تعدوها وعن السجع والازدواج والاقتراس ، وحلل الاستعارة بأقسامها المختلفة تحليلاً بديعاً ، وألم بالتشبيه وبكثير من فنون البديع واستنبط فناً جديداً منها هو المذهب الكلامي . وبذلك كان يُعدُّ المؤسس الحقيقي لمباحث البلاغة العربية .

وأخذت تتضح منذ مطالع العصر ببيئات (١) ثلاث تتناول كل منها البلاغة تناولاً متميزاً ، وهي بيئة اللغويين المحافظين وبيئة المتفلسفين والمترجمين والمجددين وبيئة المعتزلة المعتدلين ، أما البيئة الأولى فكانت تحاول بكل ما استطاعت

(١) انظر في هذه البيئات كتاب البلاغة

وما بعدها .

تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٦٢

أن تفرض المثال العربي القديم ، فهو النموذج الذى يحسن أن يحاكي ، وكل ما سواه غثٌ سقيم ، وأخذت تنجيه إلى ملاحظات نحوية ولغوية مدرسية على نحو ما يتضح فى كتاب الموشح للمرزبانى . وأما البيئة الثانية بيئة المتفلسفة والمترجمين فكانت مجددة مسرفة فى التجديد، إذ رأت من الواجب أن تتخذ الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أصولاً فى تقويم البلاغة العربية ، مما جعل البيئة اللغوية تعلن النكير عليها وكان يقف معها أصحاب البلاغة العربية الخالصة وكانوا أكثر نفراً وأنصاراً لما قلناه فى غير هذا الموضع من أنه سادت فى العصر نزعة محافظة غلبت فيه على كل شىء . وكان طبيعياً أن تغلب على الذوق الأدبى العام . وكان المتكلمون — وفى مقلداتهم المعتزلة — يقفون موقفاً معتدلاً بين الطرفين المتعارضين ، إذ يقرعون ما لدى الأجانب من مقاييس بلاغية ويقرنونها إلى أنظار العرب فى البلاغة ، بل إنهم يُخضعونه للذوق العربى الأصيل ومقاييسه على نحو ما يتضح عند الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وبذلك التحموا بالبيئة اللغوية المحافظة . وكان حرياً بالمتفلسفين ورفقائهم من المترجمين أن يثوبوا إلى رشدهم وينضموا إلى المتكلمين فى موقفهم السديد ، ولكن المسألة لم تكن مسألة عقلية أو منطقية يُحتَكَمُ فيها إلى المنطق والعقل ، بل كانت مسألة شعرية ، فهى التى أمدَّتْهم فى هذا الموقف بوقود جزل من الخصاص والجدال والحجاج ، وكانوا لا يزالون يدعون أن كل ما شُغِف به الشعراء لهذا العصر من محسنات بيانية وبديعية إنما مرده إلى البلاغة اليونانية ، ولذلك تصدى لهم ابن المعتز فى كتابه « البديع » يُشَبِّت أن فنونه التى يلهجون بها فنون عربية خالصة، إذ تتعمق فى القدم حتى العصر الجاهلى، وكل ما للمحدثين من أمثال بشار وأبى تمام إنما هو الإكثار منها، وهو إكثار جعلهم — كما يقول — يحسنون فيها تارة، وتارة يسيئون إساءة شديدة . ومضى فى الكتاب يدرس فنونه الأساسية ، وهى عنده خمسة ، الاستعارة والتجنيس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامى ، وإنما خص هذه الفنون بالدراسة لأنها كانت موضع الأخذ والرد بين أصحاب الفلسفة وأصحاب البلاغة العربية الخالصة . على أنه لم يلبث أن ضم إليها ثلاثة عشر فناً بسطَّها بسطّاً ، وهى الالتفات والاعتراض والرجوع والخروج من معنى إلى معنى وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجحد وحسن التضمين والتعريض

والكناية والإفراط في الصفة أو المبالغة وإعانات الشاعر نفسه في القوافي أو ما سُمي فيما بعد باسم لزوم ما لا يلزم وحسن الابتداءات . ويمكن أن نضم إلى هذا المبحث الفصل في البديع وفنونه مبحثاً لابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ في كتابه « عيار الشعر » جعل موضوعه التشبيه ، مفصلاً القول في أنواعه تفصيلاً دقيقاً .

ولم تقف البيئـة الفلسفية مكتوفة الأيدي أمام ابن المعتز وكتابه البديع ، فقد تجرّد منهم كثيرون لنقل كتابي الشعر والخطابة لأرسطو ، واشتهر نقْلُ مَتْنِ بن يونس لأولهـما ونقْلُ إسحق بن حنين لثانيهما . ولم يلبث قدامة المتوفى سنة ٣٣٧ الذي اشتهر حينئذ بثقافته الفلسفية أن حاول صنع تشريع لبلاغة الشعر العربي مستضيئاً من حين إلى حين بما كتبه أرسطو في كتابه الشعر ، وسَمَّى صنيعه « نقد الشعر » . ولن نعرض الآن لما في الكتاب من نقد فسنعرض له عما قليل ، إنما نعرض لما فيه من حديث عن المحسنات البديعية ، وقد حاول جاهداً أن يبدّل ويعدل في بعض المصطلحات التي وضعها ابن المعتز معارضة له ، وكأنه إنما ألّف كتابه محادّة لكتاب البديع ، واستطاع أن يضيف إلى محسنات ابن المعتز الثانية عشر ثلاثة عشر محسنًا جديداً أهمها الترصيع والغلو وصحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والإشارة والإرداف والتمثيل . وبعضها يتداخل مع محسنات ابن المعتز . وكتاب ثان أنتجته بيئـة المتفلسفة هو كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق ابن سليمان بن وهب ، وكان معاصراً لقدامة ، ويتضح فيه أنه يريد أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية وما كتبه فيها أرسطو عن الشعر والخطابة بأقوى مما حاول قدامة ، حتّى لراه يضيف إلى انتفاعه بكتابي أرسطو السالفين كتابيه في المنطق والجدل ، مازجاً ذلك بمباحث المتكلمين وفقهاء الشيعة ، وكأنما تستعجم البلاغة عنده ، وقد حاول أن يطبق بعض ما ذكره أرسطو من وجوه البلاغة ، ولكنه فاته في كثير من الأحوال أن يُحسّن هذا التطبيق ، واقترح بعض ألقاب ومصطلحات جديدة لم يكتب لها الذبوع كما كُتِبَ لنظائرها عند قدامة وابن المعتز ، ويبدو أن أصحاب البلاغة العربية التالين ضاقوا به وبكتابه ، فلم يذكروه ولم ينقلوا عنه . وكان ذلك سبباً فيما بعد ، لأن ينصرف الناس عن هذه البلاغة الأعجمية وأذواق أصحابها المتفلسفين ، وأن يستميلهم المتكلمون المعتدلون ببحوثهم البلاغية ،

حتى ليسيطرون ببحوثهم على العصور والأجيال التالية .

وإذا كانت البلاغة خطت خطوات واسعة في سنبل تحولها إلى علم في هذا العصر فكذلك النقد خطا بدوره خطوات كثيرة نحو تقنين مسائله ، ولا بد من ملاحظتين قبل الحديث فيه ، أولاً ما أن أكثر الكتب التي عرضنا لها في البلاغة عرضت له ، وثانيتهما أن البيئات اللغوية والاعتزالية والفلسفية التي تحدثنا عنها في البلاغة هي نفسها التي حاولت أن تشرع النقد وأن تضع له معايير ومقاييسه . وأولى هذه البيئات البيئة اللغوية المحافظة ، وقد هاجم الجاحظ ذوقها في غير موضع من كتاباته^(١) ، وأعله كان يأخذ عليها اهتمامها بالغريب في الأشعار ونسيانها أو إهمالها جوانب الجمال والبلاغة فيها ، مما جعله يؤلف كتابه «البيان والتبيين» على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع . ومن المحقق أن روحها كانت محافظة ، ولكن من المحقق أيضاً أنها هي التي نقدت الشعر القديم لأول العهد به ، وهي التي ميزت وثيقه من منحوه ، مع كثير من الأحكام واللفقات النقدية الجديدة ، وأعل كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣١ خیر ما يصور عمل هذه البيئة المحافظة حتى عصره ، ونراه يعرض فيه قضية الانتحال في الشعر القديم عرضاً علمياً رائعاً ، موضحاً عبث القبائل والرواة المختلفين به وودى ما دخله من فساد ، ثم تقدم يضع الشعراء في طبقات حسب جودتهم الفنية ، راوياً لكل منهم كثيراً مما صححته البصرة له وخاصة في العصر الجاهلي . ونعصى إلى العصر العباسي الثاني فنلتقي بشعرب وكتابه «قواعد الشعر» وهو كتيب مدرسي جاف وزّع فيه الشعر توزيعاً نحويّاً على أربعة أنواع : أمر ونهى وخبر واستخبار ، وتحدث عما تجرى فيه من أغراض الشعر ومن التشبيه ، وعرض لبعض ملاحظات نقدية سطحية ، وليس في الكتاب نظرية نقدية ، إنما هي لحات سريعة ، وقد سمى الطباق الأضداد وسمى الجناس المطابق ، وتابعه في التسمية الأخيرة قدامة . والكتاب لا يضيف إلى النقد العربي شيئاً ذا قيمة يمكن الوقوف عنده . وفي الحق أن البيئة اللغوية أخذت تتخلف في مجال النقد ، على نحو ما تخلفت في مجال الدراسات البلاغية ، إذ لم يعد يلقانا فيها سوى ملاحظات طائفة كأن نجد عند المبرد في كتابه «الكامل» كلمة هنا أو هناك

عن صحة المعنى أو جزالة اللفظ أو ردايته أو عوار الفكرة أو استغلاقتها أو ضرورة الشعر والموسيقى ، وشركه في مثل هذه الملاحظات كثير من اللغويين بحيث نراهم يخصصون كتباً في أخطاء الشعراء مثل كتاب أخطاء أبي تمام في الألفاظ والمعاني لأحمد بن عبيد الله بن عمار المتوفى سنة ٣١٩ .

وإذا كانت البيئة اللغوية لم تستطع أن تتطور مع روح العصر في نقدها ، بل ظلت به عند نقد لغوى جاف لا يكون نظرية ولا ما يشبه نظرية فإن بيئة المعتزلة استطاعت أن تتمثل في نقدها روح العصر مع المحافظة على روح العربية والتقاليد الموروثة ، ومرّ بنا في الحديث عن البلاغة أنها كانت توازن بين معايير البلاغة اليونانية ومعاييرها العربية وأنها لم تحاول أن تُعَلِّي الأولى على الثانية ، إنما حاولت أن تفيد منها بدون أن تطغى على الفكر العربي وبيانه وبلاغته . ويمكن أن يلاحظ ذلك بوضوح عند بشر بن المعتمر المعتزلى المشهور وقرينه أو معاصره الجاحظ ، أما بشر فراه في الصحيفة التى دونها له الجاحظ في البيان ^(١) يدعو إلى الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين ونفسياتهم ، وهى فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التى كانت شائعة عند اليونان فى أحاديثهم عن البلاغة والنقد ، كما يدعو إلى البعد عن التكلف واستكراه المعانى والألفاظ وتجنب الغريب المتوعدى الألفاظ والتراكيب ، وينفذ إلى فكرة طريفة هى أن شرف المعنى لا يرجع إلى أنه من معانى الخاصة أو من معانى العامة ، فكل فى موضعه شريف ، ومدار الشرف على الملاءمة بين الكلام ومقامه ، ويدعو فى قوة إلى تبسيط الأسلوب وجعله فى لغة وسطى بين لغة البلو الجافة الخشنة وبين لغة العامة المسففة المبتذلة . ويخلفه الجاحظ ، وتستعر نار المتفلسفة والشعوبية جميعاً ، فينادى بأن مدار الجمال فى القرآن الكريم إنما يعود إلى نظمه الذى تنقطع الرقاب دون محاكاته ، ويمدُّ فى قوة ملاحظة بِشْر عن اللغة الوسطى ، حتى يتلاءم مع الحدائث ومع روح العصر ، فالألفاظ يجب ألا تكون ساقطة عامة ولا غريبة وحشية ، ويجب أن يلائم الخطيب بين كلامه والسامعين فلا يورد خطيب على الجماهير اصطلاحات المتكلمين ، ولا ييجاز موضع للإطناب موضع

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٥ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٤٣ .

لا في الألفاظ وحدها، بل أيضاً في الأساليب، ويلاحظ أن للأديب شاعراً أو ناثراً معجمه اللغوي الخاص، وهي ملاحظة دقيقة، وعرض طويل للفظ وفصاحته وجزالته ورقته وتناسبه مع ما قبله وما بعده في الكلام حتى لكأن واشجة من الرحم تربط بينه وبين الأسرة اللفظية التي يسلك فيها. وأنكر الترادف ذاهباً إلى أن لكل لفظة معناها الخاص الذي يفتقر قليلاً أو كثيراً عن معنى أو معاني مرادفها، وعاب مراراً التكلف وفرق بينه وبين التنقيح. وجعله إعجابه باللفظ المونق يشيد به مضائلاً من المعاني وقيمتها، وكأنما كان يريد أن يسقط إلى الأبد ما تقواه الشعوبية عن كثرة المعاني في الآداب الأعجمية؛ وكذلك ما تقواه البيئة المتفلسفة عن المعاني الفلسفية اليونانية، إذ هي تحمل أفكاراً صحيحة، ولكن ينقصها جمال الصياغة وحسن السبك والرصف والنظم. ومع إعجابه بالشعر العربي القديم كان يعجب بالشعر الحديث، حتى ليفضل أبا نواس على كل من سبقه من الشعراء^(١). وهو معنى ما نقول من اعتدال المعتزلة وأنهم كانوا يوازنون بين القديم والحديث وبين معايير النقد العربي واليوناني ملائمين بين ذلك كله نافذين إلى نقد عربي عباسي حديث.

وأفاد ابن قتيبة من نظرات الجاحظ النقدية إفادة واسعة، مع أنه لم يكن من المعتزلة بل كان من أهل السنة، ولكنه اشترك معه كما مرّ بنا في غير هذا الموضع في الرد العنيف على الشعوبية، ونراه يكتب مقدمة طويلة لكتابه الشعر والشعراء يضمها كثيراً من آرائه النقدية، وتارة يوافق الجاحظ في بعض آرائه وتارة يخالفه، فما وافقه فيه رفض معيار القدم والحداثة في الحكم على الشعراء فلا يُستَظَرُّ إلى متقدم بعين الجلالة ولا إلى متأخر بعين الاحتقار، بل يوزن كل منهما بموازين الجودة الفنية الدقيقة. ووافقه في فكرة الطبع والتكلف، واستعار قبساً من فكرته عن المطابقة بين الكلام وأحوال النفس استضاء به في بيان الدوافع النفسية التي تبعث على قول الشعر كالطمع والغضب والشوق والطرب، كما استعار قبساً من فكرة

(١) الحيوان ٢ / ٢٧ وانظر في تحليلنا لآرائه كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ٤٦ وما بعدها وكتابنا «النقد» (طبع دار المعارف) وقد أشرنا فيه إلى حديثه عن السراقات، وهو أول من فتح بابها على

مصراميه لنقاد، وقد أدخلوا في أواخر هذا العصر يخصصون بعض الشعراء بمباحث مستقلة فيها مثل كتاب سرقات أبي نواس ليموت ابن المزرع المتوفى سنة ٣٣٤ وسراقات البحري لأحمد بن أبي طاهر المتوفى سنة ٢٨٠.

بشر بن المعتمر عن الأديب ألا يُقبل على عمله إلا إذا كان مستعداً له استعداداً كاملاً ، فتحدث عن العلاقة بين الشاعر والأوقات التي يستحب فيها نظم الشعر . وخالف الجاحظ في قَصْر الجمال الفني على اللفظ فجعله شركة بينه وبين المعنى ، فقد يحسن اللفظ والمعنى معاً وقد يقبحان معاً ، وقد يحسن أحدهما ويقبح الآخر . وكل ذلك كان يبشر بأن ابن قتيبة لن يرتد إلى الوراء وخاصة أنه سَوَّى بين القدم والحدائث في الشعر ولكنه عاد فطلب إلى الشاعر ألا يحيد عن منهج المتقدمين في نظام القصيد . وولتقي في أواخر العصر بناقد يتأثر بالجاحظ في كثير من آرائه النقدية ، كما يتأثر بابن قتيبة في رده الجمال الفني إلى اللفظ والمعنى معاً ، وهو ابن طباطبا صاحب عيار الشعر ، ونراه في مواضع من كتابه يشير إلى تماسك المعاني وارتباط أول الكلام بما يليه ، ويشدد في وحدة السياق وأن تتواصل أبيات القصيدة حتى تغدو بناءً محكمًا بل حتى تغدو كأنها جسد واحد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر ، وكأنما أحسَّ ما يردده النقاد في هذا العصر من فكرة الوحدة العضوية في القصيدة بحيث يطرد فيها التناقض والاتحام حتى تصبح كلا واحداً ، بل حتى كأنها لفظة واحدة ومعنى واحد^(١) .

ولم نتحدث حتى الآن عن البيئة الثالثة بيئة المتفلسفة في النقد ، ولعل خير من يمثلها قدامة في كتابه «نقد الشعر» وهو في مطالعه بصريح ولا يجمع بأنه إنما سيُعنَى بعلم جسد الشعر ورديته وأن أحداً لم يسبقه إلى وضع هذا العلم في العربية . ويجعل الكتاب في ثلاثة فصول ، يخص أولها بتعريف الشعر وبيان أجزائه ، والثاني بنعوت الجودة في الشعر ، والثالث بنعوت الرداءة . ويقف عند تعريف الشعر وقفة منطقية يستمد فيها بوضوح من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها ، ويبدو هنا أنه لم يفهم نظرية أرسطو في المحاكاة وأن المَعْوَل في الشعر عليها لا على الوزن ، وجاءه ذلك من سوء الترجمة لكتاب الشعر عند متى بن يونس فإن كثيراً من معاني الكتاب في الأصل طُمست طمساً ، وهو ما جعل قدامة يضطرب في الإفادة منه على صور شتى . وأجزاء الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية ،

(١) راجع في تحليل عيار الشعر كتاب
البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٢ .

ويقول إن نعوت الجردة تتصل بكل منها مفردة ومركبة ، ونراه يتأثر في هذا الفصل بنظرية الحدود الوسطى التي شُغف بها أرسطو في حديثه عن الأخلاق ، ويفيض في الفصل الثاني في الحديث عن نعوت الجردة ، ويعرض لأغراض الشعر ، ويحاول متأثراً بطريقة أرسطو أن يضع لها قواعد كلية عامة ، وهو في هذه القواعد يستمد كثيراً من كتابي الخطابة والشعر لأرسطو ، وكأنه يريد بكل ما يستطيع من قوة أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية ، ونحانه التوفيق في كثير من الأحيان ، ولولا ما أضافه إلى ابن المعتز من بعض فنون البديع لتناسى النقاد التالون كتابه ولم يلتفتوا إليه أي التفات (١) .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الذوق الذي كان مسيطراً على النقد والشعر جميعاً كان ذوقاً محافظاً ، وكان طبيعياً أن يُرْفَضَ نقد المتفلسفة المفرطين في التجديد. وكان من المنتظر للغويين الذين يمثلون بدقة النزعة المحافظة أن يسيطروا على الحركة النقدية ولكنهم لم يستطيعوا لسبب مهم ، وهو أنهم لم ينفذوا إلى وضع نظرية أو أصول من شأنها أن تشيع ، ولذلك سيطر المتكلمون الذين استطاعوا أن يضعوا للنقد أصولاً ورسوماً واضحة ، وساعد على سيطرتهم أنهم لم يكونوا يرفضون القديم بل كانوا يوازنون بينه وبين روح العصر كما أسلفنا ، وبذلك ظلوا يحافظون للشعر على تقاليده الموروثة .

ونشطت في العصر الكتابات التاريخية نشاطاً عظيماً فن كتابة في تاريخ السيرة النبوية إلى كتابة في الأحداث الإسلامية والأهم والدول ، وكتابة في المدن ، وكتابة في التراجم والطبقات ، ومرراً بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن ممن عنوا بالسيرة النبوية حينذاك ابن إسحاق وراوى سيرته ابن هشام والواقدي ومحمد بن سعد في كتابه الطبقات وكذلك المدائني أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٢٣٤ ، وله كتب ورسائل كثيرة في السيرة النبوية وفي تاريخ القبائل والحلفاء بلغت عند ابن النديم نحو ٢٣٠ مصنفاً . ومن أهم المؤرخين للسيرة النبوية في العصر أبو زرعة (٢) عبد الرحمن بن عمرو الحافظ شيخ الشام في وقته المتوفى سنة ٢٨٢ ، وفي مكتبة

(٢) أنظر في أبي زرعة تاريخ دمشق لابن

عساكر ٧ / ٢٧٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٨٧ .

(١) أنظر في تحليل نقد الشعر كتاب

البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٨ .

الفاتح بإستانبول مخطوطة من هذه السيرة . وكتب كثيرون في الأحداث الإسلامية وفي تاريخ الأمم والدول منهم يعقوبى الذى مر ذكره بين الجغرافيين وتاريخه في ثلاثة أجزاء طُبع بأوروبا وبالنجف في العراق ، ومنهم البلاذرى^(١) أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ ، وله كتاب فتوح البلدان المعروف نشره دى خويه بليدن في القرن الماضى ونشر بالقاهرة مراراً ، وله كتاب أنساب الأشراف في التراجم والتاريخ طُبعت منه بعض أجزاء وبعض قطع ويعاد نشره كاملاً في دار المعارف بالقاهرة . وكان يعاصره أبو حنيفة^(٢) الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ صاحب كتاب الأخبار الطوال المنشور أولاً بليدن ، ثم بعد ذلك في القاهرة ، ونراه يستهله بالحديث عن تاريخ الإسكندر والفرس ودولتهم الساسانية ، ثم يتحدث عن فتوح العراق وحروب صيفين وتاريخ الأمويين وما كان فيه من مقتل الحسين وأحداث المختار بن أبى عبيد ، ثم يوجز في الحديث عن الخلفاء من عبد الملك إلى المعتصم . وأتاحت ترجمة تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس في العصر العباسى الأول والكتابات الكثيرة عن الرسل والأنبياء لمحمد^(٣) بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ أن يكتب تاريخه الضخم : « أخبار الرسل والملوك » ، وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخليقة حتى عصره ، ونراه حين يصل إلى تاريخ الهجرة النبوية ينهج في الكتاب منهج الحوليات فكل سنة مستقلة بأحداثها حتى إذا تمت أيامها انتقل إلى السنة التالية حتى يصل إلى سنة ٣٠٢ واتبع طريقة المحدثين ، فكل خبر وكل حادثة تُروى مع إسنادها ، وتتعدد الروايات ويتعدد الإسناد ليقابل المؤرخ الحصيف بين الروايات مع روايتها ويستخلص منها الخبر الصحيح ، وله نشرات مختلفة في ليدن وفي مصر ، وطبعته الأخيرة بدار المعارف محققة ومزودة بفهرس دقيق . ومن أهم المؤرخين في العصر المسعودى^(٤) أبو الحسن على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ وله

الحفاظ ٢ / ٢٥١ وطبقات القراء ٢ / ١٠٦

وطبقات الشافعية ٣ / ١٢٠ .

(٤) راجع ترجمته في الفهرست ص ٢٢٥

ومعجم الأدباء ١٣ / ٩٠ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٧٠

والنجوم الزاهرة ٣ / ٣١٥ .

(١) انظر معجم الأدباء ٥ / ٨٩ والنجوم

الزاهرة ٣ / ٨٣ والفهرست ص ١٧٠ .

(٢) راجعه في الفهرست ص ١٢٢ ومعجم

الأدباء ٢ / ٢٦ .

(٣) انظر ترجمته في تاريخ بغداد

٢ / ١٦٢ ومعجم الأدباء ١٨ / ٤٠ وتذكرة

كتب تاريخية مختلفة ، وهى تندفق بحموية جمّة ، إذ أخذ نفسه بالطواف فى البلدان الإسلامية فى الشام وإيران والهند وزنجبار ومصر والبلاد البعيدة الخارجة عن عالم الإسلام حول بحر الخزر وركب المحيط الهندى والهادى إلى الصين فى رفقة التجار ، فأتسعت مداركه ، ومن أهم كتبه التاريخية مروج الذهب ، طُبع فى باريس ثم فى مصر ويبروت طبعات مختلفة ، وهو يبدأ فيه بتاريخ الخليقة منذ نشأتها ويتحدث عن الأمم القديمة وبلدانها ومشاهداته فيها ، ثم يوجز السيرة النبوية ، حتى إذا انتهى منها أخذ يتحدث عن الخلفاء خليفة خليفة حتى المطيع لله سنة ٣٣٦ وله كتاب التنبيه والإشراف وهو موجز تاريخى ، وطُبع له بمصر الجزء الأول من كتابه أخبار الزمان .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نجد كتباً خاصة ببعض المدن مثل أخبار أهل البصرة لأبى زيد عمر بن زائدة المتوفى سنة ٢٦٤ وتاريخ واسط لأسلم بن منهل بن زياد المتوفى سنة ٢٨٨ وتاريخ أصبهان لابن منده الأصبهانى المتوفى سنة ٣٠١ وتاريخ الموصل لأبى زكريا يزيد بن محمد الأزدى المتوفى سنة ٣٣٤ وأهم من هذه الكتب جميعاً تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر الملقب بطيفور المتوفى سنة ٢٨٠ وهو من مصادر تاريخ الطبرى ، وقد نشر كلر Keller الجزء السادس منه . وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول مدى اهتمام مؤرخى العصر بالأنساب والأيام ، وظل ذلك بعدهم مستمراً إذ نرى ابن الأثير يعنى فى شرحه للمفضليات بالأيام عناية واسعة ، ولزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ كتاب ضخيم فى نسب قريش وأخبارهم ، نشر منه بالقاهرة محمود أحمد شاكر مجلداً كبيراً . وألفت فى العصر كتب كثيرة فى رجال الحديث للبخارى وغيره ، وانتقل التأليف فى الرجال إلى التأليف فى الشعراء ، فألف ابن قتيبة كتابه « الشعر والشعراء » وألف ابن المعتز كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » وهما منشوران ، وألف يحيى بن على بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٣٠٠ كتابين مفقودين هما البارع فى أخبار الشعراء المولدين والباهر فى أخبار الشعراء المخضرمين من بشار إلى مروان أبى حفصة . وألفت كتب فى الوزراء وكتّاب الدواوين مثل كتاب الوزراء والكتّاب لمحمد بن عبدوس الجهمشيارى المتوفى سنة ٣٣١ وهو مطبوع . وأفردت كتب لأخبار العباسيين وأشعارهم مثل كتاب

الأوراق لمحمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ وقد نشر منه المستشرق دان (Dunne) أخبار الشعراء المحدثين وهو تراجم لطائفة منهم ، ونشّر منه أيضاً أخبار الراضى المتقى ، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو كتاب جدير بالتحقيق والنشر . وأخذوا يهتمون بالسيرة الفردية ، فألف أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٢ كتاباً فى سيرة عمر بن عبد العزيز طُبِعَ بالقاهرة ، وألف بمصر أبو جعفر أحمد بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ كتاباً فى سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه . وعلى هذا النحو نشط التأليف فى التاريخ لهذا العصر نشاطاً واسعاً ، فمن تأليف فى السير إلى تأليف فى الطبقات وتأليف فى الأمم والدول وتأليف فى المدن ، وكادوا لا يتركون فى التاريخ جانباً إلا رصدوه وسجلوه ودوّنوه .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه

معروف أن القرآن الكريم حُمل عن الرسول صلى الله عليه وسلم تلاوةً ومشافهةً ، واشتهر بتلاوته قُرّاء مشهورون منذ الصدر الأول فى مقدمتهم الخلفاء الراشدون وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعرى وغيرهم من جلة الصحابة أمثال عبد الله بن عباس ، وخلفتهم أجيال من التابعين فى كل بلد إسلامى ، كلهم يحافظون على تلاوته بجميع حروفه وحركاته كما أثرت عن الرسول الكريم ، وأخذوا يُعَدُّون بالعشرات ، وأخذ يتبع كل قارئٍ منهم تلاميذ يلازمونه ويأخذون عنه قراءته بأدق صورة ممكنة ، وفى الوقت نفسه أخذ قُرّاء مؤثّقون يروون قراءات عن ابن مسعود إمام أهل الكوفة أو عن على بن أبى طالب أو عن غيرهما من جلة الصحابة ، فتكاثرت القراءات ، حتى لنجد أبا عبيد القاسم بن سلام يؤلف كتاباً يحتوى على أكثر من عشرين قراءة .

ونمضى بعده إلى العصر العباسي الثاني ، فتستمر القراءات في كثرتها ، وتبدو الحاجة واضحة إلى عالم بالقراءات يختار منها طائفة تذيب وتنتشر في العالم الإسلامي ، ويؤكد الحاجة إلى ذلك أن بعض القُرَّاء كان لا يجد حرجاً في القراءة بشواذ منها متناهية في الشذوذ^(١) ، وحينئذ تجرّد للنهوض بهذه المهمة الخطيرة أبو بكر أحمد^(٢) ابن موسى بن مجاهد التميمي إمام القُرَّاء ببغداد منذ سنة ٢٩٠ فأكبَّ على القراءات وكتبها المصنفة ، واستخلص منها سبعاً هي قراءات نافع في المدينة وعبد الله بن كثير في مكة وعاصم وحزمة والكسائي في الكوفة وأبي عمرو بن العلاء في البصرة وعبد الله بن عامر في دمشق ، اتخذها إماماً للناس ، وألف في ذلك كتابه السبعة ، وكل من يراجعه يرى الجهد الهائل الذي أدّاه عن علماء القراءات في عصره ، فكل إمام من السبعة تُدَكَّرُ الطرق التي روى بها ابن مجاهد قراءته ، وينص في الكتاب على الاختلاف بين الطرق للإمام الواحد فضلاً عن الطرق مجموعة لكل الأئمة . وانبرى من بعده تلميذه أبو علي الفارسي لكتابة شرح على هذا المصنف : « السبعة » يحتاج فيه لوجوه القراءات المبثوثة به وجهاً ووجهاً ، سماه كتاب الحجة . وألف ابن مجاهد كتاباً ثانياً في شواذ القراءات ، عني ابن جني بشرحه على نحو ما عني أستاذه أبو علي الفارسي بشرح السبعة ، سماه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . ونما تفسير القرآن الكريم في هذا العصر نمواً واسعاً ، واتضح فيه اتجاهات أربعة سيطرت على اتجاهاته في العصور التالية ، هي اتجاه التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى أو التفسير الاعتزالي ، والتفسير الشيعي ، والتفسير الصوفي ، أما التفسير بالمأثور فقد بلغ القمة المرجوة التي كانت تنتظره عند محمد بن جرير الطبري ، إذ استطاع أن يجمع في تفسيره عن طريق الروايات المسندة كل ما أثر

يصحّف بعض الكلمات ويستخرج لها وجوهاً ظنية . وكل منهما ناظره ابن مجاهد واعترف بخطئه وتوبته من صنيعه بخضرة القراء والفقهاء .

(٢) انظر في ترجمة ابن مجاهد طبقات القراء لابن الجزري ١/١٣٨ وطبقات الشافعية ٣/٥٧ والنجوم الزاهرة ٣/٢٥٨ .

(١) انظر في ذلك مقدمتنا لكتاب السبعة لابن مجاهد (طبع دار المعارف) حيث أوضحنا هناك موقف ابن مجاهد من معاصره ابن شنيذ لقراءته حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، وكذلك موقفه من ابن مقم المطار لقراءته حروفاً تخالف الإجماع وإن كانت موافقة لخط المصحف العثماني ومعروف أنه لم يكن منقوفاً ، فكان

عن التابعين والصحابة في تفسير الآي القرآنية . وكان الصحابة يحملون كل ما ذكره الرسول من تفسير لبعض آياته وبعض كلماته . وتفسير الطبرى من هذه الناحية يمكن أن يُستخلص منه تفسير الرسول عليه السلام ، وكذلك من عرفوا بكثرة التفسير من الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وابن مسعود وتلاميذهما من مثل مجاهد وعكرمة . وما يلاحظ عنده أنه لم يتوسع في حتمل الإسرائيليات ، إذ كان يرى أنه لا غناء فيها وخاصة في التفاصيل التي لا يضر الجهل بها ، كسألة المائدة التي أنزلت على عيسى في سورة المائدة في الآيات ١١٢ إلى ١١٥ فإنه وجد عند أصحاب الإسرائيليات من يتحدثون عما كان عليها من طعام هل كان سمكاً أو خبزاً أو ثمرأ من ثمار أهل الجنة فقال إن العلم بذلك غير نافع ، وبالمثل الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف إذ باعه لإخوته (بثمن بخس دراهم معدودة) فقد وجدهم يتساءلون عن عدد الدراهم . هل كانت عشرين أو اثنين وعشرين أو أربعين ، فأضرب عن ذلك قائلاً إنه « ليس في العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع في دين . . . والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه » . ودائماً يذكر مع كل آية القراءات المختلفة فيها ، ويعرض لمعنى الكلمات من الوجهة اللغوية ويستشهد عليه بالأشعار الجاهلية والإسلامية ، وكثيراً ما يفضل شرح معنى للفظ على شرح معنى آخر . وكان يأخذ بفكرة حرية الإرادة التي أخذ بها المعتزلة ، ولكنه لم يتعصب لهم ، بل جادلهم في بعض آرائهم وردّها عليهم من مثل رأيهم في الرؤية البصرية لله وتأويلهم لها ويعلن مراراً أنه يقف مع السلف كما في الآية رقم ٧٤ من سورة البقرة وأنه يحسن أن يراعى المفسر المعنى الظاهر للفظ بدون تأويل ، والأساس الذي لا محيد عنه هو عرض أقوال الصحابة والتابعين وعلماء الأمة لتبين معاني التنزيل الصحيحة الدقيقة .

ومنذ القرن الثاني يرجع المعتزلة إلى القرآن مفسرين مستشهدين ومتمثلين ، محتكمين إلى عقولهم ، ومحاولين أن يطابقوا بينه وبين آرائهم ، وأداهم ذلك إلى أن يحملوا منذ أول الأمر على أصحاب التفسير بالمأثور الذين كانوا يقفون أحياناً مع ظاهر الآيات . وكانوا أحياناً لا يحكمون عقولهم فيما يسمعون ، فيروون غرائب لا يصدقها العقل السليم ، وفي الجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ حملات شعواء للنظام

على أمثال هؤلاء المفسرين ، وكان طبيعياً ألا يقفوا عند تفسير آيات بعينها تخالف آراءهم الاعتزالية ، بل يحاولوا بسط هذه الآراء في تفسير القرآن جميعه ، وأول تفسير عندهم هو تفسير أبي بكر الأصم المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث وتفسيره مفقود ، وأهم منه تفسير أبى على الجبائى محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٠٣ ، وهو بيد بعض المحققين بالقاهرة فى سبيل نشره ، ولا بد أنه يمتلىء بالتأويلات الاعتزالية ، ولا ريب فى أن الزمخشري انتفع به فى تفسيره انتفاعاً كبيراً .

وتأويلات المعتزلة لآى الذكر الحكيم إنما كانت تأويلات عقلية ، وكان وراءهم فريقان يؤولان القرآن تأويلات اعتقادية ، وهم الشيعة والصوفية ، وكان الشيعة يخرجون عن ظاهر القرآن ملتزمين تأويلات بعيدة ، إذ يذهبون إلى أن لفظاً بعينه يُقصدُ به على أو غيره من أئمتهم وأن لفظاً آخر يقصد به خصم من خصومهم ، وصور ذلك ابن قتيبة عنهم . فقال إن منهم من يزعم أن الحبس والطاغوت فى الآية رقم ٦٠ من سورة النساء هما معاوية وعمرو بن العاص^(١) . ونسبوا لأئمتهم تفسيرات مبكرة ، فى مقدمتها تفسير نسبوه إلى جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ وتفسير ثان نسبوه إلى الحسن العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ وهو آخر الأئمة الظاهرين عند الإمامية . وتفسيراتهم من هذه الناحية تُطَبِّعُ بطابع الرواية عن أئمتهم وآل البيت بعامة . أما تأويل المتصوفة حينئذ فلم يكن يبعد عن ظاهر اللفظ بُعد التفسير الشيعى ، إذ كان كل متأربه أن يوضح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصوفية ، وربما كان أقدم تفسير لهم هو تفسير سهل التستري المتوفى حوالى سنة ٢٨٣ ونراه فى آية سورة النور : (الله نور السموات والأرض - إلى قوله : والله بكل شىء عليم) يجعل النور المحمدى فى سابق الأزل أساساً للآية . وكأن سهلاً سبق الحلاج فى فكرة النور المحمدى الأزل .

وقد عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول لتطور منهج التأليف فى الحديث النبوى وأنه بدأ بتصنيفه على أبواب الفقه غالباً ، وأن خير ما يصور هذه الطريقة

(١) انظر تفسير غلاة الشيعة فى كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٤ .

كتاب الموطأ لمالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ثم نشأت طريقة ثانية توزع فيها الأحاديث على روايتها من الصحابة ، فتجمع الأحاديث مثلاً التي رواها أبو هريرة بدون نظر إلى اختلاف موضوعاتها الفقهية ، فالأساس وحدة الصحابي لا وحدة الموضوع ، على نحو ما هو معروف عن مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ ، وظل محدثون يؤلفون على هذه الطريقة حتى نهاية هذا العصر مثل أبي عبد الله محمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤ وتوجد من مسنده مخطوطتان بمكتبة دار الكتب المصرية . وأخذت تقرن بهذه الطريقة سريعاً طريقة ثانية هي امتداد للطريقة الأولى آتفة الذكر ، وكأنما رأوا أن الإفادة من طريقة المساند يكتنفها غير قليل من الصعوبة إذ لا بد لمن يريد الاطلاع على حديث ، لراوٍ من الصحابة في مسألة من مسائل الفقه ، من قراءة كل ما له من أحاديث ، وكانت دراسات الفقه نمت حيث شد واجتاج الفقهاء إلى الاطلاع سريعاً على بعض الأحاديث للاحتجاج بها في كتبهم وضد مجادلهم ، وأول مصنف وصلنا من هذه الطريقة هو مصنف عبد الله بن محمد بن أبي شعبة المتوفى سنة ٢٣٥ ، ثم ألفت مصنفاتها الستة المشهورة ، وهي الجامع الصحيح للبخاري المتوفى سنة ٢٥٦ والصحيح لمسلم المتوفى سنة ٢٦١ والسنن لابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ وسنن أبي داود المتوفى سنة ٢٧٥ والجامع للترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ وسنن النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ وتعدّ أصح كتب الحديث المؤلفة لا في هذا العصر وحده بل في جميع العصور . ولم يكن الاعتماد في هذه المصنفات وما يماثلها على دراسة الكتب ، وإنما كان الاعتماد على الرواية ولقاء الرجال ، مما جعل المحدثين يرحلون إلى الأمصار الإسلامية المختلفة يجمعون من هنا وهناك ما تفرق من الأحاديث على نحو ما هو معروف عن البخاري في تطوافه بأكثر مدن خراسان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر . وظل المحدث الكبير يعتمد على حافظته في إملائه الأحاديث ، وكانوا إذا نزلوا بلدًا ربما تعرضوا لامتحان العلماء لهم كي يعرفوا مدى حفظهم ، ويُسْحَكى عن البخاري أنه قدم بغداد ، فاجتمع أصحاب الحديث ورأوا اختباره فعمدوا إلى مائة حديث ، قلبوا متونها وأسانيدها بأن جعلوا الإسناد مع غير متنه ، واجتمع الناس ، فألقوها على البخاري ، فأنكرها حديثاً حديثاً ، حتى إذا فرغوا أخذ يرويها راداً كل متن إلى إسناده ، وله في

ذلك حكايات أخرى عجيبة^(١). ومن طريف ما يروى في هذا الجانب أن أبا داود صاحب السنن المذكور آنفاً كان له ابن من حفاظ الحديث هو عبد الله قدم سجستان ذات مرة ، فسأله أن يحدثهم ، فقال لهم : ليس معي أصل ، فقالوا متعجبين : ابن أبي داود وأصول ! وأثاروه ، فأملئ عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظه ، وعاد إلى بغداد فوجد المحدثين يذكرون قصته مع غير قليل من الرتبة ، ولم يلبثوا أن أرسلوا إلى سجستان من يكتب لهم نسخة من الأحاديث التي أملاها ، فكتبت وجرى بها ، وعرضت على الحفاظ ، فخطأوه في ستة أحاديث ، منها ثلاثة حدث بها كما سمعها ، وثلاثة أخطأ فيها ، وكأنه لم يخطئ في كل عشرة آلاف حديث إلا في حديث واحد^(٢).

ولا بد أن نقف قليلاً عند البخاري ومسلم لنرى مبلغ دقتهما في رواية الحديث ورفضهما لضعفه ، أما البخاري^(٣) محمد بن إسماعيل فقد أمضى ستة عشر عاماً يجمع صحيحه من أفواه الرواة الثقات في مختلف الأمصار ، وكل حديث معه سنده من زمنه إلى زمن الصحابي راويه الأول ، وهو يدرس ويفحص ، حتى لا يروى إلا الحديث الصحيح الذي لا يترقى إليه شك ، يفحص المتن ويفحص الرواة ليعرف المتهم من الوثيق عقيدة وقوة حافظة وخلوا من شوائب الكذب والغفلة ، ولذلك كان طبيعياً أن يؤلف تاريخه الكبير في الرجال ، ويروون عنه أنه كان يقول : « قلّ اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة » وكان عفاً للسان لا يشتد في تجريح المتهمين من الرواة ، بل يكتفي بمثل قوله : « فيه نظر » أو « سكتوا عنه » أو « هو منكر الحديث » . وجمع في صحيحه - كما يقول ابن حجر في مقدمته لشرحه عليه - ٧٣٩٧ حديثاً وإذا أضفنا إلى ذلك الأحاديث التي استأنس بها بلغت أحاديثه ٩٠٨٢ ، ويقال إنه انتخبها من نحو مائتي ألف حديث محكّماً في انتخابه شروطاً غاية في الشدة ، حتى يحيطها بأقوى سياج من الصحة والثقة ، وأول شروطه

وكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم

(طبع حيدر آباد) ق ٢ ج ٣ ص ١٩١

وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة

محمد محي الدين عبد الحميد) ٣ / ٣٢٩ .

(١) طبقات الشافعية ٢ / ٢١٨ .

(٢) السبكي ٣ / ٣٠٨ .

(٣) انظر في ترجمته تهذيب التهذيب

٤٧ / ٩ وشذرات الذهب ٢ / ١٣٤ وطبقات

الحنابلة بن أبي يعلى (طبع القاهرة) ١ / ٢٧١

أن يكون الإسناد متصلاً ، فلا يسقط من رواته أحد ، وأن يكون كل راو مسلماً ، معروفاً بالصدق ، وعدم التدليس والتخليط ، عدلاً ، ضابطاً ، حافظاً ، سليم الذهن ، قليل الوهم ، سليم الاعتقاد ، وكان يرى أن رواة كل إمام من أئمة الحديث يختلفون في درجة الصلة به . فأصحاب الدرجة الأولى من لازموه في السفر والحضر ، ووراءهم من لم يلزموه سوى مدة قصيرة ، واشترط في رواة أسانيدهم أن يكونوا من أصحاب الدرجة الأولى ، وبذلك اشترط في الراوى المشافهة والملازمة . وقد يقال إن في الصحيح أحاديث لا يتصل فيها الرواة يريدون التي ذكرت — كما قدمنا — للاستئناس فقط ، وقد أخرجها ابن حجر في عده لأحاديث الكتاب كما مرّ آنفاً وكتاب الجامع الصحيح يبدأ بالحديث عن الوحى والإيمان وتتوالى كتب الفقه وأبوابه ، ويقحم عليها أبواباً أخرى كحديثه عن بدء الخلق والجنة والنار وتراجم الأنبياء ومناقب قريش وفصائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والمغازي والأطعمة والأشربة والأدب وتعبير الرؤيا . وختمه بكتاب التوحيد . وهو موزع على ٩٧ كتاباً تشتمل على ٣٤٥٠ باباً وبعضها فيه أحاديث كثيرة وبعضها فيه حديث واحد ، وقد يوضع عنوان الباب دون كتابة شيء تحتها ، وكأنه كان ينوى أن يكتب فيما بعد تحتها بعض الأحاديث وعاجله الموت . ومعروف أن الكتاب لم يكن قد وُضع في صورته النهائية . وهو يُعَدّ بحق أصحّ كتب الحديث إذ تحرّى البخارى في جمعه تحريماً ليس له سابقة ولا لاحقة في تاريخ مصنفات الحديث ، باذلاً جهداً عنيفاً تنقطع دونه الأمانى .

وأما مسلم فهو مسلم^(١) بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ وصحيحه مثل صحيح البخارى في الثقة والمنزلة ، وقد روى أكثر أحاديث البخارى ولكن بطرق أخرى غير طرق أسانيدهم ، ورتبه على كتب الفقه وأبوابه كما صنع البخارى ، ولكنه لم يستكثر منها مثله . وزاد في مقدمة صحيحه يذهب إلى أن الأحاديث ثلاثة أقسام : قسم رواه الحفاظ المتقدمون لا يرفقنى إليه الشك . وقسم رواه المستورون المتوسطون في الحفاظ وهو يهبط درجة عن سابقه ،

١٦٧/٢ ورواة الجنان لليافى ١٧٤/٢
ومقدمة النوى بشره عليه .

(١) انظر في مسلم تاريخ بغداد ١٠/١٣
وتذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد)

وقسم رواه الضعفاء والمتركون ، ويقول إنه إذا فرغ من رواية القسم الأول أتبعه القسم الثاني ، أما القسم الثالث فإنه يهمله ولا يعرج عليه . وتصريحه بأنه يروى من القسم الثاني جعل المحدثين من قديم يضعون صحيحه في منزلة دون منزلة صحيح البخارى ، بل إن منهم من حمل عليه مثل أبى زرعة^(١) الرازى . على أن هناك من قدما على صحيح البخارى^(٢) لأنه أدق منه تأليفاً ، وساد ذلك خاصة بين حفاظ المغرب فكانت كثرتهم تفضله على صحيح البخارى . والحق أنه لا يفضل من وجهة التوثيق الخالصة ، لسبب مهم ، وهو أن البخارى اشترط في الرواة الملازمة في السفر والحضر لمن يروون عنهم ، في حين تخفف من ذلك مسلم ، فاكثرت بالمشافهة والمعاصرة ولم يطلب الملازمة . وبما لا ريب فيه أن صحيح مسلم مع ذلك يُعَدُّ في الذروة من التوثيق ، إذ كان دقيقاً غاية الدقة ، حتى إنه ليذكر الفروق بين روايات الحديث ، ولو كانت حرفاً ، وكان على علم لا يبارى في معرفة رجال الحديث المؤثمين والمتهمين . وذكروا أن عدد أحاديثه نحو ٧٢٧٠ حديثاً . وهو مع صحيح البخارى أعلى كتب الحديث منزلة وأوفرها حظاً من الصحة والتوثيق ويليها الكتب الأربعة التي سميناهم آنفاً والتي يطلق عليها معهما اسم كتب الصحاح الستة ، وهي سنن أبى عبد الله محمد بن يوسف بن ماجه^(٣) القزوينى وقد اشتهر برحلاته الكثيرة في ديار الإسلام ، وتُعدُّ هذه السنن أضعف كتب الصحاح الستة لأن ابن ماجه ضمنها كثيراً من الأحاديث الضعيفة ، ويقال إنها لم توضع في سلك الكتب الستة إلا منذ المائة السادسة للهجرة ، والكتاب الثانى سنن أبى داود سليمان^(٤) بن الجارود بن الأشعث الأزدي السجستاني ، ولم يسلك فيها غير أحاديث الفقه والتشريع ، ولعله لذلك حظى بتقدير رفيع بين المحدثين . وثالث الكتب الجامع لأبى عيسى محمد^(٥) ابن عيسى بن سهل الترمذى وقد عُني فيه بأحاديث الأحكام وذكر معها من احتج بها من أهل المذاهب . ولذلك كان الكتاب يفيد فائدة جليلة مَنْ يُعْنُون

ورآة الجنان لليافى ١٨٩/٢ وطبقات

الشافعية ٢٩٣/٢ .

(٥) انظر تذكرة الحفاظ ١٨٧/٢ والتهذيب

لابن حجر ٣٨٧/٩ وميزان الاعتدال

١١٧/٣ والأنساب للسمعاني الورقة ١٠٦ .

(١) تاريخ بغداد ٢٧٤/٤

(٢) طبقات الشافعية ٢٧٦/٣ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٢

(٤) انظر في ترجمة أبى داود تاريخ

بغداد ٥٥/٩ وتذكرة الحفاظ ١٦٧/٢

بدراسة الخلاف بين الفقهاء. ورابع الكتب سنن أبي عبد الرحمن أحمد^(١) بن شعيب ابن علي النسائي ، وقد عني فيه بصيغ ونصوص في المعاملات ، كما عني برواية أحاديث الاستعاذات والأدعية التي تقال في الصلاة . وبجانب هذه الصحاح الستة ألفت كتب أحاديث مختلفة في العصر ، كما ألفت كتب مختلفة في الرجال أى رواية الحديث ، من أهمها تاريخ البخارى الذى أشرنا إليه ، ويلحقه في الأهمية كتاب التاريخ الكبير لأبى بكر أحمد ابن أبى خيثمة زهير بن حرب تلميذ ابن حنبل المتوفى سنة ٢٧٩ وفيه تحدث عن تعديل الرواة وتجريحهم . وعُنيت البيئات الشيعية بأن يكون لها حظ في الاهتمام بالحديث ، ومن أهم الكتب التي صنفها كتاب جامع لأحاديث الإمامين : جعفر الصادق وموسى الكاظم ، جمعه أبو العباس عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع الحميرى القمى في أواخر القرن الثالث الهجرى . وواضح من ذلك كله مدى النشاط الذى نهض به المحدثون في تأليف كتب الحديث لهذا العصر ، ويكفى أنه ألفت فيه كتب الصحاح الستة التي شغلت المحدثين بالتعليق والشرح والتفسير طوال العصور الماضية .

وكان هذا العصر متمماً للعصر العباسى الأول في نشاط الدراسات الفقهية والتشريعية ، وقد رأينا هناك كيف أن المذاهب الفقهية الأربعة تكونت نهائياً ، وظل الاجتهاد نشيطاً ، فالفقهاء يجتهدون ويتناظرون ويختلفون ويكثرون من التأليف والمصنفات ، وتظهر مذاهب ثانوية لا يُكتسب لها البقاء ، سوى مذهب داود الظاهرى ، ولكن ظهورها يحمل الدلالة الواضحة على حرية الاجتهاد الفقهى حينئذ وأن أبوابه كانت مفتوحة على مصاريعها . وكان طبيعياً أن يصبح لكل مذهب مجموعة كبيرة من أساتذته وشيوخه يذيعونه في العالم الإسلامى ، ومن أهمهم في المذهب الحنفى أبو بكر أحمد^(٢) بن عمر الشيبانى الخصاص المتوفى سنة ٢٦١ وله كتاب أحكام الوقف وهو منشور بالقاهرة وكتاب الحيل والمخارج في الفقه ، وهو منشور في هانوفر والقاهرة . ولا يقل عنه أهمية في هذا المذهب أبو جعفر

(٢) انظر في الخصاص الجواهر المضية

لابن أبى الوفاء ٨٧/١ والفوائد الجيبة

لكنوى ١٧ .

(١) انظر في تذكرة الحفاظ ٢٧٦/٢

والتهذيب لابن حجر ٣٦/١ ومرتبة الجنان

لليافى ٢٤٠/٢ وشذرات الذهب ٢٢٩/٢

والسبكى ١٤/٣

أحمد^(١) بن محمد بن سلامة الحنجري الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ وقد انتهت إليه بمصر رئاسة أصحاب أبي حنيفة ، وهو الذى نشر بها المذهب وعمل على إذاخته ، وله معانى الآثار ، وهو منشور فى جزأين بمدينة لكنو وكتاب مشكل الآثار وهو منشور بحيدر آباد ، ولا تزال له كتب كثيرة غير منشورة أحصاها بروكلمان . وقد حمل المذهب المالكي عن مؤسسه مالك بن أنس كثيرون فى مصر والمغرب والأندلس ولعل من فقهاء المذهب فى هذا العصر عبد السلام^(٢) بن سعيد بن حبيب التنوخي المشهور باسم سحنون القيرواني المتوفى سنة ٢٤٠ وهو الذى نشر المذهب فى المغرب ودفعه إلى أن يشيع فى جميع أرجائها ، وله فيه مصنفه الذى ظل اسمه يدوى هناك منذ ظهوره ، وهو المدونة الكبرى التى لا تزال تتخذ المرجع الأساسى بتلك الديار لتعليم الفقه المالكي وتدرسه ، وقد نُشرت بالقاهرة من قديم ، ونشرت لها شروح مختلفة . وقد خلف الشافعى وعمل على نشر مذهبه وعنى بالتصنيف فيه كثيرون فى مقدمتهم تلاميذه المصريون : البويطى والربيع المرادى ، وأهم منهما المُرزى^(٣) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ ناصر المذهب وبدرسمائه كما يقول السبكى ، وله مختصر من علم الإمام النفيس محمد بن إدريس ظل الشافعية يتدارسون طويلا ، وفيه يقول أبو العباس أحمد بن سريج المتوفى سنة ٣٠٦ أكبر أئمة المذهب لأواخر القرن الثالث الهجرى الذى انتشر منه فى أكثر الآفاق^(٤) :

لَصِيقُ فَوَادَى مِنْدَ عَشْرِينَ حِجَّةً وَصَيْقَلُ ذَهْنٍ وَالْمَفْرَجُ عَنْ هَمِّ
جَمْعٍ لَأَصْنَافِ الْعُلُومِ بِأَسْرَها فَأَخْلَقَ بِهِ أَنْ لَا يَفَارِقَهُ كُمِّ
وَطِيعُ هَذَا الْمُخْتَصِرِ عَلَى هَامِشِ كِتَابِ الْأَمِّ لِلشَّافِعِيِّ . وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
قَدْ تَتَلَمَذَ لِلشَّافِعِيِّ ثُمَّ اسْتَقْلَلَ بِمَذْهَبِ فَقْهَيْهِ خَاصَّ اعْتَمَدَ فِيهِ عَلَى الْحَدِيثِ
النَّبَوِيِّ ، وَبِذَلِكَ عُدَّ مَذْهَبِهِ مِمَّا لِأَهْلِ السَّنَةِ ، وَمِنْ أَهْمِ أَتْبَاعِهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ

الجنان لليافى ١٥١/٢ .

(٣) انظره فى وفيات الأعيان وشذرات الذهب

١٤٨/٢ والأنساب للسماى ٥٢٧ و مرآة

الجنان لليافى ١٧٧/٢ والنجوم الزاهرة

٣٩/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٩٣/٢ .

(٤) السبكى ٣١/٣ .

(١) راجعه فى الجواهر المضية ١٠٢/١

وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٩/٣ والأنساب

للسماى ١٥٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر

٥٤٢/٢ والنجوم الزاهرة ٢٣٩/٣ .

(٢) انظره فى الديباج المذهب لابن فرحون

(طبع فاس) ١٧١ وابن خلكان و مرآة

أبو القاسم عمر^(١) بن الحسين بن عبد الله الخرقى المتوفى سنة ٣٣٤ ، وله في الفقه الحنبلى كتاب المختصر في الفقه ، طُبِعَ في القاهرة بشرح عبد الله بن أحمد ابن قدامة أكبر أئمة المذهب الحنبلى في القرن السابع الهجرى .
وهيأ الاجتهاد الفقهي الواسع في هذا العصر لظهور مذاهب فقهية وراء المذاهب الأربعة الكبرى ، برز منها خاصة المذهب الظاهرى نسبة إلى أبى سليمان^(٢) داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ ، وكان يتبع في أول أمره مذهب الشافعى ويتعصب له ، ثم أسس له مذهبا عُرف بمذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب يقوم على إنكار القياس في الدين ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ، ويكفى لبيان الأحكام ما في القرآن والحديث من عموم . ومن أجل ذلك كان يرى الوقوف عند ظاهر الكتاب والسنة وعدم فتح الأبواب للقياس والآراء التى تنبثق عنه . وفى رأينا أن ظهور هذا المذهب يُعَدُّ إشارة واضحة في العصر إلى بروز نزعة محافظة قوية في دراسات الفقه وفى الأدب والشعر ، وقد كُتِبَ له أن يذيع في الأندلس والمغرب فيما بعد ، وأن يتحسَّس له فقهاء ناهيون مثل ابن حزم ، بل أحياناً دول مثل دولة الموحدين في الأندلس والمغرب .

٥

الاعتزال وانبثاق المذهب الأشعرى

مرَّ بنا في كتاب العصر العباسى الأول كيف نشأ الاعتزال ونما وازدهر وكثر أعلامه وأتباعه ، وكيف أحوالوا البصرة وبغداد إلى ساحتين كبيرتين للجدال في المسائل العقيدية والدفاع عن الدين الحنيف وكل ما اتصل به من توحيد الله وحقائق النبوة والثواب والعقاب في الآخرة ، ولم يكونوا يوجهون دفاعهم إلى أصحاب المال والنسحل الأخرى فحسب ، بل أيضاً إلى المجبرة والمرجئة والشيعة الغالية ، ونازلوا الدهريين

والسبكي ٢٨٤/٢ والياقنى ١٨٤/٢

والنجوم الزاهرة ٤٧/٣ وشذرات الذهب

١٥٨/٢

(١) طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٣٣١

والأنساب للسمعاني ١٩٥ وتاريخ بغداد

٢٣٤/١١ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣ .

(٢) انظره في تاريخ بغداد ٣٦٩/٨

والمناويين الشنّويين نزلاً عنيّفاً . وكانت مناظراتهم لهذه الفرق لا تتوقف يوماً ، والناس يتجمعون حولهم في المساجد يسمعون ويتفرجون ، وقد جذبوا الشباب إليهم ، بحيث كانت حلقاتهم أكبر الحلقات وأوفرها سامعين . وقد عكفوا على الثقافات والمعارف الأجنبية يتزودون بها ، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق ، وسرعان ما كوّنوا لأنفسهم مذهباً ضخماً تميز بأصوله الخمسة المعروفة ، وهي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلي المؤمن والكافر . وأخذوا على هدى ثقافتهم يتعمقون في مسائل الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وإذا أتمتهم ينفذون إلى آراء جديدة كل الجدة في البحوث الطبيعية والفلسفية والإلهية ، بل إن منهم من استطاع أن يكون له فلسفة مستقلة ، فذلك فلسفة واصلية نسبة إلى واصل بن عطاء المتوفى لآخر العصر الأموي ، وهذه فلسفة بشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر أو ثُمّامية نسبة إلى ثُمّامة بن أشرس أو هُدَيْلية نسبة إلى أبي الهذيل أو نظّامية نسبة إلى النظّام . وعلى هذا النحو لم يتكوّن للاعتزال أئمة أو باحثون ممتازون فقط بل تكوّن له هؤلاء الفلاسفة في العصر العباسي الأول ، وهو العصر الذي بلغ فيه الاعتزال الذروة المأمولة ، حتى لتصبح له السيطرة التامة على الحكم في عهود المأمون والمعتصم والواثق ، فإذا أتمته يحملون علماء الدين كرهماً على القول بخلق القرآن ، وتنشأ المحنة المعروفة ، ويُمْتَحَنُ كثير من الفقهاء ويسامون العذاب . وكان ذلك نذير شؤم ، إذ أسخطوا الفقهاء والمحدثين والناس عليهم ، وسرعان ما دالت دولتهم مع افتتاح العصر العباسي الثاني ، إذ ولى المتوكل الخلافة ولم يلبث أن أعلن إبطال القول بخلق القرآن ، واستقدم المحدثين إلى سامراء عاصمته وأجزل عطاياهم وأمرهم بالجلوس إلى الناس وإظهار السنة والأخذ بالتسليم . وكان من أثر ذلك أن اندحر المعتزلة على حين انتصر الفقهاء والمحدثون ، وأخذ كثير منهم يجرّحون المعتزلة ، وقوى نفوذهم وسلطانهم على العامة ، ولم يستطع المعتزلة بعد ذلك أن يستردوا سلطانهم .

على أن الاعتزال استمر في نشاطه ، وخاصة أن كثيرين من تلاميذ فلاسفته الذين سميناهم عاشوا في العصر العباسي الثاني ، ومنهم من طالت حياتهم فيه ،

فكان طبيعياً أن يظل له جهابذته وأن تظل له حلقاته في البصرة وبغداد ، بل إن كثيرين من المعتزلة الجدد في العصر استطاعوا أن يكونوا لهم فلسفة أو كما اصطلاح القدماء فرقة نسبت إليهم ، وفي مقدمتهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ وهو تلميذ النظام ، وكان واسع الثقافة إذ لم يترك ثقافة أجنبية إلا اطلع عليها وخاصة الثقافة اليونانية وما يتصل بها من الفلسفة الطبيعية والمنطق ، وقد ظل يدافع عن المعتزلة ويجادل خصومهم جدالاً عنيفاً ، وله في ذلك كتاب مستقل سماه « فضيلة المعتزلة » . ويقول ابن المرتضى في كتابه طبقات المعتزلة : « إنه أغرى بشيئين : كون المعارف ضرورية والكلام على الرفضة ^(١) » والمراد الرد على الرفضة من الشيعة وبيان ما في اعتقاداتهم من فساد. ويفسر الأشعرى قوله بأن المعارف ضرورية بأنه كان يذهب إلى أن « ما بعد الإرادة فهو للإنسان بطبعه وليس باختيار ، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الإرادة ^(٢) » ويزيد الشهرستاني ذلك بياناً بقوله : « انفرد الجاحظ بمسائل منها قوله إن المعارف كلها ضرورية طباع وليس شيء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعبد كسب سوى الإرادة وتحصل أفعاله منه طباعاً » ^(٣) . ويقول البغدادي في الفرق بين الفرق . « مما نسب إلى الجاحظ قوله : « إن المعارف كلها طباع ، وهي مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم ، ووافق ثمانية ابن الأشرس في أن لا فعل للعباد إلا الإرادة ، وأن سائر الأفعال تنسب إلى العباد على معنى أنها وقعت منهم طباعاً وأنها وجبت بإرادتهم ^(٤) » . ولعل في ذلك كله ما يوضح رأيه في أن المعارف ضرورية طباع ، يريد أنها تحصل بلا اكتساب ، إنما كل ما هناك أن الإنسان يوجه إياها لإرادته ، فتحدث اضطراراً وطبيعة ومثلها أفعال الإنسان تحدث طبيعة واضطراراً ما دامت قد اتجهت إياها لإرادته ، فالمدار على الإرادة ، وما يحدث بعدها فناشي عنها ، ويقول الشهرستاني إنه : « كان يقول بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وقال باستحالة عدم الجواهر فالأعراض تتبدل والجواهر لا يجوز أن يفنى » ، ويقول أحمد أمين : « وهي عبارة

(١) انظر كتاب طبقات المعتزلة لابن

المرتضى (طبع بيروت) ص ٦٧ .

الحلي (١ / ٧٥) .

(٢) مقالات الإسلاميين ٢ / ٤٠٧ .

(٣) الملل والنحل للشهرستاني (طبع مؤسسة

الطبع) (١ / ٧٥) .

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٧٥ .

على إيجازها تدل على معان عديدة فهو يقرر فيها القوانين الطبيعية للأشياء ، فللماء وللنار ولأشياء هذا العالم كلها قوانين طبيعية لا تتخلف ، وهو يقرر المبدأ الهام الحديث وهو أن المادة لا تنعدم ، فالجوهر عنده لا يفنى وإنما تتغير الأعراض فجوهر المادة ثابت لا ينعدم ، وإنما يتحول ويتغير فيكون مرة ماء ومرة زرعاً ومرة معدناً ومرة خشبياً ، وهذه كلها أعراض طارئة على المادة ، وإن شئت فقل : إنها طارئة على العناصر الأولية التي تتكون منها المواد^(١) . وذكر الشهرستاني تكملة لنظرية الجاحظ في الطباع أنه كان يقول في أهل النار « إنهم لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون إلى طبيعتها » ، وأنه كان يقول : النار في الآخرة تجذب أهلها إلى نفسها بدون أن يدخل أحد فيها ، فهي التي تدخلهم نفسها وتخلد لهم فيها . وقد رد أبو الحسين الخياط على نسبة هذا القول إلى الجاحظ ، وقال إنه مما نسبته إليه ابن الراوندي الكذاب ، وقال إنه كذب عليه أيضاً في نسبته إليه إحالة فناء الأجساد وعدمها^(٢) . ولعل في ذلك ما ينبهنا إلى أنه يجب الاحتياط في التعرف على آراء المعتزلة وأنه يحسن استقاؤها من كتبهم الخاصة .

وعاصر الجاحظ وتلاه كثير من المعتزلة في البصرة وبغداد ، وهم يكونون في هذا العصر الطبقات السابعة والثامنة والتاسعة من كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى ، ومن أهمهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن إسحق الشحام من أصحاب أبي الهذيل ، وإليه انتهت رئاسة المعتزلة في البصرة في وقته^(٣) ، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب ، وكانا ورعين زاهدين ، ويسوق أبو الحسين الخياط في كتابه الانتصار بعض آرائهما ، ويذكر أن أولهما صنّف كتباً كثيرة في الفقه ، وأن له كتاباً في الردّ على أصحاب الرأي والقياس في الشريعة^(٤) .

ومن تلامذة جعفر بن مبشر أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذي عاش حتى نهاية القرن الثالث الهجري . وكان من أكثر المعتزلة علماً بأقوالهم

(١) ضحى الإسلام (طبع ونشر مكتبة

(٢) طبقات المعتزلة ص ٧١ .

النهضة - الطبعة السابعة) ١٣٥ / ٣ .

(٤) الانتصار ص ٨١ .

(٢) الانتصار للخياط ص ٢١ - ٢٢ .

واختلافاتهم ، وكان فقيهاً مثل أستاذه ومحدثاً مرموقاً . وله كتب كثيرة في الرد على ابن الراوندى ، نُشر منها — كما مر بنا في غير هذا الموضع — كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، وهو يدل بوضوح على سعة معرفته بآراء المعتزلة ، وكان ابن الراوندى نسب إليهم آراء كثيرة غير صحيحة ، فزيّفها وبيّن بطلانها ، ومن عجب أن نرى البغدادى في الفرق بين الفرق والشهرستانى في الملل والنحل ينسبان إليهم بعض هذه الآراء ، كما يتضح من المقارنة بين ما جاء فيهما عن الجاحظ مثلاً وما جاء في كتاب الانتصار . ويمكن من هذا الكتاب استخلاص كثير من آراء الخياط مؤلفه ، ومن آرائه المهمة ذهابه إلى أن المعدوم يُعدّ شيئاً ، محتجاً بأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه ، وبذلك عدّ الجوهر جوهرًا في العلم والعرض عرضًا في العلم ، وأطلق على المعدوم لفظ الثبوت^(١) .

وأنبه من هؤلاء المعتزلة جميعاً وأشهر أبو على^(٢) محمد بن عبد الوهاب الجبائى المتوفى سنة ٣٠٣ وهو تلميذ أبى يعقوب الشحام البصرى ، وهو وابنه أبو هاشم من معتزلة البصرة . ولعل خير ما يصور آراءه كتاب مقالات الإسلاميين للأشعرى تلميذه وفيه أنه كان يرى أن الله سبحانه لم يزل عالماً بالاشياء والجواهر والأعراض وأن الاشياء تُعلّم اشياء قبل كَوْنها وتسمّى اشياء قبل كونها وكذلك الجواهر والحركات والسكون والألوان والطعوم والأرايح والإرادات^(٣) . وكأنه في موقفه إزاء الاشياء يلتقى بالخياط في رأيه الذى مرّ بنا آنفًا ، وقد حاول بعض خصومه أن يلزهما بأنهما يقولان بأزلية الاشياء وقدم الأجسام والجواهر والأعراض ، ومن المحقق أنهما لم يقولوا بذلك إنما يريدان أزلية العلم الإلهى . ومن تمة رأى أبى على أنه كان يرى أن ما علم الله أنه يكون لا بد أن يكون . وكان يرى أن من الذنوب صغائر وكبائر ، وأن الصغائر تستحق غفرانها باجتنب الكبائر ، وأن الكبائر تُحبّط الثواب على الإيمان ، وكان يذهب إلى أن العزم على الكبيرة كبيرة والعزم على الكفر كفر^(٤) . وكان يقول إن الله خير بما

بدوى ، الجزء الخاص بالمعتزلة والأشاعرة

ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) مقالات الإسلاميين ١ / ٢٢٢ .

(٤) مقالات الإسلاميين ١ / ٣٠٥ .

(١) الشهرستانى ١ / ٧٧ .

(٢) انظر في ترجمة أبى على الجبائى وآرائه

طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٨٠ ومقالات

الإسلاميين للأشعرى في مواضع مختلفة والشهرستانى

٧٨ / ١ ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن

فعل من الخير ، وقال إن الأمراض والأسقام ليست بشرّ في الحقيقة وإنما هي شر في المجاز ، وكذلك كان قوله في جهنم إذ كان يقول إن عذابها ليس بخير ولا بشرّ في الحقيقة ، لأن الخير هو النعمة وما للإنسان فيه منفعة ، والشر هو العبث والفساد وعذاب جهنم ليس بصلاح ولا بفساد وليس برحمة ولا منفعة ، ولكنه عدل وحكمة^(١) . وكان يرى أن معنى قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض) إنما هو على سبيل التوسع ، ومعناه أنه هادى أهل السموات والأرض ، وأنهم يهتدون به كما يهتدون بالنور والضياء وقال إنه لا يجوز أن نسميه نوراً على الحقيقة إذ هو ليس من جنس الأنوار^(٢) . وكان يُجَلُّ العقل إجلالاً شديداً ، وهو إجلال كان يتابع فيه المعتزلة ، حتى لم يمكن أن نسميهم جميعاً باسم العقليين ، غير أنه مضى في الشوط إلى نهايته « فأنبت - وتابعه ابنه أبو هاشم - شريعة عقلية ، وردّ الشريعة النبوية إلى مقدّرات الأحكام ومؤقنات الطاعات التي لا يتطرق إليها عقل ولا يهتدى إليها فكر^(٣) » . ويقال إن تلاميذه حرّروا ما أملاه فوجدوه مائة وخمسين ألف ورقة ، ولم يبق من مصنفاته الكثيرة سوى تفسيره .

وأبو هاشم^(٤) الجُبَّائى عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٢١ لا يقل عن أبيه أبى على الجُبَّائى شهرة ، بل إنه يتقدمه في الشهرة وذووع الاسم ، بل لقد تحول المعتزلة في القرن الرابع الهجرى إلى مذهبه وآرائه ، مؤمنين بأنه لم يبلغ غيره في الكلام مبلغه . وأبوه هو أستاذه الذى خرّجه في المباحث الاعتزالية ، وهو يتفق معه في كثير من آرائه ، وينفرد عنه في آراء كثيرة أيضاً ، يقول ابن المرتضى : « وقد استنكر بعض الناس خلافه على أبيه ، وليست مخالفة التابع للمتبع في دقيق الفروع بمستنكر » ، وفي ذلك يقول أبو الحسن الكرخى :

يقولون بين أبي هاشم وبين أبيه خلافٌ كثيرٌ
فقلتُ وهل ذاك من ضائِرٍ وهل كان ذلك مما يَضِيرُ

والفهرست ص ٢٦١ والمثل والنحل للشهرستانى
٧٨/١ وما بعدها والفرق بين الفرق للبغدادى
(طبعة محي الدين عبد الحميد) ص ١٨٤
ومذاهب الإسلاميين لمبوى ١/ ٣٣٠ .

(١) مقالات الإسلاميين ٢ / ١٩٥ .
(٢) مقالات الإسلاميين ٢ / ١٩٢ .
(٣) الشهرستانى ٨١ / ١ .
(٤) انظر في ترجمة أبى هاشم تاريخ بغداد ١١ / ٥٥ وطبقات المعتزلة ص ٩٤

فخَلُّوا عن الشيخ لا تعرضوا لبحر تضايقُ عنه البحورُ
وإن أبا هاشم تَلُوهُ إلى حيث دار أبوه يدورُ
ولكن جَرى من لطيف الكلام - كلامٌ خفيٌ وعامٌ غزيرُ

فهو قد دار مع أبيه في آراء كثيرة ، واستقل عنه في أخرى استقلالاً ، لا يضيره ، فحبه أباه وتقديره شيء ، وحبه الحقيقة الاعتزالية وتقديره إياها شيء آخر . وأدرك الشهرستاني ما بين الأب والابن من الاتفاق ، فجمع بينهما في فصل واحد ، عارضاً فيه أولاً وجوه اتفاقهما ، ثم ذكر ما خالف فيه أبو هاشم أباه . ولعل أهم نظرية عُرف بها هي نظرية الأحوال ، وهي نظرية تنصل بصفات الله الأزلية ، ومعروف أن المعتزلة نفوها من قديم ذاهبين إلى أنها هي عين الذات الإلهية ، فالله عالم بذاته ، أى علامه هو ذاته ، وهكذا بقية الصفات ، وقال أبو علي الجبائي إن الله عالم لذاته وقادر لذاته ، وهلم جراً ، وتنبه أبو هاشم إلى فساد قول أبيه لما يترتب عليه من جعل الله علة لصفاته^(١) . فحاول النفوذ إلى رأى دقيق وهدهاء عقله إلى أن الصفات أحوال تدرك بها الذات على نحو إدراكها للدهاني الكلية ، ويوضح ذلك الشهرستاني قائلاً : « عند أبي هاشم هو عالم لذاته أى ذو حالة هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً إنما تُعَلِّمُ الصفة على الذات لا بانفرادها ، فأثبت أحوالاً هي صفات لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة ، أى هي على حياها لا تُعَرَفُ كذلك بل مع الذات ، قال : والعقل يدرك فرقاً ضرورياً بين معرفة الشيء مطلقاً وبين معرفته على صفة ، فليس من عرف الذات عرف كونه عالماً ولا من عرف الجوهر عرف كونه متحيزاً قابلاً للعرض^(٢) . وهي نظرية دقيقة ، إذ حاول بها أبو هاشم أن يلغى ما قد يُظَنُّ من نفي المعتزلة : أبى الهذيل العلاف وأضرابه للصفات الأزلية عن الله أنه ليس لها وجود مع أنها مكبرة مرددة في الذكر الحكيم ، فقد ذهب إلى أنها في حال وسطى لا موجودة ولا معدومة ، وأنها تُدْرِكُ كما تدرك الكليات بدون أن تكون هي نفسها عين الذات ، وكأنه خشي أن يؤول ذلك عند بعض الناس إلى أن تكون جواهر أو أقانيم ، فأثبت أنها أحوال ، وفي الوقت

(١) أصول الدين للبغدادى (طبعة إستانبول) (٢) الشهرستاني ٨٢/١ .

نفسه كان يرد على زميله الأشعري كما سيلي عما قليل في فكرته القائلة بأن الصفات الإلهية زائدة على الذات . ومن آراء أبي هاشم الطريفة تعليله للعقاب الأخروي إذ يقول : « إن القديم تعالى خلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن ، فلا بد أن يكون في مقابلته من العقوبة ما يزجرنا عن الإقدام على المقبّحات ، ويرغبنا في الإتيان بالواجبات ، وإلا كان يكون المكلف مُغرّياً بالقبح ، والإغراء بالقبح لا يجوز على الله تعالى ^(١) » ، وكأنّهُ تنبّه بوضوح إلى أن الغرض من العقاب التّربية وأن يَحذّر الإنسان عواقب عمله الوخيم حتى ينتهي عنه . وكان أبوه يرى أن التوبة عن الصغائر تجب سمعاً وعقلاً ، أما أبو هاشم فكان يرى أنها لا تجب إلا سمعاً ، لأن التوبة — في رأيه — إنما تجب لدفع الضرر عن النفس ولا ضرر في الصغيرة فلا التوبة تجب عنها ^(٢) . وكان أبوه يرى أن التوبة عن بعض الكبائر مع الإصرار على بعض آخر تصحّ ، أما أبو هاشم فكان يرى أنه لا تصح التوبة عن بعض الكبائر دون بعض ، فلا بد أن يتوب المذنب من جميع الكبائر توبةً فصولاً ^(٣) .

وتأميد ثان لأبي على الجبائي انفصل عنه بأكثر مما انفصل ابنه أبو هاشم ، بل لقد استطاع أن يقيم مذهباً جديداً لا يعارض به أستاذه فحسب ، بل يعارض به المعتزلة جميعاً ، إذ أقامه على التوسط بين آرائهم وآراء أهل السنة ، حتى لقد عدّه هو نفسه مذهب أهل السنة ، ونقصد أبا الحسن ^(٤) على بن إسماعيل ، سليل أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل ، المتوفى سنة ٣٢٤ ، وقد ظل على مذهب المعتزلة أربعين عاماً كان يختلف فيها إلى حلقات أستاذه أبي على الجبائي ، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن وعلم رؤية الله بالأبصار وأن الإنسان يفعل أعماله بقدرته وإرادته الخالصة ، وظل يلتقي محاضراته بالبصرة والناس يقبلون عليه إلى أن بدا له أن يتركها إلى بغداد وظل بها إلى وفاته .

وقد نُشرت له كتب مختلفة ، منها مقالات الإسلاميين التي رجعنا إليها مراراً ،

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار

بغداد ١١/٣٤٦ والفهرست ص ٢٧١

ص ٦٢٠

والجواهر المضية في طبقات الحنفية ١/٣٥٣

(٢) المصدر نفسه ص ٧٩٢

وابن خلكان وطبقات الشافعية للسيكي

(٣) المصدر نفسه ص ٧٩٤

٣/٢٥٩ والنجوم الزاهرة ٣/٣٤٧

الإسلاميين لبسوى ١/٤٨٧ .

(٤) انظر في ترجمة الأشعري تاريخ

ومنها رسالته : الإبانة عن أصول الديانة واللمع ، وهما يصوران مذهبه تصويراً دقيقاً ، وهو مذهب كما قلنا يوازن بين آراء أهل السنة ، وكل مسألة تُذكر فيها الأدلة العقلية والأدلة السمعية من الكتاب والسنة ، ونضرب مثلاً لذلك البراهين على وجود الله ، وقد اشتقها من القرآن اشتقاقاً على هذا النمط الذى ساقه الشهرستاني إذ يقول : قال الأشعرى : الإنسان إذا فكر فى خلقته من أى شىء ابتداءً ، وكيف دار فى أطوار الحلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الحلقة ، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقه ، ويبلغه من درجة إلى درجة ويرقاه من نقص إلى كمال — عرف بالضرورة أن له صانعاً قادراً عالماً مريداً ، إذ لا يتصور صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار فى الفطرة وتبين آثار الإحكام والإنقان فى الحلقة^(١) ، وواضح أنه يستلهم فى هذا البرهان ما جاء فيه من أطوار خلق الإنسان وتحوله من نطفة إلى علقة فضضة فعظام فكسوة من لحم ، ثم أطواره فى حياته . وإذا عرض مثلاً لبيان أن الله لا يشبهه شىء أدلى بالبرهان العقلى ثم أتبعه بالبرهان السمعى من مثل قوله تعالى : (ليس كمثله شىء) . وعلى هذه الشاكلة دائماً يسوق الأشعرى مع الأدلة العقلية الأدلة السمعية . وقلنا آنفاً إن مذهبه وسط بين مذهبي المعتزلة والمحدثين ، وقد تابع الأولين فى تنزيه الذات العلية عن التشبيه وكل ما يتعلق بالتجسيد ، وأخذ بقول المحدثين فى أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة ، مستدلاً على ذلك بأدلة سمعية أوضحها فى رسالته « الإبانة » أيضاً تاماً وبأدلة أخرى عقلية أوضحها فى « اللمع » . وتوسط بين المعتزلة والجبورية فى أفعال الإنسان وخالقها ، فقد كان الجبورية يذهبون إلى أن الله خالق أفعال الإنسان ، وقال المعتزلة ، بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله ، وتوسط الأشعرى فقال إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وهى للإنسان كسباً وإرادة فهو يريد ما الله يخلقها فيه^(٢) . وكان يرى أن صفات الله أزلية قائمة بذاته ، فهى ليست عين الذات الإلهية كما يقول أكثر المعتزلة ولا هى أحوال كما قال أبو هاشم الجبائى بل هى زائدة على الذات قائمة بها^(٣) . وحاول التوفيق فى مسألة خلق القرآن بين المعتزلة والمحدثين من أمثال ابن حنبل أى بين القولين القائلين بأن القرآن حادث أو هو قديم ، فقال إن « العبارات

والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلّي ، والدلالة مخلوقة محدثة ، والمدلول قديم أزلي^(١) ، وبعبارة أخرى كان يرى أن القرآن وكلام الله القائم بذاته قديم ، أما الكتاب الذي بين أيدينا والذي نزل به الوحي في زمن من الأزمان فحدث . وأنزل العقل من مكانته القدسية عند المعتزلة وخاصة في الإلهيات ، إذ قال إن معرفة الله وشئونه الإلهية ليس سبيلها ولا أدواتها العقل ، بل الوحي والشرع ونصوص القرآن والسنة ، فالعقل عنده لا يوجب شيئاً ولا يقتضي تحسیناً ولا تنقيحاً ، ولا يوجب على الله رعاية لمصالح العباد ، والواجبات كلها واجبات بالسمع ، وقد تُحصّل معرفة بالعقل ، ولكنها لا تنجب إلا عن طريق السمع^(٢) .

الفصل الرابع

نشاط الشعر

١

علم الشعراء بأسرار العربية

كل من يتابع جهود اللغويين في القرنين الثاني والثالث للهجرة يلاحظ تنوعاً كثرة ما أدوه للعربية وشعرائها من دراسات متنوعة ، فقد جمعوا مادتها الشعرية واللغوية جمعاً مستقصياً صوروه في مباحث مفردة كبحث عن الإبل أو الشجر أو الكلا أو النخل و الكسرم أو خلقت الإنسان أو الميسر والقдах أو الأنواء ، وكبحث عن الاشتقاق أو عن علامات التأنيث أو الهمز وتحقيقه أو عن فعلت وأفعلت أو عن الأضداد ، أو عن الوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض . وكادوا لا يتركون موضوعاً ولا صيغة لغوية فيها بعض الاشتباه إلا دونوا فيها الرسائل القصيرة والطويلة . ثم ألّفوا الكتب المجلدة . واستطاعوا منذ أواسط القرن الثاني للهجرة أن يضعوا قواعد النحو العربي وضعاً نهائياً وبالمثل قواعد الصرف والتصريف ، وأيضاً قواعد الأوزان الشعرية والقوافي ، بحيث أصبح الشعر العربي ولغته جميعاً مذاتلين منقادين للناشئة ، وفي أثناء ذلك وضعت القواعد لوضع المعجم العربي ، بحيث يضم بين دفتيه كل الكلمات العربية المستعملة والأخرى المهملة ، على نحو ما هو معروف عن معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وألّف على غراره بأخرة من العصر ابن دريد معجمه المشهور : الجمهرة ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وعلى هذا النمط أخذ اللغويون يجمعون للناشئة من الشعراء وغير الشعراء مادة اللغة ، كما أخذوا يبسطون لهم قواعد النحوية والصرفية والموسيقية ، وقد مضوا منذ مطالع العصر العباسي يجمعون لهم عيون الشعر العربي في مجاميع كثيرة ، غير ما جمعهو

من الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية ، وما أخذوا يجمعونه من دواوين العصر العباسي للشعراء النابهين ، وكانوا يشرحون ما يجمعونه من أشعار تلك الدواوين حتى تفقهه الناشئة فقهماً حسناً ، وشاركهم الشعراء في هذا الصنيع على نحو ما مر بنا في الفصل السالف مما صورناه عند أبي تمام والبحترى ، وقد يكون مما دفعهما إلى هذه المشاركة أنهما وجدا اللغويين يهتمون في كثير من الأثر بالشعر الغريب ، ليتخذوا منه مادة للتعليم على نحو ما يلقانا في كتابات ابن السكيت وثلعب ، فأرادا أن يقفا الناشئة بجانب ذلك على طرائف الشعر القديم والحديث ، وكان كثير من اللغويين قد عنى بالترجمة للشعراء القدماء الجاهليين والإسلاميين ، فانبهر بعض الشعراء والأدباء بترجم للشعراء العباسيين في كتب يفردها لهم ، كما يلقانا في كتاب طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز وكتاب الورقة لمحمد بن داود بن الجراح ، وجمع ابن قتيبة بين القدماء والمحدثين في كتابه « الشعر والشعراء » . وكانت قد سبقت ذلك كله كتب في تراجمهم للأصمعي وأبي عبيدة ودعبل ، وكتاب طبقات الشعراء لابن سلام مشهور .

وكل ذلك مكن الناشئة من إتقان العربية والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية ، وزاد من وقوفهم على هذه الأسرار أن بيئة المتكلمين أخذت تُعنى منذ القرن الثاني الهجري بتلقين الناشئة بعض قواعد البيان والبلاغة ، حتى يحسنوا الجدل والحوار وحتى يخلبوا أبواب سامعيهم ، وإذا هذه القواعد تنفجر على ألسنتهم عند بشر بن المعتز وأمثاله ، وإذا الجاحظ يؤلف في ملاحظاتهم وملاحظاته البيانية كتابه « البيان والتبيين » مصوراً فيه كثيراً من أسرار البيان العربي تصويراً يتيح للشباب أن يقفوا في غير مشقة على خصائص العربية وأن يتذوقوا هذه الخصائص تذوقاً دقيقاً . وشارك الجاحظ في هذا المجال كثير من اللغويين ، على نحو ما مر بنا في الفصل السالف أمثال أبي عبيدة والمبرد ، ولم يلبث أن انبرى شاعرنا هو ابن المعتز لتصوير فنون البيان الشعرى الرائع في كتابه « البديع » واستطاع أن يضع لها المصطلحات التي كانت تجمعها في عصره ، وأن يتيح لها من التعريف بها ووصف أساليبها ما لم يتح لمتكلم أو لغوى أو شاعر من قبله ، باثناً في ثنايا ذلك ملاحظات دقيقة في الفن الشعرى وجماله المتنوع الذي لا ينضب معينه .

ومعنى ذلك كله أن العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية والصرفية والنحوية وُضعت تحت أعين الناشئة في القرن الثالث الهجرى وضعت علمياً دقيقاً حتى أصبح في ميسور كل ناشئ أن يتقنها ، إذ يستطيع أن يقرأ أشعارها في غير عناء ويفهمها في غير مشقة ويتذوقها في غير تكلف ، بحيث يستطيع أن يسيغها ، بل أن يتمثلها تمثلاً دقيقاً . على أنه يحسن أن نعرف بأن عربية مولدة أخذت تشيع على السنة العامة بجانب العربية الفصحى ، وكانت تتداولها الطبقات الدنيا وقد يشاركها أفراد من الطبقات الوسطى ، وكانت تنتشر في العراق على السنة النبط وأهل الذمة ، وساعد على انتشارها تحول مقاليد الحكم العباسي من أيدي الفرس أصحاب الحضارة العريقة إلى أيدي الترك ، وكانوا لا يعرفون أى حضارة ولم يكن يعينهم أن يحسنوا العربية ، فاستخدموا اللغة الدارجة في أحاديثهم ، وكان ذلك عاملاً مساعداً في إشاعتها لهذا العصر بين من يعلمون معهم في الدواوين وأعمال الدولة المختلفة ، وليس ذلك فحسب ، فقد كان نفر من كتابهم يستظهرون على ألسنتهم بعض الكلمات العامة ، وعمم ذلك بعض الباحثين في الشعراء ، إذ رأوا ابن قتيبة يحيل كتابه « أدب الكاتب » إلى أسواط حامية يشوى بها وجوه الكتاب لعصره معلناً النكير عليهم لعنايتهم بالمنطق والفلسفة والهندسة وعلم الفلك ، مسجلاً قعودهم عن التثقيف ثقافة عميقة باللغة واشتقاقاتها وأبنياتها ، وكيف أنهم لا يعرفون المدلولات الدقيقة للألفاظ ولا مواضع استخدامها ، مع جهلهم بكثير من الصيغ وما بينها من الفروق ، فهم لا يعرفون فرق ما بين اسم المرة واسم الهيئة في الصيغة ، ولا كيف تتبادل الحروف أمكنتها ، وكذلك الأفعال اللازمة والمتعدية ، مع ما يلوكون من الكلمات الفارسية .

وطبيعى أن هذه الحملة التي شنّها ابن قتيبة على الكتاب لا تشمل جمهورهم ، إنما هي تشمل أفراداً منهم ، لم يكونوا من بلغاء العصر ولا من كتّابه الممتازين ، ومن أجل ذلك يجب ألا نعمّمها في الكتاب فضلاً عن الشعراء ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أن اللغويين كانوا لهم بالرصد ، فمن انحرف منهم عن جادة الفصحى شنعوا عليه وسقطوا به من حالق سقطة لا إقالة له منها أبداً ، إذ كانوا يعدّون أنفسهم حُماة الفصحى ، وأن من نوّهوا به من الشعراء طار اسمه ومن أزرّوا به لم تقم له قائمة ، وكان الشعراء يسلمون لهم بهذه المنزلة ، فكانوا يعرضون عليهم أشعارهم

وخاصة في أول أمرهم ، كما يحدثنا أبو الشبل أحد الشعراء لعصر المتوكل إذ يقول :
 « لما عرض لي الشعر أتيت جاراً لي نحوياً هو المازني وأنا يومئذ حديث السن ،
 فقلت له إن رجلاً لم يكن من أهل الشعر ولا من أهل الرواية قد جاش صدره بشيء
 من الشعر ، فكره أن يُظهره حتى تسمعه ، قال : هاته ، وكنت قد قلت شعراً
 ليس بجيد ، إنما هو قول مبتدئ ، فأنشدته إياه فلما سمعه نهرني عليه وذمّه ^(١) » ،
 ومنذ بشار بن برد في العصر العباسي الأول نجد اللغويين يتعقبون الشعراء في أساليبهم ،
 فكلما بدا من أحدهم انحراف عن جادة الفصحى أعلنوا النكير عليه ، حتى لو كان
 في انحرافه الظاهر إنما يقيس على أمثلة الشعراء القدماء وأبنيتهم أو على بعض
 أبنية العرب المسموعة ، وبما يصور ذلك عند بشار أنه رأى العرب يصوغون من الفعل
 فعَلَى للدلالة على السرعة فيقولون حَجَلَى للدلالة على سرعة السير ، فقام على
 هذه الصيغة وجَلَى من الوجَل قائلًا :

والآن أقصر عن سُمَيَّة باطلي وأشار بالوجَلَى على مشيرٍ

فأخذ كثير من اللغويين يحمل عليه مخطئاً له ^(٢) ، وبشار محق ، لأن من حقه
 القياس ، وإذا كان من حقنا أن نقيس في شئون الدين ، كما قرر ذلك الفقهاء
 المعاصرون له من أمثال أبي حنيفة فأولى أن يقيس الشعراء في أبنية اللغة واشتقاقاتها
 الصرفية . وارتضت كثرة اللغويين منهم أن يخضعوا أحياناً لضرورات الأوزان
 وأنغامها التي يصوغون عليها أشعارهم ، وسمّوا ذلك ضرورات شعرية ، غير أن بعض
 المحافظين المسرفين في محافظتهم كانوا يعدّون الضرورات عيوباً ، وكانوا لا يزالون
 يحصونها على الشعراء كما يحصون عليهم بعض أقيستهم مما لم يسمع عن العرب ، وظل
 ذلك دأبهم في هذا العصر كما كان دأبهم في العصر العباسي الأول حين كانوا
 يراجعون بشاراً وأضرابه . واحتفظ كتاب الموشح للمرزباني بطائفة كبيرة من مراجعاتهم
 لمعاصريهم ، من ذلك قول علي بن الجهم :

ونحن أناسُ أهل سَمْعٍ وطاعةٍ يصحُّ لكم لإسرارها وإعلانها

(١) الأغاني (طبع دار الكتب المصرية) (٢) أغاني ٣ / ٢٠٩ .

فقد ذكروا أنه أخطأ في قوله : « إعلانها » بكسر العين وإنما سُمع عن العرب : « إعلانها » وكأن ابن الجهم صاغ من كلمة العَلن عَالنه كما قالوا أعلنه واشتق منها : عالنه إعلانًا . وسمعه المبرد يقول في بعض حديثه : « أظنني مأزوراً في قعودي » ، فقال : لقد نقص في عيني حين سمعت منه هذا القول ، إذ المسموع موزور لا مأزور^(١) ، وكأن ابن الجهم قاس هذه الصيغة على مثال مأجور ومأثور . وهذان المثالان هما كل ما رواه اللغويون من أخطاء ابن الجهم ، وحتى على فرض خطئه فيهما وأنه لم يُصَبَّ في اجتهاده كان يحسن أن يغفروهما له ولأن يشيدا بمدى معرفته للعربية وأمثلتها في البنية والصياغة ، إذ لم يحدث أن أخطأ فيها — إن سلمنا لهما بهذا الخطأ — سوى مرتين . وشاعر ثان هو علي بن محمد العلوي الكوفي المعروف بالحِمَّاني فقد أخذوا عليه خطأين : خطأ نحويًا وخطأ اشتقاقياً صرفياً ، فأما الخطأ النحوي ففي قوله :

وَجْهٌ هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنْ بَيْنَهُمَا فَضْلاً تَلَاً فِي حَافَاتِهِ النُّورُ
فِي وَجْهِ ذَاكَ أَخَاطِيطٌ مَسْوَدَةٌ وَفِي مِضَاحِكَ هَذَا الدَّرُّ مَنثورٌ

فقد قالوا إن حق كلمة « منشور » في آخر البيت الثاني النصب ، لأنها في موقع الحال ، والطريف أن المرزباني حاول لإخراج الحماني من هذا الخطأ وردّه عنه ، فقال إن رفع منشور جائز بمعنى هو منشور^(٢) ، والمسألة لا تحتاج إلى كل هذا التأويل فإن الحماني تبادر إليه أن كلمة منشور خبر لكلمة الدر ، وكلمة « في مضاحك هذا » متعلقة بها ، ولا عيب ولا خطأ في ذلك . وأما الخطأ الاشتقاقى الذى عابوه على الحِمَّاني ففي قوله :

أَرَقْتُ وَمَالِيلُ الْمُضَامِ بِنَائِمٍ وَقَدْ تَرَقَّدَ الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ سَاهِرٌ

فقد قالوا إن الصواب مَضِيم بفتح الميم ، إذ لا يقال أضمته وإنما يقال ضمته^(٣) فهي في غير حاجة إلى التعدي بالهمزة . وربما سمع الحماني من العرب من يقول أضام أو ربما قرأ ذلك في بعض الأشعار القديمة . وهو على كل حال خطأ واحد يشهد

(٢) الموشح ص ٥٢٠ .

(٣) الموشح ص ٥٤٤ .

(١) انظر الموشح للمرزباني (طبعة

دار نهضة مصر) ص ٥٢٨ .

بسلامة لغته . وحتى البحترى الذى اشتهر بفصاحته وإتقانه للعربية وعلمه بأسرارها وقدرته الباهرة على استخدام مفاتيحها الموسيقية نجد اللغويين يتوقفون بإزاء بعض استعمالاته ليثبتوا عليه الخطأ فى هذا الموضع أو ذاك ، وقد زعموا أن من اللحن عنده قوله فى بعض شعره :

يا علياً بَلْ يا أبا الحسن الما لك رِقْ الظريقة الحسناء

وواضح أن المنادى العلم ، وهو على ، فى أول البيت منصوب منون ، وحقه الضم^(١) ، وهى مسألة يعرفها الناشئة ومن يَشُدُّون شيئاً من النحو ، وغريب أن يخطئ فيها البحترى ، وهو فعلاً لم يخطئ ، فإن رواية الكلمة فى الديوان « يا على » وإذن لا خطأ ، وقد يكون تقوّل عليه ذلك بعض خصومه . وأخذوا عليه قوله فى الفتح بن خاقان :

يا مَادَحَ الفتح ويا آملُهُ لستَ امرأَ خابَ ولا مُثْنٍ كَذَبَ

فقد قالوا إن كلمة « مثن » فى البيت كان حقها النصب ، فيقال مثنيّاً ، لأنها معطوفة على منصوب هو كلمة « امرأ » وفاتهم أن البحترى رفع الكلمة على إضمار مبتدأ محذوف أى : « ولا أنت مثن كذب » ومن حقه أن يصنع ذلك حين يريد . وأخذوا عليه أيضاً قوله :

ولو أنصفَ الحسادُ يوماً تَأَمَّلُوا مساعيك هل كانتَ بغيرك أليقاً

فإنه سكّن كلمة « مساعيك » وكان حقها النصب : « مساعيك » لأنها مفعول به ، وأنكروا عليه قوله فى مطلع رثائه للمتوكل :

محلٌّ على القاطول أخلق دَائِرَةً وعادتْ صروف الدهر جَيْشاً تغاوره^(٢)

وقالوا المروى : دَائِرٌ مُخْلِقَةٌ ، ولا يقال : « أخلق دائره » لأن الدائر لا بقية له فتخلق أى تبلى وتستجد ، وهم مبالغون فى قولهم ، لأن العرب يقولون أطلال دائرة ، وهم يريدون بقاياها أو قل بقايا الديار قبل أن تُمَحَى محواً نهائياً .

(٢) المجل هنا : قصر المتوكل الذى قتل فيه وكان قد بناه على جدول القاطول بسمراء .

(١) انظر فى هذا اللحن وما يتلوه ما أخذه على البحترى الموشح ص ٥١١ وما بعدها .

ويلاحظ الصاحب بن عباد أنه ذكر الفعل الناقص : « نسيه » بإشباع الياء وإسكانها بدلا من فتحها في قوله^(١) :

أبو غالبٍ بالجودِ يذكر واجبي إذا ما غيبي الباخلين نسيه

وكأن ابن عباد لم يلتفت إلى أن البحرى إنما صنع ذلك لضرورة القافية التي تنتهى بها قصيدة البيت ، وأيضاً فإنه لم يلتفت إلى أن هذه لغة معروفة لطبي قبيلة الشاعر إذ ينطقون مثل « رضى » بفتح الياء « رضى » بإسكانها وإشباعها . وما يدل دلالة واضحة على تعنت اللغويين إزاء البحرى وغيره من الشعراء أن نجد صاحب خزانة الأدب يروى عنهم أنهم أنكروا عليه تسكين اللام في كلمة « طَلْحَاتِه » من قوله مادحاً :

عدلتم بِطَلْحَةٍ عن حَقِّه ونكبتُم عن مَوالاتِه
وكيف يجوز لكم جَعْدُهُ وطلحتكم بعض طَلحاتِه

قالوا كيف يسوّغ لنفسه تسكين اللام والوجه أن تكون مفتوحة^(٢) ، وواضح أنه صنع ذلك لضرورة الشعر ، ومعروف أنها تبيح للشاعر أن يخرج على القواعد النحوية والصرفية أحياناً ، فما بالنا بالحركة والسكون حين يتبادلان مواضعهما وفي الحق أن كل ما أنكروه على البحرى مما يحق له ولا تجوز مؤاخذته عليه ، وهى صورة من التزمّت وضيق الأفق عند بعض اللغويين . وما يدخل فى هذا الباب من التعنت القبيح أن نجد بعض اللغويين يستمع إلى ابن الرومى يمدح الموفق حين قضى على ثورة صاحب الزنج التى مرت بنا فى غير هذا الموضع ، فيقول فى بعض مديحه مخاطباً الموفق :

ثناك له مقداره فكأنما تقوَّض ثَهْلانٌ عليه وصنَدَدُ^(٣)

فيعترض على نطقه : « صِنْدَد » بفتح الدال الأولى قائلًا إنها « صِنْدَدٌ » بكسرها^(٤) . وإنما أظننا فى بيان ذلك كله لندل على أن اللغويين لم يكونوا يستطيعون

(١) الكشف عن مساوئ المتنبي للصاحب

ابن عباد (طبعة القاهرة) ص ٩ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٣/ ٣٩٤ .

(٣) ثَهْلان وصنَدَد : جيلان .

(٤) ديوان الممانى لأبي هلال العسكري

(طبعة بغداد) ٢/ ٥٦ .

أن يتعلقوا في هذا العصر على الشعراء النابهين بأخطاء جوهرية في اللغة أو في التصريف ، بل لقد كانوا لا يزالون يلتقطون بعض الضرورات الشعرية ليعودوها أخطاء ، وحتى الحركات الداخلية في الكلمات وأبنيثها كانوا لا يزالون يتعقبونها على نحو تعقبهم لابن الرومي في كلمة « صندد » . وكل ما ذكره المرزبانى وسجله عن علماء اللغة في هذا الباب لا يعدو مثل هذه الصور التي وصفناها ، ومثلها ما حاول بعض معاصريه أن يسجلوه مثل الصاحب بن عباد وأبى هلال العسكري ، فلمإنهم لم يتجاوزا في الغالب الضرورات الشعرية ، مما يدل دلالة قاطعة في العصر على سلامة اللغة وسلامة الألسنة ، وحقاً كما قلنا كانت هناك لغة عامية تتداول في الحياة اليومية ، ولكنها ظلت لا تجور على العربية ، وظلت الناشئة في كل مكان تتغذى بالفصحى وتتلقنها على أسانئتها النابهين . وكان هناك كثيرون لا يزالون يستخدمونها في حياتهم اليومية العاملة ، وكان ذلك يرفع منهم في أعين الناس ، حتى ليقول إسحق^(١) بن خلف الطنبُورِي :

النحو ببسط. من لسان الألكن والمرء تُعظمه إذا لم يَلَحَنِ
وإذا طلبتَ من العلوم أجَلُها فأجلُها عندي مقيمُ الألسنِ

وإذا كان الإعراب في رأى بعض المغنين أو الضارين على الطنبور يبلغ هذا المبلغ من المنزلة الرفيعة ، فأولى أن تكون منزلته أرفع وأعلى شأنًا عند الشعراء الذين عاصروه ، وفي الحق أنهم ظلوا يحافظون بكل قوة على الصياغة العربية في المفردات والتراكيب وعلى قواعد الإعراب والتصريف ، بحيث نجد شاعراً ضخماً مثل البحتري أو ابن الرومي لا يكاد اللغويون يتعلقون عليه بشيء ذى بال ، بل حتى الشعراء الذين اشتهروا بأنهم كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون والذين لم يجالسوا العلماء لأخذ قواعد النحو والتصريف مثل الخُبْزَرُزْمِي ، الذى كان يخبز بالبصرة خبز الأرز ويبيعه في دكان متكسباً به ، والناس يزدهمون عليه لسماع شعره كان لا يعدو الفصحى في نظمه .

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب المصرية) ١٥٧/٢ .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه كيف كان الشعراء يتزودون بالعربية الفصيحة أزواداً مكسّتهم من الوقوف على خصائصها ودقائقها الإعرابية والصرفية، بحيث نفوا عن أساليبهم كل الشوائب التي كان من المفروض أن تسيل من العامة المتداولة إلى الفصحى، ولم ينفوها فحسب، بل عملوا جاهدين على أن يحتفظوا بالصياغة العربية الأصلية بدون أن يدخل عليها نبوءاً أو انحراف أو أى اعوجاج أو أى نقص في الأداء. ويكفى أن يكون همّ جماعة كبيرة من اللغويين أن يتعقبوا سقطات شاعر مثل البحتري فيعوزهم المثال، فيلجثون إلى بعض الضرورات الشعرية عنده يسجلونها، ومعروف أن شاعراً لم يكثر في هذا العصر كما أكثر ابن الرومي، ومع ذلك لم يسعفهم الفحص في أشعاره إلا أن يسجلوا في بناءه عنده حركة داخلية على تقدير صحتها إن سلم لهم ذلك. فإذا قلنا إن الشعراء في هذا العصر تمثلوا العربية وأسرارها التركيبية أقوى تمثّل وأروع لم نكن مغالين ولا مُبْغِدين، بل لقد تمثلوا أسرارها الجمالية كما مر بنا تمثلاً بارعاً، وهو تمثّل جعل الشعراء يُعْصِنُونَ عناية بالغة باختيار الألفاظ والملاءمة الصوتية بين اللفظة واللفظة في الجرس، بل بين الحروف نفسها، حتى يلد الشعر الألسنة التي تنطق به والآذان التي تستمع له والأفئدة التي تصغى إليه، وما زال الشعراء مكبين على قيثاراتهم يستخرجون منها أعذب الأنغام، حتى استطاع البحتري أن يصل من ذلك إلى كل ما كان يحلم به الشاعر العربي منذُ وُجد امرؤ القيس حتى عصره، فإذا شعره يستحيل أنغاماً وألحاناً خالصة.

والبحتري إنما هو رمز لحركة التمسك بالصياغة العربية، بل التمثّل لها بحيث تجرى في نفس الشاعر سليلته الشعر العربي بكل سماتها وشاراتها وبكل معانيها وخواصها، بل بحيث يفقه ذلك كله فقهاً تاماً دقيقاً، بما أتيج له عند العلماء وأصحاب البلاغة من ملاحظات جمالية، تنبع من الثقافة بالشعر السابق قديمه وحديثه ومن الذوق المصنّف المتحضر ومن الشعور المرفه الرقيق. وإذا لغة الشعر تصبح تارة رصينة ناصعة كأتم ما تكون النضاعة والرصانة، وحيناً تصبح عذبة خفيفة تكاد تطير لخفتها ورشاقتها عن الأفواه طيراناً. ومن هنا كنا نستطيع أن نقول إن أساليب الشعر في العصر ظل لها رونقها وبهاؤها، بل لقد ازدادت بهاءً

ورونقاً ، بفضل تمثل الشعراء الفريد في العصر للصياغة العربية السليمة وبصرهم بأسرارها وحذقهم لخصائصها حذقاً جعلهم يُسَوِّونَ منها جواهر وآلى كثيرة . وإذن فمن واجبنا أن نحترس أشد الاحتراس من حديث يوهان فك في كتابه « العربية » عن اتساع الضميم الذى دخل في العصر على لغة الشعر وصياغته ، فإن هذا الضميم الذى ساقه حين يُسَحِّث لا يعدو ما لاحظناه آنفاً عند البحترى ومعاصريه من أشياء تُعَدُّ على الأصابع ، وهى تدخل جملة في الضرورات الشعرية ، وكأن كل الضميم الذى خاله إنما هو سراب ظنه ماء ، ولا ماء هناك ولا ضميم حدث في الفصحى على ألسنة شعراء العصر ، بل لقد كانوا يتقنون المعرفة بأسرارها ورسومها وصياغاتها الباهرة كأشد ما تكون المعرفة دقة وعمقاً .

٢

ذخائر عقلية خصبة

مرّةً بنا نشاط الترجمة في العصر كما مر بنا النشاط العام للحياة العقلية ، حتى ليكاد يظن الإنسان أنه لم يكن هناك أحد لا تتسع قراءاته ، فتشمل جميع مواد الثقافات المعروفة حينئذ من عربية وإسلامية وأجنبية من موارد شتى : موارد هندية وفارسية ويونانية ، مع ما كان يداخل المعارف الهيلينية من موارد شرقية فارسية وغير فارسية . فكل ذلك كان تحت أبصار الناس من شباب وغير شباب ينهلون منه كما يشاءون دون حجاب ودون أية صعوبات ، فدار الحكمة مكتبة الدولة مفتوحة على مصاريعها ودور أخرى كثيرة عرضنا لها في غير هذا الموضع ، ودكاكين الوراقين بالمثل تعرض كل ما يطلبه القارئ ، وحلقات المساجد تموج بالمحاضرين في مختلف فروع المعرفة ، ولكل شخص الحق في أن يستمع إلى ما يرغب فيه من هذه المحاضرات .

وأخذ العرب حينئذ يشاركون مشاركة قوية فعالة في تاريخ الفكر الإنساني ؛ فإذا عليماء وفلاسفة عظام يأخذون في الظهور بينهم ، ويكفى أن نذكر الخوارزمي العالم

الرياضي النابه واضع علم الجبر ، والكندى الفيلسوف أو أول فلاسفة العرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلاسفة ، وهما معلمان كبيران في العصر يدلان أقوى دلالة على نهضة العقل العربي وازدهاره حينئذ ، مما عرضنا لبعض مظاهره في الفصل الماضي . وحدث في أثناء ذلك أن أخذ بعض الأدباء يتجرد للمزج بين ثقافات العصر واستخلاص ثقافة عربية لها طابعها ومشخصاتها المستقلة ، على نحو معروف عن الجاحظ المعتزلي ، وكان المعتزلة قد أكبوا منذ أوائل العصر العباسي في القرن الثاني الهجري على الثقافات الأجنبية يتزودون منها ، واستطاع كثيرون منهم أن يكونوا لأنفسهم نظريات تتصل بالطبيعة وما وراء الطبيعة مما صورناه في كتابنا العصر العباسي الأول ، ونفذ الجاحظ في العصر كما قلنا آنفاً إلى الوصل في كتاباته بين الثقافتين العربية والإسلامية والثقافات الأجنبية ، بحيث غدت كتبه تغذي العقول والقلوب ، فالأدب فيها يلتقي بالفكر والعلم التقاء خصيباً مثمرأ ، على نحو ما نجد في كتابه «الحيوان» . وخطا ابن قتيبة في هذا الاتجاه من المزج بين الثقافات خطوة أخرى كما أسلفنا ، فزج في كتابه «عيون الأخبار» بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية مزجاً قوياً ، مزاجاً بين طائفة كبيرة من الآداب في الثقافة الأولى والآداب السياسية في الثقافة الثانية ، مع ما أضافه من الحكم الطريفة التي جلبها من كتاب كليله ودمته المترجم عن الهندية ، وكذلك ما أضافه عن الثقافة اليونانية .

وكان طبيعياً لذلك كله أن تتمحى الأبعاد والفوارق بين الفكر العربي الخالص والفكر الأجنبي ، فإذا هما يمتزجان في بيئة الشعراء وغيرها من البيئات ، وإذا كثير من الشعراء يتعمقون الفلسفة والثقافات الأجنبية ، وحقاً ظلت طائفة لا تُعنى بهذا التعمق على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي عند البحري وأضرابه ، ولكن حتى هؤلاء وحتى البحري نفسه لم يستطيعوا التخلص من معرفة بعض جوانب الفكر الأجنبي ، على حين نجد كثيرين غيره من أمثال ابن الرومي تعمقوا في هذا الفكر ، بل لقد أقبلوا عليه يلتهمونه التهاماً ، بل لقد انقضوا عليه انقضاضاً ، وكأنما لا يريدون أن يبقوا منه بقية . على أنهم لم يفنوا في هذا الفكر ، فقد ظلوا يحتفظون للشعر العربي بشخصيته ومقوماته الأساسية . فهم لا يذيبونه في الفكر الأجنبي ، بل هم يخضعون هذا الفكر له ، أو بعبارة أدق هم يتخذون من هذا الفكر وسائل كي يتعمقوا في تصوير المشاعر

والأفكار التي طالما عرض لها الشعر العربي ، مضيفين إليها معاني وخواطر حافلة بما يملأ النفس إعجاباً .

ولا ريب في أن ذلك كان على درجات ، فمن الشعراء من كان يفرق في التشقف بالثقافات الأجنبية ، ومنهم من كان لا يشق على نفسه ، فهو إنما يلم بأطراف منها تقل وتكثر حسب ملكاته العقلية ، ومهما أسرف الشاعر في هذا الإلمام فإنه يحفظ لأساليبه بالنصاعة والنقاء ، حتى من كان يرجع إلى أصول غير عربية ، فقد استقر في نفوس جميع الشعراء الاحتفاظ بتقاليد الشعر الموروثة وأن يظل شعرهم موصولاً بماضيه ، وحقاً حاول الشعوبيون أن يشككوه في هذا الماضي وأن يقطعوا صلتهم به ، ولكنهم لم يصيخوا إليهم ولا استمعوا إلى ضجيجهم ، فقد كانت شخصية الشعر العربي في نفوسهم أقوى من أن تزعزعها أو تهزها صيحات هؤلاء الشعوبيين المارقين ، فلم يزايلوها ولا انحرفوا عنها ولا عن أصولها التقليدية . بل لقد استطاعوا أن يثبتوا مرونة هذه الأصول ، وأنها تتسع لفنون البديع الجديد التي سجلها ابن المعتز اتساعاً كانت تحمل مقدماته في صدورهم من قديم ، بل لقد وجدوا في مرونة هذه الأصول ما يمكنها من أن تحمل كل صنوف الغذاء الفكري الجديد على اختلاف ألوانها ، غذاء الفلسفة والمنطق والعلوم المختلفة وغذاء الآداب الفارسية واليونانية والحكمة الهندية ، فكل سيول هذا التراث الثقافي الأجنبي من كل جنس يستوعبها الشاعر العباسي ويتمثلها ويتقنها علماً وفقهاً وتحليلاً دون أن ينحرف بشعره عن أصوله الموروثة ، بل إن هذه الأصول تونق وتزدهر ويصبح كل ما يُنْقَلُ إليها من الفكر الأجنبي عربي اللسان والصياغة المصفاة ، بل أهم من ذلك أن ذهن الشاعر العباسي يصبح ذهنًا عميقًا يتغلغل في حقائق المعاني نافذ إلى دخالها وأغوارها البعيدة ، نفوذاً يتيح له ما لا ينفد من الخواطر الشعرية المبتكرة .

وحقاً أن هذا العمق في ذهن الشاعر العباسي يلاحظ منذ بشار ومن تلاه في القرن الثاني ، غير أننا كلما تقدمنا مع الزمن ازداد هذا العمق بعداً في بواطن المعاني المستقرة ، وهو عمق رافقته صور كثيرة من دقة التحليلات والاستنباطات والتقسيمات ، فمن ذلك ما يرويه ابن قتيبة من أن بعض الشعراء أنشد الكندي الفيلسوف :

وفي أربعٍ مني حَلَّتْ منك أربعٌ فما أنا أدري أيها هاج لي كربى

أَوْجُهُكَ فِي عَيْنِي أَمْ الطَّعْمُ فِي فَمِي أَمْ النَّطْقُ فِي سَمْعِي أَمْ الْحُبُّ فِي قَلْبِي
فَقَالَ لَهُ الْكَنْدِيُّ : وَاللَّهِ لَقَدْ قَسَّمْتُهَا تَقْسِيمًا فَلَسْفِيًّا^(١) ، وَتَكَثَّرَ مِثْلُ هَذِهِ
التَّقْسِيمَاتِ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ إِذْ كَانَتْ تُعَدُّ مِنْ بَدْعِ الْعَصْرِ وَمُسْتَحْدَثَاتِهِ الطَّرِيفَةِ ،
وَمِنْهَا قَوْلُ ابْنِ الْمَعْتَزِ فِي جَمَالِ الدَّوَائِبِ^(٢) :

سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهِ بِشَعْرَهَا شَبِيهَةً خَدَيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبٍ
فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ بِالشَّعْرِ وَاللُّجَى وَخَمْرَيْنِ مِنْ رَاحٍ وَخَدٍّ حَبِيبٍ
وَهُوَ تَقْسِيمٌ طَرِيفٌ لِلَّيْلِ وَالْحُمْرِ جَمِيعًا . وَعَلَى نَحْوِ مَا كَانُوا يَغْرِبُونَ فِي التَّقْسِيمِ
كَانُوا يَغْرِبُونَ فِي الْأَخْيَلَةِ ، وَقَدْ نَقَلُوا مِنْهَا مَا أَعْجَبَهُمْ فِي آدَابِ الْعَجَمِ ، مِنْ مِثْلِ
قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ فِي وَصْفِ الْوَرْدِ :

أَمَّا تَرَى شَجَرَاتِ الْوَرْدِ مَظْهَرَةً لَنَا بِدَائِعٍ قَدْ رُكِّبَتْ فِي قُضْبٍ
كَأَنَّهُنَّ يَوَاقِيتُ يُطِيفُ بِهَا زَبَرْجَدٌ وَسَطَهَا شَذْرٌ مِنَ الذَّهَبِ
وَالصُّورَةُ مِنْ قَوْلِ أَرْدِشِيرِ : « الْوَرْدُ يَأْقُوتُ أَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَدَرٍ أَيْضَ عَلَى كِرَاسِي
زَبَرْجَدٍ يَتَوَسَّطُهُ شَذُورٌ ذَهَبٌ »^(٣) . وَلَا تَكَادُ تُحْصَى صُورُ الشُّعْرَاءِ الطَّرِيفَةِ ، بَلْ إِنْ
صُورَ شَاعِرٌ وَاحِدٌ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُحْصَى ، غَيْرَ أَنَّهُ مِمَّا يَلَاظُ أَنَّهُمْ عُنُوا كَثِيرًا بِأَنْ
يُفَرِّقُوا فِي الْوَهْمِ وَالتَّجْرِيدِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِ الْعَطُوفِيِّ أَحَدِ مُتَكَلِّمِي الْمَعْتَزَلَةِ الْخَلْدَاقِ^(٤) :

فَوْحٌ الْبَيَانِ يَعْصِدُهُ الْبَرُّ هَانَ فِي مَاقِطٍ أَلَدُ الْخِصَامِ
هِيَ تَجْرِي مَجْرَى الْأَصَالَةِ فِي الرَّأْيِ وَمَجْرَى الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَامِ

وَوَاضِحٌ مَدَى إِغْرَابِهِ فِي الصُّورَةِ إِذْ مِثْلُ صَاحِبَتِهِ بِجَمَالِ الْأَصَالَةِ فِي الرَّأْيِ ،
وَهِيَ صُورَةٌ فَرِيدَةٌ ، وَتُوضِّحُ إِحْسَاسَ الْعَطُوفِيِّ بِمَا كَانَ يَنْفِذُ إِلَيْهِ الْمَعْتَزَلَةُ لِعَصْرِهِ مِنْ
تَفْكِيرٍ أَصِيلٍ مَتَمِّهِ الْأَصَالَةَ ، وَهُوَ تَفْكِيرٌ كَثِيرٌ مَا كَانَ يَدْفَعُهُمْ إِلَى صُورٍ غَيْرِ

(١) ابْنُ أَبِي أَصْبِعَةَ ص ٢٨٧ .

(٢) زَهْرُ الْآدَابِ لِلْعَصْرِ ١٦/٣ .

(٣) دِيْوَانُ الْمَعَانِي لِلْمُسْكِرِيِّ ٢٣/٢ وَانْظُرْ

الدِّيْوَانُ (طَبْعَةُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ بِدِمَشْقٍ) ص ١١١ .

(٤) مَجْمَعُ الشُّعْرَاءِ لِلْمَرْزَبَانِيِّ (طَبْعَةُ الْخُلَيْفَةِ

بِالْقَاهِرَةِ) ص ٣٧٧ .

مألوفة من التجريد والوهم البعيد ، وكأن الحسين بن الضحاك استعار منهم قبساً حين قال في بعض غزله (١) :

إن من لا أرى وليس يرانى نُصِبَ عيني ممثلاً بالأماني
بأبي مَنْ ضميرُه وضميرى أبداً بالمغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرتَ وروحاً ن إذا ما اختبرتَ بمنزجان
فإذا ما هممتُ بالأمر أوه م بشيء بدأته وبداني
كان وفقاً ما كان منه ومنى فكأنى حكيته وحكائى
خطراتُ الجفون منا سواء وسواء تحرك الأبدان

وهو يعبر عن اتحاد بالمحبوب وفناء فيه حتى كأنما هما شخص واحد وروح واحدة وإن بدا شخصين وروحين فخواطرهما واحدة ، بل حتى حركات الأجسام واحدة . وكل ذلك بعد في الخيال إلى درجة الوهم ، وعلى شاكلته قول ابن المعتز :

وشكوى لو أن الدمع لم يُطفِ حراً تولد منها بينهن حريق
فلولا الدموع لاحتق العاشقان ، حرقتهما الشكوى الممضة التي لا يخمد أوارها ، وقد تكون الصورة حسية ، ولكن نشعر إزاءها بالبعد في الخيال والإغراق في الوهم كقول أبي العباس الناشئ المعتزلى في وصف سحاب يهطل ولا يكف عن سقوطه (٢) :

خليلى هل للمزن مقلّة عاشقٍ أم النارُ في أحشائه وهى لا تدرى
سحابٌ حكّتْ ثكلى أصيبتْ بواحدٍ فعاجتْ له نحو الرياض على قبر

فالزن أو السحاب مقلّة عاشق ما تزال تتساقط منها حبات الدموع ، وما بريقه إلا نار العشق الملهبة في الأحشاء ، بل لكأنه ثكلى فقدت وحيدها ، فهى تبكى عليه بكاء مرّاً لا ينقطع . وللشاعر أشعار كثيرة في الإشادة بأصحابه من المتكلمين

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٧/٧ .

(٢) زمر الآداب ١/١٧٧ .

وكيف أنهم ينبرون دياجي المشاكل المظلمة بأفكارهم الثاقبة، وكانت مناظراتهم لا تزال دائرة في العصر على الرغم من استعلاء أهل السنة عليهم، ولكنهم ظلوا يشعلون العراق بحجاجهم وحوارهم وجدالهم وظلوا يثيرون دفائن المعاني بردودهم ومناقضاتهم لخصومهم، مما نرى آثاره عند الشعراء، ومعروف أن الشاعر العربي من قديم كان يشكو طول الليل حتى ليبدو عند بعض الشعراء مظلماً لا آخر لظلامه، ويلم ابن بسام بهذا المعنى، فينبئ هذا الظلم عن الليل قائلاً^(١):

لا أظلم الليل ولا أدعى أن نجوم الليل ليست تغور
ليلى كما شاعت فإن لم تزر طال وإن زارت فليل قصير

فالطول والقصر نسبان، وهما معلقان بصاحبه إن هي زارت قصراً الليل وإن لم تزر طال، وبذلك نقض المعنى على من سبقه نقضاً، منصفاً الليل من الشعراء السابقين الذين طالما ظلّموه. وقد يُقال: وأين شعر المعتزلة الذي استظهروا فيه عقيدتهم الاعتزالية ومصطلحاتهم الكلامية، ويبدو أنه كان لهم شعر كثير في هذا الباب سقط من يد الزمن، فالمرزباني في معجم الشعراء يترجم لشخص منهم يسمى محمد بن دكين المتكلم ويذكر أن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد، غير أنه لا ينشد منها شيئاً^(٢).

وليست الأشعار الاعتزالية في نفسها شيئاً إلا ما قد تدل عليه من صلة أصحابها المعروفة بالفلسفة والفكر الأجنبي اليوناني وغير اليوناني، وأهم منها ما استودعه هذا الفكر في العقل العربي من خصب، ليس هو وحده مورده الوحيد، بل لعل تفاعل هذا العقل مع عناصر الفكر الأجنبي كانت أكثر خصباً، إذ استطاع أن يستوعبها ويمثلها، ويصطنع لنفسه من خلالها مواد لا تقل عنها روعة ولا جمالا، وهي مواد يمكن رؤيتها رؤية واضحة في كثرة التوليدات العقلية. ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يوجد شاعر في هذا العصر إلا وقد نفذ إلى كثير من هذه التوليدات حتى الشعراء الشعبيون من أمثال الحمدوني وإسماعيل بن إبراهيم، ويروى أن أحد ممدوحيه وهو أحمد بن حرب المهلبى وهب له طيلساناً (كساءً فارسياً)

(٢) معجم الشعراء ص ٤٠٧.

(١) المختار من شعر بشار الخالدين (طبع
لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٠.

أخضر فلم يرضه ، فأخذ ينشد فيه مقطعات تجاوز بها الخمسين من مثل قوله^(١) :

طَيْلَسَانُ لابن حرب جاعنى قد قضى التحريق منه وطَّره
فهو قد أدرك نوحاً فعسى عنده من علم نوح خبره
أبدأ يقرأ من أبصره : (أإذا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً)

ولا شك في أن هذه قدرة بارعة ، والحمدونى لم يملكها عفواً ، وإنما ملكها واستحوذَ عليها بفضل خصب ملكته وما أتاحت الثقافة المعاصرة له من محصول غذاها به ، فإذا هو حين يتناول موضوعاً مثل طيلسان ابن حرب وأنه خَلَقَ بال يستطيع أن يعرضه في صور متعددة لا تبلغ في العدد أصابع يد ولا أصابع يدين ، بل تتجاوز ذلك إلى عشرات من المقطوعات ، ولكل مقطوعة صورتها الطريفة الخاصة .

ويكاد الإنسان يقطع بأنه لا يوجد شاعر في العصر إلا وقد أذعن للثقافات المعاصرة المتنوعة واتخذ منها غذاء لعقله وقلبه ، وكأن شاعراً لا يستطيع منها فكاً كلاً ولا خلاصاً ، ونضرب مثلاً بالبحترى الذى حمل في بعض شعره حملة شعواء على من يكلّفون الشعراء دراسة المنطق والفلسفة ، فإننا حين نتصفح أشعاره نجد فيها آثار الثقافات التى عاصرت ، حتى نراه يشيد بالعلم والمعرفة في بعض ممدوحيه ، إذ يقول له^(٢) :

عرف العالمون فضلك بالعلم وقال الجهال بالتقليد

وهو لا يشيد بالعلم فحسب ، بل ينكر أيضاً التقليد وكأنه يدعو للاجتهاد واستخدام العقول ، بل إنه ليزعم أن التقليد جهل ما وراءه جهل ، وحرى بمن يدعو هذه الدعوة أن يطبقها على نفسه ، وأن يأخذها بالعلم والتثقيف ، وكل ما في الأمر أنه لم يكن يسرف في ذلك إسراف بعض معاصريه من الشعراء ولا كان يفرغ له ، فقد كان يعيش في شعره مع نفسه أكثر مما كان يعيش مع الثقافة التى

عاصرته ، بل إننا نحتاج إلى تقييد هذا الكلام ، فقد جمع من أشعار القدماء والمحدثين ديوان حماسة ضخماً . مما يؤكد أنه عكف على دراسة هذه الأشعار حتى استطاع أن يستخلص منها هذا الديوان ، وكأننا نعدم في العصر الشاعر الذي لا يطلب الثقافة الفنية ، بل الثقافة العامة ، وكل من يتابع البحرى في شعره يلاحظ أنه حوى لنفسه أطرافاً من تلك الثقافة أتاحت له أن يصبح من ذوى الملكات الخصبية ، وثقفه بأشعار أستاذه أبى تمام ذائع مشهور ، وهى نفسها تحجب إلى من يديم النظر فيها أن يأخذ بحظ أو حظوظ من الثقافات المعاصرة ، وصور بنفسه مدى تنوع هذه الثقافات وتنوع الكلام الذى يحملها فى قوله لبعض ممدوحيه (١) :

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استُجمِعتَ يَفْنَى الزمانُ وذكرها لم يَهْرَمَ
مثلَ الكلامِ تفرقتْ أنواعُهُ فِرْقاً وتَجَمَّعُها حروفُ المُعْجَمِ

وحقاً لم يكن البحرى صاحب تعمق فى معانى الشعر مثل أبى تمام أو مثل معاصره ابن الروى ، ولكن كانت ملكته خصبية ، وكانت ما تزال تده بخواطر لا تنفذ ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى سينيته التى وصف فيها إيوان كسرى وصفاً لم يُسبَقْ إليه ، كما نستطيع أن نلاحظه فى تنوع اعتذاراته للفتح بن خاقان تنوعاً خلّب معاصريه ، كما خلّبهم عنده إبداعه فى وصفه لخيال المحبوبة أو طيفها حين يلم به فى رؤاه وأحلامه ، وتغنى الشعراء بالخيال قديم منذ أوائل العصر الجاهلى ، ولكن الجديده عند البحرى أنه استطاع بملكته العباسية الخصبية التى تقتدر على التوايد والإتيان بالصور المبتكرة والإكثار منها أن يستولى على إعجاب الأسلاف بمثل قوله (٢) :

سَقَى الْغَيْثُ أَجْرَاعاً عَهْدَتْ بِجَوْهَا غَرالا تُرَاعِيهِ الْجَاذِرُ أَغْيَدًا (٣)
إذا ما الكرى أهدى إلى خياله شنى قربه التَّبْرِيحَ أو نَقَعَ الصِّدَا (٤)
ولم أَرْ مَثْلَيْنَا ولا مثل شأنا نُعَذِّبُ أَيْقَاطاً وَنَنْعُمُ هُجْدًا (٥)

(١) الديوان ٢٦٦/٤ . الجاذر : يقر الوحش .

(٢) نقع الصدا : سكن الظما .

(٣) هجدا : نائمين .

(٤) الديوان ٦٧٠/٢ .

(٥) الأجرع : الرمال الطيبة . الجو :

وقوله^(١):

أَلَمْتُ بَنَا بَعْدَ الْهَدُوِّ فَسَامَحْتُ بُوَصِّلِي مَتَى نَطْلُبُهُ فِي الْجِدِّ تَمْنَعُ^(٢)
وَمَا بَرَحْتُ حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ وَأَنْقَضَى وَأَعْجَلَهَا دَاعِيَ الصَّبَاحِ الْمَلْمَعِ^(٣)
فَوَلَّيْتُ كَأَنَّ الْبَيْنَ يَخْلُجُ شَخْصَهَا أَوَانَ تَوَلَّيْتُ مِنْ حَشَايَ وَأُضْلَعِي^(٤)

وواضح ما في الشطر الأخير بالأبيات الأولى من لفظة ذهنية واضحة ، ومثله آخر الأبيات الثانية فقد ولَّتْ وكأنها تُسْتَنْزَع من حشاه وأضلعه وروحه ، وكان يعرف البحرى كيف يمس قلب سامعه ، كما كان يعرف كيف يتأثر لنفسه ببعض الصور والمعاني ، فقد سمع أو حفظ قول القائل في وصف أحاديث بعض النسوة وما يُدَّعَى فِيهِ مِنْ جَمَالٍ وَسِحْرِ :

إِذَا هُنَّ سَاقَطْنَ الْأَحَادِيثَ بِالضُّحَى سِقَاطَ حَصَى الْمَرْحَانِ مِنْ كَفِّ نَاطِمٍ

فما زال يدير البيت في نفسه وما زال يحاول أن يضيف إليه إضافة بارعة ، وإذا ملكته تسعفه بقوله في وصف لقائه بمن خلبت لُبَّهُ^(٥) :

وَمَا التَّقِينَا وَالنَّقَا مَوْعِدُ لَنَا تَبَيَّنَ رَأَى الدُّرِّ مَنَا وَلَا قِطُهُ^(٦)
فَمَنْ لَوْلُوْهُ تَجَلَّوْهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا وَمَنْ لَوْلُوْهُ عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهُ

ولعل أكبر شاعر في العصر يصور ذخائر الفكر حينئذ في الشعر ومدى ما أثرت الحياة العقلية فيه ابن الرومي ، ويبدو عنده بوضوح أنه عكف على جميع الثقافات التي عاصرتها ، وأنه أخذ ينهل منها حتى تحولت إلى ذهنه وقلبه ، فإذا هو يستوعبها ، وإذا هو يتقنها ، بل إذا هو يتمثلها تمثلاً نادراً ، وكان مما دفعه إلى ذلك دفعاً اعتناقه مبكراً مذهب الاعتزال ، وفي

(١) الديوان ١٢٣٧/٢ .

(٢) الهدو : شطر من الليل .

(٣) الملمع : المزجج سواده بياضه

إشارة إلى أوائل الصباح .

(٤) يخلج : ينتزع .

(٥) ديوان المعاني ١ / ٢٣٨ وانظر الديوان

١٢٣٨/٢ .

(٦) النقا : قطعة من الرمل .

شعره ما يدل على حرصه الشديد عليه كقوله^(١) :

أأرفض الاعتزال رأياً كلاً لأنى به ضنينٌ

فهو يؤمن به ويعتقه منحازاً إليه ، ولا يرضى به بديلاً ، وإنه ليمنحه كل حبه ، حتى ليصبح ضنيناً به ، وكأنه غدا جزءاً من جوهر نفسه ، ولعله لذلك كان يحسُّ بواشجة رحم بينه وبين نظرائه ممن يعتقدون هذا المذهب الذى كان معروفاً حينئذ بمبدئين يجادل فيهما أصحابه طويلاً ، وهما العدل على الله بحيث لا يعطل حرية الإرادة عند الإنسان حتى يكون مسئولاً عن أعماله وينال ما يستحقه من الثواب والعقاب ، فلا جبر ولا حتم ولا إلزام ، ثم التوحيد وما يُطوَى فيه من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا يحده زمان ولا مكان ، وإلى ذلك يشير فى بيان علاقته الوثيقة ببعض معاصريه قائلًا له^(٢) :

إن لا يكن بيننا قُرْبَى فآصرةٌ للدين يقطع فيها الوالدُ الولدا
مقالة «العدل والتوحيد» تجمعنا دون المضاهين : مَنْ نُنَى ومن جحدنا
وواضح أنه يجعل لُحمة الاعتزال فوق لحمه القربى ، وكأنه يؤمن بأن القربى دم أما الاعتزال فعقل وروح ، وهو لذلك فوق القربى وشائج وأواصر . ولا يهمننا أنه كان يؤمن بالاعتزال من حيث هو ، وإنما يهمننا أن الاعتزال وصله بالثقافات الأجنبية على اختلاف صنوفها وألوانها ، فقد كان المعتزلة يتصلون مباشرة بهذه الثقافات لدعم عقولهم من جهة ولتبين ما فيها من آراء فاسدة كانوا ينقضونها نقضاً ، وكانت أهم ثقافة أكتبوا عليها الثقافة اليونانية بما فيها من فلسفة ومنطق ، وأكبر معهم كثير من الشعراء - وخاصة من كانوا يعتقدون الاعتزال - على هذه الثقافة ينهلون منها ويعبون ، وفى مقلمتهم ابن الرومى الذى يبدو أنه كان يفرغ لها وخاصة فى مطالع حياته ويُنفق فى ذلك أوقاتاً طويلة ، مما أتاح لأشعاره أن تصطبغ بأصباغ عقلية واضحة .

وأول ما يطالعنا من هذه الأصباغ صيغ يعم جميع أشعاره كما تعم الخضرة أشجار

(١) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى) (٢) ابن الرومى : حياته من شعره (طبع
المكتبة التجارية) ص ٢٢٢ .

الطبيعة في الربيع ، ونقصد استقصاءه للمعاني ، فهو إذا ألمَّ بمعنى لم يكد يترك فيه بقية لأحد من بعده ، وكان لذلك تأثير مهم في قصائده إذ تبدو الأبيات فيها مترابطة ترابطاً لا يُعرَفُ لأحد غيره من شعراء العربية ، ترابطاً يجعل البيت لا يُفْهَمُ تمام الفهم إلا إذا نظر القارئ فيما يسبقه وما يتلوّه ، حتى لتصبح القصيدة بناء متكاملًا متناسقًا ، مما يوثق الوحدة بينها لا الوحدة الموضوعية فحسب ، بل أيضًا الوحدة العضوية ، إذ تصبح كلاً واحداً مؤلفاً من أجزاء ولكل جزء أوبيت مكانه ، بحيث لو نُزِعَ منه إلى مكان آخر لنبا به المكان الجليد . ومنشأ ذلك أن الأبيات يتولد بعضها من بعض ، أو قل هي الأفكار والمعاني ما تزال تتوالد وتتشعب ، وكل شعبة تنشأ عن سابقتها وتلتحم بها لحمة القرابة ، بل لحمة الأعضاء في الجسد الواحد .

وتتصل بهذا الجانب عند ابن الرومي خصائص عقلية كثيرة ، لعل أولها هذا الحسب الذي لا حد له ، فقد أصبح العقل العربي يتعمق المعاني حتى يصل إلى قاعها وقرارها ، ويستخرج كل ما كان مستوراً بها من لآلٍ كانت خافية عن الأنظار ، بل إن الشاعر يغوص في مسارب المعاني فيطلع على شُعَبٍ لا تكاد تحصى وهما جانبان : جانب التشعيب والتفريع وجانب الكشف والاستقصاء ، حتى يتضح المعنى من جميع جوانبه ، وحتى نصبح كأننا نستمع إلى صور من الحوار المعروف عند المعتزلة ، فهم ما يزالون بحوارهم يثيرون دقائق المعنى حتى ينكشف من جميع أطرافه ، وإذا هو واضح أشد ما يكون الوضوح بفضل علم المنطق الذي يستهدون به في مباحثهم وبفضل ملكاتهم العقلية التي صقلها الفكر الفلسفي . وكأنما تحولت المعاني الشعرية عند ابن الرومي إلى صورة من صور حوارهم ، فهي تنفرع إلى أقصى حد ، وهي تتضح أيضاً إلى أقصى حد ، ولذلك كانت القصيدة عنده تطول طويلاً مسرفاً لا يُعرَفُ لشاعر عربي من قبله ولا من بعده ، لأن المعاني تُدْكَرُ بجميع شعبها ، وما يزال يستقصيها حتى تبدو واضحة أشد ما يكون الوضوح وهو الوضوح نفسه الذي يُشْغَفُ به أهل المنطق أو قل من يعكفون على دراسة المنطق ، حتى يستأثر بكل ما يفكرون فيه ، وحتى يمنحوه عنايتهم الكاملة .

ليس من شك إذن في أن شعر ابن الرومي يصور تعمقه في دراسة المنطق وليس

ذلك فحسب ، فإن المنطق بأقيسته وعمله يستحيل عنده شعراً وفناً ، فإذا بنا نتنقل في طرائف لا تحصى من المعاني ، وكأنما أصبحت هذه الطرائف حدوداً للشعر ، فهو لا يُتَصَوَّرُ بدونها ، وإلا يكون شيئاً غشياً لا قيمة له ، وصوّر ذلك ابن الرومي نفسه في بعض حواراه مع شاعر أنشده شعراً سليماً من العيوب مطبوعاً عارياً من دقائق المعاني ، فقال له : « نحن — أعزك الله — نطلب مع السلامة الغنيمة »^(١) . فلا شعر بدون غنيمة أو بدون معنى مبتكر أو بدون قياس سديد أو تعليل لافت دقيق ، من مثل قوله^(٢) :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحابِ
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشرابِ

وهذا التحذير من الصديق يدور في كثير من الأقوال والأمثال ، ولكن الطريف عند ابن الرومي هو التعليل البارع ، إذ قاس الصديق على الطعام والشراب الممتعين وكيف يستحيلان أحياناً داء لا شفاء منه ، وكأنما يؤتى الحذر من مأمته ، ومن تعليلاته الطريفة تعليله لمحبة الأوطان ، إذ يقول^(٣) :

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضأها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهد الصبا فيها فحنوا لذلك
فقد ألفت النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالك

وكان الشعراء قبله يتشوقون إلى أوطانهم ولا يعرفون العلة في ذلك حتى كشفها لهم ابن الرومي ، فكل يتعلق بوطنه ويشغف به ، لأنه ملاعب صباه وشبابه التي لا يبرح خيالها ذاكرته ، والتي طالما ألفتها النفس وأنست لها ، بل لقد التصقت بها التصاق الروح بالجسد ، بحيث لو انفصم أحدهما عن صاحبه أصبح في المالكين . وتكرر في شعر ابن الرومي كثرة مفرطة التعليلات والأدلة والأقيسة كقوله في بعض غزله^(٤) :

(٣) الديوان ص ١٣ وزهر الآداب ٩٩/٣ .
(٤) زهر الآداب ١٢/١ .

(١) ذيل زهر الآداب (طبع الطبعة
الرحمانية بمصر) ص ١٩٠ .
(٢) الديوان ص ١٣٩ .

لا نكثرُ ملامَةَ العُشاقِ فكفاهُم بالوجد والأشواق
 إن البلاء يُطاق غيرَ مضاعفٍ فإذا تضاعف كان غيرَ مُطاقٍ
 لا تطفئنُ جَوَى بلومٍ إنَّهُ كالريح تُغري النار بالإحراقِ

فهو يقيس تكرار اللوم للعشاق على تضاعف البلاء الذي لا يطاق ، ولا يكفيه هذا القياس ، وإذا هو ينفذ إلى قياس بدیع ، فالهوى نار مشتعلة في الصدور ، واللوم ريح عاصفة تفرقها يميناً وشمالاً ، حتى تأتي على كل ما تجاوره ، وكأنما لا يزال يغريها بأن تزداد تلظيماً وإحراقاً واشتعالاً . وبجانب هذه القدرة لدى ابن الرومي على الأقيسة والعلل ، نحس قدرة فائقة على الجدل وكسب القضية بالحق وغير الحق ، وكأنه معتزلي كبير يناقش بعض مسائل الاعتزال ويحاول أن ينقض على خصمه حججه وأدلته ، أو قل إنه يدلي بحجج وبراهين تمحو كل براهينه وحججه ، وهي براهين وحجج شعرية ، فيها فن وفيها جمال وفيها حس الشاعر وفطنته ، من ذلك أن يجد الناس من حوله مجمعين على إثارة الورد على الرجس ، فيرد عليهم لإجماعهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع يقول ^(١) :

خجلتُ خدودُ الورد من تفضيله خَجَلًا تورَّدُها عليه شاهدُ
 أين العيونُ من الخدود نفاسةً ورياسةً لولا القياسُ الفاسدُ

فاحمرار الورد الذي طالما شبهه الشعراء بالخدود إنما هو احمرار خجل من تفضيل من لا يقدرון الجمال له على الرجس الذي يشبهه الشعراء بالعيون ، وأين الخدود من العيون روعة وجمالاً ، وهويون بعيد لا يخطئ فيه إلا أصحاب القياس الفاسد الكليل . وما يتضح عنده فيه أثر الاعتزال واختلاطه بالمعتزلة أن نراه يعمد إلى ذم شيء ذمّاً طبيعياً ، لأنه يستحق الذم ، ثم يعمد بعد ذلك إلى مدحه ، بياناً لقدورته في الحجاج والجدل . وينسب إلى الجاحظ كتاب في المحاسن والأضداد بعامة ، وهو منحول عليه ، ولكننا نجد معاصراً لابن الرومي هو إبراهيم بن محمد البيهقي يؤلف كتاب المحاسن والمساوي وهو منشور ، ويدل بوضوح على أن الناس شغفوا في العصر — يقوِّدهم المعتزلة من أمثال الجاحظ — بمدح الشيء وذمه ، وعلى

قبس من هذا الصنيع عمد ابن الرومي إلى ذم الحقد البغيض ، فقال ^(١) :

الحقدُ داءٌ دفينٌ لا دواءَ له يرى الصدورَ إذا ما جَمَرُهُ حُرِّثَا ^(٢)
فاستشف منه بصفحٍ أو معاتبَةٍ فإنما يبرئ المصدورَ ما نفثَا ^(٣)

فالحقد داء لا يمكن الشفاء منه ، وما يزال جَمَرُهُ متقدماً في الصدور ولا يمكن إطفائه ، ويحاول ابن الرومي أن يكتشف دواء لصاحبه ، فيوصيه بالصفح والعتاب فقد يفسان عنه بعض الشيء ، ولكن أى تنفيس ؟ إنه تنفيس المصدور الذى قد ينفس عنه لحظة ما ينفضه ، وسرعان ما ينطوى صدره ثانية على مرضه أو قل على هذا الجمر جمر الحقد الذى يشوى صدر صاحبه شيئاً . وابن الرومي فى ذلك كله متفق مع الناس جميعاً فى ذم الحقد الكريه ، ولكن أليس من حقّه أن يُغرب عليهم كما يغرب أحياناً المعتزلة أصحاب الحجاج واللسن واللدن فى الخصومة ، فيمدح لهم الحقد البشع ويحيله شيئاً مستحباً لا بشاعة فيه ولا قبح ، يقول ^(٤) :

وما الحقدُ إلا تَوَأْمُ الشكر فى الفتى وبعضُ السجايا يَنْتَسِبْنَ إلى بعض
فحيث ترى حَقْدًا على ذى إِسَاءَةٍ فثمَّ ترى شكرًا على حَسَنِ القَرْضِ
ولولا الحقودُ المستكنّاتُ لم يكن لينقضَ وتراً آخر الدهر ذو نقض

فالحقد توأم للشكر وقرين له ، وحرى بنا إذا تأملنا فى حقيقته أن نعيد النظر فيه ، فإنه يُسْتَحَبُّ لإزاء بعض الأشخاص ممن يسيئون إلى الناس ، بينما يستحب الشكر لإزاء من يحسنون القرض والتفضل على من حولهم ببعض ما أنعم الله عليهم . ويلفت ابن الرومي إلى دليل قاطع يدل على أن الحقد محمود ، فدلّواه لصاع الوتر أو الثأر ولم يأخذ موتور حقه من وافر . وبذلك استطاع أن يخرج الحقد الذميم فى صورة حسنة محمودّة ، بفضل مهارته فى الحوار والجدل ، وكأنه معتزلى كبير يدافع عن قضية من قضايا المعتزلة الشائكة . وكثيرون من الشعراء وراهه أفادوا على شاكلته من حوار المعتزلة ومناظراتهم ، كما أفادوا من ثقافات العصر ما استحالت به ملكاتهم

(٢) المصدور: المريض بذات الصدر أو الرئة.

(٤) الديوان ص ١٦٣ .

(١) الديوان ص ١٣٧ .

(٢) يرى : يشمل .

العقلية خصبة إلى أبعد حدود الخصب ، بحيث أتاحت لهم ما لا يحصى من دقائق المعاني والأخيلة .

٣

التجديد في الموضوعات القديمة

ظلت الموضوعات القديمة المألوفة من مدح وغير مدح وهجاء تسيطر على الشعر والشعراء ، وكأنما كان هناك إصرار قوى أن تظل الشعر العربى شخصيته وموضوعاته وأن يظل حياً على الألسنة مع حياة الأمة ، فلا يضعف ولا يدوى عوده ، بل يقوى ويزدهر ، غير متحوّل عن أصوله ، مهما غدّته الثقافات الفلسفية وغير الفلسفية ومهما عبّر عن الحضارة العربية الحديثة ، فهو موصول دائماً بقديمه ، شأنه فى ذلك شأن الآداب الحية التى لا تنقطع صلتها بماضيتها ، مهما وقع عليها وعلى أهلها من تأثيرات حضارته وثقافته ، إذ تظل متصلة بها اتصالاً يمكن لها فى التاريخ وفى الخلود . وحقاً تنعكس على موضوعات الشعر حينئذ آثار حضارية وثقافية كثيرة ، ولكنها لا تُحدّثُ تعديلاً فى جوهرها ، فجوهرها ثابت ، إنما تحدث بعض إضافات تكثر وتقل حسب ملكات الشعراء وحسب ما كانوا يتغلّدون به من الثقافات وما كان يداخلهم من إعجاب إزاء مظاهر الحضارة الجديدة .

وأول ما نتحدث عنه من الموضوعات المديحُ ، ومعروف أن الشاعر الجاهلى كان يصوّر فيه المثل الخلقى الرفيع فى عصره ، من الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم وإباء الضيم وحصافة العقل ، حتى إذا كان العصر الإسلامى أخذ الشاعر يضيف إلى هذه المثالية مثالية الدين ، وخاصة إذا كان يمدح خليفة ، وكانوا يسجلون أعمال الخلفاء والولاة وما ينشرون من الأمن والعدالة التى لا تطيب حياة الناس بدونها ، وسجلوا أيضاً مواقع القواد مع الترك وغيرهم وبطولاتهم الحربية المختلفة . وبذلك كانت المدحة فى العصرين الجاهلى والإسلامى تشتمل بما تعرض من مثاليات على أسس قديمة خلقية ودينية لتربية الشباب ، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأجناد العرب الحربية . وكل ذلك اضطرم اضطراماً فى المدحة عند

شعراء العصر العباسي الأول ، مع محاولاتهم الجادة في التطور بمعاني المديح عمقاً وسعة وتنوعاً ، وظلت رغباتهم ومحاولاتهم في هذه الإضافة تزداد خصباً في هذا العصر ، وهم في ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة ، فإذا مدحوا خليفة أو والياً أو قائداً تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة ، وكذلك الفضائل الإسلامية ، وتمثلوا أيضاً العدل الذي يعصم الحاكم من الطغيان ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد. ويتردد ذلك دائماً على ألسنة الشعراء من مثل قول البحتري في المتوكل ، وكان اسمه جعفر^(١) :

خَلَقَ اللَّهُ جَعْفَرًا قِيَمَ الدُّنْيَا يَا سَدَادًا وَقِيَمَ الدِّينَ رُشْدًا
أَظْهَرَ الْعَدْلَ فَاسْتَنَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ ضُرَّ وَعَمَّ الْبِلَادَ غَوْرًا وَنَجْدًا

وقد مضى الشعراء يُضَفُّون هذه المثالية على الخلفاء في الحكم وفي التقوى وأيضاً في الخلق والشيم ، مهما كانت سيرتهم وكأنهم لم يكونوا يفكرون فيهم من حيث هم إنما كانوا يفكرون فيهم من حيث خلافتهم وقيامهم على حكم الرعية ، وهم لذلك يرفعون أمام أعينهم ما ينبغي أن يكون عليه الخليفة في خلقه وفي دينه وفي سيرته وفي حكمه ، وكأنما هو رمز ، رمز للأمة في حاكمها الرشيد ، وهم يبرزونه لها بالصورة التي تريدها ويريدونها معها ، صورة الحاكم المخلص الأمين الذي ينكر الظلم أشد الإنكار ، والذي يعمل بكل ما في وسعه على إشاعة العدالة بين أفراد رعيته حتى يتساووا في الانتفاع بالحياة تساوياً تاماً . وكان هناك من يبالغون في مديح الخلفاء حتى ليضفون عليهم صفات قلسية ، وهي صفات خلعتها شعراء الشيعة على أئمتهم منذ عصر بني أمية ، وأخذ شعراء الخلفاء من حينئذ يستعيرونها ليسبغوها بدورهم على الخلفاء الأمويين والعباسيين ، من مثل قول ابن الجهم في المتوكل^(٢) :

إِمَامٌ هُدَى جَلَّى عَنِ الدِّينِ بَعْدَ مَا تَعَادَتْ عَلَى أَشْيَاعِهِ شَيْعُ الْكُفْرِ
وقوله^(٣) :

لَهُ الْمِنَّةُ الْعُظْمَى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَطَاعَتُهُ فَرَضٌ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٌ

(٣) الديوان ص ١٦٤ .

(١) الديوان ٧١٢/٢ .

(٢) الديوان ص ٢٢٢ .

فهو الهادي المهدي الذي تجب طاعته على جميع المسلمين ، وكان الشعراء من وراء ابن الجهم يبالغون في بيان ذلك مبالغات شتى ، مما سنعرض له في غير هذا الموضع . ونرى كثيرين منهم يسجلون الأعمال الكبرى في عصور الخلفاء ولناخذ مثلاً المتوكل ، فجميع أعماله مثبتة في دواوين الشعراء وفي كتب التاريخ ، فمن ذلك أمره لأهل الذمة بلبس الطيالة العسلية والزنانير مما وقفنا عنده في الفصل الأول ، فقد تغنى بهذا العمل ابن الجهم في أشعاره^(١) ، ومن ذلك عقده البيعة لابنيه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ، فقد تغنى شعراؤه بهذا الصنيع طويلاً^(٢) .

ويكثر في عهده بناء القصور على نحو ما أسلفنا ، وكلما شاد قصراً نوّه الشعراء به وبروعة بنائه وما يدل عليه من مظاهر الحضارة والعمران لعصره . وليس هناك حادثة جلّت من سجن وزير وتعذيبه مثل ابن الزيات ، أو غضب على قاض وتصفيه أمواله مثل ابن أبي دؤاد ، أو على طبيب وقبض أمواله مثل بختيشوع أو على كاتب من كتاب الدواوين أو على بعض الولاة إلا ويسجل الشعراء ذلك في أشعارهم مما يجعلها بحق وثائق تاريخية ، وأروع ما سجلته هذه الوثائق أيجاد قوادنا وأبطالنا وجيوشنا في حومات الوغى شمالاً وشرقاً ، وهي ليست تاريخاً يُسرّد كما تصنع كتب التاريخ ، وإنما هي أناشيد انتصارات رائعة لجنودنا وقوادهم البواسل في حروب الروم والترك والأرمن ، وماتني الجيوش العربية تخوض إليهم بحوراً من الدماء منزلة بهم صواعق الموت التي لا تبقى ولا تذر . وكان من أبطال هذه المعارك لعهد المتوكل يوسف بن محمد الثغري ، وكان المتوكل قد ولاه بعد وفاة أبيه على أرمينية ، وكانت قد نشبت بها ثورات فأخذ يسحقها بجنوده المغاوير سحقاً ، وفيه وفي انتصاراته على بعض البطارقة الأرمنيين يقول البحتري^(٣) :

هو الملكُ المرجوُ للدين والعُلا فلله تقواه وللمجد سائره
له البأسُ يُخشى والساحة تُرتجى فلا الغيث ثانيه ولا الليل عاشره^(٤)
كسرتهم كسر الزجاجة حدةً ومن يجبر الوهي الذي أنت كاسره
حسامٌ وعزمٌ كالحسام وجحفلٌ شدادٌ قواه مُحصّداتٌ مرائرُه^(٥)

(٤) عاشره : يبلغ معشاره .

(٥) محصّدات : محكمات . مرائرُه : قواه ،

وأصلها طاقات الجبال .

(١) الديوان ص ١٩٢ .

(٢) الطبري ٩ / ١٨١ .

(٣) الديوان ٢ / ٨٧٧ .

وليست هناك وقائع حربية كبيرة إلا ودون الشعراء فيها البطولات العربية ، وكان من أهم هذه الوقائع ثورة الزنج ، وقد تغنى الشعراء فيها ببطولة الموفق غناء مدوياً ، ونرى الطبرى يسجل فى تاريخه طائفة كبيرة من أشعار هذا الغناء . وبالمثل نراه يدون أغاني وأناشيد أخرى فى حروب القرامطة ، وكأنما استقر فى نفوس المؤرخين أن الشعر الذى تغنى بهذه الحروب ووصفها لا يقل أهمية عن وثائق التاريخ ، فهو ليس مديحاً للبطولات وتمجيذاً فحسب ، بل هو أيضاً تاريخ ، وهو تاريخ نابض بالحياة . ومن المحقق أنه حتى الآن لم يستغل هذا التاريخ الشعرى فى كتابة تاريخ العصر ، إذ كثيراً ما يحوى من التفاصيل ومن دقائق الأحداث ما لا نجاهه مصوراً فى كتب التاريخ ، ولذلك كان ينبغي على المؤرخين ألا يكتفوا بما يقرعون فى كتب التاريخ عن الأحداث والوقائع الحربية ، بل يضموا إلى ذلك وصف تلك الوقائع والأحداث المبثوث فى دواوين الشعراء ، حتى يطلعوا على كل جوانبها اطلاعاً مضبوطاً دقيقاً .

وظل شعراء المديح فى كثير من مدائحهم يقلدون الأقدمين فى الوقوف على الأطلال والبكاء على اللمن والآثار العافية ، وفى رأينا أن استبقاء الشاعر العربى على مدى العصور الماضية لهذا المطلع فى كثير من قصائده لم يكن لبيان صلته بأسلافه ولا استبقاء لصورة من صور حياتهم الرعوية فى العصر الجاهلى وما كان يتصل بها من الرحلة الدائرة حول مساقط الغيث والكلأ ، وإنما كان لإحساس الشاعر إحساساً عميقاً بتعبير هذا المطلع عن كل ما ينمحي من حياة الإنسان إلى غير مأب ، سواء فى ذلك حبه وغير حبه ، فداثماً لحظات ماضيه تذهب منه إلى غير مأب فى الشباب وغير الشباب ولا يستطيع لها رجعة ولا أوبة . وكأنما تصوّر الأطلال نوازع الفناء التى تطبق غاليها على كل ما يمضى من حياة الإنسان ، وعادةً تطبق هذه المخالب عليه آخر الأمر ، فيصبح أثراً بعد عين ، وهو لذلك يقف بالأطلال باكياً بدموع غزار ، متمنياً لو عادت إليها نضرة الحياة القديمة ، ولذلك قد يستسقى لها السحاب حتى تعود إليها النباتات والظلال وحتى تدب فيها الحياة ، فمن ذلك قول ابن المعتز يصف داراً وأطلالاً^(١) :

(١) الديوان (طبعة دار صادر بيروت)

ص ٣٥٤ وزهر الآداب ١ / ١٦٦ .

لا مثل مَنَزَلَةِ الدُّوَيَّرَةِ مَنْزَلُ يا دارُ جادِكِ وابِلُ وسقاكِ
 بُوْسًا لَدَهْرِ غَيْرَتِكِ صُرُوفُهُ لم يَمَحُ من قَلْبِي الهوى ومحاكِ
 لم يَحُلْ للعَيْنين بعدكِ منظرُ ذُمُّ المنازلُ كُلُّهن سواكِ
 أَىُّ المعاهد منك أُنْدَبُ طيِّبُهُ مُمَسِّكِ بِالْأَصَالِ أَم مَغْدَاكِ
 أَم بَرْدُ ظِلِّكَ ذِي الغصون وذِي الجَنَّا أَم أَرْضُكَ المِثْأُ أَم رَبَّاءُكَ (١)
 وكأَنَّمَا سَطَّعَتْ مجامرُ عَنَبَرٍ أَوْفَتْ فَأَرُّ المِسْكِ فوق ثَرَاكِ
 وكأَنَّمَا حَصْبَاءُ أَرْضِكَ جَـوْهَرُ وَكَأَن مَاءَ الوردِ دَمْعُ نَدَاكِ
 وكأَنَّمَا أَيْدَى الرِّبِيعِ ضُحِيَّةُ نَشَرْتُ ثِيَابَ الوُشْيِ فوق رُبَّاءِكِ

وابن المعتز يلمُّ بتلك الدار ، ويرأها وقد فقدت بهجتها القديمة وغيرتها صروف
 الزمان حتى محت أطلالها الدوارس ، ولا يزال هواه بها ماثلاً في قلبه ، وهو
 يدعو لها الغيث أن يجودها حتى تستعيد حلَّتتها الدائرة . وتراعى له من خلال
 ذكرياته وعهود حبه الماضية ، فيرى كل الديار دونها ولا تقاس إلى جمالها ، ويبكيها
 ويندبها ، ويندب كل معهد فيها وما كان ينتشر فيه من طيب على الصباح الباكر
 وعلى الآصال في المساء وعلى الغصون ذات الظلال والثَّار ، وتفوح الأرض برائحتها
 الساطعة ، وكأَنَّمَا تفوح مجامر عنبر ، أو كأَنَّمَا تفوح فأرة مسك ، وحتى الحصى
 كأنه جواهر سقطت من أهل تلك الدار ، وكأن قطرات الندى ماء ورد عاطر ،
 والربيع ينشر بها وشيا عجيب الألوان . وهو وصف يحمل حنيناً ووجداً لا نهاية
 لهما للدار وما كان بها من لقاء بين الأحبة ، لقاء جعل كل ما حولهم يبدو في هذه
 الصورة الفاتنة المحفورة في ذهن ابن المعتز حفرأ لا يمكن أن يطمس أو تأتى عليه
 الأيام .

وكان الشاعر القديم ينزع نفسه من الأطلال وما يتصل بها من ذكريات الهوى
 والشباب الدائرة ، مفضيأ إلى وصف رحلة له في الصحراء ، يتحدث فيها عن
 طول سُرَّاه وعن الفلوات وحيوانها الأليف والوحشى ومَدَى ضَنَّا بعيره في رحلته

(١) الجنا : الثمر . الميثاء : السهلة . الريا :
 الراحة .

الطويلة الشاقة ، وكأنما يريد أن يجذب نفسه جذباً من أفكار الفناء ويتغلغل في نوازع الحياة . وتبعه الشاعر العباسي مستبقياً على كل هذه العناصر في قصيدة المديح ، وقد يفرد لوصف هذه الرحلة قصائد أو مقطوعات طريفة ، وهي متناثرة في دواوين الشعراء من مثل قول علي بن الجهم^(١) :

كم قد تجهمني السرى وأزالني ليلٌ ينوءُ بصدري متناولٌ
وهزرتُ أعناقَ المطى أسومها قصداً ويحجبها السوادُ الشامل
حتى تولى الليلُ ثانی عِطْفِهِ وكان آخره خِضَابٌ ناصِلٌ
ورأيت أغباش الدجى وكأنها حَزَقَ النعام دُعْرَنَ فهِى جوافِلُ^(٢)

وهو يصور سُراره في ليل متناول يحتم سواده على آفاق الكون ، وما زال يقطعه حتى تصل خضابه الأسود وبدت أغباشه وبقيائه وكأنها نعام مذعور ، فهي تفر فراراً من الضوء الذي أخذ ينتشر على قطع الظلام . وطالما وصف الشعراء نحول لإبلهم وضناها كناية عن طول سُرارها ومدى ما عانته من نصب في وعناء السفر الطويل الذي لا يكاد ينتهى . وألم شعراء العصر كثيراً بهذا المعنى كقول البحري في وصف إبله^(٣) :

يَنَرَقِرْنَ كالسراب وقد خَضَ نَ غِمَاراً من السراب الجارى
كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار^(٤)

فهي لا تكاد تبين نحولا وهزالا حتى وكأنها أصبحت سراباً ، وإنها لتشبه القسي المنحنية ، بل هي أكثر نحولا فهي كالأسهم ، بل هي أيضاً أكثر ضنّاً وهزاً لا حتى غدت كالأوتار ضموراً . وكانوا في أثناء ذلك يعرضون لوصف حُسْرِ الوحش وأثنائها التي يصادفونها في الفلاة ، وكذلك لوصف الظباء وبقر الوحش ، وكل يحاول أن ينفذ إلى صورة دقيقة من مثل قول ابن المعتز^(٥) :

(١) الديوان ص ١٦٨ .
(٢) أغباش : بقايا . حَزَقَ : جماعات .
(٣) الديوان ص ٩٨٧ .
(٤) المعطفات : المنحنيات .
(٥) الديوان ص ١٥٩ .
جوافل : منزعة .

وَجَرَتْ لَنَا سُنْحًا جَاذِرُ رَمْلَةٍ تَتَلُو الْمَهَا كَاللُّؤْلُؤِ الْمَتَبَّدِ^(١)
 قَدْ أَطْلَعْتُ إِبْرَ الْقُرُونِ كَأَنَّهَا أَخَذُ الْمَرَاوِدِ مِنْ سَحِيقِ الْإِثْمِدِ^(٢)

وكان ابن المعتز قد سبق بوصف إبر القرون وأطرافها المدببة بالمراد المغموسة في الكحل شديد السواد واللمعان ، فما زال يحاول النفوذ إلى صورة جديدة حتى قال يصف ثوراً وحشياً يقود إجلأ أو قطيعاً من بقر الوحش^(٣) :

كَأَنِّي عَلَى طَاوٍ مِنَ الْوَحْشِ نَاهِضٍ تَخَالُ قُرُونُ الْإِجْلُ مِنْ خَلْفِهِ غَابَا
 فقرون البقر تتكاثر حتى ليخالها ابن المعتز غابة نبتت في الفلاة فجأة .

وكان الشعراء يعرضون أحياناً مع الربيع ووصفه للحديث عن الخمر ، على نحو ما كان يصنع أسلافهم العباسيون ، وشاعت حينئذ التهنئة بعيد النيروز ويوم المهرجان الكبير ، وكانت بغداد وضواحيها تتحول فيه إلى ساحات كرنفالات ضخمة على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان الشعراء يهتثون الخلفاء والولاة به ، وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن ملاهيه ، وقد يسوقون الحديث إلى الخمر ، على نحو ما يلقانا عند ابن الرومي في قصيدة يوم المهرجان التي مدح بها عبيد الله بن طاهر محافظ بغداد حينئذ ، ونراه يصور تصويراً رائعاً ما كان بمجلسه من قيان يتغنين غناء يأسر القلوب ، يقول^(٤) :

وَقِيَانٍ كَأَنَّهَا أُمَّهُاتُ عَاطِقَاتُ عَلَى بَنِيهَا حَوَانٍ
 مُطْفَلَاتُ وَمَا حَمَلْنَ جَنِينًا مَرْضَعَاتُ وَلَسْنَ ذَاتَ لَبَانٍ^(٥)
 كُلُّ طِفْلِ يُدْعَى بِأَسْمَاءِ شَتَّى بَيْنَ عَوْدٍ وَمَزْهَرٍ وَكَرَانٍ^(٦)
 أُمُّهُ دَهْرَهَا تَرْجِمُ عَنْهُ وَهُوَ بَادِي الْغِنَى عَنِ التَّرْجَمَانِ
 غَيْرَ أَنَّ لَيْسَ يَنْطِقُ الدَّهْرُ إِلَّا بِالتَّزَامِ مِنْ أُمِّهِ وَاحْتِضَانٍ^(٧)

(٤) الديوان ص ٨٤ .

(٥) لبان : لبن .

(٦) الكران والمزهر من آلات الطرب الوردية .

(٧) التزام : اعتناق .

(١) سنحاً : عرضاً أو مارة من الإيمن .

الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . المهيا :

بقر الوحش .

(٢) الإثمد : الكحل .

(٣) الديوان ص ٣٨ وطاو : جانع .

وقد مضى يتحدث عن تأثير هؤلاء القيان بغنائهن وبما كن يحملن من آلات الطرب على صدورهن ، وكأنها أطفال هن ، فهن يعانقنها وكأنما يرضعنها ، ولكن لا بلبن وإنما بالحن شجية تشفى الحزون من دائه ، ولكل منهن جمالها وسحرها وفنتتها وصوتها الذى يدلح الحزن والفرح جميعاً ، صوت تمدد وتعلو به كما أرادت أو كما يقول فى قصيدته :

ذات صوتٍ تهزّه كيف شاءتْ مثلما هزّت الصبا غصنَ بانٍ
وإنما أردنا بذلك كله أن نصور كيف أن شاعر المديح فى هذا العصر حاول أن يضيف إلى عناصره الموروثة عناصر مستمدة من بيئته الحضارية ، ممثلاً فيها كثيراً من المعانى والصور الدقيقة ، وكانوا دائماً يلائمون بين مدائحهم ومدحيتهم ، فإذا مدحوا وزيراً مثلاً عرضوا لسياسته وتفنته فى الكتابة ، وإذا مدحوا قائداً عرضوا لوقائع وأمجاده الحربية ، وإذا مدحوا عالماً أشادوا بعلمه ، وكذلك إذا مدحوا مغنياً أشادوا بغنائه . واضطرم حينئذ الهجاء كما اضطرم المديح ، ولم يكد يترك الشعراء خليفة ولا وزيراً ولا قاضياً ولا عالماً ولا مغنياً إلا كالوا له الهجاء كيلاً ، وأدأهم تنافسهم إلى أن يتبادلوا الهجاء ويريشوا كثيراً من سهامه . وقرأ فى أى ديوان من دواوين العصر فستجد دائماً هجاء كثيراً على نحو ما يلقانا فى ديوان البحرى مثلاً ، وقد اشتهر بهجائه بعض مدوحيه حين يقرب لهم الدهر ظهر الحجن ، مثل أحمد ابن الخصيب ممدوحه ، فإنه حين نكبه المستعين أنشده قصيدة يحثه فيها على مصادرة أمواله وسفك دمه ، وظل يسلفه بلسانه طويلاً بمثل قوله^(١) :

لابن الخصيب الويلُ كيف انبرى بإفكه المردى وإبطاله
كاد أمين الله فى نفسه وفى مواليه وفى ماله
والرأى كلُّ الرأى فى قتله بالسيف واستصفاء أمواله

وله قصائد كثيرة يمجّد فيها المستعين وعهده ، حتى إذا خلّع وولّى الترك بعده المعتز أصلاه ناراً حامية من هجائه فى ثنايا مديحه للخليفة الجديد . ولم يكن البحرى حاذقاً فى هذا الفن ، غير أنه كان هناك كثيرون يتقنونه ، مثل على

ابن بسام ، وكان يتعرض في هجائه كثيراً للخلفاء والوزراء وقادما سلم أحد من لسانه ومن قوله في العباس بن الحسن وزير المكتفى ^(١) :

وزارة العباس من نَحَسْها تستقلع الدولة من أَسْها
شَبَّهَتْه لِمَا بدا مقبلا في حُلَلٍ يُخَجِّلُ من لبسها
جارية رَعْناء قد قَدَّرَتْ ثيابَ مولاها على نفسها ^(٢)

وكان أكثر ما يعتمدون عليه في الهجاء من معانٍ التهوين والتحقير والتصغير وما إلى ذلك من طعنات مصممة نافذة ، بما تحمل من سموم الانتقاص والسخرية المريرة ، كقول إبراهيم بن العباس في صديق تنكر له وجحد معروفه ^(٣) :

ولمَّا رأيتك لا فاسقاً تهابُ ولا أنت بالزاهدِ
وليس عدوك بالمتقى وليس صديقك بالحامدِ
أنتيتُ بك السوقَ سوقَ الرقيقِ فناديت هل فيك من زائدِ
على رجلٍ غادرٍ بالصديقِ كفورٍ لنعمائه جاحدِ
فما جاعني رجلٌ واحدٌ يزيد على درهمٍ واحدِ
سوى رجلٍ حارٍ منه الشُّقا وحلَّتْ به دعوةُ الوالدِ
فبعتُك منه بلا شاهد مخافةً أَدْرُكُ بالشاهدِ
وأبْتُ إلى منزلي سالماً وحلَّ البلاءُ على الناقدِ ^(٤)

والمقطوعة تمسخ هذا الصديق مسخاً ، حتى لتجعله حياً كيت وموجوداً كعدم ، فلا هو من أهل المحن ولا من أهل الزهد ولا يخشى بأسه عدو ولا يحمده صديق ، إنه كنودٌ مهين ، ولذلك ذهب يبيعه الصولى في سوق الرقيق الكبيرة ، معلناً عيوبه من الغدر وكفر النعمة والجحود ، مما جعل الناس يكفون عن شرائه إلا

(٣) ديوان الممان ١/ ١٨٣ .

(٤) الناقد : المشتري .

(١) زهر الآداب ٣/ ٨٨ .

(٢) قدرت : فصلت وقطعت .

أن يكون بدرهم واحد ، إلا ما كان من رجل سيئ الحظ كأنما استجيب فيه دعوة لأبيه ، أقدم على شرائه ، فباعه منه بدراهم معدودة ، وولى الصولى على وجهه يطلب السلامة من هذا البلاء الذى كان حلَّ به . وكان مما يؤذى المهجوين حينئذ إبداء شديداً أن يوصفوا بالقدارة ، إذ كان العرب قد تحضروا وأسرفوا فى صور النظافة وفى التطيب بالعطور ، وكان من يوصف بنتن الرائحة يتلطح بعار ما بعده عار ، ويستغل ذلك الصولى فى أحد مهجويه قائلاً له ^(١) :

وكن كيف شئتَ وقل ما تشا وأبرقَ يميناً وأزعِدْ شِمالاً
نجا بك لؤلؤمكَ منجى الذبابِ حمته مفاذيره أن يُنالا

فليكن كما يشاء فإن أحداً لن يستطيع التعرض له لحقارته وقذارته . ومعروف ابن الروى هو أكبر شعراء المهجاء فى العصر وأكثرهم سهاماً لمهجويه ، وكان يعرف كيف يصب عليهم التصغير والحقارة والضعة ، كقوله المشهور فى وصف بخيل ^(٢) :

يقتَر عيسى على نفسه وليس بباقي ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

ففتحة أنف واحدة كانت تكفيه ، ولو أنه رأى فيها حقاً كفاية ما انتفع بالفتحة الأخرى ، ولا حاول ذلك حرصاً وبخلًا وشُحاً جبِل عليه . وكانت لابن الروى حاسة تلتقط العيوب الجسدية وتستطيع تكبيرها على نحو ما يصنع أصحاب الصور الكاريكاتورية الهزلية ، فإنهم يعرفون كيف يستغلون دقائق العيوب فى الوجوه والأجسام ، وتستحيل مقطوعات وقصائد كثيرة فى ديوان ابن الروى إلى صور ساخرة من مهجويه ، حتى ليأخذوا أحياناً شكل حيوانات مجترّة وغير مجترّة ، كقوله فى بعض مهجويه ^(٣) :

ما ظننت الإنسان يعجتر حتى كنتَ ذاك الإنسان عَيْنَ اليقين

(١) الديوان فى مجموعة « الطرائف الأدبية » (٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة

العاشره بدار المعارف) ص ٢١٤ .

ص ١٦٣ .

(٢) الديوان ص ٣٧٥ .

أما أبو سليمان الطنبورى المغنى فقد استمع إلى غنائه القبيح يوماً ، فقرأى له في صورة بغلٍ لطحَّان ما يزال يحرك فكيه في أكل طعامه من القول وغيره ، أو كما يقول^(١) :

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا عند التنغم فكِّي بغلٍ طحَّانٍ

وهو جانب طريف عند ابن الروى سنعرض له ثانية في ترجمته ، والمهم أن نعرف الآن أنه استطاع أن ينمى الهجاء في هذا الجانب الساخر إلى ذروة لم يصل إليها الشعر العربى قبله ولا بعده .

وظل الفخر نشطاً في العصر ، وكان قد ضعف الفخر القبلى منذ العصر الماضى وظل ضعيفاً في هذا العصر لضعف الشعور بالعصية القبلية ، وإن كنا نجد هذا الشعور من حين إلى حين ، ولكنه على كل حال كان شعوراً خافتاً ، ونجده أحياناً على لسان البحترى حين يفتخر بطيئ قبيلته ، وكذلك على لسان ابن الجهم القرشى حين يفتخر بقريش وجدها فهر بن مالك قاتلاً^(٢) :

أبت لي قُرومٌ أنجبتني أن أرى وإن جلَّ خطبٌ خاشعاً أتضجّر
أولئك آل الله فهر بن مالك بهم يُجبرُ العظمُ الكسيرُ ويكسرُ
همُ المنكبُ العالى على كل منكب سيوفهم تُفنى وتُغنى وتُفقرُ

وبقيت من ذلك بقية عند ابن المعتز ، إذ نراه يفخر طويلاً على بنى عمومته العلويين ، وهو فخر سياسى يدور حول الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين ، وربما كان أروع من هذا الفخر عنده فخره العام الذى يخلطه بشكواه ، والذى يتحدث فيه عن حبه مقدماً لبعض صواحيبه فضائله من الشجاعة والبأس والكرم الفياض والوفاء ، ومن طريف فخره قوله^(٣) :

لا أشرب الماء إلا وهو منجردٌ من القذى ولغيرى الشوبُ والرنقُ^(٤)
عزى حسامٌ وقلبي لا يخالفه إذا تخاصم عزمُ المرء والفرقُ^(٥)

(٤) الشوب : الماء المخلوط . الرنق : الكدر .
(٥) الفرق : الخوف .

(١) الديوان ص ٣٦١ .
(٢) الديوان ص ١٣٢ .
(٣) الديوان ص ٣٣٠ .

مَيِّتُ السَّرَائِرِ ضَحَّاكُ عَلَى حَقِّقٍ مَا دَامَ يَعْجِزُ عَنْ أَعْدَائِي الْحَقِّقُ
فهو يشرب الماء صفوياً وغيره يشربه كدراً وشوباً وطيناً ، وهو قوى العزيمة ،
يكنم سره ونيتته ، أو هو بعبارة أخرى رجل كامل المروءة . وقد تغنى الشعراء معه
طويلاً بالكرامة والعزة والأنفة والشيم العربية الرفيعة التي ظلت لا تبحر ذاكرة العرب
على مر العصور .

واحتدم الرثاء في العصر ، فلم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد ولا نابه مشهور
إلا رثاه الشعراء ، وكان يحدث أن يقتل الخليفة أو يخلع ويموت في سجنه ، وكان
من الشعراء من يتأثر لذلك تأثراً عميقاً ، فتتفجر لوعاته على لسانه رثاء حاراً ، وما
يصور ذلك مقتل المتوكل الذي مرّ بنا الحديث عنه ، وكان البحري حاضراً مقتل
فتعمق التأثر نفسه ، فبكاه بقصيدته^(١) :

مَحَلٌّ عَلَى الْقَاطُولِ أَخْلَقَ ذَائِرُهُ وَعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ جَيْشًا تَغَاوَرُهُ
ويقال إنه نظمها حين ولى ابنه المعتز الخلافة وهي ليست رثاء ولا تأبيناً فحسب ،
بل هي أيضاً ثورة على الجحاة وفي مقدمتهم ولى العهد المنتصر ، إذ تحول صدره إلى
ما يشبه بركاناً لا يزال يقذف بالحُمَمِ الملتهبة ، حتى ليحرم على نفسه كل متاع
إلا أن يهب من يأخذ بثأر المتوكل ويسفح دماء قاتليه دمماً بدم ، ويعجب أن ابنه
وولى عهده يشترك في دمه ، ويدعو الله ألا يمتعه بترائه ، يقول :

حَرَامٌ عَلَى الرَّاحِ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى دَمًا بَدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ^(٢)
أَكَاكَ وَلِيُّ الْعَهْدِ أَضْمَرَ غَدْرُهُ فَمَنْ عَجَبُ أَنْ وَلِيَّ الْعَهْدِ غَادِرُهُ
فَلَا مُلَى الْبَائِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى وَلَا حَمَلْتُ ذَاكَ الدَّعَاءَ مَنَابِرُهُ^(٣)

وكان ابن المعتز صديقاً حميماً للخليفة المعتضد ، وكان لا يبارى في شجاعته
وبأسه ، وكانت أيامه أيام أمن وسعود للخلافة ، فلما وافاه القدر جزع عليه ابن
المعتز جزعاً شديداً ، وبكاه وبكى دولته بطائفة من المراثي الحارة ، منها مرثيته^(٤) :

(٣) مل : منع .

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .

(١) الديوان ٢ / ١٠٤٥ .

(٢) مائره : سائله .

يادهرُ وَيُحْك ما أَبْقَيْتَ لى أحدا وَأَنْتِ والدُ سوءٍ تَأْكُل الولدا

وقد مضى فيها يندب سكناه فى دار موحشة ، وقد خَلَف من ورائه الجيوش والكنوز التى لم تكن تُحصى عدداً ، والسرير أو العرش الذى كان يملؤه مهابة وسودداً ، ويذكر سحقه للأعداى سحقتاً لا يبقى ولا يذر ، والحياد والرماح تغدو عليهم وتروح ، كما يذكر قصوره ووصائفه وملاهيهِ وأمجاده الحربية ، يقول :

ثم انقضيتَ فلا عَيْنٌ ولا أثرٌ حتى كأنك يوماً لم تكن أحدا

وعلى نحو ما تفجعوا على الخلفاء تفجعوا على أبنائهم وعزّوهم فيهم ، وبالمثل صنعوا مع الوزراء وذوى النباهة والشأن ، ومرّ بنا فى حديثنا عن خزانات الكتب ما أقام على بن يحيى المنجم فى ضيعة له من خزانة ضخمة للكتب كان الناس يؤمنونها من كل بلد ، فيجدون فيها نفقتهم وما يشاءون من كتب لا تكاد تحصى ، وكان الخلفاء منذ المتوكل يسبقون عليه عطايا جزيلة ، فكان ينفقها على مكتبته وعلى الناس من شعراء وغير شعراء ، فلما توفى رثاه على بن بسام رثاء رائعاً على هذا النمط^(١) :

قد زرتُ قبرك يا علىّ مسلماً	ولك الزيارة من أقلّ الواجب
ولو استطعت حملتُ عنك ترابه	فلطالما عنى حملتَ نوائبى
ودمى فلو أنى علمت بأنه	يروى ثراك سقاه صوبُ الصائب
لسكبته أسفاً عليك وحسرة	وجعلتُ ذاك مكان دمعٍ ساكب
فلئن ذهبتْ بملء قبرك سوّداً	لجميلُ ما أبقيت ليس بذهاب

والقطعة تفيض حسرة ولوعة ، حتى ليتبنى ابن بسام أن لو فُتداه بروحه ومات مكانه وحمل عنه ترابه ، ويقول إنه لو عرف أن دمه يروى ثراه لسكبه عليه ولم يسكب دموعه المنهلة . ثم يسترجع نفسه فجميل ما أسدى إلى الناس من صنّع لن يذهب سُدًى ، بل سيظل خالداً على مر الزمان . وكانوا يعزّون الآباء فى البنات وأن يحتسبوهن عند الله ، ولهم فيهن تعزيات طريفة ، من ذلك تعزية ابن الروى

(١) زهر الآداب ٨٨/٣ وانظر معجم

الشعراء للمرزبانى ص ١٤٧ .

لابن المنجم المذكور في ابنة له على هذه الشاكلة ^(١) :

لا تبعدنَ كريمةً أودعتها صِهراً من الأصهار لا يُخزِيكَ
إني لأرجو أن يكونَ صداقُها من جَنَّة الفردوس ما يرضيكَا
لا تياسنَ لها فقد زوَّجتها كُفوا وضمنتَ الصداقَ مليكَا

وكانوا يحاولون النفوذ إلى العزاء بأن الموت مصير لا بد منه، وأن أحداً لن يعيش إلا إلى أجل محدود فنحن دائماً مشهودون إلى الموت، وكل لحظة تمضي تموت ولا تعود إلى الحياة أبداً، فالدهر لا يعيدها ولا تعيدها أيامه، بل لكان الأيام خلقت لكي تنزل الكوارث على الناس، أما ما قد تجلبه لهم من نعم فهي إنما تجلبه عن غير عمد، وفي ذلك يقول ابن المعتز في بعض مراثيه ^(٢) :

أَلَسْتَ تَرَى مَوْتَ الْعُلَا وَالْمَحَامِدِ وَكَيْفَ دَفَنَّا الْخَلْقَ فِي قَبْرِ وَاحِدٍ
وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ يُسْشَنُ عَوَامِداً وَيَحْسَنُ إِنْ أَحْسَنُ غَيْرَ عَوَامِدِ
وَسَعَرَ مَوْتَ الْأَبْنَاءِ وَذَوَى الرَّحِمِ قُلُوبَ الشَّعْرَاءِ ، فَبِكُوهِم بدموع غزار وأنوا
أَنِيناً حاراً من قلوب جريحة كوتها نار الفراق الملتهبة ، ومضوا يتأوهون وجدوات
الحزن الممض تلذع أفئدتهم لدعاً ، ويشتهر في هذا الجانب ابن الرومي برثائه
لابنة الأوسط وقد مات منزوفاً وهو لم يزل في المهد صبيّاً ، وأحس كأن القدر
اختطف منه فلذة كبيرة من كبده ، فامتلاّت نفسه حزناً وشقاء ، وقعهما على
قيثارته ودموعه تنحدر على خديه ، وإنه ليخاطب عينيه أن ترسل الدموع غزيرة ،
علَّها تنفس عنه شيئاً من محنته في ابنه ، يقول ^(٣) :

بكاؤكما بَشْفِي وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي فجدوا فقد أودى نَظِيرُكما عِنْدِي ^(٤)
أَرِحَانَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا أَلَا لَيْتَ شَعْرَى هَلْ تَغَيَّرَ عَنْ عَهْدِي
كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّةٍ وَلَا شَمَّةٍ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدٍ
وَأَنْتَ وَإِنْ أَفْرَدْتَ فِي دَارٍ وَحْشَةٍ فَإِنِّي بدار الأُنْسِ فِي وَحْشَةِ الْفَرْدِ

(١) زهر الآداب ١٧٣/٢ .

(٢) الديوان ص ١٨٧ .

(٣) الديوان ص ٢٩ .

(٤) يجدي : يفيد . أودى : هلك .

والقصيدة جميعها على هذا النمط من التحسر الممض واللوعة المحرقة ، حتى
لكأنما أصبحت الدنيا كلها في عين ابن الرومي قبراً موحشاً كبيراً ، قبراً يصبُّ
عليه حزنٌ ثقيلاً . ومن رُزِيَّ بابنين له وبكاهما طويلاً إبراهيم بن العباس الصولي ،
وكان الموت قد فجأه في أولهما ، ثم لم يلبث أن فجأه في الثاني ، فقال (١) :

كلُّ لساني عن وصف ما أجدُ ودُقْتُ ثُكْلاً ما ذاقه أحدُ
ما عالج الحزن والحرارة في الأُحشاء مَنْ لم يمت له ولد
فُجِعْتُ بابني ليس بينهما إلا ليال ما بينها عَدَدُ
وكلُّ حُزْنٍ يَبْلَى على قدم الـ دهرٍ وحُزْنِي يُجِدُّ الكَمَدُ

وشاعرية الصولي كانت دون شاعرية ابن الرومي ، ولذلك لم يبلغ في تصوير
حزنه وأساه على فلنقى كبده ما بلغه ابن الرومي من تصوير كارتته في ابنه
وفاجعته فيه .

وذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول أن شعراء هذا العصر بكوا بغداد حين
أصابتها كوارث النهب والتحريق في حروب المأمون والأمين ، وبذلك عرف الشعر
العربي لأول مرة رثاء المدن ، ونجد في هذا العصر الحديد بقية لهذا الرثاء حين
هجم صاحب الزنج بمجموعه على البصرة وأنزل بها النهب والسلب والحرق وفتك
بأهلها فتتكملاً ذريعاً ، حتى قيل إنه قتل منهم في هذا الهجوم ثلاثمائة ألف على نحو
ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وقد أشرنا هناك إلى مراثنى الشعراء لتلك المدينة
وفي مقدمتها مرثية ابن الرومي :

ذَاذَ عَنْ مُقَلَّتِي لِلذِيذِ الْمَنَامِ شَغَلَهَا عَنْهُ بِالدموعِ السَّجَامِ

وهو يستهلها ببيان ضخامة الحادثة وخطورتها ، فقد نزل بالبصرة من ضروب
الذل والهوان والخسف والعسف ما ملأ نفسه ألماً وهولاً وحسرة وأوعة ، حتى إنه
ليبكي بكاء مرّاً طوال نهاره وطوال ليله ، فقد انتهك الزنج محارم الإسلام ، وإن

(١) الديوان في «مجموعة الطرائف الأدبية»

لهفته عليها لتدلع لهباً في قلبه كلهب النار التي حرقتهما ، وإنه ليندب مجدها وأمنها
ومن سفكوا الدم فيها ، حتى كان الأخ لا يفكر في أخيه ولا الأب في بنيه ،
فالجوع مشغولون بأنفسهم كل يريد النجاة ولا منجى فالسيوف تحصدهم حصداً ،
أما النساء فساقوهن سبايا حاسرات الوجوه ، وباعوهن بيع الرقيق . وخرت المدينة
الكبيرة عند أقدام الزنج تترنح إعياء ، وأصبحت القصور بالتحريق تلالاً ،
وأصبح الناس أشلاء مبعثرة في كل مكان ، وأصبح المسجد الجامع قفراً من عباده
ونسأكه . ويتحول ابن الروي من وصف الكارثة المروعة إلى استصراخ الناس كى
يردوا سيل الزنج الكاسح عن البصرة ومدن العراق ، ويرفع لهم شعارات الجهاد
الدينى ، ويستحثهم بما يكون بينهم وبين الله من حوار إزاء تلك الفاجعة إن هم
قعلوا عنها ، ويناديهم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم أن يردوا عدوان الزنج
الأيثم ، ويستنفهم في حماسة بالغة لرد هذا العار وللثأر والانتقام ، ويختم ابن
الروى المراثية ببيان فضل المجاهدين وما أعد لهم من الجنان والرضوان العظيم . وهى
بذلك تُعد مراثية من جهة واستصراخاً واستنفاراً لحرب الزنج من جهة ثانية ، وهو
استنفار يكتظ بالغیظ والحنق الشديد .

ومن موضوعات الرثاء التي استحدثت في العصر العباسي الماضي رثاء المدلل
من الحيوانات المستأنسة ، ونرى شعراء هذا العصر يحاكون أسلافهم في هذا الباب ،
ومن أروع ما نظموه فيه مراثية الحسن بن على بن أحمد بن بشار المعروف بابن
العلاف الضرير النهرواني ، وكان من أصدقاء ابن المعتز وابن الفرات وزير المقتدر ،
وكان له هريانس به تعود أن يدخل أبراج الحمام لدى الجيران ويأكل أفرانها ،
وكثر ذلك منه ، فأمسكه بعض أربابها وذبحوه ، وحزن عليه ابن العلاف ، فثراه
رثاء حاراً وكأنه يرثى صديقاً عزيزاً لديه نكبه بعض الخلفاء ، ولذلك قيل إنه كنى
بالهر عن ابن المعتز وقيل عن ابن الفرات ، خوفاً على نفسه من المقتدر الذى
نكبهما إن هو صرح بالاسم الحقيقى ، ويضيف ابن خلكان إلى هذين القولين قولاً
ثالثاً ، هو أنه كانت لعل بن عيسى وزير المقتدر جارية هويت غلاماً لابن العلاف ،
ففطن بهما فقتلا ، وبكى ابن العلاف غلامه وكنى عنه بالهر . وفى رأينا أن روعة
هذه المراثية هى التي جعلت القلماء يظنون بها هذه الظنون ، وهى خمسة وستون بيتاً ،

كلها من عيون الرثاء وغرره . وفيها يقول^(١) :

يا هِرُّ فارقتنا ولم تعدِ وكنتَ مِنَّا بمنزِلِ الوالدِ
فكيف ننفكُ عن هواك وقد كنتَ لنا عُدَّةً من العُدَدِ
تطرُدُ عنا الأذى وتحرسنا بالغيب من حَيَّةٍ ومن جُرَدٍ^(٢)
وتُخْرِجُ الفأرَ من مكانها ما بين مفتوحها إلى السُّدِّ
حتى اعتقدتَ الأذى لجبرتنا ولم تكن للأذى بمعتقد
وحمتَ حول الرَّدَى بظلمهم ومن يَحُمُّ حول حَوْضِهِ يَرِدُ
صادوك غيظاً عليك وانتقموا منك وزادوا ومن يَصِدُّ يَصِدُّ
ما كان أغناك عن تصعُّدك إلا بُرْجٌ لو كان جنة الخلدِ
والمرثية كلها تفجع على هذا المنوال ، وتزخر بالحكم مع الحسرة على فقد المهرِّ
ووع التأمّل في الموت وحقائق الحياة . ومن طريف ما نجد من مرثيات في العصر رثاء
أبي الشبل البُسرْجُمِيِّ التميمي لقنديل حطمه كبش دخل بيته وعاث فيه^(٣) وكذلك
بكاهوه قرطاساً سُرِقَ منه خلسة^(٤) .

وأكثر الشعراء في العصر من العتاب والاعتذار ، سواء بين المتحابين أو بين
الأصدقاء ، وقد تفننوا في ذلك على صور شتى تسعفهم ملكاتهم العقلية الحصنة
بمعان وخواطر لم تفد على سابقيهم ، أو لعلها وفدت ولكنهم أبرزوها إبرازاً جديداً ،
تسعفهم في ذلك مشاعرهم المرفهة وأذواقهم المتحضرة الرقيقة وهزارتهم في الإتيان
بالمعاني التي تروق وتروع العقول والقلوب جميعاً ، وربما كان من أجمل ما صاغوه
في العتاب قول سعيد بن حميد^(٥) :

أَقْلِيلُ عتابك فالبقاء قليلُ والدهرُ يعدل تارةً ويميلُ

(١) انظر في القصيدة وترجمة ابن الملاف

ابن خلكان (طبع مطبعة الوطن) ٢٤٥/١

وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع

دار المعارف) ص ٣٥٩ وثاريخ بغداد

٣٧٩/٧ ونكت الهميان ص ١٣٩ .

(٢) الجرد : الفأر .

(٣) الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية)

٢٠٤/١٤ .

(٤) الأغاني ٢٠٩/١٤ .

(٥) زهر الآداب ٢٤٦/٢ .

لم أبك من زمنٍ ذممتُ صروفه إلا بكيت عليه حين يزولُ
ولعل أحداث المنية والردى يوماً ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقتُ لتبكين بحسرة وليكثرنَّ على منك عويل
ولتفجنَّ بمخلص لك وامقٍ حبْلُ الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقتُ ولاسبقتُ ليمضينَّ من لا يشا كله لدى خليل
وأراك تكلف بالعتاب وودنا صافٍ عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قليلة فعلام يكثُر عَتَبنا ويطول

إنها حماقة أن يهادى الأصدقاء في العتاب، والحياة من شأنها ألا تجرى سويةً ، وكل ما نبكى منه يوماً نبكى عليه في يوم تال ، فأولى بنا ألا نفضى إلى التشاؤم ، إذ سرعان ما يُطْوَى بساط الحياة ، ولذلك خليق بالأصدقاء أن يعفوا عما قد يظنون بصداقتهم من كدر . ويعرض ابن حميد على صديقه الفراق الأخير الذي لا بد منه فراق الموت وكيف سيملاً صديقه عليه الفزع ويلتاع لوعة لا ينفعه إزاءها صراخ ولا عويل ، وكذلك شأنه إن سبقه صديقه ، وفيم العتاب وصداقتهم ما كلها صفاء وبرٌ ، وحرى بهما أن ينعمتا بتلك الصداقة قبل أن يقرع الموت الأبواب ويفترق الصديقان افتراقاً لا لقاء بعده . ولابن الرومي في العتاب كثير من المعاني الباهرة ، من مثل قوله في آل وهب^(١) :

تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا نبالَ العدا غنى فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصرٍ على حين خذلان اليمين شالها
فإن أنتم لم تحفظوا لمودتي ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها

وعفاء على هؤلاء الأصدقاء فقد كان يتخذهم دروعاً وترساً ، فإذا هم عون للأعداء ، وإذا هم يخذلونه خذلاناً مروعاً ، خذلان اليمين للشمال ، وإنه ليتوسل إليهم إن لم يحفظوا ذمام مودته وحرمة أن يكفوه شرهم كما كفوه خيرهم ، فيكونوا

لا عليه ولاه . ولعل أشهر شعراء العصر في الاعتذار وأكثرهم تفنناً فيه البحري ، وقد أجمع القدماء على الإعجاب باعتذاراته للفتح بن خاقان وزير المتوكل ومن طريف ماله فيها قوله من قصيدة ميمية مدحه بها^(١) .

عَذِرِي مِنَ الْأَيَّامِ رَنْقَنْ مَشْرِبِي وَلَقَيْنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشْمًا^(٢)
وَأَكْسَبْنِي سُخْطَ امْرِئٍ بَتُّ مَوْهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا^(٣)
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرْتُ رَبَاهُ وَطَلَّقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا^(٤)
أَعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ تَبَيَّنَ أَوْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقْدَمَا
وَلَوْ كَانَ مَا خُبَّرْتَهُ أَوْ ظَنَنْتَهُ لَمْ كَانَ غَرَوًا أَنْ أَلُومَ وَتَكْرُمًا^(٥)
أَقِرُّ بِمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَصِلًا إِلَيْكَ عَلَى أَنِّي إِخْلَاكَ أَلُومًا^(٦)
لِيَ الذَّنْبُ مَعْرُوفًا ، وَإِنْ كُنْتُ جَاهِلًا بِهِ فَلَكَ الْعُتْبَى عَلَى وَأَنْعَمَا^(٧)
وَمِثْلُكَ إِنْ أَبَدَى الْفَعَالُ أَعَادَهُ وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَمَا^(٨)

ولم نقل الاعتذار كله في القصيدة لطوله ، وجميعه يجري على هذه الشاكلة من التلطف ورقة الحاشية ، وحسن التأتى ، ودقة التنصل ، مع التضخيم للذنب الذى لا يعرفه والذى جعل الفتح يتغير عليه ، وهو لذلك يقدم شتى المعاذير ، فقد أتى جرماً لا يغتفر ، جرماً لم يجنه ، كدَّرَ وَرَدَه ، وأحال أيام سعده نحساً لا يطاق ، إذ غضب عليه الفتح ، وكأنما اسودَّت الدنيا فى عينه ، ومثلُ الفتح حرى بالعفو لو أن هناك جريرة حقيقية ، فما بالنا ولا جريرة ولا جرم ولا ذنب ، ويسلم البحري بذنبه رقة وتلطفاً ، منوهاً بالفتح وفعاله الحميد ومعروفه الذى يواليه ، وكيف أنه من أهل الصفح الجميل .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم موضوع استغرق الشعراء واستنفد أشعارهم الغزل ، وكانوا ينظمونه تعبيراً عن عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، وتلبية لحاجات الناس

(٥) غروا : عجباً . أُلوم : أُلوم .

(٦) أُلوميا : أكثر لوماً .

(٧) وأنهم هنا : وزيادة على ذلك .

(٨) الفعّال بفتح الفاء : الصنع الجميل .

(١) الديوان ٣ / ١٩٨٢ .

(٢) رَنْقَنْ : كدَرَنْ . الطير : التطير .

(٣) الموهن : نحو منتصف الليل .

(٤) التجهم : عبوس الوجه .

الوجدانية وحاجات المغنين والمغنيات من المقطوعات والأشعار التي كانت توقع على الآلات والمعازف الموسيقية ، ولذلك تطلبها دائماً دور القيان والطرب ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور لسماع الغناء في أشعارهم ولمغازلة الجوارى والإماء . وكان منهم من يتقن نظم الشعر ، ومنهم من كن يُطَارِحْنَ الشعراء في أغاني الحب وأناشيده . ولعبن دوراً واسعاً في دفع المحبة مع العباسي نحو الصباية والعشق ، وكان منهم من ينحرفن عن الطريق السوي ، كما كان من الشعراء والشباب من حولن شياطين لا يعرفون ديناً ولا خلقاً ولا عرفاً . وكان ذلك سبباً في أن يكثر الغزل الإباحي ، الذي لا يحتشم فيه الشاعر ، بل الذي يعبر فيه أحياناً عن جوعه الجسدي وغرائزه الحيوانية . ومن الحق أن ذلك كان امتداداً لموجة الغزل المكشوف الذي شاع في العصر العباسي الأول ، وكأما ظلت لتلك الموجة حيدتها ، وكانت دور القيان كما قلنا آنفاً من أسباب هذه الحدة ، إذ كان بعض جوارىها يتحولن أدوات للإغراء والريبة والمجون ، وساعدهن على ذلك أنهن كن يُسَبَّعنَ وَيُسَرَّرنَ ولم يكن يشعرون بشيء من الكرامة ، وكن يعشن بين الخلعاء والمجان وبين كثيرين ممن لا يعرفون ديناً ولا صيانة مروعة ولا يفكرون في عقاب ولا ثواب ، إنما يفكرون في المتاع المادي وغرائزهم النوعية ومآربهم الرخيصة ، وطبيعي لذلك أن يشيع الغزل الإباحي المكشوف الذي لا يعرف لامرأة كرامة ولا للرجل مروعة ، إنما يعرف الهوان والابتذال البغيض . وعلى نحو ما ظل الغزل الماخن الخليج شائعاً في هذا العصر ظل كذلك الغزل الشاذ بالغلمان الذي يُزرى بكرامة الرجال . وأكبر الظن أن كثيراً من هذا الغزل وسالفه لم يكن يصور حقائق واقعة ، إنما كان يصور حقائق خيالية من بعض الوجوه ، إذ كان يراد به إلى التندير والفكاهة في مجالس هؤلاء المجان الخليعين ، فهم ينظمونه ويتداولونه للضحك والدعابة ، وعادة يصحبه الشاعر في إنشاده بحركات ليزيد من ضحك السامعين . ونظن ظناً أنه فات مؤرخي الأدب العباسي أن يلاحظوا هذه الظاهرة ، وكأنه يشبه من بعض الوجوه ما قد يجري على بعض الألسنة في عصرنا من نكت جنسية . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننكر إنكاراً باتناً الغزل المكشوف وأخاه الشاذ في العصر العباسي الأول والثاني ، إنما نريد أن نلفت إلى أن كثيراً منه صُنع للتندير والفكاهة ، وأنه غاب ذلك عن أرخوا للأدب العباسي ، وتاريخهم لذلك في حاجة إلى غير قابل من التصحيح . ولا بد أن نلاحظ من جهة

ثانية أن هذا الغزل المادى الماجن كانت تحفُّه دائماً وتتخلله معاني الغزل العربي العفيف الذى شاع فى العصر الأموى ، وكانت هذه المعاني تخفف من ماديته كما كانت تُشعل فيه جذوة الحب الظامئ وآلامه الثقيل ، فلم يسقط فى كثير من جوانبه ومقطوعاته ، إذ ظلت فيه الحيرة والحنان والتضرع والاستعطاف وظل الشوق الجامح الذى يملك على النفس عواطفها وحسها وشعورها وأهواءها .
وأيضاً لا بد أن نلاحظ بجانب ذلك أن الغزل العذرى العفيف نفسه ظل حياً لا من خلال معانيه التى تسربت فى الغزل المادى الصريح كما ذكرنا آنفاً ، وإنما من خلال بعض الشعراء الذين ارتفعوا عن أدْران الحسِّ وأعراضه ، وعاشوا فى حبيهم معيشة طاهرة نقية أعظم ما يكون الطهر والنقاء على نحو ما هو معروف عن محمد ابن داود الأصبهاني صاحب كتاب « الزهرة » فى الحب وأشعاره . وملاحظة أخيرة هى أن الضربين من الغزل المادى الإباحى والعذرى العفيف استطاعت ملكات الشعراء الخصبه حينئذ أن تستثير فيهما كثيراً من خطرات الحب ودقائقه البديعة ، وابن الرومى لا يبارى فى نفوذه إلى هذه الدقائق ، كقوله فى العناق وطموحه إلى امتزاج الروحين^(١) .

أعانقُها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ إليها ، وهل بعد العناقِ تدانِ
وألثمُ فاها كى تنزولَ جوارى فيشتد ما ألقى من الهيمانِ^(٢)
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

فالعناق لا يروى ظمأه ، وفى قلبه جذوة لا تطفئها القبلات ، بل تزيدها تلظيماً واشتعالاً ، ويحسُّ أن عذابه بحب صاحبتة لن يخلصه منها إلا أن تمتزج روحه بروحها ، حتى ينعم بالوصل الحقيقى . وكثيراً ما يلجأ بالعناق وكثيراً ما يودع فيه صوراً طريفة ، كقوله^(٣) :

طلما التفتُ إلى الصَّبِّ ح لنا ساقُ بساقِ
فى قناعٍ من لثامٍ وإزارٍ من عناقِ

فقد كانا مكسوين طوال الليل كسوة غريبة من اللثام والعناق ، ونحس دائماً
عنده بطفرات الفكر العبرى وأخيلته كأن نراه يقول فى الصدور^(١) :

صدورٌ فوقهنَّ حِقَاقُ عَاجٍ وَحَلَى زَانِهٍ حُسْنُ اتِّسَاقٍ
يقول الناظرون إذا رَأَوْهَا أَهَذَا الْحَلَى مِنْ هَذِهِ الْحِقَاقِ

وهى صورة لا تفد بحق فى ذهن شاعر من هذا العصر سوى ذهن ابن الرومى
الذى كان يشبه متحفاً كبيراً ما يزال يستخرج منه الدرر والتحف النفيسة ، من مثل
قوله فى جمال العيون ومدى تأثيرها وسحرها فى العشاق^(٢) :

نَظَرْتُ فَأَقْصَدْتُ الْفَوَادَ بِسَهْمَا ثُمَّ انْتَنْتُ عَنْهُ فَكَادَ يَهِيمُ
وِيلَاهُ إِنْ نَظَرْتُ وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ وَقَعُ السَّهَامِ وَنَزَعَهُنَّ أَلِيمُ
وكان مَنْ حوله من الشعراء لا يزالون يحاولون بكل ما وسعهم أن يأتوا بدرة أو تحفة
تخلب ألباب سامعيهم ، ولتكن خاطرة طريفة أو صورة بديعة ، ولا يهم أن يكون
أصلها قد دار على ألسنة الشعراء ، فالهم طرافة العرض وتحوير المعنى أو الصورة ،
من مثل قول ابن المعتز^(٣) :

بَا غُضُنًا إِنْ هَزَهُ مَشْيُهُ خَشِبْتُ أَنْ يَسْقُطَ رُمَانُهُ

وقول أبى العباس الناشئ فى بكاء إحدى صواحيبه وقد أحسَّت أن فراقه لها
سيطول أمدّه ، فقال وهو محزون الفؤاد^(٤) :

كَأَنَّ الدَّمْعَ عَلَى خَدِّهَا بَقِيَّةُ طَلٍّ عَلَى جُلُنَارٍ

وينفذ أحمد بن صالح بن أبى فنن إلى معنى دقيق فإنه حين ينظر إلى صاحبتة
تتورد وجنتها خجلاً ، فتقتص منه فى قلبه بما تصيبه به من سهام عينيها المصموية ،
يقول^(٥) :

أَدْمَيْتُ بِاللَّحْظَاتِ وَجَنَّتْهَا فَاقْتَصَّ نَاطِرُهَا مِنَ الْقَلْبِ

(٤) زهر الآداب ٢/ ٢١٦ .

(٥) تاريخ بغداد ٤/ ٢٠٢ .

(١) ديوان الماتى ١/ ٢٥٣ .

(٢) ديوان الماتى ١/ ٢٣٦ .

(٣) الديوان ص ٤٢٢ .

ومرّ بنا في فصل الحياة الاجتماعية أن موجة المجون ظلت على تفاقمها وحدتها في هذا العصر ، وظل معها شرب الخمر المعتقد ، وكانت حاناتها تكتظ بها الكرخ في بغداد ودور النخاسة والبساتين كما كانت تكتظ بدنانها وكثوسها الديارات . وكان سُقّاتها أخطا من النصارى والمجوس واليهود ، وأقبل يعبّثها المجّان والفسّاق وكان منهم المتمرد على الدين الحنيف ، ومنهم المجوسى ، ومنهم من لا يؤمن بأى دين ، فأكبوا عليها جميعاً ، دون رادع أو وازع ، ويفيض كتاب الأغاني بأخبارهم ، وكذلك كتاب الديارات للشابستى ، حيث يتوقف مع كل دير ليترجم لماجن كبير مثل الحسين بن الضحّاك وأبى الشبل البرجمى وعبد الله بن العباس الربيعى ، وغيرهم ممن كانوا يعكفون على الشراب فى الأديرة وغير الأديرة ، ومن عاشوا سكارى لا يفيقون إلا لكى يعودوا إلى الشراب والمجون ، وهم فى أثناء ذلك يصفون الخمر والنشوة بها وكثوسها ودنانها وسقّاتها مضيفين إلى ذلك غزلا مسعوراً بالحوارى والغلمان . ويخيل إلى الإنسان كأنما تردّى فى حمأة هذه الرذيلة أكثر شعراء العصر ، ولذلك تزخر دواوينهم وأشعارهم بنعت الخمر والنشوة بها ، وجعلوا يحاولون فيها ما حاولوه فى أغراض الشعر الأخرى من النفوذ إلى معان وأخيلة تبهر السامعين ، من مثل قول ابن المعتز^(١) :

شربنا بالكبير وبالصغير ولم نحفل بأحداث الدهور
وقد ركضت بنا خيلُ الملاحى وقد طرّنا بأجنحة السرور

وهو يصور نشوته بتلك الخمر التى شربوها بالقداح الكبيرة والصغيرة ، فلا تهم مسرة وفرحة ، حتى لكأنما يحملهم الاغتياب على خيوله ، بل على جناحيه ، فهم يطIRON طيراناً ، ولم يبلغ شاعر مبلغ ابن الرومى فى بيان ما تنفس الخمر من آمال السكران حتى ليمنى المستحيلات ، يقول^(٢) :

ومدامة كحشاشة النفس لطفت عن الإدراك والحس
لنسيمها فى قلب شاربها رَوْحُ الرجاء وراحة النفس
وتمدُّ فى أمل ابنِ نشوتها حتى يؤمِّل مرجع الأمس
وكانها وكان شاربها قمرٌ يقبِّل عارضَ الشمس

(١) الديوان ص ٢٣٨ .

(٢) للديوان ص ١٠٧ .

وقد صور ابن الرومي في البيتين الأولين رقة المدامة وخفتها حتى لتكاد تلق عن الحس، كما صور أثرها في قلب شاربها وما تمنحه من أمل بعد يأس وراحة بعد تعب، بل إنها لتمد في أمله، حتى ليظن أن ما يستحيل رجوعه سيعود ثانية وأنها تخلو من كل كدرة .

وينبغي أن نؤمن بأن حركة المجون في العصر لم تكن تم الناس جميعاً، إنما كانت تعم في بعض قصور ذوى السلطان ومن كانوا يفيضون عليه من أموالهم من المغنين والشعراء، أما عامة الشعب فكانت تربض في مسغبة شديدة وقلما عرفت شيئاً من الترف أو من الفراغ والثراء .

وكان الموضوع الذي يتصل بالعامّة حقاً هو الزهد وما نشأ عنه من التصوف، وبدون شك كانت الحانات والأديرة لا تقاس من حيث الكثرة ولا من حيث عدد من يؤمنونها إلى المساجد، وكانت تكتظ بالفقهاء والمحدثين والعبّاد والنسّاك الذين رفضوا متاع الحياة الدنيا، وعكفوا على عبادة الله . وكان بينهم كثيرون من الوعاظ الذين يعظون الناس صباح مساء، وقد رفعوا نصب أعينهم ثواب الآخرة من الجنان والفراديس وعقابها من الجحيم والعذاب المقيم، وهم في أثناء ذلك يدعون إلى الزهد وازدراء المتاع الفاني والإقبال على ما عند الله من المتاع الباقي، مكررين الحديث عن الموت وأن الحياة إنما هي رحلة قصيرة والناس فيها كركب وقوف ينتظر كل منهم دوره، وسرعان ما يختطفهم الموت، فأولى لهم أن يتدبروا حياتهم وأن يتزودوا زاداً كبيراً لآخرتهم، زاداً من التقوى والصلاح والقناعة . ويكثر الشعر الزاهد في العصر حتى ليتخذ أحياناً مقلمة للمديح من مثل قول علي بن الجهم^(١):

وعاقبة الصبر الجميل جميلة	وأفضل أخلاق الرجال التفضل
وما المال إلا حسرة إن تركته	وغنم إذا قدمته متعجل
وللخير أهل يسعدون بفعله	وللناس أحوال بهم تتنقل
ولله فينا علم غيب وإنما	يوفق منا من يشاء ويخذل

وبلغ من شيوع شعر الزهد حينئذ أن اشترك فيه كثير من الشعراء الذين تطفح

دولوينهم بالحديث عن الخمر والمجون ، لما كانوا يتنفسون فيه من ترف بالغ مثل ابن المعتز ، فكانوا ينظمون منه مقطوعات وأحياناً قصائد طويلة ، ولابن الروي فيه قصائد ، بل مواظب بديعة ، من مثل قوله ^(١) :

نَبْلُ الرَّدَى يَقْصِدُنِ قَصْدَكَ فَأَجِدُ قَبْلَ الْمَوْتِ جِدَّكَ ^(٢)
وَدَعِ الْبَطَالََةَ وَالْقَوَا يَةَ جَانِباً وَعَلَيْكَ رُشْدَكَ
فَكَأَنِّي بِكَ قَدْ نَعِيَ مَ وَقَدْ بَكَى الْبَاكُونَ فَقْدَكَ
وَتَرَكْتَ مَنْزِلَكَ الْمَشِـ يَدَ مَعْطِلاً وَسَكَنْتَ لَحْدَكَ
وَخَلَوْتَ فِي بَيْتِ الْبَلَى وَخَلَا بِكَ الْمَلِكُانَ وَحْدَكَ
وَسَلَكَ أَهْلَكَ كُلَّهُمْ وَنَسُوا عَلَى الْأَيَّامِ عَهْدَكَ
يَتَمَتَّعُونَ بِمَا جُمِعَ مَ لَا يَرُونَ عَلَيْهِ حَمْدَكَ
مَتَنَعِّمِينَ وَأَنْتَ تَحْ مَ الرَّمْسِ يَرْعَى الدُّودُ جِلْدَكَ

وهو يرفع الموت نُصْبَ أعين الناس ، وكأنه مطبق عاينهم ، حتى يرتدعوا عن البطالة والغنى ، فعمّا قريب سيتزل بهم ، سيرتفع الصباح والضجيج عليهم ، وسيتركون القصور المشيدة وينزلون اللحود المقفرة ، ويسألهم الملكان عما قدمت أيديهم ، ويسألهم الأهل وينسونهم كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، على حين يتمتعون بأموالهم التي جمعوها دون حمد لهم أو ثناء عليهم ، وعلى حين يرعى الدود جثثهم وجلودهم ، فحري بالعاقل أن يتدبر أمره ، وأن يتزود للآخرة زاداً كبيراً من التقوى ، فإن الموت له بالمرصاد ، وهنيئاً لمن انتفع بالموعظة وقدم من يومه وبره لغده . وقد أخذ ينمو من هذا الزهد موضوع جديد من موضوعات الشعر العربي هو التصوف وسنعرض له في غير هذا الموضع .

نمو الموضوعات الجديدة

على نحو ما حدث في الموضوعات القديمة من إضافات كثيرة سواء من حيث المعاني أو من حيث التصاوير ، أخذت الموضوعات الجديدة التي عرضنا لها في كتاب العصر العباسي الأول تدخلها إضافات متنوعة ، كما أخذت فروع من الموضوعات القديمة تستقل وتنمو نمواً واسعاً حتى لتصبح موضوعات جديدة جلة خالصة ، وأول ما نقف عنده مما تفرع عن الموضوعات القديمة أو تولد منها ، شعر التهاني الذي تحول إليه شعر المديح في بعض جوانبه ، وخاصة التهاني بأعياد النيروز والمهرجان كما مر بنا آنفاً ، وكان أول من افتتح التهاني أحمد بن يوسف للمأمون^(١) ، ثم أصبح ذلك سنة عامة ، ثم أخذ هذا الموضوع يتسع ، فأكثروا من التهئة بالمواليد ، وأيضاً فإنهم أكثروا من إرفاق الهدايا بأبيات من الشعر الرقيقة ، من مثل قول سليمان بن وهب ، وقد أهدى إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سلال رطب من ضيعته^(٢) :

أَذَنَ الْأَمِيرُ بِفَضْلِهِ وَبِجُودِهِ وَبِنَيْلِهِ
لَوْلِيَّهِ فِي بِرِّهِ بِجَنَاهُ سُكَّرَ نَخْلِهِ
فَبَعَثْتُ مِنْهُ بِسَلَّةٍ تَحْكِي حَلَاوَةَ عَذْلِهِ

وكثيراً ما كانوا يتهادون بالورود والرياحين في أيام الربيع ويرسلون معها ببعض الأشعار ، وكذلك كانوا يتهادون ببعض التحف والطرف النفيسة ، وقد يصفون ما يهدونه نظراً كقول ابن الرومي في قدح أهداه إلى علي بن يحيى المنجم^(٣) :

وَبَدِيعٍ مِنَ الْبَدَائِعِ يَسْبِي كُلَّ عَقْلٍ وَيَطْبِي كُلَّ طَرَفٍ
كَفَمِ الْحَبِّ فِي الْمَلَاةِ بَلْ أَشَدَّ هَيَّ وَإِنْ كَانَ لَا يَنَاجِي بِحَرْفٍ
وَسَطِ - الْقَدَرِ لَمْ يَكْبَرْ لَجَرَعٍ مَتَوَالٍ وَلَمْ يَصْغُرْ لَرَشْفٍ

(٣) الديوان ص ٣٣ .

(١) ديوان المعاني ١ / ٩٥ .

(٢) الأغاني (طبعة الساسي) ٧١ / ٢٠ .

وظل الشعراء يقدمون لمذائحهم كثيراً بوصف الأطلال كما مر بنا ، ونفذ البحري من ذلك إلى موضوع جديد هو الحديث عن آثار الفرس ممثلة في إيوان كسرى على نحو ما هو معروف في قصيدته السينية التي تُعَدُّ من روائع الشعر العباسي ، وفيها يصور أطلال هذا الإيوان التي لا تزال ماثلة جنوبى بغداد إلى اليوم ، وكان قد زاره بعد قتل المتوكل ، فبكى همومه وأشجانه ، وبكى الأطلال الكسروية ودولة الفرس القديمة ودولتهم الحديثة التي أдал منها الترك لعصره وأصبح لهم السلطان والصوبلخان ، فإذا هم يطيحون بالخليفة ، وإذا هم يسفكون دمه غير مراعين إلاَّ ولا عهداً . وإنه ليذكر يد الفرس في العصر العباسي الأول وتشبيدهم لحضارته ومدنيته ، مما يجعله ينوه بمجدهم القديم حتى ليكاد يرفعهم على العرب تحسراً على ما آلت إليه شئون الملك والحضارة في عهد الترك . وهو لا يكاد يتأسك حزناً وحسرة ولوعة في مستهل قصيدته لنبو ابن عمه عنه ، وكأنه يرمز بذلك لقتل المتوكل ، فإن أحداً من أهل بيته أو من أبناء عمومته لم ينصره ، بل لقد اشترك ابنه وولى عهده المنتصر في مؤامرة قتله ، ويشتد بنفسه تأثير الحنة ، فيتجه إلى المدائن عاصمة الفرس القديمة وإيوان كسرى تنفيساً عن نفسه ، ويلمّ به كثير من الشجون ، ويذكر إيران القديمة واتساع ملكها في الشمال من باب الأبواب على بحر قزوين إلى جبال أرمينية ، كما يذكر رفاة العيش التي كانت بها ، ولين الحياة ونعيمها وتملاً نفسه أطلال الإيوان وما نقش عليها من الرسوم والصور وخاصة ما سُجِّلَ بها من تصوير معركة حامية الوطيس بين الفرس بقيادة كسرى والروم وقعت بإنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد ، يقول وقد لفظ كلمة الإيوان باسمها الفارسي « الجرماز^(١) » :

فكأن الجرماز من عدم الإن	س وإخلاقه بنية رمس ^(٢)
لو تراه علمت أن الليالى	جعلت فيه مائماً بعد عرس
وإذا ما رأيت صورة أنطا	كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنوسر	وان يزجي الصفوف تحت الدرقس ^(٣)
وعراك الرجال بين يديه	في خفوت منهم وإغماض جرس ^(٤)

(١) الديوان ١١٥٥/٢ . (٢) يزجي : يسوق . الدرقس : العلم الكبير .

(٣) رمس : قبر . الإخلاق : البلى . (٤) خفوت : صمت . جرس : صوت خفى .

(١) الديوان ١١٥٥/٢ .

(٢) رمس : قبر . الإخلاق : البلى .

من مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلِ رُوحٍ وَمُليحٍ من السُّنَانِ بِتُرْسٍ^(١)
تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ۖ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةٌ خُرْسٍ
يَغْتَلِي فِيهِمْ ارْتِيَابِي حَتَّى تَتَقَرَّاهُمْ يَدَايَ بِلَحْسٍ^(٢)

والبحترى لا يُبَارَى في تصويره الحسى ، حتى لكأنما ينقل المشهد بخلافه ،
لأنبصره فحسب ، بل أيضاً لنلمسه بأيدينا ، فهذا الإيوان لم يعد إيوان قصر يحتفظ
بالترف والتعظيم ، بل أصبح بناء قبر ضخم لحضارة الفرس الباذخة وحال كل ما كان
فيه من أعراس إلى ماتم ، غير أن صفحة منه لا تزال ناطقة بشجاعة الفرس
ومجدهم الحربى ، إذ تجسدت فيها صورة معركة أنطاكية بين الروم والفرس ،
وكسرى هاجمٌ بجموع جيشه تحت العلم الفارسى الكبير ، يمزق جموع الروم
تمزيقاً ، والفرسان بين مهاجم ومدافع ولا صوت فى المعركة ولا جلبة . إنما هو
تصوير ولكن بلغ من نطقه وقوة تعبيره أن تظن العين أنها ترى المعركة كأنما تحدث تحت
بصرها ، بل إن هذا الظن ليزداد فى نفس البحترى ، حتى ليندفع إلى الصورة ،
يلمسها بيده ارتياعاً وانبهاراً . ويمضى فى الحديث عن الإيوان وثباته على الدهر حتى
لكأنما قدَّ أو نُحِت فى جبل عال ويصور ما يجلله من كآبة ممضة ، وكأنما هو
أليف غاب عنه أنسُ أليفه ، أو زوج محزون لفراق عروسه ، فانعكست أيامها
ولياليها ، بل لقد انعكست ليالى هذا الأيوان فغربت عنه كواكب السعد وأطلت
عليه كواكب النحس المقيم ، حتى ما كان يرفل فيه من بسط الديباج وستور
الحرير نُزِع عنه نزعاً ، ومع ذلك لا تزال له كبرياؤه ولا تزال شرفاته شائعة شموخ
جبال المدينة والقدس تختال فى ثيابها البيضاء الرائعة . وينقله خياله إلى ماضى هذا
الإيوان التليد ، فالوفود مزدهمة بأبوابه والحوارى من كل صنف تغص بها المقاصير
والغرف ، وكأن ذلك كان أول أمس ، كان اللقاء والفراق ، وصارت الرباع
التي كانت مكتظة بالسرور ومتاعه منازل للعزاء والحزن الذى لا يريم ، والبحترى يبكيها
بدموع غزار ، لما كان لأهلها قديماً من عون للعرب فى حروبهم من الأحباش وما كان
لهم حديثاً من عون فى تشييد الخلافة العباسية وما رافقها من ازدهار الحضارة العربية ،

(٢) يغتلى : يتجاوز الحد ويعظم .
تتقراهم : تبهم .

(١) مشيح : مقبل . عامل الروح : صدره
مليح : خائف حذر .

ويبكي من خلال ذلك همومه وحزنه لمقتل المتوكل بأيدي الترك الذين صار إليهم بعد الفرس السلطان والصوبلجان .

وإذا كان وصف الأطلال القديم أوحى للبحرئى بهذا الموضوع الجديد ، فإنه أوحى له ولكثيرين من حوله أن يصفوا قصور الخلفاء التى كانوا يشيدونها ويطيلون فى وصفها ووصف ما حولها من رياض وما يتقدمها من فوَارَات وبرك على شاكلة قول على بن الجهم فى وصف أحد القصور الكثيرة التى كان يسكنها المتوكل بضواحي سامراء ووصف فوارتها أو نافوراتها^(١) :

صَحُونٌ تَسَافِرُ فِيهَا الْعَيُونُ	وَتَحْسِرُ عَنْ بُعْدِ أَقْطَارِهَا
وَقُبَّةٌ مُلْكٌ كَانَ النُّجُومُ	مُ تَفْضِي إِلَيْهَا بِأَسْرَارِهَا
لَهَا شُرَفَاتٌ كَانَ الرَّبِيعُ	كَسَاهَا الرِّيَاضَ بِأَنْوَارِهَا
نَظْمَنَ الْفُسَيْفِسَ نَظْمَ الْحَلَى	لَعُونُ النِّسَاءِ وَأَبْكَارِهَا ^(٢)
فَهُنَّ كَمُصْطَبَحَاتٍ بَرَزْنَ	بِفِضْحِ النَّصَارَى وَإِفْطَارِهَا ^(٣)
فَمِنْهُنَّ عَاقِصَةٌ شَعَرَهَا	وَمَصْلَحَةٌ عَقَدَتْ زُنَارَهَا ^(٤)
وَفَوَارَةٌ ثَارَهَا فِي السَّمَاءِ	فَلَيْسَتْ تَقْصُرُ عَنْ ثَارِهَا
تَرْدُ عَلَى الْمَزْنِ مَا أَنْزَلَتْ	عَلَى الْأَرْضِ مِنْ صَوْبِ مَدَارِهَا

وواضح أنه صيِّرَ سعة أفنية هذا القصر وعظم قُبَّتِهِ وصعودها فى السماء حتى لكأنما تفضى إليها النجوم بأخبار الغيب وأنبائه، كما صوِّرَ شرفات القصر وما زينت به من الفسيفساء الملونة الجميلة جمال الحلى على جيد النساء وأعناقهن، وتزوت أشكال تلك الشرفات ، حتى لقد أشبهت الفتيات حاملات الشموع فى عيد الفصح

يريد حاملات الشموع . برزن : خرجن .

فصح النصارى : عيد ذكرى القيامة .

(٤) تمقص شعرها : تشده على جيدها من

خلف أو من وراء . والزنار : حزام يشد

وسط الثوب على الخصر .

(١) الديوان ص ٢٩ .

(٢) الفسيفساء : قطع من الرخام الملون

الرقيق كانت تزين بها الحيطان والسقوف

والشرفات . البنون : جمع عون ، وهى السيدة

النصف .

(٣) مصطباحات هنا : من أصبح أى أمرج ،

وذكرى قيامة المسيح، ومنهن من تلبّد شعرها وتشدّه وتجمّعه ، ومنهن من تنتطق بأحزمة الزنّار مختالة ، وفوارة ماني ترسل سهامها إلى السماء كأنما لها ثأر عندها ، وكأنما تردّ على المزن قطرها .

وأهم من وصف القصور وصف الطبيعة ، وكان الشعراء في العصر العباسي الأول أكثرها من تصويرها في مقدمات مدائحهم ، وتبعهم شعراء هذا العصر يصفونها تارة في إيجاز وتارة في إطناب وإسهاب رامزين بها إلى عهد الممدوح وجماله ، وكثيراً ما وصفوا في هذه المقدمات الغيث والسحب والبرق لبيان كرم الممدوح من جهة وما شمل البلاد في زمنه من خصب وامتد على صفحاتها من جنات وعيون وزروع ، وتصور ذلك من بعض الوجوه حائية ابن المعتز في مديح المعتضد ، وقد استهلها بوصف البرق والسحاب الهاطل من مثل قوله ^(١) :

مَنْ رَأَى بَرْقاً يُضِيءُ التَّاحَا ثَقَبَ اللَّيْلَ سَنَاهُ فَلَاحَا ^(٢)
وَكأن البرق مصحفٌ قارٍ فانطبأ مرةً وانفتاحا
في رُكَّامٍ ضاق بالماء دَرْعاً حينما مالت به الريحُ ساحا ^(٣)
لم يَدْعُ أَرْضاً من المَحَلِّ إِلَّا جَادَ أَوْ مَدَّ عَلَيْهَا جَنَاحَا ^(٤)
وَسَقَى أَطْلَالَ هَنَدٍ فَأُضْحَتْ بِمِرْحِ القَطَرُ عَلَيْهَا مِرَاحَا

فالليل أضاءته مصابيح البرق ، وكأنها حين تشتعل وتنطفيء مصاحف بأيدي قُرَّائها تَنَفِّثُ وتنطبق ، وسيول المطر تندافع من كل صوب نافذة أعابها من جذب إلى جذب ومن حوض إلى حوض ، والسحب تمد جناحها وتبسط ركامها والأرض تمرح في نباتاتها ورياحينها وبطاحها الخضراء .

ومرّ بنا أنهم كانوا يكثرّون من وصف الربيع في تهنئاتهم بعيد النيروز ، وأخذ حينئذ وصف الطبيعة يستقل عن المديح ويصبح فنّاً قائماً بنفسه ، له قصائده وأشعاره ، وهي تُعْنَى بوصف جميع الأنوار في الربيع ، ولا يبارى ابن المعتز

(١) الديوان ص ١٤١ .

فوق بعض .

(٢) التاحا : التماعاً .

(٤) المحل : الجذب .

(٣) ركام : سحب مركوم : متراكم بعضه

في هذا الاتجاه ، إذ يحاول في كثير من قصائده إحصاء كل نور وكل زهر من أبيض وأحمر وأصفر ، وكانت له مخيلة تشبه آلة تصويرية دقيقة ، فهي ما نرى تصور وتلتقط الدقائق وكأنها لا تريد أن تترك شيئاً ، ومن خير ما يصور ذلك عنده أرجوزته البستانية التي ذم فيها الصبوح أو خمر الصباح ، وهو يفتحها على هذا النمط ^(١) :

أما ترى البُستانَ كيف نورًا ونَشَرَ المنشورُ زهراً أصفراً
وضحكُ الورد إلى الشقائق واعتنق القطرُ اعتناق وامٍ
في روضةٍ كحللِ العروسِ وخُرْمٍ كهامةِ الطاووسِ ^(٢)

ومضى يذكر الياسمين والحشخاش والسوسن والبهار والجلنار إلى غير ذلك من أزهار ، ولكل زهر صورته ، الحية النابضة . وتعلق كثيرون بوصف الورد والتعبير عن روعته وفتنته التي تأخذ بالألباب ، ولابن الجهم فيه قطعة بديعة يتحدث فيها عن رياحين الربيع وطيوره الغردة ونشوة النفوس به نشوة لا تقل عن نشوة الراح يقول ^(٣) :

لم يضحك الوردُ إلا حين أعجبه حُسْنُ الرياضِ وصوتُ الطائرِ الغرِدِ
بدا فأبدتْ لنا الدنيا محاسنها وراحتِ الرَّاحُ في أثوابها الجُددِ
ما عاينتُ قُصْبُ الرِيحانِ طُلْعَتَهُ إلا تبينَ فيها ذِلَّةُ الحَسَدِ
وقابلته يَدُ المشتاقِ تُسَنِّدُهُ إلى التَّرائِبِ والأَحْشاءِ والكَبَدِ
كَأَنَّ فِيهِ شِفَاءٌ من صبابته أو مانعاً جَفَنَ عَيْنِيهِ من السُّهْدِ
بين النديمين والخَلِيقِ مَضْجَعُهُ وَسَيْرُهُ من يَدِ موصولةٍ بيدِ
قامتْ بحجته رِيحٌ معطرةٌ تشفى القلوبَ من الأوصابِ والكَمَدِ

وهو تصوير بارع لصبابة الناس بالورد ، حتى إنهم ليضمونه إلى الصدور والأحشاء والكبد يريدون أن يطفئوا به نيران أشواقهم ، ويشفوا به لوعات صباياتهم

(٢) الديوان ص ٨٩ .

(١) الديوان ص ٤٧٣ .

(٢) الحرم : زهر بنفسجي اللون .

وسهادهم الطويل ، وإنه لَيَسْتَرَاءَى دَائِمًا يَتَهَادَاهُ الأُحِبَّةُ وقد اتخذ مضجعه بينهم ، وهم يتبادلون كثوس الحب الصافية ، وأريجيه ينتشر شذاه في كل ما حولهم بلسماً يشفي القلوب الكليمة . ولعل شاعراً لم يتعلق بالطبيعة في العصر تعلق ابن الرومي والصنوبري ، ونحس عندهما بقوة الإحساس بفتنة الرياض النضرة والفاكهة اللبنة والمياه الجارية ، وغلب ذلك على الشعراء حينئذ ، حتى لنجد ابن قتيبة يدعو إلى نبذ وصف البساتين والورود والرياحين والعودة إلى وصف الفيافي وأزهارها ونباتاتها^(١) ، ولم يقف هذا التحول الجليد عند مجرد التخفيف من موضوع الطبيعة الصحراوية الجافة والعناية بطبيعة الحياة الحضرية وورودها ورياحينها ، بل لقد تحولت هذه العناية إلى فتنة شديدة بحمال الرياض والبساتين ، فتنة خلبت ألباب الشعراء وملأت عليهم حواسهم وملكت عليهم قلوبهم ، وخير من يصور ذلك ابن الرومي ، إذ نحس في وضوح شغفه بالطبيعة شغفاً يفوق كل وصف ، شغف العاشق بمعشوقته ، حتى ليحس كأنما الدنيا في الربيع تبرج له ولكل ناظر ، إذ يقول^(٢) :

تَبَرَّجَتْ بَعْدَ حَيَاءٍ وَخَفَرٍ تَبَرُّجَ الْأُنْثَى تَصَدَّتْ لِلذَّكْرِ

بل لكأنما تحولت جوانبها تحت عينيه إلى معابد ، فهو ما نبى يقدم لها قرايبه وأدعيته وابتهاالاته مصوراً جمالها المنبت في كل أجزائها وما يجري فيها من حياة ، وبدون ريب يتقدم ابن الرومي شعراء العربية عامة في الإحساس بخفقات الطبيعة وهمساتها وكل حركة فيها ، حتى يشبه في هذا الجانب من بعض الوجوه شعراء الرومانسية الغربية الذين يفنون في الطبيعة ، ويحسون امتلاءها بالحياة ، فكل ما فيها حي متحرك ناطق ، وكل ما فيها يخفق بالأحاسيس والمشاعر ، ومن خير ما يوضح ذلك عنده تصويره لمشهد الغروب ، يقول^(٣) :

لَقَدْ رَنَّقَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَنَفَضَتْ عَلَى الْأَفْقِ الْغُرْبَىٰ وَرَسًا مُدْعَدًا^(٤)
وَوَدَّعَتْ الدُّنْيَا لِتَقْضَىٰ نَحْبَهَا وَشَوْلَ بَاقَى عُمْرَهَا فَتَشَعَّشَعَا^(٥)

(٤) رنقت : ضغفت . الورس : نبات أصفر. مدعدا : متفرقا .

(٥) شول : ذهب . تشعشع : بلى أقله .

(١) الشعر والشعراء (طبع دار المعارف

١٩٦٦) ص ٧٦ .

(٢) الديوان ص ٨٩ .

(٣) الديوان ص ٣٠٠ .

ولاحظتِ النُّوَارَ وَهِيَ مَرِيضَةٌ وقد وضعتُ خَدًّا إِلَى الْأَرْضِ أَضْرَعًا^(١)
 كَمَا لَاحَظْتُ عُوَادَهُ عَيْنٌ مُدْنَفٍ تَوَجَّعَ مِنْ أَوْصَابِهِ مَا تَوَجَّعًا^(٢)
 وَبَيْنَ إِغْضَاءِ الْفِرَاقِ عَلَيْهِمَا كَأَنَّهُمَا خِلَاءٌ صَفَاءُ تَوَدَّعًا^(٣)
 وَظَلَّتْ عَيْنُ النُّورِ تَخْضَلُ^(٤) بِالْمَدْنَى كَمَا اغْرُورَقَتْ عَيْنُ الشَّجِيِّ لَتَدَمَعًا^(٥)
 وَأَزْكَى نَسِيمِ الرُّوضِ رِيْعَانُ ظِلِّهِ وَغَنَى مَغْنَى الطَّيْرِ فِيهِ فَسَجَعًا^(٦)
 وَكَانَتْ أَرَانِينَ^(٧) الذُّبَابِ هَنَّاكُمُ عَلَى شَدَوَاتِ الطَّيْرِ ضَرْبًا مَوْعًا^(٨)

وهو يصور وداع الشمس للطبيعة ساعة الغروب وما ترسل من الشفق الأحمر الشبيه بنبات الورد وزهره ، وأشعتها تتبدّد إلا بقايا قليلة ، فهي توشك أن تلفظ أنفاسها ، وقد غلبها التزع الأخير فهي تذلل وتستكين وتضع خدّها على الأرض إيدانًا بالفراق وإعلانًا لما ألمّ بها من شدة الأوصاب والآلام ، آلام الوداع المرير للنوار والأزهار التي تترقق عيونها بندى بل بدمع سخين كما تترقق بالدموع عيون المحبين المخزونين ، على حين كان النسيم العليل يركو وينمو والطيور يشدو مرجعًا ومرددًا ، وحتى الذباب لا ينساه ابن الرومي فقد كان رنينه يخالط شدو الطير وغناؤه . ولم يكن الصنوبري يبلغ هذا المبلغ من الإحساس بالطبيعة وعناصرها الحية ، ومع ذلك فهو أهم شعرائها في العصر بعد ابن الرومي ، إذ عاش مشغوفًا بالرياض بلدته حلب شبلى الشام وحدائقها وأزهارها ، وأشعاره لاتصور فتنة عميقة بتلك الرياض على نحو ما نجد عند ابن الرومي ، وإنما تصور براعة في الخيال وإبراز الصور الظاهرية أو الحسية .

والطريف عند الصنوبري وابن الرومي جميعًا أنهما يعينان بتصوير الفواكه والثمار بجانب عنايتهما بتصوير الرياحين والورود والرياض ، وبما يدل على أن موضوع الطبيعة ازدهر في العصر أن نجد حيثنّه فصلًا "نفرد لها في بعض الكتب مثل كتاب

-
- (١) أضرع : ذليل .
 (٢) مدنف : مريض سقيم .
 (٣) إغضاء الفراق : وحشته وكآبته .
 (٤) تخضل : تترقق وتندى . اغرورقت .
 (٥) أزكى : نمتي .
 (٦) أرانين : جمع إرئان أى رنين .
 (٧) العين بالدموع : جالت بها .

الموشى ، فإن به فصلاً خاصاً لما نظم في وصف الورود ، بل قد نجد كتباً فيها مثل كتاب مفاخرة الورد على النرجس لابن أبى طاهر أحد شعراء العصر النابيهين .

ويدخل في وصف الطبيعة وصف حيوانها الوحشى ، ونرى البحرى يسوق مبارزة الفتح بن خاقان للأسد في بعض مدائحه وكان قد خرج إلى الصيد ، ففاجأه أسد في طريقه ، فنازله ، وقتله ، وصور ذلك البحرى في مدحة بائية للوزير نراه فيها يتحدث حديثاً مفصلاً عن حياة الأسد في الغابات والرياض وبطون الأودية وأعالها ، وكيف يهجم على قطعان الحمر وبقر الوحش وكيف يستلب عقائلها وينحرها لأشباهه ، ثم يصور المعركة بين الأسدين ، إلى أن خسر السبع يتصرع في دمائه ، يقول (١) :

فلم أرَ ضرغامينِ أصدقَ منكما عِراكاً إذا الهبابةُ النكسُ كذباً (٢)
فأحجمَ لما لم يجد فيك مطعماً وأقدم لما لم يجد عنك مهزباً
فلم يُغْنِه أن كَرَّ نحوك مُقبلاً ولم يُنْجِه أن حادَ عنك مُنكباً
حملت عليه السيفَ لا عزمك انثنى ولا يدُك ارتدَّتْ ولا حدهُ نبا

ولا يكتفى البحرى بوصفه لهذا الحيوان الوحشى ، فقد تصادف أن لقيه ذئب في بعض أسفاره ، فنازله وقضى عليه ، وأفاض في تصوير هذا الذئب مستمداً من ملكته البارعة في تصوير الحسيات تصويراً يجسد ما يصفه تجسيداً قوياً ، على شاكلة قوله (٣) :

وأطلَسَ ملء العينِ يحْمَلُ زَوْرَهُ وأضلَّاعه ، من جانبيه شَوَى نَهْدُ (٤)
له ذَنْبٌ مثل الرِّشَاءِ يجسره ومَتْنٌ كمتن القوسِ أعوجُ منادٌ (٥)
طواه الطَّوَى حتى استمرَّ مَرِيرُهُ فما فيه إلا العظمُ والروحُ والعِجْلُ (٦)

الشوى : اليدان والرجلان . نهْد : بارز .

(٥) الرشاء : الحبل . مناد : معوج .

(٦) طواه الطوى : أضمره الجوع : استمر

مريره : قوى واشتد .

(١) الديوان ٢٠٠/١ .

(٢) الضرغام : الأسد . النكس : الجبان الضعيف .

(٣) الديوان ٧٤٣/٢ .

(٤) أطلس : مغير إلى سواد الزور : الصدر .

يَقْضِضُ عَصَلًا فِي أَسْرَتِهَا الرَّدَى كَقَضِضَةِ الْمَقْرُورِ أَرْغَدَهُ الْبَرْدُ^(١)
 سَمَّى وَبَى مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ مَا بِهِ بَيِّدَاءُ لَمْ تُعْرِفْ بِهَا عَيْشَةَ رَغْدُ^(٢)
 كَلَانَا بِهَا ذَنْبٌ يَحْدُثُ نَفْسَهُ بِصَاحِبِهِ وَالْجَدُّ يُتَعَسَّ الْجَدُّ

وهو يصف لون الذئب المغبر إلى سواد، وأعضائه المكتنزة من الصدر والأضلاع واليدين والرجلين، وذنبه الرفيع ومنته الصلب، وكيف أضمره الجوع وهزله حتى لم يبق فيه إلا العظم والجلد، وهو يصوت بأنياب صلبة معوجة كأنها السكاكين القاطعة وكأنه مقرر تصطلك أسنانه من شدة البرد وهوله. وقد التقيا في فلاة موحشة، كأنما استحال البحرى فيها لجوعه بدوره ذئباً مفترساً. ويحدثنا البحرى عقب ذلك عن استثارته للذئب ونزله وطعناته فيه حتى خرَّ صريعاً. ويشتهر البحرى بوصفه للخيل وإتقانه لهذا الوصف حتى ليسبق فيه معاصريه بمثل قوله في وصف فرس^(٣) :

يَهْوَى كَمَا تَهْوَى الْعُقَابُ وَقَدْ رَأَتْ صَيْدًا وَيَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الْأَجْدَلِ^(٤)
 وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغَبَارِ لَهْيُهُ لَوْنًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ^(٥)
 هَزَجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَغَمَاتِهِ نَبْرَاتٍ مَعْبَدَ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ^(٦)
 مَلَكَ الْعَيُونَ فَإِنْ بَدَأَ أَعْطَيْنَهُ نَظَرَ الْمَحَبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمَقْبَلِ

والفرس يسرع كأنه عقاب تنقض على فريسة، ويقف منتصباً انتصاباً تاماً كالصقر المترقب، وكأنه حين يجرى في الغبار المتكاثف شعلة نار أو كأنه البرق الخاطف، وإن لصيقله لرنينا جميلاً جمال أنغام معبد المغنى المشهور في العصر الأموى، وإنه ليسحر العيون حين تنظر إليه حتى ليقبدها به كما يقبدها المحبوب فلا تلتفت عنه بيميناً ولا يساراً. ويكثر حينئذ وصف الديك والهر، وأهم من ذلك أنه يكثر شعر الطرد والصيد.

(٤) العقاب : من الجوارح ومثلها الأجدل وهو الصقر.

(٥) الشد : ارتفاع النار .

(٦) معبد : أشهر من في العصر الأموى .

الثقيل الأول لحن كان يودع فيه أكثر أغانيه .

(١) يقضض عصلا : يصوت بأنياب معوجة : أسرتها : خطوطها . الردى : الهلاك .

المقرر : الذى يحس البرد بشدة .

(٢) رغد : ناعمة .

(٣) الديوان ١٧٤٥/٣ .

وكان الشعراء منذ العصر العباسي الأول يلمون بوصف الأطعمة وألوانها الحضارية الجديدة ، ونزاهم في هذا العصر يكثرون من وصفها ويخصونها بقصائد طويلة ، ويروى المسعودي في كتابه « مروج الذهب » مجلساً للخليفة المستكني جعله لإنشاد جلسائه ونديمائه أما نظمه الشعراء في أنواع الطعوم المختلفة ، وليس من شك في أن ابن الرومي يعدُّ أكبر من عني بوصفها ، وكان منهوماً بالطعام ، فكاد لا يترك لوناً من ألوانه دون أن يخصه بقصيدة أو مقطوعة ، من مثل قوله في دجاجة مشوية وما قدّم معها من الثريد والمرققات والقطائف ^(١) :

وسميطة صفراء دينارية ثمناً ولوناً زفها لك حزور ^(٢)
عظمت فكادت أن تكون إوزة وثوت فكاد إهابها يتفطر ^(٣)
ظلناً نقش جلدّها عن لحمها وكان تبرا عن لجين يقشر
وتقدّمها قبل ذاك ثرائد مثل الرياض بمثلهن يصدر
ومرققات كلهن مزخرف بالبيض منها ملبس ومدثر ^(٤)
وأنت قطائف بعد ذاك لطائف ترضى اللهأة بها ويرضى الحنجر

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يترك على موائد عصره طعاماً إلا وصفه وصورة مبدعاً في تصويره سواء أكان من طعام اللحوم أم طعام السمك ، وربما كان من أسباب اهتمامه بذلك عناية معاصريه بالولائم ، ومرّ بنا في غير هذا الموضع أنهم أكثروا حينئذ من التأليف في الأطعمة ، وأيضاً فإن أشعاره تدل على شدة نهمة بالأطعمة وحدة شراسته ، وكان السببين جميعاً جعلاه يولع بالحديث عن المأكول والمشارب ، ومن طريف قوله في الرعوس والأرغفة ^(٥) :

رؤس وأرغفة ضخام فخمة قد أخرجت من جاحم فوار
كوجوه أهل الجنة ابتسمت لنا مقرونة بوجوه أهل النار

(١) الديوان ص ٤٧٨ وذيل زهر الآداب ص ٢٣٦ .
(٢) حزور : غلام فيه فتوة . دينارية : نسبة إلى الدينار . سميطة : دجاجة مسبوطة .
(٣) إهابها : جلدّها . يتفطر : يتشقق .
(٤) ملبس ومدثر : مغطى .
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

ويحدثنا في بعض شعره عن تخمته وبشمه ، كما يحدثنا عن تشوقه دائماً لكل ما على الموائد ولهفته عليه كقوله في قطائف قُدِّمَتْ إِلَيْهِ^(١) :

قطائفٌ قد حُشِيَتْ بِاللُّوزِ وَالسَّكَّرِ الْمَادِي حَشَوَ الْمَوْزُ^(٢)
تَسْبِحٌ فِي آدِي دُهْنِ الْجَوْزِ سَرَرْتُ لِمَا وَقَعْتُ فِي حَوْزِي^(٣)
سرورَ عباسٍ بقرب فوزٍ

فهو يغرم بتلك القطائف ، وكأنها معشوقته أو كأنه عباس بن الأحنف الذي اشتهر بعشقه لفوز عشقاً ملك عليه كل مشاعره وعواطفه وأهوائه . ولم يكن ابن الرومي يعشق القطائف وصنوف الحلوى والأطعمة فحسب ، بل كان يعشق معها أيضاً الفاكهة ، وكأنها كانت غذاء لقلبه قبل أن تكون غذاء لمعدته ، وما كان يعشقه من ألوانها الموز وكذلك العنب الرازقي ، وفيه يقول^(٤) :

ورازقٌ مُخْطَفٍ الْخُصُورِ كَأَنَّهُ مَخَازِنُ الْبَلُورِ^(٥)
وَفِي الْأَعَالَى مَاءٌ وَرِدٍ جُورِي لَمْ يَبْقَ مِنْهُ وَهَجٌ الْحَرُورِ^(٦)
إِلَّا ضِيَاءٌ فِي ظُرُوفِ نَوْرِ لَوْ أَنَّهُ يَبْقَى عَلَى الدَّهْورِ
قَرَطٌ آذَانَ الْحَسَانِ الْحَوْرِ لَهُ مَذَاقُ الْعَسَلِ الْمَشُورِ
ونكهة المِسْكِ مَعَ الْكَافُورِ

ومرّ بنا في حديثنا عن الملاحى أنه كان من أهم ملاحيمهم لعبنا النرد والشطرنج ، ويسوق المسعودي في « مروج » طائفة من الأشعار التي نُظِّمَتْ حينئذ في اللعبتين ، ويذكر أن أصحابهما وصفوهما في أشعار كثيرة ، وما اختاره منها في الشطرنج ووصف اللعب به وما يدور على رقاعه من معاركه قول علي بن الجهم^(٧) :

-
- (١) الديوان ص ٤٧٧ .
(٢) المادى : شديد الحلاوة .
(٣) آدى : موج .
(٤) الديوان ص ١٩٥ وزهر الآداب ٩ / ٢ .
(٥) مخطف : ضامر .
(٦) الورد الجورى : ورد شديد الحمرة .
(٧) مروج الذهب ٢٣٥ / ٤ والديوان
(طبعة المجمع العلمى العربى بدمشق) ص ١٧٩ .

أَرْضٌ مَرَبَعَةٌ حَمَاءٌ مِنْ أَدَمٍ مَا بَيْنَ الْفَيْنِ مَوْصُوفَيْنِ بِالْكَرَمِ
 تَذَاكِرُ الْحَرْبِ فَاحْتَالَا لَهَا شَبَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتُمَا فِيهَا بِسَفْكَ دَمٍ
 هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى هَذَا يَغْيِرُ وَعَيْنُ الْحَرْبِ لَمْ تَنْمِ
 فَانْظُرْ إِلَى الْخَيْلِ قَدْ جَاشَتْ بِمَعْرَكَةٍ فِي عَسْكَرَيْنِ بِلَا طَبَلٍ وَلَا عِلْمٍ
 وَيَبْدُو أَنَّهُمْ بَلَّغُوا حَيْثُذَ مَبْلَغًا بَعِيدًا مِنَ الْمَهَارَةِ فِي لَعِبِ الشُّطْرَنْجِ ، وَكَانُوا
 يَعْقِدُونَ لَهُ مَجَالِسَ يَتَفَرَّجُونَ فِيهَا عَلَى لَاعِبِيهِ وَحَدِّقَهُمْ فِيهِ ، وَكَانُوا يَمْلُؤُونَهَا بِفَنُونَ النُّوَادِرِ ،
 وَمَنْ اشتهر حينذاك بِالْبَرَاةِ فِي لَعْبِهِ وَإِحْسَانِهِ إِحْسَانًا يَفُوقُ كُلَّ وَصْفِ أَبُو الْقَاسِمِ
 النَّوْزِيِّ الشُّطْرَنْجِي . وَوَصَفَ ابْنُ الرُّومِيِّ مَهَارَتَهُ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ وَصَفًا رَائِعًا ،
 اسْتَهْلَهُ بَيَانُ نَفَازِ فِكْرِهِ وَبَصِيرَتِهِ فِي تِلْكَ اللَّعْبَةِ ، وَكَيْفَ أَنَّهُ كَانَ يَهْزِمُ كُلَّ مَنْ يَلَاعِبُهُ
 وَيَعْصِفُ بِهِ وَيَجْنُودُهُ وَرِخَاخَهُ بِتَدْيِيرِهِ اللَّطِيفِ الْخَفِيِّ ، حَتَّى لِيُوشِكَ أَنْ يَكُونَ أَخْفَى
 مِنَ السَّرِّ فِي ضَمِيرٍ مَحَبٍّ أَدَّبَتْهُ عَقُوبَةُ الْإِفْشَاءِ ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَخَاطِبَهُ بِقَوْلِهِ (١) :

عَلِطَ النَّاسُ لَسْتَ تَلْعَبُ بِالشُّطْرَنْجِ لَكِنْ بَأَنْفَسِ اللَّعْبَاءِ
 لَكَ مَكْرٌ يَدْبُ فِي الْقَوْمِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ الْغِذَاءِ فِي الْأَعْضَاءِ
 أَوْ دَبِيبِ الْمَلَالِ فِي مَسْتَهَامِيهِ نَ إِلَى غَايَةِ مِنَ الْبَغْضَاءِ
 أَوْ مَسِيرِ الْقَضَاءِ فِي ظُلَمِ الْغَيْبِ بَ إِلَى مَنْ يَرِيدُهُ بِالتَّوَاءِ
 تَقْتُلُ الشَّاهَ حَيْثُ شَتَّتَ مِنَ الرُّقَّةِ مَعَةً طَبًّا بِالْقِتْلَةِ النِّكَرَاءِ
 غَيْرَ مَا نَاطِرٍ بِعَيْنَيْكَ فِي الدُّشِّ تَ وَلَا مَقْبِلَ عَلَى الرُّسُلَاءِ
 بَلْ تَرَاهَا وَأَنْتَ مُسْتَدْبِرُ الظُّهِرِ رَ بِقَلْبٍ مَصُورٍ مِنْ ذِكَاةِ
 مَا رَأَيْنَا سِوَاكَ قِرْنًا يَوْوِي وَهُوَ يُرْدِي فَوَارِسَ الْهَيْجَاءِ

وَأَبُو الْقَاسِمِ - فِي رَأْيِ ابْنِ الرُّومِيِّ - لَا يَلْعَبُ بِالشُّطْرَنْجِ وَلَكِنْ يَلْعَبُ بِأَنْفَسِ
 لَاعِبِيهِ بِدِهَاءٍ أَشَدَّ خِفَاءٍ مِنْ سَرِيَانِ الْغِذَاءِ فِي الْجَسْمِ ، بَلْ سَرِيَانِ الْمَلَالِ فِي مَتَحَايِنِ
 حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمَا إِلَى حَاقَةِ الْبَغْضَاءِ ، بَلْ مَسِيرِ الْقَضَاءِ فِي حِجْبِ الْغَيْبِ إِلَى مَنْ

يُرْدِيهِ ، ويصوره قاتلاً للشاه في كل مكان من الرقعة بفنه وطبه ، دون أن ينظر إليه وإلى مكانه من جنوده ، بل أيضاً يقتله وهو مدبر عن الدست بظهره ، وكأنما له عين يرى بها من خلفه حدة ذكاء ونفاذ بصيرة .

وذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن بعض الشعراء ، وفي مقدمتهم أبو تمام ، كانوا يضعون أحياناً في مقدمات قصائدهم شكوى مرة من الزمن وهمومه وأنهم من أفرد للشكوى بعض قصائد ومقطوعات ، ولكن هذه الشكوى تظل في العصر السالف فردية ، أما في هذا العصر العباسي الثاني فإنها تصبح موجة عامة قل من لم تعمه ، لفساد الأحوال السياسية التي وصفناها في غير هذا الموضع ، فإذا المناصب يتولاها غير أهلها ، وإذا السعيات تفشو ويفشو معها ارتفاع الوضع وتعظم الخنة ويستسلم الناس إلى غير قليل من اليأس ، ويحسون كأن لا أمل في الإصلاح ، فقد عم الظلم واضطربت القيم وكأنما لم يعد للشر والنكر غاية ينتهيان إليها أوحده يقفان عنده ، أو قل كأنما أصبحت الحياة بأساً متصلاً ، لذلك كان طبعياً أن نجد الشكوى على كل لسان ، شكوى مريرة من الزمن وأهله ، على شاكلة قول الكندي الفيلسوف^(١) :

أَنَافَ الذُّنَابِ عَلَى الْأَرُوسِ فغَمُضْ جُفُونَكَ أَوْنَكُوسِ^(٢)
 وضائلُ سوادك واقبضْ يديكَ وفي قَعْرِ بيتِكَ فاستجلس
 وعندَ مليكِكَ فابْغِ العُلُوَّ وبِالوَحْدَةِ اليَوْمَ فاستأنسِ
 فَإِنَّ الْغِيَّ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ وَإِنَّ التَّعَزُّزَ بِالْأَنْفُسِ
 وَكَأَنَّ تَرَى مِنْ أَخِي عُسْرَةَ غِنًى وَذِي ثَرَوَةٍ مَقْلِسِ
 وَمَنْ قَائِمٌ شَخْصُهُ مَيَّتٌ عَلَى أَنَّهُ بَعْدُ لَمْ يُرْمَسِ^(٣)

والكندي متشائم إلى أبعد حد ، فقد اختلت موازين الحياة ، فارتفع الوضع وهبط الرفيع ، ولم يعد هناك مفر من هذا البلاء ولا خلاص ، فاعتزل الدنيا ، وعش وحيداً بعيداً عن هذا النكر الذي يصطلي الناس ناره ، ولا تؤمل في أن ينقشع هذا

الرأس ذلاً .
 (٣) يرأس : يقبر .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٨ .
 (٢) أناف : أشرف : نكس : طأطأ .

الظلام ، فلم يعد لك من أمل سوى الالتجاء إلى ملكك وساحات برّه . ويزدري الكندي ما في أيدي أصحاب الجاه والسلطان من مال تعافه النفوس الكريمة ، فيقول إن الغنى غنى النفس العزيزة ، وكم من فقير هو في حقيقته غنى بقلبه وأخلاقه الرفيعة ، وكم من غنى هو في حقيقته فقير بأخلاقه الذميمة ، بل إنه ميت وإن بدا حياً ، ميت لم يُقْبَر ولم يُوضَعَ في رمله . وإذا كان الكندي قد بلغ من الشكوى هذا الحد فإن من عاصره من الشعراء ومن جاءوا بعده كانوا يشعرون بنفس المحنة ، حتى من نشأ منهم في بيوت الترف والدعة أمثال ابن المعتز ، والشكوى تكثر في ديوانه من مثل قوله ^(١) :

لم يبق في العيش غير البؤس والنكد فاهرب إلى الموت من هم ومن نكد
ملأت يا دهر عيني من مكارهها يا دهر حسبك قد أسرفت فاقصد

وكان طبيعياً أن يتعمق هذا الإحساس ابن الرومي الذي لم يكن يوسع له الوزراء والكبراء في مجالسهم وعطاياهم ، بل كانوا يلقونه في كثير من الأحوال بالحرمان والكران، وكان يعرف في دقة عبقريته الشعرية، فضاق بالناس وضاق بالحياة، وكانت كما أسلفنا شراً ونكراً خالصين ، فعاش يتجرعها غصصاً ، ولا مغيث ولاخلص ولا معين ، فكان طبيعياً أن يتحول متشائماً وأن يصبح التشاؤم فلسفة له ، فالحياة كلها سواد وكلها ظلام وكلها بلاء لا يطاق ، ويصور ذلك تصويراً بديعاً في بكاء الطفل حين ولادته ، يقول ^(٢) :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنما لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقي من أذاها مهدد
وللنفس أحوال تظل كأنها تشاهد فيها كل غيب سيشهد

فالدنيا آلام ثقال وأحوال طوال ، والطفل يشهر بذلك ساعة ولادته فيبكي بكاء مرأ ، وكان من الواجب أن يفرح لأن يبكي ؛ لأنه أخذ حظاً من الحرية

بالقياس إلى المكان الذي كان فيه ، وكأنما رأى بعينه ما يتهدده في دنياه من الأذى
الماض الذي سيملاً نفسه شقاء وعناء .

وصور الشعراء — على غرار أسلافهم العباسيين — كثيراً من العواطف الدقيقة ،
وحللوها كثيراً من المشاعر والشيم الرفيعة والأخلاق الزرية ، فمن ذلك تصوير ابن المعتز
لحساده وما يأكل قلوبهم من الحسد والضغينة ، يقول من قصيدة طويلة (١) :

يَا مَنْ يَنَاجِي ضِغْنَهُ فِي نَفْسِهِ وَيَدْبُ تَحَى بِالْأَفَاعِي اللُّدْغِ
وَبِيبْتُ تَنْهَضُ زَفَرَةً فِي صَدْرِهِ حَسَدًا وَإِنْ دَمِيتُ جَرَحِي يُوَلِّغُ (٢)
مَا زَالَ يَبْغِي لِي بِكُلِّ قَرَارَةٍ حُمَةً الْأَذَى وَيَشِيرُ إِنْ لَمْ يَلْدَغُ (٣)
نَغَلْتُ ضَمَائِرُ صَدْرِهِ مِنْ دَائِهِ نَغَلَ الْإِهَابُ مَعْطَنًا لَمْ يُدْبِعْ (٤)
لَا تَبْتَغِي مِنِّي التِّي لَا أَبْتَغِي إِنْ كُنْتَ مَشْغُولًا بِشَأْنِي فَافْرَغْ

وابن المعتز يصور حسوده في صورة كريهة ، فهو ما يزال يلدب من تحته
بأفاعيه السامة وما تزال زفراته تصعد في صدره وما يزال يلتمس جرحاً له ليولغ فيه
في دمايته ، وما يزال يريد به الطامة الكبرى ، كعقرب إن لم تلدغ بِحُمَتِهَا أشارت تريد
نزول الكارثة ، وقد نغلت وفسدت طوايا صدره وكأنها إهاب معطن يتمزق . وابن
الرومي لا يبارى في تحليل مثل هذه المعاني وما يتصل بها من الطباع والشيم ، وله
قصيدة طويلة يحلل فيها شيمة الصبر وكيف أنها تُحَمَّدُ حين لا تكون لها ضرورة
فكيف بها إذا أوجبتها الضرورة والحاجة الملحة حين تنزل بالإنسان مكاره ليس له
منها مهرب ، إن الصبر حينئذ يكون نعم الجُنَّة والدرع الواقى . ويدفع ما يقال من أن
من الناس من خلقت جزعاً هلوفاً ، فهو لا يستطيع الصبر وكظم النفس عند
الشوائد ، يقول (٥) .

وَقَدْ يَتَظَنَّى النَّاسُ أَنَّ أَصَاهُمْ وَصَبْرَهُمْ فِيهِمْ طِبَاعُ مَرْكَبُ

(١) الديوان ص ٣١٥ والخنار من شر
بشار ص ٦٨ .

(٢) ولغته : شربه بطرف اللسان ، أو حرك

لسانه فيه .

(٣) نغل : غسد .

(٤) الديوان ص ٣١٥ .

وأنهما ليسا كشيء مصرفٍ يصرفه ذو نكبة حين يُنكبُ
وليسا كما ظنوهما بل كلاهما لكل لبیب مستطاعٌ مسببٌ
يصرفه المختار منا فتارةً يراد فيأتى أو يذاد فيذهب

فالصبر الجميل والجزع الليميم مكتسبان يكتسبهما الإنسان بمحض إرادته واختياره ، ولا جبر فيهما ولا طبع ، بل هما من عمل الإنسان وبمشيئته ، إن شاء جزع عند المصيبة وإن شاء لم يصبه جزع ولا هلع ، بل عصم نفسه منهما واحتملهما صابراً جلئداً شجاعاً أروع ما تكون الشجاعة والجلد والصبر .

وأخذ التصوف ينمو سريعاً منذ فاتحة هذا العصر ويستقل عن الزهد استقلالاً تاماً ، إذ مضى أصحابه يتحدثون عن الحب الإلهي ومقاماته وأحواله ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمجاهدات عنيفة في التقشف والنسك مع الانقطاع عن الدنيا والخلوص التام للمحبة الإلهية والنشوة بها إلى درجة الفناء في الذات العلية ، ولهم أشعار كثيرة يصورون بها هذا العشق وما دلغ في قلوبهم من لوعة لا يمكن إطفائها ، لوعة حب قوى حار ، استأثر بكل ما في قلوبهم من عواطف وشاعر ، وشغلهم عن كل شيء ، إذ شُغِفوا بمحبتهم شغفاً عظيماً ، بل لقد تحول هذا الشغف عقيدة جمعوا فيها بين محبة الله وبين تقديسه وعبادته ، آمين منه في الوصال وأن يرفع ما بينه وبينهم من حجب ، ولكن أنى يكون ذلك ؟ إن الدرب دائماً يبدو طويلاً ودونه أهوال لا حصر لها ، أهوال تملأ قلوبهم حسرات ألا يستطيعوا آخر الأمر لقاء المحبوب ، ويصور ذلك من بعض الوجوه أبو الحسن النورى إذ يقول (١) :

كم حسرة لي وقد غصتُ مرارتها جعلتُ قلبي لها وقفاً لبلواك
وحقاً ما منك يُبْليني ويُتلفني لأبكينك أو أحظى بقلبك

وواضح أن النورى يتجرع غصصه الحسرات المرة ، بل إنه ليستظر البلى والتلف في سبيل فرحة نفسه باللقاء المنتظر ، وإنه ليحس الضنا ، بل إنه ليحس السقم والعلة ، ولا يجد شفاء لعلته وسقمه ، بل إنه ليجد لذة لا تعد لها لذة في هذا

السقم وما يتصل به من عذاب هذا الحب الظائم وناره التي لا تخمد أبداً ، حتى ليقول^(١) :

إن كنت للسقم أهلاً فأنْتَ بالشكر أَوْلى
عَذْبُ فلم تُبْقِ قلباً يقول للسقم مَهْلاً

فهو يشكره على سقمه لأنه يجد فيه متاعاً لا يشبهه متاع ، بل إنه ليطلب عذابه لأنه لم يعد يشعر بقلبه ولا بما قد يألم من العذاب والسقم .

وكان طبيعياً أن ينمو في العصر الشعر الذي يصور حياة الشعب وما كان يجري فيها من بؤس وإقلاق ومسغبة ، ومن خير الشعراء الذين يصورون هذا الجانب جحظة البرمكي ، إذ نراه يكثر من بيان الشتاء والبؤس اللذين يعيش فيهما بمثل قوله^(٢) :

إني رضيت من الرحيق بشراب تمرٍ كالعقيقِ
ورضيت من أكل السَّميِّ لذَّ بأكل مسودِّ الدقيقِ
ورضيت من سعة الصبح ون بمنزل ضنكٍ وضيقِ

وكان يذهب مذهبه في الكدية واحتراف التصعُّب والشحاذة الأدبية غير شاعر ، وكان لهذه الطائفة مقدمات في العصر العباسي السالف ، ولكنها اتسعت في هذا العصر ، وأصبح هناك كثيرون يتخذون الكدية حرفة لهم يبتزون بها أموال الناس .

وظلت مجالس الخلفاء وعلية القوم تُعْنَى بالفكاهات والنوادر المستملحة ، وأشاع ذلك روحاً هزلية في كثير من الشعراء ، وكانوا ما يزالون يتخذون الوسائل إلى ذلك ، كأن نجد شخصاً يسمى سعيد بن أحمد بن خوشنداد يهدى إلى ابن حمدون شاة هزيلة ، فينظم في وصفها كثيراً من المقطوعات ، تارة يصور هزلها وتارة يصور جوعها وحرمانها وبؤسها في أبيات كلها دعابة وكلها سخرية وفكاهة من مثل قوله^(٣) :

(٣) زهر الآداب ٢ / ٢٣٤ .

(١) السلمي ص ١٥٦ .

(٢) ذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .

لسعيد شويهة سلها الضر والعجف
 قد تغنت وأبصرت رجلا حاملا علف
 ببأي من بكفه برء ما بي من الدنف
 فأتاهما مطمعا وأنته لتعلف
 فتول فأقبلت تتغنى من الأسف
 ليته لم يكن وقف عذب القلب وانصرف

فهى ليست شاة بل شويهة مصغرة من الضنا والهزال الذى أصابها لطول تعلقها بالعلف ، ولا تجده ولا تراه ، حتى إذا رأت يوماً رجلاً يحمل علفاً توسلت إليه وتضرعت أن يبرئها من سقمها ، وأطعمها الرجل ، ولكنه سرعان ما تولى عنها تاركاً لها الحسرة واللوعة ، وهى تتمنى لو أنه يقف ، فقد آلم قلبها وانصرف . ومن الموضوعات التى تندروا بها كثيراً فى العصر وصف الثقلاء والأكلة وموائد البخلاء وما عليها من قلة الطعام ، ولابن الرومى فى ذلك كله أشعار كثيرة ، وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى ابتكاره فى الهجاء لونا جديداً من التصوير الهزلى وقد تعقب فيه أصحاب العيوب الخلقية من مثل جاحظ العينين والأحذب وأصحاب اللحي الطويلة ، فعرضهم عرضاً هزلياً مضحكاً فى كل رسومه وصوره .

٥

نمو الشعر التعليمى

عرفنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الشعراء استحدثوا فيه فن الشعر التعليمى وأن أبرع من استخدمه أبان بن عبد الحميد ، فقد نظم فيه كليله ودمنة فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، والأحكام الفقهية المتعلقة ببأى الصوم والزكاة ، وسيرى أردشير وأنوشروان كما نظم قصيدة فى مبدأ الخلق ضمنها شيئاً من المنطق . وظل هذا الفن قائماً بعد أبان ، كما ظل ينمو عند بعض الشعراء ، وفى مقدمتهم على بن الجهم وابن

المعتز وابن دريد . أما ابن الجهم فعنى بنظم مزدوجة في التاريخ تقع في أكثر من ثلثمائة بيت ، جعلها في جزئين : جزء تناول فيه بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء ، وجزء تناول فيه تاريخ الإسلام والخلفاء ، وربما تأثر في الجزء الأول بالقصيدة المنسوبة إلى أبان والتي قال الرواة عنها إنها كانت في بدء الخلق ، أما الجزء الثاني وهو الخاص بتاريخ الخلفاء ، فيعد سابقاً فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا في نظم هذا التاريخ ، ونراه حريصاً في مفتتح الجزء الأول على ذكر مصادره فيه إذ يقول ، وقد بدأ بقصة خلق آدم :

يا سائل عن ابتداء الخلق مسألة القاصد قَصَدَ الحق
أخبرني قوم من الثقات أولو علوم وأولو هيئات
تفرغوا في طلب الآثار وعرفوا موارد الأخبار
ودرسوا التوراة والإنجيلا وأحكموا التأويل والتنزيلا
أن الذي يفعل ما يشاء ومن له القدرة والبقاء
أنشأ خلق آدم إنشاءً وقد منه زوجه حواء

ويستمر في قصة حواء وآدم ووسوسة إبليس لهما وهبوطهما من الجنة إلى الأرض ، وواضح أنه عني بذكر مآخذ هذه القصة وما يليها من قصص الأنبياء عن رجال الآثار والأخبار ، الذين درسوا التوراة والإنجيل وأحكموا دراسة التنزيل أو القرآن الكريم ، ويعرض لابن آدم قايين (قابيل) وهابيل ، ويأخذ في عرض تاريخ الرسل تبعاً ، بادئاً بنوح وقصة الطوفان وخالفه من الرسل وأقوامهم ، وخاصة إبراهيم وما كان من كسره للأصنام ودعوته إلى التوحيد ، ويذكر زوجته : هاجر وسارة وسكنى هاجر في البلد الأمين مع ابنها إسماعيل في جوار القبيلة القديمة جرهم ، ويتحدث عن إسحق ويعقوب وقصة يوسف وإخوته ويصور عصيان بني إسرائيل لأنبيائهم ، ويذكر أخبارهم مع بختنصر ، كما يذكر سليمان وأيوب ويونس والخضر وزكريا ويحيى وعيسى ، وبذلك ينتهي الجزء الأول من الأربعة . ويأخذ في التقديم للجزء الثاني فيتحدث عن أحوال الأمم بين زمن المسيح

ومجيء الإسلام وما ساد من شرك ولأثم إلى أن أشرقت الدنيا بطلعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول :

ثم أزال الظلمة الضياءَ وعادتْ جدَّتْها الأشياءُ
أنَّهمُ المنتَجِبُ الأوَّاهُ محمدٌ صلى عليه اللهُ

ويتحدث عن رسالته وموقف أهل مكة منه وخصومتهم له وهجرته إلى المدينة ثم يتحدث عن خلافة أبي بكر من بعده محدداتها بالسنة والشهر ، ودائماً يحدد المدة التي وليها كل خليفة تحديداً دقيقاً ، كما يعرض لأهم الأعمال في عهده ، يقول :

وقام من بعد أبي بكر عُمرُ فبرزتْ أيامه تلك الغُرُ
تضعضتْ منه ملوك فارسٍ ونخرتْ الرومُ على المعاطس^(١)

ويتحدث عن عثمان وعلى بن أبي طالب ، ثم ينتقل إلى بني أمية متعقباً لهم خليفة خليفة ، كما يتعقب أهم الأحداث في عهودهم ، ويسنحى على يزيد بن معاوية باللوم والتعنيف لمقتل الحسين في عهده ، ولا يكاد يثنى على سيرة خليفة أموى إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز فإنه خصّه ببعض الثناء . ثم انتقل إلى الحديث عن الخلفاء العباسيين مهللاً لخلافتهم وتحول صولجان الملك إليهم ، منوهاً بهم . حتى إذا انتهت الخلافة إلى جعفر المتوكل أشاد بخلافته وانتظام شئون الملك والرعية لعهده ، ويأسى لقتل الفراغنة الأتراك له وماصارت إليه الخلافة من الاختلال يقول :

وبايع الناس الإمامَ جعفراً خليفة الله الأغرَّ الأزهرا
قد سكَّن الله به الأطراف فما ترى في ملكه خلافا
ثم تولى قتله الفراغنة وساعدتهم عُصبةُ فراعنه
لأربعٍ خلونَ من شوالٍ فأصبح الملك أخا اختلالٍ

(١) خرت على المعاطس : ذلت . والمعاطس : الآثاف .

ويذكر بعده الخليفة المنتصر ثم المستعين الذي تلاه لسنة ٢٤٨ للهجرة ، وقد توفي لعهد سنة ٢٤٩ وكانه نظم هذه الأرجوزة بأخرة من حياته . والأرجوزة قوية النسيج مع سهولة في الصياغة ونصاعة في العبارة .

ونرى ابن المعتز يُعنى بنظم سيرة المعتضد الخليفة العباسي معاصره وكانت بينهما صداقة وثيقة ، وكان أبوه الموفق من قبله ولي عهد المعتضد ، وقد أعاداً معاً للخلافة العباسية هيبتها على نحو ما مربنا في غير هذا الموضع فقضيا على ثورة الزنج وهزما الصفار وأخذوا أنفاس كل ثائر ، واستقامت شئون الملك السياسية ، وكانت أيام المعتضد أيام أمن ورفاهية وازدهار ، وكان لذلك وقع بعيد في نفس صديقه ابن المعتز فرأى أن ينظم في سيرته أرجوزة^(١) تصور استقرار الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما عمَّ البلاد من العدل في عهده ، مقارنةً بين تشعث الأمور قبله وانتظامها لزمه ، وهي في نحو أربعمائه بيت ، وقد افتتحها بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ في تصوير سيرة المعتضد وكيف كانت الخلافة قبله مختلة ، فالترك يخلعون الخلفاء ويقتلونهم ويتهكون الحرمات وينهبون الأموال :

كذلك حتى أفقرُوا الخِلافه وعودوها الرعبَ والمخافة

وارتُكبت عظامُ الآثام ، وهبَّ الثوار في كل مكان ، يتقدمهم قائد الزنج قاتل الشيوخ والأطفال ومخرب البصرة والأهواز . ويذكر ابن المعتز القواد الذين هزمهم ، حتى تصدَّى له الموفق وابنه المعتضد ، وكان الموفق صورة للباس الذي ليس بعده بأس والحزم الذي ليس بعده حزم ، وبعد جهاد وصراع شديدين قضى الله له بالنصر المبين — وحارب يعقوب الصفار بعد الزنج ، فهزمه هزيمة ساحقة — ويذكر تنكيله بالوزير أبي الصقر إسماعيل بن بابل اتفاق طغيانه وما أذاق عماله وجنوده الشعب من ظلم لا يطاق ، حتى كان الوارث لا يرث أباه الموسر إلا إذا دفع الرشوة الباهظة ، وحتى كان التاجر الثرى تُغتصب منه أمواله قسراً ، مع مجونه وإيمانه بالمعطل واعتناقه للشرك . هكذا كان الظلم فاشياً قبل المعتضد حتى إذا ولي شئون الرعية نشر فيها العدل الذي لاتصلح حياتها بدونه ، وسارع الثوار

بالإذعان خوفاً من بطشه وانتقامه ، وهرب اللصوص . وقبض الجند على أصحاب النهب والسلب وكبلوهم بالأصفاد والأغلال . وبعث برسله إلى ابن عيسى بن الشيخ ينذره ويتوعده ، فاستسلم خائفاً وأدّى أموالاً جلييلة ، واستنزل حمدان من حصنه في ماردين . وأسر هرون صاحب الشراة الخوارج ، وبطيل في ذمه وذم عقيدته وأنصاره ، كما يطيل في ثورة رافع بن هرثمة بخراسان وما كان من القضاء عليها وصلبه ببغداد . وكان المعتضد قد أخرج المطالبة بالخراج من شهر آذار إلى الحادى عشر من حزيران حتى يتم الحصاد ، وكان ذلك صنعاً جميلاً بالزراع والناس ، فأشاد ابن المعتز بهذه المكرمة وصوّر في ثنایا ذلك صنوف التعذيب التى كانت تُصَبُّ على الناس صبّاً لاستخراج أموال الخراج منهم بالعنف . وقد عرضنا لذلك في حديثنا عن الحياة السياسية ، إذ كانوا لا يزالون يرهقونهم وينكلون بهم حتى لا تبقى فيهم قدرة على المقاومة ، وحتى يتنازلوا عن كل ما يملكون جملة . ويتحدث عن أبنية المعتضد الشاغخة وخاصة قصره الرباب وبركته الكبيرة ، وهو أحد قصوره المعروفة باسم الثريا . ويعود إلى حديثه عن إخماد المعتضد للثورات وبنوه بموظفيه وعلى رأسهم القاسم بن عبيد الله وزيره ، ويصور كيف فتك بعض قواده بصالح بن مدرك الذى كان يعيث في الأرض فساداً قاطعاً الطريق على الحجاج سافكاً للدماء ومنتهكاً للحرمان وناهباً للأموال ، كما يصور قضاء إسماعيل بن أحمد السامانى وإلى خراسان على عمرو بن الليث الصفا الذى طالما تمادى فى غيه بفارس ، فعادت مذعنة إلى الطاعة . ومثلها طبرستان وقضاء السامانيين فيها على محمد بن زيد العلوى . وكذلك قضاؤه على وصيف الخادم حين نقض الطاعة فى الثغور . ويتحدث ابن المعتز عن القرامطة وتمزيق قواد المعتضد لهم ولجنودهم فى عهده ، ويذكر وصول وفد الروم يحملون كتاب إمبراطورهم صاغرين طالبين الهدنة والقداء . ويعود إلى القرامطة ، ويفيض فى ذم الكوفة مستقر الفرق الشيعية الغالية التى نبتت منها - فى رأيه - فرقة القرامطة ، وفيها يقول :

واستمع الآن حديث الكوفة مدينةً بعينها معروفه
كثيرة الأديان والأئمة وهمها تشتيت أمر الأمة

ويتحدث عن خذلان أهلها لعلی بن أبی طالب وقتله وقعودهم عن نصرة الحسين ومصرعه تحت أعينهم دون أن يهبوا لنجدته ويعصفوا بقتلته ، يقول :

ثم بكوا من بعده وناحوا جهلا كذاك يفعل التماسحُ

وبالغ في ذمهم حتى ليجعلهم أس كل ضلال ومنبت كل الفرق لا من الشيعة فحسب ، بل أيضاً من الخوارج . وينوه بانتصار شبل غلام الطائي على القرامطة في سواد الكوفة وأسرهم لقائدهم ابن أبي قوس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وما كان من صلبه لسنة ٢٨٩ على الجسر ببغداد ، وهي السنة التي توفي فيها المعتضد . وقد يدل ذلك على أن ابن المعتز لم يفرغ من نظمه لتلك الأرجوزة إلا في هذه السنة ، وربما فرغ منها قبل ذلك وأضاف إليها بأخرة هذا الجزء ، ولاريب في أنه ألحق بها الأبيات الثلاثة الأخيرة التي تشير إلى وفاة المعتضد وانتهاء خلافته لعام تسع وثمانين ومائتين . والأرجوزة قوية النسيج ، وهي تتفوق في هذا الجانب على أرجوزة ابن الجهم ، إذ تتناسق فيها الصياغة تناسقا بديعا ، وتبدو فيها بوضوح عواطف ابن المعتز ومشاعره ، مما يجعلها تخفق بحبوية قوية . وقد استطاع أن يودع فيها سيرة المعتضد وأحوال الشعب في عهده من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وبون بعيد بينها وبين كتب التاريخ مثل الطبري من هذه الناحية ، ففي تلك الكتب إنما نعرف الثورات والحروب وبعض الأعمال الكبرى ، وقلما اطلعنا على جانب من جوانب حياة الشعب ، أما في تلك الأرجوزة فالشعب مائل أمامنا وسياط جباة الضرائب تنوشه ويُرْجَج به في السجون ظلماً وعدواناً وأمواله تُسَلَّب منه بغياً وطغياناً .

وأما ابن دريد فكان عالماً لغوياً كبيراً ، ينظم الشعر ويحسنه ، وله ديوان مطبوع ، وقد عُنِيَ بتضمين طائفة من أشعاره بعض المعارف ، وأشهر ماله في هذا الباب مقصورته^(١) التي مدح بها عبد الله بن محمد بن ميكال وإلى الأهواز وابنه إسماعيل ، وقد بنى قافيتها على الحرف المقصور وجعلها في نحو مائتين وخمسين بيتاً ، ويقال إنه ضمَّنَهَا ثلث المقصور في اللغة^(٢) ، وقد استهلها بالنسب على طريقة

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ١٠٥/٣ .

(١) انظر المقصورة في الديوان ، وهي

مطبوعة بشرح الخطيب التبريزي في دمشق .

الشعراء القدماء مفتتحاً لها بقوله :

يا ظبية أشبه شيءً بالمها ترعى الخُزاي بين أشجار النِّقا^(١)

وقد مضى يشكو من شبيهه وحبه وسهاده لطول الفراق ، وكيف أنه يحتمل من
آلام الشوق وعذابه ما لا يحتمله الصخر الأصم ، حتى لقد ذوى غصنه الرطيب
وأصبحت حياته كلها غُصَصاً لا تطاق ، ويتجه إلى الدهر الذي يصب عليه
الحن بالخطاب قائلاً :

يا دهرُ إن لم تك عُتْبَى فأتَيْدُ فَإِنْ إِرْوَادَكَ والعُتْبَى سَوَا^(٢)
لا تحسبنَ يا دهرُ أني جازعٌ لنكبة تَعْرِفُنِي عَرَقُ المُدَى^(٣)
مارست من لو هوتِ الأفلاك من جوانب الجوّ عليه ماشكا
لكنها نفثةٌ مصدورٍ إذا جاش لغامٌ من نواحيها عَمَا^(٤)

وهو يُبْندى أمام محن الدهر وخطوبه صلابة وقوة لا حد لها حتى لو خُرت
عليه الأفلاك ما تألم ولا شكا ، وقد مضى يتعزى بمن سطا الدهر عليهم قبل أن
يحققوا آمالهم من أمثال امرئ القيس ويزيد بن المهلب ، واستطرد يتحدث عن
بعض ذوى الهمم الشائخة أمثال سيف بن ذى يزن وعمرو بن هند ، وكأنما مرت
في روحه شجاعتهم فلذا هو في عُدَّة الحرب رفيقاه السيف والفرس ، ويفيض في
وصفهما وخاصة في أوصاف الفرس ، وكأنه يكتب فيه رسالة لغوية مستقلة . ويصف
رحلته إلى الأهواز بفارس ، ثم يأخذ في مديح الأميرين ، حتى إذا فرغ منه وصف
فتاة ساحرة خلبت لبه ، ويُعقب ذلك بطائفة من الحكم يحشدوها حشداً من مثل
قوله :

وإنما المرءُ حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعَى

-
- (١) المها : بقر الوحش . الخُزاي : المدى : السكاكين .
نبات زهره طيب . النقا : القطعة من الرمل .
(٢) اتد : تأن . الإرواد : الترفق .
(٣) تعرق : تفصل اللحم عن العظم .
(٤) اللغام : الزبد على فم البعير . عما : سقط

ويستطرد إلى وصف رحلة له في الصحراء مع بعض الفتية، مصوراً ما تجشمه في السرى من الصعاب وما كان ينزله من الآبار والذئاب تعوى حوله، ثم ينتقل فجأة إلى وصف الخمر، وكان منهوماً بها، وهو يصرح بذلك ولا يخفيه، بل إنه يتسع في تصريحه بأنه عبٌّ من كل ما كان يشتهيه. والطريف أن هذه الأرجوزة التي قصد بها ابن دريد إلى أخذ الناس بحفظ الألفاظ المقصورة في اللغة لا تتعمق في الإغراب اللفظي، فقد استطاع أن يسلك الكثرة من ألفاظها في أساليب سهلة يسيرة، وحتى الأساليب والصياغات الأخرى لا تتعمق في الإغراب، مما يدل على مقدرة الشعرية البارعة.

ولابن دريد وراء هذه القصيدة قصائد أخرى تتضح فيها هذه الغاية اللغوية التعليمية، من ذلك قصيدته^(١) في المقصور والممدود، وقد اشتملت على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة من نفس مادتها، وقد بدأها بما يفتح أوله فيَقْصِرُ وَيُمدِّدُ والمعنى مختلف من مثل قوله :

لا تركزنَّ إلى الهَوَى واحذرْ مفارقة الهِواءِ
يوماً تصير إلى الثَّرَى ويفوز غيرك بالثراءِ

وتلا ذلك بما يكسر أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف من مثل : اللَوَى^(٢) واللواء . ثم ما يكسر أوله فيقصر ، ويُفْتَح فيمد ، والمعنى واحد مثل : سِوَى وسواء . ثم ما يضم أوله فيقصر ، ويكسر فيمد والمعنى واحد ، مثل : لُقْياً ولِقَاء . ثم ما يفتح أوله فيقصر ، ويكسر فيمد ، والمعنى واحد مثل : الغَدَا والغِذاء . ثم ما يفتح أوله فيقصر ، ويكسر فيمد ، والمعنى مختلف ، مثل : السَّحَا والسَّحَاء^(٣) . ثم ما يضم أوله فيقصر ، ويفتح فيمد ، والمعنى مختلف ، مثل : ضُحَّى وضَحَاء^(٤) . وفي ديوانه قصيدة^(٥) مألهاً بالغريب، نظمها تحديداً لبعض علماء اللغة مورداً عليه طائفة كبيرة من ألفاظها الآبدة، وهي لذلك تُضمُّ إلى القصيدتين التعليميتين السابقتين،

(١) ديوان ابن دريد (طبع القاهرة

ضرب من الشجر .

ص ٢٩ . (٤) الضحى : وقت ارتفاع الشمس .

الضحاء : النهار .

(٢) اللوى : منقطع الرمل .

(٥) الديوان ص ٨٨ .

(٣) السحا : القرواس : السحاء :

فغابتها هي الأخرى علمية أو تعليمية واضحة . وأيضاً في الديوان بجانب ما قدمنا ثلاث مقطوعات^(١) أودع في أولها ما يذكر من أعضاء الجسم ولا يؤنث ، وفي ثانیها ما يؤنث ولا يذكر ، وفي ثالثها ما يجوز فيه التذكير والتأنيث . وعلى هذا النحو سخر ابن دريد الشعر ليحمل مواد لغوية تعليمية بجانب ما حمل قبله من مواد تاريخية وغير تاريخية .

(١) الديوان ص ١٢٣ وما بعدها .

الفضل الخامس

أعلام للشعراء

١

على بن الجهم^(١)

يرجع نسب على بن الجهم إلى بنى سامة بن لؤي القرشيين ، وقد نزل أحد أجداده مدينة مَرَوْ بِخَرَّاسَانَ واستوطن هذا البلد الثاني مع من استوطنه من أبناء العرب الفاتحين لأواسط آسيا . وإلى هذا الموطن يشير على بن الجهم في إحدى مدائحه للمتوكل ، إذ يفاخر بأنه من أهل خراسان الذين أدالوا للعباسيين من الأمويين قائلا^(٢) :

مذهبي واضحٌ وأصلى خُراسا نٌ وعِزِّي بعِزِّكم موصولُ

ويبدو أن الجهم رحل عن موطن أجداده بخراسان مبكراً إلى بغداد مع بعض إخوته وأسرته طلباً للرزق وشغل بعض الوظائف في الدولة . ويفتح له المأمون أبوابه ، ويولّيه بريد اليمن وبعض الثغور ويتولّى في عهد الواثق شرطة بغداد^(٣) وفي ديوان أبي تمام أشعار في أخيه عثمان وابنه إدريس ، مما يدل — من بعض الوجوه — على أنه كان لهذه الأسرة بعض الجاه والوجاهة . ولا تُعرَف بالضبط السنة التي أنجب فيها الجهم ابنه عليا ، ويغلب أن يكون مولده سنة ١٩٠ للهجرة وأن تكون بغداد مسقط رأسه ؛ ونراه في نعومة أظفاره يختلف من داره في شارع دُجَيْل

٢٤٩ والموشح للمرزباني ص ٣٤٤ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ص ١٦٤ وقد طبع ديوانه في المجمع العلمي العربي بدمشق خليل مردم وضع له مقدمة قيمة .

(٢) الديوان ص ٢٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٧ / ٢٤٠ .

(١) انظر في على بن الجهم وترجمته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩ والأغاني (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠ / ٢٠٣ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي) ص ١٤٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان في على وتاريخ بغداد ١١ / ٣٦٧ وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة في سنة

إلى كُتَّابِ بالحي كان يتعلم فيه الأطفال، ذكوراً وإناثاً مجتمعين ، ولفته ذات يوم
بُنَيَّةٍ صغيرة بمحاسنها الدفاق فكتب إليها في بعض الألواح ^(١) :

ماذا تقولين فيمن شفه سَهْرٌ من جَهْدِ جَبك حتى صار حيرانا
وسرعان ما أجابته البُنَيَّة في نفس اللوح على البديهة :

إذا رأينا محباً قد أضرَّ به جَهْدُ الصبابة أو ليناه إحسانا

وفي بعض الروايات أن هذا البيت أول شعر نظمه ، وكان هذه البُنَيَّة هي التي
ألمهته الشعر وأنطقته . وكان لا يزال يملأ الدار على أبيه شغباً وعبثاً ولعباً ، فسأل
معلمه في الكُتَّاب أن يحبس تأديباً له ، وأجابه المعلم إلى حبسه ، فاغتاظ على من
أبيه غيظاً شديداً ، ولم يلبث أن كتب إلى أمه في شِقِّ لَوْحٍ مستغيثاً ^(٢) :

يا أُمَّتَا أَفديكِ من أُمِّ أَشكو إليك فظاظَةَ الجَهْمِ
قد سُرَّحَ الصبيان كلهم وبقيتُ محصوراً بلا جُرْمِ

وتوسطت له أمه عند أبيه وأطلق سراحه ، وكأنما كان هذا الهجاء لأبيه إرهاباً بما
سيصير إليه من حدة لسانه التي سيصلي فيما بعد ناراها . والحادثان كلناهما تدل
على أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فإنه لم يكده ينهى دروسه في الكُتَّاب حتى كان
قد أصبح شاعراً ينظم الشعر في يسر . وكانوا يتعلمون في الكُتَّاب شيئاً من علم
الحساب ومن النحو والعروض وبعض سور القرآن وبعض الأشعار والأحاديث
النبوية . ولا ريب في أنه كان يغدو ويروح بعد ذلك مع الشباب إلى
حلقات العلماء المتكلمين في المساجد ينهل منها ، وربما اطلع على شيء من
علوم الأوائل صنيع لداته في عصره . وكانت في المسجد الجامع حلقة كثيراً ما يختلف
إليها وكثيراً ما اجتذبت ، ونقصد حلقة الشعراء إذ « كانوا يجتمعون كل جمعة في
القبة المعروفة بهم في جامع بغداد ، ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه
ما يكون قد نظم بعد مفارقتهم في الجمعة السابقة » . وفي هذه الحلقة تعرف

على كثير من شعراء عصره وفي مقدمتهم أبو تمام الذي أصفاه ودّه وصوّر ذلك تصويراً رائعاً في شعره بمثل قوله^(١) :

إِنْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الْوِصَالِ فَمَاؤُنَا عَذْبُ تَحَدَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدٍ
أَوْ يَفْتَرِقُ نَسَبٌ يُوَلَّفُ بَيْنَنَا أَدَبُ أَقْمَنَاهُ مُقَامِ الْوَالِدِ

ولم يكد على يتجاوز العشرين رباعاً حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين له في الصعود ، وإذا هو يصبح من مُدَّاحِ المعتصم ومن يحظون بالفود عليه ، ويُعجَّبُ به ، فيجعله على مظالم حلوان بالعراق^(٢) . ويفد على الواثق بمدحه ، غير أن ابن الزيات وزيره كان يزور عنه ، ويبدو أنه عزله عن عمله ، إذ نراه يصبُّ عليه جام غضبه^(٣) . وفي هذه الأثناء نراه يعقد صلة وثيقة بينه وبين عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، مؤتسماً في ذلك بصديقه أبي تمام ، ويتوفى سنة مائتين وثلاثين للهجرة ، فيعزى فيه ابنه طاهراً خليفته على ولاية خراسان وبكيه بكاء حاراً .

وتُقبل الدنيا على ابن الجهم مع خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة إذ يصبح من أقرب الشعراء إلى نفسه ، ويتخذه جليساً ونديماً ، ويسرّ إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظياتِه من مثل محبوبة وقبيحة أم المعتز ، ويغدق عليه أمواله وجوائزِه حتى أيرى الرواة أنه دخل عليه يوماً وبيده دُرَّتَانِ نفيستان يقلبهما تعجباً واستحساناً ، ويبالغ الرواة فيقولون إن الواحدة منهما كانت تزيد قيمتها على مائة ألف ، وأنشده ابن الجهم قصيدة جعلته يقدم له إحدى الدُرَّتَيْنِ ، وكانت في يمينه ، والأخرى لا تزال في يساره ، فأسرع ابن الجهم يقول على البديهة :

يُسْرُ مَنْ رَأَى إِمَامٌ عَذْلٍ تَغْرِفُ مِنْ بَحْرِ الْبَحَارِ
الْمَلِكُ فِيهِ وَفِي بَنِيهِ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
يُرْجَى وَيُخْشَى لِكُلِّ أَمْرٍ كَأَنَّهُ جَنَّةٌ وَنَارُ

(٣) الديوان ص ١١٨ .

(١) ديوان أبي تمام ٤٠٧/١ .

(٢) أغاني ٢١٠/١٠ .

يداه في الجود صَرَّتَانِ عليه كَلَّتَاهُمَا تَغَارُ
لم تَأْتِ مِنْهُ الْيَمِينُ شَيْئاً إِلَّا أَتَتْ مِثْلَهُ الْيَسَارُ

واهتر المتوكل طرباً وأعطاه الثانية^(١). وقد يكون في منادمته للمتوكل وملازمته له ما يدل على أنه كان ظريفاً جميل المحضر. ونراه يتحول منذ اليوم الأول في خلافته داعية كبيراً من دعائه، بل لقد تحول إلى ما يشبه أداة إعلام، فليس هناك عمل ينهض به المتوكل إلا ويدعوله إن احتاج إلى دعوة، بل إنه ليبالغ في الدعوة له مبالغة مفرطة. وليس هناك عمل يستحق التنويه إلا ويهتف به في أشعاره ويشيد إشادة بعيدة، وحتى هو إن غضب على بعض الوزراء أو بعض الكتاب والعمال رأيناه يَسْقُطُ عليهم بسياط أشعاره طالباً لهم التنكيل الشديد. وكان أول عمل عام نهض به المتوكل وقفه محنة القول بخلق القرآن على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع؛ فقد كان الخلفاء منذ المأمون جعلوا هذا القول عقيدة رسمية للدولة، وعَسَفُوا بالفقهاء المنكرين لذلك وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل عنفاً شديداً، حتى إذا ولي المتوكل وقف هذه المحنة التي أوشكت أن تؤدي إلى فتنة خطيرة، وبذلك أفل نجم أصحابها من المعتزلة الذين كانوا يُغَرُّون الخلفاء بها وسطع نجم الفقهاء وأهل السنة. ولا يزال ابن الجهم يُشيد بهذا الصنيع، إذ رأب المتوكل صدع فتنة كان يخشى أن تتفاقم وتؤدي إلى شر خطير، ونراه في أثناء ذلك يكيل هجاء ذمياً للمعتزلة، حتى ليصفهم بالكفر على شاكلة قوله^(٢) :

قام وأهل الأرض في رَجْفَةٍ يَخْبِطُ فيها المقبل المدبرُ
في فتنة عمياء لا نارها تخبو ولا موقدها يَفْتُرُ
فقال والالسن مقبوضة لِيُبْلَغَ الغائب من يَحْضُرُ
إِنِّي توكلت على الله لا أَشْرُكُ بالله ولا أَكْفُرُ
لا أدعى القدرة من دونه بالله حَوْلِي وبِهِ أَقْدِرُ

(١) الديوان ص ١٣٦ وانظر المقد
الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)

١ / ٣٢١ .
(٢) الديوان ص ٧٣ .

وابن الجهم يزعم في الآيات أن القول بأن القرآن مخلوق من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلى الكفر والشرك بالله ، وقد مضى ينشأ عن المتوكل القول بحرية الإرادة وأن الإنسان يصرف أفعاله كما تشاء له قدرته ، على نحو ما كان يؤمن المعتزلة ، فهو سني^١ يأخذ بأقوال أهل السنة ، وبأن كل شيء بقضاء وقدر مقدور على الإنسان لا حول له لإزائه ولا قوة . ونراه في نفس القصيدة يزعم بأن أبا بكر قضى على الردة الأولى في الإسلام وأن المتوكل قضى على هذه الردة الثانية للمعتزلة . وكل ذلك زلل منه ، وكان حرياً به ألا يرسل لسانه في المعتزلة وأن يقف بعيداً عن خصومتهم ، أو على الأقل ألا يصممهم بوصفات الردة والشرك والكفر ، ولكنه كان قد وضع نفسه موضع الداعية للمتوكل وأعماله المحامى عنه أمام خصومه ، فبالغ وتورط في مبالغته أكثر مما ينبغي .

ومشكلة ثانية تورط فيها على نحو ما تورط ضد المعتزلة مندفعاً وراء المتوكل إذ كان شديد الانحراف عن علي بن أبي طالب وآله ، ومرتبناً في غير هذا الموضع ما يصور مدى هذا الانحراف إذ أمر في سنة ٢٣٦ بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من الدُور وأن يُحَرِّثَ موضع القبر ويُزَرَّعَ ما حوالیه ، ونرى ابن الجهم منذ ولي المتوكل الخلافة يُبْذِئُ ويعيد في أن العباسيين أولى الناس بالأمر وحكم الأمة . وحقاً بدأ ذلك عنده في مدائح للمعتصم ، ولكنه أصبح الآن نغمساً مستمراً يوقعه على قيثارته كلما مدح المتوكل ، فبَيْسَتْهُ أَحَقُّ من البيت العلوي بالخلافة ، وهم أفضل الناس وخيرهم جميعاً علويين وغير علويين ، أما المتوكل فهو صفوة الله ، اختاره لعباده ، بل هو الميثاق والعهد الذي عاهد الله الناس عليه أن يسمعوا ويطيعوا ، يقول له (١) :

أَنْتَ مِثَاقُنَا الَّذِي أَخَذَ الْإِلَهُ عَلَيْنَا وَعَهْدُهُ الْمَسْئُولُ
بِكَ تَزَكُّوهُ الصَّلَاةُ وَالصُّومُ وَالْحَجُّ وَيَزَكُّوهُ التَّسْبِيحُ وَالتَّهْلِيلُ

وكان هذا الموقف من علي يثير عليه الشيعة ويجعلهم يبطنون له ضغينة مماثلة لما كان يبطنه له المعتزلة . ويجانب ذلك كان المتوكل كلما نكب أحداً زَيَّنَ عمله للرعية ،

ومعروف أنه نكب لأول عهده ابن الزيات وعذبه في سجنه حتى مات ، وكذلك نكب عمر بن فرج الرُّخَّجِيّ وكان من عِليّة الكتاب ومشاهيرهم ، وبنوّه ابن الجهم بعمله وأنه إنما انتقم منهما للرعية ، إذ كان ابن الزيات - في رأيه - ظالمًا جائرًا يُزْرَى على سنن النبي ، وكان الرخجيّ يحور في أحكامه وتصرفاته^(١) . ويعقد المتوكل البيعة في سنة ٢٣٥ لنبهه الثلاثة محمد المنتصر وأبي عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد عاهدًا إليهم بولاية العهد على التوالى ، فيشيد ابن الجهم بهذا الصنيع وأن المتوكل أراد به صلاح الدين^(٢) . وأمر المتوكل كما مرّ بنا في غير هذا الموضع لسنة ٢٣٥ بأن يلبس النصارى وأهل الذمة جميعًا الطيالة العسليّة تمييزًا لهم ويشدُّوا في أوساطهم الزناير وكتب بذلك إلى عماله في الآفاق ، فقال ابن الجهم^(٣) :

العَسَلِيَّاتُ الَّتِي فَرَّقَتْ بَيْنَ ذَوِي الرُّشْدَةِ وَالْفِئَةِ
وَمَا عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكْثُرُوا فَإِنَّهُ أَكْثَرُ لِلْفِئَةِ

وآذى البيتان النصارى وأهل الذمة جميعًا ، وبذلك لم يوغر صدور المعتزلة والشيعية عليه وحدهما ، فقد أوغر أيضًا صدور النصارى وأهل الندة . ولم يَقِفْ إِيغَارُهُ الصدور عند هذه البيئات الثلاث ، فقد أوغر أيضًا صدور حاشية المتوكل جميعًا شعراء وغير شعراء ، وكان منهم مروان بن أبي الجنوب والبحترى والحسين بن الضحّاك وعلى بن يحيى المنجم وأبو العيّناء وابن حمدون وعزّون وبَخْتِيشُوع الطيّيب النصرانيّ وعبادة المضحك ، وساءهم جميعًا أنه كان كثير السعاية بهم إلى المتوكل والذكر لهم بالقبيح عنده ، وتصدّى له منهم البحرى ومروان بن أبي الجنوب يهجوونه . وأخذ هؤلاء الندماء يسعون به إلى المتوكل ، فتارة يقولون له إنه يجمّش غلمانك ويلاعبهم ، وتارة ثانية يقولون له إنه كثير الإِرْءاء عليك . وساعدهم كثير من حاشية المتوكل ممن لم نسمهم ، وكان منهم المعتزلى والشيعى والنصراني ومن يودّوا انتقم منه شر انتقام ، غير من كان يحسده على منزلته من المتوكل ، فما زالوا يقعون فيه حتى ملأوا قلب المتوكل غيظًا وحنقًا عليه ، فأمر بحبس سنة ٢٣٧ ونراه يرسل إلى أخيه من سجنه بقصيدة يصور فيها تجلده لنكبته وشكواه من رفاقه شكوى أليمة وأن

(٣) الديوان ص ١٩٢ والفى في البيت

الثانى : الفىء وهو الغنيمة .

(١) الديوان ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ١٢٥ .

أحداً منهم لم يحام عنه في بلائه ، بل لقد خذلوه جميعاً ، وما يلبث أن يقول ^(١) :
تصافرت الروافض والنصارى وأهل الاعتزال على هجائي

وكأنه كان يعرف في وضوح خصومه الذين ما زالوا يرجفون به عند المتوكل حتى أتى به في غياهب السجون ، إنهم المعتزلة والشيعة والنصارى من حواشي الخليفة ثم منافسوه من الشعراء والتدماة وإن لم يتعرض لهم في هذه القصيدة بالذكر ؛ ويقول ابن المعتز : « إنما عَنَى بالروافض الطاهريين وبأهل الاعتزال بني دؤاد وبالنصارى بختيشوع بن جبريل » ^(٢) . ومعروف أن الطاهريين هم أسرة عبد الله بن طاهر ، وكان ابنه محمد حاكماً لبغداد لعهد المتوكل ، وكان ابنه طاهر — كما أسلفنا — والياً لخراسان بعد أبيه عبد الله ، وأسرّها طاهر لابن الجهم كما سنرى عما قليل . وكان أحمد بن أبي دؤاد رأساً من رموس الاعتزال ، كان المتوكل يفسح له في مجالسه ، لأنه كان أحد من أخذوا له البيعة بعد وفاة الواثق ، فحفظ له المتوكل صنيعة ، على أنه لم يلبث أن نكبه هو وابنه أبا الوليد بعد نكبته لابن الجهم . أما بختيشوع فكان لا ينسى له ذكره العسليات في بيته السابقين وكان يكنى له عداوة شديدة .

وظل ابن الجهم في محبسه يتوسل إلى المتوكل أن يعفو عنه ، مرسلًا له بقصائد يصور فيها ولاءه له وإخلاصه ووفاءه ، مندداً بخصومه بل هاجباً لهم أشد الهجاء وأعنفه ، ورقاً له المتوكل فردّ إليه حريته بعد عام ولكن بطانة السوء من حوله دبّروا لابن الجهم مكيدة لا تُقبَلُ فيها التعلّات والمعاذير ، إذ اتهموه عند المتوكل بأن نفسه سوّلت له أن يهجو هجاء قبيحاً ، وثار المتوكل ثورة شديدة وأمر لسنة ٢٣٩ بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يُصلّب يوماً إلى الليل ، فلما وصل إلى ضاحية من ضواحي نيسابور تسمى الشاذياخ حبسه طاهر بها ، ثم أخرج من محبسه وصلّب يوماً إلى الليل مجرداً ثم أنزل ^(٣) ، وكأن طاهراً رأى في ذلك فرصة

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) أغاني ١٠ / ٢٠٨ .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢٠ .

أن يقتصّ من ابن الجهم على هذا النحو البشع ، لوصفه السالف له هو وبيته في أشعاره بأنهم روافض أو شيعة غالية ، وكأنما يريد أن يسجل عليهم الخيانة للمتوكل ودولته . وظل في سجن طاهر بالشاذياخ إلى أن كتب إليه المتوكل بإطلاقه فأطلقه ، ومثّل ابن الجهم بين يديه ، يقول :

أطاهر إني عن خراسان راحلٌ ومُستخبرٌ عنها فما أنا قائلٌ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً فإني لا أفعل بك إلا ما تحبّ ، ووصله وحمله وكساه (١) ، وأخذ يبتغي إلى مودته كل الوسائل . ويبقى ابن الجهم في جواره مدة يسمر فيها عنده ويلزمه في غدوه ورواحه إلى الصيد (٢) . وكان طبيعياً أن تترك هذه المحنة التي طالت سنواتها والتي شقّ بها في بغداد وخراسان شقاء شديداً ظلاً كثيباً على نفسه حتى لنراه عقب ردّ حربه إليه يطيل المكث في القبور ، ويسأله رجل ما يجلسك بين المقابر ، فيجيبه (٣) :

يشنّاق كلّ غريبٍ عند غربته ويذكر الأهلَ والجيرانَ والوطنا

وليس لي وطنٌ أمسيت أذكره إلا المقابر إذ صارت لهم وطنا

وعاد ابن الجهم إلى العراق ، ولكنه لم يولّ وجهه نحو سامراء ؛ فقد ازورّ عنه المتوكل وأغلقت أبواب قصوره من دونه ، إنما ولّى وجهه نحو بغداد ، ونراه حينئذ يأسى لانصراف الناس عنه ، فقد تغيّر عليه الخليفة فتغير عليه الناس جميعاً ، ولم يعد يجد من بينهم الصديق الوفيّ ولا الأخ المخلص ، وحزن لذلك حزناً شديداً ، وأداه حزنه إلى أن يغرق أساه في كثوس اللهوعلّها تنسبه كارتثه ، وأزم جماعة ماجنة من فتيان بغداد كانوا يختلفون إلى منزل مقيّنين (نخّاس) بالكرخ يسمى المفضّل ، كان منزله مكتظّاً بالحواري العابثات اللاتي يتفنّن في جذب الشعراء والشباب إلبهن ، ومرت بنا في الفصل الثاني أبيات لابن الجهم من قصيدة يصف فيها هؤلاء الحواري وكيف كن يععبّين بقلوب الفتيان ويسعرن أفئدتهم ناراً (٤) . ويسنعي إليه المتوكل لسنة ٢٤٧ للهجرة فيرثيه رثاء حاراً . وماتوا في سنة ٢٤٩ حتى يتناقل العالم

(٣) أغاني ١٠/٢٢٤ .

(٤) الديوان ص ٥٢ :

(١) أغاني ١٠/٢٠٩ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٠/٢٢٧ .

العربي المأساة التي سبق أن أشرنا إليها في الفصل الأول ، وهي مقتل البطلين عمر بن عبيد الله الأفطع وعلى بن يحيى الأرمني في حروب الروم ، ويتصايح المتطوعون لتلك الحروب في كل مكان ، ونجد ابن الجهم كأنما يثوب إلى نفسه أخيراً ، فيعتزم الجهاد في سبيل الله مع المجاهدين ، ويخرج في قافلة إلى حلب لغزو الروم ، ويحاول أن يتجه من حلب إلى بعض الثغور^(١) ، ويعترضه أعراب من بني كلب ، ويقاتلونهم ، وهو يصبح فيهم بأشعار حماسية ملتزمة ، وتصيبه طعنة قاتلة ، فيقتل شهيداً دون غايته^(٢) .

وأشعار ابن الجهم موزعة بين المديح والاستعطاف والثناء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة وحلٌ مدائح في المتوكل ، فقد كاد لا يترك فيه فضلاً لغيره ، ومراً بنا أنفساً أنه ظل منذ توليه الخلافة سنة ٢٣٢ للهجرة حتى سنة سجنه وسخطه عليه يسجل كل أعماله ، بل لقد تحول داعية له ، يحامى عنه ويدافع ، بل يبرر ويزين ما يصدر عنه من فعل ، وظل ينوه بموقفه من المعتزلة وفتنة خلق القرآن ، بمثل قوله^(٣) .

بِهِ سَلِمَ الْإِسْلَامُ مِنْ كُلِّ مَلْحِدٍ وَحَلَّ بِأَهْلِ الزَّيْغِ قَاصِمَةُ الظُّهْرِ

وبالمثل كان يندد بالشيعة والعلويين ، وكان ما يزال يرفع من المتوكل والعباسيين ، حتى ليجعلهم فوق كل الناس علويين وغير علويين ، وحتى ليقول^(٤) :

لَنَا فِي بَنِي الْعَبَّاسِ أَكْرَمُ أُسُودٍ فَهُمْ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ طُرّاً وَأَفْضَلُ

وَيَدُولُ لِلْمَتَوَكِّلِ^(٥) :

وَلَنْ يُقْبَلَ الْإِيمَانُ إِلَّا بِحَبِّكُمْ وَهَلْ يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ بِلَا طُهِرٍ

وكان لا يني يمدح المتوكل بحب الخير والرفق بالرعية والصفح عن الزلات ونشر الأمن الذي يحزر الناس من الخوف ونشر العدل الذي لا تصلح الحياة بدونه ، يقول^(٦) :

(٤) الديوان ص ٧٠ .

(٥) الديوان ص ١٤٨ .

(٦) الديوان ص ٣٥ .

(١) تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٩ .

(٢) الأغاني ١٠ / ٢٣٣ وما بعدها .

(٣) الديوان ص ٢٢٢ .

ملكٌ باسطُ. اليَدَيْنِ إلى الخِيَدِ ر صفوحٌ عن الذنوب غفورٌ
أمن الناس واستفاض به العُدُّ لُ فلا خائفٌ ولا مقهورٌ

وله في المتوكل وراء مدائحه تهنئة بعيد المهرجان ، ونراه يسوق في فاتحتها دعوة للصباح بالحر من أيدى الخُرْد الغيد ، ويُشيد بمجالسها وما فيها من غناء تهفو إليه النفوس ، ثم يأخذ في مديح المتوكل وأن خلافته تفتح للناس أبواب الرحمة على مصاريعها وما تزال تمسهم بأجنحة من الرفق والعطف ، ويعلن في صراحة صريحة أنه خراساني من شيعة بني العباس أصحاب الرايات السود شعارهم أو كما يسميها الخرق للسود ، يقول^(١) :

نحن أبناء هذه الخرقِ السُوِّ دِ وأهل التشيعِ المحمودِ

وأروع من هذه التهنة تهنة المتوكل بقضاء قائده بُغَا قضاء مبرماً على إسحق ابن إسماعيل الثائر بأرمينية وهي أرجوزة أنشدها ارتجالاً ، وفيها يصور بأس الجيش العباسي في تلك الحرب ، وكيف كان يهدم الحصون هناك بمجانيق ترسل عليهم صواعق من حجارة السجيل ، يشير بذلك إلى سورة الفيل ، وقد تسخل الاقتباس منها أبياته^(٢) ، وهي تدل على طوعية الشعر له وأنه كان يصدر فيه عن نسب غزير .

ويدخل ابن الجهم السجن ، ويتحول من مديح المتوكل إلى استعطافه، ونراه في ميمية قدّمها إليه يذكر سنّه التي أشرفت على الخمسين ، وكيف أن الناس أخذوا ينكرونه لإنكار الخليفة له ، ويظل بأسى لقلة الصديق حتى يقول للمتوكل مستعظماً^(٣) :

أما وأمير المؤمنين لقد رمى الـ عدوُّ فلا نِكْساء ولا منهضاً
ولا ناسياً ما كان من حسن رأيه لخُطّة خَسَفٍ سامنيها محتماً
فخطة الخسف والظلم والهوان ستنتشع عنه ، ولكنها لم تنتشع ، فعاد إلى

(٣) الديوان ص ٢١ .

(١) الديوان ص ٣٥ .

(٢) الديوان ص ١٧٦ .

استعطافه في لامية له استهلها بالحديث عن الصبر الجميل ، ويسترسل في مديحه ، ويقول إنه خير خلق الله وأعلمهم وأشدهم توحيداً للإنصاف ، وكأنه يشير إلى ما يأمل منه من العفو والصفح والغفران حين يقول^(١) :

يعاقب تأديباً ويعفو تطولاً وَيَجْزِي عَلَى الْحُسْنَى وَيُعْطَى وَيُجْزَلُ
وَلَا يُتَّبَعُ الْمَعْرُوفُ مَنًّا وَلَا أُذَى وَلَا الْبُخْلُ مِنْ عَادَاتِهِ حِينَ يُسْأَلُ
رِعَاكَ الَّذِي اسْتَرَعَاكَ أَمْرَ عِبَادِهِ وَكَافَاكَ عَنَا الْمَنَعِ الْمَتَفَضَّلُ

وينكل به طاهر بن عبد الله بن طاهر ، كما أسلفنا ، وكان يمدح أباه وبنته ، غير أنه زلَّ زَلَّتْهُ التي تحدثنا عنها حين أحسَّ أن الطاهريين لا يتوسطون له عند المتوكل ولا يهمهم أمره ، فسماهم رافضة ، وكأنما أراد من المتوكل أن يطير بهم طيرةً بطيشاً سقوطها ، وظل طاهر يسرها له ، حتى تمكن منه ، ويرسل له ابن الجهم من سجنه في الشاذياخ شعراً يستعطفه به من مثل قوله^(٢) :

إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَلِي حُرْمَةٌ وَالْحَقُّ لَا يَدْفَعُهُ الْبَاطِلُ
وَحُرْمَتِي أَعْظَمُ مِنْ زَلَّتِي لَوْ نَالَنِي مِنْ عَدْلِكُمْ نَائِلُ

ولكن الزلة في رأى طاهر كانت أكبر من الحرمة ، فلم يأبه باستعطافه ، حتى أهره المتوكل برد حرите إليه . حيثند خشى معرفة لسانه ، فقربه منه وجعله من ندمائه وجلسائه .

ولابن الجهم مراث قليلة في مقدمتها مراثيه لعبد الله بن طاهر ، يعزى بها طاهراً ابنه ، مصوراً عظم الفادحة فيه ، حتى ليظن كأن ركناً من أركان الإسلام انقضَّ انقضاءً ، في يوم عبوس من أخنى الأيام وأشدها بلاء على الأنام ، على نحو ما يقول في مطلعها^(٣) :

أَيُّ رَكْنٍ وَهَى مِنَ الْإِسْلَامِ - أَيُّ يَوْمٍ أَخْنَى عَلَى الْإَيَّامِ -

ومضى يعزى آل الفقيده مصوراً عظم الكارثة فيه ، ثم انتقل إلى مديح طاهر

(٣) الديوان ص ١٨٢ .

(١) الديوان ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ص ١٦٩ والأغاني ١٠ / ٢١٨ .

ابنه وأنه نعم الخلف لسلفه . وأهم من هذه المراثية مراثيته لصديقه الروحي أبي تمام ،
وهي أبيات أربعة صور فيها شاعريته وكيف عدت عليها الأيام ، حتى إن الشعر
ليبكيه بكاء مرّاً ، فقد هلك مثقفه ومروّض قوافيه وجفّ غدير روضته ، وجفت
بدائع فطنته ، يقول^(١) :

غاضتْ بدائعُ فطنةِ الأوهامِ وعدتْ عليها نكبةُ الأيامِ
وغدا القريضُ ضئيلُ شخصٍ باكياً يشكو رزيتهُ إلى الأَقلامِ
وتأوّهتْ غُرُرُ القوافي بعده ورى الزمانُ صحيحها بسقامِ
أودى مثقّفها ورائضُ صعبها وغديرُ روضتها أبو تمام

ومرّبنا أنه رثى المتوكل رثاء حارّاً حين قتله بعض حرسه وحواشيه ، وهو يستهل
رثاءه له بوصف سحابة أطلّت العراق وملأته أمطاراً وخصباً ، غير أن عاصفة
هوجاء نسّحتها عنه ، وكأنما يرمز بها إلى المتوكل ، ثم أخذ يتفجع عليه تفجعاً مريراً ،
مزرباً على جنوده أن لم ينصروه . مندداً بمن قتلوه تنديداً شديداً^(٢) .

والهجاء عنده ليس كثيراً ، وهو يَحْزِرُ فيه وخز الإبر ، وأحياناً يطعن طعنات
دامية ، مما جعل ابن المعتز يقول : إنه كان هَجَاءً يضع لسانه حيث يشاء ، ويقول
المسعودي : « كان في لسانه فضل قتل مَنْ سلم معه منه » ، ولعله يقصد تعرضه
للشيعة والعلويين والمعتزلة ، وكان يشتد هجاؤه حين يحس بأنه أودى أو وقعت عليه
إهانة ، ومن تعرّض لهم بالهجاء كثيراً أحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة ، لأنه سأله
الشفاعة حين أمر المتوكل بحبسه فقعد عنه ولم يهتم به ، حتى إذا نكبه المتوكل شمت
به هو وابنه أبي الوليد ، وسلّ عليهما لسانه بمثل قوله^(٣) :

يا أحمدُ بنَ أبي دُؤادٍ دعوةٌ بعثتُ إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البِدْعُ التي سميتها بالجهل منك العدلَ والتوحيداً
أفسدت أمرَ الدين حين وليته ورميته بأبي الوليد وليدا

(٣) الديوان ص ١٢٥ .

(١) الديوان ص ١٨١ .

(٢) الديوان ص ٥٦ .

وكان أبو الوليد يتولى المظالم بسامراً وعزله عنها المتوكل حين صادر أمواله وأموال أبيه لسنة ٢٣٧ وابن الجهم يشير بالعدل والتوحيد إلى مبدئين أساسيين في الاعتزال، إذ كان المعتزلة يوجبون العدل على الله مما أدهم إلى القول بفكرة خلق الناس لأفعالهم وحرية إرادتهم حرية تامة دون جبر أو إلزام ، حتى يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم وما يأتون من الخير والشر . وأما التوحيد فأرادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، بحيث لا يحصره مكان ولا زمان . وكان مروان بن أبي الحنوب كثير التعرض له يذمه ويهجوه ، ويقال إنه هجاه يوماً في مجلس المتوكل ، فأطرق ثم رماه بهذين البيتين المصنفيين ^(١) :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءُ عداوةٍ غير ذى حسبٍ ودينٍ
يُبِيحُكَ مِنْهُ عِرْضاً لَمْ يَصْنَهُ وَيَرْتَعْ مِنْكَ فِي عِرْضٍ مَصُونٍ

وقد جرّده من الحسب والدين والعرض والشرف .

ولابن الجهم غزل كثير ، وهو تارة يضمه في مقدمات قصائده ، مديباً فيه لواعج حبه ، وتارة يفرده بمقطوعات تصور ما يثير الحب في فؤاده من العواطف والمشاعر ، ومن مقدماته المشهورة التي طارت على كل لسان قوله في فاتحة إحدى مدائحه للمتوكل ^(٢) :

عيونُ المَهَا بين الرُّصافة والجِسرِ جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرَى وَلَا أَدْرَى
أَعَدْنَ لِي الشُّوقَ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدَنْ جَمْرًا إِلَى جَمْرٍ

وهو تصوير بديع لما ترسل العيون من سهام الحب التي تفد من كل مكان مكشوف وخبيء من حيث يدرى ابن الجهم ومن حيث لا يدرى، وقد أعدن له جذوة الحب القديم التي لا سبيل إلى إطفائها وأوقدن بجانبها جذوات كثيرة حديثة ، وقلبه يلتاع لوعة شديدة . ومضى يتحدث عن صواحب تلك العيون وكيف أنهم يُضْشِنُ من بعيد كالأهلة تنزود منها الأبصار ، ولا متاع سوى متاع النظر والخيال ،

وقد التهب منه جوانح الفؤاد ، ويشكو المشيب ويذكر اقتطافه زهرات الحب ذات ليلة ، ثم يعود إلى الشكوى من الهجر والفراق ، ويجرى حواراً طريفاً عن حبه بين فتاتين تتبادلان الرأي في وصله وصده ، ومن طريف ما له في الغزل قوله ^(١) :

سَقَى اللهُ لَيْلَا ضَمْنًا بَعْدَ فُرْقَةٍ وَأَدْنَى فَوَادًا مِنْ فَوَادٍ مَعْدَبٍ
فَبَيْتُنَا جَمِيعًا لَوْ تَرَأَقُ زُجَاجَةٌ مِنْ الرَّاحِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبِ
وَكَأَنَّهُمَا أَصْبَحَا رَوْحِينَ فِي بَدَنٍ .

والفخر كثير في أشعار ابن الجهم ، وهو يردد الفخر بقرشيته وبفتوته التي أغرته بأن يكون صاحب لهو ومجون على الأقل في فترات من حياته ، وصور حين حبس وصلب عرياناً صلابة نفس غير مألوفة ، إذ ظلت نفسه قوية وظلت لا تنكسر أبداً ، ويستشعر هذا المعنى في عمق حين يفتتح إحدى قصائده التي استعطف بها المتوكل بقوله ^(٢) :

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَلَتْهَا تَحْمَلُ وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تَجُورُ وَتَعْدُلُ
وَلَا عَارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ الْحَرِّ نِعْمَةٌ وَلَكِنْ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجْمُلُ

وكان لا يزال يشعر بقرشيته وأنه من أرفع الأسر العربية مكانة وأعلاها منزلة ، وكاد له خصومه عند المتوكل واستتبع كيدهم السجن والقيود والأغلال والظلم والعسف ، ولكنه احتمل وقاوم ، حتى ليقول لبعض صواحيبه ^(٣) :

فَلَا تَجْزَعِي إِمَّا رَأَيْتِ قَيُودَهُ فَإِنْ خَلَاخِيلَ الرِّجَالِ قَيُودُهَا

إنها ليست قيوداً وسلاسل بل هي حللى الرجولة والفتوة ، وهو خليق أن يتحلّى بها مهما عرضته لشر أو ضيق أو ضرر ، ويحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأنقال السجن وقبوده ، فنفسه لا تضعف ولا تهون ، بل لعل نيران هذه الحنة قد زادت صلابته فوق صلابته ، إنها من جوهر كريم لا تذيبه الحن والخطوب

١. لابن المعتز ص ٣٢١ .

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) الديوان ص ٥١ .

(٢) الديوان ص ١٦٢ وطبقات الشعراء

ولا كل ما يسام به من ضروب الخسف والعسف ، ويبلغ ابن الجهم من ذلك حدًا يفوق كل وصف حين يقول لصاحبه^(١) :

قالت حُبَسْتُ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي حَبَسَنِي وَأَيُّ مَهْنَدٍ لَا يُغَمِّدُ^(٢)
أَوْ مَا رَأَيْتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيْلُهُ كِبْرًا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَرْدُدُ^(٣)
وَالشَّمْسُ لَوْلَا أَنِهَا مَحْجُوبَةٌ عَنْ نَظْرِيكَ لَمَا أَضَاءَ الْفَرْقَدُ^(٤)
وَالْبَدْرُ يُذَكِّرُهُ السَّرَارُ فَتَنْجَلِي أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ^(٥)
وَالْغَيْثُ يَخْضَرُهُ الْغَمَامُ فَمَا يُرَى إِلَّا وَرِيْقُهُ يَرَّاحُ وَيَرْعُدُ^(٦)
وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ لَا تُصْطَلَى إِنْ لَمْ تُثَرِّهَا الْأَزْنَدُ^(٧)
وَالزَّاعِمِيَّةُ لَا يَقِيمُ كَعُوبَهَا إِلَّا الثَّقَافُ وَجُذُوءُ تَتَوَقَّدُ^(٨)

وهو يمثل نفسه لصاحبه سيفًا مسلولا وُضع في غمده ، بل كأنه أسد في أجتمته وشمس في حجابها وبدر في سراره ، بل وكأنه غيث مضمّر في غمامه ونار مكنونة في زندها ورمح يصقله مثقفه . وهي صور تعبر عن نفس صلبة قوية وأنها ظلت على الرغم من محنة السجن سالمة لم يصبها وهن ولا خور . ويُنقِى إلى خراسان ويُسْجَن ويصلبه أميرها يومًا عاريًا وتظل له نفسه الصلبة ويزار منشدا^(٩) :

ما عابه أَنْ بُزَّ عَنْهُ لِبَاسُهُ فَالسَّيْفُ أَهْوَلُ مَا يُرَى مُسْلُولَا
فهو مثل السيف أهول وأهيب ما يُرى حين يُجَرَّد من غمده ويصوب إلى الرقاب .

ولابن الجهم أشعار كثيرة في وصف الطبيعة الصحراوية وأطلالها ونوقها وفي وصف الطبيعة الحضرية ورياضها ورياحينها ، ومرت بنا في الفصل الماضي قطعة له بديعة

(١) الديوان ص ٤١ والأغاني ٢١٣/١٠ .

(٢) المهنت : السيف .

(٣) الغيل : أجمة الأسد .

(٤) السرار : آخر أيام الشهر .

(٥) ريق الغمام : أوله . راح : تكثر

ممه الرياح والمواصف المطرة .

(٦) الزاعية : ضرب من الرياح المصمية .

(٧) الديوان ص ١٧٢ .

فى وصف الورد وتهاديه ووصف شذاه العطر الذى يشفى القلوب الكليمة ، وله أشعار مختلفة فى وصف اللهو والملاهى ، ومن قوله فى وصف مجلس أنس^(١) :

الْوَرْدُ يَضْحَكُ وَالْأَوْتَارُ تَضْطَجِبُ وَالنَّائِى يَنْدَبُ أَشْجَانًا وَيَنْتَجِبُ
وَالرَّاحُ تُعْرِضُ فِى نَوْرِ الرَّبِيعِ كَمَا تُجَلِّى الْعُرُوسُ عَلَيْهَا الدَّرُّ وَالذَّهَبُ

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء . وأنشدنا فى الفصل الماضى قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة ، وكذلك وصفه للعبة الشطرنج وله قصيدة جيدة فى وصف سفينة^(٢) .

وجعلته نكبته يكثر من التأمل فى الحياة وفى سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم ، مما جعل تجاربه تنوع وجعله ينثر منها كثيراً فى أشعاره من مثل قوله^(٣) :

وَمَنْ طَلَبَ الْمَعْرُوفَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ أَطَالَ عَنَاءٌ أَوْ أَطَالَ تَنَدُّمًا
وَمَنْ سَامَحَ الْأَيَّامَ يَرِضُ حَيَاتِهِ وَمَنْ مَنَّ بِالْمَعْرُوفِ عَادَ مَذْمُومًا

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون فى أشعارهم ولا ممن يكثرّون من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه ، وبما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة ، وكان كثيراً ما يلجأ بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورسانتها ومع جمال الجرس والأداء .

٢

البحترى^(٤)

هو أبو عبادة الوليد بن عبّسند ؛ طائىّ الأب شيبانىّ الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية ببحتر ، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بمسبج إلى

والموازنة بين الطائيين للامدى ، وطبقات

الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ ، ٤٥٨

والشرىشى على مقامات الحريرى ٤٠/١

وعبث الوليد لأبى الملاء ، وأخبار البحترى

للصولى (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق) =

(١) الديوان ص ١٠٥ .

(٢) الديوان ص ١١٤ .

(٣) الديوان ص ٢٠ .

(٤) انظر فى البحترى وشعره الأغانى

(طبعة الساسى) ١٨ / ١٦٧ ، والموشح للرزبانى

الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات ، وقيل : بل وُلد بقرية تجاورها تسمى « زَرْدَفَنَة » والرأى الأول أصح ، لأن البحترى نفسه يكرّر كثيراً فى شعره « مَنبِج » مسقط رأسه ، وكانت تنزلها عشائر من طيئ ، وهى كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء ، أقطعها الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وفى ديوان البحترى مدائح كثيرة لابنه محمد ولطائف من أسرته عاشت فى منبج وحلب .

وليس لدينا أخبار عن هيئته وصورته إلا ما رُوِيَ عنه فيما بعد من أنه كان أسمر طويل اللحية ، وقد نشأ فى أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتّاب ، فحفظ القرآن أو شطراً كبيراً منه ، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبَّ إلى حلقات العلماء فى المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام . واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والبادنجان ، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته إلى بلاد أكبر من حولها ؛ إذ نراه يتزل حلب ، وهناك تعرّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حباً ، ويبدو أن زريقة كانت مغنية ، وتعرّف أيضاً على صديق يسمى الذفانى مدحه ببعض شعره ، وهجاه فيما بعد لاقترانه بعلوة ، على شاكلة قوله ^(١) :

نُبِّئْتُهَا زُوجَتْ أَخَا خَنْثٍ أَغْنَى رَطْبَ الْأَطْرَافِ لَيْنَهَا

وظلت دار علوة قائمة بحلب ، حتى عصر ياقوت إذ يقول : « وفى وسط البلد "حلب" دار علوة صاحبة البحترى » . وقد يدل ذلك على يسار الذفانى وأنه شيد لها داراً فخمة . وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من

والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة - طبع دار المعارف) وديوانه بتحقيق حسن الصيرفى ومقدمته (طبع دار المعارف) .

(١) الديوان ٢٣٢٥/٤ .

= وتاريخ بغداد ٤٤٦/١٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٢٤٨/١٩ ، وابن خلكان ، ومرآة الجنان لليافى ٢٠٢/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٨٦/٣ والنجوم الزاهرة ٩٩/٣ ، وحياة البحترى وقته لأحمد أحمد بدوى ،

حياته . واتسع برحلته إلى حمص ، وكأنما كان السَّعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه ، وقال له : أنت أشعر من أنشدني فكيف حالك ، فشكا إليه خَلَّةً ، فكتَبَ إلى أهل معرَّة النعمان : « يصل كتابي مع الوليد أبي عبادة الطائي وهو على بذذته "سوء حاله" شاعر فأكرموه » واستقبلوه استقبالا حسناً ووظَّفوا له أربعة آلاف درهم^(١) . وفي رأينا أنه لم يصله بأهل معرَّة النعمان فقط ، فقد وصله أيضاً ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصَّهم بمدحهم فيمدهم ، مثل آل حميد الطوسي في الموصل ، وخالد بن يزيد الشيباني وإلى أرمينية والثغور ، وأبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي الذي ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والجزيرة ، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف ، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحى أبي تمام . وتُخرَّج بعض الروايات ذلك مخرج القصص ، فتذكر أنه دخل عليه وأبو تمام عنده ، فأنشده قصيدته :

أَفَاقَ صَبٍّ مِنْ هَوَى فَأَفِيقَا أَمْ خَانَ عَهْدًا أَمْ أَطَاعَ شَفِيقَا
فردَّها أبو تمام عليه من حفظه كأنها من نظمه ، وعرفه أبو تمام نفسه ، ولزمه البحترى^(٢) . ونظن أن الرواة زادوا فيها أنه لم يكن يعرف أبا تمام ، فعرفته به أسبق من ذلك كما أسلفنا ، بل هو الذي حثه على مديح أبي سعيد الثغري ولقائه له وهو عنده . ولم يكتف أبو تمام بتقديم الشاعر الشاب إلى بعض ممدوحيه ، فقد مضى يتعهد شاعريته ، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خرَّجه فيه شاعراً ممتازاً راع معاصريه ، ويصرِّح بذلك البحترى معترفاً بجميل أستاذه إذ يقول^(٣) :

« كنت في حدائتي أروم الشعر وكنت أرجع إلى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه . . . حتى قصدت أبا تمام ، فانقطعت فيه إليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لي : يا أبا عبادة تخيِّر الأوقات وأنت قليل الهموم صِفِرْ من الغموم . واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من

(١) أخبار البحترى ص ٥٦ ، والأغاني (٢) أخبار البحترى ص ٦٣ ، والأغاني ١٦٩/١٨ .
(٣) زهر الآداب للحصري ١٠١/١ .

النوم ، فإذا أردت النسب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكتابة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت في مدح سيد ذى أباد ، فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبين معالمه ، وشرف مقامه ونضد^(١) المعاني واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزريرة . وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى . »

وكانما وضع أبو تمام نصبَ عيني البحرى دستوراً قوياً لإحسانه صناعة الشعر ، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه ؛ إذ لا بد أنه أوصى البحرى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته . وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه ، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسب والمديح جميعاً ، مع العناية بدقائق المعاني وجمال الألفاظ والأساليب ، ونظن ظناً أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة ، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن ، أخذ يعرفه لا على أهل معرفة النعمان فحسب ، بل أيضاً على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية . وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابل قديماً وحروب الروم حديثاً أن يستخلصه لنفسه ، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة ، وتغنى طويلاً بمدح كاتبه محمد بن عيسى القمى ، ويتحول إلى ابنه يوسف الذى خلفه على إمارته الأخيرة فى أرمينية وأذربيجان ويكثر من مدائحه . ونظن ظناً أن من أوائل مدائحه لأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى رائيته^(٢) التى يعزیه فيها عن المعتصم حين توفى سنة ٢٢٧ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام دفعه بعد هذا التاريخ لزيارة سامراء بعد أن وثق من براعته الشعرية ، إذ نراه ينزل بها ، ونرى أبواب الخليفة الواصل ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب مفتوحة أمامه ، وكأن صداقة أبى تمام للأخيرين

هى التى فتحت له سريعاً تلك الأبواب ، وإذا هو يَمْشُلُ بين أيديهم جميعاً مادحاً مجداً .

ويتولى الخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة ويعصف بابن الزيات ويظل البحرى بعيداً خوفاً على نفسه ، وخاصة أنه كانت قد جرت على لسانه بعض أبيات يتعصب فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ضد أهل السنة من مثل قوله فى بعض الخارجين على أبى سعيد الثغرى :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرفون كلامه المخلوق

وسأله سائل : أكنت معتزلياً ، فأجابه : « كان هذا دينى فى أيام الواثق ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل ، فقال له : يا أبا عبادة ! هذا دين سوء يدور مع الدول ! » ^(١) . فقد نزع عن نفسه لعهد المتوكل ثوب الاعتزال الذى كان يدين به الواثق ووزيره ابن الزيات ، ولبس ثوب أهل السنة الذى فرضه المتوكل . وهو جانب سبئى فى البحرى إذ كان متقلباً مسرفاً فى القلب ، يلتمس المنفعة لنفسه ما وجد إلى ذلك سبيلاً . على كل حال أحسَّ بادئ الأمر أن أبواب المتوكل مُوصدة من دونه ، ولكن ذلك لم يدفعه عن طريقه ، فقد أخذ يمدح بعض خاصته وخاصة وزيره الفتح بن خاقان وهو يحيى بن على المنجم ، الذى اشتهر بوصله الشعراء بهما وأخذهم لهم الصلوات السنية منهما ، ووعده على أن يصله بالفتح ، ونراه يستنجز وعده فى بعض شعره ^(٢) ، وينجح على فى وصله بالفتح لسنة ٢٣٣ ويمدحه ^(٣) وينال جوائزه ، ولكن عينه لا تزال طامحة إلى مديح المتوكل ، ويلوِّح للفتح بطموحه ويعده الفتح ويتعجله أن يبنى بوعده فى غير قصيدة من مثل قوله ^(٤) :

وعدتَ فأوشكَ نُجَحَ وعدك إنه من المجد لإعجالُ المواعيد بالنُّجَحِ
وأنت ترى نُصَحَ الإمام فريضة وإخباره عنى سبيلٌ من النُّصَحِ

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله

وأبدى الجواب الربع عما تسأله

انظر الديوان ٣ / ١٦١٠ .

(٤) الديوان ١ / ٤٤٦ .

(١) أخبار البحرى للصول ص ١٢٣ .

(٢) الديوان ٢ / ١١٣٢ .

(٣) فى أخبار البحرى للصول ص ٨٣

أن أول قصيدة مدح بها البحرى الفتح بن خاقان

لسنة ٢٢٣ هـ :

ويفتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه ، ويستمتع إليه وتتواتر صلاته وإقطاعاته عليه ، وكذلك إقطاعات الفتح وصلاته ، فقد كان ديوان الخراج إليه . ونراه يمدح الوزير الثاني للمتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ولم يكد يترك أحداً من معاوني الفتح ومساعديه إلا مدحه ، فهو يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم أحد كتّابه في دواوين الخراج وكان نصرانياً ، وكأن نصرانيته لم تمنعه من مديحه ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديح عبدون بن مخلد الراهب أخى صاعد وزير المعتمد . ويمدح أيضاً من كتاب الخراج والدواوين أعوان الفتح من أمثال أحمد بن المدبر وأخيه إبراهيم ، ويظل يمدحهما طويلاً ، حتى بعد خروج أحمد للعمل في دواوين مصر والشام . وكان قد ترك زوجته في منبج وأنجب منها ابنه أبا الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه ، ويبدو أنه كان يقضى في وطنه الصيف كله فراراً من حر العراق ولتفحّه ، يقول^(١) :

نَصَبُ إِلَى طَيْبِ الْعِرَاقِ وَحُسْنِهَا وَيَمْنَعُ مِنْهَا قَيْظُهَا وَحَرُّوْهَا
هِيَ الْأَرْضُ نَهَاها إِذَا طَابَ فَضْلُهَا وَهَرُبُ مِنْهَا حِينَ يَحْمَى هَجِيرُهَا

وكان لا يترك وجيهاً ولا ولياً ولا صاحب خراج في طريقه من سامراء إلى منبج إلا ويقدم إليه مدائحه ويأخذ جوائزه ، من مثل بني حميد الطوسي الطائي وأبي سعيد الثغري وابنه يوسف صاحبي أرمينية وأذربيجان وآل عبد الملك بن صالح الهاشمي ، بل يبدو أنه كان يمد رحلاته في الشام فيمدح بعض العمال والولاة مثل مالك بن طوق صاحب دمشق والأردن وأبي مسلم الكجّبي ، كما كان يمد رحلاته إلى بغداد وما وراءها من مدن العراق ، ونراه يكثر من مديح القائمين عليها من آل طاهر ، فهو يمدح منهم إسحق المصعبي ومحمد بن عبد الله بن طاهر الذي حكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وكذلك أخواه سليمان وعبيد الله ، وله في الأسرة شعر كثير . ومن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائداه عبد الله بن دينار وابنه أحمد ، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد ، وله في الفتح بن خاقان تسع

وعشرون قصيدة، ومن عمال المتوكل الذين مدحهم دُليل بن يعقوب النصراني^(١). وتحول إزاء أعمال المتوكل وكل ما حدث في عصره إلى ما يشبه آلة راصدة، فهو يسجل لسنة ٢٣٥ عقده ولاية العهد لأبنائه الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد قائلاً^(٢):

قُدَّامَهُم نَوْرُ النَّبِيِّ وَخَلْفَهُم هَدْيُ الْإِمَامِ الْقَائِمِ الْمَحْمُودِ

ولا يترك نصراً على ثائر إلا ويدونه، وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغرى وإلى إقليمهم، فوجه إليهم المتوكل جيشاً سحقهم سحقاً وألقوا عن يد وهم صاغرون، ونوه البحترى بهذا الانتصار طويلاً. وكانت قد حدثت في أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب دامية بين قبائل ربيعة: تغلب وشيبان وغيرهما، واستطاع الفتح بن خاقان أن يحقن الدماء بينها وأن يردّها إلى الطاعة، ومن الغريب أن لا تُعنَى كتب التاريخ بهذا الحدث العناية المنتظرة، بينما نرى البحترى يسجلها، وقد بلغ به الأسى أقصاه إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغي أن يكون بينها من البرِّ والعطف، فإذا هي تفرع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء، يقول^(٣):

وَفُرْسَانُ هِجَاؤٍ تَجِيْشُ صَدُوْرُهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضْيِقَ دُرُوعُهَا
تَقْتُلُ مِنْ وَتَرٍ أَعَزَّ نَفْسُهَا عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكَادُ تَطْبِئُهَا
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرْتُ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دِمُوعُهَا
شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تَقْطَعُ بَيْنَهُمْ شَوَاجِرُ أَرْحَامٍ مَلُومٍ قَطُوعُهَا^(٤)

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه، والدماء تفيض والدموع تسيل والرماح تقطع علائق الأرحام. وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصابه من الأمن والسلام، فأغمدت السيوف وقرت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهدة. ويشب أهل حمص بعاملهم^(٥) لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة في سنة ٢٤١ وينكل

(١) الديوان ١٦٨٩/٣ .

(٢) الديوان ٧٠١/٢ .

(٣) الديوان ١٢٩٩/٢ .

(٤) الشواجر: التشابكة المتداخلة .

(٥) تاريخ الطبري ١٩٧/٩ وما بعدها .

بهم المتوكل وسرعان ما يغفو عنهم ، ويسجل البحترى الحادث منوهاً بغفوه قائلًا^(١) :

تداركت بالاحسان حمص وأهلها وقد قارفوا فعل الإساءة والخرق^(٢)

وترسل تذورة لإمبراطورة القسطنطينية إلى المتوكل لسنة ٢٤١ وفداً يطلب الفداء بين أسرى الروم والعرب ، ويستقبل الخليفة الوفد في حفل كبير يصفه البحترى ، ويظيل في وصف السباط الذى مُدَّ فيه وما علا وجوههم وسياهم من ذهول وحيرة^(٣) . وكان المتوكل قد فكَّر لسنة ٢٤٣ فى أن يجعل دمشق حاضرة الخلافة حتى يبتعد عن سامراء ومَن بها من قواد الأتراك الطغاة ، ورحل إليها فى سنة ٢٤٣ وتنبَّهوا لمقصده فعملوا على العودة به إلى سامراء واضطراً أن ينزل على إرادتهم ، ويذكر البحترى خروجه إلى دمشق وقدمه منها فى غير قصيدة^(٤) . ويأخذ منذ سنة ٢٤٥ فى وصف قصوره التى سميت باسم المتوكلية التى بلغت — كما مر بنا فى الفصل الثانى — نحو العشرين ، وكان من أهمها البرج الذى عرضنا له هناك ، ويتوقف البحترى مراراً فى مدائحه ليصف تلك القصور من مثل القصر المعروف بالجعفرى والصبيح والمليح وشبداز^(٥) ، وما يزال ينوه بها مباهاياً الأمم والشعوب . وفى قصر الجعفرى لقي المتوكل ووزيره الفتح مصرعهما لسنة ٢٤٧ تحت بصر البحترى وسمعه ، وهاله ما رأى ، مما جعله يرثى المتوكل برأيته زاعماً أنه دافع عنه بيديه ، ويسجل على ابنه المنتصر — كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى — اشتراكه فى المؤامرة الباغية والفتك به ، قائلًا^(٦) :

أكان ولّى العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولّى العهد غادره

وحرى بنا أن نذكر أن البحترى لم يتورط مثل ابن الجهم فى هجاء المعتزلة لإرضاء للمتوكل ولا فى هجاء العلويين ولا فى هجاء النصارى . وأظلمت الدنيا فى عينيه بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح ، فخرج إلى المدائن يتعزى ، وهناك نظم

١٥١٤/٣ .

(١) الديوان ١٥٤٦/٣ .

(٥) انظر الديوان ١٥٤١/٢ ، ٢٠٠٤/٣ .

(٢) قارفوا : ارتكبوا . الخرق : الحق .

(٦) الديوان ١٥٤٨/٢ .

(٣) الديوان ١٦٠٢/٣ .

(٤) الديوان ٧٠٧/٢ ، ٧٠٩ ، ٩٩١ ،

سينيته مودعاً فيها حزنه وأساه ، وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله . ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعاً وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الحصب متوسلاً إليه بكتابته الحسن بن مخلد حتى يقرّبه منه ويسترضيه له ، ويحبّبه إلى أمنيته ، فيعفو عنه المنتصر ، ويستمع إلى قصيدته فيه ، وكان قد رفع المحنة التي أنزلها أبوه بالعلوين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم ، فأشار إلى ذلك البحري منشداً^(١) :

وَأَلُّ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ مَا أَذِيعَ بِسِرِّهِمْ فَابْدَعَرُ
وَنَالَتْ أَدَانِيَهُمْ جَفْوَةٌ تَكَادُ السَّمَاءُ لَهَا تَنْفَطِرُ
وَصَلَتْ شَوَابِكَ أَرْحَامِهِمْ وَقَدْ أَوْشَكَ الْجَبَلُ أَنْ يَنْبَتَرَ

ويتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الحصب في الوزارة ، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتستصفى أمواله ويُنْفَى إلى جزيرة إقريطش (كريت) حينئذ نجد البحري يتنكّر له ، ويبالغ في تنكّره لإرضاء للمستعين وقواده ، فيؤلبهم عليه ، ويحثهم — كما مرّ بنا في الفصل الماضي — على قتله قائلاً^(٢) :

لَابِنِ الْخَصْبِ الْوَيْلُ كَيْفَ انْبَرَى بِإِفْكِهِ الْمُرْدَى وَإِبْطَالِهِ
وهو جانب في البحري لاحظته بعض معاصريه — كما مرّ في غير هذا الموضع — إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه ، حين يقلب الدهر مجنّه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، فإنه بدلاً من أن يثير ذلك في نفسه ضروباً من الشفقة والرحمة ، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما في أيديهم من المال والنفع ، ويضرب القدماء لذلك مثلاً موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه ، وينال جوائزَه حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذي يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقلداً بمثل قوله^(٣) :

(٣) الديوان ١/٢١٥ .

(١) الديوان ٢/٨٥٠ . ابذر : تفرق .

(٢) الديوان ٣/١٦٣٧ .

بكى المنبرُ الشرقُ إذ خارَ فوقه على الناس ثورٌ قد تدلّت غباغِبُهُ^(١)
فكيف رأيت الحقَّ قرَّ قراره وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه
وكان المعتر من أقرب الخلفاء إلى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره
وتسجيل الأحداث لزمه ، ومدح معه ابنه عبد الله وتوثقت بينهما الصداقة ، ومما
سجله من الأحداث لعهدده وعهد المستعين قتل القائد التركي أتامش وكاتبه شجاع^(٢) .
لسنة ٢٤٩ وقُتل بُغا الشراي^(٣) قاتل المتوكل لسنة ٢٥٤ ونراه يمدح القائد التركي
وصيفاً^(٤) الكبير وابنه صالحاً^(٥) ويكرر حينئذ تشوقه إلى وطنه ، ويستأذن مراراً
في الإلام به . ويكثر من مديح الشاه ابن ميكال قائد المستعين ووزيره أبي صالح
محمد بن يزداد وابنه عبيد الله وأخيه القاسم . ويضطر قواد الترك المعتر إلى خلع
نفسه في سنة ٢٥٥ ويتولى المهتدى بعده الخلافة لنحو عام واحد ، ويغدو إليه
ويروح بقصائده مصوراً تقاه وزهده وانصرافه عن الملاحى ومتاع الحياة الزائل ونشره
للعدل في ربوع دولته وإذلال جيوشه للروم ونزولهم على إرادته صاغرين . وسرعان
ما ثار عليه الأتراك وخلعوه ولوا بعده المعتمد ، وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم
البحترى ، وكان الخليفة الحقيقي لعهدده أخاه الموفق ، وكان حازماً شجاعاً واسع
التدبير ، وهو الذى قضى على ثورة الزنج وهزم يعقوب الصفار الناصر بليبران
هزيمة ساحقة . ويصور البحترى في مديحه للمعتمد بأس جيوشه وانتصاراتها
الحربية ، ويصف القصر الذى احتفل بينائه وسماه المعشوق ونوه به ، وله قصيدة
رائعة يهني فيها الموفق بقمعه اثورة الزنج ، وفيها يخاطبه بقواه^(٦) :

أخذت بوتر الدين مثنى وظفرت يداك فلم يفلت عدو تطلبه

ولم يترك حينئذ وزيراً ولا كاتباً كبيراً إلا ويمدحه وبأخذ جوائزه ، وكان
المعتمد استوزر عبيد الله بن بجي بن خاقان الذى وزر قديماً لأبيه المتوكل ، فازمه
البحترى ، وفكر في أن يرجع منه الضياع الكثيرة التى كان المتوكل أقطعها لإياه ؛
فأكثر الشاعر من التوسل إليه ، حتى يتركها له ، وقصيدته^(٧) :

(٤) الديوان ١٤٠٣/٣

(٥) الديوان ٢١٧٤/٣

(٦) الديوان ٢٢٤/١

(٧) الديوان ٤٩٣/١

(١) خار : صاح . النباغب : مانعظن

من الجلد في منبت العثون أو الحية حول النقر .

(٢) الديوان ٥٢٤/١

(٣) الديوان ٢٠١٩/٣

أمرتجَ منى حباء خلانفي تولى تسيير المديح لهم وحدى

تصور جزعه المفرط ، ويتوفى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد ، فيملحه بقصائد مختلفة شاكياً ضارعاً ، فيجعل أمره إلى كاتبه السببي ، ولا يسارع إلى استرضائه ، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائته ^(١) :

لك الخلائقُ فينا السهلة السُّمُحُ والنَّيْلُ يَسْلُسُ للرَّاجي وَيَنْسَرِحُ

ولا يكاد يسمعها الحسن حتى يبلغ بالبحرى ما يريد ، ويزيل المطالبة عنه ^(١) . ويترك الحسن الوزارة سريعاً ويتولاها سليمان بن وهب الذى استوزره المهتدى من قبل ، ويقدم إليه البحرى مدائح ، ويعصف به الموفق فى سنة ٢٦٥ فيحبسه ويصادر أمواله . ويخلفه على الوزارة أحمد بن صالح بن شيرزاد لمدة شهر واحد ، وللبحرى فيه مدائح مختلفة ، ويلى الوزارة بعده أبو الصقر لإسماعيل بن بلبل بينما يلى الكتابة للموفق صاعد بن مخلد ، ويكثر البحرى من مديح ابن بلبل ، ويهجو له فى بعض مديحه ابن شيرزاد الذى طالما مدحه ، ويمدح كاتبه جرادة على حين يلزم كاتباً آخر كان نصرانياً يسمى لإسرائيل ، ويلج على ابن بلبل فى قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله ^(٢) :

وأعتقت الرقاب فمُرَّ بعَتَقى إلى بلدى وأنت به جديرُ

وأكثر حينئذ من مديح صاعد بن مخلد كاتب الموفق ، وكان من وجوه النصارى ، وحين استكتبه الموفق أعلن إسلامه وله فيه وفى أخيه عبدون الراهب وابنه أبي عيسى العلاء مدائح كثيرة . وكان أبو عيسى مثقفاً ثقافة واسعة بعلم الفلك ، مما جعل البحرى يكثر له فى إحدى مدائحه من ذكر النجوم ^(٣) . ومن كبار الكتّاب الذين مدحهم حينئذ أبو العباس أحمد بن ثوبة صاحب ديوان الرسائل . وفى أثناء ذلك كان يمدح كثيرين من العمال والولاة وأصحاب الخراج والكتّاب والقواد مثل وصيف الصغير وأذكو تكين والهيثم بن عبد الله التغلبى وإلى الموصل وأحمد بن محمد بن بسطام وإلى الشام وسيا الطويل وإلى حلب والعواصم ورافع بن هرثمة وإلى الرى

(٢) الديوان ٩١٦/٢ .

(٣) الديوان ١٢٦٨/٢ .

(١) الديوان ٤٣٨/١ وأخبار البحرى

س ١١٠ .

وكتاب الجبل وأنفذ إليهم ذات مرة غلامه نصراً ليطالبهم برسومه^(١) . ومن كان يمدحهم كثيراً أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي والى الكوفة وآل نوبخت . وكان كثير الإلمام ببغداد ، وعُني بمدح كثيرين من آل طاهر حكماً كما مر بنا ، كما مدح بعض أعيانها وعلماؤها مثل عبد الله بن الحسين بن سعد القطريلي والمبرد النحوي ، ومدح عبيد الله بن خرداذبة الجعفري صاحب البريد بناحية الجبل . ويبدو أن أصحاب الخراج عادوا يتعقبون البحري ويطالبونه بخراج إقطاعاته الكثيرة ، مما جعله يسأل ابن بلبل المعونة في خراجه ، كما يسأل المعتمد نفسه قائلاً^(٢) :

أَخْشَى الْخَرَاجَ وَقَدْ دَعَوْتُ لِعُظْمَى
مَلِكَ الْمُلُوكِ وَرَافِدَ الرُّفَادِ

ومضى عمال الخراج يُشَقِّلُون عليه ، وهو كل يوم يَمَسُّهُ بين أيديهم شاكياً ملحاً في أن يحطوا عن كاهله ما يطلبونه منه ، ولا يكاد يظفر بما يبتغي منهم ، يفكر في مبارحة العراق ، ويمدح ابن طولون صاحب مصر والشام حينئذ ويصرح في مديحه له بما في نفسه قائلاً^(٣) :

فَأَصْبَحْتُ فِي بَغْدَادَ لَا الظِّلَّ وَاسِعٌ وَلَا الْعَيْشُ غَضٌّ فِي غَضَارَتِهِ رَطْبُ
أَأَمَدَحُ عُمَالَ الطَّسَاسِيحِ رَاغِباً إِلَيْهِمْ وَلِي بِالشَّامِ مُسْتَمْتَعٌ رَغْبُ^(٤)

وكل شيء يؤكد أن البحري كان قد أثرى ثراءً فاحشاً منذ عصر المتوكل ، فإنه نثر عليه أموالاً جمّة وإقطاعات عديدة ، بالإضافة إلى ما أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، وخاصة آل المدبر وفي مقدمتهم إبراهيم ، وكان هو وأخوه أحمد من كبار الموظفين في دواوين الخراج والضيايع ، ويقول الصولي إنه كان يوجب على إبراهيم في كل سنة أن يُسَقِّطَ أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، وإنه استأجره مرة لشراء ضيعة فلامه لكثرة ضياعه ، وقال له : تكفيك ضياعك فقد

(٤) الطساسيح : الإقطاعات والضيايع ،

و يقال إن سواد العراق كان مقسماً إلى ستين طسوجاً . رغب : متسع .

(١) الديوان ٣/ ١٨٥٦ .

(٢) الديوان ٢/ ٧٣٤ .

(٣) الديوان ١/ ١٢٣ .

كثرت وعظمت ، غير أن البحرى تمدى فى إلحاحه عليه ، وأنشده قصيدته التى يقول فيها^(١) :

وما زالت العيس المراسيلُ تنبري فيقضى لدى آل المدبر حاجها^(٢)
ولم لا أعالى بالضياح وقد دنا على مداها واستقام اعرجاها
إذا كان لى ترزيئها واغتلالها وكان عليك عشرها وخارجها^(٣)

فأمر له بالمال الذى يشتري تلك الضيعة به^(٤) . وكلما تقدمنا مع البحرى فى الزمن بعد المتوكل زادت ضياعه ، وقد وصلته من المعتز ضياح وأموال كثيرة ، وهو مع ذلك لا يزال يلح عليه بالطلب حتى ليستهديه خاتم ياقوت ويهديه إليه^(٥) . وكان المعتز قد أهدى إلى ابنه عبد الله إقطاعاً جاوره البحرى فى بعضه ، وكأنه لم يكتف بما صار فى يده ، فقد مضى يسأل عبد الله أن يهب له من إقطاعه الضيعة التى تجاوره ، وتشفع إليه بأبيه وصنع فى ذلك أشعاراً ، منها قوله للمعتز :

يا واحد الخلفاء غير مدافع كرمأ وأحسنهم ندى وصنيعا

فاتجه إلى ابنه عبد الله قائلاً له : اقض حاجة البحرى ، فوهبها له^(٦) . وتظل عنده شهوة تملك الضياح والإقطاعات ؛ إذ نراه يطلب من صاعد بن مخلد إقطاعاً^(٧) ومن ابنه أبى صالح ضيعة^(٨) ومن سليمان بن عبد الله بن طاهر حين أصبح حاكماً لبغداد إقطاعاً^(٩) . ويكثر عنده أن يسأل ممدوحيه أفراساً^(١٠) وسيوفاً^(١١)

-
- (١) الديوان ١ / ٤٢٧ .
(٢) العيس : الإبل . المراسيل : النوق السهلة السير .
(٣) الترييع : الإنماء . والعشر : عشر الثمار وهو الخراج المفروض .
(٤) أخبار البحرى للصوى ص ١١٩ .
(٥) انظر التحف والهدايا للخالدين نشر سامى الدهان ص ٧٣ ، وزهر الآداب ٣ / ٩٧ ، وأخبار البحرى ص ١٠٨ وقد عدد فى القصيدة عطايا المعتز له من الدنانير والخلع وكيف
- أنه أمر بأن يزور بلده على خيل البريد الرسمى . انظر الديوان ٣ / ١٥٣٦ .
(٦) أخبار البحرى ص ١٠٥ والديوان ١٣٠٩ / ٢ .
(٧) الديوان ٣ / ١٥٢٤ .
(٨) الديوان ٢ / ١٠٠٨ .
(٩) الديوان ٣ / ٢٠٤١ .
(١٠) انظر الديوان ١ / ٣٩٩ ، ٣ / ١٤٨٥ ، ١٧٤٤ ، ١٩٨٩ ، ٢٠٣٠٤ .
(١١) الديوان ٣ / ١٧٤١ .

وشراباً^(١) وثياباً^(٢) وغلماً^(٣). وبذلك نستطيع أن نوفق بين شُحِّه وما يقال من أنه كان يمشي في موكب من غلمانة^(٤)، فقد كانوا جميعاً هبات من ممدوحه، وخصَّ نسيمًا من بينهم بغزل كثير، وكان قد أهداه إليه محمد^(٥) بن عيسى القمي كاتب أبي سعيد التُّغري، وفي الأغاني «أن البحترى جعله باباً من أبواب الخيل على الناس فكان يبيعه ويتعمد أن يصمِّره إلى ملك بعض أهل المروءات ومن يَنْفُقُ عنده الأدب، فإذا حصل في ملكه شَبَّبَ به وتشوَّقَه ومدح مولاة حتى يهبه له، ولم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفَّى الناس أمره»^(٦). وقد يكون أبو الفرج مبالغاً في ذلك، فإنه لم يثبت أن أحداً اشتراه سوى إبراهيم بن الحسن بن سهل، وقد مدحه بأشعار كثيرة يصور فيها ندمه، فردّه عليه^(٧)، ولعل في ذلك كله ما يصور مدى ثراء البحترى من جانب وشدة طمعه من جانب آخر، وقد ظلَّ يُلْحِفُ في سؤال العطاء والضياع فكان طبيعياً أن يلفت إليه أنظار معاصريه، وحتى الخراج أو عشر الثمار كان ما ينبي يحتال في التخلص منه بالنصرع إلى وزير أن يدفعه عنه أو إلى كاتب كبير مثل إبراهيم بن المدبر. ويفكر في الإفادة من أحمد بن طولون — كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع — فيمدحه لسنة ٢٦٩ ويمدح بعض كتابه وقواده مثل عفاص ويونس بن بُغْنا وجعفر بن عبد الغفار ومحمد بن العباس الكلابي. ويُسَوِّفُ ويخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه لسنة ٢٧٠ ويزي البحترى في بعض قصيده^(٨) يجمع بين مديحه ومديح أبي الصقر إسماعيل بن بابل وزير المعتمد. وفي سنة ٢٧٢ يغضب الموفق على صاعد كاتبه ويقبض عليه وعلى ابنه أبي عيسى العلاء وأبي صالح وعلى أخيه عبدون ويصادر جميع أموالهم وأسبابهم^(٩)، ويتوفى أبو عيسى العلاء في الحبس بعد ثلاثة عشر يوماً ويكتب البحترى، ويرثيه بقصيدة يقول فيها^(١٠):

(١) الديوان ١/ ٤٠٧، ٤٢٧، ٤٩١، بالمدلة لابن رشيقي ١٥٠/٢.

(٥) الديوان ١/ ٥٢٧.

(٦) الأغاني ١٨/ ١٧١.

(٧) أخبار البحترى ص ١٢٧ وما بعدها.

(٨) الديوان ٢/ ٩٠٩.

(٩) تاريخ الطبري ١٠/ ١٠.

(١٠) الديوان ٣/ ١٥٥٣.

(١) الديوان ١/ ٤٠٧، ٤٢٧، ٤٩١،

٥٥٩، والأغاني ١٨/ ١٧١.

(٢) الديوان ٢/ ٨٣٧، ٨٩٢ وأخبار

البحترى ص ١١٥.

(٣) انظر مثلاً ٢/ ٩٨٦، ١٠٦٧،

١٤٨٥/٣.

(٤) راجع الأغاني ١٨/ ١٧٠ وقابل

ولم أرَ كالدنيا حَلِيلَةً وامتى محبٌ منى تحسُن بعينيه تَطَلُّقِ
تراها عِيَاناً وهى صنعةٌ واحدٍ فتحسبها صُنْعِي لطيفٍ وأخرقِ

وحين سمع بعض خصومه البيتين شَتَّعُوا عليه بأنه ثَنَوَى يؤمن بإلهى النور والظلمة ، وشاع ذلك فى عامة بغداد وكانت غالبية عليها حينئذ ، فخافهم البحرى على نفسه وخرج إلى منبج . ويبدو أن إقامته بها لم تطل وأنه عاد منها إلى سامراء وبغداد بعد حين إذ يحكى الصولى أن أول ما رأى البحرى سنة ٢٧٦ بمجلس المبرد فى مسجده ببغداد . ونظن ظناً أن رحلاته إلى العراق لم تنقطع إلا بعد قبض الموفق على صديقه إسماعيل بن بلبل سنة ٢٧٧ وكأنما كانت هذه الحادثة سبباً فى أن يصمم على مبارحة العراق إلى الأبد . وربما ولَّى وجهه حينئذ نحو مصر وصاحبها خمارويه^(١) ، ويبدو أنه كان يلقاه فى رحلاته بالشام ، ثم مدَّها إلى مصر للقائه . ويؤكد نزوله بها كثرة مدائحه لكاتب خمارويه إسحق بن نصير . غير أنه كانت عكته كسيرة فلم يقم بمصر طويلاً وعاد إلى منبج ، وظل بها سنواته الأخيرة حتى لبَّى نداء ربه لعام ٢٨٤ .

وكان البحرى يأخذ بمحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية فى عصره ، وليس معنى ذلك أنه تخصص فى أحد فروعها ، ولكنه كان يلم بها ، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد فى جميع أنحاء العالم العربى حينئذ ، ويرمز إلى ذلك فى شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث ، إذ يقول فى مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل^(٢) :

خُلُقٌ أَتَيْتَ بِفَضْلِهِ وَسَنَائِهِ طبعاً فجاء كأنه مصنوعُ
وحديثٌ مجدٍ عنك أفرط حسُنُهُ حتى ظننا أنه موضوع

وفى ذلك ما يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره من حديث نبوى وتفسير وفقه ، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية ، وهذا طبيعى لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقاً ، فكان لا بد له أن يتزوّد من اللغة ومن

(٢) الديوان ١٣١٦/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٩٧/٣ .

النحويون التاريخ العربي الإسلامي ، ونراه في بعض شعره يعرض لعالم لغوي في عصره هو الفضل بن محمد اليزيدي ، رآه يزري على جميل وكثير ، فيقول إنه لا علم له بالشعر ، وكل علمه إنما هو التعمق في الفاعل والمفعول^(١) .

وكان لا يبارى في ثقافته بالشعر ، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلة ومشابهة لأستاذه أبي تمام في حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إن له كتاباً ثانياً في معاني الشعر ، غير أن هذا الكتاب سقط من يد الزمن . والكتاب الأول كاف في تصور إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير . وبالمثل كان يكب على دواوين الشعراء الحداثيين ، مما أتاح له ثقافة شعرية واسعة . ولكن هل نستطيع بذلك كله أن نقول إن البحري كان مثقفاً بالثقافة الحديثة لعصره وما يتصل بها من علوم الأوائل ؟ حقاً له قصيدة ، كما أسلفنا ، أكثر فيها من ذكر النجوم ، ولكن هذا لا يعني أنه كان ملمساً بعلم الفلك والنجوم لعصره ، فقد كان منصرفاً عن هذا العلم وغيره من علوم الأوائل . وكان إذا ألم بها يلم من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فهو لا يتعمقها أو هو بعبارة أدق لا يستطيع أن يتعمقها إذ كانت نشأته نشأة بدوية كما لاحظ القدماء ، وإن كان قد تحضر فيما بعد ، ولكنه ظل بعيداً عن الفقه بالثقافة الحديثة ، وخاصة الثقافة الفلسفية والمنطقية .

وكانت قد أخذت تتكون في النقد والبلاغة — كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع — ثلاث بيئات : بيئة محافظة مسرفة في المحافظة ترى أن الشعر ينبغي ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة ، وهي بيئة اللغويين ، وبيئة مجددة مسرفة في التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية ، وهي بيئة المتفلسفة ، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم ، وبيئة معتدلة ، فهي لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة ، بل تقف موقفاً وسطاً ، فهي تقرأ ما يترجم وهي تنظر فيما أثر عن العرب من ملاحظات بلاغية ، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس للبلاغة العربية تزن فيها موازين دقيقة ، وهي بيئة المتكلمين ، على نحو ما نعرف عن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، وانحاز الشعراء غالباً إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة ، وقلما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة

لأنها كانت تجافى الذوق العربى . غير أن هذه البيئة أخذت تشنّ حملات شعواء على بيئة المحافظين وخاصة على مثلها البحرى الذى لم يكن يتقن الثقافة الفلسفية ، ونرى بعض من يمثلون البيئة المعتدلة ينضمون إلى هذه الحملة بعامل المنافسة بينهم وبين البحرى وفى مقالتهم ابن الروى . وكانت قد ساءت العلاقة بين البحرى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد ، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عزّله عن وظيفته ، وسارع البحرى فلمّح إليه فى بعض شعره بما يشبه الدم ، وردّ عليه عبيد الله بمدّه صديقه ابن الروى بأشعار ملتهبة ، ويبدو أنهما ندّدا بضعف ثقافة البحرى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقاً ، مما جعله يهجو عبيد الله ببائية يقول فيها ^(١) :

كلّفتمونا حدودَ منطّكم والشعرُ يغنى عن صدقه كذبُه
ولم يكن ذو القُروحِ يُلَهِّجُ بالِ منطّق ما نوعُه وما سببُه
والشعرُ لمَحْ تكفى إشارته وليس بالهذر طُولتْ خطبُه

وحقّاً لم يكن امرؤ القيس الملقّب بذى القُروح يعرف فلسفة ولا منطقاً لا لأنه صدّد عن ذلك ، ولكن لأن عصره كله لم يكن يعرفهما ، ولو أنه تأخر به الزمن إلى عصر البحرى لعكف على الفلسفة والمنطق كما عكف ابن الروى وأضرابه وغدّى بهما شاعريته غذاء ربيعاً . وهو يلمّح فى الشطر الأخير إلى ابن الروى وما اشتهر به من مطولات شعره .

وقد ساعد الذوق المحافظ الذى ساد فى العصر — كما أشرنا إلى ذلك مراراً — إلى أن ترجح كفّة البحرى المحافظ كفّة ابن الروى المجدد ، وأن يقف فى صفّه لا علماء اللغة وحدهم من أمثال المبرد بل كثرة كثيرة من الشعراء ، على حين كان ابن الروى يعيش لعصره فيما يشبه عزّلة من معاصريه مع تفوقه على زميله تفوقاً واضحاً بملكاته الشعرية الخصبه ، ولكنه لم يكن يحتفظ للشعر بصياغته الموروثة وتقاليدها على نحو ما يحتفظ البحرى ، فوقع بعيداً عن ذوق الكثرة الغالبة من الشعراء والنقاد .

وليس معنى ذلك أن البحترى انفصل تماماً عن روح العصر ، فقد كان يلازم بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبي تمام وشعر من سبقوه ... أمثال مسلم وأبي نواس وبشار، المرة تلو المرة ، والمرات تلو المرات ، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر شعره ، ولذلك نعته معاصروه طويلاً بأنه يغير على أشعار من سبقوه فيسلبها لنفسه ، وفي ذلك يقول ابن الرومي لأبي عيسى العلاء بن صاعد حين نشر الأمن في ربوع بغداد^(١) :

أيسرق البحترى الناس شعرهم جَهراً وأنت نكّال اللصّ ذى الرّيب

وأهم ديوان ألحَّ على تمثله ديوان أستاذه أبي تمام ، ولاحظ ذلك كله القلماء فأفردوا سرقاته بالبحث ، وكان أول من عُنِيَ بذلك عنده معاصره أحمد بن أبي طاهر ، إذ استخرج له سُمّانة بيت ردها إلى أصولها عند الشعراء وخاصة عند أبي تمام ، وقد بلغ ما سلبه منه في رأى ابن أبي طاهر مائة بيت . وتلاه بشر بن تميم بمصنف ذكر فيه سرقاته من أبي تمام ، وعليه اعتمد الآمدي في الفصل الذى عقده لهذا الجانب من سرقات البحترى . وفي رأينا أنه استطاع بذلك أن يتلافى نقص ثقافته الحديثة ، فقد خالط الشعراء الحديثين وخاصة أبا تمام مخالطة نادرة ، بحيث تمثل المعانى والأخيلة الحديثة ، بل قل بحيث استخلصها لنفسه ، وأخذ يصدر عنها كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة . وحقاً أنه يوجد بون بعيد بين عرض هذه الأخيلة والمعانى عنده وعند أبي تمام ، فقد كان أبو تمام يغمس أفكاره وأشعاره في ليقة المنطق ، فإذا القصيدة عنده توشك أن تتحقق فيها الوحدة العضوية ، فالمعانى والصور يتولد بعضها من بعض ولا خنادق ولا ممرات بين الأبيات ، على حين تكثر هذه الممرات والخنادق عند البحترى ، ولاحظ ذلك القدماء فقالوا إنه لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع في الشعر^(٢) ، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن يخضع في شعره للمنطق على نحو ما صرّح بذلك آنفاً . وظاهرة ثانية هي أنه جارى أستاذه في

(٢) العمدة لابن رشيق ١/ ١٥٩ .

(١) ديوان ابن الرومي (نشر كامل

كيلان) ص ٣٥ .

الاحتفال بألوان البديع واستظهارها في أشعاره ، ولكن حين نقرن أى لون عنده إلى أصله عند أبى تمام سنجد مفارق واسعة ، فأبو تمام مثلاً ينجح إلى استخدام نوافر الأضداد في أشعاره كما مر بنا في كتاب العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحترى يستطيع أن يتعمق هذا التعمق ولذلك نراه يكتفى بالطباق بحيث إذا ذُكر الوصل مثلاً ذُكر معه المهجر ، وإذا ذكر الذل ذكر معه الكبير ، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها الوعورة ، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها العبودية . ولون آخر يتعمقه أبو تمام هو الاستعارة على نحو ما مر بنا أيضاً في حديثنا عنه في العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحترى يتعمق هذا اللون تعمقاً من شأنه أن يبعده عن الذوق القديم ، ولذلك كله قال النقاد إنه يحافظ على عمود الشعر العربى^(١) ، يريدون محافظته على أصوله الموروثة ، ومن تنمة ذلك عنده أنه لم يكن يكثر من ألوان البديع إكثار أبى تمام ، ولا كان يستطيع أن يتغلغل في دقائق الفكر والأخيلة على نحو ما كان يتغلغل أبو تمام بحكم ثقافته الفلسفية ومواردها التى لا تنضب في أشعاره ، ولذلك كان يشيع في أشعاره الغموض ، مما جعل القدماء يختلفون في فهم كثير من أبياته وتفسيرها وتأويلها ، لكثرة ما توحى به من معان ، وهو اختلاف لا يضيع منك هباء ، بل إنك تجد في أثنائه ما يشبه أقواس قزح ممتدة في أشعاره ، وهى أقواس بهيجة ، تزهى بالفكر العميق والخيال الواهم البعيد .

ولكن إذا كان البحترى لم يستطع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدى مقابلاً لا يقل روعة ، وهو مدى الجمال الصوتى البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها في الجرس بل بين حروفها وحركاتها لملاءمة رفعته إلى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق ، وكأنما كانت له أذن داخلية مرهفة ، تقيس كل حرف وكل حركة وكل ذبذبة صوتية ، فإذا به ينظم شعراً مصفى مروقاً ، شعراً يلذ الألسنة والآذان والأذهان لذة لا تعادلها لذة . وقد وقفنا طويلاً عند هذا الجانب في الفصل الثانى من كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » وأوضحنا مدى مشاكلكته بين أصوات الألفاظ والقوافى في بعض القصائد وموضوعاتها كما أوضحنا

مدى التوافق الصرقي عنده بين الحروف والكلمات والحركات والسكنات ، وكأنما أعطت الموسيقى الشعرية كل مفاتيحها وكل أسرارها للبحترى ، فإذا هو يوقع على قيثارته أروع ألحان عرفتها العربية^(١) . وبذلك استطاع أن يتلافى بقوة قصوره الثقافى ، فإذا هو يوضع على قدم المساواة مع أبى تمام ، وإذا النقاد يتقابلون فى صفّين : صفّ يرفع أبا تمام إلى الذروة ، وهم المتفلسفة ومن يعنون بالتعمق فى المعانى والأخيلة ، وصف يرفع البحترى إلى نفس المرتبة ، وهم أصحاب الآذان المرفهة الذين يكبرون اللذة الصوتية ، وكان ينضم إليهم طوائف من المحافظين واللغويين ، وكان البحترى نفسه إذا سئل عنه وعن أبى تمام قال : جيده خير من جيدي ورديئى خير من رديئى ، وهو يريد بجيد أبى تمام معانيه وأخيلته الدقيقة التى لم يكن أحد من أهل زمانه يستطيع أن يخلق فى آفاقها ، أما رديئى فيريد به بعض أبياته التى يضطرب فيها اللفظ لأنه لم يكن يُعنى باللفاظه وأصواته عناية البحترى .

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحترى ، فقد عاش ، كما مرّ بنا ، بمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل إلى المعتضد ووزرائهم وولاتهم وقوادهم وكتّابهم ، وكأنما وقف نفسه على الإشادة بالدولة ورجالاتها ، بحيث يُعدّ الشاعر الرسمى لها ، وكان طبيعياً لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين ، وأن يتغنى بذلك فى أشعاره ، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف فى صفوفهم مدافعاً عنهم مناضلاً بمثل قوله للمتوكل^(٢) :

شَرَفًا بَنَى الْعَبَّاسُ	إِنْ أَبَاكُمْ	عَمَّ النَّبِيُّ	وَعِيَصُهُ	الْمُتَفَرِّعُ
إِنْ الْفَضِيلَةُ	لِلَّذِى اسْتَسْقَى بِهِ	عُمُرٌ	وُشِفَّعٌ	إِذْ عَدَا
وَأَرَى الْخِلَافَةَ	وَهى أَعْظَمُ رُتْبَةٍ	حَقًّا	لَكُمْ	وَوَرَاثَةً
أَعْطَاكُمْوهَا	اللَّهُ عَنْ عِلْمٍ بِكُمْ	وَاللَّهُ	يُعْطِى مَنْ	يَشَاءُ وَيَمْنَعُ

فالعباس جد العباسيين وعم الرسول صلى الله عليه وسلم من العيص ومنبت الشجر الضخم ، يريد أنه من الأصول بينا على بن أبى طالب من الفروع ، ويستدل على

(٢) الديوان ١٣١١/٢ .

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة
العاشره - نشر دار المعارف) ص ٧٧ وما بعدها .

فضله بأن عمر استسقى به في عام الرمادة حين أصاب الجزيرة القحط مستشفعاً به لربه ، ولم يَسْتَسْقِ بَابن أبي طالب ، ويشير إلى حكم الميراث في الإسلام وما فرضه من حَسْبِ العَم لابن أخيه ، فالخلافة حق من حقوق العباسيين ، كما تقرر ذلك الشريعة الإسلامية ، وليس لأبناء علي وحفدته أى حق في منازعتهم . ويكرر البحتري في مديحه للمتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين تقواهم ، وعلمهم الذى ينشرونه في ربوع الدولة ، ومدى رعايتهم للأمة ورفقهم بها ورفقهم لها وكيف يقومون على حمايتها بجنودهم وجموعهم الجرّارة . وكان ينتهز كل فرصة ليدبج قصائده فيهم ، فمن ذلك قصيدته في وصف موكب المتوكل في أثناء خروجه لأداء الصلاة في عيد الفطر ، وقد صوّر في فاتحتها قوة الإسلام حينئذ مجسمة في جيش ضخم كان يحفّ بالمتوكل وكأنه جبال تتحرك ، فترجف الأرض وتهتز لضخامته وعدده الكثيفة ، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام ، يقول^(١) :

افتنّ فيك الناظرون فإضبعْ	يُومَى إليك بها وعَيْنٌ تَنْظُرُ
يجدون رويتك التى فازوا بها	من أنعم الله التى لا تُكْفَرُ
ذكروا بطلعتك النبىّ فهلّلوا	لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً	نور الهدى يبدو عليك ويظهر
فلو أنّ مشتاقاً تكلف فوق ما	في وسعه لسعى إليك المنبرُ

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان ، فله ألف ديوانه الحماسة ، وقد عاش نحو خمسة عشر عاماً يمدحه منوهاً بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته في تسديد الأمور ، وعونه للضعيف ورده للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وبُعْد غَوْره ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن ، مع تقواه وتواضعه ومع صيانتة للثغور وحطّطه بجيوشه للثوار والأعداء حطماً لا يَبْقَى ولا يَذُر ، ومع أخلاقه الرفيعة التى تتحلّى بها نفسه الأبية ، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه . فكان يعتذر له بأشعار رائعة ، سبق أن صورناها في الفصل الماضى . ومديحه

فيه يكتظ بعاطفة حقيقية ، فقد كان يكنّ له ودّاً وحبّاً وإخلاصاً ، وكان ما ينى يتغنّى بمدحيه ، ومن طريف قوله فيه مصوراً هيئته ^(١) :

إذا ما مشى بين الصفوف تقاصرت
رؤس الرجال عن طُوالِ سَمَيْدَعِ ^(٢)
وإن سار كُفَّ اللحظُ عن كل منظرٍ
سواه وغُضَّ الصوت عن كل مَسْمَعٍ
فلست ترى إلا إفاضةً شاخصٍ
إليه بعينٍ أو مشيرٍ بإصبعٍ ^(٣)

ومرّ بنا أن أول نابه اتصل به وخصه بمدحيه محمد بن يوسف الثغرى ممدوح أبى تمام الذى كان فى مقدمة من قمعوا ثورة بابك الخرمى ، كما كان فى مقدمة جيوش المعتصم فى غزوه لعمورية ، وقد ظل ينازل الروم ويمحق جموعهم حتى وفاته سنة ٢٣٦ . وقد سجل البحترى حروبه وانتصاراته القديمة والحديثة جميعاً ، مجسماً بأس جيوشه ، وكيف كانوا يتهافون على الوغى كما يتهاف الفراس على النار ، لأنهم أبناء موت يطرحون أنفسهم تحت رحاه ، فلا تطحنهم وإنما تطحن أعداءهم طحناً ، وله فى تمجيد شجاعة محمد بن يوسف الثغرى أشعار وقصائد كثيرة ، ومن طريف ماله فى تصوير رباطة قلبه وسكون نفسه فى الحرب قوله ^(٤) :

لقد كان ذاك الجأش جأش مسالمٍ
على أن ذاك الزى زى محاربٍ
تسرّع حتى قال من شهد الوغى
لقاء أعاد أم لقاء حبابٍ
وصاعقة فى كفه ينكفى بها
على أروُس الأقران خمس سحائب
فجأشهُ مطمئنٌ ونفسه هادئة ، حتى ليظن من يراه أنه فى سِلْمٍ وأمن ودعة
مع أن الزى زى محارب باسل ، وإنه ليُقبل على ميادين الحرب إقبال المحب على
حمى معشوقته هائناً مغتبطاً ، وإن السيف فى يده ليشبه أدق الشبه صاعقة تسقط
على الأعداء بشواطها من أصابعه الخمس ، وكأنها خمس سحائب ماتى ترسل
عليهم الصواعق المدمرة . والبطل الثانى فى ديوان البحترى هو أحمد بن دينار ، وقد
سجّل بطولته فى معركة بحرية دمر فيها بأسطوله الأسطول البيزنطى تدميراً ذريعاً ،
ومن عجب أن الطبرى وغيره من مؤرخى العرب لم يدونوا هذه المعركة الخطيرة ،

(٣) الإفاضة : الاتجاه بالبصر .

(٤) الديوان ١/ ١٧٨ .

(١) الديوان ٢/ ١٢٣٩ .

(٢) السيدع : السيد الكريم الشجاع .

ولا أشاروا إليها ، والمظنون أنها كانت لعهد المتوكل ، ولعل في تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مراراً من أن شعر المديح عند العرب يُعَدُّ في بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة ، وفيها يقول البحترى مصوراً زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريين الذين محقوا الأسطول البيزنطي وجنوده محققاً^(١) :

غدوت على الميمون صُبْحاً وإغما غدا المَرَكَبُ الميمونُ تحت المظفرِ
وحولك رَكَّابون للهول عاقروا كثوس الردى من دارعين وحسّر^(٢)
صدمت بهم صُهب العثانين دونهم ضراب كإيقاد اللَّظي المتسعر^(٣)
يسوقون أسطولا كأن سفينه سحائب صيف من جهام وممطر^(٤)
فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلي مقطعة فيهم وهام مطير^(٥)

وكل شيء يشهد بأن الشعر كان لا يستصعب على البحترى ، فقد كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، ومع ذلك يقال إنه نقل كثيراً من مدائحه ، حتى ليبلغ ذلك عشرين قصيدة ، إلى مدح أناس جدد^(٦) . وقد يكون في ذلك مبالغة ، على أننا نجد في الديوان رائية مرددة بين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل ، والخضر بن أحمد وإلى الموصل ، واختلفت لذلك رواية بعض أبياتها^(٧) . ويدخل في هذه الظاهرة عند البحترى ما قيل من أنه هجا كثيرين ممن مدحهم ، حتى ليبلغ بهم بعض الرواة أربعين شخصاً^(٨) ، وقد عرضنا لذلك في غير هذا الموضع ، ولا شك في أن في العدد مبالغة .

وفي ديوانه أهاج مختلفة ترجع إما إلى حرمانه من جائزة . وإما إلى كفران صنيعه عند بعض معاصريه ، وإما إلى منافسة بينه وبين الشعراء وخاصة من كان منهم

-
- (١) الديوان ٢/ ٩٨٢ .
(٢) الردى : الموت . الدارع : لايس
الدرع . الحاسر : عكس الدارع .
(٣) صهب العثانين : شقرا العي ، ويريد بهم
الروم .
(٤) السحاب الجهام : الذي لا ماء فيه .
(٥) رام يريم عن المكان : زال عنه وفارقه .
الظلي : الأعناق . الهام : الروس .
(٦) الموشح ص ٣٣٦ .
(٧) الديوان ٢/ ٨٧٠ وما بعدها .
(٨) الموشح ص ٣٣٦ .

يتعرض لشعره بالدم والنقد اللاذع . ويلاحظ أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته أن بضاعته من هذا الفن قليلة ، ويُروى عن ابنه أبي الغوث أن السبب في ذلك أن أباه أحرق هجاءه في الناس خوفاً من مغبة عداوتهم له ولأبنائه ، وكأن هذه الرواية لم تعجب أبا الفرج ، فقد عاد يؤكد أن أكثر هجائه ساقط غث الألفاظ ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه^(١) .

وبالمثل الفخر عند البحترى ضعيف ، هو حقاً يفخر في بعض قصائده بآله وعشيرته ببحر وقبيلته طيبي ناعتاً لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر في ذلك عن إيمان قوى بالمجد ، وكأنما كانت عصيته القبلية ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعروبه أيضاً ضعيفاً ، ومرت بنا في الفصل السالف قصيدته في إيوان كسرى وبكاؤه لأجداد الفرس ، وكأنما لم يكن يستشعر شيئاً من الإحساس العميق بالأجداد العربية في مقابل الأجداد الفارسية ، ولعله من أجل ذلك كان كثيراً ما يسترسل في إشاداته بالأصول الفارسية لبعض ممدوحيه ، على نحو ما يلقانا في مديحه للحسن بن سهل بمناسبة عيد المهرجان ، وله يتوجه بالخطاب قائلاً^(٢) :

إِنَّ لِلْمِهْرَجَانِ حَقًّا عَلَى كَلِّ كَبِيرٍ مِنْ فَارِسٍ وَصَغِيرٍ
عِيدُ آبَائِكَ الْمُلُوكِ ذَوِي التَّيِّبِ جَانِ أَهْلِ النَّهْيِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ^(٣)

ويعتد طائفة من هؤلاء الملوك في مقدمتهم يَزْدَجَرْد ، وكسرى ، وأردشير ، وبصور ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحرير . وحتى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحترى ، إذ امتدح كثيرين من النصاري على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع .

وذكرنا في الفصل السالف مريته للمتوكل ، وأوضحنا كيف أعلنها ثورة مدوية على قاتليه وولى العهد الذي ناصرهم ، وقد استهلها بوصف قصر الجعفري الذي قُتل به الخليفة وما حصلَّ عليه من سواد وكآبة ، حتى غدا كأنه مأتم كبير ،

(١) الأغاني (طبعة الساسي) ١٦٧/١٨ . (٢) الخير : الكرم والشرف .

(٣) الديوان ٢ / ٨٨٦ .

ويصور فزع سيداته الجميلات حين علمن بالخبر الفاجع وكيف انتهكت حرمانه
ثم يصف القتل والقتلة وصفاً مؤثراً . وله مرثية رائعة يرثي بها طائفة من بني
حميد الطوسي خسرُوا صَرَغَى في ميادين الثغور دفاعاً عن العَرَيْنِ العربي ،
وفيهم يقول^(١) :

قبورٌ بأطرافِ الثُّغورِ كأنما مواقعُهم منها مواقعُ أنجم-
مضوا يستلذُّون المنايا حفيظةً وحفظاً لذلك السُّودد المتقدِّم
وكلُّهم أفضى إليه حِمَامُه أميراً على تدبير جيش عَرَمَرَم^(٢)
مساعٍ عظامٍ ليس يَبْلَى جديدها وإن بَلَيْتَ منهم رائمٌ أعظم

والمرثية بكاء حار لهؤلاء الأبطال الذين استشهدوا تحت ظلال السيوف فداء
لوطنهم ودينهم بأرواحهم واستبسالا بعد أن أذاقوا الأعداء كنوس الموت دهاقاً .
واشتهر البحري بإجاده للغزل ، ومرَّ بنا أنه أحبَّ في شبابه عُلُوَّةَ الحلبية
وظلت ذكرها لا تبارحه ، وظلت تستولى على قلبه ، وكانت قد صبت إليه كما صبا
إليها وبادلته ودأ بود ، ثم تزوجها الذفافي كما أسلفنا ، فسلت عنه ، ولكنه لم يسئل
عنها ، وفي ديوانه مقطوعة يهجوها بها قد يكون نظمها فيها ساعة غضب انتابته ،
وإن كنا نظن ظناً أنها منحولة عليه ، فقد ظل قلبه لها في سامراء وبغداد كما ارتحل
عنها ، فهو لا يني يذكرها بمثل قوله في مقدمة ملحمة للمعتر^(٣) :

كم ليلةٍ فيكِ بَتٌ أسهرها ولوعة في هواكِ أضرها
وحرقة والدموعُ تُطفئها ثم يعود الجوى فيُسعِرها
يا علُوَّ علِّ الزمانَ يُعقِّبنا أيام وصلٍ نضلُّ نشكرها

وكأن السنوات الطويلة التي مضت بين حبه لها في شبابه ومديحه للمعتر
وهو في نحو الخمسين من عمره لم تطفئ لوعته وحرقته ، فقد ظلت نار شوقه وحبه

(١) الديوان ٣/ ١٩٤٥ .

(٢) عرمرم : كفيف .

(٣) الديوان ٢/ ١٠٧٤ .

لها مشتملة بين جوانحه ، وظل يصدر عنها في قطع مفردة وفي مقدمات مدائح
من مثل قول^(١) ٤ :

وخلافُ الجميل قولك للذا كر عهدَ الأحباب صَبْرًا جميلا
لا تَلُمهُ على مواصلة الدَّمِ حِ فلوْمْ لَوْمُ الخليل الخليلا
على ماءِ الدموع يُخمد نارًا من جَوَى الحبِّ أو يبلُّ غليلا

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران ، بما أتيح له من
دقة في التصوير والتعبير ، ولم يكد يترك قصرًا بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو
مسهباً ، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور . ومرّ بنا وصفه الرائع
لإيوان كسرى ، ومن القصور التي أجاد في وصفها قصر الكامل الذي بناه المعتر وفيه
يقول^(٢) :

دُعِرَ الحَمَامُ وقد ترنّم فوقه من منظرٍ خَطِرِ المزلّةِ هائل^(٣)
رُفِعَتْ لِمُنْخَرِقِ الرِّيحِ سموكُه وزهتْ عَجَائِبُ حُسْنِهِ المتخايل^(٤)
وكانَ حِيْطَانُ الزَّجَاجِ بجوّه لُجَجٌ يَمُجْنَ على جُنُوبِ سواحل
لبستُ من الذهبِ الصَّقِيلِ سُقُوفُه نوراً يضيء على الظلامِ الحافل^(٥)

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجري
فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصَّبَا الحاني . وكان القدماء يعجبون أشدَّ
الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفيها
يقول البحترى^(٦) :

يا مَنْ رَأَى البِرْكََةَ الحُسْنَاءَ رُؤْيَتْهَا والآنساتِ إذا لاحَتْ مغانيها^(٧)
تنصبُّ فيها وفود الماءِ معجلاً كالخيلٍ خارجةً من حَبْلٍ مُجْرِيها

(٥) الحافل : الكثير .

(٦) الديوان ٤ / ٢٤١٦ .

(٧) الآنسات هنا جوارى المتوكل وكانت

منازلهن تحفّ بالبركة .

(١) الديوان ٣ / ١٧٦٧

(٢) الديوان ٣ / ١٦٤٨ .

(٣) المزلّة : المنزلق .

(٤) منخرق الرياح : مهبط . سموكه : أعاليه .

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
فرونق الشمس أحياناً يضحكها ورقيق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها لئلا حسبت سماء رُبِّيت فيها
ويتحدث عن السمك المحصور في البركة والصحن الممتد في أسفلها والبهو
الممتد في أعاليها وتمثال الدُّلْفَيْن الذي كان مقاماً عليها ، والبساتين والرباض
التي تحف بها والأزهار التي تشبه ريش الطواويس في تلاوينها العجيبة . ولعل
في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية البحري الرائعة وكيف أنه استطاع أن يتلافى
بملكاته الخصبه القصور في ثقافته الحديثة ، فإذا هو يملك من أدوات التعبير
ما يستحيل به شعره إلى أنغام وألحان خالصة .

٣

ابن الرومي

هو علي^(١) بن العباس بن جريج ، ويبدو أن أول من أسلم من آبائه أبوه
القريب العباس ، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور
العباسي . وكان يوناني الأصل كما يشهد بذلك اسم جده ، ونراه في شعره ينسب نفسه
إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحياناً من مثل قوله :

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حِجِّي ومجدٌ وعيدانٌ صِلابُ المعاجر

شعره) للمقاد وحصاد الهشيم للمازني، ومن حديث
الشعر والنثر لطلح حسين ، والفن ومذاهبه
في الشعر العربي ص ٢٠٠ . واختيارات
كامل كيلاني من ديوانه الفسخم وقد نشرها
باسم ديوان ابن الرومي ولا يزال الديوان
مخطوطاً لم ينشر . وانظر اختيارات روفون
جيست منه مع دراسة عن حياة ابن الرومي
وشعره ترجمة حسين نصار .

(١) انظر ترجمته وأشعاره في مروج الذهب
٤ / ١٨٢ ، ١٩٤ ، وتاريخ بغداد ١٢ / ٢٣
والموشح للمرزباني ص ٣٥٧ ، وابن خلكان
والنجوم الزاهرة ٣ / ٩٦ وشذرات الذهب
لابن العسادر الجنبلي ٢ / ١٨٨ ، ورملة الجنان
لليافعي ٢ / ١٩٨ وابن دأود في كتابه الزهرة
وديوان المعاني للعسكري في مواضع متفرقة
(انظر الفهرس) وابن الرومي (حياته من

وقوله في موالیه العباسيين :

مولاهُم وَعَذِيُّ نِعْمَتِهِم وَالرُّومُ - حين تنصني - أَصْلِي

ولم تكن أمه رومية ، بل كانت فارسية ، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وخنولته من الفرس ، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين ، وهي نسبة لم يكن عليها حجاب ، فكان كثير من الشعراء ذوى الأصول الفارسيّة يدعّونها ، ومن فخره بنسبه العريق - في رأيه - من قبيل أبيه وأمّه قوله :

كيف أغضى على الدنيّة والفُرّ سُ خثولِي والرومُ هم أَعْمَامِي
وقد وُلد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نِضْوًا ضئيلاً نحيلًا دميم الوجه
تقتحمه العيون ، وظل طوال حياته يَسْنَعِي على نفسه دقة جسمه وضآلته وقبحه ،
وله في ذلك أشعار كثيرة يصرّح فيها بدمامته وما انضم إلى ذلك من صلعه الذي
كان يأخذ معظم رأسه حتى اضطر ألا يخلع العمامة أبدًا ، وله مقطوعة يصور
فيها صلعه وقبح وجهه ، وزراه يختتمها بقوله^(١) :

شُغِفْتُ بِالخَرْدِ الحِسانِ وما يصلح وجهي إلا لذي ورع
كي يعبد الله في القلاة ولا يشهد فيها مساجدَ الجمعِ

ويبدو أن أباه كان على شيء من اليسار ، وحقاً توفي في مطالع حياته ، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش . وكان له ابن آخر يسمى محمداً عمل في الدواوين الحكومية ، كما كانت له فتاة ماتت قبل أمها ، وابن الرومي في نحو الخمسين من عمره . على كل حال مكّن يسار هذه الأسرة لابن الرومي أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب ، وكانت تعني بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحر وبعض الأشعار والخطب وشيئاً من الحساب ، فالتهم ذلك كله الصبي ، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء في المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب ، وأخرى يستمع إلى بعض المجذّبين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار . وكانت دار الحكمة التي عني

بها الرشيد والمأمون مدَّ يده وعينه ، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاءً يقرأ ويستوعب ويستسيع ويتمثل تمثلاً نادراً^(١) . وتكثر في أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين ، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم . وما لا ريب فيه أنه كان — كما مر بنا في غير هذا الموضع — يعتنق الاعتزال . ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب ، وسرى أثر ذلك في أشعاره إذ كثيراً ما كان يضيق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجئاً لهم ، ويذكر معاصروه أيضاً أن من كان يلقيه يراه كالمتموجس المدعور ، وكأنما كان في أعصابه شيء من الاختلال ، ولعل ذلك هو الذي أعدّه لأن يصبح أكبر شاعر متطير في عصره . وكان إذا روجع في كثرة تطيُّره احتج بقوله إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، أفتراه كان يتفاعل بالشيء ولا يتطير من ضده ، ويقول إن علياً لم يكن يغزو غزاةً والقمر في برج العقرب ، وكان يزعم أن الطيِّرة موجودة في الطباع قائمة فيها^(٢) . ويقصُّ معاصروه عن طيرته أخباراً كثيرة ، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لما تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فيرى جارا له أحذب كان نازلاً بإزائه يقعد على الباب . فإذا نظر إليه رجع عن عزمه على الخروج وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب^(٣) . وافتقده في مجلسه بعض الأمراء ، وكان يعلم حاله من الطيرة ، فأرسل له غلاماً يسمى إقبالا ليتفاعل به عند سماع اسمه ، غير أنه لم يكذب يعزم على المضي معه حتى بدا له اسمه معكوساً هكذا : لا بقاء ، فقال له امض إلى سيدك وأنبأه بما في نفسه ! . وأرسل له بعض الأصدقاء غلاماً له يسمى حسناً ، وكان حسن الوجه ، طالباً إليه أن يزوره ، فخرج معه ، وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف ، هكذا : لا ، وحانت منه التفاتة فرأى تحت الدرفتين نوى تَمَر ، فتطير ، وقال إن هذا يشير إلى :

(٢) زهر الآداب للحصري ١٧٢/٢ .

(٣) زهر الآداب ١٧٧/٢ .

(١) أشار أبو العلاء في رسالة الغفران

إلى تفلسف ابن الرومي قائلا إنه كان يتعاطى

الفلسفة . انظر طبعة كيلاني ٧٤/٢ .

أن « لا تمر » ورجع إلى داره ولم يذهب مع الغلام^(١). ومن المؤكد أن هذه الأخبار وما يماثلها دخلتها مبالغة كثيرة ، وقد يكون بعضها اختلق عليه اختلاقاً . ويتوقف القلماء عند قصيدة بائية مدح بها أبا العباس بن ثوبة الكاتب ، وكان قد دعاه لزيارته في سامراء ، فتعلل على سبيل الفكاهة بتصوير مخاطر الرحلة إليها من بغداد براً وبحراً بمثل قوله^(٢) :

لقيتُ من البرِّ التباريحَ بعد ما لقيت من البحر ابيضاضَ اللوائِبِ
وقد مضى يصف دجلة وبلاء الركوب فيه متفكها ، فأدخلوا ذلك في باب طيرته ، ولا طيرة ولا ما يشبه الطيرة . وليس معنى ذلك أننا نريد أن نننى تطيره ، إنما نننى المبالغة فيه ، أما بعد ذلك فقد كان ابن الرومي يتطير حقاً ، واشتهر بذلك بين معاصريه ، حتى لئرى الأخفش على بن سليمان النحوي ، وكان قد هجاه ، يقتصّ نفسه منه ، بأن يقرع عليه الباب في الصباح ، فإذا قال من القارح ؟ أجابه بمثل مُرّة بن حنظلة أو حرب بن مقاتل وغير ذلك من الأسماء التي تملؤه طيرة ، فيحبس نفسه في بيته ، ولا يخرج يومه أجمع^(٣).

وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وهو لا يزال حَدَثًا في الكتاب ، إذ تُروى له أبيات حينئذ في هجاء غلام عباسي يسمى جعفرأ كان زميلاً له ، وكان ذلك كان إرهاباً بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته . وقد مضى يتخذ الشعر - كليلداته - حرفة يتكسب بها ، فهو يعرضه على علية أهل بغداد ، وكان طبيعياً أن يعرضه على كبار رجال الدولة وفي مقدمتهم أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهر بن الحسين قائداً للمأمون وهو الذي قضى على ثورة الأمين ، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميراً لخراسان وخلقه عليها ابنه طاهر . وحاول ابن الرومي الزلنى إلى محمد بالمديح ، ويبدو أنه لم يكن يتسع في ثوابه ومكافأته ، وكان على علم بالشعر ، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومي ، وغازط الشاعر الشاب نقده . بل لقد أخذ يحرمه نواله ، مما جعل ابن

(١) انظر في هذه الأخبار زهر الآداب

وذيله ص ٢٤٢ والعمدة لابن رشيقي ٤٠/١

ومعاهد التنصيص ١٤٣/١ .

(٢) انظر القصيدة في الديوان ص ٢ .

(٣) ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ ومعاهد

التنصيص ٤٣/١ .

الروى يوجه إليه مثل قوله (١) :

مدحت أبا العباس أطلب رِفْدَه فخيَّبتني من رِفْدِه وهَجَا شعري
ويبدو أنه كان بخيلاً ، وأن بخله كان السبب الحقيقي في انصرافه عن الشاعر ،
متعللاً بأنه لا يعجب بشعره ، مما جعل ابن الروى يصبّ عليه سيّطاً حامية من
الهجاء ، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده ، بل يعمّ به أسرة الطاهريين
جميعاً من مثل قوله (٢) :

إذا حسنتُ أخلاق قومٍ فبئسما خلفتم به أسلافكم آلَ طاهرٍ
جنوا لكم أن تُمدّحوا وجنيتُم لموتاكم أن يُشتموا في المقابر

وترنو عينه إلى سامراء حاضرة الخلافة ومجمع كبار رجال الدولة ووزرائها
وموظفيها العظام ، ويقدم عليها لعهد المنتصر سنة ٢٤٨ ، ويمدح أحمد بن الخصب
وزيره ، ويعود سريعاً إلى بغداد ويظهر أنه وجد الأبواب مغلقة أمامه . وقد يكون
السبب الحقيقي في ذلك أنه عزف عن سامراء لتشيع فيه كان يضمّره في نفسه ، فتركها
وعاد إلى مسقط رأسه . ولا يلبث يحيى بن عمر العلوى أن ينهض بثورة عارمة في
الكوفة ضد الدولة ، ويجنّد جيشاً كثيفاً لحرب العباسيين ، ويلتقي به محمد بن
عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠ ، وتدور عليه الدوائر ، ويقتل في ساحة المعركة ويغضب
له ابن الروى غضباً شديداً ، ويرثيه بحيمية (٣) طويلة ، يندب فيها نديباً حاراً ،
مصوراً حرقه حزنه عليه بمثل قوله :

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظل سَجْسَجٌ (٤)
ويا أسفى أن لا يردَّ تحيةٌ سوى أَرَجٍ من طيب نَشْرِك يَأْرَجُ
ألا إنما ناح الحماثم بعد ما ثويتَ وكانت قبل ذلك تمزج

ولا يبكيه وحده ، بل يبكي العلويين جميعاً منذ شهيدهم الحسين المقتول في
كربلاء ، ويتفجع على قتله مصوراً جزاءه في عِلَّيين ، ويأسى أن يكون للعلويين

(٣) الديوان ص ٢٢٤ .

(٤) سجسج : معتدل بين الحر والبرد .

(١) الديوان ص ٤٣٨ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦ .

دائمًا قَتيل مَضْرَج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أى رعاية للرسول عليه السلام وآل بيته ، ويتناول العباسيين فى جرأة ، ويتوعدهم أن يُرَدَّ الأمر إلى نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله ، على يد علوى ثائر ، يحطم العباسيين بجيشه الكثيف حطماً . ويتوجه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بالخطاب متمنياً أن تزول دولته ودولة آلِهِ فى خراسان ، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعاً ، وأن دولتهم لا بد أن تدول وتُسْحَق محققاً فينطقُ غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة .

وعلى هذا النحو أصبح ابن الرومى يجاهر بتشيعه ، ولعل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقى فى أنه لم يحاول المثل بين يدى الخلفاء مادحاً ، وبالتالي لم يظهر فى مجالسهم بسامراء ، ومع ذلك كان كثير التردد عليها ، ولكنه لم يكن يتجاوز عتبة الوزراء ، ويلاحظ أنه لم يحاول أن يمدح قواد الترك ، وكأنهم كانوا أبعد من أن يفهموا الشعر أو يثيبوا عليه ، ويشير الطبرى إلى ذلك بقوله : إنهم لم يكونوا يعرفون حدود الكلام^(١) . ونمضى مع ابن الرومى بعد مريثته الشيعية الآتفة الذكر ، فنجدته يقف مع عامة بغداد لسنة ٢٥١ حين لجأ إليها الخليفة المستعين ، ووقعت الحرب بينه - ومعه أهل بغداد - وبين المعتز الذى بايعه الترك والجند فى سامراء وينضم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد ، ويحارب معهم جند المعتز ، وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الرومى وابن طاهر ، وبدا فى نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز ، فجنح ابن طاهر إلى الصلح وخلع المستعين ، وانتهت الأمور بعزله ثم قتله فى سنة ٢٥٢ . ويغضب ابن الرومى ولكن كأنما ذلك كان سحابة عارضة ، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة ، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفى سنة ٢٥٣ افتتحها بقوله^(٢) :

إِن الْمَنِيَّةَ لَا تُبْقَى عَلَى أَحَدٍ وَلَا تَهَابُ أَخَا عَزٍّ وَلَا حَشَدٍ

وفىها يُشيد بكرمه وعدله فى الرعية واصفاً حزنها لفقده وألمها لموته وما سكبت عليه من عبرات . ويتولى مكانه حكم بغداد أخوه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

وهو أكثر الظاهريين معرفة وأدباً ، وله كتب مصنفة مختلفة وأغان مدونة . وهو أقرب ممدوحى ابن الرومى إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأموالاً كثيرة ، وكان شاعراً ، يحسن فهم الشعر وتذوقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، ومراً بنا تعرضه للبحرئى ووقوفه ضده مع ابن الرومى ممثلاً للذوق الجديد فى الشعر لعصره . ووجد فيه ابن الرومى راعيه الحقيقى ، راعيه المادى الذى يميز له فى العطاء وراعيه المعنوى الذى ينوّه بأشعاره ويصفق لطرائفه استحساناً ، وراعيه ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال البحرئى . وهكذا وجد عنده كل ما كان يبتغيه لنفسه ، وكان عبيد الله يذهب إلى سامراء كثيراً للقاء الخليفة ، فكان يصحب معه ابن الرومى . ونراه يمدح أحمد بن إسرائيل وزير المعتز لسنة ٢٥٣ ويتعرف فى هذه الأثناء بأبى العباس أحمد بن ثوبة كاتب القائد التركى بايكباك لعهد المعتز والمهتدى ، وأصبح فيما بعد رئيس ديوان الرسائل ، وهو كاتب نابه ، ومرة بنا إشارة إلى مدحة له نظمها حين دعاه لزيارته فى سامراء معتذراً بمخاطر الرحلة براً وبحراً ، آملاً أن تصله مكافأته فى بغداد ، ولا تمضى صلته بابن ثوبة إلى نهاية الطريق ^(١) . وهكذا هودائماً سرعان ما يتغير على ممدوحيه ، إما لقلة الخائفة وإما لمنعها منه وحرمانه ، وإما لأنه تخيل أى شئ عارض جعله يظن بصديق الأمس الظنون . ويتعرف عنده على أبى الحسن بن على الباقراتى كاتبه ونراه يعاتبه لتقديمه البحرئى عليه ^(٢) . وأهم من ابن ثوبة وكاتبه أنه تعرف منذ سنة ٢٥٥ على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل رئيس ديوان الضياع ، إذ نراه يهنته برياسته لهذا الديوان ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديحه حين أصبح وزيراً للمعتمد . ويتردد على واسط ليمدح آل أبى شيخ .

ويُعزّل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن حكم بغداد سنة ٢٥٥ ويولّى مكانه أخوه سليمان ، وكان أميراً لطبرستان فأخرجته منها الحسن بن زيد العلوى بعد حروب ومعارك طاحنة ، وكأنما أعطى بغداد مكافأة له على هزيمته ! . ويقف ابن الرومى فى صف عبيد الله ، ويعجب كيف يُعزّل ويولّى مكانه هارب ، وكأنما يُجنزى بذلك خير الجزاء ، أو قل كأنما هى غنيمة نالها ببأسه وشجاعته ، وإنه

(٢) الديوان ص ٢١٧ .

(١) انظر مدحته له فى الديوان ص ٦١ .

لخذلان من شأنه أن يصرف الناس عن الإقدام في الحروب ، ويسخر منه في مقطوعات مختلفة من مثل قوله ^(١) :

هو الأسد الوردُ في قصره ولكنه تغلبُ المعركة

ويحدث أن يُجتمع الأتراك أمرهم ويصمموا على خلع المعتز ، لإقدامه على قتل بعض رؤسائهم ، ويرسلوا إلى سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد أن يبعث إليهم بمحمد بن الواثق ليبياعوه بالخلافة ، ويبعث به ، وكأنما يجد ابن الروي في ذلك نكتاً من سليمان لبيعته للمعتز ، فيُصليه بقطعة من هجائه قائلاً ^(٢) :

جاء سليمان بنى طاهر فاجتاح معتز بنى المعتصم
كان بغداد لذن أبصرت طلعت نائحة تلتدم
مستقبل منه ومستدبر وجهه بخيل وقفا منهزم

وتتطور الظروف ، ويحبب المعتز قواد الأتراك إلى الخلع ، ويحبس ويقتل في محبسه بعد خلعه بستة أيام ، وحينئذ نرى ابن الروي يغيّر موقفه من المعتز فيحذره حين حبس من أن يعاوده التفكير في الخلافة ، وينظم في ذلك قصيدة بائية يقول فيها ^(٣) :

دع الخلافة يا معتز من كتب فليس يكسوك منها الله ما سلبا

ويتغيّر تبعاً لذلك موقف ابن الروي من سليمان بن عبد الله بن طاهر ، ويهديه بعض مدائح ، ويمنحه سليمان بعض الجوائز ، ثم يحدث أن جاراً ماكرآ له من تجار بغداد كان يعرف باسم ابن أبي كامل تطمح نفسه إلى شراء داره ، ويحاول أن يجبره على بيعها باغتصابه لبعض جدرانها وإفساد بعض جوانبها ، فيستعدي عليه سليمان ^(٤) بن عبد الله بكافية طريقة سبق أن أنشدنا منها في الفصل الماضي تعليله المشهور فيها لحبّة الأوطان ، وهو يدور على كل لسان ، وفيها يقول مصرّاً على أنه لن يبيع داره :

ولى وطن آليت أن لا أبيعهُ وأن لا يُرى غيرى له الدهر مالكا

(١) الديوان ص ٣٤٦. والورد: الجرى.

(٢) الديوان ص ٤٥١.

(٣) انظر زهر الآداب ٩٩/٣ .

(٤) الديوان ص ٢٨ .

ولوح لسليمان بأنه يريد منه عوناً مالياً يصلح به داره ، ولكن سليمان لم يبادر إلى عونه ، فسخط عليه سخطاً شديداً وعاد إلى هجائه بالخبث والبخل ، وكان جده طاهر يلقب بذى اليمينين ، فقال فيما قال من هجائه :

له شمالان حاز إرثهما عن ذى اليمينين شد ما اختلفا
ويدخل عصر المعتمد وأخيه الموفق الذى كان يُعَدّ الحاكم الحقيقى حينئذ ،
إذ قلّم أظفار الجند الأتراك وقضى على ثورة الزنج قضاء مبرماً وهزم يعقوب الصفار
هزيمة نكراء ، ودان له الولاة : الطولونيون وغيرهم مذعنين خاضعين ، وكان يتخذ
صاعد بن مخلد كاتباً له ، ورفعته إلى مرتبة الوزارة سنة ٢٦٥ وامتد يُمسكه حينذاك
إلى ابنه العلاء فأصبحت بغداد واليها تابعين له ، وكان عبيد الله قد عاد إلى حكم
بغداد سنة ٢٥٩ وظل يحكمها ثلاث سنوات ، ثم وليها محمد بن طاهر بن عبد الله
ابن طاهر ثم عاد إليها عبيد الله تابعاً للعلاء بن صاعد سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٧١ .
وأقبلت الدنيا على ابن الرومى مع إقبالها على صديقه عبيد الله . فكانت تلك السنوات
أهنأ أيامه ، وأكثر فيها من مديح عبيد الله مع كل مناسبة : مع أعياد النيروز
والمهرجان ومع عيدي الفطر والأضحى . وفي ديوانه مدائح مختلفة لصاعد وابنه
العلاء ، ويغلب أن يكون اتصل بهما مبكراً ، حتى إذا أصبحت بغداد وعبيد الله
ابن عبد الله بن طاهر تابعين للعلاء أكثر من الصلة بهما ومن مديحهما ، وله فيهما
دالية^(١) طويلة . وفيهما يقول :

وكل مديح لم يكن في ابن صاعد ولا في أبيه صاعد فهو حابط
وكانت قد أخذت المنافسة بينه وبين البحتري تمتد ، وانقسم الأدباء قسمين :
قسماً هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين ، وهم أنصار البحتري ، وقسماً مقابلاً
هو أنصار ابن الرومى وفي مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما أسلفنا ، ونرى
ابن الرومى يهجو خصمه ببائية طويلة^(٢) يقول فيها إن الحظ أعمى ولولا ذلك ما نال
البحتري ما نال من الشهرة بشعره الغث في رأيه ، ويزعم أنه ليس له فيه شيء فكله
لإغارات وسرقات ونهب من دواوين أسلافه ، ويستعدي عليه — كما مرّ بنا في غير
هذا الموضوع — العلاء بن صاعد الذى أمّن الطرق من اللصوص قائلاً :

(١) الديوان ص ٣٩٠ .

(٢) الديوان ص ٣٤ .

أيسرقُ البحرىُّ الناسَ شعرهمُ جهراً وأنت نكال اللصّ ذى الرّيب
يعيبُ شعرى وما زالت بصيرته عمياء عن كل نور ساطع اللهب

وفى البيت الثانى ما يدل على أن البحرى كان بدوره يبادله نقداً لشعره ،
وغضب له عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما مرّ بنا ، وأصلّى البحرى أشعاراً
حامية ، نعى فيها عليه أنه غير مثقف بالثقافة الفلسفية الحديثة مثل ابن الرومى
الذى لا يُلحَقُ شأوه ، والذى تعمق الفلسفة والمنطق . وردّ عليه البحرى كما
أسلفنا فى حديثنا عنه . وما زالت المنافسة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما
بعض الأدباء مثل سليمان بن الحسن بن مخلد وعبد الله بن الحسين القطربلى ،
فنصافيا وتواداً واعترف كل منهما بفضل صاحبه .

ومن الغريب أن ابن الرومى لم يكن يستطيع أن يُبقي على غلاقة حسنة بوزير
أوبابن وزير ، فقد كان يكنى كل منهما ألا يُنفذ إليه الجائزة أو يقلل منها ، فإذا هو
خصم لدود ، وإذا هو يسأل لسانه عليه ويبرى شعره سهاماً مُدمية . وهو
ما حدث بينه وبين صاعد وابنه العلاء ، فقد أخذاً يهملان نواله على مدائحهما
بعض الإهمال واستشاط غضباً ، وأخذ ينزل عليهما شواظ هجائه من مثل قوله ^(١) :

لِيَهْنِكُمْ أَنْ لَيْسَ يَوْجَدُ مِنْكُمْ لِبُوسُ ثِيَابِ الْمَجْدِ لَكِنْ خَلُوعُهَا
وِظَلٌ يَتَشَفَّى حَتَّى بَعْدَ سَقُوطِهَا وَالْإِلْقَاءِ بِهِمَا فِي غِيَاهِبِ السَّجُونِ سَنَةَ ٢٧٢ .

وكان يتصل ببعض كبار موظفى الدولة ، وكان منهم من يتعصب للبحرى فكانوا
يردونه ردّاً قبيحاً ، وقد يهملونه ولا ينيلونه أى عطاء على ما يقدم إليهم من المدائح
ومن خير الأمثلة على ذلك إبراهيم بن المدبر ممدوح البحرى وصديقه الذى ولى ديوان
الرسائل حيناً وتولى ولايات مختلفة . وكان قد اشترك — كما مر بنا فى الحديث عن
البحرى — فى حرب الزنج ، ومدحه ابن الرومى فلم يلتفت إليه ، وتصادف أن كان يلى
خراج الأهواز سنة ٢٥٧ ودخلها بعض جنود صاحب الزنج فثبت لهم فيمن ثبتوا ،
وأصابته شجّة فى وجهه ، وأسر ، واستطاع التخلص من أسره ، ونرى ابن الرومى
يشتم به ، ويسجل عليه جبهته وبخله فى قصائد وسقطوعات مختلفة ، وله يقول ^(٢) :

(١) الديوان ص ٥١ .

(٢) الديوان ص ٦٦ .

قل لى بأية حيلة أعملتها هتفوا بآنك - لأحفظت - جواد
لقد استفاض لك الثناء بحيلة صعبُ الأمور بمثلها ينقاد

ومرَّ بنا أنه تعرف على أبي الصقر إسماعيل بن بلبل منذ عصر المعتز حين أصبح رئيس ديوان الضياع في سامراء ، وظل منذ هذا الحين موصولاً به ، وكان الموفق قرَّبه منه واتخذهُ كاتباً له ، فكان يغدو عليه ويروح سواء حين يكون في سامراء ، أو مع الموفق في واسط في أثناء معاركه مع الزنج . ورفعهُ الموفق إلى مرتبة الوزارة فترة لسنة ٢٦٥ حتى إذا نكَّـل بصاعد سنة ٢٧٢ استوزره من بعده له ولأخيه المعتمد ، وفرح ابن الرومي بما ناله ، فدبَّج فيه قصيدة طويلة^(١) ، استهلها بالغزل نافذاً إلى طريقة جديدة ، إذ عرض من خلال وصفه لصاحبته ما في الحداثق من فواكه شهية ، حتى سماها عبید الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أى حانوت الفواكه ، ومضى بعد ذلك في مديح أبي الصقر مدحاً رائعاً ، غير أنه لما استمع إلى قوله :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمري ولكن منه شيبان
ظن أنه يعرض به ، لأنه كان يدعى نسه من شيبان ولم يكن شيبانياً حقيقة
فقال : هجاني ، وراجعهُ بعض الحاضرين قائلاً له : إن هذا من أحسن المدح ،
ألا تسمع ما بعده :

وكم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرَى شرفٍ كما علتُ برسول الله عدنانُ
فقال : أنا بشيبان ، وليست شيبان بنى ، وملأهُ الغيظ والغضب على ابن الرومي ،
فقليل له : ألم تسمعه يقول :

ولم أقصر بشيبان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان
لله شيبان قوم لا يشوبهم روعٌ إذا الرُّوع شابت منه ولدان
فاستمر في غيِّه وسوء فهمه ، وقال : والله لا أثبته على هذا الشعر^(٢) . وواضح
أن أبا الصقر لم يفهم معاني القصيدة ولا مراد ابن الرومي في البيت الأول وغيره من

الآيات ، فكان طبيعياً أن يجرمه الجائزة ، وكأنه أيضاً لم يفهم قوله في القصيدة مادحاً له :

فَرَدُّ جَمِيعُ بَرَاهِ كُلِّ ذِي بَصِيرٍ كَأَنَّهُ النَّاسُ طُرّاً وَهُوَ إِنْسَانٌ

ولم يكن هذا وبالا على ابن الرومي بقدر ما كان حرباً على ابن بلبل فقد أخذ يهجو ابن الرومي هجاء مرّاً ساخراً من ادعائه أنه شيباني حقيقة ، مثبتاً عليه أنه دعى في شيبان لصيقٌ بها ، يقول ساخراً هازئاً به ^(١) :

تَشَيَّبَنَ حِينَ هَمَّ بَأْنَ يَشِيْبَا لَقَدْ غَلَطَ الْفَتَى غَلْطاً عَجِيباً ؟

ومضى يذكر أن شيبان ستشيب من هذا الخطب الجسيم ، إذ يدعى النسب فيها أعجمي نبطي ، وينعى كيمياء الخطوظ التي أتاحت له مجد الوزارة . ويظل يهجو حتى يزرع به المعتضد في السجن لعام ٢٧٩ وما يلبث أن يموت في سجنه ، وابن الرومي في أثناء هذه النكبة التي حَلَّتْ به يهجو أهاجي كثيرة من مثل قوله ^(٢) :

فَلَنَنْ نَكَبْتَ لَطَالَمَا نَكَبْتَ بِكَ هَمَّةٌ لَجَأَتْ إِلَى مَنَدِكَ
يَا نَعْمَةً وَلَّتْ غَضَارَتُهَا مَا كَانَ أَقْبَحَ حُسْنَهَا بِيَدِكَ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد عُزِلَ عن حكمه لبغداد سنة ٢٦٢ ثم عاد إلى حكمها - كما مرّ بنا - في سنة ٢٦٦ فكان يكتفى بالمعيشة في ظلالة . وكانت العلاقة بينهما - كما أسلفنا مراراً - وثيقة ، ووظّف له أخوه محمد في بعض فترات حكمه لبغداد . ومات وهو في خدمته ومات قبله بمدة أمه ، وله فيهما مريتان .

وكان طبيعياً أن يكثر مديحه لبعض ذوى البيوتات في بغداد وفيما حولها من المدن والضواحي ، ومن نراه ماثلين في ديوانه بنو فياض وهم يرجعون إلى أصول فارسية ، وكانت لهم إقطاعات وضياع واسعة في دير العاقول بالقرب من بغداد ، وتَمَثَّلُ في ديوانه أسرة بني نوبخت الفارسية الأصل ، وهي تشتهر من قديم بثقافة

أبنائها وكثرة ما ترجموا من الفارسية إلى العربية ، وأهم شخص يُكثر من ملحه بينهم أبو سهل إسماعيل بن علي ، وكان من رعوس الشيعة ، ويقال إنه مؤسس الفرقة الاثني عشرية ، وفي صلته به ما يؤكد تشيعه وأن من الممكن أن يكون علي مثاله إمامياً يعتنق مذهب الاثني عشرية . ومن الأسر التي أكثر من مدحها أسرة بني حماد قضاة بغداد ، خاصة منهم القاضي إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ونراه يمدحه في قصيدة بائية محاولاً أن يبرئ نفسه من تهمة بالزندقة التي نُقلت إليه ، ويستشهد على صحة براءته بابنين عدلين للقاضي يعرفان حقيقة أمره ، ويستحثه على التكيل بوشاة السوء الذين دبّروا اتهماء بهذه التهمة النكراء ، ويقول إنهم هم الذين دبّروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترى دارك بالخصي والحجارة ، يقول^(١) :

حملوا حملةً على الدين تحكى حملة الروم رافعين الصليبا
وأرادوا بك العظيمة لكن أوسع الله سعيهم تخيبا
وكان الغوغاء لما تغاوا فرموا داركم قضا تحصبيا^(٢)
زعموا أن ذاك غزوٌ وحجٌ تبب الله أمرهم تنبياً

ولم ترو كتب التاريخ هذه الفتنة أو الثورة ضد القاضي ، ولعل في ذلك ما يدل على أن الشعر في هذا العصر يقدم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها في كتب التاريخ المعروفة ، على نحو ما مرّ بنا عند البحري وتسجيله لمعركة ابن دينار البحرية ضد الأسطول البيزنطي وحرقه ، فإن كتب التاريخ لم تشير إلى ذلك بحرف . وتورد في الديوان أسماء أصدقاء كثيرين في مقدمتهم أبو عثمان الناجم راويته ، وقد حضر موته ، وابن المسيب الكاتب وأحمد بن عبيد الله وأحمد بن بشر المرتضى وكان كاتباً في ديوان الموفق وابن عمار^(٣) ، وكان شاعراً ومن نقدة الشعر في عصره . وأكثر قصائده التي وجه بها إلى المرتضى يطلب إليه فيها بعض السملك ، ويقال إنه كان قد وعده أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة منه لا يقطعها ، فبعث إليه يوم سبت

(١) الديوان ص ٣٠٩ .
(٢) التحصيص هنا : رمى الجمار بجنى .
(٣) انظر توصيته لأبي سهل بن نوبخت به في الديوان ص ١٢٣ .

بهدية منه ، ولم يرسل السبت التالى . فكتب إليه قصيدة يقول فيها^(١) :

ما لحيثاننا جَفَتْنَا وأُنَى أَخْلَفَ الزائرون منتظرهم
قد سَبَتْنَا وما أَتَتْنَا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيم

ومن الشخصيات التى ظل يمدحها طويلا على بن يحيى المنجم ، وهو من كبار المثقفين فى عصره ، وسبق أن تحدثنا عن مكتبته العظيمة ، وكان شاعراً وندبماً رفيعاً للخلفاء من المتوكل إلى المعتمد ، ولا يُعرف بالضبط بدء اتصال ابن الرومى به وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، وله يعاتبه^(٢) :

لِتَهْنَأْ رجالُ لا تزال تجودهم سحائبُ من كلنا يديك مواطُرُ
عُنيتَ بهم حتى كأنك والدُ لهم وهم - دوني - بنوك الأصاغر

ومن تدور أسماءهم فى ديوانه جَحَظَةُ ، وكان شاعراً ويحسن الضرب على الطبل ، وكان بنادم المعتمد ، وهو نديم من نوع آخر غير نوع على بن يحيى المنجم ، نديم مضحك ، يتخذ للهزؤ به والفكاهة . وكان يصطدم بكثير من الشعراء فى عصره فيكويهم بأهاجيه ، وفى مقدمتهم مثقال وهو محمد بن يعقوب الواسطى ، وإبراهيم البيهقى شاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأبو حفص الوراق ، وابن أبى طاهر وابن الحبازة وخالد القحطبي ، فقد كان يُشِيبُ مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائماً هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله . وتعرض بالهجاء للمبرد لأنه كان يقف فى صف البحترى ضده ، وتبعه تلميذه الأخفش فى هذا التعصب ولم يكتف بإعلان رأيه فى شعره ونقده فقد كان يأتيه من قبل تطيره كما أسلفنا ، ومن كان يعيب شعره نفطويه النحوى ، ولذلك لم يسلم من أهاجيه .

ويُظَلِّله عصر المعتضد منذ سنة ٢٧٩ ، وكانت قد عادت الخلافة إلى بغداد حاضرتها السابقة منذ سنة ٢٧٦ ، ويحس كأن الحياة أقبلت عليه وعلى مسقط رأسه كليهما . ويكثر من ذكر المعتضد فى قصائده ومقطوعات مختلفة ، ويبدو أنه لم ينشد أمامه واحدة منها ، فقد كان تشيعه لا يزال يبعده عن القصر ، وفى رأينا أنه

هو السبب الأهم في أن الوزراء كانوا يقبلون عليه ثم يزورون عنه اضطراراً لما ذاع من تشيعه. ونرى ابن الرومي يتعرض في أشعاره له لبسالته في حروب الزنج، ولتأخيره النبروز مفتتح الحراج إلى الحادى عشر من حزيران وسماه النبروز المعتضدى قاصداً بذلك إلى الرفق بالرعية - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - وكان عملاً جليلاً. ويذكر بسالته في صيد الأسد، ويهنئه بالأعياد ويزواجه من قَطْرَ الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه لسنة ٢٨١ وله يقول في هذه المناسبة^(١):

يا سيد العُرب الذى زُفَّتْ له باليَمْنِ والبركات سيدة العجَمِ
اسعَدَها كسُعودها بك إنها ظفرت بما فوق المطالب والهمم
ظفرت بِمِلثَى ناظرها بهجةً وضميرها نبلا وكفيها كرم
شمس الضحى زُفَّتْ إلى بدر الدجى فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم

وكانت الوزارة قد تحولت منذ سنة ٢٧٨ إلى آل وهب، ويبدو أن صلة الشاعر بهم ترجع إلى أمد أبعد من ذلك، وبمجرد وصولهم إلى الوزارة نراه يقدم مدائحه لعبيد الله بن سليمان بن وهب، وكان كاتباً مجيداً، ومدبراً لشئون الدولة حصيفاً، وكان له أخ يسمى وهباً مدحه ابن الرومي في غير قصيدة كما مدح ابنه الحسن والقاسم، وهو يهمل طويلاً لحجى دولتهم، وتارة يمدحهم مجتمعين باسم آل وهب، وتارة يفرد لكل منهم القصائد الطويلة، ومن قوله في مدح عبيد الله^(٢):

إذا أبو قاسم جادت يداهُ لنا لم يُحمد الأجودان : البحر والمطرُ
وإن مضى رأيه أو حَدَّ عزمته تأخر الماضيان : السيفُ والقدر
وإن أضاعت لنا أضواء غُرتِه تضاعل النيران : الشمس والقمر
ينال بالظن ما يَعْيى العيان بهِ والشاهدان عليه : العين والأثرُ

وكان القاسم الابن الأصغر لعبيد الله إلا أنه كان مقدماً عنده لذكائه، ولذلك

أخذ يوليه بمص المناصب وهو صغير ، وكان إذا غاب أنابه عنه . وكان يعطف على ابن الرومي قبل تولي أبيه الوزارة ، ويقال إنه كان يجري عليه راتباً ، حتى إذا دانت الدنيا لأبيه أخذ يُجْزَل له في العطاء ، مما جعل ابن الرومي يُصنِّفه مديحاً رائعاً . ولا نكاد نقبل على سنة ٢٨٢ حتى تُعاود ابن الرومي طبيعته ، وكأنما ضاق القاسم وأبوه بكثرة شكواه وإلحاحه المتكرر على العطاء ، ويبدو أن بعض الوشاة الحساد أخذوا يدسون عليه عندهما ، فحاولا إبعاده ، وشعَّر بضيق شديد فأخذ يعاتبهما ، وازداد الأمر — فيما يبدو — سوءاً إذ منعا عنه الجائزة أحياناً ، فأخذ يستعطفهما ، غير أنهما لم يصيخا له ، على الرغم من استصراخهما لبؤسه ، وعبثاً يناديهما ألا يضمنوا عليه بالقوت وأن يعرفوا له حق الأديب^(١) حينئذ يفرغ إلى قوسه القديم ، قوس الهجاء المرير ، ويريش لهما سهاماً مصمية من مثل قوله^(٢) :

تسميتُ فينا ملوكاً وأنتمُ عبيدٌ لما تحوى بطونُ المزاوِدِ
لكم نعمةٌ أضحتْ بضيقِ صدوركم مبرأةً من كلِّ مُثْنٍ وحامدِ
فإنْ هي زالتْ عنكمُ فزوالها يجددُ لإنعاماً على كلِّ ماجدِ
ويفسد ما بينه وبين آل وهب فساداً لا يمكن رآبُهُ .

وتتردد في الديوان بأخرة من حياة ابن الرومي شخصيات من آل الفرات الذين سيسطع نجمهم في عهد المقتدر ، كما تتردد أسماء شخصيات كثيرة مثل أحمد بن محمد الطائي وإلى الكوفة العهد المعتمد ، ويبدو أنه ظل متصلاً به حتى أواخر حياته . ويلقانا محمد بن داود بن الجراح الكاتب وأحمد بن محمد الواثق صاحب شرطة بغداد وعيسى بن موسى المتوكل الذي نعى عليه بخله بمقطوعات ساخرة ، وكاتب مسيحي للقاسم يسمى عَمَراً ، وله فيه أهاج تقطر سماً زعافاً ، وابن فراس وكان فيما يبدو لغويّاً .

ص ١٧٨ يدعى فيها أن آل وهب أحيا دين الصليب وغنوا بتشيد الكنائس وهدم المساجد .

(١) الديوان ص ٢١٢ .
(٢) الديوان ص ٣٩٦ - ٣٩٧ وانظر مقطوعة في كتاب ابن الرومي لروفون جيست

ويغصّ الديوان بأسماء كثير من الجوارى القيان المطربات مثل بستان وجلنار
وبدعة وشاجي ودُريرة وغنّاء وحيد ومظلومة وظلوم ، وأكثرهن كن لوزراء أو لأمرأ
مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله ، وكان بجوارهن قينات
وحوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسماعهن ، مثل شُنْطَف ، وفيها يقول ^(١) :

وإن سكوتها عندي لبُشْرى وإن غناءها عندي لمُنَى
فقرطها بعقرب شهر زورٍ إذا غنّت وطوقها بأفعى

ومن أهم جوانب الضعف فيه أنه كان نهماً في الأكل نهماً شديداً ، ولذلك يكثر
في أشعاره وصف الأطعمة من كل لون حلو وحامض ، كما يكثر وصف الأشربة ،
ومن عجب أن القدماء وصلوا بين هذا النهم وموته لسنة ٢٨٣ أو ٢٨٤ فقالوا إن
القاسم بن عبيد الله دسّ إليه السم في خشكناجة ، فلما ازدردّها أحسّ بالسم
في بطنه فقام مسرعاً ، فقال له القاسم إلى أين ؟ فأجابه إلى حيث أرسلتني ،
فقال له : سلّم على والدي عبيد الله ، فأجابه : ما طريقى على النار . والصحيح
أنه توفى عن نحو ستين عاماً نتيجة لعلله وأمراضه ، وهى على كل حال سن
عالية .

ولابن الروى ديوان ضخم لم ينشر حتى الآن ، إنما نشر منه الشيخ محمد شريف
سليم جزعين ، ونشر منه كامل كيلاني مختارات باسم ديوان ابن الروى ، وهو الذى
نرجع إليه غالباً . ومن يتصفح ما نُشر منه يلاحظ تواتراً أنه يختلف عن دواوين
الشعر العربى التى عاصرتة وسبقته ، ففيه موضوعات متنوعة عن الحياة وشرورها
وعن الناس وحرفهم وملابسهم وعن الموت وعن الأطعمة والأشربة ومتنّع الحياة ،
وعن طبائع الناس وعن النساء وأخلاقهن وعن الطرّد والقنص وعن المسرات
والآلام ، بحيث يصبح من الصعب تشكيل موضوعاته بأعداد رقمية . ومع ذلك
سنعرض شعره على الموضوعات الأساسية للشعر العربى ، مع ملاحظة ما يمتاز
به من صفات خاصة به وبشخصيته الشعرية الخصبية . ومربّنا فى الفصل
الماضى تصويرٌ من بعض الوجوه لخصائره العقلية ، وكيف أدّاه اعتزاله مبكراً إلى أن

يتمثل جميع الثقافات في عصره فلسفية وغير فلسفية . وإذا هو يستقصي المعاني استقصاء نادراً حتى لا يكاد يترك في معنى شعبة دون عرضها والإلمام بها ، وإذا هو يوغل في الأفكار ويستنبط منها مستوراتها الخفية ، وإذا هو يسلط عليها أشعة المنطق بكل أقيستها وعللها ، فنبذ في أضواء واضحة وضوحاً مطلقاً ، وليس ذلك فحسب فإنه استطاع أن يغير في سمات كل موضوع قديم بفضل ما ألقاه عليه من الأضواء والظلال العقلية . وهو بحق يمثل النزعة التجديدية في العصر ، على حين كان البحرى يمثل النزعة التقليدية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وأول ما نقف عنده المديح ، وبعض قصائده فيه يطول طولاً مسرفاً حتى لتبلغ القصيدة نحو ثلثمائة بيت ، وعادة يقدم لمداخلة بما تعارف عليه الشعراء من قبله من مقدمات ، ولكنه ينوع فيها ، فقد يختار النسيب مثلاً ، ولكنه يتحوّل به كما في قصيدته النونية^(١) التي مدح بها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل إلى تجسيد فواكه البستان في المرأة ، حتى سمّى بعض معاصريه - كما أسلفنا - القصيدة باسم دار البطيخ وكانوا يطلقونها على دكان الفاكهة . وقد يختار وصف^(٢) الطبيعة والربيع ويُبْدع في وصفه ، إذ كان مفتوناً بها فتنة العاشقين الواهمين ، مما يميزه بحق عن شعراء العربية . وقد يدمج في القصيدة وصف^(٣) مجلس سماع ، فيصور آلات اللطرب ومن يتحمّلنّها من القيان في صور بديعة على نحو ما بلقانا في نونيته التي مدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، والتي يفتتحها بقوله^(٤) :

وقيانٍ كأنها أمهاتُ عاطفاتُ على بنيتها حَوَانِ

وقد أنشدنا منها قطعة في الفصل الماضي . ويضيف إلى وصف مثل هذا المجلس ذكر الخمر . وقد يختار بكاء الشباب الذي طالما تغنّى به الشاعر العربي ، ولكنه يعرضه عرضاً جديداً على نحو ما نرى في مقدمة قصيدته البائية^(٥) التي مدح بها علي بن يحيى المنجم ، فقد تحدث فيها عن الشيب والخضاب ودعاه حداداً كثيراً

(٣) الديوان ص ٨٤ .

(١) الديوان ص ٢٠ .

(٤) الديوان ص ١٧٧ .

(٢) الديوان ص ٢٩٩ ، وقد دون كامل

كيلاني المقدمة وحدها دون المديح .

على الشباب من شأنه أن يبكي صاحبه بدموع غزار ، ثم أخذ بصور سخرية
الفتيات بخضابه باكية الشباب بكاء لاذعاً . ويحذف المقدمة أحياناً طلباً للاختصار
والوقوف عند عشرات الآيات لا عند المئات - وتبلغ بعض المقدمات عنده أحياناً
نحو مائة بيت - ويتفنن بعد ذلك في المديح ، ومن الطريف أنه كان يلاحظ أن
الشعراء فيه يبالغون ويفرطون في مبالغاتهم فينسبون إلى الممدوحين ما لا يفعلون ،
مسبة لا تمحي وعار ما بعده عار ، حتى ليصدق عليهم قوله تعالى : (والشعراء
يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون)
ويستوحى ابن الرومي الآيات قائلا (١) :

يقولون مالا يفعلون مسبةً من الله مسبوبةٌ بها الشعراءُ
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون مالا يفعل الأمراءُ

فهم يقولون ما لا يفعلون ، وليس ذلك فحسب ، بل يقولون أيضاً ما لا يفعل
الأمراء ، كذباً وبُهتاناً . وكأن ابن الرومي أحسَّ في قوة ما كان يحمله المديح
لعصره من كذب صراح . وإذا كنا لاحظنا أنه حاول التنوع في مقدمات المديح فإننا
نلاحظ أنه حاول التنوع في المديح نفسه ، فإنه لم يقصره على المعاني المطروقة ،
ويوضح ذلك مديحه لعلي بن يحيى المنجم في بانيته التي أشرنا إليها . آتفاً ، فإنه مضى
فيها يمدحه على هذه الشاكلة :

لَوَذَعِيْ لَهُ فَوَادُ ذَكِيْ	ماله في ذكائه من ضريب
أَلْمَعِيْ يَرَى بِأَوَّلِ ظَنِّ	آخَرَ الأَمْرِ من وراء المغيب
لَا يَرَوِي وَلَا يَقْلِبُ كَفًّا	وَأَكْفُ الرِّجَالِ في تَقْلِيْبِ
حَازِمُ الرَّأْيِ لَيْسَ عَنْ طَوْلِ تَجَرِيْ	مِ لَبِيْبٍ وَلَيْسَ عَنْ تَلْيِيْبِ (٢)
يَتَغَابِيْ لَهُمْ وَلَيْسَ لِمَوْقِ	بَلْ لِّلْبِ يَفُوْقُ لُبَّ اللَّبِيْبِ
لَيْنٌ عِظْفُهُ فَإِنْ رِيْمَ مِنْهُ	مَكْسَرُ الْعُودِ كَانَ جِدَّ صَلِيْبِ

وواضح أن هذا مديح من نوع غير مألوف ، مديح بالطباع والشمائل والملكات ؛

(٢) تلييب : تكلف اللبابة عن غير طبع وفطرة .

(١) الديوان ص ٣٧٦ .

فهو يمدحه بالذكاء وحسن البديهة والنظر الثاقب ، دون إبطاء في الرأي أو ندم يلحقه ، وهو حازم لبيب بالفطرة ، يتغابي قصداً وسيد القوم المتغابي ، ويبدول بين الملمس وهو صلب العود صلابة شديدة . ومصدر هذا الجانب في مديحه بدون ريب قدرته الخارقة على تحليل المعاني واستقصائها ، وكانت له قدرة خارقة أيضاً على النفوذ إلى كثير من الأخيلة المبتكرة من مثل قوله في حسَّاد صاعد مصوراً مجده الوطيد^(١) :

وضدَّ لكم لا زال يسفُلُ جدُّه ولا برحتْ أنفاسُهُ تتصعَّدُ
ولو قاس باستحقاقكم ما منحتمْ لأطفأ ناراَ في الحشا تتوقَّدُ
وأنق من عقد العقيلة جيدها وأحسن من سربالها المتجرَّدُ

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته في مثل هذه الأقيسة ، فصاعد يستحق مجداً عظيماً فوق ما منحه من مجد الوزارة الذي أسفغ عليه بفضل حزمه وحسن تديره ، وما مثل الوزارة بالقياس إليه إلا مثل العقد في الجيد الجميل جمالا يفوقه ، بل مثل الثوب يضاف على الجسد الفاتن . ويجمع بين جمال الحلقة والأخلاق في بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة^(٢) :

كلُّ الخصال التي فيكم محاسنكم تشابهت منكم الأخلاق والأخلاقُ
كانكم شجر الأترج طاب معاً حملاً ونوراً وطاب العود والورق

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره ، طيب على طيب ، وكثيراً ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة في مديحه كقوله في بعض ممدوحيه :

أوفى بأعلى رتبةٍ وتواضعتْ آلاؤه فأحطن بالأعناقِ
كالشمس في كبد السماء محلُّها وشعاعها في سائر الآفاقِ

والهجاء فنّه الذي لا يبارى فيه ، وهو يتخذ عنده لونين : لوناً قائماً كله إقذاع وسب وهتك للأعراض وقد يطيل فيه إلى مئات من الأبيات ، ولوناً زاهياً ينحو

والترجمة والنشر) ص ٧٠ .
(٢) زهر الآداب ١٤٦/٤ .

(١) زهر الآداب ١٨٣/١ وانظر المختار
من شعر بشار للتجوي (طبع لجنة التأليف

فيه منحى السخرية والإضحاك ، وهو اللون الأهم في هجائه ، لأن اللون السابق كثيراً ما نجده عند سابقيه ومعاصريه ، أما الهجاء الساخر فمقدّمه نَمَاهُ إلى أبعد حد تُسَعِّفه في ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية في مهجويته ، حتى ليصبح شبيهاً أدق الشبه بأصحاب الصور الكاريكاتورية ، فهم يستغلون العيوب الخلقية ويبرزونها بالطول أو بالعرض أو بالتضخيم أو بالتصغير إبرازاً مضحكاً في كل صورة ، وكذلك كان ابن الرومي هَجَاءً ساخراً يعرف كيف يصور العيوب الجسدية والمعنوية تصويراً مضحكاً ، ومرّ بنا في الفصل الماضي تصويره لشُحّ عيسى بن موسى بن المتوكل وأنه لو استطاع لتنفس من منخر واحد أو فتحة واحدة من فتحتي أنفه بخلا وحرصاً ، وكذلك تصويره لبعض مهجوييه بحيوانات مجترّة ، ولم يعجبه بعض المغنين فصوره في تحرك فكّيه بالغناء بالغل حين يحرك فكّيه لأكل طعامه . ومرّ بنا أنه كانت تؤذيه إيذاء شديداً رؤية جار له أحْدَب ، وانتقم لنفسه منه بقوله فيه (١) :

قَصُرْتُ أَخَادَعُهُ وَغَابَ نَأَالُهُ فكَأَنَّهُ مَتْرَبُصٌ أَنْ يُصَفَعَا
وَكَأَنَّمَا صُفِيعْتُ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسَنُ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجْمَعَا

فجعلله الدهر مصفوعاً يحاول أن يتقى صَفَعُهُ بتجميع قفاه إلى ظهره ، وكانت تؤذيه اللحي حين تخرج عن مقدارها الطبيعي فيهجوها ويهجوا أصحابها هجاء ساخراً مضحكاً ، وله فيها مقطوعات هزلية قصيرة وطويلة ، ومن أطرفها وأجمعها للهزؤ والسخرية قوله في لحية بعض مهجوييه (٢) :

إِنْ تَطُلْ لِحِيَةً عَلَيْكَ وَتَعْرِضْ فَاَلْمَخَالِي مَعْرُوفَةٌ لِلْحَمِيرِ
عَلَّقَ اللَّهُ فِي عِذَارِيكَ مِخْلًا وَلَكِنِهَا بَغِيرِ شَعِيرِ
أَرَعَ مِنْهَا الْمُوسَى فَإِنَّكَ مِنْهَا يَشْهَدُ اللَّهُ فِي أَثَامٍ كَبِيرِ
مَا تَلَقَّاكَ كَوَسْجٍ قَطُ إِلَّا جَوَّرَ اللَّهُ أَيْمًا تَجْوِيرِ
لِحِيَةً أَهْمَلْتَ فَطَالَتْ وَفَاضَتْ فَإِلَيْهَا تَشِيرُ كَفُّ الْمَشِيرِ

ما رأتها عينٌ امرئٍ ما رأتها قَطُّ إلا أهلٌ بالتكبير
 روعةٌ تستخفه لم يُرغها من رأى وَجَهَ مُنْكَرٍ ونكير
 فاتق الله ذا الجلال وغيرُ مُنْكَرًا فيك ممكن التغير
 أو فقصرُ منها فحسبك منها نِصْفُ شِبْرِ علامة التذكير
 لو رأى مثلها النبي لأجرى في لِحَى الناسُ سُنَّةَ التقصير
 واستحب الإحفاء فيهنَّ والحلَّ قَ مكان الإغفاء والتوفير

وقد استهل ابن الرومي المقطوعة بتشبيه تلك اللحية بمخللة حمار ولكن بدون شعر ، ونصح صاحبها أن يجعل موسى يرعاها ويأخذها من جميع أطرافها ، وجعل محافظته عليها إثماً كبيراً فإن الكوسج خفيف اللحية إذا رآها نسب إلى الله الجور والظلم في قسمة الأرزاق ، وقد طاللت حتى غدت فرجة للرائحين والغادين يشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين ، بل إنهم ليصيحون الله أكبر ، للروعة الشديدة التي تأخذهم ، وإنها لأكثر هولاً من وجه ملكي القبر : منكر ونكير ، ويدعوه أن يتق الله ويغير هذا المنكر الذي يحمله على وجهه في ذهابه وإيابه ، أوليفصّرهما ، فنصفُ شبر منها كاف على التذكير والرجولة ، ويقول إن الرسول عليه السلام لو رآها لأبدل السنة فلم يجعلها تطويل اللحي بل جعلها تقصيرها ، بل لعله كان يجعل السنة قصّها ومحوها محواً . وهو يشير في البيت الأخير إلى الحديث النبوي : « احفوا الشوارب واعفوا اللحى » . وكان كاتبٌ مسيحي للقاسم بن عبيد الله يسمى عمرراً كثيراً ما كان يحجبه ، فأصلاه ناراً حامية من أهاجيه^(١) . وكان لا يزال يلوح العيوب الجسدية في مهجويه ، عابثاً بهم عبثاً كله سخريه وفكاهة وتندير .

وكان ابن الرومي يجيد فن الرثاء ، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر ، وأيضاً فإنه كان يستشعر في أعماقه حزناً ممضاً ، لأنه لا يأخذ حقوقه في عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقاً واضحاً ، فكان شعوره

بالبؤس والحمران يضاعف حزنه ، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحزاناً ومآتم ،
وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء ، فبكاهم بكاء حاراً ، ومراً بنا في الفصل الماضي بكاءه
على ابنه الأوسط الذى مات متروفاً وهو لا يزال في المهد طفلاً صبيّاً ، وقد نصب
بقصيدته له مآتماً كبيراً صور فيه موته ونزيفه تصويراً محزناً ، ثم بكاه بكاء مراً .
ومن قوله في رثاء ابنه الثالث ^(١) :

أَبْنَىٰ لِنَكَ والعزاء معاً بالأمس لُفَّ عليكما كَفَنُ
ما في النهار - وقد فقدتك - من أنس ولا في الليل لى سكن
ما أصبحتُ دنياى لى وطناً بل حيث دارك عندى الوطن

ومرُّ بنا أن له مريثة في أمه وأخرى في أخيه محمد ، وبجانب ذلك نجد له
عزاء من حين إلى حين ، وأسلفنا في الفصل الماضي عزاءه في ابنة على بن يحيى
المنجم ، وله عزاء مشابه للمسيبى الكاتب صديقه يعزيه عن ابنته بأن أحداً لن
يمخلد في الدنيا ، وأن تلك إرادة الله ولا راد لمشيئته ، يقول ^(٢) :

أَصَبْتَ وما للعبد عن حكم ربه محيى وأمرُ الله أعلى وأقهرُ
تعزيتَ عمن أثمرتك حياته ووَشَكَ التعزى عن ثمارك أجدرُ
فلا تهلكن حزنًا على ابنه جنَّة غدت وهى عند الله تحيا وتُخبرُ

وكان ما بنى ينفذ إلى أخيلة ومعان طريقة حتى في الموت ، ولعله أول من حبَّب
الموت إلى غيره ، وكأنما كان يراه خلاصاً من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين
لا ينصفونه ، مما جعله يقول ^(٣) :

قد قلتُ إذ مدحوا الحياة فأكثروا للموت ألف فضيلةٍ لا تُعرفُ
فيه أمانُ لقاءه بلقائه وفراقُ كل معاشرٍ لا يُنصفُ
وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروع بلقائه من أدق ما يمكن ،
وهو لا يبارى في النفوذ إلى كثير من المعانى والأحاسيس الدقيقة . وقد عرضنا في

(٣) ديوان المعاني ١٧٢/٣ .

(١) الديوان ص ٣١ .

(٢) الديوان ص ١٠٤ وتحرير: تلبس الوشى والزينة.

الفصل الماضي مريته الملتهبة للبصرة حين حرقها الزنج ودمروها .

ويكثر العتاب في ديوان ابن الرومي ، وقصيدته في عتاب أبي القاسم التوزي الشطرنجي مشهورة ، ومراً بنا في الفصل السالف قطعة بديعة منها في وصف لعب أبي القاسم بالشطرنج ، وكان أمهر معاصريه في لعبه ، غير أنا نقف الآن عند عتابه ، وقد عرضه عرضاً طويلاً طريفاً ، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من صفاء ، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق ، يقول :

كشفت منك حاجتي هنوات غُطِيتُ برهةً بحسن اللقاء
تركنتي ولم أكن سَيِّئَ الظَّنِّ أَسِيءُ الظنون بالأصدقاء
قلت لما بدتُ لعيني شُنعاً رُبَّ شوهاء في حشأ حسناء

ومضى في حوار طويل بينه وبين تلك الهنوات الصغيرة ، يقول لها ليتني لم أهتك سِرْكُنَّ وهن يقلدن له بل لقد صنعت حسناً ، إذ لو لم تفعل ذلك لظلمت في ظلم الشك من صاحبك ضالاً حائراً ، وإن من الخير أن ننكشف لك حتى تعرف أمكنة الداء منه وتطب لها طبيباً يداويها دواء يشفي الصديق ، ويعتب على أبي القاسم أنه لم يَنْلِهْ نوالاً ولا رَدّاً كريماً ، ويظل يستعطفه طويلاً . وقد أسلفنا في الفصل الماضي قطعة بديعة له في عتاب آل وهب .

ولابن الرومي غزل كثير يأتي به مستقلاً تارة ، وتارة في مقدمات قصائده ، ولما يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبي نواس أو حتى مثل البحترى ، ومرت في الفصل الماضي قطع مختلفة له في وصف العناق وجمال العيون ومن بديع ماله في وصف الشعر المسترسل حتى مواطئ القدم قوله ^(١) :

وفاحمٍ واردٍ يقبلُ ممّاً شاكٍ إذا اختال مسبلاً غُدْرَه ^(٢)
أقبل كالليل من مفارقة منحدرًا لا يذمُّ مُنَحَدْرَه
حتى تناهى إلى مواطئه يلثم من كل موطئ عَفْرَه ^(٣)
كأنه عاشقٌ دنا شغفاً حتى قضى من حبيبه وطَرَه

(٣) العفر : ظاهر التراب .

(١) زهر الآداب ١٦/٣ .

(٢) النذر : ذوايب الشعر وقطعه .

وهي صورة فريدة أسعفته بها قدرته على الاستقصاء في وصف المحسوسات ،
وكثيراً ما يفجأ قارئه بمثل هذه الصور النفيسة في غزاه ، وكأنما تحول عقاه إلى ما يشبه
كترأ سائلا بالدرر ، فهو لا يني يُطَرَف قارئه بمعنى مُسْتَحْدَث أو خيال مبتكر
من مثل قوله (١) :

لا شيء إلا وفيه أحسنه فالعين منه إليه تنتقل
فوائد العين منه طارفة كأنما أخرياتها الأول

فكل شيء وكل عضو في صاحبه فتنة من الفتن حسناً وجمالاً ، فالعين
ما تزال تنتقل ، وكلما تركت عضواً عادت إليه مفتونة ، حتى لكأنما انمحت
فكرة الأول وأعقابها ، فكل شيء من الأول ، وكل شيء لا يكاد النظر
يفرغ منه حتى يعود إلى التملّ به . وله قافية نظمها في جارية سوداء لممدوح له من
البيت العباسي هو عبد الملك بن صالح ، وفيها يقول معللاً علة حسنة لسوادها :

أكسبها الحب أنها صُبِغت صبغة حبِّ القلوب والحدقِ

ويبدو أن بعض الجوارى عَبَّشْنَ به وَغَدَرْنَ في حبه وَمَكَّرْنَ مَكراً خبيثاً ،
ولذلك نراه في نونيته المسماة بدار البطيخ يُصَدِّر أحكاماً قاسية على النساء عامة ،
من مثل قوله (٢) :

ومن عجائب ما يُمْنَى الرجال به مستضعفات لهم منهن أقرانُ
مناضلاتُ بنبلٍ لا تقوم له كئائبُ التُّرك يُزجيهنَّ خاقانُ
ولا يدْمُنَ على عهدٍ لمعتقدٍ أنى وهن - كما شُبِّهْنَ - بستانُ
يميل طوراً بحمل ثم يُعَدِّمه ويكتسى ثم يُلْفَى وهو عريانُ
يغدرن والغدر مقبوحٌ يزيِّنُه للغاويات وللغاوين شيطانُ

وقد يكون دافع ابن الرومي إلى مثل هذه الأحكام القاسية على المرأة في عصره
شيوع دور القيان ببغداد وأن كئيرات من الجوارى لم تكن سيرتهن حسنة .

(٢) الديوان ص ٢٠ وما بعدها .

(١) ديوان المعاني للمسكري ٢٣٢/١ .

وكانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعره وعواطفه ، مما جعله يَكَلِّفُ بها كَسَلًا شديداً ، بل لقد تَحَوَّلَ عاشقاً لها عشقاً لا نألفه عند شعراء العربية من قبله ، فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة وكل وسوسة معيشة قوية حارة ، معيشة محب والده ، يرى الطبيعة من حوله ، وقد تحولت وجوهاً فاتنة ناطقة ، وكل شئ فيها يُغْرِيه بالنظر واللمس والشم ، حتى انحس كأنما يفنى في الطبيعة فناء أصحاب المنزع الرومانسي الغربي ، وكأنما الحجب تُرْفَعُ بينه وبينها في كل يوم فيزداد بها ولهاً ويزداد سروراً وغبطة ، وقد عرضنا في الفصل الماضي منظر الغروب وتجسيده لوداع الشمس للطبيعة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة . ونكتفي هنا بأن نسوق مثلاً لتصويره الربيع ، يقول^(١) :

ورِياضُ تخاليلُ الأرض فيها	خُيَلَاءُ الفتاة في الأبرارِ
ذات وَشْيٍ تناسجته سوارٍ	لبقاتٌ بحَوْكه وغواذى ^(٢)
فهى تُشْنِي على السماء ثناء	طِيبَ النَّشْرِ شائعاً في البلادِ
من نسيمٍ كَانَ مسراه في الأر	واح مسرى الأرواح في الأجسادِ
منظرٌ معجبٌ تحيةٌ أنف	ريحُها ريح طيب الأولادِ
تتداعى بها حمامٌ شَتَّى	كالبواكى وكالقِيان الشواذى
تتغنَّى القِرانُ منهن في الأيِّ	لكِ وتبكي الفِرادُ شَجْوَ الفرادِ

فالأرض تَراعى له كأنها فتاة حسناء تختال في برود الربيع البهيجة . وشيها الذى نسجته السحب نسجاً بديعاً ، وهى تُشْنِي على السماء ثناء عاطراً ، والنسيم يسرى في الأرواح سريان الأرواح في الأجساد ، وما أجمله من منظر وما أروعها من عطر للطبيعة يملأ النفس حناناً وعطفاً كرائحة الأولاد النجباء ، والحمام تتناغى بين باكيات وشاديات ، أما الشاديات فيتغنن لرفقائهن ، وأما الباكيات فمفردات ليس لهن قرين ، وكأنهن يبكين الانفراد . والقطعة تعجُّ بالحياة ، بل قل إنها تعج بالحُب حب شاعر أغرم بالطبيعة وملأت قلبه برأً وحناناً ومودة . ولفت هذا الجانب

السوارى والغواذى : السحب .

(١) الديوان ص ٧٥

(٢) تناسجته : اشتركت في نسجه .

عند ابن الرومي العقاد، فقال إنه أثر من آثار وراثته اليونانية ، ولكن اليونان لم يُعرف عندهم شعر الطبيعة ، هم ملأوها بالآلهة ، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند ابن الرومي ، وأوربا نفسها في عصرها الكلاسيكي في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حين كانت تحاكي الآثار اليونانية ، لم يُعرَف عندها هذا النوع من الشعر ، إنما عُرِف في العصر الرومانسي في أثناء القرن التاسع عشر ، حين انفكَّت من محاكاة الآثار اليونانية^(١) . على كل حال كان ابن الرومي يُشغَفُ بالطبيعة ويكَلِّفُ بها كَلَفًا لم يعرف لشاعر قديم .

وجعلته قدرته على نقل المشاهد الحسية يَتَبَرَّع في وصف مجالس الأنس وما يجري فيها من خمر وسماع . وهو لا يتورط في المحجون والإثم تورط أبي نواس وأمثاله ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحتسى الخمر ، فقد كان شربها شائعاً في عصره ، ومَرَّت بنا في غير هذا الموضع الأبيات المشهورة التي يقول فيها إن أبا حنيفة أحلَّ النبيذ . ودعا الخمر في بعض شعره ريق الدنيا ، يقول :

فَتَي هجر الدنيا وحرَّم ريقها وهل ريقها إلا الرَّحيقُ المبرَّدُ
وقد أكثر من وصف مجالس السماع ، وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات ، وكانت أذنه مرهفة وشعوره حاداً ، فإذا لم يقع المغنى أو المغنية من أذنه موقعاً حسناً صبَّ عليهما شواظاً من هجائه ، على نحو ما مرَّ بنا في هجائه لشنظف ، ولعل أروع تصوير لمغنية محسنة تصويره لغناء وحيد ، وكانت فتنة صوتاً وحسناً ، وفيها يقول^(٢) :

تَغْنِيَّ كَأَنَّهَا لَا تُغْنِي	من سكون الأوصال وهي تجيد
لا تراها هناك تجحظ عَيْنُ	لك منها ولا يَدُرُّ وَرِيدُ ^(٣)
من هدوٍ وليس فيه انقطاع	وَسُجُوٌّ وما به تبليد ^(٤)
مَدَّ في شَأو صوتها نَفْسُ كا	فِ كَأَنفَاس عاشقيها مديد

(٣) يدر : يتنفخ ويتور . الوريد : عرق

في العنق .

(٤) الهدو : انخفاض الصوت . السجو :

مده . التبليد : التقطع .

(١) انظر في مناقشة هذه المسألة كتابنا

الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ٩٨

واشتهر بأكثاره من وصف ألوان الطعام والفاكهة ، وقد ذكرنا له في الفصل الماضي قطعاً مختلفة في وصف دجاج مشوى ومرققات وقطائف وعنب رازق ، وديوانه زاخر بأمثاله ، وهي أثر من آثار نهمة في الطعام ، وأيضاً من آثار براعته في وصف كل ما يشاهده ويقع عليه حسه ، وله قطعة معروفة في وصف الرقاق وأخرى في وصف قالى الزلابية يقول فيها ^(١) :

كَأَنَّمَا زَيْتُهُ الْمَقْلِيُّ حِينَ بَدَا كَالْكِيَمَاءِ الَّتِي قَالُوا وَلَمْ تَصْبِ
يُلْقَى الْعَجِينُ لُجَيْنًا مِنْ أَنَامِلِهِ فَيَسْتَحِيلُ شَبَابِيكًا مِنَ الذَّهَبِ ^(٢)

وهذا الجانب عنده جعله قريباً من ذوق العامة ، وأدنى إلى أن يصبح شاعراً شعبياً ، ومن تنمة هذه الشعبية فيه أن نراه يصف الحمّالين والشوّائين ، كما يصف الثياب البالية . وكان قد تعلق بوصف الطيلسان البالى - كما مرّ بنا - الشاعر المعروف باسم الحمدوني ، فنزع منزعه في هذا الجانب بمثل قوله ^(٣) :

مَعْمَرٌ قَالَ نُوحٌ حِينَ أَبْصَرَهُ إِنَّا مَحْيُوكٌ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلُلُ
أَمِيلْ فِي الطَّرْقِ خَوْفًا مِنْ مَزَاحِمِهِ تَهْدُهُ فَكَأَنِّي شَارِبٌ نَحْلٍ

وأكبر الظن أن هذا الجانب الشعبي هو الذى جعله يهتم بالزهاد والوعاظ ، وليس في حياته ما يوصله بالوعظ والزهد ، وقد ذكرنا له موعظة في الفصل الماضي ، وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب في وعظه وتصويره للزهاد . وحقاً أن ديوانه يجرى فيه تشاؤم واسع ، ولكن التشاؤم شئ والزهد شئ آخر ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل ، والتشاؤم - وخاصة عند ابن الرومى - نقمة على فقدان المتاع بالحياة ، وهي نقمة صُبّت على شاعر نابه امتاز بقلب ذكى وحس مرهف وشعور دقيق ، فضى في كثير من جوانب شعره بصور الحياة سوداء حالكة ، ويتخذها هى والناس وشروهم وطباعهم موضوعاً لفنه وشعره . وعلى نحو ما كانت لديه قدرة على وصف كل ما يقع عليه حسه بجميع جزئياته كانت لديه قدرة على النظرات الكلية الجامعة ، فإذا

(٣) انظر مقطوعات أخرى في الديوان
ص ٣١٨ .

(١) الديوان ص ٣٧١ .
(٢) اللجين : الفضة .

هو يضع لبعض الأخلاق النسيمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر^(١) والأكول^(٢) والثقل^(٣)، وبالمثل الأخلاق المحمودة كالصبر والتجملد، وقد مثلنا في الفصل الماضي لهما بقطعة من شعره .

وكان ابن الروي لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً . فكان طبيعياً أن يكون في أشعاره ما يهبط درجات عما حوله ، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يدنو إلى الآفاق الدنيا ، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروى عن تلميذه أبي عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويلة لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسودتها ؟ . فأجابه : هي هذه، فقال له الناجم : ما فيها حرف مصلح ، فقال : قد استوت بديهتي وفكرتي فما أعمل شيئاً فأكاد أصلحه . وليس معنى ذلك أنه يوجد في أشعاره غث كثير ، فقد تلافي ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة ، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة في أشعاره وخاصة الجناس ، وكانت له أذن موسيقية رائعة . وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبي ، لشعبية كانت متأصلة في ذات نفسه . والحق أنه كان شاعراً بارعاً ، بل لا شك في أنه أبرع شعراء العصر لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعاني والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجاباً متصلاً به وبأشعاره .

٤

ابن المعتز^(٤)

وُلد عبد الله لأبيه المعتز بسامراً قبل مقتل جده المتوكل في سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يوماً ، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صُرِع جده هذا المصروع الخطير ،

للصولي ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغاني

(طبعة دار الكتب المصرية) ٢٧٤/١٠

والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ٩٥/١٠

ومروج الذهب ٢٠٣/٤ والطبرى ١٠٠/١٤٠

ونزهة الألباء لابن الأثير وابن خلكان =

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) الديوان ص ١٧٥ .

(٣) الديوان ص ٧٣ .

(٤) انظر في ابن المعتز وحياته وشعره

كتاب الأرواق : أشعار أولاد الخلفاء

صرّعه جنده وقواده الأتراك الذين فسّحَ لهم في الحكم والسلطان والتسلط ، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عَهْداً ولا ذِمَّة . وسرعان ما يتوفّى ابنه المنتصر الذى خلفه ، ويصبح الخلفاء لعبة في أيديهم ، فيولّون المستعين ويخلعون ويقتلون ، ويولّون المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره ، وكان جميل الوجه ، وكأنما ورث جمال أمه الرومية التى سماها المتوكل قبيحة لحمال صورتها ، من أسماء الأضداد ، وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر ، مما أنطقه بالشعر المصنّفى . وكان يعكف على اللهو والصيد ، فجالسه لا تزال غاصة بشارية وعَرِيب وزُنَام وابن بنان وغير هؤلاء من المغنيات والمغنين ، ومواكبه لا تزال ذاهبة آيبة من الصيد . وفي مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابشتى نرى قصفه وشرابه وسماعه للغناء في قصره وفي بعض الأديرة ^(١) ، ونطلع على جانب من ترفه في قصره « الزوّ » و « الكامل » بسامراء ، وممرّ بنا وصف البحرى للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه ، ولعله نفس البستان الذى كان يزخر بالحيوانات ، والذى كان يتسلّى بالفرجة فيه هو وأصدقاؤه على السبع والفيل كيف يتواثبان ^(٢) .

وكانت أم عبد الله بدورها من الجوارى ، ولعلها كانت أيضاً رومية الأصل مثل جدته ، فقد كان جميل المحيّا ، وورث عن أبيه كل طباعه ، فهو مثله جميل السجايا رقيق المشاعر . وكان ذكى القلب صافى العقل ، فأضاف إلى ترفه الذى نشأ منغمساً فيه إقبالا متصلا على الدرس منذ نعومة أظفاره ، حتى ليلفت ذلك البحرى ، وهو لا يزال في التاسعة من عمره ، فيمدحه قائلا ^(٣) :

أبا العباسِ بَرَزْتَ على قَومِ لك آداباً وأخلاقاً وتبريزا
فأما حَلْبَةُ الشعر فتستولى على السبقِ بها قَرَضاً وتميزا

وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المشرقيين منه جزوين في إستانبول . وتوجد منه مخطوطة بـ رواية الصولى بدار الكتب المصرية .
(١) الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤ .
(٢) الديارات ص ١١١ .
(٣) ديوان البحرى ٢ / ١١١٩ .

= وفوات الوفيات ١ / ٢٤١ ومراة الجنان
لليافى ٢ / ٢٢٥ وشذرات الذهب ٢ / ٢٢١
والنجوم الزاهرة ٣ / ١٦٤ وفي مواضع مختلفة
وعبد الله بن المعتز العباسى لمحمد عبد العزيز
الكفراوى (طبع مكتبة نهضة مصر) بالقاهرة
وديوانه طبعة بيروت ، وهى التى ترجع إليها

وقد يكون في ذلك مبالغة على عادة الشعراء في المديح، لكن على كل حال في البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكبُّ على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ في نفسه في هذه السن الصغيرة . ويبدو أن أباه كان معجباً به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير . ويسجل ذلك البحترى في مدحة (١) طويلة له ، يصور فيها جمال طلعتة وشماله الكريمة ، ثم يقول :

وأهجننا ضَرْبُ الدنانير بِاسْمِهِ وتقليده من أمرنا ما تقلداً

وفي الشطر الثاني ما يصور إرهاب البحترى للمعتز بأن يوليَّ عبد الله العهد، ومضى يصرِّح بذلك ويطالب به ويهتف في وضوح . ونراه في قصيدة (٢) ثالثة يتشفع لعبد الله بأبيه كي يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام ، وفي ذلك يقول في قصيدة رابعة (٣) :

وَمُلِّيتَ عَبْدَ اللَّهِ إِنَّ سِمَاحَهُ هُوَ الْقَطْرُ فِي إِسْبَالِهِ وَأَخُو الْقَطْرِ
شَفَعْتُ إِلَيْهِ بِالْإِمَامِ وَإِنَّمَا تَشَفَّعْتُ بِالشَّمْسِ اقْتِضَاءً إِلَى الْبَدْرِ

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المحن للمعتز وابنه ، فإن جند الأتراك طالبوه في السنة الرابعة من خلافته برواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال ، فاعتذر ، ولم يقبلوا عذره ، وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفاً ، ولكنه لم يجدها ، فصمموا على خلعه ، وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس ، ثم جعلوه في بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه . وصادروا أموال أمه قبيحة كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، ونفروها إلى مكة ونفوا معها عبد الله ابنه وابني عميه قُصَيَّ بْنَ الْمُؤَيَّدِ وعبد العزيز بن المعتمد . وهما محتان قاسيتان أثرتا في نفس الصبي آثاراً بعيدة : محتته التي امتحن بها في أبيه الذي منحه الحياة والذي كان يغمره ببرّه وحنانه وعطفه ، ومحتته بالنفي وعذابه ونكاله وعنايه ، وما مرَّ به في أثناء ذلك من أمل ويأس ورجاء وقنوط ، مع ما صليَّ به من حزن عميق على أبيه ، مما ظل له أثر بعيد في نفسه ، وهو أثر يترأى بوضوح في أشعاره ، إذ يطل علينا

(٣) الديوان ١٠٠٧/٢ .

(١) الديوان ٦٧٠/٢ .

(٢) الديوان ١٣٠٩/٢ .

فيها دائماً الإحساس بآلام الحياة وما تكتظ به من كوارث وفواجع ، كبرها في نفسه وخياله ما كان ينعم به في صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حنَّت بها الدماء المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حنَّ بها النني والتشريد ، فإذا النعم يصبح جحيماً ، وينقضي عهده إلى غير مآب ، وفي ذلك يقول ابن المعتز باكيةً صباه بدموع غزار (١) :

لَهَّقَى عَلَى دَهْرِ الصَّبَا الْقَصِيرِ وَغُصِّنَهُ ذِي الْوَرَقِ النَّضِيرِ
وَسُكَّرُوهُ وَذَنَّبَهُ الْمَغْفُورِ وَمَرَحَ الْقُلُوبِ فِي الصُّدُورِ
وَطَوَّلَ حَبْلَ الْأَمَلِ الْمَجْرُورِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَافِلٍ غَرِيرِ

وذار عام وتولَّى المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل في طلبه وطلب جدته وابني عمه وردَّهم إلى سامراء ، وكانت شئون القصر أخذت تستقيم ، فلم يعد للترك تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء ، إذ جعل المعتمد الأمر والنهي والسلطان لأخيه الموفق طلحة ، وكان من أحزم بني العباس وأشجعهم وأنبغهم في إدارة السياسة والحرب وهو الذي قضى على ثورة الزنج وثورة الصفاريين كما أسلفنا في غير هذا الموضع . فاطمأن الغلام المروَّع وأخذت جدته قبيحة تُعَسِّنِي بترتيته ، وأحضرت له المعلمين في الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزي الإخباريين ، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء ، ويبدو أنه كان يلقى المبرد وثلعباً في أثناء زيارتهما لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦ . وفي المختار من شعر بشار أن ثلعباً كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتاً ، فكتب إليه من قصيدة طريفة (٢) :

يَا فَاتِحاً لِكُلِّ عِلْمٍ مُغْلَقٍ وَصَيْرَافِئاً عَالِماً بِالْمُنْطَقِ
إِنَّا عَلَى الْبُعَادِ وَالتَّفَرُّقِ لَنَلْتَقِي بِالذِّكْرِ إِن لَّمْ نَلْتَقِ

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم (٣) . وأهم معلميه أحمد بن سعيد الدمشقي المحدث الإخباري ، ويروى أن البلاذري المؤرخ سعى عند جدته كنى يصبح من معلميه ومؤدبيه ، فغضب ابن سعيد ولزم بيته ، وكانت سن ابن المعتز

(١) ديوان الماعاني ١٥٣/٢ .
التأليف والترجمة والنشر) ص ٥٤ .

(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة .
(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة .

حينئذ ثلاثة عشر عاماً ، وعلم بغضب أستاذه فكتب إليه أبياتاً يترضاه بها ، وهي تصور ثقافته تصويراً دقيقاً ، إذ يخاطبه بقوله ^(١) :

أصبحت يابن سعيد حُزتَ مكرمةً عنها يقصّر من يخفى وَيَنْتَعِلُ
سَرُّ بَلْتَنِي حكمةً قد هذبتُ شيمى وأججتُ غَرْبَ ذهني فهو مُشْتَعِلُ
أكون إن شئتُ قَساً في خطابه أو حارثاً وهو يوم الفخر مُرْتَجِلُ
وإن أشأُ فكرَيْدٍ في فرائضه أو مثل نعمانَ ما ضاقتُ بِى الحِيلُ
أو الخليل عروضيّاً أخا فِطْنٍ أو الكسائى نحوياً له عِلُّ
عُقبك شكرٌ طويلٌ لا نفاذَ له تَبَقَى مَعَالِمُهُ ما أَطَّتِ الإِبلُ ^(٢)

وهو يقول إن ابن سعيد خرّجه خطيباً فصيحاً لا يقل عن قُـسٍّ في خطابه التى اشتهر بها بين الجاهليين ، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلى الحارث بن حنظل فى شعره وبداهته ، ولا عن زيد بن ثابت فى عمله بالميراث ، ولا عن أبى حنيفة فى علمه بالفقه ، ولا عن الخليل بن أحمد فى علمه بالعروض ، ولا عن الكسائى فى النحو واستنباط علله . وهذه هى مواد ثقافته فى سن الثالثة عشرة ، ولم يذكر بينها فلسفة ولا منطقاً ، غير أنه ينبغى أن نحذر التعميم فى الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه فى تلك السن المبكرة ، ومن الطبيعى — وكان نهما بالقراءة — أن يكون قد اطلع على شىء من الفلسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، فى أشعاره إشارات لهما ^(٣) ، وإن كنا نظن ظناً أنه لم يلمّ بذلك فى مطالع حياته . ولعل من الطريف أن نجده يقول ^(٤) :

ولا تفزعن من كل شىء مفزعٍ فما كل تربيع النجوم بضائرٍ

وكأنه كان يتشكك فى حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوابع السعد والنحس . ومضى بمنح أوقاته للشعر والأدب ، وكأنما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان ، فقد بلا منهما فى جده المتوكل وأبيه المعتزما جعله يقرر فى حزم

(١) السابعة (٢٦٣ ص .

(٤) الديوان ص ٢٤٩ .

(١) معجم الأدباء ١ / ١٣٣ .

(٢) أطت : أدت تبعاً أو حنيئاً .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة

الفراغ للحياة الأدبية ، وأنفق في ذلك أعواماً كثيرة . وكان يقرأ كتابات سابقيه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محللاً، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنّف كتابه « البديع » محاولاً أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعاً علمياً دقيقاً، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة في الأدب العربي وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار ، أما بعد ذلك فهي منشورة في القرآن الكريم والحديث النبوي وأشعار الجاهليين والإسلاميين . وألف كتباً أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب فصول التأميل في الشراب وآدابه ، وكتاب السرقات ، وكتاب « طبقات الشعراء المحدثين » ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر العباسي الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقاً مهذباً صافياً . وكان يُعنى منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى ، وفي ذلك يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها ، وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه^(١) » . ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز ، ومنها نعرف أنه كان يميل في الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم ، ثم يورد أبو الفرج من صنعتة بعض أصوات أو أدوار تدل في وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دَوْرَ المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه لإنتاجاً ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده ، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغنونه فيما يصنع من الشعر . ومن الجوارى اللاتي كن يكنن من الاختلاف إليه والغناء في شعره زرياب وبنت الكُرَاعَة وخزاعي ، على نحو ما يحدثنا عنهن أبو الفرج في ترجمته .

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة^(٢)، وكأنه ورث عن أبيه كل مزاجه ، أو قل هي حياة القصور المترفة التي تدفع من يعيشها إلى اللهو ، مما جعله يفتح بيته للندماء في بعض الأيام وبعض الليالي يسمعون ويشربون، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النميري ، وبينهما مراسلات شعرية طريفة ، وعلى بن مهدي

الأصهباني الكسروى وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاولات^(١) وجَحَظَة وهو الذى أعطاه لقبه الذى اشتهر به . وكان شغوفاً مثل أبيه بالصيد ، وسنعرض لبعض أشعاره فيه . وينبغى أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن هواً خالصاً ، فقد كان يختلف إليه نابهن كثير من علماء اللغة والأدب وفى مقدمتهم المبرد وشعالب أستاذاه وصديقه ، ويقول الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق : « كانت داره مَعَانًا لأهل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة » .

ومرَّ بنا أن أباه وهبه إقطاعاً كبيراً بالشام ، ولا بد أن يكون قد وهبه إقطاعاً أو إقطاعات أخرى فى العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش فى إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة . وإن كان القائد التركى صالح ابن وصيف صادر أموالها ، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتى توفيت سنة ٢٦٤ . ولا بد أنه كان ينال راتباً كثيراً أو قليلاً من الدولة لعهد عمه المعتمد الذى امتد حتى سنة ٢٧٩ ، ويروى الصولى قصيدتين له مدحه بهما ، وفى إحداهما يقول^(٢) :

أهلاً وسهلاً بالإمام ومرحباً لو أستطيع إلى اللقاء سبيلاً

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن ردَّ الموفق أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموفق الظنون وعزم على اللحاق بمصر . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفاً من غضب أخيه وبطشه . وفى أخبار ابن المعتز أنه كان يروى أشعار عمه المعتمد ، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه ، وكان عاكفاً على الملاذ والملاهى ، فكان طبيعياً أن يتصل الود بين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخبارياً ظريفاً . ونراه يسوق إلى عمه الموفق الذى أبلى بلاء عظيماً فى محاربة الزنج والقضاء على أصحابهم قضاء مبرماً غير مدحة ، ويبدو أنه

الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .

(١) معجم الشعراء ص ١٤٩ .

(٢) الديوان ص ٣٧٦ وفى أشعار أولاد

أكثر حينئذ من تهانيه بظفره . من مثل قوله ^(١) :

ولما طغى أمر الدعي رميته بعزم يرد السيف وهو كليل
وأعلمته كيف التصافح بالقنا وكيف تروى البيض وهي مُحول ^(٢)

ويتوفى الموفق في سنة ٢٧٨ ويخلفه ابنه المعتضد وكان لا يقل شجاعة وحزمًا عنه وكان عونته وظهيره في حرب الزنج ، ويسلم عمه المعتضد مقاليد الأمور إليه ، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد ، وكان مهيبًا شديد الوطأة ، فخافه قواد الترك ، وظلوا كما كانوا في عهد أبيه خانعين . وتتحول الخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة ، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من مثل قوله ^(٣) :

لعمري لئن أمسى الإمام ببلدة وأنت بأخرى شائق القلب نازع
وما أنا في الدنيا بشيء أناله سوى أن أرى وجه الخليفة قانع

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد ، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء ، ويكثر المبرد من الاختلاف إليه فيها ، وتروى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات في الشعر والشعراء ^(٤) . ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء ، وتقبل الدنيا عليه ، وتعتقد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه ، ويهتته باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلاً ^(٥) :

فرحت بما أضعافه دون قدركم وقلت عسى قد هب من نومه الدهر
فترجع فينا دولة طاهرة كما بدأت والأمر من بعده الأمر

وتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتضد ، وهو يكثر من مدحه وشكره

الخلفاء ص ١٢٨ .

(٤) أخبار البحري للصولي ص ١٦٤ .

(٥) أغاني ١٠ / ٢٨٦

(١) زهر الآداب للحصري ٣ / ١٩٣

وفي أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها في المعتضد .

(٢) البيض : السيوف - محول : مجدية .

(٣) الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد

على ما يصله به من أعطيات الدولة ، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذى وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة ، وفى ذلك يقول منوهاً بتلك الأسرة^(١) :

لآل سليمان بن وهبٍ صنائعُ إلىٍّ ومعروفٍ لدىٍّ مُقدِّمًا
همُ علِّموا الأيام كيف تبرئنى وهم غسلوا عن ثوبٍ والذى الدِّما

ويتوفى المعتضد سنة ٢٨٩ ، وكان ابنه المكتفى غائباً ، ويضطر رئيس الحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتفى ، وتمضى بسلام ، ويسلك فيهم ابن المعتز ، ونراه يجار إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطرابى وسرعان ما يرُدُّ إليه القاسم حريته ، كما يرد إليه أعطياته ويولى له العطاء ، فيكثر ابن المعتز من مدحه ، معترفاً له بصنيعه من مثل قوله^(٢) :

أصلح بنى وبين دهرى وقام بنى وبين حَتْفِي

ولا يلبث القاسم أن يلبي نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتفى يفسح لابن المعتز فى مجالسه ، وابن المعتز يكثر من مدائحه ، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زَكْرَوَيْهَ القرمطى المعروف بصاحب الشامه ، ويناديه ويحضر مجالس سماعه وشرابه .

ويتوفى المكتفى لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقتدر وسنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ، فيكثر اللفظ حوله ويتكلم الناس فى شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحلم ، كما يقول كثيرون ينبغى خلعه . وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافق شهر ربيع الأول حتى يزداد اللفظ والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا فى غير هذا الموضع ولقصوره الواضح عن تدبيره شئون الخلافة . وفى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة واتفقت على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز وبايعته فى اليوم التالى^(٣) ، وكان الرأس المدبر لذلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب ،

(١) مروج الذهب ص ٢٠٤ .

(٢) الديوان ص ٣١٩ .

(٣) انظر فى بيعة ابن المعتز ومقتله

وقلده ابن المعتز الوزارة وتكلم في المقتدر قائلا: إنه لم يبلغ الحلم وإنه لا تصح للناس صلاة معه ولا حج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح للباطل أن يفتضح . ولم يكد يمر يوم على هذه البيعة حتى هب مؤنس الخادم في جند كثيرين فنقضها وجدد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد في الأعطية . ولم يبق مع ابن المعتز أحد فهرب إلى دار ابن الجصاص تاجر الجواهر المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله ، وبذلك لم تم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة ، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب . وما كان أحراره أن يتبعد عنها ، متعظاً بما أصاب أباه منها ، ولكن النفس أمارة بالسوء .

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التي كونت شخصية ابن المعتز الأدبية ، فهو عربي عباسي يعتز بعروبته وأسرته ، وُلد في القصر العباسي وفي كل ما انبث فيه من لتهو وطرب ، على نحو ما هو معروف عن آبائه : الرشيد والمتوكل والمعتز ، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتيج لهم الفراغ ، وقد يكون في ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادي للأشياء ، أو قل على وصفها وصفاً مادياً ، إذ كان هذا الوصف هو الذي يلائم مزاجه المترف ، كما كان يلائم عقله الذي يعيش في النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسي المكشوف ، وقد يمتأناً أشار ابن الرومي إلى تأثير بيئته المترفة في شعره ، وإن كانت إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقي بما قدمنا ، فقد سأله شخص : لِمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدني شيئاً من شعره أعجز عن مثله ، فأنشده وصف ابن المعتز للهِلال :

انظُرْ إليه كزُورِقٍ من فِضَّةٍ قد أثقلتُه حمولةٌ من عَنَبَرٍ
فقال ابن الرومي له : زدني ، فأنشده :

كَأَنَّ أَذْرِيُونَهَا والشمسُ فيه كَالِيَهْ (١)
مداهنٌ من ذهب فيها بقايا غَالِيَهْ (٢)

وصاح ابن الرومي : واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما

(١) الأذريون : زهر أصفر في وسطه
(٢) الغالية : المسك ، وهو أسود .
حل أسود .

يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف في الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرةً وأهجو هذا كرامةً . وأعاتب هذا تارةً وأستعطف هذا طوراً^(١) . وابن الرومي يلاحظ التأثير المادى المترف للبيئة على ابن المعتز . وعنصر آخر اشترك في تكوين شخصيته الأدبية بقوة ، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية ، وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين ، حتى إذا انقسمت بيئات النقاد في عصره إلى مجددين مسرفين في التأثير بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها في الشعر العربي من جماعة المترجمين ومن التفت حولهم ، ومحافظين مسرفين في رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الخالصة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحتري من الشعراء ، ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية في المقاييس الأجنبية من أمثال أبي تمام وابن الرومي وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبه وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية في نفسه ، ويصرح بذلك في كتابه البديع الذى أنشأه ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثاً في حقيقته ، بل هو يستمد من أصول قديمة في الشعر الجاهلى والإسلامى والقرآن الكريم والحديث النبوى . وخصَّ أباً تمام برسالة احتفظ بها في ترجمته كتاب الموشح للمرزبانى ، وهى تحمل كل الأسس التى كسَّو منها الآمدى حملته على أبى تمام . ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرهف وحسه الرقيق كان ينحونحو المحافظين في فهم الشعر ونقده ونظمه . وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسى ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده ؛ إذ سخرها كما يتضح في كتابه « البديع » لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشيء ذى بال ، وأن كنوز الشعر العربى القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليشتق منها العباسيون كل بارع طريف .

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسياً أثر فيه وفي شخصيته وشعره آثاراً عميقة ، ونقصاً به مقتل أبيه وجدته من قبله ، مما آذى نفسه إيذاء شديداً ، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب ، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ،

إذ يجلل شعره أسمى عميق ، وحقاً كان يُكَبِّ كَثِيراً على اللهو يُغْرِق فيه أحزانه ، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحي من نفسه ، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته ، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عمومته وأبناءهم خوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته .

وتلك هي مكونات شخصيته ، بيئة مترفة ينغمس مَنْ فيها في ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة ، وثقافة عربية إسلامية محافظة ، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلمّ به مبكراً ، وتلهّم من حوله الخطوب ، فيفكر في الحياة والموت وما في الدنيا من بؤس وآلام ، وكأنما كُتِب عليه ألا يشرب كثوس الترف واللهو صافية ، فدانماً أو قل كثيراً ما تبرز بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونُكْر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم ، وابن المعز مع ذلك كله غَزَلَ ظريف حلو الدعابة جميل المحضر يألفه كثير من الأدباء .

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحترى ، فقد رُوِيَ عنه أنه قال : كان مما حَسِبَ الشعر إلىّ أنى سمعت البحترى يُنشد الماضى (يريد أباه المعتر) شعراً تشوّقه الناس واستحسنوه ووصفوه ، تصرّف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر ، وعدّد أصناف ما أخذ ، وطلب خاتمَ ياقوت ، وهو عندى من أحسن شعره ، وهو :

بودى لو يَهْوَى العَدُولُ وَيَعْشَقُ فيعلم أسباب الهوى كيف تَعْلَقُ^(١)

والبحترى يستهل القصيدة بغزل مليء بالشوق إلى علوة صاحبه الحلبية ، ويصف طيفها الذى أَلَمَّ به فى حلمه ولطفته على لقائهما ، وعناقها وصبايته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خدودهما حين يلتقيان ، حتى يقول :

فلو فهم الناس الدَّلَاقى وَحُسْنَهُ لَحُبِّبَ من أَجَلِ التَّلَاقى التَّفَرُّقُ

ويُفَضِّض فى مديح المعتر وما أضفى عليه من عطايا ، ويستوهبه فى رقة ولطف خاتماً . ويلفتنا إعجاب ابن المعتر بهذه القصيدة التى أنشدها البحترى أباه وسنه

لا تتجاوز التاسعة ، وتذوقه لها في هذه السن الباكورة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر ، حتى تكون له ذوق يستطيع به أن يفقه ما في الشعر من جمال . ومراً بنا وصف البحترى له في حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد في الثامنة أو التاسعة من حياته .

ولم يكن البحترى وحده أستاذه في مطالع حياته ، فأهم منه أبوه المعتر إذ كان شاعراً بارعاً ، ولو قدّر له أن تمتد حياته لشغل التقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه ، وكان ينفق كثيراً من أوقاته في اللهو والمجون والصيد ، وينظم في ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المعنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم ، وكل ذلك ورثه ابن المعتر عن أبيه . وبذلك كان له في أوائل حياته أستاذان : أستاذ من بيته هو أبوه الذي كان يدرّبه على نظم الشعر ، وأستاذ من غير بيته هو البحترى .

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع في متانته وجزالته إلى مرتبة صياغة البحترى ، حقاً كثيراً ما يرتفع ، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة ، مما جعل كثيرين في عصره وبعده يميلون عليه ، وتصدى لهم أبو الفرج ملوحاً في وجوههم بقوله : « شعره إن كان فيه رقّة الملوكة وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفاً لمصباح في مجلس شكّل ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من النور والبسّفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السبّط (السهل) الرقيق الذي يفهمه كل من حضر إلى جعّد الكلام ووحشيته وإلى وصف البئد والمهامه والظببى والظلم والناقة والحمل والديار والفقار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ، ولا أن يُغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسّط في البعض وقصّر في اليسير ويُنسب إلى التقصير في الجميع لنشر المقابح وطى المحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كل أحد بمن تقدّم لوجد مسامحاً^(١) . وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتر ، ووضعه في مكانه الصحيح ، فهو في أكثر شعره محسن ، وهو في بعضه متوسط الإجابة ، وفي اليسير

منه مقصّر ، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان في أثناء سمره أو في أثناء سماعه للغناء وشربه . على أنه لا بد أن نشير إلى مهارته في الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الآذان الدقيقة التي تزن جرس الكلام ، ولذلك كنا نحس عنده دائماً بأنه لا يهمل الأسماع في شعره ، إذ كان يحاول أن يلدّها بأنغامه وألحانه . وظاهرة ثانية في أشعاره هي عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهي ظاهرة طبيعية ، إذ كتب في هذه الفنون كتابه « البديع » ونوّه بها ، غير أنه لم يفرط في الجناس والطباق إقراطاً بعيداً ، وقد عاب أباتام بذلك في كتابه ، لأنه يخرج فيه على طريقة القدماء . والمحافظون من أمثاله وأمثال البحرى كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء ، فلم يكونوا يُسرفون فيه مثل أبي تمام ومسلم ابن الوليد .

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده ، لتتضح لنا شاعريته ، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح ، ومرّ بنا أنه مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر ، ونحس ببهجة حقيقية وشاعر صادقة في مديحه لابن عمه المعتضد ، أما مديحه في غيره ففاتر ، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلا مغوراً واستطاع — كما استطاع أبوه الموفق — أن يخضد شوكة الترك ، بل أن يقلم أظفارهم ، وكأنما كان يشقى غليل ابن المعز وضعفه القديم عليهم ، إذ هم قتلة أبيه وسافكو دمه ، وليس ذلك فحسب هو الذي جعل المعتضد يقرب من نفسه ، فقد اتخذه نديماً وجليساً وتوالت عطاياه عليه ، فكان إذا مدحه انبعث في مديحه عن عاطفة صادقة حارة ، وربما كانت خير مدائحه فيه رائيته التي يستهلّها بقوله (١) :

سلمتَ - أمير المؤمنين - على الدَّهرِ ولا زلتَ فينا باقياً واسعَ العُمُرِ
حللت الثريّا خير دارٍ ومنزلٍ فلا زال معموراً وبورك من قَصْرِ
فليس له فيما بنى الناسُ مثبّهً ولا ما بناه الجِنُّ في سالف الدَّهرِ
والثريا مجموعة من الدور والقصور بناها المعتضد ، ويقال — كما مر بنا في غير

هذا الموضع - إنه أنفق عليها أربعمئة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، ومن حولها البساتين والرياض ، وقد صورها ابن المعتز تصويراً رائعاً ، إذ يقول في نفس القصيدة :

وَأَنهَارُ ماءٍ كالسلاسلِ فُجِّرَتْ لَتُرْضِعَ أَوْلَادَ الرِّياحِينِ والزَّهْرِ
جَنَانُ وَأَشْجَارُ تَلَاقَتْ غَصُونُهَا فَأَوْرَقْنَ بِالْأَغْمَارِ والورقِ الخُضْرِ
تَرَى الطَّيْرَ فِي أَغْصَانِهِنَّ هَوَاتِفًا تَنْقُلُ مِنْ وَكْرٍ لَهْنًا إِلَى وَكْرٍ

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراسته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذي يجرُّ إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحش أو ذبيحاً من البشر ، والذي ما يزال يُفزع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويتقضمه قضمًا . وكان المعتضد حقاً شجاعاً شجاعة خارقة ، ويصور ابن المعتز ما بسط في البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد يمثل قوله في القصيدة :

حَكَمْتَ بَعْدَ لِمَ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ وداوَيْتَ بِالرَّفْقِ الْجُمُوحَ وبالقهرِ

وليس في أشعاره مديح أو تهنئات لولاء أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا ، وخير مدائحه فيهم جميعاً ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وهو على كل حال لا يبالغ في إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم ، إنما هي أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله ^(١) :

أَيَا مَوْصِلَ النُّعْمَى عَلَى كُلِّ حَالَةٍ إِلَى . قَرِيبًا كُنْتَ أَوْ نَازِحَ الدَّارِ
كَمَا يَلْحَقُ الْغَيْثُ الْبِلَادَ بِسَبِيلِهِ وَإِنْ جَادَ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا بِأَمْطَارِ
لَقَدْ عَمَرَ اللَّهُ الْوِزَارَةَ بِاسْمِهِ وَرَدَّ إِلَيْهَا أَهْلَهَا بَعْدَ إِقْفَارِ
وَكَانَتْ زَمَانًا لَا يَقِرُّ قَرَارُهَا فَلَاقَتْ نَصَابًا ثَابِتًا غَيْرَ خَوَارِ

وفى ديوانه وبين أشعاره مرثاة قليلة وأهمها ما نظمها في ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزناً شديداً ، إذ أحسَّ كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه ، كما أحسَّ أن أيام أنسه عادت ظلاماً ، فقد طوت المنية صديقه الحميم ، وطار قلبه فزعاً ، واسودَّت الدنيا من حوله ، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله في حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس له شديد ، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقاً^(١) :

يا ساكنَ القبر في غبراءٍ مظلمةٍ بالطاهريةِ مُقَصِّى الدارِ منفرداً^(٢)
 أين الجيوش التي قد كنت تَسحَّبُها أين الكنوز التي لم تُحصِها عَدَدَا
 أين السرير الذي قد كنت تملؤه مهابةً ، مَنْ رَأَتْهُ عَيْنُهُ ارتَعَدَا
 أين الرِّماح التي غَدَّيْتَهَا مُهْجَاً مُذِ مِتَّ ما وردتُ قلباً ولا كبدا
 ويتحسر على قصره الثريا ووصائفه وملاهيهِ ، وكأنما أصبح طلالاً مهجوراً ، ولا أثر ولا عين ، كأنما لم يكن به المعتضد يوماً . ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب ، ولكنه لا ينظم فيه قصائد إنما ينظم أبياتاً قليلة يبكى فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية في الحكم والتدبير من مثل قوله^(٣) :

هذا أبو القاسم في نَعَشِهِ قوموا انظروا كيف تسير الجبال
 يا ناصر الملك بآرائِهِ بعدك للملك ليالٍ طَوَّالٍ
 وطبيعي ألا نجد عند ابن المعتز هجاءً ، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذي يستحيل في أيدي الشعراء سهاماً يسدونها إلى خصومهم ، ولم يكن له خصوم ، ولا كان يكنى لأحد خصومة إلا ما قد يقوله تندُّراً ودعابة من مثل قوله لعلى بن بسام هجاءً عصره^(٤) :

يا قَدَى في العيون يا حرقاً به نَ التراقى حَزَازَةً في الفؤادِ
 يا طلوع العذول ما بين إلفٍ يا غريباً وافى على ميعادِ

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(٤) ذيل زهر الآداب ص ١٨١ .

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .

(٢) الطاهرية : الدار التي دفن بها المعتضد

غربي بغداد .

يا ركوداً في يوم غيمٍ وصيفٍ يا وجوه التجار يومَ الكسادِ
خَلَّ عَنَا فَإِنَّمَا أَنْتَ فِينَا واو عمرو أو كالحديث المعاد

ويُكثر ابن المعتز في شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه في الحروب وفروسيته ، وهو يحاكي في ذلك القدماء في حماساتهم ، فهو فخر مصطنع متكلف في جمهوره ، ويفخر طويلاً بأسرته ويجلده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وبلائه في موقعة حنين ، وبشجاعة آبائه وعمومته وبلاغتهم ، وفي ذلك يقول (١) :

إِنَّا لَنَنْتَابُ الْعُدَاةَ وَإِن نَأَوَا وَنَهْزُ أَحْشَاءَ الْبِلَادِ جُمُوعَا
ونقول فوق أَسْرَةٍ وَمَنَابِرٍ عَجَباً مِنَ الْقَوْلِ الْمَصِيبِ بَدِيعَا
قَوْمٌ إِذَا غَضِبُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ جَرُّوا الْحَدِيدَ أَرْجَةً وَدُرُوعَا
وَكَاَنَّ أَيْدِينَا تَنْفَرُ عَنْهُمْ طَيْرًا عَلَى الْأَبْدَانِ كَنَّ وَقُوعَا

والصورة الأخيرة بديعة ، فهو يتصور رموس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيوف مزايلاً لمكانه من أبدانهم . ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة ، وهي شكوى مردّها إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ أملت به محنته في مقتل أبيه ، على نحو ما مرّ بنا آنفاً ، فقد خلّفت هذه المحنة في نفسه ضيقاً شديداً ولعل ذلك ما جعله يشكو من إخوانه أحياناً .

وكان كثيراً ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين ، مبيناً أن بيته أحق بالخلافة من بيتهم ، وقد ظلت ثوراتهم مشتعلة لا تخمد طوال عصره ، مما جعله يكثر من وعيدهم وتهديدهم ، مذكراً لهم بأن بيته هو الذي استطاع أن يثأر لهم من الأمويين قتلة الحسين وزيد حفيده (٢) ، ويحاول في مقطوعات وقصائد مختلفة أن يستلّ البغض والإحسان من نفوسهم على شاكلة قواه (٣) :

بَنِي عَمَّنَا عُودُوا نَعُدْ لِمُودَةٍ فَإِنَّا إِلَى الْحُسْنَى سِرَاعُ التَّعْطُفِ
لَقَدْ بَلَغَ الشَّيْطَانُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ مَبَالِغَهُ مِنْ قَبْلُ فِي آلِ يُوسُفَ

(٢) الديوان ص ٥٠ .
(٣) الديوان ص ٣٢٧ .

(١) الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٦٥ .

فهم في رأيه بيت واحد وإخوة وينبغي أن يتحابوا لا أن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبينه ، حتى باعوه لسيارة بثمان بسخس دراهم معدودة . ويبدو أن بعض معاصريه لامة على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبي طالب ، فنظم قصيدة طويلة في مدحج والثناء عليه ، يقول في مطالعها^(١) :

أَأَكَلْ لَحْمِي وَأَخْسُو دَنِي فَيَا قَوْمَ لِلْعَجَبِ الْأَعْجَبُ^(٢)
عَلَى يَظُنُّونَ بِي بُغْضُهُ فَهَلَّا سَوَى الْكُفْرِ ظَنُّهُ بِي

ومضى يقول إن الذى يُشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادة الدين باسم التشيع لعل وهو منهم برىء وفضله لا ينكره أحد ، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوته للرسول عليه السلام ونفوذ بصيرته فى الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول ، وسَمَّاهُ بحر العلوم ، وذكر مواقف العظيمة ، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة ، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره . ولا بد أن تفصل بين شعر ابن المعتز الموجه إلى العلويين ، والآخـر الموجه إلى القرامطة والروافض ، فهو فى الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما فى الثانى فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة ، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة .

وتلقانا فى ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة ، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقى كان يكتبون بناره ، فهى مقطوعات وقد تكون استهلاالات لقصائد ، لا تصدر عن وجد شديد ، وإنما تصدر غالباً عن ود ، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ، ولذلك كنا نفقد عنده الإلحاح فى الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار ، وكل ما نجد إنما هو حب الشباب المترف الذى لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هى أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الجوارى أمثال نشر وشيرة على سبيل الدعابة من مثل قوله^(٣) :

(٣) الديوان ص ٥٢ وأشعاره أولاد الخلفاء

ص ٢٢١ والأغاني ١٠ - ٢٧٨ .

(١) الديوان ص ٦٧ .

(٢) أحسو: أشرب .

وابلأني من محضر ومغيب وحبيب منى بعيد قريب
لم تَرِدْ ماءً وَجْهه العينُ إلا شَرِقتُ قبل رِيْها برقيب
وقوله (١):

زاحم كُمي كُمهُ فالتَويا وافق قلبي قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكثويا يا قُرَّةَ العين وياهمي ويا

وهي أبيات لا تصور عذاباً في الحب ولا ألماً من ناره المحرقة، إنما هي أقرب ما تكون إلى الدعابة، وختم البيت الرابع بقوله: «ويا» كما يقول الناس: يا أختي ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح. وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سَمَّاه المتأخرون باسم الاكتفاء. وقرأ في ابن المعتز فلأنك لن تقف على حب لاهب، إنما تقف على دعابات وصوروفن من مثل قوله (٢):

تقول العاذلات تعزُّ عنها واطفِ لهيبَ قلبك بالسُّلُو
وكيف وقُبْلَةُ منها اختلاسا أَلْدُ من الشَّيْثَةِ بالعدو

وقوله (٣):

إذا اجتني وَرْدَةً من خَدِّها فمهُ تَكُونُتْ تحتها أخرى من الخَمَجِلِ

وكان — كما أسلفنا — يُنْفَق على شاكلة أبناء القصور — كثيراً من أوقاته في اللهو والخمر، وديوانه طافح بكنوسها ودنانها وسُقَاتها وأديرتها، فهو لا يشربها في بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب، بل يشربها أيضاً في أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون، وهو يصرح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول (٤):

وليس للهَمُّ إلا شُرْبُ صافية كأنها دَمْعَةٌ من عين مهجور

(٣) مروج الذهب ٤ / ٢٠٥.

(٤) الديوان ص ٢٣٠.

(١) الأغاني ١٠ / ٢٧٩.

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٣.

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه ، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها ،
وليتسلى ويتعزى عن مقتل أبيه الذى لم ينسه يوما ، ومثله فى الخمر مثله فى الحب ،
فهو لا يتعبدها كما كان يتعبد أبو نواس ولا يسبح باللائها مقدما إليها
قرايبته من الشعر ، إنما هو يتسلى بها ويتسلى بما ينظمه فيها بمثل قوله فى مديح
الصباح (١) :

اسْقِنِي الرَّاحَ فِي شَبَابِ النَّهَارِ وَأَنْفِ هَمِّي بِالْخَنْدَرِيسِ الْعُقَارِ (٢)
قَدْ تَوَلَّتْ زُهْرُ النُّجُومِ وَقَدْ بَشَّ رَ الصُّبْحِ طَائِرُ الْأَسْحَارِ
مَا نَرَى نِعْمَةَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ضِ شُكْرِ الرِّيَاضِ لِلْأَمْطَارِ
وَعِنَاءِ الطُّيُورِ كُلِّ صَبَاحٍ وَانْفِتَاقِ الْأَشْجَارِ بِالْأَنْوَارِ
فَكَأَنَّ الرَّبِيعَ يَجْلُو عَرُوساً وَكَأَنَّ مِنْ قَطْرِهِ فِي نِشَارِ (٣)

وهي أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحاً فى
الربيع ، ولكنها لا تصور حباً ولا نهالكاً على الخمر ، ولا عاطفة جاعة أو متقدة ،
إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويظهر مقدرته على النظم فى الخمر ،
ولذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المدح للصباح ويضع قصيدة بل قل
مزدوجة (٤) فى ذمه امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتاً وفيها يقول :

فَأَيُّ فَضْلٍ لِلصُّبُوحِ يُعْرَفُ عَلَى الْغُبُوقِ وَالظَّلَامِ مُسْدِفُ (٥)

ويطيل فى الأسباب التى من أجلها يذمه ذمماً قبيحاً ، كأن يعرض المصطبحين
للبرد القارص شتاء والحر اللافح صيفاً . وقد يكون مصدر هذا الذم شيوع المناظرات
لخصره وبيان محاسن الشئ ومساوئه ، كما مر بنا عند ابن الروى فى ذمه للورد ، ولكن
من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور فى ذلك عاطفة ، وإنما صور عبثاً عقلياً ، وقد

(١) الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء

(٤) الديوان ص ٤٧٣ وأشعار أولاد الخلفاء

ص ١٩٠ .

ص ٢٥١ .

(٢) الخندريس العقار : الخمر .

(٥) مسدف : مرخى الستور .

(٣) النشار : ما ينثر على العروس من

يكون أهم من هذا العبث وصفه للبستان في مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وياسمينٌ في ذُرَى الأَغْصَانِ منتظمٌ كقطعِ العِقبَانِ
والسَّروُ مثل قُضْبِ الزُّبرجِدِ قد استمدَّ العيش من تُرْبِ نَدَى
على رياضٍ وثرَى وثرَى وَجَدُولٍ كالمِبرِدِ الجَلَى
وجُلُنَارٌ كاحمرارِ الخدِّ أو مثل أعرافِ ديوكِ الهندِ

ويستمر في رصف مثل هذه التشبيهات والصور ، وكانت لديه مهارة خارقة في اجتلابها ، والملاءمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الرومي آنفاً . وقد لا يستمدّها من ماعون بيته ، ولكن نحس كأنما عقله كان كثرّاً زاخراً بالتشبيهات والصور . وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهي تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده ، فتارة يشبه الظلام بحبشي أسود والصباح يفتّر عن أسنانه ضاحكاً من فراره ، أو يشبهه بغراب قوادهم بيضاء أو مقصوص الجناح ، أو بأسود عريان يمشي في الدجى بسراج ، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر ، ومن بديع تشبيهاته له تصويره بقوله^(١) :

كمنجَلٍ قد صِيغَ من فضّةٍ يَخْصُدُ من زهر الدُّجَى نَرَجِسَا

وتكثر في الديوان مثل هذه التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة ، ولم يقف عند الطبيعة المنحصرة وحدها فقد كان يلم بالطبيعة الصحراوية . ولعل أبا الفرج الأصبهاني لم يرد في دفاعه عنه الذي مرّ بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره في الأطلال والبيد وحيواناتها ، إنما أراد الإكثار من النظم في الصحراء إذ له أشعار مختلفة في وصفها ، وقد مرت بنا في غير هذا الموضع أبيات طريفة له في وصف الأطلال والديار الخالية ، وأخرى في وصف ثور الوحش وبقرة ، ومن طريف ماله في وصف الإبل قليلة اللبن وهي تُحَلَسَبُ قوله^(٢) :

رَأَيْتُ انْهَمَارَ الدَّرِّ بَيْنَ فُرُوجِهَا كَمَا عَصَرْتُ أَيْدِي الْغَوَاسِلِ أَثْوَابَا

وقوله في أخرى وسُراه عليها طوال الليل ، كأنها هائمة تطلب شيئاً ضالاً منها^(١) :

فكَانَ أَبْدِيَهُنَّ دَائِبَةً يَفْحَصْنَ لِيَتْنَهْنَ عَنْ صُبْحِ

وله في الخيل أشعار مختلفة ، وطبيعي أن يُعْنَى بها ، إذ كان شغوفاً بالصيد ، حتى ليحتل الطَّـرْدُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعت به قوله في مقدمة إحدى طردياته يصف فرساً له^(٢) :

قَدْ أَغْتَدَى وَالصَّبْحِ كَالْمَشِيبِ فِي أَفْقٍ مِثْلَ مَدَاكِ الطَّيْبِ^(٣)

بِقَارِحٍ مَسُومٍ يَغْبُوبُ ذِي أُذُنٍ كَخُوصَةِ الْعَسِيبِ^(٤)

أَوْ آسَةِ أَوْفَتْ عَلَى قَضِيبٍ يَسْبِقُ شَأْوَ النَّظَرِ الرَّحِيبِ^(٥)

أَسْرَعُ مِنْ مَاءٍ إِلَى تَصْوِيبٍ وَمِنْ رَجُوعٍ لِحِظَةِ الْمَرِيبِ

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أدواته في تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته في تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يخزها ويطعسها مسيلاً لدمائها مزهقاً لأرواحها ، يقول :

وَأَجْدِلُ أَحْكَمُ بِالتَّأْدِيبِ سَوَطٍ عَذَابٍ وَاقِعٍ مَجْلُوبِ^(٦)

يَهْوَى هَوًى الْمَاءِ فِي الْقَلْبِيبِ مَا طَارَ إِلَّا لَدَمٍ مَصْبُوبِ^(٧)

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة في طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرفهة كالأسنة المُشْرِعة ، ومن طريف ماله في تصوير عين بازٍ قوله^(٨) :

وَمَقْلَةٌ تَصْدُقُهُ إِذَا رَمَقَ كَأَنَّهَا نَرْجَسَةٌ بَلَا وَرَقَ

(٥) أوفت : أشرفت .

(٦) أجدل : صقر .

(٧) القلبيب : البئر .

(٨) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢١٨ وديوان

المعاني ٢ / ١٤٠ .

(١) الديوان ص ١٤٠ .

(٢) الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢ / ٢٣

وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩ .

(٣) المداك : الحجر الذي يسحق عليه الطيب .

(٤) قارح : مكتمل الخلق . مسوم : معلم

حسن الخلق . يعبوب . سريع الجرى .

وله في الكلاب طرديات كثيرة يأتي فيها بأبي نواس ، بل هو في طردياته جميعاً يأتي به ويحاكيه حتى في ألفاظه التي يفتح بها تلك الطرديات ، من مثل : قد أغندى . وقد مضى في إثره يتحدث عن ضمورها ومثانة أعضائها وشدة سمعها وحدة براثنها ونشاطها وسرعة عدوها على شاكلة قوله في إحدى طردياته ^(١) :

ومُخْطَفٍ موثَّقٍ الأَعْضاء ذى أذنٍ ساقطةٍ الأرجاء ^(٢)
كوردة السَّوسَنَةِ الشَّهْلَاءِ وبرثنٍ كيشْقَبِ الحذاء ^(٣)
ومقلةٍ قليلةٍ الأَقْدَاءِ صافيةٍ كقطرةٍ من ماء
تنساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حيةٍ رَقْطَاءِ ^(٤)

وله طرديات أخرى في الفهد ، وفي قوس البندق ، ويكثر فيها جميعاً من التشبيهات والصور الطريفة ، ومن الحق أنه كان بارعاً في تصوير أى شىء يلم به من كوكب في السماء أو نجم أو سحابة أو رياض وأزهار في الطبيعة المتحضرة أو حيوانات وأطلال في الطبيعة المتبدية ، وليس بين المحدثين من وصف الحياة وصفه لها في قوله ^(٥) :

كَأَنَّنِي ساورتنى يومَ بَيْنِهِمُ رقصاءُ معجولةٌ في لونها بَلَقُ
كَأَنَّهَا حينَ تبدو من مكانها غُصْنٌ تفتَحُ فيه النورُ والورقُ
ينسلُّ منها لسانٌ تستغيث به كما تعودُ بالسَّبابَةِ الغَرِقُ

وله مراسلات بالشعر بينه وبين إخوانه وهي تكثر كثرة تجعلنا نظن ظناً أنه من أوائل من أعدوا لفتح باب الإخوانيات في الشعر العربي ، وهو في طائفة منها ينحو نحو الدعابة . ويكثر في شعره — كما قدمنا — من التفكير في الموت ومصير الحياة

(١) الديوان ص ١٨ وأشعار أولاد الخلفاء

(٢) السوسنة: الزنبقة. برثن: مخلب.

(٣) رقطاء: رقصاء أى بها نقط سود ويبيض.

(٤) الديوان ص ٣٣٠ .

(٥) مخطف: ضامر . ساقطة الأرجاء :

شديدة السمع .

والشكوى من الدنيا ومن الأصدقاء ، وعللنا ذلك آنفًا بأنها طوابع طبيعتها في نفسه نكبتة بأبيه ونفيه إلى مكة في صباه ، وقد ظل يحنُّ إلى سامراء بعد نزوله ببغداد وما لقي من بعوضها ونقيق ضفادعها ^(١) .

وقد تحدثنا في غير هذا الموضوع عن اهتمامه بالشعر التعليمي ونظمه فيه مزدوجة تاريخية صوراً فيها سيرة صديقه وابن عمه المعتضد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعصره . ولعل في كل ما أسلفنا ما يشهد ببراعته وامتيازه بين الشعراء لعصره .

٥

الصنوبري ^(٢)

هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبي الصنوبري ، وفي بعض المصادر أن اسمه محمد ^(٣) ، وهو خطأ ، إذ ذكر اسمه في ديوانه غير مرة باسم أحمد ، من مثل قوله معزياً نفسه في بعض الظروف :

أَرْضْ حَكَمَ الزَّمانَ يَا أَحْمَدَ أَرْضَهُ إِنْ تَذُقْ ضَيْمَهُ فَقَدْ ذُقْتَ مَحْضَهُ ^(٤)

وصُحِّفَ لقبه « الضبي » نسبة إلى قبيلة ضَبَّةَ في فوات الوفيات ، فصار « الضبي » ولا علاقة له نالعين ، إنما هو تصحيف النساخ . أما لقبه الثاني « الصنوبري » فزعم هو نفسه أن جدَّه كان يعمل في دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك في مناظرة بين يديه وأعجب به فقال له : إنك لصنوبري الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه ، ولعل المأمون لم يُرد بذلك إلا سَمَّته وصورته وأن وجهه على

بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبع الثقافة
بيروت .

(٣) الفهرست ص ٢٤٥ .

(٤) الضم : المزج بالشواذب . والمخص :

الخالص غير المشوب

(١) الديوان ص ٤٠١ .

(٢) انظر في ترجمته وأشعاره تهذيب تاريخ

ابن عساكر ٤٥٦/١ وفوات الوفيات

(طبعة محي الدين عبد الحميد) ١١١/١ والوفاء

بالوفيات للصفي ٣٧٩ / ٧ وشرذات الذهب

٣٣٥/٣ ومعجم البلدان لياقوت في (حلب) وديوانه

هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة ، ويفخر الصنوبرى بهذا اللقب لأسرته قائلاً^(١) :

إِذَا عَزَيْنَا إِلَى الصَّنَوْبِرِ لَمْ نُغَزْ إِلَى خَامِلٍ مِنَ الْخَشْبِ
لَا بَلَّ إِلَى بَاسِقِ الْفُرُوعِ عَلَاً مَنَاسِباً فِي أُرُومَةِ الْحَسْبِ

وهو من أهل أنطاكية، ولكن منشأه ومرباه في حلب، ولا ندري كيف تحول أبوه به إليها ، وقد مضى مثل لداته يحفظ شيئاً من القرآن ويكسب على حفظ الشعر وتعلم العربية ، وكانت حلب مثلها مثل المدن الكبرى في العالم العربي تزخر بعلماء اللغة والحديث والفقه وكان بها بعض الأطباء ، وكانت الكتب على رفوف المكتبات تحت أعين الصبية والشبان. وفي ديوانه إشارات مختلفة إلى بعض العلماء في اللغة وإلى بعض القضاة وبعض الأسر المهتمة برواية الحديث النبوي وإلى بعض المتطبيين ، ونراه يذكر أرسططاليس وبقرط في بعض أشعاره^(٢) . وقد يدل ذلك من بعض الوجوه على أنه عكف منذ نعومة أظفاره على الدرس والتحصيل ، وأنه قضى في ذلك شطراً من حياته حتى تخرج شاعراً مثقفاً ، على الأقل ملمّاً بالثقافات لعصره ، إن لم يكن إماماً عميقاً ، فإنه على كل حال معرفة واطلاع .

وقد عاش حياته في حلب ، وكان يلم كثيراً بالموصل والرقتين ، وألم بدمشق ، ونجده لا يترك والياً على موطنه إلا ويقدم له مدائح وأشعاراً كثيرة ، وهو يستهل ذلك بمدح لـ ذكّا^(٣) بن عبد الله الأعور وإلى حلب منذ سنة ٢٩٥ حتى سنة ٣٠٢ وتحفظ بقية الديوان المنشورة باسم الصنوبرى بقصيدة في مدح ابنه المظفر^(٤) يصفه فيها بالكرم والشجاعة ، ويوصيه بشاعر يسمى الطبراني أن يسبق عليه من كرمه وجوده . وكان هذا الوالي يتخذ يحيى بن محمد التفرى وزيراً له وعوناً وظهرياً ، وللصنوبرى فيه قصيدة طنانة يصور فيها بلاغته وبعوثه لحروب القرامطة والروم ، ويخلف هذا الوالي على حلب أحمد بن كيغتلغ القائد المشهور في العصر ويظل

(١) الديوان ص ٤٥٦ .

(٢) الديوان ص ٢٧٩ .

(٣) انظر في هذا الوالي ومن بعده كتاب

زبدة الحلب لابن العديم بتحقيق الدكتور

سامي الدهان طبع دمشق الجزء الأول ص ٩٢

وبإبعدها .

(٤) الديوان ص ١٥٦ .

بها نحو سنة ويعود إليها في سنة ٣١٧ ويظل بها سنة أخرى ، وكان عون في حكمه لحلب ابنه العباس ، ويضفي عليهما مدائح كثيرة ، ويبدو أن صلات العباس له كانت متواليه ، ولذلك أكثر من مديحه . كما مدح محمود بن حبك الخراساني الذي حكم حلب بعد ولاية ابن كَيْتَعْلَغ الأولى عليها وظل يحكمها حتى سنة ٣١٢ ونمضي مع الشاعر بعد ولاية ابن كيغلغ الثانية فنجده يمدح طريقاً السبكري حتى إذا خلفه أحمد بن سعيد الكلابي سنة ٣٢٤ وجه إليه مدائحه . وتدخل حلب في حكم ابن رائق صاحب دمشق ويعينه في حكمها أبو الحسين بن مقاتل منذ سنة ٣٢٧ ويمدحه الصنوبري مهتئاً له بشهر رمضان ، وسرعان ما يستولي يانس المؤنسي من قبل الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل على حلب سنة ٣٣٠ ويمدحه الصنوبري بمثل قوله ^(١) :

هو الفارسُ المُرْوَى من الدم سَيْفُهُ إذا لم يُطْقِ رَى السيفِ الفوارِسُ

وتنشب حروب بين الإخشيد والحمدانيين أصحاب الموصل من جهة وبين الخليفة والبريدي من جهة أخرى ، وينزل الخليفة عند الحمدانيين وينصرونه على خصوصه لسنة ٣٣٠ فيخلع على الحسن بن عبد الله بن حمدان لقب ناصر الدولة ، كما يخلع على أخيه على لقب سيف الدولة . وتشتعل الحروب بينه وبين الإخشيد في سنة ٣٣٣ ولكنهما يفيثان إلى الصلح وتخلص حلب لسيف الدولة ، وهو في أثناء ذلك ينازل الروم ويكبدهم خسائر فادحة في الأرواح . ومنذ قرع سيف الدولة لأبواب حلب واستيلائه عليها نجد الصنوبري يقدم له مدائحه ، وأعجب به سيف الدولة ، فلم يكتف بما أجزل إليه من صلات إذ اتخذه أميناً لمكتبته ^(٢) . ويبدو أن سيف الدولة لم يتعرف عليه قبل نزوله حلب ، وقد يؤكد ذلك أننا لا نجد في ديوانه مديحاً لأخيه ناصر الدولة وآبائهما في الموصل ، مع أن نجم الأسرة الحمدانية كان قد أخذ في التآلق منذ أواخر القرن الثالث الهجري ، ومع أنها كانت أسرة شيعية ، وكان الصنوبري نفسه شيعياً ، غير أنه ظل منحرفاً عنها ، حتى قدم سيف الدولة حلب وقد يرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال في بغداد واشتراك هذه الأسرة في الفن التي كانت تتعاقب

(١) الديوان ص ١٩٢

(٢) مطالع البدور للغزولي ١٧٦/٢ وآدم ميتز ص ٣٦٤ .

هناك ، وأهل هذه الفتن نفسها هي التي جعلته ينأى بنفسه عن بغداد وتقديم مدائحه لوزرائها وحكامها المختلفين . على أنه كان كثير المقام بالرقعة ، وكان يمدح بعض ذوى الوجاهة والنباهة بها ولكنه لم يفكر في مديح أمرائها الحمدانيين ، إلا إذا كانت هناك أشعار أخرى لم يحملها ديوانه خصصها بمدحهم .

على أن هذا الجانب يجعلنا نفكر في شأن تشيعه ، فديوانه يمتلئ بمراثي آل البيت وللحسين خاصة ، مما يؤذن بأنه كان متشيعاً حقاً ، وهو يذكر فيه ما يؤمن به الشيعة من أن الخلافة ليست مفوضة للأمة وأنها تنتقل بالوصية من الرسول إلى علي وأبنائه ، على نحو ما نرى في مثل قوله ^(١) :

حَبَاهُ بِالْوَصِيَّةِ إِذْ حَبَاهُ وَهُوَ ذُو دَنْفٍ

ويبدو أنه لم يكن غالباً في تشيعه ، بل يبدو أنه لم يعتنق مذهب الإمامية الاثني عشرية الذي كان قد أخذ ينتشر في بعض أركان العراق لعصره . وفي ديوانه قصيدة وجه بها إلى جعفر بن علي صاحب الزاب في المغرب الأوسط ، وصلة جعفر وأبيه على بالدعوة الإسماعيلية التي كانت قد أخذت في الذبوع بتلك الديار مشهورة ، ولكن ينبغي ألا نفهم من ذلك أن الصنوبري كان على صلة بتلك الدعوة لا في مقرها الجليل بالمهدية في المغرب ولا في مقرها القديم بسماسمية في الشام ^(٢) ، وقد يؤكد ذلك أننا نجده يهاجم القرامطة ^(٣) الذين كانوا متصلين بتلك الدعوة حين أغاروا على الحجيج يوم التروية لسنة ٣١٧ وقاتلوه قتلاً ذريعاً ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع . وربما كان أكثر من ذلك تأكيداً أننا نجده يمدح زيادة الله بن الأغلب صاحب تونس ، بعد أن هزمه أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين لسنة ٢٩٦ ، وخرج من بلاده إلى العراق وأقام — حسب أوامر الخليفة — بالرقعة ^(٤) ، وظل بها حتى توفي سنة ٣٠٤ للهجرة ^(٥) . ونرى الصنوبري حينئذ يمدحه بغير قصيدة ^(٦) ، وأو أنه كان على صلة بالدعوة الفاطمية الإسماعيلية ما نظم فيه بيتاً مثنياً عليه أو مادحاً . ونجده

(١) الديوان ص ٣٩٨ .

(٢) الديوان ص ٩٦ .

(٣) في ديوانه مديح لصديق هاشمي من سلمية

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٦٨ .

هو أبو إسحق السلماني ، ولكن ليس في

(٥) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

مدح له ما يصور شيئاً من الدعوة الإسماعيلية .

(٦) الديوان ص ٣١٧ ، ٤٠٩ .

حين يمدح آل البيت يمدح حمزة وجعفرًا الطيار كما يمدح العباس^(١) جد العباسيين . وهو يكثر من مديح بعض الهاشمين من سلالة علي بن أبي طالب ، ولكنه أيضًا يكثر من مديح الهاشمين من سلالة العباسيين أمثال أبي العباس أحد أحفاد الرشيد وله يقول^(٢) :

أبناء الخلافة من قريش وساسة أمرِ عالمنا المُسوس
ألنتم من حُزون الدهر حتى توهمتُ الحزونَ من الوعوس^(٣)

وفى ديوانه ما يدل بوضوح على أنه كان لا يزال يترحمُ من حلب إلى الرقة على الفرات ، حتى لتُعدَّ كأنما كانت موطنه الثاني وخاصة في أيام شبابه وإدماجه على اللهو وخلّعه للعذار . وكان لا يزال يؤمّ فيها مع بعض الفتيان والرفاق دير زكّي لحمال متزهاته ، ولما كان يجاوره من أماكن الصيد برًّا وبحرًا . وكثيرًا ما كان يلمّ بمدينة الرّها هناك وكان بها دكان ورّاق يسمى سعدًا ، وكان يجتمع فيه بكثير من أدباء العراق والشام ومصر . ومن الرقة حتى دمشق كان ينزل في كل ما بينهما من البلدان ، ولم يدع جوادًا أو حاميًا من حماة الأدب في تلك الأنحاء حتى قدم له مدّاحه ، ونستطيع أن نميز بين ممدوحيه عبد الرحمن الجلابي من أهل حرّان بالموصل وابن كوجك في طرابلس وعلى بن سهل بن روح في حمص ، أما الحلبيون فكثيرون من مثل أسرة السبيعيين ، وكان منهم من يعنى برواية الحديث النبوي مثل الحسن بن أحمد السبيعي وله كتاب « التبصرة في فضيلة العترة الطاهرة » ومثل القاضي أبي عبد الرحمن بن أخى الإمام ومثل علي بن محمد بن حمزة العباسي الهاشمي وكان له قصر منيف وبساتين في موضع يسمى فارث ، وله فيه قصائد رائعة ، ومثل أبي عبد الله الكرخي صاحب الخراج . وكثيرٌ هم العلويون الذين مدحهم مثل إسماعيل بن الفضل الهاشمي وابنه أبي بكر وحفيده أبي عيسى ومثل طاهر بن محمد ومحمد بن الحسين الهاشميين . وكان يختلط في كل البلدان التي ينزل فيها بشعرائها وأدبائها ، وكان من أقربهم إلى

الصلبة ، والوعوس جمع وعس وهو الأرض السهلة .

(١) انظر الديوان ص ٣٣

(٢) الديوان ص ١٨٥

(٣) الحزون : جمع حزن وهو الأرض

نفسه المعوج الرقى ويقال إنه أستاذة ، وقد توفي سنة ٣٠٧ وبكاه بمربة طويلة يقول فيها^(١) :

يا سماء الشعر التي لى عليها كل يوم سماء دمع تفيض
كيف تجنى الأفهام زهر المعاني بعد ماجف روضهن الأريض

ولعل أهم صداقة كانت بينه وبين شاعر الصداقة التي انعقدت بينه وبين كشاجم ، وظن ظناً أنها بدأت في الرقة ، وكان كشاجم قد اتصل هناك بأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، فرعاه وصار من حاشيته ، ثم صار من حاشية ابنه ، ورافقه حين ألقي عصاه بحلب ، حتى نهاية حياته ، وكان أصغر سنّاً من الصنوبري ، وكأنه اتخذ منه معلمه ورائده في الشعر ، ففسح على منواله ، في وصف الرياض وفي الحمريات والغزل ، وبينهما مداعبات ومعاينات واستعطافات كثيرة ، وكان الأستاذ دائماً كان حريصاً على رضا تلميذه . وتمنى التلميذ يوماً لو أصهر إلى أستاذه في ابنة^(٢) له ، ولعل عالماً لغوياً لم يحظ بصداقة الصنوبري كما حظى على بن سليمان الأخفش الصغير ، وكان قد رحل عن بغداد إلى مصر سنة ٢٨٧ ثم تركها سنة ٣٠٠ مولياً وجهه نحو حلب ، فظل فيها حتى سنة ٣٠٥ . وفي هذه السنوات الخمس انعقدت له حلقة كبيرة بالمسجد الجامع أممها الشباب للتحقق ، وكان بينهم الصنوبري ، فلك الأخفش عليه لبة ، وإذا هو ينظم فيه قصيدة طويلة يصور فيها نهله هو ورفاقه من ينبوعه العظيم ، بمثل قوله^(٣) :

كرعنا منه في أبج ر علم غير منزوفه
وطالعنا رياض العذم بالآداب محفوفه

وتضطره بعض ظروفه إلى أن يبرح محاضراته إلى أنطاكية مسقط رأسه ، فيكتب إلى الأخفش متشوقاً كما يقول ، واصفاً فراقه لهذا الفردوس العلمي ، متمنياً أو فاءت عليه ظلاله . وتمتد به الأيام بعد ذلك نحو ثلاثين عاماً يقضى معظمها في اللهو ، ويفيق مرة من كئوسه في نحو الستين من حياته فيتمنى لو زهد في الدنيا ومتاعها الزائل

(١) الديوان ص ٢٦٢ .

(٣) الديوان ص ٣٧٧ .

(٢) ديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص ٧٩ .

معلناً أنه بلغ السابعة والخمسين وأن له أن يزدجر ويرعوى ويكف عن اللهو وآثامه ، يقول^(١) :

أَلَقْتُ رِداءَ اللهو عن عاتقِ خمسٍ وخمسون مضتْ واثنتان

وفي البيت ما يدل على أنه لم يمت وقد ناهز الخمسين كما يقول ياقوت^(٢) ، بل مات وقد ناهز على الأقل الستين ، ولا ندري هل هجر اللهو فعلاً كما تمنى أو ظل يشرب كنوسه صافية وممزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته لسنة ٣٣٤ للهجرة . وكان يعيش على ما يظهر في يسر دائماً ، إذ نراه يذكر - كما يذكر ذلك كشاجم - أن له بحلب ضيعة وبستاناً وقصراً حوله الأشجار والورود والرياحين^(٣) . وكثيراً ما نراه يدعو صحابه ورفاقه لمآدب عنده^(٤)

وأخذ كثيرون يروون أشعاره وهو على قيد الحياة ، وعُني أحد تلاميذه من الشعراء وهو أبو العباس الصفرى برواية ديوانه وعنه رواه القاضي أبو عمر عثمان بن عبد الله الطرسوسي^(٥) ، واهتم به معاصره أبو بكر الصولي فجمعه ورتبه على حروف الهجاء في مائتي ورقة^(٦) . ولم يلبث الديوان أن دخل الأندلس بعد وفاة صاحبه بنحو عشرين عاماً لعهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) . على يد مواطن للصنوبري ترجم له ابن الفرضي في تاريخ^(٧) علماء الأندلس ، هو محمد بن العباس الحلبي ، وعنه رواه اللغوي المشهور أبو بكر الزبيدي الإشبيلي ، وذاعت هذه الرواية بين أدباء الأندلس . ونرى ابن خبير يذكر طرقها في فهرسته^(٨) . ولم يصل إلى عصرنا من الديوان إلا جزء منه يشتمل على قصائده من قافية الراء حتى القاف ، أما الجزء الذي يسبقه والآخر الذي يلحقه ففقودان ، وحقّق الجزء الباقي تحقيقاً علمياً الدكتور إحسان عباس وألحق به ما وجده في المصادر المخطوطة والمطبوعة من أشعار الصنوبري

(٥) الفهرست ص ٢٤٦ .

(١) الديوان ص ٥٠٣ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي

(٢) انظر حلب في معجم البلدان .

رقم ١٤٠٢ .

(٣) الديوان ص ٣٤٧ وانظر ديوان كشاجم

ص ٧٤ .

(٧) فهرسة ما رواه ابن خبير عن شيوخه

ص ٤٠٨ .

(٤) انظر مثلاً ص ١٥٥ في الديوان .

(٥) أنيران ص ١٠٧ .

ونشر هذا الملحق مع الجزء المذكور باسم ديوان الصنوبرى ومعه فهارسه فى نحو ٥٨٠ صفحة .

ومن يقرأ فى شعر الصنوبرى يلاحظ تَوًّا أنه كان يعنى بصناعة شعره وأنه أكْبَّ على الشعراء من قبله يقرأ فيهم ويستوعب ويتمثل ، وخاصة أبا تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ، فهو أحياناً يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبى تمام ، وأحياناً لا يذهب بعيداً فى استخدام هذه الفنون على طريقة البحترى ، وهو يكثر من التشبيهات والصور على طريقة ابن المعتز كما يكثر من وصف الطبيعة على طريقة ابن الرومى . وظل يمرن نفسه على نظم الشعر ويروضها على صناعته حتى قال ^(١) :

ما حلَّ بى منك وقتَ مُنْصَرَفٍ ؟ ما كنت إلا قريسةَ التَّلَفِ
كم قال لى الشوق قِفْ لتلثمه فقال خوف الرقيب لا نقف
بسطت خطوى كرهاً وقد قبضتُ رجلى عن الخطو شدة الكلف
فكان جسمى فى زِيٍّ منطلي وكان قلبى فى زى منعطفٍ

فارتضى حيثُ أن يعلن عن شاعريته وأن يقدم أشعاره لمن حواه ، والأبيات فيها غير قليل من التكلف فى التعبير ، وخاصة البيت الثانى ، ومع ذلك تمَّ عن شاعرية جيدة ، ووضح فيها العناية بالطباق والمقابلة على نحو ما يلاحظ القارئ لبيته الثالث والرابع . وأخذ يسلس له الشعر وأسلم له قياده حتى أصبح من المجلِّين فيه البارعين .

وإذا أخذنا نستعرض موضوعات الشعر عنده لاحظنا أنه عُنَى بالمديح عنابة واسعة ، إذا اتخذ شعره متجراً له ومربحاً . فهو يقدمه لولاة حلب ونوابهم وأبنائهم ومساعدتهم ، وكثيراً ما يصرِّح فيه بتنجز الوعود ، وأنه لا يزال ينتظر هبة المملوح وجائزته ، وأكثر من مديح العباس بن أحمد بن كَيْسَ غُلَغْ ، وفيه يقول ^(٢) :

وَكَيْغَلَفْنِي المجد يُلْفِي مجده ثَبَّتَ الدعائم محصداً الأُمَاسِ^(١)
 فَرَدُّ الكيان فكفّه من رحمة نَسَعُ الأنام وقلبه من باسِ
 أَغْدَى على صَرَفِ الليالي المعتدى وَأَلان من طبع الزمان القاسي
 يوماه ذا عيدٌ وذا عُرُش وإن جَلَّأً عن الأعياد والأعراسِ
 يَأْبَى الحجابَ وليس يحجب بشره عن أَعين الندماء والجلَّاسِ

والأبيات مليئة بالجناسات والمقابلات والتقسيمات، على نحو ما يلاحظ في أعدي والمعتدى والحجاب ويحجب ، وفي الكف والقلب واللين والقسوة والعيد والعرس : وكأنما كتب أشعاره على أضواء من ديوان أبي تمام ، وإن كان لا يبلغ مبلغه في اقتناص المقابلات والجناسات ، فقد كان أبو تمام أكثر دقة وأنفذ بصيرة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أجود ما صاغه من مدائح صاغه في الهاشمين من عباسيين وعلويين ، وأهم هاشمي عباسي أسبغ عليه مديحه على بن محمد بن حمزة الهاشمي ، وكانت له — كما مرَّ بنا — ضياع يتوسطها قصر في مكان يسمى فارث ، وكان الصنوبري كثيراً ما ينزل عنده بهذا القصر وينعم بما فيه من ترف ومن أسباب الدعيم وسائله ، وله فيه قصيدة عينية رائعة يصور فيها ما نعم به عنده من غناء بعض الجوارى ومن راح وخمر . كما يصور بستاناً حافلاً بالورود والرياحين وبركة حسناء تنهل فيها النجوم ويتحول إلى مديح ابن حمزة هاتفاً^(٢) :

ابْقُوا بنى العباسِ مابقيَ الحصا لَنَدَى يُؤْمَلُ أَوْ لَحَرَقِ يُرْفَعُ^(٣)

ويمدح كثيراً من العلويين المقيمين بحلب وغير حلب ، ودائماً يذكر أنهم عترة المصطفى وأنهم الجواهر المصفى وسراج الدنيا ، ومن خير مدائحه في الهاشمين مدائحه لأبي إسحق السلماني ، ويصفه بالعلم الغزير والاطلاع الواسع على الثقافة اليونانية حتى ليرفعه درجات على أرسططاليس وبقرط ، قائلا^(٤) :

وَأَدَقُّ من رَسْطَالِسٍ نَظَرًا إِذَا نَازَظَرْتَهُ وَأَشْفَّ من بُقَرَاتٍ

(١) محصد : قوى متين .

(٢) الديوان ص ٣٢٧ .

(٣) يريد بالحرق : الفتنة .

(٤) الديوان ص ٢٧٩ .

فِكْرٌ غَدَتْ أَقْفَالَ فِكْرِ كُلِّهَا لَكِنَّهُنَّ مَفَاتِحُ اسْتِنْبَاطِ

والرثاء كثير في الديوان بصورة الثلاث من العزاء والتأبين والندب ، فهو يعزى جعفر بن طاروف عن أخيه^(١) بأن تلك حال الزمان يعصف بكل الأحياء ، وقديماً عصف بجرهم وطسم وأقبال حمير وكسرى وقيصر ، ويعزى ابن حمزة الهاشمي العباسي صديقه عن زوجته^(٢) وأن طائراً لم يطر إلا كما طار وقع ، ولا شرب أحد في دنياه جرعة حلوة إلا أعقبتها جرعة مرة . وحزن طويلاً على صديقه أبي إسحق السلماني حين وافاه القدر ، فأبنته كثيراً واصفياً علمه وباكياً عليه بمثل قوله^(٣) :

غاب أبو إسحقَ في الأرض بل غابَ سراجُ الأرض في الأرض
بكنه عيناىَ وفوق البكا حتى بكى بعضى على بعضى

ومن أروع مراثيه ندبه للنبي عليه السلام ولآله ، وهو فيه يتحدث عن ابنته فاطمة الزهراء وعن علي واصفياً مقتله الأثيم ومؤكداً وصية الرسول له بالخلافة كما أسلفنا ، ويذكر حديثه له في غدیر خم وأنه منه بمنزلة هرون من موسى ، ويعرض مقتل الحسين وما صبّه في نفوس المسلمين من جزع وكمد . ويخصّصه بمرث كلها تفجع عليه ولوعات وزفرات ، ونراه في بعضها^(٤) يصوّر سيرة جده المصطفى العاطرة ليظهر مدى الإثم في مقتله ، كما يصوّر سيرة أبيه على ونصرته للإسلام وماله من حقوق على الأمة ، وينبكي مقتله في كربلاء بالقرب من الفرات ، وهو ساغب ، يريد بعض الماء ، فتلق السيوف من دمه ودم شباب وصغار من بيته كانوا معه ، وتُعوّل أم كلثوم ومن كان في ركبته من النساء عويلاً مُرّاً ، ويندد بقاتليه وفظاعة جريمتهم وما يزال يئنّ لمصرع الحسين وهتك حرمة بمثل قوله^(٥) :

يَوْمَ الْحُسَيْنِ عَلَى الدِّينِ كُنْتُ يَوْمًا عَسِيرًا
مَلَأْتُ وَاللَّهِ كَرْبًا يَا كَرْبَلَاءُ الصَّدُورَا

(٤) أنظر الديوان ص ٢١٨ .

(٥) الديوان ص ٩٥ .

(١) الديوان ص ١٠٦ .

(٢) الديوان ص ٣٤١ .

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .

والفاطميون تَقْرِيرُ هم السيوفُ الطيورِ
والفاطميات يَنْحَرُ ن بالدموع النُّحُورَا

ونراه في جوانب من تفجعه على الحسين وآل البيت يتوسل إلى الرسول عليه السلام وفاطمة الزهراء وعلى وابنيه الحسن والحسين أن يكونوا شفعاء له يوم القيامة ، حتى يغفر الله له ذنوبه ، وهو يضيف إلى شفاعته الرسول المقررة عند أهل السنة شفاعته آل البيت ، تشبعا لهم ، كأنهم ورثوها فيها ورثوه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ويلتقي في الديوان تفجعه على الحسين بتفجعه على ابنته ليل وحيدته كما يقول ، ويندبها في كثير من القصائد والمقطوعات ، وقد امتلأت نفسه شقاء وعناء ممضاً وامتلاً قلبه حشرات ولواعذ محرقه ، وما يزال يطلب إلى السحب أن تكسو الأرض من حول قبرها وشياً بعد وشى وحريراً بعد حرير وأزهاراً وأنواراً فائحة العبير ، ويناجيها في رمضان ذاكرراً عبادتها فيه وعكوفها على القرآن الكريم ، وكيف تحول العيد بعدها لغيابها عنه مائماً ، ويبكيها في قصيدة ضادية ، ويبكي معها أختها التي ماتت منه في الرقة ، وفي ذلك يقول (١) :

لنا في الرقَّتَيْنِ مضيضُ حزنٍ وفي حَلَبِ المضيضِ على المضيضِ
وظل جُرُحه في ليلي لا يرقأ ، وكانت عروساً ، فانقلبت الفرحة حزناً بل كارثة ، وانقلب الرحيق حريقاً يصطلي الصنوبرى بناره ، ويتعذب عذاباً شديداً ، ولا مغيث له ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات وأن ينوح عليها بمثل قوله (٢) :

يا ربة القبر المضيء الذي يضيء ضوء الكوكب السَّارِ
أشتاق رؤياك فآتي فلا أرى سوى تُرْبٍ وأحجارٍ
قوى إلى دارك قد أنكرت صبرك عنها أي إنكارٍ
استوحشت دارك من أهلها واستوحش الأهل من الدارِ
ومن أروع مراثيه مرثيته في أمه ، وهو من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن

أقدمهم ، وهو في رثائه لها بصور شعوراً عميقاً بالحزن ، وقد استهله بقوله :^(١)

قد صَوَّحَتْ رَوْضَتِي المونقة وانتزَعَتْ دَوْحَتِي المورقة
ومضى بصور مرضها قبل موتها وكيف كان يئن لها أئيناً متصلاً . وله مرثية
طريفة لثوب أبلاه الدهر .

وهزَّته بل أثَّرت في نفسه تأثيراً عميقاً فاجعة الحرم المكي الكبرى لسنة ٣١٧
حين هجم القرامطة على الحجاج ، وهم يُهلون ويُلبَّسون يوم التَّروية فأعملوا فيهم
السيوف في طرق مكة وفي البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، حتى ليقال إنهم قتلوا
منهم نحو عشرة آلاف ، ونرى الصنوبري يبكيهم بكاء حاراً ، هاتفاً^(٢) :

دموعهم تجرى خشوعاً وخشيةً وأرواحهم تجرى على البيض والسمُر
وما غُسلوا بالماء بل بدمائهم وما حُطُّوا إلا من التُّرب لا العُطرِ

ومضى يصف القرامطة بالكفر وأنهم لا يعرفون صلاة ولا سجوداً ولا طهراً
ولا وضوءاً ولا صوماً ولا حجاً ولا شيئاً من فرائض الإسلام .

وله قصائد عدة في الفخر ، وهو كثيراً ما يفخر فيها بقبائل قيس والقبائل
المضرية عامة وبضبة قبيلته ، وأيضاً كثيراً ما يفخر فيها بالمصطفى وآله . ونراه
في قافية له يضيف إليه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وخلفاء بني العباس ، إذ
يقول في عمده قومه لمناقبهم ومفاخرهم^(٣) :

عدُّوا النبيَّ الهاشميَّ ورهطه . ووزيره الصديق والفاروقا
ولهم خلائفُ من بني العباس قد أعبوا جميع العالمين لحوقا

وفي ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يكن غالياً في تشيعه ، إذ يرتضى خلافة
الصديق والفاروق وخلفاء العباسيين ، بل يمجدها ويشيد بها في قوة . وله أهاج
كثيرة يملؤها بالفحش ، ومن أطرفها هجاؤه لزوج ابنته ليل التي رثاها طويلاً ، ويبدو

(٣) الديوان ص ٤٠٤

(١) الديوان ص ٤٤٢

(٢) الديوان ص ٩٧

أنها توفيت عقب إعراسه بها ، فعده طائر شؤم وطالع نحس بغبض ، وهجاه مراراً وتكراراً بمثل قوله ^(١) :

ألا يابنَ الجُنَيْدِ اسمع وما أنت بذى سَمْعٍ
على التَّفْرِيقِ إِمْلَاكُ لَكَ هَذَا لا على الجَمْعِ ^(٢)
على التَّعَسُّ عَلَى الغَمِّ على النَّخِيسِ على الفَجْعِ
على تَحْرِقُ القلبِ على تَحْدُرُ الدَّمْعِ

وله قصيدة ^(٣) في هجاء بعض الشمامسة ، يصفه فيها بالشره في الأكل وبيعض العادات القبيحة ، وبالثقل حتى إنه ليتفوق على جبل رَضْوَى في ثقله ، وبالشؤم حتى ليوازي البوم في شؤمه ، ومن قوله في ثقل ^(٤) :

لو مرَّ من ميلٍ توهمتَه قد مرَّ بين العين والحاجبِ

وفي ديوانه معاتبات واستعطافات بينه وبين بعض أصدقائه ، وألطفها ما نظمه في استعطاف صديقه ورفيقه الحميم كشاجم ، وكانا كأنهما روح واحدة في جسدين أو جسد واحد في ثوبين ، فقد جمعت بينهما لحمه الشعر ، ووثقت بينهما من الصداقة ما لا توثقه قرابة الدم ، وله يقول متودِّداً مستعطفاً ^(٥) :

أخ لي عاد من بعد اجتنابِ وفرق بين قلبي واكتئابِ
وخاطبني فخلتُ بأن زهر الـ رَبَّى الموشى يُجَنِّى من خطابِ
فقرَّب بين أجفاني وغمضي وباعد بين دَمْعِي وانسكابِ
أتاني أَرَى منطقَه فعَقَى على ما دُقَّتْهُ من طَعَمِ صَابِ ^(٦)

وله غزليات كثيرة ، غير أن كثيراً منها في الغلمان ، وحاولنا — في غير هذا الموضع — أن نخفف من حِدَّةِ هذه المثلبة السيئة عند الصنوبري وغيره ، فقلنا إن

(٥) الديوان ص ٤٥٧ .

(٦) الأرى : الشهد أو عسل النحل .
والصاب : العلقم .

(١) الديوان ص ٣٤٦ .

(٢) الإملاك : الزواج .

(٣) الديوان ص ٢٠٠ .

(٤) الديوان ص ٤٥٩ .

كثيراً من شعر الغلمان ، إن لم يكن جلده ، كان يُقال على سبيل الدعابة والتندير
في أثناء السكر وشرب الخمر . وله غزل في فتيات ونساء كثيرات ، ويغلب عليه
التكلف إذ نراه يبحث غالباً عن تشبيه أو صورة ، ومن غزلياته الطريفة
قوله^(١) :

تزايد ما ألقى فقد جاوز الحدَّ وكان الهوى مزحاً فصار الهوى جدًّا
وقد كنت جلدًا ثم أوهنتي الهوى وهذا الهوى ما زال يستودن الجلدًا
فلا تعجبي من غلبِ ضَعْفِكَ قوِّي فكم من ظباء في الهوى غلبت أسدا
جَرَى حبُّكم مجرى حياتي ففقدكم كفقد حياتي لا رأيتُ لكم فقدًا

ومع ذلك فالقطعة لا تخلو من تكلف ، حين يحوّل الهوى من المزح إلى الجد
وحين يصبح واهناً بعد أن كان جلدًا ، وحين يغلب الضعف القوة ، كل ذلك ليأتي
بالطباق . وأطرف من هذه المقطوعة مقطوعته التالية^(٢) :

لا النومُ أذرى بي ولا الأرقُ يذرى بهذين مَنْ به رَمَقُ
إن دموعي من طول ما استَبَقْتُ كلَّتْ فما تستطيع تستبق
ولي ملكٌ لم تَبْدُ صورته مُذْ كان إلا صَلَّتْ له الحدق
نويتُ تقبيلَ نارٍ وَجَنَّتِي وخفت أذنو منها فأحترق

والقطعة مع ما يترقق فيها من جمال يتصفها التكلف ، على نحو ما يلاحظ
في البيت الثاني وتعب دموعه من استباقها وتقاطرها على خديه ، وتعبيره عن عبادته
لملكه بصلاة الحدق فيه أيضاً غير قليل من التكلف ، وواضح أن الشطر الأول في
البيت الأخير مجلوب اجتلاباً ليهيئ مكاناً للشطر الأخير . وله مقطوعة نظمها
في فتاة مسيحية ، تمض على هذا النمط^(٣) :

لا ومكان الصليب في النحر منك ومعجزي الزنار في المنصر
والساق المستديرة من سحر على الجبين المصوغ من دُرٍّ^(٤)

(٣) الديوان ص ٦٣ .

(٤) السج : قطع النمر المرسلة على الجبين .

تر : الأبيات ص ٤٧٢ .

(٥) الأبيات ص ٤٣٦ .

سُكَّرَ أَجْفَانُكَ الَّتِي حَلَفَ الْفَتَوْرُ أَلَّا تُفَيِّقَ مِنْ سُكْرِ
وَأَقْحَوَانٍ بِفَيْكِ مُنْتَظِمٍ عَلَى شَبِيهِ الْغَدِيرِ مِنْ خَمْرِ
مَا صَبَرَ الشَّوْقُ لِي فَأَصْبِرْ يَا مَنْ حُسْنُهُ فِيهِ قِلَّةُ الصَّبْرِ

ويكثر الصنوبرى من الحديث عن الخمر ووصف كثوسها وسقائها ونداماها
ومجالسها ، يفرد لذلك القصائد والمقطوعات . وقد يضع نعت الخمر في مقدمة بعض
مدائحه ، مضيفاً إليها نعت بعض ليالى الأتس وما كان في مجالسها من غناء
وقيان وجوار معقربات الأصداغ . وقد يضيف إلى ذلك وصف البستان وما فيه من
أزهار ممتدة حول القصور ومجالسها . وكثيراً ما يقرن وصف الربيع إلى الخمر ، فهو
ربيع الدنيا وهى ربيع الفرح والسرور في رأيه . ويقرنها أيضاً دائماً إلى الأمطار ،
ولعله أول من قرنها بالثلج وانتشاره في الطبيعة ، وعرف له القدماء ذلك فقالوا إنه
أول من تغنى بالثلجيات على شاكلة قوله ^(١) :

ذَهَبَ كَثُوسُكَ يَا غُلَا مُ فَإِنْ ذَا يَوْمٌ مُفَضَّضُ
الْجَوُّ يُجَلِّي فِي الْبَيْسَا ضِ فِي حَلَّى الدَّرِّ يُعْرَضُ
أَظْنَنْتَ ذَا ثَلْجاً وَذَا وَرَدُّ عَلَى الْأَغْصَانِ يُنْفَضُ
وَرَدُّ الرَّبِيعِ مَلُونٌ وَالْوَرْدُ فِي كَانُونٍ أَبْيَضُ

وهو يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشتاء القارس ، الذى يكسو
الأشجار ثياباً بيضاء ، وكأنها تُجَلَّى فيها ، فهو يوم من أيام عرسها ، وهو يعبّ
فيه من كثوس الخمر المذهبة الصافية ، فرحاً بمنظر الثلج على الأغصان ، وكأنها
قِطَعُهُ فِي عَيْنِهِ وَرَدُّ تُنْفَضُ عَلَى الْأَغْصَانِ وَعَلَى الْأَرْضِ ، ورود بيضاء ،
تكسو الطبيعة غلاثل فضية بهيجة . وكان أكثر ما يفرغ لخمرة ولهو ولذاته في
الرقعة ، وكان يختلف مع رفاقه إلى بساتينها ومتنزهاتها على جداول البلخ والهنى
والمرى . وله رائية ^(٢) يصور فيها نزعة في بساتين تلك الجداول وفي دبر زكى الذى
كان يجاورها ، ذاكرةً قرأها التى كان يتشغل بينها من مثل هرقلّة والصالحية

وبيطيَّاس والرافقة وما كان يمتد في المروج هناك من أنوار وأزهار ، ويصف
عكوفه على الخمر وسُقَاتِهَا من الغلمان والحواري ، كما يصف صيده بالكلاب
هناك من الغزلان ، وكذلك صيده بالحوارح من الصقور والبزاة للطير من مختلف
الألوان ، ويصور من معه من الرفاق كما يصور نهر الفرات وسفنه المرسعة . وله
وراء ذلك أشعار كثيرة في دير زكِّي ونُزَّهه في بساتينه وخَلَمَته مع بعض رفاقه للعدار
فيه ولهوهم مع بعض فتياته ، على نحو ما يحدثنا في قوله ^(١) :

لو على الدَّير عَجَتْ يوماً لِأَلْهَتْ لك فنونٌ وأطربتك فنونٌ
كم غزالٍ في كفِّه الوردُ مَبْدُو لُ وفي الخدِّ منه وردٌ مصونٌ
ويبدو أنه ارعوى حين تقدمت به السنُّ بعد الخمسين ، وربما كان لموت ابنته
ليلي أثر في ذلك ، فقد صحا من خمره وهواه على موتها في سن البراعم الغضة ، ولعل
ذلك ما جعله يعلن أنه كفَّ عن النبيذ في حزم وعزم أكيد ، حتى ليقول ^(٢) :

كنت أحبُّ النبيذَ جدًّا فصار حُبِّي النبيذَ بُغْضًا
فلست أرضاه لى شراباً والحمد لله لست أرضى

وينظم بعض أشعار في الزهد ، وله فيه قصيدة ^(٣) طويلة ، يتحدث فيها عن
الموت وعن ذنوبه ومعاصيه وأنه آن له بعد ما اقترف من الأثام أن يرعوى ويكف
عن السير في طريق اللهو ودروبه . ويتصل بهذا الموضوع عنده أن نجده يفرد
بعض القصائد لنصائح خلقية وسلوكية في الحياة ، وهو الباب الذي يسمَّى في الشعر
وأغراضه باسم باب الأدب ، حيث تتوالى النصائح للبصر بالحياة ومسالكتها الصعبة ،
من مثل قوله في إحدى قصائده التي خصَّها بهذا الباب ^(٤) :

أَضَاعَ الْحَزَمَ مَنْ أَمْسَى مُطِيعًا طوالَ الدهرِ ذا حَزَمٍ مضاعٍ
وأكثرُ ما استطعت الحلم إلى رأيت الحلم من كرم الطباعِ
ولا تتبَّعْ أنا سَفِهٍ ودَعَاهُ وكُنْ للحرِّ - دهرَك - ذا اتباعٍ

(١) الديوان ص ٤٩٥ .

(٣) الديوان ص ٣٩٣ .

(٢) الديوان ص ٢٥٨ .

(٤) الديوان ص ٢٢٣ .

ولم نتحدث حتى الآن عن الموضوع الأساسي في شعره ، وهو وصف الطبيعة التي عاش لَهَا وعاش بها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع في العربية . وقد مضى معاصروه مِن حوله وَمَن خَلَفَهُمْ في العصور التالية لا في المشرق وحده ، بل أيضاً في المغرب والأندلس يسبرون على هديه فيه ، حتى ضُربَ المثل بروضياته . وحقاً كان ابن الرومي مشغولاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع ، ولكنه لم يَعِشْ لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ويتعهدا تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبري . فهو بحق شاعر من شعراء الطبيعة ، عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفاً لحدائقها وبساتينها ورياضها ، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وكَّده من حياته ، وقديماً عاش تلك المعيشة أبو نواس ، ولكن في الصهباء وكثوسها ودنانها ، مما جعله يُعَلَى وصفها على وصف الأطلال والديار العافية ، وبالمثل نجد الصنوبري يُعَلَى وصف الطبيعة على وصف الديار والأطلال ، في مثل قوله ^(١) :

وَصَفَّ الرِّيَاضُ كَفَانِي أَنْ أَقِيمَ عَلَى وصف الطلول فهل في ذاك من باسٍ
يا واصفِ الرِّوضِ مشغولاً بذلك عن منازلٍ أَوْحَشْتُ من بعد إيناسٍ
قُلْ للذي لام فيه هل تَرَى كَلِيفاً بأملح الرِّوضِ إلا أَمْلَحَ النَّاسِ

فهو يُعَلَى وصف طبيعة بلاده على وصف الأطلال ، وكأنه أول تعبير قوى عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلابَة . ورأيناه في غزله لا يهيم بالمرأة ، وكأنما استأثرت الطبيعة بكل ما فيه من عاطفة ، وشغلته بجمالها الهاجع في الكون عن كل شيء ، حتى لكأنما يعيش لها كل لحظة من حياته ، وفي كل لحظة يصبو لها قلبه ويشد وجهه وتتابع أنفاسه ، ويصور ذلك في قصيدة الأبيات السالفة قائلاً عن رفاق له في أحد البساتين :

ما كدتُ أَكْتُمُهُمْ وَجَدِي بِرُجْسِهِ إلا استدَلُّوا على وَجْدِي بِأَنْفَاسِي

فهو يجد بالرياض وجداً لا يكاد يشبهه وجد ، وكان يشتد به هذا الوجد في الربيع ، حين تأخذ الأرض زخرفها ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار ، وتتغنى

الطيور على الأشجار ، وكأنما تتحوّل الرياض في عينيه إلى أعياد وأعراس ، حتى
ليقول^(١) :

ما الدهر إلا الربيعُ المستنير إذا أنى الربيعُ أتناك النورُ والنور^(٢)
فالأرض يا قوته والجو لؤلؤة والنبت فيروزجُ والماء بلُورُ^(٣)
تظلُ تنثر فيه السُحبُ لؤلؤها فالأرض ضاحكةٌ والطير مسرورُ
حيث التفتَ فقمريُّ وفاخنةٌ يغنيانِ وشفينُ وزرورُ^(٤)
إذا الهزارانِ فيه صَوْتًا فهما السُّ ر نأى والنأى بل عودُ وطنبورُ^(٥)

فالربيع كأنه دكانٌ ملئٌ بالجوهر ، والدنيا مليئةٌ بالبشر والسرور والطيور تغنى
ويشدو عندليبان بصوتيهما الساحر ، وكأنما تجتمع جوقة موسيقية تخب الألباب
بأغانيها الجميلة . ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم في الربيع ليروا مفاته
ويهتف بصواحيبه من النساء أن يتأملنَ في جماله الذى يملأ القلوب غبطةً وابتهاجاً ،
يقول^(٦) :

يا ريمُ قومي الآن ويحك فانظري ما للرُبى قد أظهرت أعجابه^(٧)
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً فالآن قد كشف الربيع حجابها
وردُ بدا يحكى الخدودَ ونرجسُ يحكى العين إذا رأتُ أحبابها
وكانَ خرمهُ البديعَ وقد بدا رؤسُ الطَواوس إذ تدبر رقابها^(٨)
والسرورُ تحسبه العينُ غوانياً قد شمرتُ عن سوقها أثوابها^(٩)

فهو يوقظ صاحبه ل ترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها ، فبدت خدودها
وعيونها الرانية ورعوسها الزاهية ، وكأنما السرو غايات أقبلت مشمرة عن سيقانها

(١) الديوان ص ٤٢

(٥) السرائى والنأى : من آلات الطرب .

(٢) النور : الزهر .

(٦) الديوان ص ٤٤ .

(٣) الفيروزج : الفيروز وهو حجر كريم

(٧) أعجاب : جمع عجب .

أخضر اللون .

(٨) الحرم : زهر بنفسجى زاه .

(٤) القمرى والفاخنة : من الحمام ، والشفين

(٩) السوق : السيقان جمع ساق .

إيهام ، والزرزور : من المصافير .

تريد الرقص في هذا الجو العطر البهيج . ويفرد كثيراً من مقطوعاته لوصف بعض الأزهار ، ولم يكن زهر يملك لُبَّه كما كان يملكه زهر النرجس ، وهو أعظم الأزهار في الشام وأكثرها انتشاراً فيه ، وقد تغنى به طويلاً على نحو ما نرى في قوله ^(١) :

أَرَأَيْتَ أَحْسَنَ مِنْ عَيْونِ النَّرْجِسِ أَمْ مِنْ تَلَاظِهِنَّ وَسْطَ الْمَجْلِسِ
دُرٌّ تَشَقَّقُ عَنْ يَوَاقِيَتٍ عَلَى قُضْبِ الزَّمْرَدِ فَوْقَ بُسْطِ السُّنْدِسِ
أَجْفَانُ كَافُورٍ حُبَيْنَ بَاعَيْنِ مِنْ زَعْفَرَانٍ نَاعِمَاتِ الْمَلْسِ

وهو في كثير من وصفه للنرجس يستهدي بابن الرومي ، إذ كان معجباً به مثله ، ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن ابن الرومي أدار مناظرةً في شعره بينه وبين الورد ، وقف فيها مع النرجس مُورداً من الحجج ما يؤكد فضله على الورد وأنه يفوقه حسناً وجمالاً ، وكأنما أراد الصنوبري أن يعارضه فنظم مقطوعة ^(٢) نصر فيها الورد ، ثم عاد فأقام معركة بين الأزهار ، حاول فيها أن ينتصر للنرجس ، وفيها يقول ^(٣) :

خَجَلُ الْوَرْدِ حِينَ لَاحَظَهُ النَّرْ جِسٌّ مِنْ حُسْنِهِ وَغَارَ الْبَهَارُ ^(٤)
فَعَلَتْ ذَاكَ حَمْرُهُ وَعَلَتْ ذَا حَيْرَةٌ وَعَتَرَى الْبَهَارَ اصْفَرُّ
وَعْدَا الْأَقْحُوَانُ يَضْحَكُ عَجَباً عَنْ ثَنَائِهِ لِثَاثُهُنَّ نُضَارُ ^(٥)
عِنْدَهَا أَبْرَزَ الشَّقِيقِ خَدُوداً صَارَ فِيهَا مِنْ لَطْمِهِ آثَارُ ^(٦)
وَأَضْرَّ السَّقَامُ بِالْيَاسْمِينِ غَضُّ حَتَّى أَذَابَهُ الْإِضْرَارُ

ويمضي الصنوبري على هذا النمط واصفاً القتال بين النرجس والأزهار المختلفة ، وكل منها يبرّز بالترجمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة . وكان كلما وصف بلدة من بلدان الشام وصف طبيعتها الجميلة ، وله في دمشق والرقّة قصائد بديعة ، وأبدع منها قصيدته في موطنه حلب ، وهي أربعة أبيات ومئة استهلها

(٥) الأقحوان : زهر أبيض في وسطه اصفرار

وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان .

(٦) الشقيق : ورد كبير أحمر .

(١) الديوان ص ١٨٠ .

(٢) الديوان ص ٤٩٨ .

(٣) الديوان ص ٧٨ .

(٤) البهار : نبت أصفر .

بالشبيب ، ثم أخذ في وصف متنترتهاها وقرأها ونهرها قويق وبركها ، ثم وصف المدينة نفسها وجامعها وفيه يقول (١) :

حبذا جامعُها الجا معُ للنفس تُقاهَا
ومراقٍ مُنبِرٍ أَعُ ظمُ شىء مُرتقاهَا
وذُرَى مُثَدِّنةٍ طَا لَت ذُرَى النّجم ذُراهَا
قُبَّةٌ أَبَدَعُ بانيهَا بِناءٌ إِذ بناهاهَا
لو رآها مَبْنَى قُبَّةٍ كَسرى مابناهاهَا

وتحدث عن حلقاتها الأدبية والعلمية ، ووصف الطبيعة حولها وأشجارها وأزهارها وصفاً رائعاً ، وتحدث مراراً عن نهر قويق مصرحاً بضحوكة مياهه وأنه ليس فيه شيء من سفن الفرات ولا من تماسيح النيل وإنما فيه فقط نقيق الضفادع . وكان طبيعياً أن يصف الفستق أعظم نُقْل تشتهر به حلب وفيه يقول (٢) :

زبرجدةٌ ملفوفةٌ في حريرةٍ مضمّنةٌ دُرّاً مُعشّى بياقوتِ

وكانت لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء ، ولذلك كان يُحسِّن وصف أى شيء وصفاً دقيقاً ، وما اشتهر به وعُرف له وصفه لديك الصباح الذى ينبهه وينبه الرفاق معه لخمير الصباح التى تسمى بالصَّبَّوح ، وكان الشعراء قبله يلمّون به أحياناً ، أما هو فخصّه بمقطوعة طريفة وفيها يقول (٣) :

مغرّدُ الليل ما يألوكَ تغريداً ملَّ الكرى فهو يدعوا الصُّبْحُ مجهوداً (٤)
لما تطرَّبَ هزَّ العِطْفَ من طربٍ ومدَّ للصوت - لما مدّه - الجيدا
كلابيسٍ مُطَرَفاً مُرَخٍ جوانبه تضاحك البيض من أطرافه السوداً (٥)
رانٍ بِفَصِّ عَقِيْقٍ يدركان له من حِدَّةٍ فيهما ما ليس محدوداً
حالى المقلّد لو قيسَتْ قِلاَدَتُهُ بالورد قصّر عنها الورد توريدا

(٤) الكرى: النوم .

(٥) المطرّف: ثوب من حرير مخطط .

(١) الديوان ص ٥٠٦ .

(٢) الديوان ص ٤٦٤ .

(٣) الديوان ص ٤٧٣ .

وكان كثيراً ما يخرج مع رفاقه للصيد والقنص ، وخاصة في الرقة ، يصيدون بالكلاب الغزلان أو يصيدون بالحوارح طير الماء ، وقد يصيدون السمك من الفرات بالشباك ، وكل ذلك نجد وصفه في أشعاره ، وله طائفة^(١) يصف فيها جواده الذي يركبه للصيد وقد جُنَّ جنونه من السرعة حتى لكأنه يحاقد على الفضاء ، أما يده فكانها منبر للشاهين الذي سيطلقه على بَطِّ الماء أو طيِّره ، وفيه يقول :

كَأَنَّمَا مِخْلَبُهُ لِأُذُنِ الطَّيْرِ قُرْطُ

ويعصور سرعة مضيه حتى كأنه سَهم يخرج عن قوس ، فلا يكاد يرتد البصر حتى يأتي بصيده . ويتركه إلى وصف ما معه من كلاب الصيد ، مصوراً سرعتها هي الأخرى وهيئتها وانقضاضها على فرائس الصيد من الغزلان وغير الغزلان ، وفيها يقول :

مَوَكَّلَاتٍ بِالْفَلَا يَطْوِينَهَا طَيَّ البُسْطِ .

كَأَنَّمَا آذَانُهُ نَّ سَوَسْنُ لَمْ يُجَنَّ قَطُّ

كَأَنَّمَا أَجْفَانُهَا عَنْ قِطْعِ الْجَمْرِ تَعَطُّ .^(٢)

وساعدته حاسة التصويرية على أن يصور كل ما حوله وكل ما يقع عليه نظره ، من ذلك تصويره للجُرْذَانِ والهَرِّ^(٣) ، ونراه يقدم لذلك بتصوير هيئة كل منهما ، فالحُرُّ أحذب الظهر منتصب الرأس ، والجُرْذَانُ دقيقة الخراطيم والآذان والأذنان حادة الأظفار والأنياب ، ثم يتحدث عن إفسادها لكل شيء وكيف تنقب الحيطان والجدران وتصيب من كل طعام وشراب ، والهَرُّ لها بالمرصاد ، يقول :

نَاصِبٌ طَرَفُهُ إِزَاءَ الزُّوَايَا وَإِزَاءَ السَّقُوفِ وَالْأَبْوَابِ

يَسْحَبُ الصَّيْدَ فِي أَقْلٍ مِنَ اللَّمِّ حَاحَ وَلَوْ كَانَ صَيْدُهُ فِي السَّحَابِ

ويعصور لنا فرحه به حتى لقد ألبسه قُرْطاً وقلادة ، وخضبه بالحناء ، وكأنه عروس مقلدة عقداً نفيساً ، تمشي بأقدامها الحمراء على عُنَاب ، وكل ذلك

(١) الديوان ص ٢٨٣ .

(٢) الديوان ص ٤٥١ .

(٣) تعط : تشق .

فرح بهذا الليث الذى قضى له على الجرذان قضاءً مبرماً . ومن تصاويره قوله فى شمعته^(١) :

مَجْدُولَةٌ فى قَدِّهَا تَحْكِي لَنَا قَدَّ الْأَسْلُ
كَأَنَّهَا عُمُرُ الْفَتَى وَالنَّارُ فِيهَا كَالْأَجَلِ

وهى صورة طريفة ، ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد بخصب خيال الصنوبرى وأنه كان خيالا خالقاً ، لا يزال يرسل الصور الطريفة تلو الصور ، صور تحفل بما يملأ نفس قارئه إعجاباً ، وكان إلى ذلك شغوفاً بالرياض والطبيعة شغفاً ملك عليه حواسه ، حتى أصبح فيه قنوة للعصور التالية .

(١) الديوان ص ٤٨٥ . والأسل : الرماح .

الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا في كتاب العصر العباسي الأول أن حزب الخوارج الذي كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خَمَدَ أَوَارُهُ ، ولم تَبْقَ منه حيثُذ إلا أسراب قليلة حتى إذا كنا في هذا العصر العباسي الثاني كادت تجفُّ هذه الأسراب ، ولم يَعدْ من يُعلن أنه خارجي أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكونوا حزباً أو يعملوا على نشر دعوة ، إنما هي أفكار قد تَعِنَ لشخص ، وقد يتبنّاها ، ولكن دون أن يَحْتَمِل من أجلها السلاح ودون أن يتغنى بها شعراً ، إلا ما كان من صاحب الزنج فإنه مزج في دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، إذ كان يستحلّ قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعاً كفاراً ينبغي استئصالهم ، بالضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة . ولكن حتى هذه الحركة الثائرة حركة الزنج لا نستطيع أن نسميها حركة من حركات الخوارج ، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيوعية ناسباً نفسه إلى فاطمة الزهراء كذباً وافتراء . وكأنما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذي جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوي .

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخمد في هذا العصر ، بل لعلها ازدادت اشتعالاً ، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين في الحجاز وفي طبرستان وشرق الدولة ، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرمي بتذائفه وشعله على العباسيين . وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين ، بل لقد كانت كثرتهم

الغامرة تقف معهم ؛ لأنهم أصحاب الدولة وفي أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كيئلا ، فكان طبيعيا أن يكثر مدّاحهم ودعاتهم ، بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يُظْهِرون غير ما يُبْطِنون ، فيمدحون هذا الخليفة العباسي أو ذاك لقاء ما يُنْشَرُّ عليهم من دراهم ودنانير . وكان منهم الخليفة المعتدل الذي لا يَحْتَمِلُ على البيت العلوي ولا يَضْطَغِنُ مثل المنتصر ، وكان منهم المتحامل المبغض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر ، وقد مرَّ بنا أمره بِحَرِّث قبر الحسين ومَحْوِ أرضه ومسَّعِ الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه في النجف ، وغدا آل أبي طالب في محنة عظيمة طوال عهده يخافون على أنفسهم من القتل أو من الحبس . وتقرَّبَ إليه غير شاعر من مثل علي بن الجهم بِشِثْمٍ على رضى الله عنه كما أسلفنا ، إما نَصَصًا وإما تعريضًا كقول الجهمَّاز أحد ندمائه (١) :

ليس لى ذنبٌ إلى الله يعة إلا خلتين
حبَّ عثمان بن عفَّان وحبَّ العُمَريْن

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ملوِّحًا بأنه من أهل السنة ، وأنه على مذهب المتوكل في التسنُّن ومَنَقَت الشيعة . وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كي يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حَقًّا للخلافة ، ملوِّحين في وجوه العلويين ومن يقفون معهم من الشيعة . وعرف الشعراء فيه هذا الجانب ، فاستغلوه بِقَدْمِهِم ابن الجهم مروان بن أبي الجنوب وغيرهما كثيرون ، وأتوه من كل فَجٍّ من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية . وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشَّيْبَلِ البُرْجُمِسِيّ ، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتًا استهلَّها بقوله (٢) :

أَقْبِلِي فَالْخَيْرُ مَقْبَلُ واتركي قولَ المعلَّل
وثقبي بالنُّجَجِ إِذْ أَب صرَّت وجهَ المتوكل

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت ، فانصرف بثلاثين ألف

(١) معجم الشعراء للرزباني (طبعة الحلبي) (٢) الأغاني (طبع دار الكتب المصرية) ص ٣٧٥ . ١٩٣ / ١٤

درهم . وكان يتغذو ويرُوح وفي ركباه البحرى يمدحه في كل مناسبة مشيداً بآبائه وورائته لنور النبوة وإمامته وعهده وعدله ، ويتحول إلى ما يشبه داعية له في كل عمل من أعماله . ومن طريف ما نقرأ من مدائح للمتوكل عند غيره مدحة لإبراهيم بن المدبر وكان لا يزال شاباً يعمل في دواوينه ، فرض المتوكل ثم عوفى ، ودخل الناس على طبقاتهم يهثونه بالإبلال من مرضه ، ودخل إبراهيم ، ولم يكده يقف بين يديه حتى أنشدته قصيدة يهثئ فيها بسلامته مهللاً مبتهجاً مع المبتهجين المهللين ، وفيها يقول^(١) :

اليوم عادَ الدينُ غَضَّ العودِ ذا وَرَقٍ نَصِيرِ
يا رحمةً للعالمِ نَ ويا ضياءَ المستنيرِ
يا حجةَ الله التي ظهرتْ له بهْدَى ونورِ

والمبالغة واضحة وكأننا بلزء غال من غلاة الشيعة يمدح إمامه ، وقد لعبت فيما بعد كلمة « حجة الله » دوراً كبيراً في المذهب الإسماعيلي الفاطمي . وكان طبيعياً أن يطرب المتوكل حين سمع القصيدة ، فيأمر له بخمسين ألف درهم ويتقدم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى أن يوليه عملاً جليلاً ينتفع به . وكان كثيرون يسيل لُعابهم لمثل هذا العطاء الجزيل ، حتى كبار الكتّاب من أمثال إبراهيم بن العباس الصولى ، وكانوا ما يزالون ينتهزون الفرص من الأعياد والمناسبات ، وكان من أكبر هذه المناسبات عقد المتوكل البيعة لولاية العهود أبناءه الثلاثة : المنتصر فالمعتز فالمويد ، وصنع لذلك موكباً ضخماً ، سار فيه مع أولاده حتى نزل القصر الذى سمّاه العروس وأذن للناس فدخلوا إليه ، فلما تكاملوا بين يديه وقف الصولى بين الصّفيّين ، واستأذن في الإنشاد فأذن له فقال^(٢) :

أَضَحَتْ عُرَى الإسلام وَهَى منوطةٌ بالنَّصرِ والإِعزازِ والتَّسايُيدِ
بِخليفةٍ من هاشمٍ وثلاثة كَتَفُوا الخلافةَ من وُلاةِ عهودِ

التأليف والترجمة والنشر) مع مجاميع شرعية
أخرى ص ١٣١ .

(١) أغاني (طبعة الساسى) ١١٤/١٩ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٦٤/١٠ .

وانظر الطبرى ١٨١/٩ والديوان (طبع لجنة

قمرٌ توافَتْ حوله أقمارهُ فَحَفَقْنَ مَطْلَعَ سَعْدِهِ بسعود
كَنَفَتْهُمُ الآبَاءُ واكتنفت بهم فَسَعَوْا بِأَكْرَمِ أَنْفُسٍ وجدود

فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاية اليهود بمثلها . ويتولى بعده المنتصر ،
فيرفع المحنة عن آل أبي طالب ويدفع عنهم الأذى ويردُّ عليهم الأمن ، ويتغنى
شعراؤه بهذا الصنيع ، يتغنى البحترى ويتغنى غيره ، ويتغنى شعراء الشيعة من
أمثال يزيد^(١) بن محمد المهلبى . وسرعان ما يخلفه المستعين ، وفيه يقول أحمد بن
يحيى البلاذرى^(٢) :

ولو أَنَّ بُرْدَ المصطفى إِذْ لَبِسَتْهُ يَظُنُّ لَظْنَ البُرْدِ أَنَّكَ صَاحِبُهُ
وقال وقد أعطيته وَلَبِسَتْهُ نَعَمْ هَذِهِ أَعْطَاهُ وَمَنَاجِبُهُ

ويتولَّى الخلافة بعده المعتز ، وكان شاعراً مجيداً ، ولو امتدت به الخلافة
لكان مثل ابنه عبد الله فى خصب ملكاته الشعرية ، وقصده كثير من الشعراء ،
ليأخذوا جوائزه أو ليصبحوا من ندمائه إذ كان صاحب لهو وقصف ، فلم يكد ينسلم
مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم ، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهنتاً أبوعلى
البصير قائلاً^(٣) :

أَبَ أَمْرُ الإسلام خير مآبٍ وغدا الملك ثابتاً فى نصايه
مستقراً قراره مطمئناً أهلاً بعد نأيه واغترابه

وتطول مدة المعتمد نحو عشرين عاماً أو تزيد سنوات ، وكان فيه لهو وانغماس
فى الترف ، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال ، كشفها أخوه وولى عهده الموفق
أشد بنى العباس شكيمة لعصره وأحزمهم بكل معانى الحزم وأروعه . وكأنما اختاره
القدر فى عصر أخيه لينازل الزنج وصاحبهم فى ثورتهم العارمة ويقضى عليها قضاء
مبرماً . فكان طبيعياً أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولى عهده وأمجاده الحربية
فى وقائعه مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفَّار من جهة ثانية ، وقد صورنا هذه

(٣) مروج ٤ / ٨٢ .

(١) مروج الذهب ٤ / ٥٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٨ .

الوقائع في غير هذا الموضع ، وفي وقائعه مع الصفار يقول ابن فيّند الطائي مصوراً انتصاره^(١) :

ووليَّ عهد المسلمين موقِّعُ بالله أمضى من شهابٍ ثاقبٍ
يا فارسُ العُربِ الذي ما مثله في الناس يُعرَفُ آخرُ لنوائبِ

وتولّى الخلافة المعتضد ، وكان مثل أبيه شجاعاً وفروسية وحزماً ، ومراً بنا أنه كان من مدّاخه ابن الرومي فهو يهنته في الأعياد المختلفة وينتهز كل مناسبة لينظم فيه أشعاره مهللاً ومجداً . ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه ، كما أسلفنا ، وكان قُرّة عينه ، وله صنع أرجوزته التاريخية التي صوّر فيها عهده تصويراً بارعاً ، وفيها أصلّى خصوم العباسيين نارا حامية ، مصوراً بشاعة ثورق الزنج والقرامطة ، وكأنما جرّد من نفسه محامياً أمام أبناء عمومته العلويين مدافعاً عن بيته وحقوقه في الخلافة ، ومراً بنا ذلك في حديثنا عنه . ويتولّى المكتفى بعد أبيه المعتضد ويُسبِّغ عليه ابن المعتز مدائحه ، كما يُسبِّغُها أبو بكر الصولي وغيره . ثم تكون خلافة المقتدر وتأخذ الدولة في الانتكاس . ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلباً للنوال من أمثال ابن بسّام^(٢) وغير ابن بسام . ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر طالما مدحوا خلفاءه ، وهم مروان بن أبي الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي .

مروان بن أبي الجنوب أبو السمط^(٣)

حفيد مروان بن أبي حفصة شاعر الخليفة المهدي ، أصل موطنهم اليمامة ، وقد سلك مسلك جدّه في الطعن على آل علي بن أبي طالب ، فكان طبيعياً أن يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حسنّقه على أبناء عمه العلويين

والطبري ٩/ ٢٣٠ والأغاني (طبعة الساسي) ٩/ ٣٤
وتاريخ بغداد ١٣/ ١٥٣ والفهرست لابن
التديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ ووفيات الأعيان
وخزانة الأدب للبغدادى ١/ ٤٤٧

(١) طبري ٩/ ٥٢٠ .
(٢) انظر أخبار الرازي والمتقى في كتاب
الأوراق للصولي .
(٣) رابع في أخبار مروان وأشعاره الشعر
والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز
ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٤/ ٥٢ ، ٨٣

ما صورناه في غير هذا الموضع . ويبدو أن الواثق لم يكن يُعجَبُ به ولا بشعره فنفاه إلى اليمامة ، فلما ولي الخلافة بعده المتوكل بعث إلى ابن أبي دؤاد مستشاره بقصيدة مدحه بها ، ذم فيها ابن الزيات وزير الواثق ذمًا قبيحًا ، وكان المتوكل قد قبض على أمواله وعذَّب به في تنسُّور من خشب ملاء بمسامير من حديد حتى مات فقال فيه مروان :

وقيل لى الزِّيَّاتُ لاقى حِمَامَهُ فَقُلْتُ أَتَانِي اللهُ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ
لقد حفر الزيات بالغدر حُفْرَةً فَأُلْقَى فِيهَا بِالْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ
وكان ابنُ الزيات أولَ من عمل هذا التنسُّور ، وعذَّب به نفرًا . وما إن صارت القصيدة إلى ابن أبي دؤاد حتى طار إلى المتوكل وأنشده البيتين السالفين ، فأمره بإحضاره . فقال له إنه باليمامة ، كان الواثق نفاه لمودته لأمر المؤمنين ، وعليه دَيْنٌ : ستة آلاف دينار ، فقال المتوكل : يُعْطَاها . فأعطيت له ، وجيء به إلى سامراء ، فدخل على المتوكل وأنشده قصيدة لامية يقول فيها :

كَانَتْ خِلاَفَةُ جَعْفَرٍ كَنْبُوَّةً جَاءَتْ بِلَا طَلَبٍ وَلَا بَتَنْحُلٍ
وَهَبَ الْإِلَهُ لَهُ الْخِلاَفَةَ مِثْلَمَا وَهَبَ النَّبُوَّةَ لِلنَّبِيِّ الْمُرْسَلِ

فأمر له بخمسين ألف درهم . وأخذت هباتُ المتوكل الغدقة تنثر عليه نشرًا ، فهو يغندو ويروح عليه بالمدائح ، والمتوكل يُسَبِّحُ عليه عطاياه ، وكان مما أخذ فيه نوالا كبيراً قصيدته التالية التي أنشدها المتوكل حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : محمد المنتصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد ، وفيها يقول :

ثَلَاثَةٌ أَمْلَاكَ فَأَمَّا مُحَمَّدٌ فَنُورٌ هُدًى يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ يَهْدِي
وَأَمَّا أَبُو عَبْدِ الْإِلَهِ فَإِنَّهُ شَبِيهَكَ فِي التَّقْوَى وَيُجَدِّى كَمَا تُجَدِّى
وَذُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ لِلنَّاسِ عَصْمَةٌ تَقِيُّ وَفِيَّ بِالْوَعْدِ وَبِالْوَعْدِ
فَأُولَهُمْ نُورٌ وَثَانِيَهُمْ هُدًى وَثَالِثُهُمْ رُشْدٌ وَكُلُّهُمْ مَهْدِي

فلما أتمَّ إنشادها أمر له المتوكل بمائة وعشرين ألف درهم وخمسين ثوباً وببغلة وفرس وحمار ، فما برح حتى قال في شكره :

تَخَيَّرَ رَبُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ جَعْفَرًا فَمُلْكُهُ أَمَرَ الْعِبَادَ تَخَيَّرًا
 حينئذ رَدَّ عَلَيْهِ ضِيَاعَهُ الَّتِي كَانَ ابْنُ الزِّيَّاتِ قَدْ صَادَرَهَا ، وَجَعَلَ لَهُ رَاتِبًا فِي
 الدِّيَّانِ ، وَلَعَلَّ أَهْمَ مِنْ كُلِّ هَذَا الْمَدِيحِ أَنَّهُ دَافِعٌ بِجَرَارَةٍ فِي جَوَانِبِ مَنْ مَدِيحُهُ عَنْ
 حَقِّقِ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي الْخِلَافَةِ مُؤَسَّسًا فِي ذَلِكَ بِجَدِّهِ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ ، وَانْتَسَى
 بِهِ أَيْضًا فِي الرَّدِّ عَلَى الْعُلُوِّيِّينَ وَنَقَضَ مَا يَدَّعُوْنَهُ مِنْ وَرَاثَةِ الرَّسُولِ فِي الْخِلَافَةِ ، إِذْ
 هُمْ أَبْنَاءُ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ وَالْعِمُّ مُقَدَّمٌ عَلَى أَوْلَادِ الْبَنَاتِ فِي الْوَرَاثَةِ حَسَبَ حَكْمِ
 الشَّرِيعَةِ . وَمِنْ خَيْرِ مَا يَصُورُ ذَلِكَ عِنْدَهُ قَصِيدَتُهُ الْمِيمِيَّةُ الَّتِي تَمُضِي عَلَى هَذَا
 النَّمَطِ :

مُلْكُ الْخَلِيفَةِ جَعْفَرٍ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا سَلَامَةٌ
 لَكُمْ تَرَاثُ مُحَمَّدٍ وَبِعَذْلِكُمْ تُنْفَى الظُّلَامَةُ
 يَرْجُو التَّرَاثُ بَنُو الْبَنَاتِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا قُلَامَةٌ
 وَالصُّهْرُ لَيْسَ بِوَارِثٍ وَالْبَنْتُ لَا تَرِثُ الْإِمَامَةَ
 أَخَذَ الْوَرَاثَةَ أَهْلُهَا فَعَلَامَ لَوْكُمْكُمْ عِلَامَةٌ

وَهُوَ يُشِيرُ بِوُضُوحٍ فِي الْأَبْيَاتِ إِلَى أَنَّ مَصَاهِرَةَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ لَا تَوْجِبُ لَهُ وَرَاثَةً ، كَمَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ بِنْتُ ، وَالْبَنْتُ لَا تَرِثُ
 الْوِلَايَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَحَقُّ لَهَا الْإِمَامَةُ ، فَكَيْفَ تُورِثُ الْإِمَامَةَ مِنْ قَبْلِهَا ؟
 وَالشَّرِيعَةُ وَاضِحَةٌ فِي ذَلِكَ . وَطَارَ الْمُتَوَكِّلُ حِينَ سَمِعَ الْقَصِيدَةَ ابْتِهَاجًا ، وَقَلَّدَهُ
 الْيَامَةَ وَالْبَحْرَيْنِ وَخَلَعَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ خُلَعٍ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَلِيَّ عَهْدِهِ الْمُنتَصِرُ . وَأَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ
 لَهُ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ دِينَارٍ فَتُرِثَ عَلَى رَأْسِهِ ، وَأَمَرَ ابْنَهُ الْمُنتَصِرُ وَسَعْدًا الْإِيْتَاخِيَّ بِاتَّقِطَانِهَا
 لَهُ دُونَ أَنْ يَلْتَقِطَ هُوَ مِنْهَا شَيْئًا إِكْرَامًا لَهُ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ حَشَا فَمَهُ جَوْهَرًا ، وَمِنْ طَرِيفِ
 مَا لَهُ فِيهِ قَوْلُهُ :

تَخْشَى الْإِلَهَ فَمَا تَنَامُ عَنَائَةً بِالْمُسْلِمِينَ وَكُلَّهُمْ بِكَ نَائِمٌ
 لَوْ كَانَ لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ فِيمَا مَضَى سَلَفٌ سِوَاكَ لَقُدِّمْتُ بِكَ هَاشِمٌ
 وَقَالَ بَعْضُ مُعَاَصِرِيهِ إِنَّ الْمُتَوَكِّلَ أَعْطَاهُ مَائَتِي أَلْفَ دِينَارٍ مِنْ وَرَقٍ (فُضَّة)

وذهب وكُسوة . وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تملو جائزته جوائزهم ، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجى حتى شاعرٌ نابهٌ مثل على بن الجهم نراه يتهاجى معه ، ولم يكن مروان يتصنم بل كان يبادر أحياناً إلى الهجاء ، ويروى أن ابن الجهم قال فى فاتحة قصيدة له فى المتوكل :

الله أكبرُ والنبيُّ محمدٌ والحق أبْلَجُ والخليفة جعفرُ

ولم يكد يسمع مروان قوله ، حتى أعمل فكره ، وبادره يقول له ساخراً منه سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة :

أراد ابنُ جَهم أن يقول قصيدةً بمدح أمير المؤمنين فأذنا
فقلتُ له لا تعجلنْ بإقامتي فلستُ على طُهرٍ فقال : ولا أنا

وكان يقدمُ لمداخلة بنسب رقبتي يحيى فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا ويتمنى زورةً لهم أو إلمامة قصيرة . وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب ، والشباب وعهده وعهوده ، وحبه الماضى ، وفيها يقول :

شمسُ الشبابِ على اليومِ طالعةٌ وسوف تغربُ إن الدهر ذو غيرِ
إذا الشبابُ مضتْ عنا بشاشته فما نُبالى متى صرنا إلى الحُفرِ
لنا من الشوقِ أكبادُ مصدعةٌ وأعينُ كُحِلتْ بالدمعِ والسَّهرِ
سَقياً ورَعياً لأطعانٍ مُوكَّبةٍ فيها خرائدُ كالغزلانِ والبقرِ
ودعتهنَ وداعاً زادنى كمداً ما كان إلا كورِدِ الطائرِ الحذِرِ

وله شعر فى المعتز رواه المسعودى فى المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره . ولعل فيما قدمنا من أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جندّه يعنى بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة .

على ^(١) بن يحيى المنجم

من أصل فارسي أسلم أبوه يحيى على يد المأمون وخصَّ به ، ويقال إن جدَّ يحيى أبرسام البُرْزُج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره . وشملتُه عناية المأمون هو وابنه على ، وتوالى عليهما يرُّه ، وأخذ نجم الأسرة في التألق ببلاط المأمون والمعتصم ، وتوثقت الصلة بين علي ومحمد بن إسحق بن إبراهيم المصعبي ، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، ووصَّفه له وقدَّمه إليه ، وأعجب به المتوكل وقرَّبه منه ، حتى صار أكبر ندمائه ، يساعده في ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار . وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف ، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر ، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده ، ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار ، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضاً ، وقدَّمه على جميع جلسائه ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وأقرَّه المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال . ثم خلص الأمر للمعتز ، فكان أول من طلبه لمناذمته على بن يحيى ، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله ، وقلَّده الأسواق والعمارات ، وقدَّمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلَّده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ثم أفضى الأمر إلى المعتد ، فمَحْظَى في عهده حُظوة كبيرة ، ووصله صلات سنيَّة ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه موفق حتى نهاية حياته .

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء ، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة . وكان ابن المنجم مع ظرْفه وما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبة ، بل قل مع اكتمال خصال المناذمة فيه ومعرفته بضرور الثقافات ، حتى

والأغاني (طبعة السامي) ٢٢/٩ وقاريغ بغداد
١٢١/١٢ ومرجع الذهب ١٩١/٤ والنجوم
الزاهرة ٧٣/٣ .

(١) انظر في حياة علي بن يحيى وأشعاره
عدهم الأدبيات ١٤٤/١٥ وسعديهم الشعراء
لشربزبان ص ١٤١ وثقافت ص ٢١١

قيل إنه طبيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحك ، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار ، وكان يُعَدّ من رعاة الأدب في عصره حتى كان بيته مألفاً للأدباء ، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء ، ويستخرج لهم منهم الصلات ، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدي إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة ، حتى ينفحوهم بالنوال السابغ ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يحرمون الصلات من الأدباء . وليس ذلك كل ما يرفع منه ، فقد ألهمه تفكيره الصائب أن يستغل الأموال الكثيرة التي كانت تُنْشَرُّ عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء في إقامة مكتبة ضخمة ، مرّ بنا حديث عنها في غير هذا الموضع ، وكان طلاب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبدولة لهم ، وكذلك النفقة مهما طالّت إقامتهم . وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب في عصره ، بل لعله كان أكبر رعاتهما ، ولا شك في أن ما عُرِفَ عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذي جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صنْعَ مكتبة له يباهى بها معاصريه . ومن تنمة ثقافته أن يُذَكِّرَ له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين ، وكتاب أخبار إسحق الموصلي وكتاب الطبيخ ، والكتابان الأخيران بتصلان بمناذمته لاتصالهما بأخبار المغنين وبتذوق الأطعمة .

وكان شاعراً ، وله شعر كثير كما يقول ياقوت في ترجمته ، غير أنه لم يكن يُعْجَبُ بشعره ، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء في سياق أخباره ، ولو أنه صنع لاطلعنا بوضوح على أشعاره في الخلفاء والوزراء . ولعل أول شعر قاله ما نظمه في رثاء المأمون ومديح المعتصم ، مما رواه ياقوت في ترجمته ، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة في المتوكل ومن تلاه من الخلفاء ، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله في المعتر حين استولى على مقاليد الخلافة :

بَدَا لَابِساً بُرْدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	بَأَحْسَنَ مِمَّا أَقْبَلَ الْبَدْرُ طَالِعَا
سَمِيَّ النَّبِيِّ وَابْنَ وَارِثِهِ الَّذِي	بِهِ اسْتَشْفَعُوا أَكْرَمَ بِذَلِكَ شَافِعَا
وَكُلَّ عَزِيزٍ خَشِيَهُ مِنْهُ خَاشِعٌ	وَأَنْتَ تَرَاهُ خَشِيَةَ اللَّهِ خَاشِعَا

وهو شعر متوسط ، شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة ، ولذلك كان يستساغ في

وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونوادهم وفكاهاتهم . وهكذا دائماً شعرهم ، فهو
 إنما يُعجب في لحظة قوله ، ولذلك كان يرُوى مع أخبارهم . ومن هذا الطراز
 نفسه قصيدته في الفتح بن خاقان التي أنشد ياقوت منها بعض أبياتها ، وله وراء
 ذلك أشعار يصوّرها سمو نفسه ، لعل من أطرفها قوله :

مِيعْلَم دَهْرِي إِذْ تَنْكُرُ أَنِّي صَبُورٌ عَلَى نَكَرَانِهِ غَيْرِ جَاذِعٍ
 وَأَنِّي أَسُوسُ النَّفْسِ فِي حَالِ عُسْرِهَا سِيَاسَةً رَاضٍ بِالْمَعِيشَةِ قَانِعٍ
 كَمَا كُنْتُ فِي حَالِ الْيَسَارِ أَسُوسُهَا سِيَاسَةً عَفٌّ فِي الْغِنَى مُتَوَاضِعٍ
 وَأَمْنُهَا الْوَرْدَ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِي وَإِنْ كُنْتُ ظَمَانًا بَعِيدَ الشَّرَائِعِ

فهو يصور نفسه صابرة لا تجزع مهما ادهمت الخطوب ، كما يصور نفسه
 لا تهون في حال عسر أو شدة ، بل تتقبلها راضية قانعة كما تقبلت اليسر قبلاً
 مزدرية مغرياته في تواضع غير مسفة دون أي إحساس باستعلاء ، وإنه ليمنع نفسه
 الإلمام بأي وردٍ دنى مهما كان ظمآن ، كاظماً لظمئه ، محتملاً لحرارة عطشه .
 وله في الطيف :

بِأَبِي وَاللَّهِ مَنْ طَرَقَا كَابْتِسَامُ الصَّبْحِ إِذْ خَفَقَا
 زَادَنِي شَوْقًا بِرُؤْيَتِهِ وَحَشَا قَلْبِي بِهِ حُرْقَا
 زَارَنِي طَيْفُ الْحَبِيبِ فَمَا زَادَ أَنْ أَغْرَى بِيَ الْأَرْقَا

وكأنما أراد أن يحاكي البحترى في كثرة أشعاره التي نظمها في الطيف . ولا شك
 أنه من طراز متوسط ، فأجنحته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به في
 الأفق الذي يخلق فيه البحترى . ومَرَّتْ بنا آنفاً رعايته للأدباء والشعراء ، مما جعل
 غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه ، مصوراً كرمه الفياض من مثل قول
 أبي هفان :

لَرْبِيعِ الزَّمَانِ فِي الْحَوْلِ وَقْتُ وَابْنُ يَحْيَى فِي كُلِّ وَقْتٍ رَبِيعُ
 رَجُلٍ عِنْدَهُ الْمَكَارِمُ سَوْقُ يَشْتَرِي دَهْرَهُ وَنَحْنُ نَبِيعُ

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عاماً بكاه كثير من الشعراء ، وفي مقلمتهم ابن بسّام ، وقد أنشدنا في غير هذا الموضع مرثيته له ، وهي مرثية جيدة .

أبو بكر الصولي^(١)

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي من بيت كتابة وشعر ، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية ، مثل عمه إبراهيم بن العباس ، وكان أكبر كتاب في دواوين المتوكل . وهما من أسرة صول تكين أحد أمراء جرجان . كان قد ظفر به يزيد بن المهلب في بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج ، فأسلم على يديه ، ولزمه وأصبح من رفاقه ، حتى إذا ثار يزيد على بني أمية في أوائل القرن الثاني للهجرة ثار معه عليهم محارباً في صفوفه ، ودارت عليهما معاً الدوائر فسقطا قتيلين في ميادين المعارك . وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره في بغداد : أبي داود السجستاني وثلعب والمبرد ، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة ، وتدل صلته بالأخيرين على معرفته بعلوم الأوائل . وكان يُحسن لُعبة الشطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها في زمنه . وأكبّ على معارف عصره إكباباً منقطع النظر ، وجعله هذا الإكباب يُعَسِّنِي بجمع الكتب ، وما زال يجمعها حتى كَوَّنَ لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه ، كما أسلفنا ، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان ، إذ جعل لكل صف من الكتب لوناً ، فصنف أحمر وصنف أخضر إلى غير ذلك . وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته في لعبة الشطرنج أبواب الخلفاء منذ عهد المعتضد ، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدايحهم ، وهم ينثرون عليه أموالهم ، مما جعله يعيش معيشة رَغْدَة . وكلّفه المقتدر تعليم ولديه الراضي وهرون ، فأحسن تعليمهما ، وخرّج أولهما شاعراً وأديباً لَسِيناً ، حتى إذا ولي الخلافة اتّخذَه نديمه ومستشاره . ويزورُ عنه الخليفة المتقي بعده فيترك بغداد إلى

الآداب ص ٢٤٥ ومجمع الأدباء ١٩ / ١٠٩
وفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٩٦
وله في كتابه أخبار الراضي والمتقى أشعار كثيرة .

(١) انظر في أخبار أبي بكر الصولي وأشعاره
الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٣ / ٤٢٧
ومجمع الشعراء للمرزباني ص ٤٣١ وديوان
المعاني للمسكوي (انظر الفهرس) وذيل زهر

بجكم التركي حاكم واسط سنة ٣٢٩ ويتوفى المتقى سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة ، فيتركها إلى البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبى نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكنى عرف تشيعه لآل علي بن أبي طالب فطلبه ، وفر منه إلى البصرة .

وقد صنع الصولي دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين في مقلداتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومي وابن المعتز ، وصنّف كتباً جليّة في أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتّاب والرؤساء . ومن كتبه النفيسة كتابه « الأوراق » وقد نُشر منه ثلاثة أجزاء : جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفتين : الراضى والمتقى . ونُشر له مصنفه أدب الكتّاب وكتاب أخبار أبي تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه ، ولعل في ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسي ، وأنه كان يقف في دقة على أساليبه ومذاهبه ؛ إذ نبّه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر ولامّ من يعيونه ببعض أبيات فاته التوفيق فيها متناسين تحليقه في آفاق الشعر العليا التي تنقطع من دونها الرقاب .

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولي شاعراً ناقداً عالماً ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة في عصره . ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التي كان يُنشدها الراضى في حفلات القصر وفي المناسبات المختلفة دونّها بنفسه في أخباره ، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية . وسقطت من يد الزمن مدائحه في المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودي أنه أنشدها في قصيدة مدحه بها ، وفيها يقول :

لَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَضِدُ بِحَرْ جُودٍ لَيْسَ يَغْدُوهُ أَحَدٌ

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتنّى سوى قصيدة واحدة ، وقد اضطر — كما يقول — إلى أن ينشدها المتقى حين استولى على مقاليد الخلافة ، وكان قد طُلب إليه أن ينشده عاجلاً قصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتقى بدلا من كلمة المكتنّى ، وفيها يقول :

مددت على الإسلام أكنافَ نعمةٍ لأعطاها ظلُّ عليه ظليلٌ
 ولولا بنو العباس عمُّ محمدٍ لأصبح نور الحق فيه خمول
 لكم جبلا الله اللذان اصطفاهما يقومان بالإسلام حين يميل
 نبوته ثم الخلافة بعدها وما لهما حتى اللقاء حويل^(١)
 وكلُّ ما في القصيدة من صياغة وخيال يدلُّ على أن الصولي كان يتكلف هذا
 المديح تكلفاً. حقاً هو يبالغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية، ولكن نحس
 أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية، وبالمثل ما رواه له عريب
 في ذيل الطبرى من مديح للمقتدر، وحتى الراضى تلميذه الذى أغدق عليه عطاياه
 حتى لكأنما تحولت إلى نهر فياض نجد في مدائحه له نفس هذا الطراز المتكلف.
 وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة، وقد تطول
 طولاً مسرفاً، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على
 مردويج الثائر بأصبهان :

آنس الله بالخليفة ملكاً موحش الربع واهن التأسيس
 يانسيم الحياة أضحكت دهرأ كان لولاك دائم التعيس
 مردويج بسيف حظك مقتو ل فاهون بذاك من مرموس^(٢)
 قصفته رياح أيامك الغ ر فاحمدن منه نار المجوس
 وتولت بماتم الدهر أيا م اتتنا تجر ذيل العروس

والتكلف واضح في الأبيات، والصور لا تقع في مكانها، فالخلافة كانت موحشة
 وكانت واهنة، والخليفة نسيم الحياة، نسيم أضحك دهرأ كان عبوساً قمطيراً ومردويج
 لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضى الغراء، وخلعت الأيام سواد
 الحزن، وجاءت تجر ذيل الفرع. كلام متلاصق، وليس شعراً حياً نابضاً
 بروح، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التى أنشدها في مجلسه
 لسنة ٣٢٧ وفيها يقول :

(٢) مرموس : من الرس وهو القبر .

(١) حويل : تحول .

خليفةُ أَكْمَلَتْ فضائلُهُ ففرَّعُهُ طيِّبٌ ومَحْتَدُهُ
تعبَّد المجد فهو يَمْلِكُهُ طارِفُهُ عنده ومُتَلَدُهُ
قد رضى الراضى الإلهُ لِإِصْلاح زمانٍ سِواه مفسدُهُ
فهو بتفويضه الأمور إلى اللاهِ بِمحسن التوفيق يعضدُهُ

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من تكلف يتضح فى بناء الشطر الثانى من البيت الأول على سابقه ، كما يتضح فى جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استدله ، والجناس بين رضى والراضى شديد التكلف ، وكلمة سواه نائية فى مكانها غير مستقرة والصياغة فى البيت الرابع تتناثر أجزاؤها تنافراً شديداً . ومن هذا الطراز نفسه عزاؤه للراضى فى أخيه هرون ، وهو يستهله على هذا النمط

نَعَزَّ يا خير الورى عن أَخٍ لم يَشْبِ الإخلاص باللبس
كان صديقاً وافرأ ودُّهُ صداقةً الأنفس والجنس
نَعَزَّ عنه بنى الهدى محمدٍ إذ حلَّ فى الرَّمس

والقصيدة مزيج من النذب والتأين والعزاء ، مع أنه افتتحها بطلب التعزى والتسلى ، فكان ينبغى أن يقصرها على العزاء لا أن يندب فى هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما فى هذه الأبيات ، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبناً له كما فى أبيات تالية . ونحس نبواً شديداً فى البيت الثانى إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الودِّ ، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق ، وأيضاً فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس ، والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حلَّ فى الرمس خلو من رهاقة الحس أو من الحس الأدبى الدقيق . وقد يكون مصدر التكلف فى العزاء والمديح جميعاً أنه كان موالياً للعلويين كما قال بعض من ترجموا له ، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه ، فقلبه وروحه مع آل أبى طالب ، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يغدقون عليه من صلوات ثرة . وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائح بني العباس ونظرنا فيما روى له من غزل لقيتينا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله :

أَخْبَيْتُ مِنْ أَجَلِهِ مَنْ كَانَ يَشْبِهُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمَعشُوقِ مَعشُوقٌ
 حَتَّى حَكَيْتُ بِجَسَمِي مَا بِمَقْلَتِهِ كَأَنَّ سَقَمِيَّ مِنْ جَفْنِيهِ مَسْرُوقٌ
 وَقَوْلُهُ يَصِفُ الدَّمْعُ فِي سَاعَةِ الْوَدَاعِ ، وَهِيَ تَسْقُطُ بِيضَاءً سَقُوطًا مُتَابِعًا عَلَى
 خُدُودِ حَمْرَاءِ حَمْرَةِ الْوَرْدِ فِي الرَّبِيعِ :

لَوْ كُنْتُ يَوْمَ الْوَدَاعِ حَاضِرًا وَهَنْ يَطْفِئُ لَوْعَةَ الْوَجْدِ
 لَمْ تَرِ إِلَّا الدَّمْعَ جَارِيَةً تَسْقُطُ مِنْ مَقْلَةٍ عَلَى خَدٍّ
 كَأَنَّ تِلْكَ الدَّمْعَ قَطْرَ نَدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجِسٍ عَلَى وَرْدٍ

وَكَانَ يَنْفِذُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الصُّوَرِ النَّادِرَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَنْبِئُ عَنْ
 شَاعِرِيَّةٍ جَيِّدَةٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ فِي بَيَانِ إِعْجَابِهِ بِغَنَاءِ إِحْدَى الْقِيَانِ :

وِغْنَاءُ أَرْقٍ مِنْ دَمْعَةِ الصَّ بٌ وَشَكْوَى الْمَتِيمِ الْمُهْجُورِ

وَلَهُ فِي وَصْفِ أَرْمَدٍ وَمَحَاوَلَةِ تَعْلِيلِ رَمْدِهِ بَعْلَةً غَرِيبَةً لَا تَقَعُ إِلَّا فِي عَقْلِ وَاهِمٍ بَعِيدٍ
 الْخِيَالِ بَيْتَانِ كَانَ الْقَدَمَاءُ يَعْجَبُونَ بِهِمَا إِعْجَابًا شَدِيدًا إِذْ يَقُولُ :

يَكْسِرُ لِي طَرَفًا بِهِ حَمْرَةٌ قَدْ خَلَطَ النَّرْجِسُ فِي وَرْدِهِ
 مَا أَحْمَرَتْ الْعَيْنَ وَلَكِنَّهُ يَكْحَلُهَا مِنْ وَرْدَتِي خَدُّهُ

وَكَأَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ وَمَا وَرَاءَهَا مِنْ أَبْيَاتٍ فِي الْخَمْرِ لَمْ نَرَوْهَا كَانَتْ تَصْدُرُ
 عَنْ نَفْسِهِ ، ثُمَّ جَعَلَ صِيَاغَتَهَا سَوِيَّةً وَأَخْبَلَتْهَا بِدِيعَةٍ بَعِيدَةٍ الْغَرَابَةِ فِي بَعْضِ
 الْأَحْيَانِ . وَلَهُ بِجَانِبِ ذَلِكَ حِكْمٌ يَصْرُرُ فِيهَا عِبَرُ الدَّهْرِ وَمَوَاعِظُهُ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

يَابَانِيًّا وَالْدَّهْرُ فِي نَقْضِهِ يَا رَاكِضًا يَسْرِعُ فِي رَكْضِهِ
 يَلْهُو وَأَيْدِي الْمَوْتِ أَشَاقِدُ مِنْ طَوْلِهِ طَوْرًا وَمِنْ عَرْضِهِ

فَالْإِنْسَانُ يَسْتَهْنِئُ ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ دَارَهُ سَتَنْقُضُ بَعْدَ أَيَّامٍ ، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ
 مَيِّتٌ فِي الدَّهْرِ وَيَحْيِيهِ فَحَسْبًا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ، يَوْمَ يَنْفُذُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَتَسَنَّيُ

ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه ، حتى يصبح أنقاضاً خالصة ، وكأنما الدنيا أضغاثُ أحلام . والصولي في كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع ، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال .

٢

شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خمدت دعوتهم وحروبهم منذ العصر العباسي الأول ، وعمَّ هذا الحمود في هذا العصر التالي بحيث لم يعودوا يكونون حزب معارضة حقيقياً للدولة العباسية ، وقد نهض بتلك المعارضة في أحد صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويعلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم في وجه الدولة ، وكانت تلقاهم بجيوشها وقلما كُتِب لهم النصر ، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخدم حتى تنشب حرب أخرى ويشتد أوارها وبذلك ظلت المعارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر . وتنبَّه لذلك المتوكل ، فرأى أن يقف زيارة الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه ، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة ، محرّضاً شعراءه على التَّيْل مناهم ومن آل على عامة ، وأمر - فيما أمر -- بحبس الطالبين في سامراء^(١) وأخذ يُسْزِل بهم نكالا شديداً ، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم في الحجاز على نحو ما سنرى عما قليل في حديثنا عن محمد بن صالح العلوي .

ولا بد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذاهبهم التي عرفناها في العصر العباسي الأول كانت لا تزال حية ، فكان كثير من يؤمنون بالنظرية الزيدية ، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الاثني عشرية ، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً ، واستغلها القرامطة في ثورتهم ، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم ، وبذلك كان ينبغي أن ننحيهم عن الشيعة . وملاحظة ثانية هي أن المذهب الشيعي الذي غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية ، وكان يجعل

(١) أغاني (سأى) ١٩ / ١٤١ .

التقية أصلاً من أصوله، فكان يعمل سرّاً وقلماً عمل جهرّاً ، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقيّةً ، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلباً لما في أيديهم من أموال ، وهم يُسِرُّون لهم كرهماً وحنقاً ، ومن هنا كنا كثيراً ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذاك ويُقال إنه كان يتشيع . وهم أكثر من أن نسميهم أو نخصيهم . وملاحظة ثالثة هي أنه قيل شعر شيعي كثير في العصر ، وهو موزّع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يَشُدُّون الشعر وينظمونه ، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوي الآنف ذكره والحيّمان وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة ، ومنهم محمد^(١) بن علي بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن علي بن أبي طالب ، وكان في أيام المتوكل ، وهو يكثر من الافتخار بآبائه وبنسبه الطاهر إلى الرسول الكريم ، ويردّد في أشعاره نظرية بيته العلوي في الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى بها إلى جده علي حين نزل بغدير خمّ إذ قال له : « أنت مني بمنزلة هرون من موسى » وإلى ذلك يشير بقوله :

وجدى وزيرُ المصطفى وابن عمّه على شهابُ الحرب في كل ملحمٍ
وأول من صَلَّى ووحد ربّه وأفضل زوّار الحطيم وزمزمٍ
وصاحب يوم اللّوح إذ قام أحمدُ فنادى برفع الصوت لا بتهمهمٍ
جعلتك مني يا عليّ بمنزلٍ كهرون من موسى النجى المكلم

وما نصل إلى سنة ٢٥٠ في عصر المستعين حتى تثور ثائرة الشعراء الشيعيين ، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة في الكوفة يحيى بن عمر الطالبي ، وكان قد تورّع عن أخذ أموال الناس ظلماً وأمر بحقن الدماء ، وكان ورعاً زاهداً ناسكاً ، فتبعته ألوّف ، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوبي العراق . وتمزّقت جموعه ، وخسرّ قتيلاً ، وحُمِل رأسه إلى بغداد . وضجّ الناس لمقتله وصلّب رأسه ، ويروى أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانئهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفرى ، وقال له : أيها الأمير إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حياً لعزّى به ، فلم يجبه

الأمير ، فولّى وجهه خارجاً ، وهو يقول^(١) :

إِنْ وَتَرًا يَكُونُ طَالِبَهُ إِلَّا هُوَ لَوْتُرُ نَجَاحُهُ بِالْحَرِيِّ

ونصب له الشيعة مأتماً كبيراً ناح فيه الشعراء وبكوا اطويلاً ، ومرت بنا في غير هذا الموضع مرثية ابن الرومي له ، وهي صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولاً ذميصاً ، واصفاً لهم بالظلم والطغيان هم ولولائهم ، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه ، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيى ويدمر خصومه تدميراً . وكثر رثاؤه ونديه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبي طاهر^(٢) :

سَلامٌ عَلَى الْإِسْلَامِ فَهُوَ مَوْدَعٌ إِذَا مَا مَضَى آلُ النَّبِيِّ فَوَدَعُوا
فَقَدْنَا الْعُلَا وَالْمَجْدَ عِنْدَ افْتِقَادِهِمْ وَأَضَحَتْ عُرُوشُ الْمَكْرَمَاتِ تَضَعُضَعُ
لَقَدْ أَفْغَرْتُ دَارُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ مِنَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ فَالِدَارُ بَلْقَعُ
وَقُتِلَ آلُ الْمُصْطَفَى فِي خِلَالِهَا وَبُدِدَ شَمْلُ مَنْهُمْ لَيْسَ يُجْمَعُ

وسرعان ما يشور في نفس السّنة بطبرستان الحسن بن زيد العلوي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب ، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك كثيرة ، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلي نداء ربه لسنة ٢٧٠ طبعي أن يصبح مقصداً للشعراء ، وأن يتغنى غير شاعر باسمه في المناسبات المختلفة ، ونجد شاعراً من جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين افتصد بقوله^(٣) :

قَدْ رَأَيْنَا مَجَالِسًا عَطَرَاتِ هُبَيْثٌ عِنْدَنَا لِفَصْدِ الْإِمَامِ
إِنَّمَا غَيْبُ الطَّبِيبِ شَبَا الْمُبْ ضَعَّ عِنْدِي فِي مَهْجَةِ الْإِسْلَامِ
سُرَّتِ الْأَرْضُ حِينَ صُبَّ عَلَيْهَا دُمُ خَيْرِ الْوَرَى وَأَعْلَى الْأَنَامِ

والترجمة الشيعية واضحة في الأبيات . وكان من الشعراء حينئذ من يستر تشيعه ماكرّاً برجال الدولة العباسية ، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه ، لا لشيء إلا لأنهم

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧

(١) الطبري ٩ / ٢٧٠ والمروج ٤ / ٦٤ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٦٤ .

يخاصمون آل علي ، وربما اتخذ لذلك وسائل مأكرة ، ومن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامه الدقيق الكوفي ، إذ قال الرواة إنه استنفذ شعره في هجاء رجال الجيش العباسي ، يرميهم بالأبنة ، وصنع في قُودهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنية ، رماهم فيها بالقبائح الشنيعة . وما زال هذا شأنه ، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلح القائد التركي في طريقه إلى حرب صاحب الزنج ، فدلّهُ عليه قوم من أهل بغداد ، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرفض ، فضر به مفلح بالسياط حتى تلفت نفسه ومات لسنة ٢٦٠ .

وكان قد خلف الحسن بن زيد على طبرستان حين توفي أخوه محمد ، واستقام أمره فيها وعظم شأنه ، فدخل ديار الديلم ودانت له ، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جهّز جيوشاً كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان ، فلقيته جيوش إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان من قبل العباسيين ، ودارت عليه الدوائر وأُتخِنَ بالهروح ، وتوفي ، فدفن بباب جرجان ، يقول المسعودي : وقبره هناك معظم إلى اليوم . ويبدو أنه كانت له بطاقة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبيّ القائل فيه ^(١) :

إن ابن زيد كل يوم زائدُ علا علواً لا يساويه أحدُ

لو صال بالطود إذن أذله أو زجر البحر إذن صار زبدُ

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحلواني ، نراه يغلو في مديحه ، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أمتهم من هالة قدسية ترفعهم عن البشر درجات ، وفيها يقول ^(٢) :

لا تقل بُشْرَى وَقُلْ لِي بُشْرِيَانِ غُرّة الداعي ويوم المهرجان

ابن زيد مالِكُ رِقِّ الزمانِ بالعطايا والمنايا والأماني

خُلِقَتْ كَفَاهُ مَوْتاً وَحَيَاةً وَحَوَتْ أَخْلَاقَهُ كُنْهَ الجنانِ

مختفٍ فكرته في كل شيء فهو في كل محلٍّ ومكان

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٥١ .

يتناعمى لفظنا عنه ولكن هو بالأوصاف في الأذهان دان
كافر بالله جهراً والمثاني كل من قال : له في الخلق ثان

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا في الدعوة الشيعية خطوات فسمي نفسه الداعي ، وأخذ يوحى إلى الشعراء أن يسبغوا عليه صفات إلهية ، فهو ظاهر في العيان ، وهو مختف في كل مكان ، وهو لا تحدّه الألفاظ ، وإنما تقرّبه الأوصاف وليس له ند ولا شبيه ، وكافر بالله والمثاني السبع أو القرآن من يقول له في الخلق ثان . ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين ، وهم محمد بن صالح العلوي والحيماني والمفجّع البصري .

محمد بن صالح العلوي (١)

من فتيان البيت العلوي وشجعانه وشعرائه ، امتنع لبنيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطه وغضبه ، وما كان من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه على بالنجف . وكان موطنه سوسنة في بادية الحجاز كان ينزلها مع أسرته من الحسينين أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك ، وتصادف أن حجّ بالناس في نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره ، وكان البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسودين أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم . وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقيدهم وقتل نفرأ منهم وأخرب سويقة وحرقت منازلهم بها واستأصل كثيراً من نخيلها وأثر فيها آثاراً سيئة ، وحمل محمد بن صالح فيمن حمل منهم إلى سامراء ، فحبس ثلاث سنوات ، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له ، وذلك أنه نظم أبياتاً جيدة يعزى فيها نفسه عن حبسه ، ويتجمل بالصبر قائلاً :

الطالبيين للأصبهاني (طبعة الحلبي) ص ٦٠٠
وسمى الشعراء ص ٣٨٠ .

(١) انظر في محمد بن صالح الأغاني (طبع)
دار الكتب المصرية) ٣٦١/١٦ ومقاتل

طَرِبَ الفؤادُ وعادَتْ أحزانه وتشعبتْ شُعباً به أشجانه
وبدأ له من بعد ما اندمل الهوى برقُ نالِقٍ موهناً لمعانه
فدنا لبَ نظر كيف لاح فلم يُطقْ نظراً إليه وردّه سَجَّانه
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضاوعه والماء ما سحَّتْ به أجفانه
ثم استعاذ من القبيح وردّه نحو العزاء عن الصبا إيقانه
وبدأ له أن الذي قد ناله ما كان قدره له دَيَّانه

والشعر جزل مصقول ، والشاعر يث في أوائله حنيناً لأيامه الماضية وكأنها عهود هوى وحب سقطت منه ، وينظر إلى البرق متطلعاً لليوم الذي تُردُّ إليه فيه حرّيته ، فيعنف به السجّان ، ويحس كأن نار الوجد اندلعت في ضلوعه ظمئاً إلى أهله وموطنه . وتسحّ الدموع وتهلّ لاتجف ، ويرده إيمانه و يقينه ، فيستسلم للقضاء محزون الفؤاد شجيّه . وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتح بن خاقان ومغنى المتوكل بنان ، ويصنع بنان فيها صوتاً يلحّنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر واللعن ويسأل عن قائله ، فيُذكرُ له ، ويكلّمه الفتح في أمره وما يزال يرقق قلبه حتى يعفو عنه ، غير أنه يشترط أن يظل عند الفتح وفي يده وألا يبرح سامراً حتى لا تحدثه نفسه بالعودة إلى الثورة . وتُردُّ إليه حرّيته فيمدح المتوكل ويُعْذِق عليه من صلاته ، كما يمدح المنتصر . ونراه يبالغ في التقيّة من المتوكل فلا يكتفى بمديح له عام ، بل يسوق الدليل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة ، يقول :

يابنَ الخلائف والذين بهديهم ظهر الوفاء وبانَ غدرُ الغادرِ
وابنَ الذين حوَّوا ثراثَ محمدٍ دون الأقارب بالنصيب الوافرِ
نطق الكتابُ لكم بذاك مصدّقاً ومضتْ به سُننُ النبي الطاهرِ

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره في سورة الأنفال : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) يريد أن العباسيين مقدّمون في وراثة الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام ، لأنّهم يتقدمهم في الميراث كما تنصّ

على ذلك شريعة الإسلام في القرآن الكريم ، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة . ولم يتورط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق بالجواري والإماء ، فقد كان يكتسِفُ بزوجها وحدها ، وكانت تحتلُّ قلبه بجمالها ، ويُسْغَفُ بها شغفًا شديدًا وفيها يقول :

لعمري حمدونةً إلى بها لمغرَّم القلب طويلُ السقامِ
مجاوِزُ للقدر في حبها مباينُ فيها لأهل الملام
جسَمي ذلك وجدى بها وفصلُها بين النساءِ الوسام
زَيْنُها الله وما شأنها وأعطيتْ مُنيَتَها من تمام

وكان جميل المحضر حلو الحديث رقيق الشئال ، فانعقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء ، في مقدمتهم سعيد بن حميد أحد كتّاب الديوان المجيدين ومِمَّنْ كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة ، وكان محمد بن صالح يمنحه ودًّا حقيقياً وفيه يقول :

أصاحبُ من صاحبت ثُمّتَ أنثى إليك أبا عثمانَ عطشانَ صاديا
وكنا إذا جِئناك لم نَبْغِ مشرباً سواك وروينا العظام الصّواديا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقاءه يبلغ منه عظامه تصوير جيد ، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد في الدواوين يؤليه فضلاً كثيراً ، وانعقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كانا يُسْمِضيان كثيراً من الليالي والأيام معاً لا يفترقان ، وله رائة طويلة في مدحجه ، وفيها يقول :

أخُ واساك في كَلْبِ الليالي وقد خَذَل الأَقاربُ والنَّصيرُ
فإن تشكر فقد أولى جَميلاً وإن تكفر فإنك للكفورُ

وله مقطوعة يصور فيها جواري يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل ، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها ، ويخال كأنما سينفخ هذا الجمالُ

الفاتن في العظام التامدات ، فتعود مرة ثانية إلى الحياة الدنيا ، يقول :

رَأَيْتُ بِسَامِرًا صَبِيحَةً جُمُعَةٍ عَيْنًا يَرُوقُ النَّاظِرِينَ فَتَوَّرَهَا
تَزُورُ الْعِظَامَ الْبَالِيَاتِ لَدَى الثَّرَى تَجَاوَزَ عَنْ تِلْكَ الْعِظَامَ غَفُورَهَا
فَلَوْلَا قَضَاءُ اللَّهِ أَنْ تَعْمَرَ الثَّرَى إِلَى أَنْ يَنَادَى يَوْمَ يُنْفَخُ صُورُهَا
لَقُلْتُ عَسَاهَا أَنْ نَعِيشَ وَأَنْهَا سَتُنَشَّرُ مِنْ جَرًّا عَيْنٍ تَزُورَهَا
ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية محمد بن صالح العلوي الفدّة ، ويُظْلَهُ
عصر المنتصر فيصيبه فيه جُذْرِيٌّ ويلبى نداء ربه ، ويرثيه غير صديق بأكياس
خِصَالِهِ الْحَمِيدَةِ .

الْحِمَانِي الْعَلَوِيّ

سُمِّي الْحِمَانِي نسبة إلى حي بالكوفة نشأ وعاش فيه ، وهو علي بن محمد بن
جعفر العلوي ، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة في المدينة لأوائل عصر المأمون
قبل تحوله من خراسان إلى بغداد ، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تنجح ، وحُمِلَ
إلى بغداد ، ونُفِيَ منها إلى خراسان ، فنزل بساحة المأمون هناك ، وسرعان ما وافاه
الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديه ، فاشترك في
حمله حتى نزوله في لحده ، وكان مما قال : هذه رَحِمٌ مَجْفُوءَةٌ منذ مائتي سنة .

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة ، وبها نشأ ابنه علي ، وعُيِّنَتِ الْأُمُّ
وَالْأُسْرَةُ بِتَثْقِيفِهِ ، فلم يُحَسِّنْ صِنْعَ الشَّعْرِ فَحَسِبَ ، بل أحسن صنوفاً من الآداب
وعُلُومِ الشَّرِيعَةِ ، مما جعل العلويين في تلك البلدة يختارونه تَقْيِيمَهُمْ وَمَدْرَسَهُمْ
ولسانهم ، كما يقول المسعودي . ونُشِيَ إلى المتوكل أن في داره سلاحاً وأن الشيعة
يَجْتَمِعُونَ عِنْدَهُ ، وقيعة فيه من بعض حساده ، فوجّه إليه جنداً اقتحموا عليه داره
فجأة ، فوجدوه يتعبّد ربه في غرفة مغلقة مرتدياً ثوباً بسيطاً من الصوف ،

ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار للخالدين

ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المماني ١٠٩ / ١ ،

٦٥٨ / ٢

(١) انظر في الحماني وأشماره مروج الذهب

٢٩ / ٤ ، ٦٥ ومقاتل الطالبين ص ٦٦٢

وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة

١٩٣٢ (انظر الفهرس) وكتاب الديارات

ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى ، وهو يتلو القرآن مترنماً بآيه . فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف ، فرقاً له ، وسأله : ما يقول آل بيتك في العباس بن عبد المطلب (جد العباسيين) ، فأجابه بقوله : وما يقول آل بيتي يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه ؟ ولأن قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار ، وقيل بل مائة ألف درهم . ولم يرد الحماني في إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح في الشطر الثاني من الجواب ، وإنما أراد طاعة الله على نبيه .

ومرّ بنا أن الشعراء أكثروا في عصر المتوكل من ذمّ العلويين لإرضاء له ، وكان من أكثرهم قدحاً في على وآله على بن الجهم وكان ينتسب إلى بني سامة بن لؤي القرشيين ، وافتخر مراراً بهذا النسب في أشعاره ، وكان طبيعياً أن لا يسكت الحماني على هذا القدح ، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد على نشره ، فطعن على بن الجهم طعنة بطعنات ، ولكن لا بالقدح في خلقه وعرضه على عادة الشعراء في عصره ، وإنما بالقدح في نسبه إلى سامة ، فهو ليس من أحفاده ، وبالتالي ليس قرشياً ولا فيه من القرشية شيء يقول :

وسامةٌ مِنّا فأما بنوه فأمرهم عندنا مظلم
أناسٌ أتونا بأنسابهم خرافة مضطجع يحلم

وعرف على بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية ، فلم ينسب بيت شفة واجداً عليه ولا هاجباً ، وإنما اكتفى بأبيات ينوّه فيها بفضله ، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته .

وقد حزن الحماني حزناً شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعياً لنفسه بالخلافة ، وقتل دون أمنيته ، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذي نكّل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهدداً متوعداً ، ولم يمض الحمانى للسلام عليه ، وكان الوحيد الذي تخلف من العلويين عن لقائه ، ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل ، فبعث إليه بجماعة أحضره حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة

وحلّدْ وأنه لا يخشى سطوة القائد ، ولم يلبث أن أنشده :

قتلت أعزَّ مَنْ ركب المطايا وجئتكَ أَسْتَلِينِكَ في الكلامِ
وعزَّ علىَّ أَنْ أَلْفَاكَ إِلَّا وفيما بيننا حَدُّ الْحِسَامِ

وهو موقف كريم إذ لم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه ، بل جاهره بما في نفسه دون خوف أو وجل . وله مرث كثيرة في يحيى ، يبكيه فيها ويندبه ، ويصور أنه مات موتاً كريماً ، موت البطل الشجاع الذى لا يهرب الموت بل يلقاه في قوة وصلابة مهما ادهمت الخطوب من حوله ، ومهما أظلمت الدنيا في عينيه ، حتى لتنهول بطولته خصومه ، وحتى ليطلبون لقبره السُّقْمَا وله الرحمة ، يقول :

فإن يَكُ يحيى أدرك الحتفُ يومه فما مات حتى مات وهو كريم
وما مات حتى قال طَلَّابٌ روحه سقى الله يحيى إنه لصميم

ويصور في مرثيه له مأساة البيت العلوى وأن أفراداه دائماً بين قتيل وجريح . وللحماني مرث كثيرة - بجانب مرثيه لابن عمه يحيى - في أهله ، وفي أخيه لأمه إسماعيل وهو لا يرثى فيه الأخ والرحم القريبة فقط ، بل أيضاً يرثى الصديق شقيق النفس والروح ، ويتفجّع عليه تفجعاً شديداً بمثل قوله :

هذا ابن أُمى عديل الروح في جسدى شقَّ الزمانُ به قلبي إلى كبدى
مَنْ لى بمثلك ياروحَ الحياة وبيا ينى يديَّ التى شلَّتْ من العُصْدِ
قد دُفِنْتُ أنواعُ نُكُلٍ أَنْتَ أَبْلَغُهَا على القلوب وأخضاها على الجِلْدِ
فاليوم لم يبقَ شيءٌ أَسْتَرِيحُ له إِلَّا تَفَتُّ أَحْشَائِي من الكمدِ
قل للرّدى لا يغادرُ بعده أحداً وللمنيّة مَنْ أَحْبَبْتُ فاعتمدى
إن السرور تقضى ، بعد فُرْقَتِهِ وآذن العيشُ بالتكدير والنكدِ

والمرثية مؤثرة وهى سيل من الدموع والزفرات والأنين الموجه . وللحماني

غزليات كثيرة تتداولها بعض كتب الأدب وهي تنسج على شعور رقيق وخيال خصب من مثل قوله :

مَنْ أَرْتَجَى يَوْمًا شِفَاءً مِنَ الضَّنَا إِذَا كَانَ جَانِيهِ عَلَى طَبِيبِي
وله فخر يتحدث فيه عن آباءه . ويصور سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص ،
كما يصور كبر همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه ، يقول :

قَلْبِي نَظِيرُ الْجَبَلِ الصَّعْبِ وَهَمَّتِي أَكْبَرُ مِنْ قَلْبِي
فَاسْتَخِرِ اللَّهَ وَخُذْ مُرْهَفًا وَافْتِكْ بِأَهْلِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ
وَلَا تَمُتْ إِنْ حَضَرَتْ مِيتَةٌ حَتَّى تَمِيتَ السِّيفَ بِالضَّرْبِ
وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكراهته ، وصور ذلك في أشعار كثيرة كأن
نراه يكره الشيب ويكره مفارقتة لأنها تعني فقدته للحياة ، وكأنه - على بغضه له -
يود أن لا يفارقه ، يقول :

بَكَى لِلشَّيْبِ ثُمَّ بَكَى عَلَيْهِ فَكَانَ أَعَزَّ فَقْدًا مِنْ شَبَابٍ
فَقُلْ لِلشَّيْبِ لَا تَبْرَحْ حَمِيدًا إِذَا نَادَى شَبَابُكَ بِالذَّهَابِ
ويجانب ذمه للشيب بأسى كثيرًا على الشباب وأيام لوه ومتاعه بالنظر إلى الغايات
فقد ضل ذلك منه ، أضله الشيب ، وهل من غاية تنظر إلى شيخ فان ، يقول :

لَقَدْ كُنْتُ تَمْلِكُ أَلْحَاطَهُنَّ فَصِرْنَ يُعْرِئُكَ لَحْظًا مُعَارَا
وَأَصْبَحْتَ أَعْقَبَ بَعْدَ الْوُدَادِ بَعَادًا وَبَعْدَ السَّكُونِ النَّفَارَا

وله وصف كثير في سرى الليل وفي اعتساف الفلوات بالإبل والحيل نجد منه
مقتطفات في كتب الشعر ، ومن طريف نعتة لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون
دون أى حركة قوله :

كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ سَارَتْ نَهَارَهَا وَوَأَفَتْ عِشَاءَ وَهِيَ أَنْضَاءُ أَسْفَارِ
فَخَيَّمْنَ حَتَّى تَسْتَرِيحَ رِكَابَهَا فَلَا فَلَكَ جَارٍ وَلَا كَوْكَبُ سَارِ

وكان يكثر من ذكر المنازل والديار ، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من الكوفة مثل آثار قَصْرِ الخَوَرَنَقِ والسَّدير ، وكانا من قصور الحيرة ، وديارات الأساقف المطلة على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترف فيها الأنوار والأزهار ، ومن قوله في تلك القصيدة :

كم وقفك لك بالخور نقي لا توازي بالمواقف
بين الغدير إلى السَّدير ر إلى ديارات الأساقف
دِمْنُ كَأَنَّ رياضها يُكْسِنُ أعلامَ المطارف
تلقى أوائلها أوا خرها بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التي وقفنا عندها للحماني أنه كان شاعراً مجيداً ، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارة ، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قَرْنِهِ . وقد توفي سنة ٢٦٠ للهجرة .

المفجع البَصْرِيّ^(١)

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب ، عالم أديب ، وتدل كلمة الثعالبي في البيعة أنه حين توفي ابن دريد العالم اللغوي الإخباري المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه في التأليف والإملاء ، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار ، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه . وفي كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته . ويلفت النظر أنه شيعي وإيس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة ، ومعروف أن الكوفة كانت حتى القرن الثالث الهجري مركز التشيع وداره . بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله^(٢) ، وكأنما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة ، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه .

بالوفيات (طبعة إستانبول) ١/ ١٢٩ .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فان

فلوتن) ص ٩

(١) انظر في المفجع وأخباره وأشعاره البيعة

لثعالبي (طبعة محي الدين عبد الحميد) ٢/ ٣٦٣

والفهرست ص ١٢٩ ومعجم الأديباء لياقوت

١٧/ ١٩٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ والوافي .

ويبدو أن المفجع كان شيعياً إمامياً ، فقد شاع مذهب الإمامية في العراق من قديم ، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه بيت قاله ، وأكبر الظن أنه لُقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين ، وكان - على ما يظهر - يكثر من مديح الهاشميين ، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبي الهاشمي البصري وفيه يقول :

للزینبی - إلى جلاله قدره - خلقُ كطعم الماء غير مرزئ
وشهامةٌ تَقْضُ الليث إذا سطا ونَدَى يفرقُ كل بحر مرزئ^(١)
يحتلُّ بيتاً في ذؤابة هاشم طالت دعائه محل الفرق
بضياء سنَّته المكارم تقتدى وبجود راحته السحاب تهتدى
وله قصيدة طويلة يمدح فيها علياً - رضي الله عنه - سماها « ذات الأشباه »
إشارة إلى أثر مسند إلى أبي هريرة ذكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
قال وهو في محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم في علمه ونوح في همه وإبراهيم
في خلقه وموسى في مناجاته وعيسى في سنَّته ومحمد في هُدْيه وحلمه فانظروا إلى هذا
المقبل . فتناول الناس فإذا هو علي بن أبي طالب » . وعلى هُدَى هذا الأثر نظم
المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب علي وهي تطرَّد على هذا النمط :

أَيُّهَا اللَّائِمِيُّ لِحَبِيٍّ عَلِيًّا	قُمْ ذَمِيماً إِلَى الْجَحِيمِ خَزِيًّا
أَشْبِهَ الْأَنْبِيَاءَ كَهلاً وَزَوْلاً	وَفُطَيْماً وَرَاضِعاً وَغَذِيًّا ^(٢)
كَانَ فِي عِلْمِهِ كَأَدَمَ إِذْ عُدَّ	مَ شَرَحَ الْأَسْمَاءَ وَالْمَكْنِيَّا
وَكُنُوحَ نَجَّى مِنَ الْهَلَكِ مَنْ سَه	يَرُّ فِي الْفُلْكِ إِذْ عَلَا الْجُودِيَّا ^(٣)
وَجَفًّا فِي رِضَا الْإِلَهِ أَبَاهُ	وَاجْتَوَاهُ وَعَدَّهُ أَجْنَبِيًّا
كَاعْتَزَلَ الْخَلِيلَ آزَرَ فِي اللَّهِ	هَ وَهَجَرَانَهُ أَبَاهُ مَلِيًّا ^(٤)
وَلَوْ أَنَّ الْوَصِيَّ حَاوَلَ مَسَّ الدِّ	جَمَ بِالْكَفِّ لَمْ يَجِدْهُ قَصِيًّا

(١) الجودي : جبل بشمال العراق .

(٢) آزر : أبو إبراهيم .

(٣) نقص : تدق وتحطم .

(٤) الزول : الفتي .

وطبيعي أن تفقد القصيدة العذوبة لأنها إلى الشعر التعليمي أقرب منها إلى الشعر الغنائى وافر النغم والألحان . وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجرى على هذا المنوال فالأبيات السابقة فى مديح الزينبي أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط ، بل أيضاً فيه جزالة ورسانة . ويقول الثعالبي إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف من مثل قوله :

زفراءُ تعنادنى عند ذكرى ك وذكراك ما تريم فؤادى
وسرورى قد غاب عني مذغبت فهل كنتما على ميعاد
ليس لي مفرغ سوى عبرات من جفون مكحولة بالسهاد
وبحسبي من المصائب أنى فى بلاد وأنتم فى بلاد

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأساً فى أن يُقبل أحياناً على الشراب، إذا صح ما روى عنه من احتساء الخمر، ونراه يصف مجلساً من مجالسها فى ليلة من ليالى الأونس بها ، يقول :

أداروها وليليل اعتكارُ فخلتُ الليل فاجأه النهارُ
فقلتُ لصاحبي والليل داجٍ ألاح الصبحُ أم بدتِ العقارُ
فقال : هى العقار تداولوها مشعشة يطير لها شرارُ
ولولا أننى أمتاح منها حلفتُ بأنها فى الكأس نارُ

ويين أشعاره مقطوعات فى بعض الغلمان ، ومراً بنا ما قلناه من أن أكثر ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر بقصد التندير والضحك، ولذلك كان ينبغي ألا نصنع صنيع المستشرقين فى تضخيمهم لهذه السوءة سواء عند المفجع البصرى أو عند غيره . وراه « متز » ينظم قصيدة فى الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلا :

ألا يا جامع البصرِ لا خربك الله
وسقى صحنك المزُن من الغيث فرواه

فكم ظبي من الإنس ملىح فيك مرعاه
نصبتنا الفخّ بالعلم له فيك فصيدناه
وكم من طالب للشّعة ر بالشرع طلبناه

فظن أنه وقع على وصمة كبرى ، وذهب يقول إن الشاعر يحكى كيف كان يُغوى الصبيان في الجامع المذكور ويستنزل العاصي الصعب منهم^(١) . والدليل على أنه لم يكن خالص النية في حكمه أنه أشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين :

ألا يا طالب الأمر دكذبُ ما ذكرناه
فلا يغررك ما قلنا فما بالجِدِّ قلناه

فالمفجع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذباً وبهتاناً وعبثاً ودُعابة ، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها في مجال الحديث عن التولع بالغلما ن ونصب الشباك لهم وأين ؟ في المساجد الطاهرة ، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض . ولم يطل به المقام في مكان أستاذه ابن دريد يُسمى ويحاضر الطلاب ، فما هي إلا ست سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبى نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة .

٣

شعراء الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هي التي أفضت مضاجع الخلفاء في هذا العصر ، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى ، كان بعضها يزيغ لنفسه شعاراً علوياً حتى يجمع العامة في صفوفه وتحت لوائه . وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر ، فهو ثائر من جهة ، وهو شاعر من جهة ثانية . وبهمنّا الوقوف

(١) انظر الحضارة الإسلامية في القرن
الرابع الهجري ١٣١ / ٢

على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يُعينهم أحياناً بأشعاره من أنصارهم . ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ ، فهي دائماً تسوق ما قيل في انتصارات العباسيين على الثوار ولا تُعنى أى عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار في قليل ولا كثير .

ومن أوائل من ثاروا في العصر محمد بن البعث لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر ، وسنعرض له في موضع آخر . وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يُشعل فارسي ثورة الزنج بالبصرة مترعماً لها ، وفصلنا في الفصل الأول القول في هذه الثورة وكيف دوّخت الدولة العباسية وعرضتها لكارثة عظيمة ، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سُخْطاً هائلاً على كبار المملّك الإقطاعيين الذين كانوا يُسخرونهم في كَسْح أرض البصرة وزرعها دون أى رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء . وتجمع حواه الزنج واستحالوا إلى جيش لَسَجِبِ اجْتَسَاحَ جنوبى العراق وكاد يحتاج العراق كله في بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم ولزعيمهم الموفق ولعهد الخليفة المعتمد ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وكان بطلاً مغوراً لا يُشقى غباره ، وكانت الجيوش توالى في حرب هذا الثائر وأصحابه ، وكان يمزقها شرمزق ، حتى تولى قيادتها الموفق ، فاستحالت الهزيمة نصراً ، ولكن أى نصر ؟ لقد كان نصراً بطيئاً ، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة ، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة .

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب في المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعى ، ولكن زعيمها لم يمحض بها في السعى إلى هذه الغايات كما كان يَعدُّ في أول ثورته ، فقد استباح في حروبه استرقاق الأحرار ، وكأنما ألغى رده الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاق على غيرهم ، فانعكست صورة الاسترقاق ، ولكنها ظلت كما هى وظلت طبقات من الناس تسترق طبقات أخرى . وكان قد رأى لإنجاح ثورته أن يُضفى عليها مسحة دينية ، كما مر بنا في الفصل الأول ، فأشاع في الناس أن اسمه على بن محمد وأنه من سلالة زيد بن علي بن الحسين ، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعى في الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين ، بل من حقه عليهم أن ينصروه ويؤازروه . وانضم إليه كثيرون من

الأحرار وأعراب البوادي بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق ، ولكن ثورته باءت — بعد أربعة عشر عاماً من المعارك العنيفة — بالإخفاق الذريع .

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذي ظلت ثورته أربعة عشر عاماً أو تزيد ، والذي كان يُسْرَفُ في القتل وسفك الدماء ، حتى قالوا إنه قتل في البصرة في يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف ، وإنه كان يُسْهَبُ أصحابه الأموال ويَحْرِقُ الدور والقصور . كل ذلك لا نريد أن نقف عنده ، ولا عند ما يقال من أنه كان دائماً يخطب في أنصاره^(١) . إنما نريد أن نقف عند ما بقي لنا من بعض أشعاره^(٢) . يقول المرزباني : « تُروى له أشعار كثيرة في البسالة والفتك » ، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قُرِئت عليه أمامه ، فشهد بأنها له ، ولم يُسْكَرْها ، وكأن من معاصريه مَنْ كان يشكُّ في أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه ، مما جعل ابن دريد يؤدي الشهادة السالفة . وكان من قرية تسمى وَرَزْدِينَ بَلِيران ، وكأنه تلقَّن فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعاً ، وله يخاطب بني العباس :

بَنِي عَمَّنَا لَا تَوْقِدُوا نَارَ فِتْنَةٍ بَطِيءٌ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي خَمُودُهَا
بَنِي عَمَّنَا إِنَّا وَأَنْتُمْ أَنَامِلُ تَضَمَّنْهَا مِنْ رَاحَتِهَا عَقُودُهَا
بَنِي عَمَّنَا وَلَيْتُمْ التُّرُكُ أَمَرْنَا بَدِثًا وَأَعْقَابًا وَنَحْنُ شُهُودُهَا
فَأَقْسَمَ لَأَذُقْتُ الْقَرَّاحَ - وَإِنْ أَدُقْ فَبُلْعَةُ عَيْشٍ - أَوْ يُبَارَ عَمِيدُهَا^(٣)

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقاً ابن عمهم علي بن أبي طالب أوحفيده ، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة ، وكان ينبغي أن يستسلموا له فليسوا جميعاً إلا أنامل يد هاشمية واحدة . ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك ، وأنه سيجاهدكم جهاداً مريراً . وكان يكثر من تصوير ما يجري في قصورهم من خمر وعجون ينبغي أن تبرأ منه

(١) الطبري ٩ / ٤١٤ وما بعدها .

ص ١٥٥ وما بعدها .

(٢) انظر في أشعار صاحب الزنج معجم

(٣) الماء القراح : البارد العذب . بلغة

الشعراء للمرزباني ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب

العيش : أقل ما يكنى . يبار : يهلك .

العصر العباسي الثاني

قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لاقصور إثم وعصيان ، وفي ذلك يقول :
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورٍ بِبَغْدَا دَ وَمَا قَدْ حَوَّنَهُ مِنْ كُلِّ عَاصٍ
وخمورٍ هناك تُشْرَبُ جَهْرًا ورجالٍ على المعاصي حِرَاصٍ
لستُ بآبِنِ القَوَاطِمِ الزُّهْرُ إِن لَّمْ أَقْجِمِ الخَيْلَ بَيْنَ تِلْكَ العِرَاصِ

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو والمجون والعبث واقتراف الآثام ، حتى يستثير الناس معه . وينسب نفسه إلى فاطمة الزهراء ، بل إلى القواطم الزهر ، حتى يستهوى القلوب . ويعلن أنه سيجاهد العباسيين ويستمر في جهاده حتى تسقط بغداد . وظل ثابتاً في جهاده مخلصاً له في أحلك الظروف ، حتى بعد أن فقد الأمل ، فإنه لم يستسلم للموفق بعد أن استسلمت عامة أنصاره ، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضى أكثر جنده والبقية الباقية منهم ، بل ظلَّ يقاتل حتى سَفِكَ دمه أمام منزله وهو ينشد :

عليك سلامُ الله يا خير منزلٍ خرجنا وخلفناه غير فعيمٍ

وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبي دُلَاف في الكرج وكان شاعراً ، وسنعرض له عما قريب . ونشبت ثورة القرامطة ، وكان دعائها يَصِلُونَهَا بالدعوة الإسماعيلية الشيعية ، كما مرَّ بنا في الفصل الأول . وكان غير ناثر من هؤلاء الدعاة يَصِلُ نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، مزيفاً لذلك سلسلة نسب كاذبة ، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسباً يصله بزید بن علی زين العابدين . وكان داعيتهم الأول قرمط مكوّن الفرقة قد التقى في سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية ، فانضم إليه ، وأخذ في تنظيم حركته القرمطية واضعاً لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة ، فتبعه خلق كثير أخذ يُغيّر بهم على سواد الكوفة . وما فصل إلى سنة ٢٨٩ حتى نجده يختفي في ظروف غامضة ، ويتولى زعامة حركته زَكْرَوِيَّة الدَّندَانِي ، ويرى - كما مرَّ بنا - الدولة بالمرصاد له ولجماعته ، فيرسل بأبنائه : يحيى والحسين ومحمد إلى قبيلة كلب ببادية السماوية بين العراق والشام ، لعلهم يستجيبون إلى دعوتهم ، ويتبعهم كثيرون ، ويباعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذي زعم لهم أنه من سلالة

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتسمى لهم باسم أبي عبد الله على بن محمد ، وقيل بل تسمى باسم محمد ، وتكهنن لهم مدعياً أنه يوحى إليه ، وكشف لهم عن عَصْدُ له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته ، كما زعم أن ناقته التي يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها في لقاء أى عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين . ومضى بجموعه في سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويغيث في الأرض فساداً . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية ، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء ، ودَحَرَ جيشاً للعباسيين ، وعاد يحاصر دمشق ، غير أنه قُتل على أبوابها . وكان شاعراً ، ترجم له المرزبان في معجمه^(١) . ونراه في بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بنى هاشم ، يقول :

أنا ابنُ الفواطم من هاشمٍ وخيرُ سُلالةِ ذا العالمِ
وطئتُ الشامَ برغم الأنامِ كوطءِ الحمامِ بنى آدمِ

وهي نسبة كاذبة . ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعاً لهم ، إنما كان متشيعاً لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان ، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج - على نحو ما مرّ بنا - عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية ، وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب : المريخ والعيوق وسعد الذابحين ملوحاً للعامة التي تتبعه بأن علم التنجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه في الموصل ومدينة الرّحبة التي بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة ، بل إنه سيدير بغداد تلميهاً وينهب كل ما في قصورها من أموال يقول :

تقاربت النجومُ وحان أمرُ قرآنُ قد دنا منه النذيرُ
فمريخُ الذبائح مستهلُّ قوًى ما لوقدته فتورُ
وعيقُ الحروب له احمرارُ وسعدُ الذابحين له بدورُ
فبشرُ رَجَبَتِي طوقِ بيومٍ من الأيام ليس له نظيرُ
ورافقةُ الضلالة ليس يُغنى إذا ما جثتها بابُ وسورُ

وبغداد فليس بها اعتياض على أمرى وليس لها نكير
أصبحها فأتركها هشيماً وأخوى ما حوته بها القصور

ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجسنابي صاحب الأحساء والبحرين، وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قَرْمَط، وكلفه بنشر الدعوة في جنوبي إيران، وأخفقت مساعيه، وعاد إلى قَرْمَط، فأرسله إلى البحرين والأحساء، وسرعان ما استجابت له قبيلة عبد القيس. ودخلت المنطقة في سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة، وقتله غلام صقلي في سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر، وعظم أمره، إذ واقع عساكر الخليفة المقتدر مراراً كما مرَّ بنا في الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه، واتسع ملكه في شرق الجزيرة العربية، وكثر أتباعه وجنوده، ونال ما لم ينله قَرْمَطى قبله. وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الإسماعيلي، وكان شأنه قد أخذ يعظم في إفريقية، ولم يكن يدعو له حقيقة، بل كان يتخذ ستاراً لخروجه على الخلافة العباسية. وكان كثيراً ما يُغَيِّر على البصرة وينكِّل بأهلها، ويسفك دماءهم، ويحرق دورهم كما يحرق المساجد. وكثيراً ما كان يُغَيِّر على قوافل الحجاج يفتك ويقتل وينهب، وجيوشه تَغْدُو وتروح إلى عاصمته «هجر» محمَّلة بالأموال، فكان طبيعياً أن يمتدَّ به طمعه وطموحه إلى أن يستولى على بغداد، بل إلى أن يستولى على العالم الإسلامي كله وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم لها أنه سيظل حياً حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة، وفي ذلك كله يقول من قصيدة طويلة مهدداً متوعداً (١):

فَمَنْ مَبْلَغُ أَهْلِ الْعِرَاقِ رِسَالَةً بَأْنِي أَنَا الْمَرْهُوبُ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
فِيَا وَيْلَهُمْ مِنْ وَقَعَةٍ بَعْدَ وَقَعَةٍ يُسَاقُونَ سَوْقَ الشَّاءِ لِلذَّبْحِ وَالْبَقْرِ
سَاصِرْفُ خَيْلٍ نَحْوَ مَصْرَ وَبَرْقَةٍ إِلَى قَيْرَوَانَ التُّرْكِ وَالرُّومِ وَالْعَزْرِ
أَكِيلُهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى أُبَيْدَهُمْ فَلَا أُبْقِي مِنْهُمْ نَسْلَ أَثْنَى وَلَا ذَكَرَ
أَعْمَرُ حَتَّى يَأْتِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ فَيَحْمَدُ آثَارِي وَأَرْضِي بِمَا أَمَرُ
وعزم في سنة ٣١٥ على غزو بغداد، فخرج إليها في ألف فارس وخمسة

آلاف راجل ، فجهَّز المقتدر لحربه جيشاً بقيادة يوسف بن أبي السَّاج ،
 والتقى الجيشان . ودارت الدوائر على ابن أبي الساج وجيشه ، وأخذ أسيراً ، وأسرع
 مؤنس بجيش كثيف في نحو أربعين ألفاً ، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب
 العراق والموصل ، والتقى بأبي طاهر وجيشه عند الأنبار ، غير أن أبا طاهر انصرف
 راجعاً إلى بلاده ، ولم يواقع مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه ، وكأنما خشي
 على نفسه مغبة الحرب ، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالآيات التالية ساخراً منه
 سخرية شديدة (١) :

قُولُوا لِمُؤْنَسِكُمْ بِالرَّاحِ كُنْ أُنْسًا واستتبع الرَّاحَ سُرنِيَاً ومزمارا
 وقد تَمَثَّلْتُ عَنْ شَوْقٍ تَقَازِفُ بِي بيتاً من الشعر للماضين قد سارا
 نزوركُمْ لَمْ نَوَاضِدْكُمْ بِجَفْوَتِكُمْ إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا لَمْ يُسْتَزَرَ زَارا
 وهو يهزأ به وبشجاعته التي عُرِفَ بها ، ويقول له إنك لست من أهل الحرب
 والبأس ، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرنائى وغير
 السرنائى ، ويستمر في هزؤه ، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبجنوده .

وتُطْنِغِي أبا طاهر الجنائى انتصاراته على جند الخلافة ، ويَغْرِهُ بالله الغرور ،
 ويشتهر عنه أنه لا يصلى ولا يصوم ولا يعرف حدود الله . وما يوافي شهر ذى الحجة
 في سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجَّاج من قوافلهم إلى البيت الحرام ، وإذا
 السيوف تنوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التَّروِيَةِ ، وهم يهللون لربهم ويلبسون ،
 وهو وأنصاره يَسْجُرُونَ فيهم ، كأنهم كباشٌ أَعِدَّتْ لِلذَّبْحِ ، دون أى شفقة أو
 رحمة . ولم يكتفوا بمن ذبحوهم في فجاج مكة ، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون
 ويذبحون والناس يتعلقون بأستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم ،
 ولا شفيع لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم . وبلغ من سفهه وخرقه أن أمر
 بطرح القتلى في بئر ززم ، واقتلع الحجر الأسود من موضعه ، وأخذ معه إلى هجر
 وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفاً من الخليفة المطيع وخشية
 من بأسه وبأس البويهيين . وجرد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف

أهداها الخلفاء على مرّ السنين . وروى المؤرخون أنه كان في أثناء هذا العمل الوحشي الفظيع يترنّم بأشعار له مبتهجاً ؛ وكأنما كان يشفي غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات ، وبما كان يُنشده من هذه الأشعار التي يحادّ بها الله ورسوله من مثل قوله^(١) :

ولو كان هذا البَيْتُ بيتاً لرَبُّنا لصبَّ علينا النارَ من فوقنا صَباً
لأنّا حَجَجْنَا حِجَّةً جاهليّةً محلّلةً لم تبق شرقاً ولا غرباً
ولكنّ ربَّ العرش جَلَّ جلاله ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حُجْباً
وكأنه بذلك يعلن كفره ، صريحاً غير موار ، بفريضة الحج إلى بيت
الله ، التي تُعدّ ركناً أساسياً من أركان الإسلام . وبذلك يتضح أن أبا طاهر
لم يكن ثائراً عنيفاً فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج ، بل إنه
يتقدمهما خطوات في الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين ، إذ خلع
الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم ويدبجهم ذبحاً حيث
لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور ، غير ما انتهكه من حرّات بيت الله المقدس
انتهاكاً ليس له سابقة ولا لاحقة في التاريخ . ولعل من الخير أن نبسط القول
قليلاً في شاعرين ثارا على الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري ، وهما محمد بن
البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دُلَاف .

محمد^(٢) بن البعيث

من فتيان بني أسد نزلت عشيرته في أذَرَبِيجان ، واشتهر أبوه بأنه كان من
الفُتُكّ الصعاليك ، واستطاع محمد أن يمتلك في تلك الديار قلعتين : قلعة تسمى
شاهي وأخرى تسمى بكدر ، وكانت شاهي أشدّ مناعة فكان يقيم فيها كثيراً .
واشتهر أمره في عصر المعتصم وحروب بابك ، فإنه كان يحاول أن يكون محامداً بين
الطرفين المتخاصمين ، فإذا نزلت سرايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة ، وهو في
أثناء ذلك يراوغ ، وقد ينقل للجيش العباسي وقواده أخبار بابك ، وقد ينقل إلى بابك

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧١ ومروج الذهب ٤ / ٤١
ومعجم الشعراء ص ٣٨٥ .

(١) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ٦٢ .
(٢) انظر في ثورة محمد بن البعيث وأخباره
الطبري ٩ / ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

أخبار الجيش العباسي . وكان هواه مع العباسيين ، غير أن وقوفه متفرجاً دون أن يُنقِص نفسه في تلك الحروب وينصر العباسيين جعل لإسحق بن إبراهيم المصعبي أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويُلْقَى به في غياهب السجون . ويتوسط له بعض القواد ، فيُفْرَج عنه ، على ألا يبرح سامراً حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها ، واختار حصن مَرَّند ، فجمع فيه عُدَّه وأسلحته وأنصاره وزادهم ، ورمَّ ما كان وَهَى من سورها ، وكان في داخلها وخارجها بساتين ، تدور من حولها أشجار كثيرة . ووجَّه إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه ، ثم وجَّه إليه بُغَا الشراي ، فزحف إلى الحصن وقطع ما حوله من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة ، ونصب عليه المجانيق ، ويُس ابن البعث من مطاولة الحصار ، ففرَّ على وجهه وهو ينشد :

كم قد قضيتُ أموراً كان أهملها غيري وقد أخذ الإِبْلَاسُ بِالكَظْمِ^(١)
لا تعذليني فيما ليس ينفعني إِلَيْكَ عَنِي جَرَى الْمَقْدَارُ بِالْقَلَمِ
سَأْتَلِفُ الْمَالَ فِي عُسْرٍ وَفِي يُسْرٍ إِنْ الْجَوَادُ الَّذِي يَعْطَى عَلَى الْعَدَمِ

وتبعه نَفَرٌ من الجيش العباسي ، فلحقوه ، وهو راكب دابة متقلد سيفاً يريد أن يصير إلى نهر عليه رَحَى ليستخفي في الرَّحَى ، وأخذوه أسيراً ذليلاً ، وانتهب الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة ، ونادى مناد بالامتناع عن النهب . وأتَى بابن البعث إلى المتوكل ، فأمر بضرب عنقه ، فطُرح على نطع ، وجاء السَّيَافُونَ فلوَّحوا له بسيوفهم ، وقال له المتوكل حانقاً غاضباً : ما دعا يا محمد إلى ما صنعت ؟ فأجابه : الشَّقْوَةُ وَأَنْتِ الْحَبْلُ الْمَمْدُودُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، وَإِنْ لِي فِيكَ لَظَنَيْنِ أَسْبَقَهُمَا إِلَى قَلْبِي أَوْلَاهُمَا بَكَ ، وهو العفو ، ثم اندفع ينشده :

أَبَى النَّاسُ إِلَّا أَنْكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي إِمَامَ الْهَدْيِ وَالصَّفْحُ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ
وهل أنا إِلَّا جُبْلَةٌ من خطيئة وعفوك من نور النبوة يُجْبِلُ^(٢)
تضاعل ذنبي عند عفوك قِلَّةً فَمَنْ بَعْفٍ مِنْكَ وَالْعَفْوُ أَفْضَلُ
فإنك خير السابقين إلى العلا ولا شك أَنَّ خَيْرُ الْفَعَالِينَ تَفَعَّلُ

(١) الكظم : خرج النفس من الحاق . الإِبْلَاس : (٢) الحباة : الخائفة والطبيعة .
انقطاع الحجة .

فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمنٌ عليك ، ارجعْ إلى منزلك ، وخففْ عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت . وفي الطبرى أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى . وكان جواداً ممدحاً طالما قصده الشعراء بمدحهم ، وأجزل لهم في عطائه ، ومن ذكر منهم المرزبانى في معجمه يحيى^(١) بن أحمد من أهل مدينة السَّرحبة في الموصل ، وفيه يقول : « كان في ناحية محمد بن البعيث ، ومدحه مدحاً كثيراً » منه قصيدة أولها :

لا زال محسوداً على أفعاله وحسوده في الناس غير محسدٍ
شطراه بين معاقبٍ أو غافرٍ أو عائدٍ متفضلٍ أو مُبتدئٍ
شفعاً ووتراً كلَّ ذاك فعاله كالدهر إلا أنه لا يعتدى
فالناس تحت لوائه من راغبٍ أو راهبٍ أو رائحٍ أو مُغتدئٍ

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى في الدعاية له ، وهو يصوره فارساً رائحاً غادياً على أعدائه ، والناس بين راهب من بطشه وراغب في كرمه الفياض ، وتارة يعاقب أعداءه عقاباً أليماً ، وتارة يعفو عفواً رحيماً ، ويدعو له أن يظل محسوداً متسنماً للنروة المجدة الرفيعة . ومن قوله فيه :

مَنْ أَلَقَ مِنْ آلِ الْبَعِيثِ مُحَمَّدًا أَحَلَّ رِياضاً لِلْعُلَا بِمُحَمَّدٍ
وَتَضَحَّكَ أُمُّ الْبِشْرِ عَنِ بَنِيهِ فَأَرْجَعَ مُحْسوداً بِنَيْلٍ مُحَسَّدٍ

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة ، فهو جواد ، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة ، وهو أديب يحسن العربية والفارسية . وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطع والسياف شاهر سيفه يريد أن ينقض عليه وأن يحز رأسه ويُرْهق روحه ، وشرَّ الغضب يتطاير من عيني المتوكل وقد انتفخت أوداجه . وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفاً ولا هلعاً ، فظل رابط الجأش مجتمع القلب ، لا تخونه الكلمة في اللحظة الحرجة ، بل لا يخونه البيت

(١) انظر في ترجمته وأشعاره معجم الشعراء

الذى يستلُّ الغضب من نفس المتوكل . وقد بلغ منه مبلغاً خطيراً ، حتى أوشك أن يقضى عليه قضاء مبرماً . وهى قدرة نفسية كانت تمتاز بقدرته البائية .

بكر^(١) بن عبد العزيز بن أبي دلف

حفيد أبي دُلْف القاسم بن عيسى العجلى الشيباني البطل المغوار الذى أبلى بلاء عظيمًا فى حروب بابك لعهد المأمون والمعتصم ، وكان هرون الرشيد ولأه — وهو حدث السن — أعمال الجبل فى إيران ، ولم يزل عليها إلى أن توفى سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان أديبًا شاعرًا وله مقطوعات تردّد فى كتب الأدب ، وهو مملوح أبى تمام وعلى بن جبلة الذى قال فيه :

إنما الدنيا أبو دُلْف بين بادية ومحتَضرة
فإذا ولى أبو دُلْف وُلّت الدنيا على أثره

وقد تولّى إقليم الجبل ابنه عبد^(٢) العزيز وكان شاعرًا ، وشجاعًا باسلاً ، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بغا ، فثارت ثورة عبد العزيز وفرّ إلى قلعة له ولعشيرته فى الكَرَج بين همدان وأصفهان ، وظل ينازل الدولة العباسية . ونراه فى سنة ٢٥٤ يَجْجِي همدان . ويخلفه ابنه أحمد ، فيتولى زعامة أسرته ويمدّ سلطانه إلى أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرياسة بعده أخواه عمر وبكر ، ويتمّ لعمر القيام بالأمر ، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية ، حتى لا يثور بكر ، غير أنه عاد فولّى فى سنة ٢٨٣ عيسى الشوشريّ على أصبهان ، وغضب بكر ومن كانوا ينضوون تحت لوائه من الأعراب ، فولّى وجهه معهم نحو الأهواز ، وخرج فى طلبه القائد التركى وصيف حتى بلغ حدود فارس . ولحقه ، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب ، وباتا كلُّ واحد منهما قريب من صاحبه ، وارتحل بكر ليلا ولم يتبّعهُ وصيف ، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد . وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدى يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعترته .

وكان بكر شاعرًا انحدر إليه الشعر من أبيه وجده ، وله ديوان صغير نُشر فى

(٢) انظر فى عبد العزيز وولايته على الجبل
الطبرى ٩ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ .

(١) انظر فى بكر وأشعاره ديوانه وتاريخ
الطبرى ١٠ / ٤٧ ، ٥١ ، ٦٣ .

دهلى باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى فى أشعاره بفتوته وفروسيته ، وله ميمية طريقة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بداراً غلامه أن يتعقبه ، وفيها يتوعده ويتهدده بمثل قوله :

أَلْقَى الْأَحْبَةَ بِالْعِرَاقِ عَصِيَّهُمْ وَبَقِيَتْ نُصْبَ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ
وَتَشَعَّبَ الْعَرَبَ الَّذِينَ تَصَدَّعُوا فَذَبِبتُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ بِحُسَامِي
فَلَا قَرَعَنَ صَفَاةَ دَهْرٍ نَابَهُمْ قَرَعًا يَهْدُ رَوَاسِيَ الْأَعْلَامِ
وَلَا تَرَكَنَ الْوَارِدِينَ حِيَاضَهُمْ بِقَرَارَةٍ لِمَوَاطِي الْأَقْدَامِ
يَا بَدْرُ إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ مَوَاقِفِي وَالْمَوْتَ يَلْحَظُ وَالصَّفَاخَ دَوَامِي
لَذَمَمْتَ رَأْيِكَ فِي إِضَاعَةِ حُرْمَتِي وَلِضَاقِ ذَرْعِكَ فِي اطِّرَاحِ ذِمَامِي
حَرَكْتَنِي بَعْدَ السَّكُونِ وَإِنَّمَا حَرَكْتَ مِنْ حِصْنِي جِبَالَ تِهَامِ
وَوَاضِحَ مِنْ حَدِيثِهِ فِي مَطَالَعِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَنَّهُ يَأْسَى لِلْعَرَبِ فِي عَصْرِهِ ، فَقَدْ تَشَعَّبُوا وَتَفَرَّقُوا شَيْعَةً وَطَرَائِقَ شَتًى ، فَعَضَّهَمُ الدَّهْرُ بَنَابَهُ وَأَصْبَحَتْ حِيَاضُهُمْ مَبَاحَةً يَسِرُّهَا الْأَعَاجِمُ وَغَيْرُ الْأَعَاجِمِ ، وَهِيَ هِيَ وَحْدَهُ يَقِفُ لِلدِّفَاعِ عَنْ عَرَبِيْنَهُمْ ، وَلَا مَعِينَ لَهُ غَيْرَ عَزِيْمَتِهِ الْمَاضِيَةِ وَسَيُوفِهِ الْقَاطِعَةِ . وَإِنَّمَا لِيَتَهَدَّدَ الدَّهْرُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ أَشَدَّ النِّكَالِ كَمَا يَتَهَدَّدُ مِنْ اسْتِبَاحِهَا حِمَى الْعَرَبِ وَالْعَرُوبَةِ بِالذَّلِّ وَالْهَوَانِ حَتَّى لِيَصْبِحُوا مَوْطِئًا لِلْأَقْدَامِ ، وَيَتَحَوَّلَ إِلَى بَدْرِ الْمُعْتَضِدِ وَاصِفًا لَهُ مَوَاقِفَهُ الْبَطُولِيَّةَ حِينَ تُسَلِّ السُّيُوفُ وَتَسْدُدُ الرِّمَاحُ وَيَلْتَقِمُ الْمَوْتَ الْأَبْطَالُ ، حَتَّى يَسْتَشْعِرَ النَّدَمَ عَلَى تَضْيِيعِهِ لِدِمَامِهِ وَتَحْرِيكِهِ لِلْحَرْبِ الْمَيِّرَةِ بَعْدَ سَكُونِهَا . وَيَبْدُو أَنْ بَدْرًا رَأَى أَنْ يَسْكِلَ أَمْرَهُ إِلَى غَيْرِهِ ، فَكَلَّفَ عَيْسَى النُّوشَرِيَّ بِمُهَاجَمَتِهِ ، وَصَدَّاعَ لَتَكْلِيْفِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْجَحْ سَرِيعًا فِي مِهْمَتِهِ ، وَاضْطَرَّ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ أَنْ يَنْسَحِبَ بِحِيْشِهِ ، فَقَالَ بِكَرٍ يَذْكُرُ فِرَارَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَيَتَهَدَّدُ بَدْرًا صَاحِبِهِ ، مِنْ قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ :

لَيْسَ كَالسَّيْفِ مَوْثُوسٌ حِينَ يَغْرُو حَادِثٌ مَعْضَلٌ وَيَفْدَحُ أَمْرُ
أَوْقَدُوا الْحَرْبَ بَيْنَنَا فَاصْطَلَوْهَا ثُمَّ حَاصُوا فَأَيْنَ مِنْهَا الْمَقَرُّ (١)
وَيَغْوَا شَرَّنَا فَهَذَا أَوَّانٌ قَدْ بَدَا شَرُّهُ وَيَتْلُوهُ شَرُّ

قد رأى النُوشريُّ لما التقينا مَنْ إذا أُشْرِعَ الرماحُ يَفِرُّ
جاء في قَسْطَلٍ لُهامٍ فَصَلْنَا صَوْلَةً دونها الكِماءُ تَهَرُّ
غَرًّا بَدْرًا حَلَمِي وَفَضْلُ أَنانِي واحتمالي وذاك مما يَغُرُّ

على أنه سرعان ما اضطرَّ إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النوشري في حدود أصفهان ، فقتل رجاله واستباح عسكره . وأُفلت في نفر يسير ، وغادر إقليم الجبل متجهًا إلى محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، فأكرم وفادته عليه ، وقرببه منه ، وولاه على إقليم رويان ، غير أنه مات مسمومًا في طريقه إليها لسنة ٢٨٥ .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولائه وقواده داروا على ألسنة الشعراء بمدحهم طلبًا للنوال ، إذ كانت بأيديهم أموال الدولة ، وكانوا ينثرونها نَشْرًا على الدعاية لهم ، ولم يكن للدعاية حينئذ لسان سوى الشعر ، فالوزير وكذلك الولاة والقائد حين يُطَرِّيه شاعر ويثني عليه يطير اسمه في الناس ، ولذلك كان كثيرون يَسْجَمِعُونَ الشعراء من حولهم ، لكي يعدّوا مناقبهم ، ويصوّروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة . وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه ، ويرفعون منزلتهم عالية . وكان في مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مدحيه وما يصلهم من نواله^(١) ، وهو من ممدوحى البحترى كما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان شاعراً مرهف الذوق ، وله البيت المشهور^(٢) :

ليس يُسْتَحْسَنُ في شَرعِ الهوى عاشقٌ يُحَسِّنُ تأليفَ الحُجَجِ

(٢) معجم الشعراء ص ١٩١ .

(١) انظر مثلاً ترجمة ابن أبي فنن الشاعر في تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٢ .

ومثله من وزراء المتوكل في كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وهو أيضاً ، من ممدوحى البحتري ، ومن مادحيه ^(١) محمد بن غالب الأصبهاني والقنبري ^(٢) ، وفيه يقول أبو هيفان يوم النسيروز وفيه تقدّم هدايا كثيرة ^(٣) :

إذا نحن مدحناك رعيننا حرمة المجد
وما استطرفت للاهدا ، إلا طرّف الحمد

وكان يَزِرُ المنتصر أحمد بن الحصب لم تكن له رصانة صاحبيه ، بل كان فيه حمق كثير ، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلباً للربح والنوال ، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه ^(٤) :

سموه أحمد فالإسلام يحمده والدهر كاسم أبيه ممرع خصب
فلا فضائل إلا منه أولها ولا مواهب إلا دون ما يهب

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد ، ويردّ البحتري في ديوانه مدحجه ، وتلقانا مدائح في وزراء المعتر مثل عيسى بن فرخان شاه وجعفر بن محمود الإسكافي . ويتولى وزارة المهتدي سليمان بن وهب ، وهو كما يقول الفخري أحد كتّاب الدنيا وأحد عقلاء العالم ، وكان يُحسّن الشعر كما كان يحسن الكتابة ، وهو من ممدوحى البحتري ، وفي كتاب الأغاني ترجمة طويلة له ، وكثير من المدائح قدّمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالسي ^(٥) :

أسفر الشرق منك والغرب عن ضو من العدل فاق ضوء البدور
أنشر الناس غيشكم بعدما كانوا رفاتاً من قبل يوم النُشور ^(٦)

ووزر للمعتمد الحسن بن مّخلّد ، وكان ماهراً في الكتابة ، وهو أيضاً من ممدوحى البحتري ، وكان مقصداً للشعراء . ويخلفه إسماعيل بن بلبل ، وهو كسابقه

(٥) أغاني (سأى) ٦٧/٢٠ ومعجم

الشعراء ص ٤٦٤ .

(٦) أنشر : أحى .

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٢٣ .

(٣) طبقات الشعراء لأبن المعتز ص ٤٠٩ .

(٤) معجم الشعراء ص ٣٧٨ .

من ممدوحى البحرى ، ومدايح ابن الروى وأهاجيه فيه مشهورة . ويكثر البحرى وابن الروى معاً من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخيه عبدون ، كما يكثر ابن الروى من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد ، وفى ديوان ابن المعتز مدائح لهما مختلفة . وتداول أسماء وزراء المكتفى والمقتدر على ألسنة الشعراء ، وفى ابن الفرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف^(١) :

يَتَلَقَّى النَّدَى بِوَجْهِ حَيٍّ وَصَدُورَ الْقَنَا بِوَجْهِ وَقَّاحٍ
هَكَذَا هَكَذَا تَكُونُ الْمَعَالَى طُرُقُ الْجِدِّ غَيْرَ طُرُقِ الْمِزَاحِ

ولأبى بكر يحيى بن محمد الصولى أشعار ومدايح كثيرة فى وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر ، وكان يدمج مديحهم فى مديح الخلفاء ، وقد يمدحهم ملحاً مستقلاً من مثل قوله فى أبى عبد الله البريدى وزير الخليفة المتقى^(٢) :

مَا رَأَى النَّاسُ بِالْوِزِيرِ الْبَرِيدِ كَذَا الْيَوْمَ مِنْهُ حُسْنًا وَفَخْرًا
الَّذِى يَعْتَشِقُ الْمَكَارِمَ وَالْمَجْدَ وَيَشْتَرِى بِالْمَالِ حَمْدًا وَشُكْرًا

ولعل أكثر الولاة مديحاً فى هذا العصر آل طاهر ، وفى مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر وإلى خراسان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان ، وعرضنا فيما أسلفنا مدائح البحرى وابن الروى فيهم ، ومن كان منقطعاً إليهم أبو الأشعث المروزى^(٣) . وفى طاهر يقول مدرك بن غزوان الجعفرى من قصيدة^(٤) :

حَتَّى طَاهِرٌ شَرَقَ الْبِلَادَ بِبُيُوتِهِ وَشَعَثُ النَّوَاصِي لَا تَجِفُّ لِبُودِهَا^(٥)
يُنِيخُ بِهَا أَرْضَ الْعَدُوِّ وَيَبْتَنِي مَآثِرَ مَجْدٍ كَانَ قَدَمًا يَشِيدُهَا

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٢ .

(٤) معجم الشعراء ص ٣٣٤ .

(٥) شعث النواصي : الخيل .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٥٩

مقابلة على ص ٤٥٤ .

(٢) أخبار الراضى والمتقى بالله للصولى

ومن كان يخصّ محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبي فسنن ،
وتصادف أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له ، وكان عامل الخراج والعشور يلحّ
عليه في طلب عشوره وخراجه ، وربما آذاه ، فكتب إلى محمد يستغيث به من
قصيدة طويلة^(١) :

أَبْنَى حُسَيْنٍ إِنِّي أَصْبَحْتُ فِي كَنَفِ الْأَمِيرِ
وَلَنَا مَعَاشٌ فِي قِطْعٍ مَعَهُ عَلَى الْمَاءِ النَّمِيرِ
لَوْلَا تَرَدُّدُ عَامِلٍ كَالْكَلْبِ فِي يَوْمٍ مَطِيرِ
فَهَلِ الْأَمِيرُ بِجُودِهِ مِنْ قَبْحِ طَلْعَتِهِ مَجِيرِ

فلما قرأ محمد القصيدة وقّع تحتها قد أجرناك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال
خراجك — وكان في كل سنة ستة آلاف درهم — وحمل إليه ألف دينار ، وحلف
عليه أن يقبلها . قال ابن أبي فتن : وصرت منذ هذا الحين أمدحه في كل عام
بقصيدة . ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي
والى الكوفة ، وهو من ممدوحى البحرى وابن الرومى ، ومثله إبراهيم بن المديبر الذى
ولى الدواوين فى سامراء وبغداد وولى فى بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله
وأغرقوه بمدائحهم ، وهو ممدوح البحرى . ونرى شاعراً يكاد يخصه بمدائح
وخاصة طوال مقامه فى البصرة ، وهو أبو شراعة شاعرها ، وكان لا يفارقه أيام
تقلده لها ولا يمنعه حاجة ولا شفاعة يسألها إلا حققها له ، وفيه يقول^(٢) :

إِنَّمَا لِلذَّكَاءِ فِي الْمَالِ شَتَّى صَوْنُكَ الْغِرْصُ وَابْتِذَالِ الْمَالِ
مَا نَبَالَى إِذَا بَقِيَتْ سَلِيمًا مِنْ تَوَلَّيْتُ بِهِ صُرُوفُ اللَّيَالِ

ومرّ بنا فى حديثنا عن البحرى أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه
خمارويه وبعض قواده ، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبي والى الموصل
وسيا الطويل والى حلب ورافع بن هرثمة والى الرى ، كما مدح بعض قواد الترك مثل
وصيف الصغير وأذكوتكين . ولا بد أن شعراً كثيراً نُظِمَ فى مدح القواد ، إذ تشير

(٢) أغاني (طبع الساسى) ٣٦/٢٠ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦
والديارات ص ١٢٥ .

نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر ، ومع ذلك نفتقد الشعر الذى يصور بطولة قواد العصر إلا ما نُظِم في الموفق وابنه المعتضد ، مما مرّت بنا الإشارة إليه عند البحرى وابن الرومى وابن المعتز . ويتعرض أبو بكر الصولى لبعض القواد في عصره وخاصة في مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد في عصر الراضى ، وكان يتحكم في شئون الدولة حتى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة ^(١) . وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين — وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا في الدواوين أولاً — ومن كان ممدّحاً منهم آل ثوبة ، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتضد ، وكان من أكثرهم جوداً وكرماً أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوبة ، وهو ممدوح البحرى ، وكان يمدحه شعراء كثيرون دبّجوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبي هيفان ^(٢) :

الثوباني فتى ليس له فى سوى السؤدد والمجد وطّر

وقوله ^(٣) :

نفسى فداءً أبى العباس من رجل لم ينسنى قط في نأى ولا كئيب
يقرى وبالرقة البيضاء منزله من بالعراقين من عجم ومن عرب

ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم في أضواء أكثر وضوحاً ، وهم أبو على البصير وأحمد بن أبي طاهر وابن دُرَيْد .

أبو على ^(٤) البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس ، أصل أسرته من الأنبار ، انتقلت إلى الكوفة فنزلت في حى النخع ، وهى أسرة فارسية الأصل . وكان أبو على ضريباً

ومروج الذهب للسعودى ٤ / ٦٢ ، ٨٤

ومعجم الشعراء للرزبانى ص ١٨٥ ونكت

الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب للحصرى ٣

/ ٩٥ ، ١٩٣ والديارات ص ٨١ ، ٢٤٨

والفهرست ص ١٨٤

(١) أخبار الراضى والمتقى للصولى ص ١٠ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠ .

(٣) ديوان المعانى ١ / ٦٥ .

(٤) انظر فى أخبار أبى على البصير وأشعاره

كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨

ولُقِّبَ البصير على العادة في التفاؤل أو لذكائه وفطنته . وكان شيعياً الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة ، وأكبر الظن أنه كان إمامياً يؤمن بالثقيّة ، ولذلك لم ير بأساً في أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامراً . ونزل الأخيرة في خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده ، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان بمدحهما وينال جوائزهما ، ولحق زمن المعتز وهنأه بالخلافة كما مر بنا في غير هذا الموضوع . ولم يكن شاعراً فحسب ، بل كان أيضاً صاحب رسائل نثرية بارعة ، وفي الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت قطعة منها بديدة . ويقول المسعودي : « كان من أطيع الناس في زمانه لا يزال يأتي بالبيت النادر والمثل السائر الذي لا يأتي به غيره ، وله في الفضل حفيد الحسن بن سهل :

ملكٌ ندفع - ما نخشى - به - نصلح منا ما فسَدَ

ينجز الناس إذا ما وعدوا وإذا ما أنجز الفضلُ وعد

ودقة العبارة واضحة ، وواضح معها دقة الفكرة في البيت الثاني ، فالفضل لا يزال يؤدي وعوده وكلما أدّى وعداً وعد ثانية ، فهو بحر من الجود لا ينقطع فيسّضه ، ومن طريف ماله في الفتح بن خاقان قوله واصفياً بلاغته وشعره :

سمعنا بأشعار الملوك فكلُّها إذا عَصَّ مَتْنِيهِ الثُّقَافُ تَأَوَّدَ

سوى ما رأينا لامرئ القيس إننا نراه متى لم يشعر الفتحُ أَوْحداً

أقام زماناً يسمع القول صامتاً ونحسبه إن رام أكْدَى وأصلداً^(١)

فلما امتطاه راكباً ذلَّ صعبه وسار فأضحى قد أغار وأنجداً

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثقاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأوّد وتشتي إلا ما كان من شعر امرئ القيس ، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبي الشعر العربي كله . وصورة يطيل إرهاف سمعه مادحيه ، حتى ليظن الرائي أنه لا يحسن قول الشعر ولا نظمه ، حتى إذا رامه ونظمه ذاع في طول البلاد وعرضها وفي حُرْزُهَا وسهولها ونجاده وأغوارها . ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له في ذلك أشعاراً ، ولم يصلنا من هذه الأشعار شيء ولعل كثيراً منها كان في مدح آل البيت .

(١) أكدي وأصله : أعطى قليلاً .

وروى له الحصرى تهنة بملود ، نظن ظناً أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوى ،
وفيها يقول :

أتانى البشير بأن قد رُزقتَ غلاماً فأبهجنى ما ذكرَ
فعمرك الله حتى ترا ه قد قارب الخطو منه الكبيرُ
وحتى ترى حوله من بنيه وإخوته وبنيههم زُمُرُ
وأوزعك الله شكرَ العطاء فإن المزيدَ لعبدٍ شكر
وصلى على السلف الصالح ين منكم وبارك فيمن غبرَ

وكان يؤذى نفسه إيذاء شديداً أن يقدم شعره أحياناً لبعض الرؤساء أو بعض
رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه ، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا
منه هذا الموقف فى صور مختلفة ، فعزّت عليه نفسه وكرامته ، وأنشأ يقول :

وإنى قد بلوتكمُ جميعاً فما منكم على شكرى حريصُ
وأرخصتُ الثناء ففغتموه وربّما غلا الشئى الرخيص
فغفّت نوالكم ورجبتُ عنه وشرُّ الزاد ما عاف الخَصِيصُ^(١)

ولعل شخصاً لم يؤذ نفسه وكبرياءه كما آذاه المعلّى بن أيوب أحد قواد الجيش ،
ولعل ذلك ما جعله يخصّه ببيتين كأنهما سَهْمان مُصْنِمان ، إذ يقول فيه :

لعمر أبيك ، ما نُسب المعلّى إلى كرمٍ وفى الدنيا كريمُ
ولكن البلاد إذا اقشعرتُ وصَوَّح نَبْتُها رُعى الهَشِيمُ^(٢)

وكان يحسّ فقدّه لبصره إحساساً عميقاً ، ولكن ذلك لم يَكْسِر نفسه ولا
أصابه بهوان ، إذ نراه يُدَلُّ بأن غيره من المبصرين يستمدُّون علمهم من الكتب
المخلّدة ، أما علمه فدَقَّتْهُ القلب وحبْرُهُ السمع ، ويعتذر اعتذارات طريفة
عن أنه لا يستطيع شيئاً إلا بغيره كما نرى فى مثل قوله :

(١) الخَصِيص : من الخِصاصة ؛ وهى الفقر
(٢) اقشعرت : أجذبت . وصَوَّح : يس .
والاحتياج .

لئن كان يهديني الغلام لِوَجْهِي ويقتادني في السير إذ أنا راكبُ
لقد يستضيء القومُ بي في أمورهم ويخبو ضياءُ العين والرأى ثاقب

وهو كثير السخرية في أشعاره . وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة
حاضرة حضوراً شديداً ، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبي العيناء الضرير
ويُروى أنه قال له : إنني وُلدت وقت طلوع الشمس ، فقال له تَوًّا : لذلك خرجت
مُكْنِياً (شحاذاً) لأنه وقت انتشار المساكين . وله غزل بارع من مثل قوله :

أَلَيْتُ بِنَا يَوْمَ الرَّحِيلِ اخْتِلَاسَةً فَأَضْرَمَ نيرانَ الهوى النَّظْرُ الخَلْسُ (١)
تَأَبَّتْ قَلِيلًا وَهِيَ تُرْعَدُ خِيفَةً كَمَا تَتَأَبَّى حِينَ تَعْتَدِلُ الشَّمْسُ
فَخَاطَبَهَا صَمْتِي بِمَا أَنَا مُضْمِرٌ وَأَنْبَسْتُ حَتَّى لَيْسَ يُسْمَعُ نِي حِسُّ (٢)
وَوَلَّتْ كَمَا وَلَّى الشَّبَابُ لَطِيفَةً طَوَتْ دُونَهَا كَشْحًا عَلَى نَفْسِهَا-النَّفْسُ

والقطعة بديعة وتدل على رفاقة الحس ودقة الشعور وخصوصية التفكير ،
وكان البصير روى لنا قصة لاجره خطرات في الحب والوجد . وكان يشارك أحياناً في
الخمروالجنون واللهو ، وله دعابة نظمها وهو يريد الحج ، صورَّ فيها نفسه أَلَمَّ بالكوفة
والأديرة القائمة حولها في الحيرة ، فتازعته نفسه أن يشرب في أحد الأديرة ويتزوَّد
من خمرها ما يكفيه حتى العودة ، فقال لصاحبه : حُطَّ أَثْقَالُنَا ، وسار الناس
وأقاما ، يقول :

خَرَجْنَا نَبْتَغِي مَكَةَ حُجَّاجًا وَزُورًا
فَلَمَّا شَارَفَ الْجِيزَ هَادِي جَمَلِي حَارًا
فَقُلْتُ : اخْطُطْ بِهَا رَحْلِي وَلَا تَحْفِلْ بِمَنْ سَارَا
فَقَضَّيْنَا لُبَانَاتٍ لَنَا كَانَتْ وَأَوْطَارَا
وَمَا ظَنَّاكَ بِالْحَلْفَا إِنَّ أَشْعَلَتْهَا نَارَا

ويقال إنه تغيّر عقل أبي على البصير قبل موته بقليل ، وكان يشوب إليه عقله ،
فيأسى على نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة ، وفي ذلك يقول :

خَبَا مَصْبَاحُ عَقْلِ أَبِي عَلِيٍّ وَكَانَتْ تَسْتَضِيءُ بِهِ الْعُقُولُ
إِذَا الْإِنْسَانُ مَاتَ الْفَهْمُ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَوْتَ بِالْبَاقِي قَلِيلُ
ولعل في كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذقه حقاً وأنه كان خصيب
الذهن . وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجاباً وبشعره
استحساناً .

أحمد^(١) بن أبي طاهر

اسم أبي طاهر طيفور ، وأحمد ابنه رُزْق به في بغداد لسنة ٢٠٤ ، وأصل
الأسرة من مَرَوَ ، ويقال إنها من سلالة ملوك خراسان . أخذ عن علماء بغداد ،
حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم في بعض الكتاتيب ، ثم ترك التعليم واحترف
الوراقة ، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له ، وسرعان ما
تحول إلى مؤرخ كبير ، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد في أخبار الخلفاء
والأمراء وأيامهم ، وهو أحد المصادر الأساسية التي اعتمد عليها الطبري في تأليف
كتابه تاريخ الرسل والملوك : أهم مرجع تاريخي للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع
الهجري . وله بجانب ذلك كتاب المثور والمنظوم الذي يشتمل على أبرع الرسائل
المدونة في العصر . وله كتاب فضائل الورد على الرجس وكأنه صنعه ردّاً على ابن
الرومي وأمثاله ممن كانوا يفضلون الرجس على الورد . وكان يتشيع ، ولكن ليس
لدينا من شعره الشيعي سوى القصيدة التي أشرنا إليها في غير هذا الموضع والتي
رثى بها يحيى بن عمر الطالبي المقتول بالكوفة في زمن المستعين . ويبدو أنه
كان إمامياً يأخذ بالتقية ، ولا يجد بأساً في مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم ،

٢١١ / ٤ ومعجم الأدباء ٨٧ / ٣ وكتاب
الزهره لابن داود (انظر الفهرس) وديوان
المعاني ٤٨ / ١ ، ٩٤ والموشح للرزباني
ص ٣٥١ .

(١) انظر في أخبار أحمد بن أبي طاهر
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ وروج
الذهب ٦٤ / ٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث
ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد

وفتحوا له جميعاً أبوابهم . وربما كان من أهم الأسباب في فتحها كتابه السالف « تاريخ بغداد » الذي أَرخ فيه للدولة وخلفائها . وفتح له كتاب المنشور والمنظوم أبواب الأدباء لا في بغداد وحدها ، بل أيضاً في سامراء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة . ويجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعاً ، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه « كان مؤدّب كتّاب عامياً ثم تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي ببغداد ، وليس فيمن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفاً منه ولا أبلد علماً ولا ألحن ، قال : ولقد أنشئت شعراً يعرضه على في إسحق بن أيوب لحن في بضعة عشر موضعاً منه وكذا قال لي البحترى فيه . » وشهادة البحترى فيه مردودة ، لأنهما كانا يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه ، ونفس أبي طاهر — كما في كتاب الموشح للمرزباني — يصف البحترى باللحن في شعره . وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو . وليس في شعره الذي بين أيدينا ما يصور هذا اللحن ، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة ، فالخطيب البغدادي — ومثله ياقوت — يقولان : « كان أحد البلغاء الشعراء الرواة » . وشعره يشهد ببلاغته ، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به وبشعره . وكان يغدو به ويروح على الوزراء ، فيُسبغون عليه جوائزهم من مثل قوله في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز أوائل الربيع :

أبا الصَّقَرِ لا زالت من الله نعمة تجددُها الأيامُ عندك والدَّهرُ
ولا زالتِ الأعْيادُ تمضي وتنقضي وتَبْقَى لنا أيامُك الغرُّ الزُّهرُ
فإنكَ للدنيا جمالٌ وزينةٌ وإنكَ للأحرارِ ذُخْرٌ هو الذُّخْرُ
رأيت الهدايا كلها دون قدركم وليس بشيءٍ عند مقداركم قَدْرُ
فأهديتُ من حلَى المديحِ جواهرًا مفصَّلةٌ يُزْهِى بها النظم والنثرُ

وكانوا يتقدمون للوزراء وعلية القوم في أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين ، ورأى ابن أبي طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر والآلى . والأبيات قوية جزلة مصقولة ، وتدل

على أن يدَّ شاعر صَنَاع هي التي كتبها وصاغتها هذه الصياغة المتينة . وأروع من هذه القصيدة قصيدته في أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد في حكم بغداد ، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢ ، وهي تلتقى بقصيدة تُروى لابن الرومي سبق أن أنشدنا منها في ص ٣١٠ بعض أبيات . ولعل القصيدتين اختلطتا في أذهان الرواة ؛ ومن قصيدة ابن أبي طاهر في مديح أبي أحمد كما جاءت عند بعض الرواة :

مَنْ لَمْ يَكُنْ حَذِرًا مِنْ حَدِّ صَوْلَتِهِ لَمْ يَدْرِ مَا الْمَزْعِجَانِ : الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ
حُلُوٌّ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَبْعَثْ مَرَاتِهِ فَإِنَّ أَمْرًا فَحُلُوٌّ عِنْدَهُ الصَّبْرُ
سَهْلُ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنَّهُ خَشِنٌ لَيْنُ الْمَهْزَةِ إِلَّا أَنَّهُ حَجَرٌ
إِذَا الرِّجَالُ دَجَّتْ آرَاوَهُمْ وَعَمُّوا بِالْأَمْرِ رُدُّ إِلَيْهِ الرَّأْيُ وَالنَّظَرُ
الْجُودُ مِنْهُ عِيَانٌ لَا ارْتِيَابَ بِهِ إِذْ جُودُ كُلِّ جَوَادٍ عِنْدَهُ خَبَرٌ

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم : لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر . وهي أبيات — إن صحَّ أنها لابن أبي طاهر — تدل على بصر بالشعر وروعة فنونه البديعية ، وله رسالة في سرقات البحري تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية ، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربي على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والمنثور . وقد مضى يُحْكَمُ في القصيدة التقسيم كما في الأبيات الأربعة الأولى ، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعاني والألفاظ على نحو ما يتضح في الأبيات الأربعة الثانية . وكان يُحْكَمُ — بجانب المديح — الهجاء اللاذع الذي يلسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله في أبي العيناء الضرير نديم المتوكل والخلفاء ومضحكهم بإجاباته ونوادره :

كُنَّا نَخَافُ مِنَ الزَّمَا نَ عَلَيْكَ إِذْ عَمِيَ الْبَصَرُ
لَمْ نَذَرِ أَنَّكَ بِالْعَمَى تَغْنَى وَيَفْتَقِرُ الْبَشَرُ
وكان يتعرض أحياناً للمبرّد ، فيخشى معرفة لسانه ، ويقال إنه استقبله في

يوم صيف شديد الحرارة فأكرمه وبالف في إكرامه ، فأطعمه غذاء طيباً ، وسقاه بارداً ، وأخذ يبسطه في الحديث : مؤملاً أن يمتدحه ببعض شعره ، وإذا هو ينشده :

ويومٍ كحرِّ الشَّوقِ في صَدْرٍ عاشقٍ على أنه منه أحرُّ وأزْمَدُ
ظلمت به عند المبرِّدِ قائلاً فما زلتُ في ألفاظه أتبرِّدُ^(١)
فقال له المبرِّدُ : قد كان يسعلك إذا لم تحمد أن لا تدم ، ومالك عندى جزاء
إلا أن تغرَّبَ عن عيني . فكرهه وهو يضحك من أثر دعايته في نفس المبرد
شيخ العربية لعصره . وأنشد له ابن داود طائفة كبيرة من غزلياته ، من مثل
قوله :

حبيبي حبيبٌ يَكتمُ النَّاسُ أنه لنا - حين ترمينا العيونُ - حبيبُ
يباعدنني في الملتقى وفؤادُه - وإن هو أبدى لي البعادَ - قريبُ
ويُعرض عني والهوى منه مقبلُ إذا خاف عَيْناً أو أشار رقيبُ
فتخرسُ منا ألسنُ حين نلتقى وتنطق منا أعينُ وقابُ
فهما يتناكران أمام الناس ، وكل منهما شديد الكسَافِ والركع ، يتجرع
غصص الهوى وآلامه ، ولا يستطيع البوح بما في ضميره ، وهما لذلك يصطنعان
التحفظ والاحتشام ، وقلوبهما تحترق وجداً ، وقد خرست منهما الألسنة ونطق
العيون بمكنون الضمير . وهو مع ذلك يكثر من الاختلاف إلى دارها ويجلس مولاها
وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون ، يقول :

إذا ما التقينا والوِشاةُ بمجلسٍ فليس لنا رُسلٌ سوى الطَّرْفِ بالطَّرْفِ
فإن عَقَلَ الواشونَ فُزْتُ بنظرةٍ وإن نظروا نحوى نظرتُ إلى السَّقْفِ
فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة في الحين بعد الحين ، حتى لا يفتضح
أمرهما للواشين ويجعلهم يقفون على حبه للمرأة وحبيها له وأنها لا تفرط فيه ، بل
شديدة الحرص عليه . ومع ذلك يجري بينهما حديث صامت لا أول له ولا آخر

(١) قائلاً : مستريحاً وقت القيلولة ؛ وهي

عن عذابهما في الحب وما يصطليان من ناره ، على الرغم من الرقباء والوشاة ،
يقول :

عَرَفْتُ بِالسَّلَامِ عَيْنَ الرَّقِيبِ وَأَشَارْتُ بِلَحْظِ طَرْفٍ مُرِيبِ
وَشَكْتُ لَوَعَةَ النَّوَى بِجَفَوْنٍ أَعْرَبْتُ عَنْ ضَمِيرِ قَلْبٍ كَتِيبِ
رُبُّ طَرْفٍ يَكُونُ أَفْصَحَ مِنْ لَفْظٍ وَأَبْدَى لِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ

فهى تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب ، وتشكو لوعة النوى وحرقة الحب
بعيونها ، واصلة نظرها الشَّرَزَّ إلى الرقيب بنظرها اللين إليه مُعْرَبَةٌ عن ضميرها
وما يخفى في صدرها من الحب له والكلف به . وهو يحدثها بنفس اللغة ، فيفهم
قلبا عن قلبه وضميرها عن ضميره ، وتبادلها بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة ،
يقول :

أَلَا حَظُّهَا خَوْفَ الْمَرَاقِبِ لِحِظَةً فَاشْكُو بِطَرْقِي مَا بَقَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ
فَتَفْهَمُهُ عَنْ لَحْظٍ عَيْنِي بِقَلْبِهَا فَتَوَى بِطَرْفِ الْعَيْنِ أُنَى عَلَى الْعَهْدِ

فهما دائماً يتكلمان بلغة الطرف ، لغة يصمت فيها اللسان ، وتنطق القلوب
بما تضمنت من الوجد ولواعاته ، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحضان ، وكأنما
لا يتكلمان بتلك اللغة الصامتة الفصيحة فقط بل يراسلان بها ويتكاتبان
مكاتبات حارة ، يقول :

كَتَبْتُ إِلَى الْحَبِيبِ بِكَسْرِ عَيْنِي كِتَابًا لَيْسَ يَقْرَأُهُ سِوَاهُ
فَأَخْبِرْنِي تَوَرُّدُ وَجَنَّتِيهِ وَكَمَرُ جَفَوْنِهِ أَنْ قَدْ قَرَأَهُ

ولعل في كثرة رسوم ابن أبي طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حسه من طرف
وثرأخواطره وأفكاره من طرف آخر ، وفي كثير من هذه الرسوم براعة في التصوير
كما نرى في البيت الأخير ، ومن بديع تصويره قوله في إحدى المحجبات اللاتي
شُغِفَ بهن :

حِجَابٌ فَإِنْ تَبَدُّو فَلِلدَّمْعِ جَوْلَةٌ يَكُونُ لَهُ مِنْ دُونِ رُؤَيْتِهَا سِتْرًا

فهو دائماً منها في حجابين ، حجاب حين لا يلقاها . وحجاب من دموعه حين يلقاها ، وكأنها محجبة دائماً ، وراء أستار من الحجاب صفيقة وأستار أخرى رقيقة من الدموع الغزار . ويحدثنا ياقوت نقلاً عن أحد الرواة أنه كان يلمُّ ببعض الأديرة أحياناً في طريقه إلى سامراء أو بعد رجوعه منها ، ويُنشد له خمرة ، ويبدو أن الخمر لم تكن من متاعه إلا في بعض أحوال عارضة . وما زال يُعنى بالتصنيف ونظم الشعر حتى توفي سنة ٢٨٠ للهجرة .

ابن (١) دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، من أزد عُمان ، كانت أسرته على شيء من اليسار ، وقد استوطن أبوه البصرة ، وفيها وُلد له سنة ٢٢٣ وعُنى ٤٦ الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بحلقات العلماء ، وكانت له ذاكرة عجيبة لا يكاد شيء يسمعه يفلت منها ، مما أعدّه لأن يكون من كبار اللغويين في عصره . وقد أكبَّ على محاضرات الرياشي وأبي عثمان الأشستائدي وأبي حاتم السجستاني وغيرهم من علماء البصرة ، فأخذ كل ما عندهم . ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكّلوا بأهلها تنكيلاً شديداً فرَّ مع عمه الحسين إلى عُمان ووطن قبيلته الأزدي ، وظل بها اثني عشر عاماً إلى أن قضى الموفق على ثورة الزنج قضاء نهائياً ، وحينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام . ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال وإلى الأهواز وفارس لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل وتنقيفه . ويلجئ الدعوة ، ويرحب به الوالي ترحيباً عظيماً ، ويقبله ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال . وينظم في الوالي وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة ، التي عرضنا لها في حديثنا عن الشعر التعليمي وتطير شهرتها وتكاثر شروحيها ، وتُطَبِّعُ في عصرنا بشرح التبريزي وبشروح

تاريخ الطبري للهداني ص ٧٦ والوالي بالوفيات
الصفدي ٢ / ٣٣٨ ومروج الذهب للمسعودي
٤ / ٢٢٩ وطبقات الشافعية ٣ / ١٣٨ والنجوم
الزاهرة ٣ / ٢٤٠ وروضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع
ديوانه في القاهرة .

(١) انظر في ترجمة ابن دريد وأشعاره
معجم الشعراء ص ٤٢٥ وتاريخ بغداد ٢ / ١٩٥
وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٨ / ١٢٧ ونزهة
الألباء . والفهرست ص ٩٧ وثمرات الذهب
٢ / ٢٨٩ ولسان الميزان ٥ / ١٣٢ وتكملة

أخرى وتكثر تخميساتها على مرّ القرون . وفي أثناء عمله عند ابن ميكال ألف الجهمرة لابنه إسماعيل ، وهي معجم لغوى بدأ فيه على طريقة معجم العين المنسوب إلى الخليل بالثنائي ثم بالثلاثي ثم بالرباعي ثم بملحقه ثم بالخماسي والسداسي وملحقتهما ، وجمّع النوارد في باب منفرد . أملاها أولاً في فارس ، ثم أملاها في البصرة ثم في بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة . وكان من أهم ما ألفه لإسماعيل ، كى يحسن العربية ، كتاب الأربعين حديثاً ، قصّ فيه حكايات عربية قديمة تقوم على الحب غالباً كما تقوم على التاريخ ، ويقول الحُصْرى عن هذه الأحاديث إنها هي التي ألهمت بديع الزمان مقاماته^(١) . ويبدو أنه ألف عند ابن ميكال كثيراً من مصنفاته ، وما نُشر له منها في عصرنا كتاب الاشتقاق وكتاب السَّرْج والجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على ألغاز لغوية . وما زال يعيش في رحاب ابن ميكال حتى عزّلاً عن فارس ، فانتقل إلى مسقط رأسه ، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبقه ، فاستقبلته بغداد استقبالاً حافلاً ، وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً إلى أن توفي سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عاماً . وأهم مدائحه وأشعاره مقصورته التي ذكرناها آنفاً ، وقد حكّمتها في حديثنا عن الشعر التعليمي ، ونقف منها الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبي العباس إسماعيل ، وفيهما يقول :

تلافيا العيش الذى رنقَهُ صرَفُ الزمان فاستساغ وَصَفَا^(٢)
وأجريا ماء الحيا لي رَغْدَا فاهتزَّ غُصْنِي بعد ما كان ذَوَى^(٣)
إن ابن ميكال الأمير انتاشني من بعد ما قد كنت كالشيء اللَقَا^(٤)
ومدَّ ضَبْعِي أبو العباس من بعد انقباض الدَّرْعِ والباع الوَزَى^(٥)

(١) انتاشني : تناولني . والقا : المرعى
في عرض الطريق لا يعبأ به .

(٢) الضبع : وسط العضد . ومد ضبعيه :
بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض
الدرع والباع كناية عن ضيق الحال .

(١) انظر زهر الآداب ١ / ٣٠٧ وكتابنا
الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف -
الطبعة السادسة) ص ٢٤٨ .

(٢) رنقه : كدره .
(٣) الحيا : الغيث والخصب .

ذاك الذى ما زال يسمو للعلا بفعله حتى علا فوق العلا
لو كان يَرْقى أَحَدٌ بجوده ومجده إلى السماء لارتقى
ما إن أتى بحرَ نداه مُعْتَفٍ على أوارى عَلمٍ إلا ارتوى^(١)
نَفْسِي الفِدَاءَ لأميرى ، ومن تحت السماء لأميرى الفدا

وطبيعى أن يُعْنَى ابن دريد فى هذا المديح بإدماج شئ فيه من الألفاظ الغريبة ،
لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متنًا لغويًا ، وتحققت له إرادته ، لا بما وضع فيها
من ألفاظ غريبة فحسب ، بل أيضًا بما حشد فيها من الألفاظ المقصورة . ومع
ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة ،
فاختار لها أسلوبًا وسطًا بين الإغراب والسهولة ، كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا
الموضع . وهذه الأبيات نفسها تصور هذا المسلك ، فهى لا تتعمق فى الإغراب ،
بل تظل فيها نظرة الشعر وجماله . وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها فى الغريب
والألفاظ من مثل قوله فى أبى أحمد حُجْر الجوىمى أحد رجالات فارس النابيين :

حُجْرُ بن أحمد فارُعُ الشرف الذى خضعتْ لعزته طُلَى الأعناقِ^(٢)
انظرْ أنامله فلسنَ أناملًا لكنهن مفاتحُ الأرزاقِ
وانظرْ إلى النور الذى لو أنه للبدر لم يُطْبَعْ بِرَيْنِ محاقِ^(٣)

وكان يجيد فن الرثاء ، وله مراثية بديعة فى عمه الحسين بن دريد الذى تعهد
تربيته ، ومن خير مراثيه مراثية فى محمد بن جرير الطبرى علّم الدراسات الدينية
والكتابات التاريخية فى عصره ، وفيها يقول :

إن المنية لم تُتْلَفْ به رجلا بل أتلفتْ علماً للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو شاربُه والآن أصبح بالتكدير مَقْطوبا^(٤)
كلا وأيامه العُرُّ التى جعلتْ للعلم نوراً وللتقوى محارباً

(٣) الرين : الأذى . يطبع : يدنس .

(٤) مقطوباً : مزوجاً .

(١) الندى : الكرم . المتق : طالب النوال

والأوارى : النار . العلم : الجبل .

(٢) طلى : جمع طلية ، وهى أصل المتق .

وتُنسب له قصيدة في ذكرى الرسول عليه السلام نشك في نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى إنما ذاعت وشاعت في عصر متأخر . وله قصيدة طويلة في رثاء الإمام الشافعي ، أو بعبارة أدق في بيان مكانته العلمية الخطيرة ، وفيها يقول :

لرأى ابن إدريس ابن عم محمد ضياء - إذا ما أظلم الخطب - صادق
إذا المضلات المشكلات تشابهت سما منه نور في دجأه ساطع
أبى الله إلا رفعة وعلوه وليس لما يُعليه ذو العرش واضع

وهي قصيدة بديعة . وبحق يقول المسعودي إنه كان يذهب في الشعر كل مذهب ، فطوراً يجزل وطوراً يرق ، وطوراً يصبح بدوياً متعمقاً في الفلوات وفي وصف الإبل والخيل ، وطوراً يصبح حضرياً يصف الرياض والزهور ، ومن قوله في النرجس :

عيون ما يلم بها الرقاد ولا يحو محاسنها السهاد
لها حدق من الذهب المصق صياغة من يدين له العباد
وأجفان من الدر استفادت ضياء مثله لا يستفاد

ومن تمام هذا الإحساس الحضاري عنده أن نجده يتغزل أحياناً غزلاً رقيقاً ، من مثل قوله واصفياً مدى فتنة الناس بمحبوبته ، حتى كأنهم جميعاً شركاء له في الحب وضنائه :

أعاد من أجلك لا من ضنى وسائر العواد أشراكي
ولست أشكوك إلى عائد أخاف أن أشكو إلى شاكي

فالناس يزورونه من ضنائه في حب صاحبه لا من ضنا مرض ألم به ، وهو لا يشكو لهم من عذابه في حبها ولا من وصبه فيه ، لأنه يراهم جميعاً مثله ، يعانون ما يعانيه من لوعات الحب وآلامه . وكان يتورط في الخمر وإثمها ، كما كان يتعلق بالغناء وآلاته ، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه في شبخوته إنه كان يستحي مما يرى من الشراب والعيدان المعلقة ، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده :

وحمرأ قبل المزج صفراء بعده أتت بين ثوبني نرجس وشقائق
حكّت وجنة المعشوق صرّفاً فسَلَطُوا عليها مزاجاً فاكتست لوناً عاشق
ويقال إنه عرض له في أواخر عمره فالج (شلل) وسقى الدرياق فبرئ ،
ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته . ثم مرض به ثانية ، وظل سنتين
توفى في نهايتهما ، وتصادف أن كانت وفاته في نفس اليوم الذي توفي فيه أبوهاشم
الجبائي المتكلم المعتزلي المشهور ، ودُفنا معاً ببغداد في مقبرة الخيزران .

٥

شعراء الهجاء

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن شعر العصبية القبليّة خبت ناره
فيه وخبت معه نار النقائص ، وحل محله شعر شعوبي أحياناً ، ولكن الكثرة الكثيرة
كانت هجاء شخصياً يتعرض للأعراض مزرباً بالمهجوّين محقراً لهم ومهوّناً . ونستطيع
أن نطرد هذا الحكم في العصر العباسي الثاني ، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبي خبت
ناره بدوره . ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل ، فلما
ضعف شأنهم في العصر وحل الترك محلهم في السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفّت
حدّة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً ، وحتى هذا النادر لم تحتفظ
به المصادر إلا قليلاً جداً ، لأنه لم يكن لشعراء نابيين إنما كان لشعراء مغمورين قلما
عنى بهم أحد مثل محمد بن أبان الذي كان يكثر من الافتخار بالعجم^(١) ، ولم يبق
من افتخاره شيء . وبذلك كان الهجاء الشخصي هو اللون العام في العصر ، وسبق
أن لاحظنا في كتاب العصر العباسي الأول أن شعراء أكثروا في هجائهم من
القول الفاحش المقذع في الأمهات والأخوات وظل ذلك في هذا العصر وظل معه
ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بداعة ، لن نقف عندها ،
إنما نقف عند الهجاء غير البذيء ، وكانت نيرانه مضطربة طوال العصر ، فالشعراء

يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو قصر في عطائهم ، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابه أو عالم لقاء غير حميد . وكثيراً ما كانت تجرهم المنافسة إلى الدخول في معارك هجاء حامية الوطيس . ومراً بنا في غير هذا الموضع ، ما قيل عن البحرى من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه ، وبالع بغير القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء^(١) . وإذا صح هذا عن البحرى الذى كانت تفتتح له الأبواب الموصدة ، وكان يمشى - بفضل جوائزه الكثيرة - في موكب من عبيده فضلاً عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا في الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه . ومراً في حديثنا عن ابن الروى لكثارة من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلى الساخر يكبر فيه عيوب المهجوين الجسدية والمعنوية . وابن الروى والبحرى أكبر شعراء العصر ، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يسهمون في هذا الفن ، وكثيراً ما كانوا يخصصون به الوزراء حين يحرمونهم الجائزة ، ولئن ينفع الوزير عندهم أن يكون ممدحاً ، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلط عليه الشاعر سهام هجائه ، من مثل قول دندن في عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكتابه ابن يزداد^(٢) :

وإن ابن يزداد لأحولُ حوُلُ ولكنّه يقرأ (إذا الشمس كورت)
فقل لعبيد الله أحييت دولتي مكاسير زمني (عطلت) فتحيّرت
وأنت - إذاه مُيزت - أبللت منهم فصوصكم : حى المنازل أقفرت

ومجيئه بالآية القرآنية وكلمة (عطلت) الواردتين في سورة التكويد يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة ، لأن السورة في وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور . وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم^(٣) :

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

(١) الموضح للمرزبانى ص ٣٣٦ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٦ .

إِنْ زَمَانًا أَنْتَ مُسْتَوَزَّرٌ فِيهِ زَمَانٌ عَسِيرٌ أَنْكَدُ
يَذْمُكَ النَّاسُ جَمِيعًا فَمَا يَلْقَاكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ يَحْمَدُ

ولما انتكست الوزارة في عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد في الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال ، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً ، ومنهم من تولى الوزارة مرتين وثلاثاً ، وكل وزير يصادر الذي قبله ويعمل كل ما في وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة ، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم في هجاء الخاقاني الوزير ^(١) :

لِلدَّوَاوِينِ - مَذْ وَلِيَتْ - عَوِيلُ وَلِمَالِ الْخَرَاجِ سَقَمٌ طَوِيلُ
يَتَلَقَّى الْخُطُوبَ حِينَ أَلَمْتُ مِنْكَ رَأْيٌ غَثٌ وَعَقْلٌ ضَمِيلُ
إِنْ سَمَنْتُمْ مِنَ الْخِيَانَةِ وَالْجَوْرِ فَلِلْإِرْتِفَاعِ جِسْمٌ نَحِيلُ

وكان الخاقاني معروفاً بسوء السيرة والتدبير ، وأخذ الرشوة ممن يولّيهام الأعمال ، ولذلك كثرت في أيامه الولاية والعزل ، وكان الدولة أصبحت دولة لصوص وقطّاع طرق . ومن هؤلاء اللصوص وقطّاع الطرق ابن البريدى الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني من قصيدة طويلة ^(٢) :

يَا سَمَاءُ اسْقُطِي وَيَا أَرْضُ مِيدِي قَدْ تَوَلَّى الْوِزَارَةَ ابْنُ الْبَرِيدِي
هَذَا رَكْنُ الْإِسْلَامِ وَانْهَتْكَ الْمَلَاكَ وَمَحَّتْ ^(٣) آثَارَهُ فَهُوَ مُودِي
فَاسْتَهْلِي يَا عَيْنُ بِالْأَمْعِ سَحًّا وَقَلِيلُ أَنْ تَذَرَفِي وَتَجُودِي

ومرّ بنا آنفاً أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجي ، ومن تعرّضوا له بالهجاء كثيراً مروان بن أبي الجنوب شاعر المتوكل ، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التي كان يخصه بها المتوكل ، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة ، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة ، على نحو ما حدث بينه وبين علي بن

(٢) محت : درست .

(١) الفخرى ص ١٩٨ .

(٢) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ١١٣ .

الجهنم ، وكان أكثر توقراً منه في هجائه ، إذ لم يكن يُسِفُ فيه إلى ذكر الأعراض .
ويتهاجى مع أبي نعامه اللقي ، ويكويه بمثل قوله في نعت شعره ^(١) :

رَأَيْنَا الْبَرْدَ مُشْتَدًّا فَسَاءَ لَنَا عَنْ الْقَصَّةِ
فَقَالُوا مُنْشِدٌ يُنْشِدُ شِعْرَ ابْنِ أَبِي حَفْصَةَ

وكان أبو نعامه كما مرَّ بنا شيعياً وكان خبيث اللسان ، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة في أيام التوكل ورماهم بأشنع القبايح ، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية . وكانوا ربما يهجون بالتزندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجَمَّاز في الجاحظ ^(٢) :

يَا فِتَى نَفْسُهُ إِلَى مِلَّةِ الْكُفْرِ تَائِقَةٌ
لَكَ فِي الْفَضْلِ وَالتَّزَهُدِ وَالنُّشْكِ سَابِقُهُ
فَدَعِ الْكُفْرَ جَانِباً يَا دَعِيَّ الزِّنَادِقَهُ

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد الحمامين عن الإسلام في عصره المدافعين المناضلين ، ولكنه الهجاء يصمُّ الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتاناً . ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر في محمد بن يزيد المبرِّد العالم النحوي المشهور ^(٣) :

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ فَقَالَ الْقَائِلُونَ وَمَنْ ثُمَالَةُ
فَقُلْتُ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدٍ مِنْهُمْ فَقَالُوا زِدْنَا بِهِمْ جَهَالَةَ

وْثُمَالَةُ هي عشيرة المبرِّد ، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهويماً بعيداً للمبرِّد وأنه خامل الذكر ، وكان قد طبَّقَ آفاق البلاد العربية شهرة في عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه . وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره في كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه ، وكان لها قديماً مشاركة في رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح ، وكذلك كان لها مشاركة في الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره ، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة في الهجاء من

(٣) ديوان المعاني ١٧٨/١ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٧٥ .

مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف في أبي الشبل الشاعر الماجن ، تهوّن من رجولته طاعنةً له في الصميم^(١) :

ما ينقضى عجبى ولا فكرى من نعبجة تكفى أبا الشُّبْلِ
لما اكتنيتَ لنا أبا الشُّبْلِ ووصفتَ ذا النقصان بالفضل
كادتُ تميد الأرضُ من جَزَعٍ وترى السماءَ تذوب كالْمُهْلِ

وهي تصوره متمرداً على حقيقته ، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد ، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال ، فالأرض تميد جزعاً ، وكأن يوم القيامة حل مواعده ، فالسماء تذوب كالْمُهْلِ أو الزيت المغلى . ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار الهجائين في عصرهم الصَّيْمَرِيّ والحَمْدُونِيّ وابن بَسَّام .

الصيْمَرِيّ^(٢)

هو أبو العنَبَس محمد بن إسحق ، أصله من الكوفة ، وتولى القضاء بالصَّيْمَرَةِ فنُسب إليها ، وهي نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع ، قدم سامراً في عصر المتوكل فقرّبه منه واتخذ له نديماً له ، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتندير ، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف ، إذ روى له ابن النديم في الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات ، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة ، ككتب الأطعمة وكتاب الجوابات المستكة . وكان عالماً بالنجوم ، وله فيها كتابان . ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم ، فقط ، فقد كان يضيف إليهما الشعر ، ويقولون إنه كان خبيث اللسان ، حاجي أكثر شعراء زمانه ، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله في إبراهيم بن المدبر ، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الدواوين ، في سامراء وبغداد :

ومروج الذهب : ٤ / ٩ ومعجم الأدباء ١٧ / ٨

والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٤ والواق بالوفيات

١٩١ / ٢ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥ .

(٢) انظر في الصيْمَرِيّ وأخباره وأشعاره

كتاب الأغاني (طبعة الساسي) ١٧٣/١٨

والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ١/ ٢٣٨

أَسْلُ الذِي عَطَفَ الْمَوَا كَبَ بِالْأَعْنَةِ نَحْوَ بَابِكَ
وَأَذَلَّ مَوْقِيَ الْعَزِيزِ زَ عَلَى وَقُوفِي فِي رِحَابِكَ
وَأَرَاكَ نَفْسَكَ مَالِكَا مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي حِسَابِكَ
أَلَّا يُطِيلَ تَجَرُّعِي غُصَصَ الْمَنِيَّةِ مِنْ حِجَابِكَ

وله خبر طويل مع البحترى هجاء فيه وسخر منه سخرية مرة ، إذ حدثت الرواة أنه كان من عادة البحترى إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور في مشيه مرة متقدماً ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكببه مرة أخرى ويشير بكفه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المتوكل ومَنْ في مجلسه فيقول : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . وكان المتوكل يضجر من ذلك ، فأقبل على الصيمرى والبحترى ينشده ملدحته فيه :

عَنْ أَيْ ثَغْرِ تَبْتَسِمُ وَبَأَى طَرْفٍ تَحْتَكُمُ

وقال له : أما تسمع ما يقول ؟ فقال له الصيمرى : بَلَى ، فمررتني فيه بما أحببت ، فقال : اهتجّه على هذا الرّوى ، فحضرته على البديهة قصيدة هجاء طويلة من نفس الوزن والقافية ، وفيها يقول :

يَا بُحْتَرِي حَذَارَ وَيَ لَكَ مِنْ قُضَاقُضَةٍ ضَغْمٌ^(١)
فَبِأَيِّ عَرِضٍ تَعْتَصِمُ وَبِهْتَكِهِ جَفَّ الْقَلَمُ
وَلَقَدْ أَسْلَتَ بَوَالِدِي لَكَ مِنَ الْهَجَا سَيْلَ الْعَرَمِ
يَا بَنَ الثَّقِيلَةِ وَالثَّقِي لَ عَلَى قُلُوبِ ذَوَى النِّعَمِ

ومضى يُفْتَحِشُ فِي الْقَصِيدَةِ وَيُقْنِذِعُ فِيهَا إِقْدَاعًا قَبِيحًا . ولا ريب في أن نَظْمَهُ قصيدة طويلة بهذا النمط على البديهة يدل على شاعرية قوية . وظلّ خفيفاً على قلوب الخلفاء . يسلكونه في ندمائهم حتى عصر المعتمد ، أو بعبارة أخرى حتى توفي في عصر هذا الخليفة لسنة ٢٧٥ . وله يهجو طبّاخه المسحى صالحاً :

(١) القضاقة : الأسد . ضغم : مفترس .

يا طيبَ أياي بمعشوقِ ونحن في بُعْدٍ من السُّوقِ
إذا طلبت الخبز من فارسِ ينفخ لي صالحٌ بالبوقِ

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين ، وبما احتفظت له المصادر به قطعة في مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل ، وهي تطرد على هذا النمط :

زارني بدرٌ على غُصْنٍ قابلاً وَضَلِي يَقْبَلُنِي
خلته لما أتى حُلُمًا وهو رُوحِي رُدٌّ في بدني
إن لي عن مثله شُغْلًا بمقال الشعر في الحسنِ
وأبيه مخلدٌ قَبِه قد لبسنا سابغ المننِ
كاتبٌ قَلَّ النَّظِيرُ له فاضلٌ في العلم واللَّسنِ

وشعره يسيل غدوبة ، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالاً : فلا تكلف فيه ولا تعمِّلْ ، ومع ذلك لا نجد فيه لهللة في النسيج ، إنما نجد المتانة التي تجعله سائغاً في الآذان والأسماع . وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله :

كم مريضٌ قد عاش من بعد يأسٍ بعد موت الطبيب والعوادرِ
قد يُصَاد القَطَلُ فينجو سليماً ويحلُّ القضاء بالصيادِ

وهي فكرة دقيقة ، فقد يعيش المريض الميئوس من شفائه المبكى عليه من محبيه وأودائه ، ويموت الطبيب الصحيح المعافى . وبالمثل قد يصاد طائر ، ويخطف الموت صائده ، بينما تُرَدُّ له حريرته ويعود إلى رفرفته في الهواء طليقاً .

الحمدوني (١)

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدوني ، جَدُّهُ حَمْدُ وَيْنُهُ صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذي كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكمتهم ، ونجد أبنائه وأحفاده في أواخر العصر العباسي الأول وفي هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم . وعُرف إبراهيم أبو إسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل ، وكان ابنه أحمد على غراره نديماً للمتوكل ثم للمستعين . ولا نشك في أن إسماعيل كان على شاكلة أخيه وأبيه ينادم الخلفاء ، وكل شيء فيه كان يُعِدُّه لهذه المنادمة ، إذ كان فكهاً خفيف الروح ، وكان شاعراً ، وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة ، واتجه بشعره إلى الهجاء ، ولكن أي هجاء ؟ الهجاء الذي يَلْسَعُ لَسْعُ الإبر من مثل قوله في سعيد بن حميد حين ولي رئاسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ ساخرأ منه ومن ملابسه الديوانية الجديدة :

لبس السيفَ سعيدٌ بعد ما عاش ذا طِمْرَيْنِ لا نَوْبَةَ لَهُ
إِنْ لِلَّهِ لآيَاتٍ وَذَا آيَةُ اللَّهِ فِينَا مُنْزَلَةٌ

فقد جرَّده من كل استحقاق للوظيفة وزَيَّيَّها والسيف الذي كان يتقلده مَنْ يَشْغُلُهَا لعصره ، فهو خلو من كل كفاءة ، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه . وكان سعيد ممن أتقنوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأواً بعيداً . ومن هجائه اللاذع قوله في بَغِيض :

سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ إِلَّا صَدَقْتَ وَعَلِمَى بِأَنَّكَ لَا تَصْدُقُ
أَتُبَغِّضُ نَفْسَكَ مِنْ بُغْضِهَا وَإِلَّا فَأَنْتَ إِذْنُ أَحْمَقُ

لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة
٢ / ٢٩٨ و ٣ / ٢٤ ، و ٥ / ٣٤٣ و ٧ / ٢٨٧
وديوان المعاني ١ / ٢٧٨ وزهر الآداب
٢٣٣ م وما بعدها

(١) انظر في الحمدوني وأخباره وأشعاره
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ وفوات
الوفيات ١ / ٢٤ والأغاني ١٢ / ٦١ وترجمة
أخيه أحمد في معجم الأدباء ٢ / ٢١٧ وتاريخ
الطبري ٩ / ٢٦٤ والعقد الفريد (طبعة

فهو خَلِيقُ بَأَن يَشْتَرِكُ مَعَ مَبْغُضِيهِ فِي بَغْضِ نَفْسِهِ ، وَكَأَنَّمَا أَصْبَحَ تَمَثَالًا لِلْبَغْضِ الْكَرِيهِ ، لَا عِنْدَ النَّاسِ فَحَسَبَ ، بَلْ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ نَفْسِهِ . وَيَا وَيْلَ مَنْ كَانَ يَسْلُطُ عَلَيْهِ سِهَامُ هَجَائِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ مَا يَنْتَبِي يُرْسَلُهَا عَلَيْهِ . وَحَدَّثَ أَنَّ مَمْدُوحَهُ أَحْمَدَ بْنَ حَرْبٍ الْمَهْلَبِيَّ الَّذِي طَالَمَا دَبَّجَ فِيهِ مَدَائِحَهُ وَهَبَ لَهُ طَيْلَسَانًا أَخْضَرَ لَمْ يَرْضِهِ ، فَضَيَّ يَنْظُمُ فِي طَيْلَسَانِهِ مَقْطُوعَاتٍ ، وَكَلَّمَا فَرَّغَ مِنْ مَقْطُوعَةٍ نَظُمَ مَقْطُوعَةً جَدِيدَةً حَتَّى أَكْمَلَهَا خَمْسِينَ مَقْطُوعَةً طَارَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَدْبَاءِ وَالنَّاسِ فِي عَصْرِهِ كُلِّ مَطَارٍ مِنْهَا :

يَا بْنَ حَرْبٍ كَسَوْنِي طَيْلَسَانًا مَلٌّ مِنْ صَحْبَةِ الزَّمَانِ وَصَدًّا
إِنْ تَنْفَسْتُ فِيهِ يَنْشَقُّ شَقًّا أَوْ تَنْخَنَحْتُ فِيهِ يَنْقُدُ قَدًّا
طَالَ تَرْدَادُهُ إِلَى الرَّفْوِ حَتَّى لَوْ بَعَثْنَاهُ وَحْدَهُ لَتَهْدَى

وَأَلْذَعُ الْأَبْيَاتِ الْبَيْتَ الْآخِرَ ، بَلْ كُلُّهَا لَاذَعَةٌ ، فَالطَيْلَسَانُ أَكَلَ الدَّهْرَ عَلَيْهِ وَشَرَبَ ، حَتَّى لِكَأَنَّمَا مَلٌّ صَحْبَةُ الدَّهْرِ ، فَقَدْ آنَ لَهُ أَنْ يَسْبَلَنِي وَيَسْتَرِيحَ ، وَإِنْ أَى حَرَكَةٍ فِيهِ لَتَمَزَقَهُ إِرْبًا ، وَكُلَّ يَوْمٍ يَنْخَرِقُ فِيهِ خَرَقٌ وَيَذْهَبُ بِهِ إِلَى دُكَّانِ الرَّفَاءِ ، حَتَّى لَوْ بَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ لَعَرَفَ الطَّرِيقَ مِنْ طَوْلِ تَرْدَادِ سِيرِهِ فِيهِ . وَتَنَوَّعَ هَجَاؤُهُ لِهَذَا الطَيْلَسَانِ الْقَدِيمِ الْبَالِي ، فَهُوَ تَارَةٌ يَضُمُّنَهُ بَعْضُ أَلْفَاظِ قِرَائِيَةٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

طَيْلَسَانُ لَا بِنَ حَرْبٍ جَاءَنِي خَلْعَةٌ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمَرٍّ
فَإِذَا مَا الرِّيحُ هَبَّتْ نَحْوَهُ طَيْرَتُهُ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ

وقوله :

فِيمَا كَسَانِيهِ ابْنُ حَرْبٍ مُعْتَبِرٌ فَانْظُرْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ إِحْدَى الْكُبَرِ
قَدْ كَانَ أَبْيَضَ ثُمَّ مَا زِلْنَا بِهِ نَرْفُوهُ حَتَّى اسْوَدَّ مِنْ صَدَلِ الْإِبَرِ

وتتوالى ألفاظ القرآن في الأبيات كما هو واضح في ألفاظ : (في يوم نحس مستمر) و (كالجراد المنتشر) و (إحدى الكبر) ، وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية في مكانها السوي . وتارة كان يضمّن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله :

وهبتَ لنا ابن حربٍ طَيْلَسَانًا يزيد المرءُ ذا الضَّعَةِ اتِّضاعاً
ولستَ أشكُّ أنْ قد كانَ قِدمًا لنوحٍ في سفينته شِراعاً
وقد غَنَيْتُ إذ أبصرتُ منه جوانبه على بدني تَداعى
« ففِي قبل التفرُّقِ يا ضُباعاً ولا يكُ موقفٌ منك الوداعا »

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعاً لسفينة نوح في أعتق الأزمنة ، وصوّر نفسه ملتاعاً إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامي التي اشتعلت في صدره عند فراقه لصاحبته « ضُباعاً » . وقطع كثيرة كان يتغنى في نهايتها بأبيات على شاكلة بيت القطامي تصور أساءه ، ودائماً يعرف كيف يختارها ، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين في شعره سواء لأبيات الشعر أو للألفاظ والآيات القرآنية . ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه شاة هزيلة فضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة في تلك الشاة مصوراً هزلاً وبؤساً ، صانعاً نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة في الغزل والحب ، من مثل قوله :

مَرَّتْ على عَلفٍ فقامتْ لم تَسِرْ عنه وَغَنَّتْ والمدامُ تَسْجُمُ
« وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي متأخراً عنه ولا متقدماً »

والبيت الثاني من قطعة في الغزل مشهورة لأبي الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجاباً شديداً . وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتّر عليه في الرزق ، وله يشكو ضيق عيشه ، بينما غيره موسّع له في الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ فَنَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا
نَرْمُقُهَا مِنْ كَتَبٍ حَسْرَةٍ كَأَنَّهَا لَفْظٌ بِلَا مَعْنَى

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه في العقد الفريد نظمها معارضة للامية تأبط
شراً المشهورة ، وفيها يتحدث عن حبه وفتوته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من
مثل قوله :

هُوَ سَيْفٌ غَمْدُهُ بُرْدَتَاهُ يَنْتَضِيهِ الْحَزْمُ حِينَ يُسَلُّ
لَا يَشْكُ السَّمْعُ حِينَ يَرَاهُ أَنَّهُ بِالْيَدِ سَمْعٌ أَزَلُّ^(١)

وألفاظه في القصيدة وقوافيه تلتقي مع قوافي تأبط شراً وألفاظه ، وكأنما قصد إلى
ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته . وله في الغزل قطع تصور حبه
واوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه ، وله في
وصف طروق طيف الخيال في المنام قطعة جيدة يقول في تضاعيفها :

وَصَلَ الْحُلْمُ بَيْنَنَا بَعْدَ هَجْرٍ فَاجْتَمَعْنَا وَنَحْنُ مَفْتَرِقَانِ
وَكَاَنَّ الْأَرْوَاحَ خَافَتْ رَقِيباً فَطَوَتْ سِرَّهَا عَنِ الْأَبْدَانِ

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته . ومن أكبر الدلالة على ذلك
القطع الكثيرة التي أنشدها في هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب ، وكأنه كان
يستمد من نبع لا ينضب رصيده .

(١) السمع : الذئب . الأزل : المتولد بين
ذئب وضع

هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، من بيت كتابة وأدب ، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأرزمة في أيام المعتصم وهو من مملوحي أبي تمام ، بينما كان أبوه محمد من مملوحي البحتري ، ويقول المسعودي إنه كان مترفاً حسن الزينة ظاهر المروءة مشغولاً بالبناء ، ويترؤى عن بعض معاصريه ما يصور بذخه في بناء داره وفي ثيابه وطعامه وشرابه . وكان قد تزوج أمامة بنت حمدون النديم ، والحديث عن بني حمدون في المصادر مضطرب ، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفاً ، ومنها أنجب ابنه علياً ، وقد عُني بربيته أبوه ، حتى أصبح شاعراً ، وحتى أصبح التأليف إحدى هواياته . ويروى له ابن النديم ومترجموه كتباً مختلفة عن عمر بن أبي ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء ، ويذكرون له ديوان رسائل ، مما يدل على أنه كان كاتباً كما كان شاعراً . ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء ، وقد يكون لخاله الحمد وفي أثر في ذلك . وكان شيعياً ، وربما كان لتشيعه أثر في ذلك أيضاً ، فقد كان الشيعة ناقلين على الدولة والناس انصرافهم عنهم ، بل كانت نفقتهم على الدولة أشد وأدهى ، الزج بهم في السجون وتفتيلهم ، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحاً له ضد الخلفاء والمجتمع ويبدو أن أباه كان مالياً للعباسيين ، ولعل هذا هو السر في كثرة أهاجيه له ، حتى عُدد في العققة الذين لا يبرون آباءهم بل يمحذون فضلهم ، وله في أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكنى أبا جعفر :

بَنَى أَبُو جَعْفَرٍ دَارًا فَشَيْدَهَا وَمِثْلُهُ لَخِيَارِ الدُّورِ بِنَاءُ
فَالْجَوْعَ دَاخِلَهَا وَالذُّلَّ خَارِجَهَا وَفِي جَوَانِبِهَا بُؤْسٌ وَضَرَاءُ

وكانت قصرًا عظيمًا يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغزلان والطيور البهيجة الألوان . ويتأدى في هجائه له حتى ليقول فيه وفي داره أيضاً :

وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان
المعاني ٢ / ٢٣ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة
١٨٩ / ٣

(١) انظر في ابن بسام وأخباره وأشعاره
الفهرست ص ٢٢٠ ومعجم الشعراء ص ١٥٤
وتاريخ بغداد ٢ / ٦٣ ومروج الذهب للمسعودي
٣٠٦ / ٤ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٨٧

شَدَّتْ دَارًا خَلَّتْهَا مَكْرَمَةً سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْغَرَقَا
وَأَرَانِيكَ صَرِيعًا وَسَطَهَا وَأَرَانِيهَا صَعِيدًا زَلَقَا^(١)

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة ، فلا يشعر بأن له عليه ديناً إذ منحه الوجود وقام على تربيته ، بل لكأنما جَسَنَى عليه جناية لا تغتفر ، ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح أضرارها عن جسده إلا اللعنات يصبها على أبيه . ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتّاب وكبار رجال الدولة غير هيّاب ولا وجل ، بل لكأنما كان يبحث عن منتقم منه ويطير به طيرة بطيشاً سقوطها . وكان من أوائل من تعرض لهم بالهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم في حروب الزنج والصفار ، ونراه ينظم فيه وفي ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلها بقوله :

أِيرَجُو الْمَوْفِقُ نَصَرَ الْإِلَهِ وَأَمْرُ الْعِبَادِ إِلَى دَانِيَةٍ

ويأخذ في هجاء ولاته من مثل الطائي أمير البصرة وإسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل ، وصاعد بن مخلد وكان نصرانياً وأسلم واستوزره الموفق ، ويصيح :

فخُلُّ الزَّمَانُ لِأَوْغَادِهِ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْهَآوِيَةِ

ويُظْلَهُ عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقي الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تُحْفَرَ له حَفِيرَةٌ وَيُلْقَى فِيهَا وَتُطْمَ عَلَيْهِ ، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه ، إذ نراه يتعرض له بالهجاء ، وتارة يقذع فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قوله في احتفاله بختان ابنه المقتدر :

انصرف الناس من خِتَانٍ يَرْعَوْنَ مِنْ جُوعِهِمْ خَزَايَ^(٢)

فقلت لا تعجبوا لهذا فهكذا تُخْتَنُ الْيَتَامَى

وهو يصفه بالبخل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائساً ، حتى لكأنما هو خِتَانٌ بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتفالاً عظيماً بختانهم .

ونراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل ، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد ، وفيه يقول :

سجدنا للقروود رجاء دُنْيا حَوَتْها دوننا أَيْدى القروود
فما نالت أَناملُنا لشيء عملناه سوى ذل السجود

وكان نصيب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً ، تارة يصفه بخطر الرأى ، وتارة يهدده بسوء المصير . ونراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم ، مادحاً للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظاً وحنقاً إذ يقول :

قُلْ لَأَبى القاسم المرجى قابلك الدهرُ بالعجائبُ
مات لك ابنٌ وكان زِيناً وعاش ذو الشَّينِ والمعائب
حياة هذا كموت هذا فلستَ تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه في عمل وأن يبرّه ويصله حتى يكفّ عن هجائه ، فولاه بريد الصَّيْمُرَةَ وما والاها ، وقيل بل ولاه بريد قنَسَرين والعواصم ، وبقي في عمله إلى آخر أيام المعتضد ، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفى رأى الاستغناء عنه ، ولعله لذلك أكثر من هجائه ، ومرّ بنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن نشاط الشعر ، وفيه يقول :

تحمل أوزارَ البرية كلّها وزيرٌ بظلم العالمين يُجَاهِرُ

واتخذ من شعره سياطاً يلهب بها ظهور ابن الفرات والحقاني وزيرى المقتدر وله في الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وما كان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة في كل عمل يحققه لهم ، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن فساد الحكم حينئذ . وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعاية ، ومرّ بنا في حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفاً ثقله ، ونرى ابن بسام يردّ عليه بقوله على نفس طريقته :

فقدتُك يا قَذَاءَ في شرابٍ دخلتَ من الدناءة كلَّ بابٍ
وأثقل — حين تبدو من رقيبٍ وأكذب — حين تنطق — من سَرابٍ
وأغدر للصديق من الليالي وأنكى للقلوب من العتاب

وكان يناقض جحظة البرمكى كثيراً ، وكان على غراره كثير الهجاء ، وكان قبيح
الخلقة تقتحمه العيون ، وصوّر ذلك ابن بسام عابثاً به وبقبحه ، إذ يشكره على
إقباله عليه بدابته وانصرافه عنه بوجهه الذميم ، يقول :

لِجَحْظَةِ المحسنِ عندي يدٌ أشكرها منه إلى المحشرِ
لما أراى وجهه برؤونه وصاننى عن وجهه المنكرِ

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير
ولا كبير ، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته . وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء
مثل ابن مقلّة ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس ، وله فى الزهد وفناء الحياة أبيات
طريقة تجرى على هذا النمط :

أَقْصَرْتُ عن طلب البطالة والصِّبَا لما علانى للمَشِيبِ قِنَاعُ
لِلَّهِ أَيَّامُ الشَّبَابِ ولهوهِ لو أن أيامَ الشَّبَابِ تُبَاعُ
فَدَعِ الصِّبَا يا قلبُ واسألْ عن الهَوَى ما فىكَ بعد مشييك استمتاعُ
وانظرْ إلى الدنيا بعينِ مودِّعٍ فلقد دنا سَفَرٌ وحن وداعُ
والحادثاتُ موكِّلاتٌ بالفتى والناسُ بعد الحادثاتِ سماعُ

والأبيات تصوّره قد وخطّه الشيب وأخذ يفكر فى غنّه ويستعدّ لمصيره ،
بعد تلك الرحلة الطويلة التى كان يجاهد فيها مجتمعه بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣
للهجرة . ومن المؤكّد أن أهاجيه تصوّر العصر فى صورة أدق من تلك التى يصورها
المديح ، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة ، بل كانت كدرة قائمة ، اختلّت
فيها الموازين والقيم اختلالاً شديداً .

الفضل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل وشاعراته

ظل تَبَّار الغزل حاداً في العصر ، وظل الشعراء ومن كان يَسْطِق به من الجوارى ينظمونه ، مضيفين فيه كثيراً من الخواطر والمعاني ، ويخيّل إلى الإنسان كأن كل من شَدَّ بالشر نظم فيه ، مصوراً ألواناً من هذا الحب الذي كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كل شيء . وكانوا ينظمونه في نفس الاتجاهين اللذين عرضنا لهما في العصر العباسي الأول ، ونقصدا اتجاه الغزل الصريح واتجاه الغزل العفيف ، وكان الاتجاه الأول هو الغالب على الشعراء ، بسبب كثرة الإمام ودور النخاسين التي كانت تزخر بالجوارى من كل جنس : روميات وفارسيات وغير فارسيات وروميات . ويصور الجاحظ في رسالته الخاصة بالقيان مدى ما كنَّ يُشِعْنَ في جَوِّ بغداد من التحلل الخلقي ، فكان طبيعياً أن تَنَفَّقَ سوق الغزل المادى ، وخاصة أن القيان والجوارى كنَّ يُكثِرْنَ من التغنى به على إيقاعات الطبول والآلات الموسيقية ، فَسَعَرْنَ قلوب الشعراء شباناً وكهولاً ، ولم يعودوا يستطيعون أن يردُّوا أنفسهم إلى شيء من القصد ، فقد أخذ الحب الصريح يثور في نفوسهم وأخذوا يعبرون عنه تعبيراً صريحاً حُرّاً ، بل حارّاً له حرارة الحمى . وظل اتجاه الغزل العفيف النقي الطاهر حياً بجانب هذا الاتجاه ، وكانت تمتد أسراب كثيرة من غزل العذريين في العصر الأموي ومن غزل مَنْ ساروا في دروبهم من شعراء العصر العباسي الأول أمثال العباس بن الأحنف ، غزل له حُمَاه ولكن بشوره لا تظهر على الجسد ، غزل قوى حار ، لا يعرف المتاع المادى ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره ، إنما يعرف ناره المحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء به ، مهما أمَّل صاحبه ومهما استعطف ومهما تضرَّع ، فليس

هناك إلا العذاب وإلا تجرّع الغصص واحتمل الأهوال والآلام ، ولا مشفق ولا رحيم .

وعلى هذا النحو ظل الغزل الصريح بجوار الغزل العفيف ، يَحْيِيَّ معه هذه الحياة التي تضيف إليه خصباً فوق خصب ، إذ كان الغزلون الماديون يستمدون دائماً من مخازن الغزل العفيف كثيراً من المعاني التي تصور لوحات الحب بعذابه . ولن نستطيع أن نعرض طرائف النوعين ، فقد مرت من ذلك لحظة ، إنما يكفي أن نذكر شيوعهما على ألسنة الناس جميعاً من خلفاء ووزراء وولاة وكتّاب ورجال ونساء ، مكتفين ببعض المأذج والأمثلة . وأكبر شاعر بين الخلفاء — وإن لم تبق خلافته سوى يوم وليلة — هو ابن المعتز ، ومرّ بنا حديث مفصّل عنه ، وكان عمه المنتصر شاعراً . وله قطع مختلفة في الحب ، كان يطرحها على المغنين ويوقعونها على آلات الطرب ، وفي مقدمتهم مغنية بستان ، ومما غنّاه به قوله ^(١) :

رَأَيْتَكَ فِي الْمَنَامِ أَقْلَ بُخْلًا وَأَطْوَعَ مِنْكَ فِي غَيْرِ الْمَنَامِ
وَلَوْ أَنَّ النَّعَاسَ يُبَاعُ بَيْعًا لَأَغْلَبْتُ النَّعَاسَ عَلَى الْأَنَامِ

وكان أشعر منه الخليفة الراضي ، وكان له ديوان شعر سقط من يد الزمن ، وروى له الصولي في كتابه : « أخبار الراضي بالله والمتقى بالله » طائفة كبيرة من أشعاره ، وله قطعة تداولتها الكتب في ترجمته وهي في وصف جارية مغنية كان يُفْتَنُ بها ، وتجري على هذا النمط ^(٢) :

قَدْ أَفْصَحْتُ بِالْوَتَرِ الْأَعْجَمِ وَأَفْهَمْتُ مَنْ كَانَ لَمْ يَفْهَمْ
جَارِيَةٌ تَحِبُّ مِنْ لُطْفِهَا مَخَاطَبًا يَنْطِقُ لَا مِنْ فَمٍ
جَسَتْ مِنَ الْعُودِ مِجَارَى الْهَوَى جَسَّ الْأَطْبَاءُ مِجَارَى الدَّمِ

وكثير من الوزراء كانوا شعراء ، ومعروف أنهم كانوا يُخْتَارُونَ من صفوة كتّاب الدواوين ، وكان كثير منهم يسيل الشعر على لسانه ، فيعبر به عن عواطفه

ومشاعره وأهوائه ، وطبيعى أن يوقد الحب فى نفوسهم الجذوة التى طالما أوقدها فى نفوس المحبين ، فإذا هم ينظمون قطعاً من الأبيات يسجلون بها بعض خواطرهم ، من مثل قول الفتح بن خاقان وزير المتوكل ^(١) :

أيها العاشقُ المعذبُ صَبْرًا فخطايا أخى الهوى مغفورة
زفرةٌ فى الهوى أحطُّ لذنبٍ من غزاةٍ وحِجَّةٍ مَبْرُورَةٍ

وكان سليمان بن وهب وزير المهتدى يحسن الشعر ونظمه ، وله فى الأغاني ترجمة طويلة ومثله القاسم حفيده وزير المعتضد كان يصوغ بعض خواطره شعراً ، وروى له المرزبانى مقطوعات متعددة فى الحب من مثل قوله ^(٢) :

كثيبٌ حزينٌ واكفُ الدَّمْعِ هَامِلُهُ نخونُهُ من آجلِ البَيْنِ عاجِلُهُ
جريحٌ صدودٍ قد أضربَ به الهوى ورقٌ له عَوَاذُهُ وَعَوَاذِلُهُ

واشتهر بعض كبار رجال الدولة من الولاة ورؤساء الدواوين ممن كانوا يحسنون الشعر بحب عنيف كان يحتلّ أفئدتهم ويستأثر بكل ما فيهم من عواطف ومشاعر ، وفى مقدمتهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد تولى إبراهيم - كما مرّ بنا - ولايات مختلفة منها ولاية البصرة ورأس بعض الدواوين التى كان يعمل بها منذ زمن المتوكل وكان يهوى عَرِيب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفرج الأصبهاني فى ترجمته لكل منهما ^(٣) ، كما ساق كثيراً مما كان بينهما من المعاتبات والمحاورات ، ومن قوله فيها ^(٤) :

زعموا أنى أحب عَرِيبًا صدقوا والله حُبًّا عَجِيبًا
حلٌّ من قلبي هواها محلاً لم تَدْعُ فيه لخلقٍ نصيبًا
هى شمسُ والنساءِ نجومٌ فإذا لاحتْ أَقْلَنَ غُيُوبًا

وهو فى هذه الأبيات يصرّح بأنه لا يشرك معها جارية فى حبه وهيامه ، ولكن

(١) معجم الشعراء ص ١٩١ .

(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٠ .

(٣) أغاني (طبعة الساسى) ١٨ / ١٧٥ ،

١١٤ / ١٩ .

(٤) أغاني ١٩ / ١٢٤ .

يبدو أنه كان يشرك معها من حين إلى حين أخريات ، كن يأمرنه بجمالهن وفتنتهن
وما يزرعن في القلوب من الهوى مثل جارية تسمى نبتا ، كانت من الجوارى القيان ،
وفيها يقول^(١) :

نَبْتُ إِذَا سَكَتُ كَانَ السَّكُوتُ لَهَا زَيْنًا وَإِنْ نَطَقْتَ فَالْدَرْ يَنْتَشِرُ
وَأَنَا أَقْصَدْتُ قَلْبِي بِمَقْلَتِهَا مَا كَانَ سَهْمٌ وَلَا قَوْسٌ وَلَا وَتَرٌ

وكان سعيد بن حميد يعمل في الدواوين ، وأسندت إليه رئاسة ديوان الإنشاء
في عهد المستعين ، واشتهر بتبادل الحب مع فضل الشاعرة ، وسنعرض في ترجمتها
لما كان بينهما من محاورات شعرية طريفة ، وله فيها غزل كثير بديع من مثل قوله
يشكو السهاد وطول الليل^(٢) :

يَا لَيْلُ بَلْ يَا أَبَدُ أَنَا نَمُّ عَنْكَ غَدُ
يَا لَيْلُ لَوْ تَلَقَى الَّذِي أَلْقَى بِهَا أَوْ تَجِدُ
قَصَّرَ مِنْ طَوْلِكَ أَوْ ضَعَّفَ مِنْكَ الْجِلْدُ
أَشْكُو إِلَى ظَالِمَةٍ تَشْكُو الَّذِي لَا تَجِدُ
وَقَفْتُ عَلَيْهَا نَاطِرٌ وَقَفْتُ عَلَيْهِ السُّهْدُ

وعُرف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بأن قينة تسمى شاجي
شغفت قلبه حباً ، فنظم فيها شعراً كثيراً ، وتزوجها وظل يهيم بها ويشملها
بحبه وعطفه وحنانه ويكلف بها كلفاً شديداً ، كما كان يكلف بها قبل زواجه وفي
شبابه ، وإلى ذلك يشير بقوله^(٣) :

زَرَعْتُ وَشَاجِي بَيْنَنَا فِي شَبِيبَتِي غِرَاسَ الْهَوَى فَاغْتَمَّ بِالشَّعْرِ الْعَذْبِ
وَمَاتَ قَبْلَهُ ، فَظَلَّ يَبْكِيهَا بَكَاءَ مَرًّا ، جَازِعًا عَلَيْهَا جَزَعًا لَمْ يُرَ مِثْلَهُ ، وَظَلَّ
يَزُورُ قَبْرَهَا وَهُوَ يَنُوحُ عَلَيْهَا وَيَتَفَجَّعُ بِمِثْلِ قَوْلِهِ^(٤) :

(١) أغاني ١١٧/١٩ وأقصدت : جرحت .
(٢) المختار من شعر بشار ص ١٨ .
(٣) كتاب الديارات ص ١١١ .
(٤) الأغاني (طبعة السامي) ٤٣/٨ .

مَيْناً بَأْنِي لَوْ بُلِيْتُ بِفَقْدِهَا وَبِي نَبْضُ عِرْقٍ لِلْحَيَاةِ وَلِلنَّكْسِ
لَأَشْكْتُ قَتْلَ النَّفْسِ عِنْدَ فِرَاقِهَا وَلَكِنَّهَا مَاتَتْ وَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي

وكثير من الجوارى في العصر كن ينظمن الشعر ويحسن نظمه ، وكُنَّ -
كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع - يكتبن أبياتاً منه على طُرُرهن وعصائبهن وجواب
ثيابهن ، فيوقدن الحب في قلوب الرجال ويشعلنه إشعالا . ونرى ابن المعتز يفرّد
لمجموعة منهن صحفاً في كتابه طبقات الشعراء المحدثين ، ويذكر بينهن عريب
وفضلاً الشاعرة ، والخنساء جارية هشام المكفوف . ومن الجوارى اللاتي
كن يحسن الشعر إحساناً بعيداً محبوبة جارية المتوكل ، وكانت قد أدّبت
وثقفت ، وتمزنت على قول الشعر حتى أحسنته ، وكانت تلحنه وتغني به على العود .
وكانت تحلُّ من قلب المتوكل محلاً رفيعاً ، ويروى أنه غاضبها ذات يوم ، ولم
يلبث قلبه أن نازعه إليها ، فاقترب من حجرتها ، فإذا هي تضرب على عود وتغني
على ضَرْبِهَا مصوِّرة لوعتها من خصامه ومغاضبته وأنها لا تطيق الصبر عن
لقائه (١) :

أدور في القصر لا أرى أحدا أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأني أتيت معصية ليس لها توبة تخلّصني
فمن شفيح لنا إلى ملك قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباح عاد لنا عاد إلى هجره وقاطعني

فصنّف المتوكل طرباً ، ودخل إليها ، وتصالحا . ويروى أنه رأى ذات يوم
جارية من جواريه كتبت على خدها بالمسك اسمه : « جعفرًا » ، فأعجبه ذلك وتغنى
لو صور ذلك شاعر من شعرائه : البحرى أو على بن الجهم أو مروان بن
أبي الجنوب ، وبادرت محبوبة ممسكة بعودها ، وتغنّت (٢) :

وكتابة في الخدّ بالمسك جعفرًا بنفسى محطّ المسك من حيث أثاراً

(٢) مروج الذهب ٤/٢٢٤ .

(١) مروج الذهب ٤/٤٣ والأغانى (طبعة
الساى) ١٩/١٣٤ .

لئن أودعت خطأ من المسك خدّها لقد أودعت قلبي من الوجد أمطراً
 فيا من لملوك يظلّ مليكه مطيعاً له فيا أسراً وأظهرا
 وهي من أبيات قالتها على البديهة مما يدل على شاعرية جيدة . وكانت محبوبة
 وأضرابها يتطارحن مع الشعراء خواطرن الرقيقة ، وليس من ريب في أنهم علمن
 على أن يعبر الشعراء في الحب عن حسن دقيق وذوق مرهف . ونعرض بالتفصيل
 ثلاثة : شاعرين وشاعرة اشتهروا بكثرة ما نظموا من الغزل في العصر ، وهم خالد
 ابن يزيد الكاتب ، ومحمد بن داود ، وفضل .

خالد^(١) بن يزيد الكاتب

كان أحد كتّاب الجيش ، وأصله من خراسان ، وليس بين أيدينا عنه أخبار
 كثيرة ، وأول ما يلقانا من أخباره أنه كان على ديوان النفقات في الجيش الذي
 خرج بقيادة علي بن هشام أحد قواد المأمون للقضاء على فتنة بمدينة « قم » الفارسية
 وفي الطريق بلغ علياً أنه شاعر فأحضره وأنس به واتخذته في ندمائه . ولما وزر
 الفضل بن خالد للمعتصم قرّبه منه ، حتى إذا أخذ المعتصم في بناء سامراً بادر
 خالد ينظم مقطوعة يشيد فيها بالخليفة وبناء تلك المدينة العظيمة ، ونقلها الفضل
 إلى المعتصم فسرّ بها ، وأمر لخالد بخمسة آلاف درهم . وينظم فيه وفي المدينة
 أشعاراً أخرى ويغنى المغنون المعتصم بها ، وينثر على خالد جوائزه . وظل قريباً
 منه ومن وزيره محمد بن عبد الملك الزيات . ولا نقرأ له أشعاراً في مديح الخلفاء في
 العصر مع أنه عاصر منهم المتوكل والمتنصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد ،
 إذ يقال إنه توفي سنة ٢٦٢ وقيل بل سنة ٢٦٩ . ويقول مترجموه إنه قصر نفسه
 على الغزل فكان لا ينظم إلا فيه ، ولا يُعشَى بمديح ولا هجاء ، ومع ذلك نجد له
 بعض الهجاء القليل في بعض منافسيه من الشعراء ، غير أنه لم يبرز فيه
 فانصرف عنه ، وقصر نفسه على الغزل ، ويقال إنه وسوس واختلط عقله

(١) انظر في ترجمة خالد وأشعاره الأغاني (طبعة
 الساسي) ٣١/٢١ وطبقات الشعراء لابن المعتز
 ص ٤٠٥ وتاريخ بغداد ٣٠٨/٨ والديارات

(انظر الفهرس) ومعجم الأدباء ٤٧/١١
 والنجوم الزاهرة ٣٦/٣ وله ديوان مخطوط
 بالمكتبة العمومية بدمشق

في أواخر حياته . ويُجمع من ترجموا له على أنه لم يكن يتجاوز في الغزل أربعة أبيات ، وكأنه كان يرى الزيادة عنها فضلا ، ويقول ابن المعتز : شعره حسن جداً ، وليس لأحد من رقيق الغزل ماله ، وينشد من غزله قوله :

وَضَعَ الدَّمْعَ مواضعَ الحُزْنِ حَيَّ السَّهَادَ وَمَيَّتَ الجَفْنِ
عَبْرَاتُهُ نُطْقُ بِمَا ضَمِنَتْ أَحْشَاؤُهُ وَلِسَانُهُ يَكْنِي
فِي كُلِّ جَارِحَةٍ لَهُ مُقْلٌ تَبْكِي عَلَى قَلْبٍ لَهُ رَهْنٍ
لَمْ يَدْرِ إِلَّا حِينَ أَسْلَمَهُ قَدَرٌ لِلْحِظَةِ وَاحِدِ الحُسْنِ

والأبيات فيها دقة في التفكير وفيها خيال بعيد ، وتعبيره بميت الجفن تعبير غريب ومثله في الحسن تعبيره عن الجوارح بأن لها مقلا تبكي على قلبه الذي رهنته منه صاحبه ، وأيضاً تعبيره عن صاحبه بأنها واحدة الحسن ، وكأنه كان يحاول أن يأتي بأفكار مبتكرة ، من مثل قوله :

كَيْفَ خَانَتْ عَيْنُ الرَّقِيبِ الرَّقِيَا أَخْطَأْتَنِي لَمَّا رَأَيْتُ الحَبِيْبَا
رَحِمْتَنِي فَسَاعَدْتَنِي فَقَبَّلْتُ بَعْنِي مَعَ الحَبِيبِ الرَّقِيَا

فهو لا يشكو من الرقيب على عادة الشعراء ، فالرقيب قد رحمه وساعده ، وقلب الشكوى المنتظرة شكراً ، وإذا كان الشعراء ألما بالليل ووصف استطالته شاكين من ذلك متبرمين فإنه يعترف بأن ليل المحبين دائماً طويلاً لسهادهم المستمر ، يقول :

رَقِدْتَ وَلَمْ تَرْتِ لِلْسَّاهِرِ وَلَيْلُ المَحَبِّ بِإِلَّا آخِرٍ
وَلَمْ تَدْرِ بَعْدَ ذَهَابِ الرِّقَا دِ مَا صَنَعَ الدَّمْعُ بِالنَّاضِرِ

وهو ليس سهاداً فحسب ، بل هو سهاد ودموع وإحساس عميق بظلام لا ينتهي ، وصاحبه بجانبه ولا تدري ما يعاني من عذاب الحب المبرح ، وهو يتجرع شخص حبه محتملاً مقاومةً ، والصباح كأنما ضل طريقه ، فعم الكون ليل لا آخر له ، ومن قوله :

قد استعار الحسنُ من وجههِ والغصنُ الناعمُ من قَدِّهِ
وقد تعاتبنا بأبصارنا فيما جناه الخلفُ من وعدهِ
حتى تجارحنا بتكرارنا للخطِ في قلبي وفي خدِّهِ
فأدرك الثَّارُ وأدركته وسرَّني بالصدِّ عن صدِّهِ

فمنها يستعير الحسن جماله والغصن قدَّه وقوامه ، وهما يتعاتبان عتاباً رقيقاً ،
ويكرران النظر ، وكأنما يؤلم طرفه خدَّ صاحبه ويترك فيه أثراً من طول تكراره ،
أما طرفها فيؤلم قلبه بما يرسله من سهامه التي تجرحه في الصميم . وكأنما كل منهما
ظفر من صاحبه بثأره ، ولكن شتان ما بين الثَّارين : ثأر يجرح الحدود وثأر يجرح
القلوب . ويختم الأبيات بفكرة طريفة إذ يقول إنها صدَّت عن الصد وانصرفت
عن الهجر . وكان يلم أحياناً ببعض الأديرة أو يفضي إلى تعاطي بعض كتوس
الخمر ، أو لعله كان يذكر ذلك على سبيل الدعابة ، وكان يمزج هذا الحديث
بغزله على عادته ، فالغزل دائماً مبتغاه من شعره على نحو ما نرى في قوله :

رأتُ منه عيني منظرين كما رأتُ من البدر والشمس المضيئة بالأرض
عشيَّة حيَّاني بوردٍ كأنَّه خدودُ أضيفتُ بعضهن إلى بعض
وناولني كأساً كأنَّ رُضابها دموعي لما صدَّ عن مقلتي غمضي
وولَّى وفعلُ السُّكر في حركاتهِ من الراح فعلُ الرِّيح بالغصن الغصُّ

وتشبيه الورد المجتمعمة بخدود الحبين ، وقد تلاصقت وسرى فيهم الحجل ،
نوه به القدماء طويلاً ، وهذه الكأس التي ناوها صاحبه كأس الحبين التي طالما شربوا
منها لا الخمر وإنما الدموع ، دموعهم التي لا تجف والتي ماتني تسقط فتمتلي
منها كتوسهم التي لا يعرف الناس أتمتلي شراباً أم ناراً . وله :

إذا كنت في كُلِّ بكلك مُفرغاً فأَيُّ مكانٍ من مكانك أَلطفُ
فَمَنَّى إذا ما غِبتَ في كل مَقْصِلٍ من الشوقِ داعٍ كلما غِبتَ يهتِفُ
فهما روحان في جسد ، وهو يحس فراغاً لا حدَّ له إذا غابت عنه ، وكأن كل

جزء فيه يفقد تمامه ، فهو ما يني يهتف بها حتى يستكمل وجوده ، فقد غاب نصفه وهو يتبعه ، ويتبعه قلبه من ورائه ؛ قلبه الممزق مثل مفاصله ، ومثل كبده الجريح ، يقول :

كَبِدٌ شَفَّهَا غَلِيلُ التَّصَابِي بَيْنَ عَتَبٍ وَسَخْطَةِ وَعَذَابٍ
كُلُّ يَوْمٍ تَذْمَى بِجَرَحٍ مِنَ الشَّو قِ وَنَوْعٍ مُجَدِّدٍ مِنْ عَذَابٍ
يَاسْقِمُ الْجَفُونَ أَسْقَمَتِ جَسْمِي فَاشْفِنِي كَيْفَ شِئْتَ ، لَابِكَ مَاي

فهو يَصِلَتِي نيران العتاب والسخط ، وكل يوم يتجدد جرحه ويتجدد عذابه ، وقد أعداه مريض الجفون ولكن لا في جفونه وإنما في جسمه بما أصابه به من نحول وذبول وهزال وضنأ . ومن أرق الدعاء قوله في آخر الأبيات : « لا بك ما بي » . وتدور له في كتب الأدب أبيات مفردة تروى بخفتها وطرافة فكرتها من مثل قوله :

كَيْفَ تُرَجِّي لَذَاذَةَ الْإِغْتِمَاضِ لِمَرِيضٍ مِنَ الْعَيُونِ الْمَرِاضِ
وقوله :

لَيْتَ مَا أَصْبَحَ مِنْ رَقَّةٍ خَدَيْكَ بِقَلْبِكَ
وقوله :

وَبِكِي الْعَاذِلُ مِنْ رَحْمَتِي فَبِكَايَ لِبُكَاءِ الْعَاذِلِ

ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل أوضح الدلالة على صدق كلمة ابن المعتز عنه من أنه يبلغ الغاية في رقة الغزل . وجعله ذلك مألفاً لكثير من معاصريه أمثال علي بن المعتصم . وكان كثيرون يدعونه إلى مجالسهم ليسمعوا منه غزاه ويطرحوه على المغنين والمغنيات ، ليكتمل الأنس والطرب ، ونحس دائماً أنه ظامئ إلى لقاء محبوبته ، ويقال إنه فعلاً أحب جارية في مطالع حياته ، ولم يستطع لقاءها وقد ظل ظامئاً إلى هذا اللقاء حتى مماته .

محمد^(١) بن داود الظاهري

أبوه داود بن علي بن خلف الأصفهاني مؤسس المذهب الظاهري في الفقه ، أصله من الكوفة ودرس ببغداد ، واعتنق مذهب الإمام الشافعي ، ومضى يجتهد حتى استطاع أن يؤسس له في الفقه مذهباً مستقلاً عن المذاهب الأربعة : المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي . وقد أقامه على رفض القياس والرأى والتقليد للأئمة المذكورين واشتقَّ الأحكام الفقهية من ظاهر الكتاب والسنة ، ولذلك سُمي مذهبه باسم المذهب الظاهري . وعُني بتربية ابنه محمد ، وبدأ من ذلك بتحفيظه القرآن ، ويقال إنه حفظه وله سبع سنوات . ثم دفعه إلى التأدب على ثعلب الإمام اللغوي والنحوي المشهور ، وهو يروى في كتاب الزهرة كثيراً من الأشعار عنه . ولزم حلقة أبيه وتمثَّل مذهبه ولما توفي سنة ٢٧٠ كان لا يجاوز السادسة عشرة من سنه ، فخلفه على رئاسة المذهب ، ومضى يحاور ويجادل فيه العلماء وخاصة ابن سريج إمام المذهب الشافعي في عصره ، وكانت حلقة تدريسه تغصُّ بالطلاب ، وله مصنفات مختلفة في المذهب الظاهري . ومن أهم مصنفاته كتاب الزهرة الذي عُنِيَ نيكل وإبراهيم طوقان بنشر جزئه الأول . والكتاب كله مائة باب جعلها في جزعين خَصَّ الأول منهما بالحلب العذري العفيف ، وهو يتضمن خمسين باباً في كل باب مائة بيت من الشعر ، وبالمثل أبواب الجزء الثاني الخمسون ، فكل منها يشتمل على مائة بيت ، وأهمها ما دار في تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على نعمه وقدرته والتحذير من سطوته . ويهمننا في حديثنا عن الغزل الجزء الأول ، وهو في الأبواب الأولى منه يتحدث عن أسباب الهوى ، ثم يتلواها بأحواله من الفراق والشوق ويخص الأبواب الأخيرة بالحديث عن الوفاء ، وعادة يضع للباب عنواناً مسجوعاً مثل « مَنْ كَثُرَتْ لَحْظَاتُهُ دَامَتْ حَسْرَاتُهُ » و « لَيْسَ بَلِيبٌ مَنْ لَمْ يَصِفْ مَا بِهِ لَطِيبٌ » و « التَذَلُّلُ لِلْحَبِيبِ مِنْ شِيمِ الْأَدِيبِ » . وهي عناوين غير مضبوطة ،

وطبقات الشافعية للسبكي في ترجمة ابن سريج ٢٣/٣ وما بعدها ، وطُبع له الجزء الأول من كتاب الزهرة ببغروت .

(١) انظر في حياة ابن داود وأشعاره تاريخ بغداد ٢٥٦/٥ ومروج الذهب للمسعودي ٢٠٤/٤ وابن خلكان والوفاء بالوفيات للصفدي ٥٨/٣ ومرآة الجنان لليافعي ٢٢٨/٢

وبالمثل ما يليها من الأشعار ، ولاحظ هو نفسه ذلك فقال إنه اضطربَ لأن يضيف إلى البيت المتصل بموضوع الأبيات أبياتاً أخرى حتى لا يكون مبتوراً . والأبيات أو قل الشواهد في الأبواب تمتد على طول الزمن من العصر الجاهلي حتى عصره . وقد بدأ بتأليف الكتاب في حياة أبيه وهو لا يزال حدثاً . وفي ذلك يقول : « بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا في الكتّاب ونظر في أكثره » . وكان فطناً ذكياً نافذ البصيرة كما كان شاعراً . ويروى أن شخصاً سأله في حلقة عن حد السكر متى هو؟ ومتى يكون الإنسان سكران؟ فأجابه : إذا عزبت عنه الهموم ، وباح بسرّه المكتوم . وفي هذه الإجابة ما يدل على أنه كان ظريفاً . ويروى أيضاً أن رجلاً جاء إلى حلقة فدفع إليه ورقة . فأخذها وتأملها طويلاً ، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية . وقلبها وكتب في ظهرها الإجابة ، فراجعوها . وخاصة حين عرفوا أن الرجل هو ابن الرومي الشاعر المشهور ، وإذا في الرقعة مكتوب :

يا بنَ داودَ يا فقيهُ العراقِ أفتنّا في قوَاتِلِ الأحقادِ
هل عليهن في الجروح قصاصُ أم مباحٌ لها دُمُ العشاقِ
وإذا الجواب :

كيف يفتيكم قتيلٌ صريعُ بسهامِ الفراقِ والإشتياقِ
وقتيلُ التلاقِ أحسنُ حالا عند داودَ من قتيلِ الفراقِ

ويقال إنه كان يهودي فني من أصبهان يقال له محمد بن جامع الصيدلاني العطار وكان طاهراً في هواه . فهو إن صح كان هوى نقيّاً ، أو قل إنه كان تعلقاً أو شاك أن يكون هوى أو ظنه الناس هوى . وكان ترجماناً للهوى العذرى في عصره كما كان مؤلفاً فيه ، إذ صنّف في أشعاره الجزء الأول من كتابه الزهرة كما أسلفنا ، وله فيه أشعار كثيرة يعزوها أو ينسبها إلى أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودي ، من مثل قوله :

عن كبدي من خيفة البينِ لوعةُ يكاد لها قلبي أسيًّ يتصدّخُ
يخاف وقوعَ البينِ والشمْلُ جامعُ فيبكي بعينٍ دمُعها متسرّعُ

فلو كان مسروراً بما هو واقعٌ كما هو محزونٌ بما يتوقع
لكان سواءً برئؤه وسقامه ولكنَّ وشكَّ البين أدهى وأوجع

وهو يشكو من لوعات الحب التي تكاد تمزق قلبه حسرات . وهو يخاف
الين قبل وقوعه ، فيبكي بدموع غزار ، فما باله والين يوشك أن يقع ؟ إنه يُسمن في
البكاء ويمعن في الالتئاع ويمعن في الألم والعذاب ، ومن قوله :

تمتّع من حبيبك بالوداعِ إلى وقت السرور بالاجتماعِ
فيكم جرّبتُ من وصلٍ وهجرٍ ومن حال ارتفاعٍ وانّضاعِ
وكم كأسٍ أمرّ من المنايا شربتُ فلم يَصِقْ عنها ذراعى
ولم أرَ في الذی لاقيتُ شيئاً أمرّ من الفراق بلا وداعِ
تعالى الله كلّ مواصلاتٍ وإن طالتْ نزول إلى انقطاعِ

وهو يدعو إلى ألا يشكو المحب من الفراق لحظة الوداع التي طالما عصرت قلوب المحبين ،
ويقول إنها ليست آخر لحظة يلتقي فيها الحبيب ، فستأتي بعدها لحظات لقاء ،
وهكذا الحب أحوال من وصل وفراق ولقاء وهجر . ويقول كم شرب من الحب
كثوساً مرة أمر من الموت ، فتحملها صابراً . وليس أمر من الفراق بلا وداع
ولا سلام ولا حتى تحية من بعيد ، فإن هذا عذاب لا يطاق ، عذاب كأنه الجحيم .
ويثوب الفقيه إلى رشده فأن الله قد كتب على كل شيء الزوال والفناء . ومن تنمة ذلك
عند الفقيه أن يرضى بالقدر المقدور وما كنهه القضاء المحتوم ، كأن يقول في بعض
غزله :

أفوّض أسبابي إلى الله كلّها وأتّنعُ بالمقدور فيها وأرتضى

فهو دائماً يسلم — في عذابه بالحُب وآلامه فيه وما يصِلّني من هجر وبعد
وفراق — بما أرادته له المقادير . وتشيع في شعره كلمات فقهية كثيرة مثل كلمات الحلال
والحرام والتوبة ، ويعلن غير مرة أن حبه غفيف نقي طاهر لا تشوبه أدنى شائبة ،
يقول :

لَا تُلْزِمْنِي فِي رَغْمِي الْهَوَى سَرَفًا وَمَا أَوْفِيهِ إِلَّا دُونَ مَا يَجِبُ
فِي عِفَّةٍ نَتَحَامِي أَنْ يُلَمَّ بِهَا سُوءُ الظَّنِّ وَأَنْ تَغْتَالِهَا الرِّيْبُ
وَيُكْثِرَ فِي غَزَلِهِ مِنْ ذِكْرِ الْمَنَازِلِ وَالْدِيَارِ وَالْفِيَاثِ وَالْقِيَعَانِ وَالرُّكْبَانِ وَالْمَطَايَا ،
وَهُوَ يَتَسَاءَلُ وَالْمَنَازِلَ لَا تَجِيبُ ، فَقَدْ رَحَلَ الْأَحْبَةَ وَخَلَفُوا لَهُ وَجَدًا مَا مِثْلُهُ وَجَدَ ،
وَعَبَسًا يَخْفِيهِ فَكُلَّ مَا حَوْلَهُ يَبْصُرُهُ ، يَقُولُ :

يُخْفِي هَوَاهُ وَمَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ حَتَّى عَلَى الْعَيْسِ وَالرُّكْبَانِ وَالْحَادِي
وَيَتَدَبَّعُ شَعْرَهُ فِي بَغْدَادٍ وَيَغْنَى فِيهِ الْمَغْنُونُ وَالْمَغْنِيَاتُ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مِنْ أَمْرِهِ
شَيْئًا فَقَدْ كَانَ مِنْكِبًا دَائِمًا عَلَى حُلُقَاتِ الدَّرْسِ وَعَلَى التَّصْنِيفِ وَالتَّأْلِيفِ : وَيَسِيرُ
ذَاتَ يَوْمٍ الْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ فَتَسْمَعُ جَارِيَةً تَغْنَى بِقَوْلِهِ :

أَشْكُو غَلِيلَ فَوَادٍ أَنْتَ مُتَلَفُهُ شَكْوَى غَلِيلٍ إِلَى إِلْفٍ يَعْْلُلُهُ
سَقَمِي تَزِيدَ عَلَى الْأَيَّامِ كَثْرَتُهُ وَأَنْتَ فِي عُظْمٍ مَا أَلْتَى تَقْلُلُهُ
اللَّهُ حَرَّمَ قَتْلِي فِي الْهَوَى سَلَفًا وَأَنْتَ يَا قَاتِلِي ظَلَمًا تَحُلُّهُ

وَيَلْتَفَتُ إِلَى صَاحِبِهِ قَائِلًا : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ارْتِجَاعِ مِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ الَّذِي
تَلَوَّكَ أَفْوَاهُ الْمَغْنِينِ وَالْمَغْنِيَّاتِ ، فَيُوثِقُهُ مِنْ رَدِّهِ قَائِلًا ؛ هَيْهَاتَ سَارَتْ بِهِ الرُّكْبَانُ .
وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى لَهُ :

فَلَا تُطْفِئِ نَارَ الشَّوْقِ بِالشَّوْقِ طَالِبًا سَأَلُوا فَإِنَّ الْجَمْرَ يُسْعَرُ بِالْجَمْرِ

وَلَمْ تَمُتْ حَيَاتُهُ طَوِيلًا ، فَقَدْ تَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٧ هـ وَهُوَ فِي الثَّانِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمَرِهِ ،
وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمَّا مَاتَ جَلَسَ ابْنُ سَرِيحَ مَنَازِلَهُ الْمَذْكُورَ آنَفًا فِي مَجْلِسِهِ وَبَكَى وَجَلَسَ عَلَى
الْتَرَابِ : وَقَالَ : مَا آسَى إِلَّا عَلَى لِسَانِ أَكَلِهِ التَّرَابِ مِنْ ابْنِ دَاوُدَ . وَحَزَنَ عَلَيْهِ
تَلَامِيذُهُ حُزْنًا شَدِيدًا . وَيُقَالُ إِنَّ نَفْطَوِيهَ جَزَعَ عَلَيْهِ جُزْعًا عَظِيمًا ، وَلَمْ يَجْلِسْ فِي
حُلُقَتِهِ لِلنَّاسِ يَحَاضِرُهُمْ سَنَةً كَامِلَةً .

فضل^(١)

كانت أمها من مولدات البمامة ، وكانت هي من مولدات البصرة ، نشأت في دار رجل من قبيلة عبد القيس أدبها وثقفها ثم باعها ، ووقعت لرجل من النخاسين في الكرخ ببغداد يقال له حسنويه ، فاشتراها منه محمد بن الفرج الرُّخَّجِي ، وأهداها إلى المتوكل سنة ٢٣٣ للهجرة . ولم يكن بين الجوارى في زمانها أفصح منها ولا أشعر ، ويقول فيها بعض النخاسين : كانت في نهاية الجمال والكمال . ولما دخلت على المتوكل سألها أشاعة أنت ؟ فقالت : كذلك زعم من باعني واشتراني ، فضحك ، وقال لها : أنشدنا شيئاً من شعرك ، فأنشدته ثم مدحه :

استقبل المَلِكُ إمامَ الهدى عامَ ثلاثٍ وثلاثينَا
إنا لنرجو يا إمامَ الهدى أن تملك الناس ثمانينَا
لا قدسُ الله امرءًا لم يَقُلْ عند دعائي لك آمينَا

فاستحسن الأبيات ، وأمر لها بجائزة وأمر عريب أن تغني بها ، فغنت وطرب طرباً شديداً . وكانت حاضرة البديهة فكان الشعراء من حاشية المتوكل ومن غيرها يتعرضون لها ببعض أبيات يُلَنقُونها عليها ، فتحيزها في سرعة شديدة ، وكان المتوكل نفسه يلقي عليها أحياناً بعض الأبيات فتُسرع في إجازتها ببديعتها الحاضرة ، من ذلك قول بعض الشعراء :

تعلمتُ أسبابَ الرضا خوفَ عَنبها وعَلَّمها حُبِّي لها كيف تغضبُ
ولم يكد يلفظ بالبيت حتى قالت :

تصدُّ وأَدنو بالمودةَ جاهداً وتبعد عني بالوصال وأقربُ

المعتر ص ٤٢٦ والنجوم الزاهرة ٢ / ٢٨ وزهر

الأدب للحصري ٤ / ١٦٥

(١) انظر في فضل وأخبارها وأشعارها

الأغاني (طبعة السامي) ٢١ / ١١٤ ، ٢ / ١٧

وفوات الوفيات للكثيري وطبقات الشعراء لابن

وكما كان لها مديح كان لها هجاء خصت به معاصرتها الخنساء ، ولكن جمهور
أشعارها كان في الغزل ، وهو غزل رقيق رقة شديدة من مثل قولها :

عَلِمَ الجمال تركننى فى الحب أشهرَ من عَلِمَ
ونصبتنى يا مُنيتى غرضَ المظنة والتَّهم
فارقتنى بعد الدن و فصرت عندى كالحلم
ما كان ضُرْكُ لو وصل تَ فحَفَّ عن قلبى الألم

وهى تقول لصاحبها إنك وصلتنى وشهرتنى بحبك ثم هجرتنى وأنزلتنى هذه
المنزلة الخزية من القطيعة ، حتى صرت وصارت أيام وصلك كأنها حلم وخيال ،
وهى تود لو ظفرت بحبه ثانية وظفرت بوصله ، فخرجت من آلامها المبرحة . وأكثر
غزلها فى معشوقها سعيد بن حُمَيْد رئيس ديوان الرسائل لعصر المستعين ، وله
فيها بدوره غزل كثير ، وبينهما محاورات ومكاتبات شعرية طريفة ، من ذلك أنه
عتب عليها يوماً أنها لا تقبل عليه فى مجلسها ولا تذكره باسمه فى غزلها ،
فكتبت إليه :

وعيشك لو صرحت باسمك فى الهوى لأقصرت عن أشياء فى الهزل والجِدِّ
ولكننى أبدي لهذا مودتى وذاك وأخلو فيك بالبيت والوجد
فكتب إليها سعيد :

تنامين عن ليلى وأسهره وحدى وأنهى جفونى أن تبثك ما عندى
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلته بنا فانظرى ماذا على قاتل العمْد
وكان لا يقل عنها كلفاً ولا غراماً ، وكانا كثيراً ما يتغاضبان ويتعاتبان ويعودان
إلى الرضا بعد أن يصف كل منهما هيامه بصاحبه ودموعه المتحدرة ، وكانت لانتى
الرقاع والرسائل بينهما ذاهبة راجعة ، ومما كتبه له فى إحدى الرقاع :

الصَّبْرُ ينقص والسَّقامُ يزيد والدارُ دانية وأنت بعيدُ
أشكوك أم أشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود

وكان حريئاً بصاحب الأغاني أو قل بمعاصريهما أن يحتفظوا للأجيال التالية بهذه الرسائل التي اتصلت بينهما ، ولكنهم لم يحتفظوا منها إلا بالقليل مع أنها تُعَدُّ من طرائف الشعر العباسي . ويقال إنه بلغها أنه واصل جارية من جوارى القيّان وملأت قلبه فتوناً ، فكتب إليّه غاضبة ساخطة :

يا عالي السنَّ سيِّئ الأدبِ شُبْتُ وأنت الغلامُ في الأدبِ
ويحك إن القيّانَ كالشُّركِ الـ منصوب بين الغرور والعطبِ
لا يتصدّينَ للفقير ولا يتبغّضنَ إلا مواضعَ الذهبِ
فالجارية لا تحبه لشخصه وإنما تحبه لذهبه ودنانيره ، وكأنها تريد أن تقطع أوصال هذه العلاقة الناشئة ، حتى لا يعود إلى التفكير في تلك الجارية أبداً . ويقال إنها كانت في الغاية والنهاية من التشيع ، فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه من الانحراف عن آل الرسول عليه السلام . وكانت منذ مقتل المتوكل تمر بها أوقات حزينة تشعر فيها بالبؤس فكانت تنفّس عن نفسها بمثل قولها :

إن الزمان بدخلٍ كان يطلبنا ما كان أغفلنا عنه وأسهاناً^(١)
مالى وللدهر قد أصبحتُ هِمَّتُه مالى وللدهر ، ما للدهر ، لا كانا
والبيتان رائعتان ، ويدلان كما تدل الأبيات السابقة على نبع شعري غزير ، واختلّف في زمن وفاتها ، فقبل سنة ٢٥٨ وقيل سنة ٢٦٠ ، ويقال إن سعيد بن حميد كان يقول بعد موتها : ما رسائل المدوّنة عند الناس إلا من إنشائها تجلّة لها ولأدبها وملكتها الشعرية .

٢

شعراء اللهو والحجون

ظل كثيرون من الشعراء ينغمسون في اللهو والحجون كما انغمس أسلافهم في العصر الماضي ، وكان بعض هذا الانغماس يرجع إلى تحلل في الأخلاق ، وبعضه يرجع إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة ، وساعد على ذلك اختلال الموازين

وفساد في القيم شاعا في حياة الدولة وفي حياة الناس . وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة ، وكان الكَرَّخ مليشاً بالحنانات وبدور النخاسين ، والشعراء المجَّان يغدون ويروحون ليل نهار ، وبعض الجوارى لم يكنَّ يعرفنَّ حشمة ولا وقاراً إنما كنَّ يعرفنَّ اللهو والابتذال . وكانت هناك الديارات متناثرة حول بغداد وعلى طول الطرق إلى البصرة والكوفة جنوباً والموصل شمالاً ، وكانت مفتوحة الأبواب للشعراء دائماً لا في الأعياد المسيحية فحسب ، بل طوال العام ، فهم يلمّون بها ويتناولون الخمر منها ، وقد يعكفون على الشرب فيها أياماً متصلة . وكل ذلك عمل على أن يكثر بين الشعراء أصحابُ الخلاعة والحجون في أسوأ صورهما ، حتى لنجد كثيرين يتغزلون غزلاً شاذاً بالغلمان ، وَصَمَّةٌ ظلت في هذا العصر كما كانت في العصر الماضي ، وكثير من هذا الغزل كان يُنظَّمُ في أثناء السكر وشرب الخمر ، للضحك والفكاهة ، ولكن تبقى بقايا وراء ذلك تصور الفساد الخلقي في أبشع صوره . وحقاً لا نجد خليفة تورط في حب غلام ، ولكن أيضاً كان كثيرون منهم يعكفون على الملاحى والملاذات ، وكانت قصورهم تطفح بجماعات المجان في صورة ندماء ومضحكين ، وأكثرهم كانوا مُجَنَّاناً محترفين . وفي كل مكان نلتقي بهذه الجماعات أو العصابات ، وكانوا يتعاشرون ويترافقون تارة في الديارات وتارة في دور النخاسين أو في الحانات أو في بيوتهم ، ومن أهمهم جماعة أوعصابة أبي هفان ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم وأبي على البصير وأبي العيشاء ، وفيهم يقول المرزبانى : كانوا يتعاشرون وكانوا شياطين العسكر في الظرف والحجون^(١) ، ومنهم جماعة أبي السفاح الأنصارى وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف ، وقد تعاهدوا ألا يقولوا شعراً إلا في صفة الخمر ، ويقول ابن المعتز إنهم ظلوا على ذلك إلى أن ماتوا^(٢) . وكان لشيوع مجالس الخمر حيثثذ أثرها في ظهور كتابات كثيرة عن آداب المنادمة والتدويم ، وما اشترطوه لها قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمساحقة في الشراب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا وإطراح ما مضى وإسقاط التكليف وسر العيب وحفظ الغيب . ونعرض لبعض هؤلاء الشياطين وخمرياتهم فمنهم أبو العيناء الضرير ، وكان ظريفاً لسنناً سريع الجواب ، واتخذ

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٣٩ .

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٨ .

المتوكل في ندمائه ، وكان ينزل مع رفاقه الأديرة ويستطيب خمرها المعتقة ، وقد بقي فيها أياماً لا يفيق من سكره ، وله في دير باشهرا ، وكان بين سامراء وبغداد ، قوله ^(١) :

نزلنا دِيرَ باشهرا على قَيْسِيهِ ظُهْرًا
وسقانا وروانا من الصّافية العذرا
وطاب الوقتُ في الدَّيرِ فربطنا به عَشرا
ونلنا كلَّ ما نهوا ه من لذاتنا جَهرا

ومن كبار الشياطين في العصر مصعب الوراق ، وكان من أشد المجان تهتكاً وأكثرهم خلاعة وتطرحاً في الحانات والديارات ، وكثيراً ما كان يلعب بدير الزعفران من ديارات الموصل ، وفيه يقول ^(٢) :

عمرتُ بقاعَ دِيرِ الزَّعفرانِ بفتيانٍ غطّافةٍ هِجانٍ ^(٣)
بكل فتى يحنّ إلى التصابي ويهوى شُرْبَ عاتقةِ الدنان
بكل فتى يميل إلى الملاهي وأصواتِ المِثَالِ والمِثَالِ ^(٤)
ظَلَلْنَا نُعْمَلُ الكاساتِ فيه على روضِ كَنْقَشِ الخُشرواني
وأغصانٍ تَمِيلُ بها ثَمَارُ قريباتٍ من الجاني دواني

ومن كانوا يتورطون حينئذ في الخمر وآثامها أبو عثمان الناجم راوية ابن الرومي ، إذ روى عنه أكثر شعره وكان يلزمه ولا يكاد يفارقه ، وله كثير من المعاني الدقيقة في الخمر وغير الخمر ، وكأنما كان يتأثر بأستاذة ، وفيها يقول ^(٥) :

مشمولةٌ كشعاع الشمس في قَدَحٍ مثل السَّرابِ يُرَى من رِقَّةٍ شَبِحا
إذا تعاطيتها لم تدر من لُطْفٍ راحاً بلا قَدَحٍ عاطتكَ أم قَدَحاً
وكثيراً ما كان يلعب بدير الخوات ، وهو دير كبير شمالي سامراء وسط البساتين والكروم ، وكانت تسكنه نساء مترهبات ، وكان من منازل القَصَصِ ومواطن اللهو ،

(٤) المِثَال والمِثَال : من أوتار العود .
(٥) المختار من شعر بشر ص ١٢٧ وانظر
الديارات ص ٩٣ .

(١) الديارات للشابثي ص ٨٠ .
(٢) الديارات ص ١٩٢ .
(٣) غطّافة هجان : سادة كرام .

وذكره كثيراً في أشعاره . ومثله دبر العذارى وكان قريباً من بغداد ، وواضح من اسمه أنه كان ينزله جوار متبتلات عذارى ، ونزل به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد . فأقام به يومين واستطابه وشرب فيه ، وله مقطوعة يصور فيها ما امتد حول الدَّيْر من بساتين فاتنة وعكوفه على الشرب فيه بمثل قوله^(١) :

ورِياضُ كَأَنَّهُنَّ بُرودُ كلَّ يومٍ لهنَّ صِبْغٌ جَدِيدُ
وَكَأَنَّ الشَّقِيقَ فِيهَا عَشِيقُ وَكَأَنَّ الْبَهَارَ صَبَّ عَمِيدُ^(٢)
وَكَأَنَّ الثَّارَ وَالورْقَ الْخُضُّ رَ ثِيَابٌ مِنْ تَحْتِهنَّ نَهْدُ
فاسقنيها راحاً تريح من اله مٌ وتُبْدِي سرورنا وتُعِيدُ
وانتهز فرصة اللذازات في دِي ر العَذَارَى فَعَلَّها لا تَعُودُ

وكان كثيرون لا يَتَغَلَّون في المحجون ولا يغرقون في اللذات ، وإنما يلمون بالخرم من حين إلى حين ، وقد يكون في حياتهم ما دفعهم إلى ذلك ، إما سخط شديد على الحياة السياسية ، وإما شك واستهانة بكل شيء ، وإما محنة نزلت بهم أو إحساس بضرب من ضروب الإخفاق . وبذلك نستطيع أن نعلل إقبال بعض المتكلمين على تناولها أحياناً أو قل بعبارة أدق على وصفها ، إذ ربما وصفوها بمجاعة للشعراء في عصرهم ، على نحو ما نجد عند أبي العباس الناشئ إذ يقول^(٣) :

وَمَدَامَ يَخْفَى النَّهَارُ لَنُورِها وَتَذِلُّ أَكْنَافُ الدُّجَى لَضِيائِها
صُبَّتْ فَأَحْدَقَ نُورُها بِزَجَاجِها فَكَأَنَّها جُعِلَتْ إِنَاءٌ لِنَائِها
وتَكَادُ إِنْ مَزَجَتْ لَرَقَّةً لَوْنِها تَمْتَازُ عِنْدَ مِزَاجِها مِنْ مَائِها
صَفراءُ تَضْحَى الشَّمْسُ إِنْ قِيسَتْ بِها فِي ضَوْئِها كَاللَّيْلِ فِي أَضْوَائِها
وَإِذَا تَصَفَحْتَ الْهَوَاءَ رَأَيْتَهُ كَذِرِ الْأَدِيمَةِ عِنْدَ حُسْنِ صَفَاها
لا شَيْءَ أَعْجَبُ مِنْ تَوَلَّدَ بُرْنِها مِنْ سُقْمِها وَدَوَائِها مِنْ دَائِها

زهر أصفر ، والكناية واضحة .

(١) الديارات ص ١٠٩ .

(٢) زهر الآداب ١٤٩/٢ .

(٣) الشقيق : ورد أحمر . والبهار :

وهي خمرة بدیعة لعب فیها خیال الناشئ بفكرة ضوء الحمر ، فهي تارة .
تحیل الشمس ظلاماً ، وتارة تُرى وكأنما لا یحملها إناؤها أو قل كأسها الزجاجی .
وهی متناهية فی الرقة حتی لتكاد تتميز من الماء حین یُمزجُ بها ، وهی أيضاً
متناهية فی الصفاء حتی لیرى الجو الصافی كدرأً بالقیاس إليها ، وهی داء ودواء
وسقام وشفاء . ونقف عند ثلاثة اشتهروا باللهو والحجون فی العصر ، وهم الحسین بن
الضحاک وأبو الشبل البرُجمیّ وعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربیع .

الحسین ^(١) بن الضحاک

من كبار الخلاء الحجان ، وُلد بالبصرة ونشأ بها ، ثم ترکها إلى بغداد لعصر
الأمین ، وربما قبل عصره ، فقد عاش دهرأً طویلاً ، وكان ظریفاً . فاتخذهُ
الأمین نديمًا له ، ونادم من بعده المعتصم والواثق والمتوکل والمنتصر ابنه . وقد جزع
جزعاً شديداً حین توفي الأمین ، ورثاه مرأى كثيرة ، وكان مما قال فيه باکیاً
متفجعاً .

هلا بقيتَ لسدِّ فافتنا فينا وكان لغيرك التَّلَفُ
قد كان فيك لمن مضى خلفُ فاليوم أعوزَ بعدك الخلفُ

فلما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد علم بموقفه منه ، وأنه طالما نظم أشعاراً
ضد طاهر بن الحسين قائده في حرب الأمین كما نظم أشعاراً يبکی بها بغداد حین
ضربها طاهر بالمجانيق ، وكان أشد ما أسخطه علیه البیتان السالفان ودعاؤه فيهما
عليه بالتلف ، فلما ذُكر له فی الشعراء قال : لا حاجة لی به ولا یرى وجهی إلا
على قارعة الطريق أی فی مواكبه العامة . وظل لا یقترب القصر طوال خلافة
المأمون ، بل لقد بارح بغداد إلى البصرة ، حتی إذا خلفه المعتصم استقدمه
من موطنه وقرَّبه منه ، ففضی یمدحه وینال جوائزه ، وقد أقطعه كما أقطع رجال

٢ / ١٥٦ وشذرات الذهب ٢ / ١٢٣ وأشعار
الخلیع الحسین بن الضحاک جمع وتحقیق
عبد الستار فراج (طبع دار الثقافة بیروت) .

(١) انظر فی ترجمة الحسین بن الضحاک
وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٨ وقاریخ بغداد
٨ / ٥٤ والأغانی (طبع دار الكتب) ٧ / ١٤٣
ومعجم الأدباء وابن خلکان ومرآة الجنان

حاشيته داراً في سامراء ، واتخذته الواثق نديماً له ، وله فيه مدائح كثيرة ، وخلفه المتوكل فسلكه في ندمائه ، وكذلك صنع ابنه المنتصر ، وله فيه مدائح مختلفة مثل أبيه ، ومن قوله في تهنته له بالخلافة :

هَنَّتَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَلَاْفَةً جَمَعَتْ بِهَا أَهْوَاءَ أُمَةٍ أَحْمَدُ

وَأَعْجَبَ الْمُنْتَصِرَ بِالْقَصِيدَةِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ فِي بِقَائِكَ بِهَاءً لِلْمَلِكِ ، وَلَحَقَ بَعْدَهُ عَصْرُ الْمُسْتَعِينَ ، وَفِيهِ تَوَفَّى سَنَةُ ٢٥١ لِلْهِجْرَةِ .

وكان يُعْرَفُ بِاسْمِ الْخَلِيعِ لِكثْرَةِ مَجُونِهِ وَعَكُوفِهِ عَلَى الْخَمْرِ ، حَتَّى أَصْبَحَ اسْمُهُ مَقْرُونًا بِاسْمِ أَبِي نَوَاسٍ أَكْبَرَ مَا جُنَّ فِي الْعَصْرِ السَّابِقِ ، وَهُوَ مِثْلُهُ فَارِسِيُّ الْأَصْلِ ، وَكَانَ يَصْحَبُهُ فِي شَبَابِهِ ، وَيَبْدُو أَنَّهُ تَمَثَّلَ أَشْعَارُهُ تَمَثُّلاً نَادِراً وَخَاصَةً أَشْعَارُ الْخَمْرِ وَالْمَجُونِ ، حَتَّى اخْتَلَطَ الْأَمْرُ عَلَى الْقَدَمَاءِ فَنَسَبُوا كَثِيراً مِنْ أَشْعَارِهِ إِلَى أَبِي نَوَاسٍ ، وَزَعَمَ نَفَرٌ مِنْهُمْ أَنَّ أَبَا نَوَاسٍ كَانَ يَحَاكِيهِ فِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحُسَيْنَ هُوَ الَّذِي كَانَ يَحَاكِي أَسْتَازَهُ وَأَسْتَازَ الْخَمْرِ وَالْمَجُونِ فِي الْعَرَبِيَّةِ عَامَةً . وَيَقُولُ ابْنُ الْمَعْتَزِ إِنَّهُ كَانَ أَنْتَى مِنْ أَبِي نَوَاسٍ شِعْراً وَأَقْلَ تَخْلِيطاً مِنْهُ ، وَهِيَ مَلاحِظَةُ صَحِيحَةٍ غَايَةِ الصَّحَةِ ، فَإِنَّ أَبَا نَوَاسٍ كَانَ يَخْتَلِطُ بِأَبْنَاءِ الشَّعْبِ الْبَغْدَادِيِّ مِنَ الْمَجَّانِ وَغَيْرِهِمْ فِي الْحَانَاتِ بِالْكَرْخِ وَغَيْرِ الْكَرْخِ وَفِي الْأَدِيرَةِ ، وَكَانَ لَا يَرْتَفِعُ بَلِغَتُهُ وَأَلْفَاظُهُ عَنْهُمْ ، بَلْ كَانَ يَدْنُو مِنْهُمْ دُنُوّاً شَدِيداً . وَكَانَ يَنْظُمُ كَثِيراً مِنْ خَمْرِيَّاتِهِ فِي أَثْنَاءِ سَكْرِهِ ، فَبَدَأَ فِي أَشْعَارِهِ تَخْلِيطَ كَمَا لَاحِظَ ابْنُ الْمَعْتَزِ ، فَهُوَ تَارَةً يَرْتَفِعُ حِينَ يَنْظُمُ فِي مَجْلِسِ الْأَمِينِ أَوْ فِي مَجْلِسِ بَعْضِ الْوُزَرَاءِ وَالنَّاسِ بَهِيْنٍ ، وَتَارَةً يُسَيِّفُ حِينَ يَنْظُمُ فِي مَجَالِسِ الْعَامَةِ ، وَخَاصَةً حِينَ يَخَاطِبُ غُلَمَانَ الْحَانَاتِ وَكَانُوا أَخْلَاطاً مِنَ الْفَرَسِ مِمَّنْ لَا يَحْسُنُونَ الْعَرَبِيَّةَ الْفَصِيحَةَ . أَمَّا الْحُسَيْنُ فَكَانَ فِي جُمْهُورِ حَيَاتِهِ يَعِيشُ فِي قُصُورِ الْخُلَفَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَأَبْنَائِهِمْ ، فَكَانَ يُعْنَى أَشَدَّ الْعَنَاءِ بَلِغَتُهُ وَأَلْفَاظُهُ ، وَلَا يَكْتَفِي فِيهَا بِالْفَصَاحَةِ بَلْ يَطْلُبُ أَيْضاً الرِّصَانَةَ وَالْجَزَالَهَ حِيناً ، وَحِيناً الْعَذُوبَةَ وَالزُّعْمَةَ وَمَا يَلَامُ الْأَذْوَاقَ الرِّفِيعَةَ فِي الْمَجْتَمَعِ ، لِذَلِكَ قَلَّ التَّخْلِيطُ عِنْدَهُ كَمَا يَلَاظُ ابْنُ الْمَعْتَزِ ، بَلْ كَادَ يَنْعَدِمُ انْعِدَاماً ، وَلِذَلِكَ أَيْضاً شَاعَ فِي أَشْعَارِهِ النِّقَاءُ وَالصِّفَاءُ إِذْ كَانَ يَطْلُبُ فِيهَا دَائِماً أَنْ تَلِدَ الْأَسْمَاعُ وَالْأَفْتَلَةُ . وَظَاهِرَةٌ ثَانِيَةٌ يَخْتَلِفُ فِيهَا عَنْ أَسْتَازِ الْمَجُونِ وَالْخَمْرِ فِي عَصْرِهِ هِيَ شَيْءٌ مِنَ الْحَشْمَةِ الْمَصْطَنَعَةِ فِي مَجُونِهِ ، فَهُوَ لَا يَذِيعُ فِيهِ مَا يَذِيعُهُ

أبو نواس من الفحش، لأنه كان يعيش في أوساط الخلفاء والوزراء وأبنائهم، فكان يحتشم وقلماً يعلن أنه يقترف إثمًا منكراً، أما أبو نواس فلم يكن يعرف شيئاً من الحشمة ولا كان يخفي شيئاً من آثامه. وليس معنى ذلك أن الحسين كان أقل من أبي نواس مجوناً وشغفياً بالخمير، فقد كان مثله مفتوناً بها فتنة شديدة، وكان يطلبها في الحانات وفي الأديرة وكان دائم الاختلاف إليها، ومن طريف ما نظمته في دير سابر بقرب بغداد وخمره المعتقة قوله:

وعواتي باشرت بين حدائق ففضضتُهُنَّ وقد حَسُنَ صِحَاحًا^(١)
أتبعت وَخَزَةَ تلك وَخَزَةَ هذه حتى شربت دماءهن جِرَاحًا
أبرزهنَّ من الخدور حَوَاسِرًا وتركت صَوْنَ حريمهنَّ مُبَاحًا
وهو يصور فتنته بزقاق الخمر الممتلئة التي لم يمسهما أحد قبله، وقد ضحكك الطبيعة في دير سابر من حوله، وهو يفتح الزقاق ويشرب من دمائها أرتالا. وكان يختلف إلى ديارات العراق عامة، وله في دير سَرَجِس بالقرب من الكوفة قصيدة بديعة، يقول فيها:

أخوى حَيَّ على الصُّبُوح صَبَاحًا هُبَّا ولا تَعْدَا النديم رَوَاحًا
مهما أقام على الصُّبُوح مساعدٌ وعلى الغُبُوق فلن أريد بَرَاحًا^(٢)
عُودًا لعادتنا صبيحةً أَمْسِنَا فالعُودُ أحمدُ مُغْتَدِي ومَرَاحًا
هل تَعْذِرَانِ بَدِيرَ سَرَجِسَ صَاحِبًا بالصُّحُو أو تَربِيانِ ذاك جُنَاحًا
إني أعيذكما بألفه بَيْنِنَا أنْ تشربا بقرى الفُرَات قَرَاحًا^(٣)
عَجْتُ قَوَاقِرُنَا وَقَدَسَ قَسْنَا هَرَجًا وَأَصْخَبْنَا الدَّجَاجَ صِيَاحًا^(٤)

وهو يثلطف إلى صاحبيه في آخر الليل ويدعوهم أن يتناولوا معه الصبوح كما تناولاه بالأمس، ويعذراه ولا يريا في ذلك جُنَاحًا ولا إثمًا، ويستحلفهما بما

(١) العواتق: زقاق الخمر.

(٣) الماء القراح: الماء الصافي.

(٢) الصبوح: شرب الصباح، والغُبُوق:

(٤) القواقر: القداح. وقَدَسَ القس: رتل

بعض التراتيل.

شرب المساء.

بينهما وبينه من ألفة ومودة وأخوة ألا يشربا ماء الفرات النмир : بل يشربا معه صبروحه المسكر المحبب إلى نفسه . وكان أبو عيسى بن الرشيد يدفع غلامه « يُسْرَا » إلى معابثته فكان ينظم فيه بعض غزاه . وكذلك كان المتوكل يدفع غلامه « شَفِيعاً » إلى العبث به ، وكان وضئ الوجه مثل يسر فكان ينظم فيه أيضاً بعض الغزل ، وواضح أنه غزل كان يُرَاد به إلى الهزل وإضحاك المتوكل وأبي عيسى . واه في الغزل عامة شعر كثير من مثل قوله :

وَصَفَّ الْبَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حَتَّى خَلْتُ أَنَى - وَمَا أَرَاكَ - أَرَاكَ
وَلِذَا مَا تَنْفَسُ النَّرْجِسُ الْغَضُّ ضُ تَوَهَّمَتْهُ نَسِيمَ شَذَاكَ
خُدْعُ لِلْمَنَى تَعْلَلْنِي فِيْ كَ بِإِشْرَاقِ ذَا وَهَجَةٍ ذَاكَ
لَأَدُومَنَّ يَا حَبِيبِي عَلَى الْوَدِّ لِهَذَا وَذَاكَ إِذْ حَكَايَاكَ

والقطعة رائعة التصوير وتسيل عذوبة ، وهي عذوبة تشيع في كثير من أشعاره الغزلية والحميرية ، وهي طبيعية لشاعر كان يعيش في قصور الخلفاء ومجالسهم ، ويسمع في كل ليلة أوتار العيdan والطنابير والمعازف من كل لون ، مما جعل أذنه الموسيقية تُرْهَفُ إِرْهَافًا شديدًا ، فإذا كثير من شعره يتحول ألحانًا وأنغامًا خالصة على شاكلة قوله :

عَالَمٌ	بِحَبِيبِهِ	مُطَرِّقٌ	مِنَ التِّيهِ
يُوسِفُ	الْجَمَالَ وَفَرَّ	عَوْنُ	فِي تَعْدِيهِ
وَهُوَ	غَيْرُ مَكْتَرٍ	لِلذِي	أَلَا قِيهِ
لَا وَحَقُّ	مَا أَنَا مِنْ	عَطْفِهِ	أَرْجِيهِ
مَا الْحَيَاةُ	نَافِعَةٌ	لِي عَلَى	تَبَائِيهِ
النَّعِيمُ	يَشْغَلُهُ	وَالْجَمَالَ	يُطَاغِيهِ

والقطعة من وزن عباسي حديث هو وزن المقتضب ، وهي تطير عن الفم بخفة . ولم يقف تأثير الغناء وآلات الطرب لعصره في شعره عند الملازمة بين العصر العباسي الثاني

جرس الكلمات ، بل تجاوز ذلك إلى الأوزان ، فكان يفرع إلى مجزوماتها كثيراً إرضاءً لآذان السامعين ، وحتى يتيح للمغنين والمغنيات في شعره الفرص كي يمجروا بألفاظه ويهمسوا بها حسب حاجاتهم الغنائية .

أبو الشبل^(١) البرجمي

اسمه عاصم بن وهب ، ولد بالكوفة ونشأ وتادّب بالبصرة ، يقول أبو الفرج : «قدم إلى سامراء في أيام المتوكل ومدحه ، وكان طيباً نادراً ، كثير الغزل ، ماجناً فنفق عند المتوكل بإيثاره العبث ، ونادمه وخصّ به فأثرى » ثم يذكر بعض مديحه للمتوكل وما أسبغ عليه من عطاياه . ويبدو من اصطفاء المتوكل له أنه كان ظريفاً خفيف الروح ، ويقصّ ابن المعتز بعض نوادره ، مما يدل على أنه كان فكاهة المحضر . وكان خليعاً مثل الحسين بن الضحاك يسرف على نفسه في المجون ويتهالك على اللذات ، ويطلبها في الحانات وفي الديارات ، ويقول من ترجموا له إنه كان عاكفاً على الشراب لا يفارقه ، ولا يوجد إلا سكران قد أخذ منه السكر مأخذاً شديداً ، ويقولون إنه كان يتطرح في الديارات والحانات ومواطن اللهو ، لا يُغيبها ولا يتأخر عنها ، بل دائماً في حانة أو في دَيْر أو في بستان أو متزّة وقد شرب وأغرق في الشرب حتى لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه ، بل لم يعد يستطيع حراكاً . وكان كثير الاختلاف إلى دير أشموني بقرية قُطْرَبُل شمالي بغداد وكانت القرية أشبه بحانة كبيرة يختلف إليها أصحاب البطالة والمجون . وكان عيد هذا الدير في اليوم الثالث من أكتوبر ، وكان يجتمع فيه كل من ببغداد من أهل الطرب واللهو ، يخرجون إليه جماعات ، منهم من يركب السفن النهرية بدجلة ، ومن يركب الخيل المظلمة ، وينزلون في أكناف القرية وحاناتها ودَيْرها الكبير ضاربين خيامهم وفساطيطهم ، وكلّ قد أعدّ ما استطاع لقصصته وهواه ، والقيان تعزف عليهم ، وآلات الطرب تُسمّع في كل مكان ، والناس يطربون ويشربون وقد يرقصون طرباً واستحساناً لما يسمعون . وطبيعي أن يتأثر الماجن الكبير أبو الشبل

ومعجم الشعراء للمزباني ص ١٢٣ والديارات للشابشي ص ٥٠ وما بعدها .

(١) انظر في أبي الشبل وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨٠ والأغاني (طبع دار الكتب المصرية) ١٩٣/١٤

بمناظر هذا العيد ، وقد أخذ الشراب منه مأخذاً عظيماً فبتغنى بمثل قوله :

شهدتُ مواطنَ اللذاتِ طراً وجئتُ بِقاعها بَحْراً وَبَراً
فلم أَر مثلاً أشموني مَحَلّاً أَلذَّ لحاضريه ولا أَسْراً
به جيشان من خَيْلٍ وَسُفْنٍ أناخا في ذُراه واستقراً
كأنهما زحوفٌ وَغَى وَلَكِنْ إلى اللذاتِ ماكراً وَفراً
سلاحُهما القَوَاقِزُ والقَنَاني وأَكْوَاسُ تدور هَلَمَّ جَراً^(١)
وَضَرْبُهما المِثَالُثُ والمِثَالِثَانِ إذا ما الضربُ في الحربِ استَحْراً

وكان مثل الحسين وعامة بَجَانِ عصره يُكثِر من الغزل ، وكان يستهتر فيه أحياناً ويتهتك ويتمدح بالتهتك والاستهتار مسفهاً في شعره ، وكأنما كان ينظم مثل هذا اللون من الغزل للمجان من أمثاله مُشيعاً فيه غير قليل من الفحش . وكان ينظم بجانبه غزلاً آخر لا يسف فيه هذا الإسفاف ، بل يُبقي فيه على مروءته وكرامته إن كان للمجان من أضرابه فضل من كرامة ، على شاكلة قوله :

بأبى ريمٌ رى قَدْ بى بِالْحَاضِ. مِرَاضِ^(٢)
وَحَمَى عَيْنِي أَنْ تَذْ تَذْ طَيْبَ الإِغْمَاضِ
كلما رُمْتُ انبساطاً كفَّ بَسْطِي بانقباض
أَوْ تَعَالَى أَمَلِي فِيهِ رَمَاهُ بانخفاض
فمَنِي يَنْتَصِفُ الْمَظْ لَوْمُ وَالظَالِمُ قَاضِي

والأبيات خفيفة ، وإكثه لا يلحق الحسين بن الضحاك في عدوبة نغمه وخفة روحه وحرارة عاطفته . وكان الحسين أعف منه لساناً إذ لم يكن يسف إلى الفحش إسفافه ، وقد عَمَّرَ عَمراً طويلاً حتى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيئاً وبلغ من الكبر عِتِيماً . وكان طبيعياً أن ينصرف عنه حينئذ الجوارى ، وفي ذلك يقول :

عذيري من جِوَارِي الْحَمَى إِذْ يَرْعَبُنْ عَنِ وَضَلِي

(١) القَوَاقِزُ : القُداح كما مر . والأَكْوَاسُ : (٢) الرِّيمُ : الظبي خالص البياض . الكُثُوسُ .

رَأَيْنَ الشَّيْبَ قَدْ أَلْبَسَنِي أَبَهُةَ الْكَهْلِ
فَأَعْرَضَنَ وَقَدْ كُنَّ إِذَا قِيلَ أَبُو شَيْبَلٍ
تَسَاعَيْنَ فَرَقْنِ الْكُؤَى بِالْأَعْيُنِ النَّجْلُ^(١)

ومرّ بنا هجاء الخنساء جارية هشام المكفوف له ، وله فيها هجاء . سوف إسفافاً شديداً ، وهو في هجائه يفحش إلى درجة بعيدة تؤذى الأذواق السليمة . وكان قد اشترى كبشاً لعيد الأضحى فظل يعلفه ويسمّنه ، وأفلت يوماً منه على قنديل كان يُسرجه بين يديه وعلى سراج وقارورة للزيت ، فكسر القنديل وانصب الزيت على ثيابه وكتفه وفراشه ، فلما رأى منه ذلك ذبحه قبل الأضحى ، ونظم قصيدة في رثاء قنديله يقول فيها :

يَا عَيْنُ بَكِّي لَفَقْدَ مَسْرَجَةٍ كَانَتْ عَمُودَ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ
صَبِيئَةً الصَّبِيحِ حِينَ أَبْدَعَهَا مَصَوِّرُ الْحَسَنِ بِالتَّصَاوِيرِ
مَسْرَجَتِي كَمْ كَشَفْتَ مِنْ ظُلَمٍ جَلَيْتِ ظُلُمَاءَهَا بِتَنْوِيرِ
إِنْ كَانَ أَوْدَى بَكَ الزَّمَانُ فَقَدْ أَبْقَيْتِ مِنْكَ الْحَدِيثَ فِي الدُّورِ

ومضى بصور كفيف انتقم للمسرجة ، فذبح الكبش ومزقه بالمُدَى وألقى به في القدور وكيف أن السَّنانير والحِداة والغربان والكلاب طعمت من لحمه وعظامه ، وكان ذلك عرساً لها جميعاً بدون مزامير ومغنين . وتلك عاقبة البغي ، مصرعه وخيم . ودخل داره بعضُ أصدقائه ورأى أن يعيث به ، ولفته ثلث قرطاس كان يحتفظ به أبو الشبل ، فأخذه ولم يعلمه بما صنع ، فلما مرت بعض أيام جاء صديقه ، فأنشده مرثية طويلة لذلك الجزء من القرطاس ، وفيه يقول :

فِكْرٌ تَتَرَى وَحُزْنٌ طَوِيلٌ وَسَقِيمٌ أَنْحَى عَلَيْهِ النَّحُولُ
لَيْسَ يَبْكِي رَسْمًا وَلَا طِلَالَةً حَيَّ كَمَا تُنْدَبُ الرَّبِّي وَالطَّائِلُ^(٢)
إِنَّمَا حَزَنَهُ عَلَى ثُلُثٍ كَانَتْ لِحَاجَاتِهِ فَعَالَتُهُ غَوْلُ^(٣)

(٣) غالته : أهلكته .

(١) الكوي : الخروق في الأبواب والنوافذ .

(٢) مح : عفا ودرس .

كان للسُرِّ والأمانة والكَيْدِ مان إنَّ باحَّ بالحديث الرسولَ

وضحك صديقه طويلاً ، واعترف له بأخذه ، وردَّه عليه . وهذا هو أبو الشبل ماجن خليع ، يسرف في الخلاعة والمجون ، بل في الاستهتار والتهاك ، وهو مع ذلك صاحب نوادر ، لا نوادر يحكيها فحسب ، بل نوادر حدثت له كان يحكيها وينظم فيها أشعاره .

عبد الله^(١) بن العباس بن الفضل بن الربيع

حفيد الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين ، نُشِّئُ في الحلية والترف والنعم ، وقد عُنِيَ أبوه بتعليمه وتثقيفه حتى أحسن الشعر ، وكان يقوله على الطبيعة مُرْسِلاً نفسه على سجيتهما ، لا يتكلف فيه ولا يتعمَّل . ويقول أبو الفرج شعره مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم ، ويقول : كما كان شاعراً مطبوعاً كان مغنياً محسناً جيد الصنعة . ويقال إن سبب تعلمه الغناء أنه تعلق بجارية لعمته رقية كانت تتقن الغناء ، تسمى عَسَّاليج ، شغفت قلبه حباً ، فكان يلزمها بعلة الغناء ، وكان يأخذ عنها وعن صواحبها ما أحسنه من الأصوات والأدوار ، حتى أقرن له بالحنق . وصار يلزم من يختلفون إلى بيته من المغنين أمثال إسحق الموصلي ، وكاد لا يترك لهم صوتاً دون أن يأخذه . وكان جوارى الحارث بن بسخنر وابنه محمد يدخلن إلى داره فيطرحن على الجوارى بها ما ليس عندهن من غناء . وكل ذلك أتاح له أن يتثقف بالغناء ، بل أن يصبح ماهراً فيه . وترفع شهرته في إحسانه إلى آذان الخلفاء ، فيطلبونه اسماع أغانيه ، وكان أول من طلبه الواثق ، وله فيه أصوات مدحه بها ، وغنَّاه فيها فلأه طرباً ، من ذلك ما يروى من أن الواثق عوفي من مرض ألمَّ به فطلبه مع طائفة من المغنين ، فلما صار قريباً من مجلسه بحيث يسمع صوته ضرب على عود مغنياً بيتين قالهما في طريقه إليه على هذا النمط :

١٠ / ٣٦ والديارات ص ٦٣ وما بعدها
وفيل زهر الآداب ص ١١٥ .

(١) انظر في عبد الله وحياته وأشعاره الأغاني
(طبعة الساسي) ١٧ / ١٢١ وتاريخ بغداد

اسلم وعمرك الإله لأمة بك أصبحت قهرت ذوى الإلحاد
لو نستطيع وقتك كل أذية بالنفس والأموال والأولاد

وكان الواثق يغمره بجواثره وصلاته ، وغمره من بعده المتوكل بالأموال ، ويقص صاحب الأغاني من ذلك بعض أخبار ، وله فيه أيضاً مدائح قصيرة كان يغنيه بها فيبهتز طرباً ، وفيه يقول :

أكرم الله الإمام المرتضى وأطال الله فينا عمرة
سره الله وأبقاه لنا ألف عام وكفانا الفجرة

وكان يغني الخليفين والمنتصر من بعدهما في غزل كثير من أشعار السابقين وفي كثير من غزله الذي نظمه في عساليج وفي غيرها من الجوارى اللاتي فتن قلبه وفي مقدمتهن مصابيح جارية الأحذب المقيين وكانت تغني في كثير من شعره . وهي جارية نصرانية هام بها قلبه هياماً شديداً ، ويقال إنه كان يلزم بيع النصارى في أعيادهم من أجلها شغفا بها ، وفيها يقول :

تثنى بحسن جيد غزال وصلب مفضض آبنوس
كم رأيت الصليب في الجيد منها كهلال مكمل بشموس

وتتردد في غزله أسماء الأعياد المسيحية كما يتردد ذكر كثير من الديارات مثل دير سرجس ودير قوطا القريب من بغداد ، وكان ينزل فيهما أياماً مع بعض رفاقه ، يشربون ويقصفون ويسجنون ، وله يصور ما كان من هذا المجون والقصف والشراب مع بعض صحبه في دير قوطا ، إذ يقول :

يا دير قوطا لقد هيجت لي طرباً أزاح عن قلبي الأحزان والكربا
كم ليلة فيك واصلت السرور بها لما وصلت لها الأدوار والنخبا
في فتية بذلوا في القصف ما ملكوا وأنفقوا في التصابي المال والنشبا^(١)

وهو يكثر من الحديث عن صاحبه النصرانية وعن جوارى البيعة والأديرة ،
وكأنما كان قلبه يتبعهن جميعاً ويتمنى لو استطاع أن يجنى معهن زهرات الحب ،
أو لو أتيح له ذلك من حين إلى حين ، ومن قوله في إحدى جوارى الدير
السالف :

وشادنٍ ما رأت عيني له شَبهاً في الناس لا عَجَماً منهم ولا عَرِبا
إذا بدا مقبلاً ناديتُ وأطرباً وإن مضى مُعْرضاً ناديتُ : وأحرباً
ويصرّح مراراً بأنه لا يحب سوى خمر الأديرة المعتقد ، لما كان يخامره فيها من
سكرين : سكره بالخمر الحقيقية وسكره برؤية الراهبات المتبتلات ومن يراهن
هناك من العذارى الفاتنات . وله يتحدث عن خمر قرية من قرأهن تسمى كركين
وعن يوم الشعانين وهو العيد المسيحي الذي يقع في يوم الأحد قبل عيد
الفصح :

ألا أصبحاني يومَ الشعانين من قهوةٍ عُنُت بِكَرْكِينِ
عند أناسٍ قلبي بهم كَلِفُ وإن تولّوا ديناً سوى ديني

ومن الحق أنه لم يكن يُبقي لنفسه شيئاً من الحشمة في مجونه، وهو من هذا
الناحية شبيه بأبي الشبل، بعيد الشبه من الحسين بن الضحاك مع أنه كان مثله يعاشر
الخلفاء والأمراء ، وكأن هذه العشرة كانت شيئاً سطحياً ، وهو نفسه كان حفيد
وزير ومن أسرة رفيعة أو أرستقراطية . وربما جاءه ذلك من أنه كان لا يفيق من
الخمر ، إذ يقول أبو الفرج إنه كان يشرب الصَّبْبُوح كل يوم من دهره ما عدا أيام
الجمع وشهر رمضان ، فهو نهاره سكران ، وكذلك كان ليله . ومثله يسف ويهبط
إلى الدنيّات ، لذلك لا نعجب إذا رأينا الشابشي يقول عنه : « كان صاحب غزل
ومجون كثير التطرح في الديارات والحانات والاتِّبَاع لأهل اللهو والخلاعة » . ومع
ذلك له غزل كثير رقيق اشتهر به بين معاصريه، ويروى أن ابن الزيات وزير
الواثق وكان أديباً بارعاً في الشعر والنثر قال له : أنشأني شيئاً من شعرك ، فقال
إنما أعبت ببعض الأبيات ، ولست بمكان من ينشدك شعره ، فقال له : أتقول هذا
وأنت القائل :

يا شادناً رامَ إذ مَ رَ في الشعانين قَتلى
تقول لى كيف أَصْبَحَ ت كيف يُصْبِحُ مثلى

أنت والله أغزل الناس وأرقهم شعراً ، ولولم تقل غير البيت الأخير لكفالك
ولكنت شاعراً مجيداً . وروى له الأغاني أشعاراً كثيرة كان يغنى فيها هو وعسايب
ومصايب وغيرهما من مغنيات العصر ومغنيه . ومن الأصوات التى طرب لها الواصل
طرباً شديداً حين غَنَّاهُ بها قوله :

بأبى زورُ أَتَانى بالغَلَسِ قمت إجلالاً له حتى جَلَسَ
فَتَعَانَقْنَا جميعاً ساعة كادت الأرواحُ فيها تُخْتَلَسُ
قلتُ يا سُولى ويا بَدَرَ الدُّجَى فى ظلام الليل ما خفت العَسَسُ
قال : قد خفتُ ولكنَّ الهوى آخذُ بالروح منى والنَّفَسُ
زارنى يَخْطُرُ فى مِشيتِهِ حوله من نور خَدَيْهِ قَبَسُ

والقطعة بدیعة فى خواطرها وفى تصويرها للهيام بالمعشوق، وللمعشوق نفسه وجماله
الساحر الوضىء، وأيضاً فى صياغتها وموسيقاها . وشعر عبد الله كله شعر وافر الموسيقى ،
وهو شىء طبعى لأنه كان يغنيه ويوقعه على آلات الطرب ، وكان الجوارى والمغنون
من حوله يغنون فيه ، فكان يضعه فى نسق موسيقى ، تشترك فيه آذانه الداخلية : أذن
الشاعر وأذن المغنى وأذن الموسيقى ، شركة تصفيه من كل الأدْران ، فإذا ألفاظ الشعر
متلاحمة مع قوافيه تلاحمًا إلى أبعد حدود الدقة ، فلا عوج ولا انحراف لا فى
لفظ بل لالعوج ولا انحراف فى حرف ولا فى حركة ، إذ يعم الانسجام والإحكام .
وهذا الأثر الموسيقى فى الألفاظ والحروف والحركات كان يرافقه أثر آخر فى الأوزان
إذ نرى عبد الله يشغف بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة حتى يوفر لأغانيه أو قل
لبعضها كل ما يريد من خفة ورشاقة موسيقية .

شعراء الزهد والتصوف

هذه الموجة من اللهو والمجون إنما كانت مقصورة على البيئات المترفة التي أفسدها الترف وعلى الخانات والأديرة ومن كان يختلف إليها من الناس والشعراء؛ ولم يكونوا يؤلفون إلا شطراً ضئيلاً من الجمهور. أما شطور الجمهور الأخرى فلم تكن تعرف الترف ولا كانت تنغمس في الخمر والإثم، إنما كانت تعرف شظف العيش وتعرف تقوى الله وتجده فيها ما يعينها على احتمال أعباء الحياة، مما جعلها تنصرف إلى سماع الوعاظ في المساجد ببغداد وغير بغداد وسماع أهل الحديث والفقه والتفسير. وكانت دائماً تدوى في آذانهم كلمات الوعاظ والنسك وما يدعون إليه من رفض الدنيا ومتاعها الآثم والتفكير في مصير الإنسان وما ينتظره من ثواب وعقاب في الآخرة. وكان هؤلاء النسك والوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكان الكثير منهم حلقات في المساجد يستدير الناس من حولهم فيها لسماع ما يتحدثون به عن الوعد والوعيد وعذاب النار ونعيم الجنان والمحشر وما يكون فيه من أهوال. وفي كل مكان نجد بينهم قصصاً يقصون على الناس من سير الأنبياء والأئم الدائرة ١٠ يدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجمات هؤلاء القصاص والوعاظ فتحس فيهم إيماناً صادقاً وورعاً مخلصاً، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملاً أو منصباً رفضه في إصرار، مؤثراً حياته الخشنة على اللباس اللين والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد واحتقار لمتاع الدنيا في جانب ما أمل من متاع الآخرة. وظل نفر منهم يرافق الجيوش في الثغور واعظاً وقاصاً ومذكراً بما أعد الله للمجاهدين والمستشهدين من ثواب عظيم، على نحو ما هو معروف عن أبي العباس الطبري المتوفى سنة ٣٣٥، وكان من أخصع الناس قلباً إذا قصص، ويروى عن موته أنه قص على الناس بطرسوس (من ثغور الشام) فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وملكوته ^١ ونشأ عليه من الموت ^(١).

ولا نبالغ إذا قلنا إن القصاص والوعاظ جميعاً كانوا من هذا الطراز ، وكانوا لذلك قريبين من قلوب العامة ، وقد استطاعوا أن ينشروا موجة حادة من الزهد ، لافى الطبقة العامة وحدها ، بل أيضاً في الطبقات الأرستقراطية ، على الأقل من حين إلى حين ، كأن نرى واعظاً يقف بين يدي هذا الخليفة أو ذاك محذراً من الظلم وعواقبه وداعياً إلى الإقبال على ما عند الله ونسبذ متاع الحياة الزائل ، أو مخوفاً منلراً بالموت وما بعده من العذاب الأليم والنعيم المقيم . وطبيعي — والزهد قوت العامة في حين كان المحبون قوت الخاصة — أن يتعلق بالنظم فيه أكثر الشعراء ، حتى شعراء المحبون أنفسهم نرى لهم شعراً زاهداً كثيراً على نحو ما هو معروف عن أبي نواس في العصر الماضي فقد كان الشعر الذي تتطلبه العامة والذي تجد فيه غذاء مشاعرها وعواطفها ، مما جعل الشعراء ينظمون فيه قصائد ومقطوعات كثيرة . وكان الخلفاء إذا سمعوا منه شيئاً غلبهم التأثير حتى لو كانوا في مجلس شراب على نحو ما يروى عن المتوكل فإن الحِمَّاني نقيب العلويين في الكوفة الذي ترجمنا له في الفصل الماضي دخل عليه وهو في مجلس شراب ، فأنشده (١) :

غُلِبُ الرِّجَالِ فَمَا أَغْنَتْهُمْ الْقُلُلُ	باتوا على قُلُلِ الْأَجْبَالِ تحرسهم
فَأُودِعُوا حُفْرًا يَابِثَسَ مَانَزَلُوا	واستُنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ
أَيْنَ الْأَسْرَةِ وَالتَّيْجَانِ وَالْحُلُلُ	نَادَاهُمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوا
تِلْكَ الْوَجْهَ عَلَيْهَا الدُّودُ يَقْتَتِلُ	وَأَفْصَحَ الْقَبْرِ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَ لَهُمْ
فَفَارَقُوا الدُّورَ وَالْأَهْلِينَ وَانْتَقَلُوا	قَدْ طَالَمَا عَمَرُوا دَوْرًا لَتُحْصَنَهُمْ

ومضى في موعظته وبكى المتوكل بكاء طويلاً حتى بَلَسَتْ دموعه لحيته وبكى مَنْ حضره ، وأمر برفع الشراب ، وكأنما ثاب إلى رشده . ومن كان يكثر في العصر من الوعظ في شعره العتاهية وأشعار أبيه الزاهدة مشهورة ، ويقول ابن المعتز عن الأب إنه كان ناسك الظاهر وكان خبيث الدين يذهب مذهب الثنوية ، أما الابن فكان صحيح الدين ورعاً وولى القضاء برهة ، ويروى له موعظة حاثية يستهلها بقوله (٢) :

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٦٤ .

(١) مروج الذهب ٤ / ١١ .

أراعك شَيْبٌ في السَّوَادِ يَلُوحُ يَبِثُّ بِأَسْبَابِ الْبِلَا وَيَنُوحُ

والموعظة تدور على أن الشيب ناقوس الموت ، وقد بدأ يدق بقوة ، فحما قليل ستزهر الروح . ويذكر المرزباني شاعراً معاصراً للمعتر من المعتزلة ، ويقول إن له أشعاراً يخص فيها على القول بالعدل والتوحيد المبدئين المعروفين في الاعتزال ، ثم يذكر له أشعاراً^(١) كلها مواعظ ودعوة إلى التقوى ، وتخويف من الموت وما بعده . وقد قلنا آنفاً إن شعراء اللهو ومن وراءهم من شعراء الخمر كثيراً ما نظموا في الزهد ، ولا يكاد شاعر ممن ترجمنا لهم يخلو ديوانه أو تخلو أشعاره من بعض أبيات زاهدة ، وفي ديوان ابن المعتز والصنوبري وابن الرومي زهد كثير ، ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد في هذا العصر كما رسمها ابن الرومي في قصيدة بديعة من قصائده ، نكتفي منها بالأبيات التالية^(٢) :

بات يَدْعُو الواحد الصمدا	في ظلام اللَّيْلِ منفردا
في حَشَاهُ من مَخَافَتِهِ	حُرْفَاتُ تَلْذَعُ الكبدا
كلما مَرَّ الوعيد به	سَحَّ دَمْعُ الْعَيْنِ فَاطْرَدَا
قائلٌ : يا منتهى أُمَلِي	نَجْنِي مما أخاف غدا
وخطبائي التي سَلَفَتْ	لستُ أَحصى بعضها عددا
وَبَحَّ عَيْنِي ساء ما نظرتُ	وَبَحَّ قَلْبِي ساء ما اعتقدنا

وهذه الموجة الحادة من الزهد أخذت تلتقي بها منذ أواخر القرن الثاني الهجري موجة صوفية ، تعد وليدة الموجة السابقة ، ومرّ بنا في الفصل الثاني حديث مفصل عن نشأتها وتطورها ومقوماتها وكيف أنها قامت على فكرة المحبة الإلهية وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات ومن التوكل على الله توكلًا خالصًا . ونغضى في العصر ويلقانا ذو النون المصري الذي يُعَدُّ الأب الحقيقي للتصوف ، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقًا بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التي تقوم على

الفكر والمنطق ، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة ، فهي معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدسي ، ولها أحوال ومقامات ، ومن قوله مخاطب ربه ^(١) :

أَمُوتُ وما ماتتُ إِلَيْكَ صَبَابَتِي وَلَا قُضِيَتْ من صِدْقِ حُبِّكَ أَوْطَارِي
تَحْمَلُ قَلْبِي فَيْكَ مَا لَا أَبْثُ وَإِنْ طَالَ سَقَمِي فَيْكَ أَوْطَالَ إِضْرَارِي
ويخلفه أبو يزيد البسطامي فيذيع فكرة الفناء في الذات الإلهية ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ويقصد بها تجرد النفس عن رغباتها وقسمعها لشهواتها وانمحاء إرادتها في الإرادة الإلهية . ونمضي حتى نلتقي بالجنيد رأس الطبقة الثانية من المتصوفة ونراه يعبر عن فئاته في الذات الربانية بمثل قوله ^(٢) :

أَفَنَيْتَنِي عن جَمِيعِي فكيف أَرْعَى المحللاً

وهو الذي عمل على ترسيخ نظام الطرق والمريدن في التصوف . وكان يكثر من العبارات والشطحات الموهمة في مواعظه . وكان يعاصره أبو الحسن النوري ، وكان شاعراً ، ويكثر في أشعاره من التعبير عن الحب الإلهي وفكرة الفناء في الذات العلية بمثل قوله ^(٣) :

تَأْمَلْ بعين الحق إن كنت ناظراً إِلَى صِفَةٍ فيها بدائعُ فاطرٍ
وَلَا تُعْطِ حَظَّ النفس منها لما بها وَكُنْ ناظراً بالحق قدرةً قادرٍ

ويلقانا أبو الحسين سَحْنُونُ الخَوَاصِ . وإله شعر كثير في المحبة الربانية وما يصحبها من وجد لا يماثله وجد وشوق لا يماثله شوق ، وكذلك في فكرة الفناء المطلق في الله بحيث لا يصبح في المتصوف أى فضل لإحساس أى شيء من حوله . فقد فنيت فيه جميع الصفات والرغبات ولم تبق إلا رغبة واحدة هي رغبة الانمحاء في الذات الربانية التي تملك عليه كل شيء من أمره . يقول ^(٤) :

(١) طبقات الصوفية للسلي ص ٢٧ .

(٣) السلي ص ١٥٥

(٤) السلي ص ١٨٩

(٢) السلي ص ١٥٦

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمزحُ
فلما دعا قلبي هواك أجابه فلست أراه عن فنائك يبرح
رُميتُ ببينٍ منك إن كنتُ كاذباً وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كل شيء في البلاد بأسرها إذا غبتَ عن عيني بعيني يملُحُ

ومن تلامذة الجنيد المهمين أبو علي الرُّوذبَارِي ، وكان يقول : المريد الذي لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له ، يريد أنه هو الذي تفي إرادته في الإرادة الإلهية ، بحيث لا يحس المريد أو المتصوف شيئاً في الكون سوى الله ، وكان شاعراً ومن شعره في فكرة الفناء وغياب روحه عن حِسِّ أى شيء من أشياء الكون^(١) :

روحي إليك بكلِّها قد أجمعتُ لو أن فيها هُلكها ما أقلعتُ
تبكى عليك بكلِّها عن كلِّها حتى يُقال من البكاء تقطعتُ

والبيتان يحملان فكرة الفناء وفكرة المحبة التي تخلِّص النفس لربها . والفكرتان تتداخلان في التصوف ، فالمحبة التي تنكر الذات تنتهي إلى فكرة الفناء والغياب عن كل حسٍّ وكل خاطرة إلا الذوبان في الذات العلية . ونعرض لاثنتين من كبار المتصوفة بشيء من التفصيل وهما الحلاج والشبلي .

الحلاج^(٢)

أشهر تلاميذ الجنيد هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاج ويقال إن أباه هو الذي كان حلاًجاً يحلج الصوف أو القطن أما جدّه فكان مجوسياً أسلم ودخل في الدين الخفيف ، وقد نشأ في مدينة تُسمّى سمرقند ، فلزم سهلاً التسترى

والنجوم الزاهرة ٢٠٢/٣ وشرحات الذهب
٢٥٣/٢ وكتاب أخبار الحلاج (طبع
باريس) وكتاب في التصوف الإسلامي
لنيكلسون (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر)
وكتابه الطواوين نشر ماسينيون بباريس
وكتاب ماسينيون عنه .

(١) السلمي ص ٣٦٧
(٢) راجع في ترجمة الحلاج وأخباره وأشعاره
السلمي ٣٠٨ وتاريخ مسكويه ١/ ٧٦
والفهرست ص ٢٨٣ والفخرى في الآداب
السلطانية ص ١٩٢ وتاريخ بغداد ٨/ ١١٢
والطبري ١٠/ ١٤٧ وابن الأثير وتكملة
تاريخ الطبري ص ٢٣ وابن خلكان

الصوفي ، الذى أضاف إلى التوبة عند المتصوفة عنصر الندم ، والذى أخذ عن الشيعة فكرة عمود النور محل نفوس المؤمنين ، وكأن الله يتجلى فيهم منذ البدء .

وقدم بغداد بعد أن أصبح مزوداً بكثير من المعارف وصحب الجنيّد وأخذ عنه شطحاته وعباراته الطنانة الموهمة ، وبالغ فيها وأسرف إسرافاً شديداً ، ووقع في نفسه أنه أعلى من الجنيّد في عالم التصوف وأرفع ، وأنه رقى مرتبة الكمال التى طالما حلم الجنيّد ببلوغها دون أن يدركها . وفارقة متجهماً إلى أداء فريضة الحج وأقام بمكة سنة ، ثم أخذ يطوف في البلدان وتعرّف في طوافه على أبي بكر الرازي أشهر أطباء العصر وتخرج عليه في الفلسفة اليونانية وعلم الكيمياء ، وتعمق في طوافه ورحلاته حتى بلغ الهند ، وتعرف فيها على ما يشيع بها من السحر والشعوذة واليرنجيات . وفي عودته التحق بالقرامطة وتمثّل عنهم عقيدتهم . وأدى فريضة الحج للمرة الثانية ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٩٥ للهجرة وأخذ ينشر بها آراءه في أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يصنّى نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التى يبتغيها إذ يتمثّل في نفسه حقيقة الصورة الإلهية التى سَوّأها الله فيه ، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء . وجادله أستاذه الجنيّد في هذه الفكرة طويلاً ، غير أن كثيرين من المريدين اجتمعوا حوله ، وأخذ يُكثّر من الشطحات ومن الكلام الموهّم للكفر والخروج حتى على متصوفة عصره من مثل «أنا الله» ، ويقال إن الشبلى قال له : بل أنت بالله ، ومثل «أنا الحق» ، ويقال إن الجنيّد قال له : بل أنت بالحق . ويبدو أنه كان يضيف إلى ذلك بعض الشعبدات والمخلوطات الكيمائية التى تعلمها على الرازي واليرنجيات التى تعلمها في الهند ، وأحاطت به ريب المعتزلة واتهموه بالزندقة ، وأثار الفقهاء عليه رجال الدولة ، فسيق إلى السجن لسنة ٣٠١ وظل فيه ثمانى سنوات ، كان يُسمّح له فيها بأن يزوره مريدوه وأن يتراسل مع من يشاء . وحاولت «شغب» أم الخليفة المقتدر وحاجبه نصر أن يخلصاه من السجن ، فدعا الوزير حينئذ حامد بن العباس قضاة المذاهب الأربعة لمحاكمته ، وانعقدت جلسات المحاكمة ، وتقدم الشهود ، وشهدوا بأنه ادعى الربوبية والنبوة ، ولكنه أنكر ذلك ، وثبت عليه أنه يقول بأن الحج ليس من الفرائض الواجب أدائها شرعاً . ولعل هذه التهمة هى التى دفعت الفقهاء إلى الفتوى بِصَلْبِهِ ، فقد أنكر ركناً أساسياً من أركان الدين . ويبدو أنه لم يكن يُحِلُّ المتصوف الذى بلغ مثل منزلته بالمجاهدات

الشاقة . من فريضة الحج وحدها ، بل كان يحلُّه من جميع الفرائض رافعاً عنه التكليف إذ أصبح مساوياً للحق . ومن الممكن أن يكون دعا سراً للقرامطة وأن تكون هذه الدعوة من الأسباب في سجنه وصلبه . وقد نُفِّذَ الحكم عليه في الثاني عشر من ذى القعدة لسنة ٣٠٩ فضُرب ألف سوط ثم قُطعت يداه ورجلاه ، وحُزَّ رأسه ونُصِبَ يومين على الجسر ، ثم حُمِلَ إلى خراسان فيطيف به هناك ، أما جنته فأُحرقت وأُلقيَ برمادها في دجلة . وهرب مريدوه إلى خراسان وأخذوا يُحْيُون بها ذكراه ، وظلت خالدة على مَرِّ الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترك .

وكان أهم ما جعل بعض العلماء والناس في عصره حتى اليوم يذهبون إلى زندقته نظريته في الخالق وخَلْقِهِ فقد كان يظهر أنه يؤمن في الخالق بتزييه كما يبدو ذلك في كلمات كثيرة له مثل : «إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الأبصار ولا تمسكه الأماكن ولا تحويه الجهات ولا يتصور في الأوهام ولا يتخايل للفكر ولا يدخل تحت كيف ولا يُنْصَغ بالشرح والوصف » وهذا تنزيه مطلق عن التشبيه بالمخلوقات ولكنه كان يعود فيقول إن الإنسان إذا أقبل على تحمل المشاق والآلام انطبعت في نفسه الصورة الإلهية ، فالله يُرَى فيه ، مع إيمانه بأنه غير مخلوقاته وأنه فوق كل شيء ، وهذا هو معنى قوله : أنا الله وأنا الحق ، فهو صورة له ، وليس هو بعينه ، وكأنما الأثر القديم : «إن الله خلق آدم على صورته» ، هو الذي جعله ينطق بالكلمتين السابقتين ، وهو لا يريد ظاهرهما ، إنما يريد أن الله يتجلى فيه ، كما يتجلى في خلقه ومن هنا أثر عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه . وهو لم يستمد النظرية من الأثر السابق وحده فقد استمدّها أيضاً من نظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح ، إذ آمن باتحاد الناسوت وهو الروح الإنساني في اللاهوت وهو الروح الإلهي ، وبذلك يظهر الله بصورته في الإنسان ، ونراه يصرح بذلك إذ يقول في الطّوَاسِين :

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ سِرّاً سَنَّا لَاهُوتَهُ الشَّاقِبِ
ثُمَّ بَدَأَ لَخْلُقَهُ ظَاهِراً فِي صُورَةِ الْآكْلِ وَالشَّارِبِ
حَتَّى لَقَدْ عَايَنَهُ خَلْقُهُ كَلْحَظَّةٍ الْحَاجِبِ بِالْحَاجِبِ

وهو يشير في البيت الأول إلى آدم وفي البيتين الثاني والثالث إلى ذريته ، فهم جميعاً ناسوت يُظْهَر أسرار اللاهوت ، ويصدق ذلك على الحلاج كما صدق عند المسيحين على عيسى ، ومن هنا قال عن نفسه كما قدمنا : أنا الحق أو أنا الله ، ومثّل ذلك في عبارات طنانة ، وهو فيها تارة يشعر بالانفصال بين الطبيعتين وأنها لا تمتزجان في مثل قوله : « اللهم إنك المتجلى من كل جهة المتخلى من كل جهة ، بحق قيامك بحق وبحق قيامي بحقك ، وقيامك بحق يخالف قيامي بحقك ، فإن قيامي بحقك ناسوتية وقيامك بحق لاهوتية » ، وتارة ثانية يشعر بأنهما ممتزجان امتزاجاً تاماً ، يقول مخاطباً ربه :

مُزِجَتْ رُوحُكَ فِي رُوحِي كَمَا تُمَزَّجَ الْخَمْرُ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ
فَإِذَا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسَّنِي فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلِّ حَالٍ
وَكأنه يشاهد الله في ذاته ، أو كأنما حلّ اللاهوت فيه بالضبط كما آمن المسيحيون في المسيح ، فالروح الإلهية أو اللاهوت يحلّ فيه حتى لتشتع أنواره في كل كيانه ، ويصور ذلك بمثل قوله :

حَوَيْتِ بِكُلِّي كُلَّ كُلِّكَ يَا قُدْسِي نَكَاشَفْنِي حَتَّى كَأَنَّكَ فِي نَفْسِي
وقوله :

أَنْتَ بَيْنَ الشُّغَافِ وَالْقَلْبِ تَجْرِي مِثْلَ جَرِي الدَّمْعِ مِنْ أَجْفَانِي
وَتَحُلُّ الضَّمِيرَ جَوْفَ فَوَادِي كَحُلُولِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَبْدَانِ
وهكذا تجرى على لسانه كلمة الحلول ، وكل ذلك يؤكد أنه تثقف بالثقافة المسيحية وعرف ما قيل فيها من طبيعة المسيح معرفة بيّنة واستقر في نفسه أن كل ما قيل عن اللاهوت والناسوت فيه يصدق على كل متصوف جاهد جهاداً عنيفاً في الاتصال بربه ومحبه محبة تملك عليه الشغاف من قلبه ، حتى ليحس في قوة بالاتحاد معه ، مما جعله يقول :

أَنَا مَنْ أَهْوَى ، وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

وقد رفع الرسول صلى الله عليه وسلم مراتبَ فوق جميع الخلق ، ويبدو أنه أول من أعدَّ لفكرة الحقيقة الحمديدية ، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يُعدّ مبدأ العالم ، إذ هو النور الذي تَفجَّرت من ينابيعه جميع أنوار النبوات ، بل هو مبدأ الوجود كله ونسبُهُ الفياض السابق لكل موجود ، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود .

وتكثر عنده كلمات الوجد ولهيبة المشتعل في القلب والسكر ونشوته التي تفقده وعَيبه والفناء الذي تفتى فيه جميع حواسه ، حتى ليرى كأن وجوده هو نفس وجود الذات العلية ، وفي ذلك يقول :

إذا بلغ الصَّبُّ الكمالَ من الهوى وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
فشاهدَ حقاً حين يشهده الهوى بأن صلاة العارفين من الكفر

فكمال الحب الصوفي عنده أن يجاهد المتصوف ويعاني ويلقى الأمرين في حبه بمداومة ذكر محبوبه وتسبيحه حتى ليغيب عند ذكره حين تأخذه نشوته به ، فيغيب عن ربه ويغيب عن الوجود كله . وحينئذ يصل المتصوف إلى حال تجعله يؤمن بأن صلاة أمثاله من الكفر ، وهو يريد أنه حين يصل إلى هذه الحال يرتفع عنه التكليف . وبذلك يتضح أنه هو الذي أعدَّ للانفصام بين أهل الحقيقة من المتصوفة وأهل الشريعة من الفقهاء . وظل هذا الانفصام قائماً بعده عند الغلاة من المتصوفة حتى رتق فتقه القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري . ويُبدي ويُعيد في تصوير مجاهداته وما يحتمل فيها من أهوال طوال وآلام ثقال ، كقوله في بعض مناجاته للذات العلية : « أنت تعلم ولا تُعلم ، وترى ولا تُرى . . . وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك وعواطر قربك أستحقر الراسيات ، وأستخفّ الأرضين والسماوات ، وبحقك لو بيعت مني الجنة بلمحة من وقتي أو بطرفة من أحرّ أنفاسي لما اشتريتها ، ولو عرضت على النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهنوتها في مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عني » . ومن قوله في وصف مجاهداته :

لقد ركبْتُ على التغرير واعجبا ممن يريد النجاة في المسلك الخطير
كأنني بين أمواجٍ تغلبنى مقلَّبٌ بين إصعادٍ ومنحدرٍ

الْحَزَنُ فِي مَهْجَتِي وَالنَّارُ فِي كَيْدِي وَالذَّمْعُ يَشْهَدُ لِي فَاْمْتَشْهَدُوا بَصَرِي

ولعلنا لا نُسْبَعُ إِذَا قُلْنَا إِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِي فِكْرَةَ أَنَّ الْأَدْبَانَ جَمِيعًا تَوْدِي إِلَى اللَّهِ ، وَفَقَط تَخْتَلِفُ شَعَائِرُهَا ، وَلَكِنَّهَا تَتَّحِدُ فِي الْغَايَةِ ، وَبِذَلِكَ تَخْطِئِي حُدُودَ الْإِسْلَامِ إِلَى حُدُودِ الدِّيَانَاتِ جَمِيعًا ، مِمَّا جَعَلَهُ يَقُولُ :

أَلَا أَبْلُغُ أَحَبَّائِي بَأْنِي رَكِبْتُ الْبَحْرَ وَانْكَسَرَ السَّفِينَةُ

فَفِي دِينِ الصَّلِيبِ يَكُونُ مَوْتِي وَلَا الْبَطْحَا أُرِيدُ وَلَا الْمَدِينَةَ

وهو لا يريد أن يقول إنه انسلخ عن الإسلام وأصبح لا يريد الموت في بطحاء مكة ولا في المدينة المقدسة ، إنما يريد أن يقول إنه يرى الله في المسجد وفي الدَّيْرِ وفي كل معبد من معابد الديانات ، فالديانات جميعاً عنده سواء . وفي الحق أن أشعاره وأقواله تحمل كثيراً من الإيهام والغموض حتى لتصبح أحياناً — كما في كتابه الطواسين — ألبازاً خالصة .

الشبلي^(١)

كنيته أبو بكر ، واسمه دُلْفُ بْنُ جَحْدَرٍ ، وقيل : جعفر بن يونس ، وقيل جعفر بن دلف ، وقيل غير ذلك ، وأصل أهله من أشروسنة جنوبي طشقند الحالية ، فهو تركي العرق . رقى أبوه في قصر الخلافة حتى أصبح حاجب الحجاب ، وكان خاله يلي إمرة الإسكندرية بمصر ، ويبدو أنه استعان به في عمله لعدة سنوات إذ يزعم بعض من تحدثوا عنه أنه كان مصرياً وأنه ورد بغداد من مصر . وقد تركت مصر والإسكندرية فيه بعض طوابعهما ، إذ نراه يعتنق مذهب

وحلية الأولياء لأبي نعيم ٣٦٧ / ١٠ وتبليس
إيليس لابن الجوزي ٣٤٧ وشذرات الذهب
٣٣٨ / ٢ وروضات الجنات ص ١٦٠ وديوانه
(طبع المجمع العلمي العراقي) بتحقيق كامل
مصطفى الشبلي وما ذكر فيه وفي تقديمه من
مراجع

(١) انظر في الشبلي وحياته وأشعاره السلي
ص ٣٤٠ وتاريخ بغداد ٣٨٩ / ١٤ وابن
خلكان ونشوار المحاضرة للتنوخي ١٧٢ والديباج
المذهب لابن فرحون ص ١١٦ وصفة الصفوة
١٦١ / ٢ والأنساب للسمعاني الورقة ٣٢٩
وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ١٢٧ / ٢

المالكية الذي كان يعتنقه أهل الإسكندرية ومحافظة البحيرة القريبة منها . وعاد إلى العراق ، فقرّبه منه الموفق - إلى عهد المعتمد وصاحب الأمر من دونه في خلافته - واتخذَه حاجبًا له ، ثم ولّاه دُنْبَاوَنَدَ بالقرب من الرّىّ ويَحْدُثُ منه ما يجعل أمير الرى التابع له يصرفه عن عمله . وكان ذلك نعمة كبرى عليه ، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خَيْرِ النَّسَاجِ تلميذ السّرّي السقّطى ، وأبى حمزة البغدادي وعلى يديه تاب وأتاب . ولم يلبث أن لحق بالجنيد أستاذ الصوفية ببغداد حينئذ ، ويقال إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم وفرّق أمواله في الفقراء ، ورجع إلى الجنيد فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة ، ويدكرون أنه قال له في أول سلوكه الطريق : « لقد حدثني أن عندك جوهرة العلم الربّاني ، فلما أن تمنحنيها ، وإما أن تبيعنيها ؟ فقال له الجنيد : لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها ، ألنّ بنفسك غير هَيَّابٍ في عُبَابِ هذا المحيط مثلما فعلتُ ، فعلّك - إن صبرت - أن تظفر بها » . ومضى الشبلي يجاهد ويضنّ في جهاده ويشتقى طوال حياة شيخه الجنيد حتى إذا توفى سنة ٢٩٧ صحب الحلاج ، وكان يزوره في سجنه ، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذي صورناه آنفًا وما اتصل به من أفكار اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية ، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشرعية متابعًا أستاذه الجنيد في اتباع الكتاب والسنة ، بل في التفقه ورواية الحديث النبوي ، وبذلك لم يترك الحلاج فيه أى أثر . ويزعم بعض من تحدّثوا عنه من القدماء أنه كان شيعيًا ، وقد عرفنا آنفًا أنه كان مالكي المذهب ، وهو المالكى يُسَلِّكُ مع أهل السنة . ويقال إنه لما قُتِلَ الحلاج خشى على نفسه لتردده عليه ، فتظاهر بالخلب لئلا يُمَسَّحَنَ ، وأدخل المارستان ، ثم خرج منه ، وتفرّغ للوعظ ، فكان ينقذ له مجلس أيام الجمع ، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم ، وكان يحضره على بن عيسى وزير المقتدر ، وذاع صيته ، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فجّ . وما زال يحتلّ ببغداد هذه المكانة العلية حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عامًا .

وكان الشبلى في تصوفه دائماً سُنِّيًّا ، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة ، ويقال إنه سُئِلَ مَنْ أَسْعَدُ أَصْحَابِكَ بِصَحْبِكَ ؟ فقال : أَعْظَمُهُمْ لِحُرْمَاتِ اللَّهِ وَأَهْجَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَقْوَمُهُمْ بِحَقِّ اللَّهِ وَأَسْرَعُهُمْ مَبَادِرَةً فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ وَأَعْرِفُهُمْ بِقَضَائِهِ وَأَكْثَرُهُمْ تَعْظِيمًا لِمَا عَظَّمَهُ مِنْ حُرْمَةِ عِبَادِهِ . وكان يقول إن الله موجود عند الناظرين في صُنْعِهِ مَفْقُودٌ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِي ذَاتِهِ ، وسأله سائل : هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال : كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ ولم يلبث أن قال :

فَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَاقَ سَلْوَةً فَلِإِنِّي مِنْ لَيْلٍ لَهَا غَيْرُ ذَائِقِ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلْتُهُ مِنْ نَوَالِهَا أَمَانٌ لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةَ بَارِقِ
فهو لم يكن يقول حتى بالشهود فضلا عن الحلول والاتحاد . وكان ينكر كل ما قيل ، أو بعبارة أدق كل ما قاله الحلاج عن تجلى الله في عبده ومخلوقاته ، فالله واجب الوجود وخالق العالم شئ والعالم بكل ما فيه من مخلوقات شئ آخر ، وهو يخاطب ولكن لا يرى ولا يشاهد ، يقول :

وَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ وَلاَحِظْتُ مَعْلُومًا بِغَيْرِ عِيَانِ
وكان يقول : « تعزّزت به وما افترقنا وكيف نفترق ولم يتجسّر علينا حال الجمع أبداً » . وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات ، ويُبْدِي وَيُعِيدُ في الحديث عن حبه ، ومن قوله : « أَدْخَلْتُ الْمَارِسْتَانَ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً ، وَأَسْقَيْتُ الدَّوَاءَ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً ، فَلَمْ أَزِدْهُ إِلَّا جُنُونًا » ، وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جَرَى حَبْكُ فِي قَلْبِي كَجَرَى الْمَاءِ فِي الْعُودِ

وقوله :

هَذِهِ دَارُهُمْ وَأَنْتَ مُحِبٌّ مَا بَقَاءُ الدَّمْعِ فِي الْآمَاقِ

ويطيل الحديث عن عذابه في حبه وما يتحمل فيه من أهوال وما يسكب من دموع غزار ، حتى في العيد ، فالناس فيه يفرحون ويُعِيدُونَ الراح والريحان وآلات الطرب ، أما هو فيُفَضِّلُ إلى حزن شديد ونوح وتعديد ، حتى لكانما يحمل تحت

ثيابه قبراً ، فهو دائم البكاء دائم النواح ، يقول :

قُبُورُ الْوَرَى تَحْتَ التُّرَابِ وَلِلْهَوَى رِجَالٌ لَهُمْ تَحْتَ الثِّيَابِ قُبُورٌ
وَعِنْدِي دُمُوعٌ لَوْ بَكَيْتُ بِبَعْضِهَا لَفَاضَتْ بِجُورٍ بَعْدَهُنَّ بِحُورٌ

وكان يؤمن بالفناء في الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد ، ولكن لم يكن يَفْئِسَ فيه عن نفسه الواعية ، فتصوفه دائماً تصوف صَحَّو لا تصوف غَيْبٍ ، وإن بدا في كلامه أحياناً أن فناءه إنما يكون في حال غيبة من مثل قوله وقد سُئِلَ : متى يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب : إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد وذهبت الحواس واضمحَلَّ الإحساس ، ودُكِرَ عنه أنه كان يقول : « هذا مجنون بني عامر كان إذا سُئِلَ عن ليلي يقول : أنا ليلي ، فكان يغيب بليلى عن ليلي حتى يَبْقَى بمشهد ليلي ويغيبه عن كل معنى سوى ليلي ، ويشهد الأشياء كلها بليلى » . ولكن ينبغي ألا نَظُنَّ من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود مثل الحلاج ، إنما يريد الإحساس بالفناء في الذات العلية ، ومن طريف ماله من ذلك قوله :

تَسْرَمَدَ وَقِي فَيْكَ فَهُوَ مُسْرَمَدٌ وَأَفْنَيْتَنِي عَنِي فَعُدْتُ مُحَدِّدًا
وَكُلِّي بِكُلِّ الْكَلِّ وَضَلُّ مُحَقَّقٌ حَقَائِقُ حَقٌّ فِي دَوَامٍ تَخْلُدًا
وقوله :

تَغْنَى الْعُودُ فَاشْتَقْنَا إِلَى الْأَحْبَابِ إِذْ غَنَّى
وَكُنَّا حَيْثَا كَانُوا وَكَانُوا حَيْثَا كُنَّا

وكان ينكر كل ما تورط فيه الحلاج من شعوزات ونيرنجيات مما رواه عنه بعض مريديه ، وتردد على لسانه كثيراً كلمة السكر ، وسأله سائل : هل شاهد الله أحدٌ بحقيقته ؟ فقال : الحقيقة بعيدة ، ولكن ظنون وأمانى وحُسْبَان .

شعراء الطرد والصيد

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الخلفاء والوزراء وعِلية القوم شُغِفُوا بالصيد والطرد حينذاك وأن الشعراء في مقدمتهم أبو نواس نظموا طرْدَ بَيَّاتٍ كثيرة، اختاروا لها وزن الرجز، ولأبي نواس نحو خمسين طرْدَ بَيَّةً أحسن فيها غاية الإحسان. واستمر الخلفاء وأبناءؤهم وكثير من الناس في هذا العصر يُولَّعُونَ بالصيد، ومن كان يولع به من الخلفاء ولَعْنًا شديدًا المتوكل، إذ كان يُولَّعُ بالفهود والصيد بها كما كان يولع بالشباك. ولعل خليفة في العصر لم يُشَغَفْ بالصيد كما شُغِفَ المعتضد ومرّ بنا في الفصل الثاني أنه كان يخرج لصيد الأسود، ويقال إنه كان يتقدّم لها وحده، وفي ذلك يقول له بعض معاصريه^(١):

يا صائد الأسد إن صَيْدَكها لجامعُ خَلَّتَيْنِ من رَشَدٍ
فلَذَّةٌ تُجْتَنَى ومنفعةٌ للسالكين السَّبِيلَ والقَعَدِ^(٢)

ويذكر الصابي أنه كان يُسْتَفَى يومياً سبعين ديناراً لأصحاب الصيد من البازياريين والفهّادين والكَلَّاءِ بين^(٣). وورث ابنه المكتفي عنه هذه الهواية، فكان يولع بالفهود والعقبان والصيد بهما. وكان المعتز مثلهما يخرج للصيد في مواكب حافلة. وانتشر ذلك بين ذوى الوجاهة انتشاراً واسعاً، مما أهّل لازدهار شعر الطرد في العصر، حتى كاد لا يكون هناك شاعر نابه لا ينظم فيه طرْدَ بَيَّةٍ بل طرديات، وقد مضوا ينظمونها في بحور وأوزان مختلفة غير مكثفين بالرجز، إذا نحن استثنينا ابن المعتز، وكأنه رأى أن يظل متمسكاً بوزنها القديم، أما معاصروه فأروا الاتساع بها، بحيث تُنْظَمُ في أي وزن حسب مشيئاتهم الفنية، ولم يتركوا ضارباً من ضواري الصيد إلا وصفوه ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه، نعتوا الكلاب

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٧٣. (٢) كتاب الوزراء ص ١١ وما بعدها.

(٢) القعد: جمع قاعد.

والفهود والبزاة والشواهين والصقور والعقبان ، ونعتوا الصيد من حُمر الوحش وأتته
 وثيرانه وبقرة وظبائه ونعامه وكذلك من الأراب والتعالب والذئاب والآساد والطير
 والإوز ، وألوا بآلاته من النَّبْل والسهم والنشَّاب والفيخاخ والشباك والحبال المساة
 بالأوهاق التي تُسَجَّلُ في أطرافها أنشودة وتُرْمَى على الحيوان فتمسك بعنقه ،
 والجحلاقي وهو بندق مدور من طين يُرمى به . وكان لهذا النشاط الواسع في الصيد وما
 يتصل به من الشعر أثر في أن أخذت تُولَّف كتب مختلفة في البَيِّزرة وفي المصايد
 والمطاردة ، تفصّل القول في الصيد وآلاته وضواريه وجوارحه . وقد نُظمت حينئذ
 طرديات كثيرة ، لا نستطيع أن نستقصيها ولا أن نستقصي شعراءها أكثرتهم
 المغرطة ، ونكتفي بالوقوف عند أعلامهم ، وأول من نقف عنده على بن الجهم ،
 وكان قد خرج يوماً مع طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان إلى الصيد واتفق
 لهما في مَرَجٍ للزعفران كثير من الطير والوحش . فاصطادا منهما كثيراً بالبزاة
 والصقور والشواهين والكلاب ، وفي ذلك يقول ^(١) :

وَطَيْئَنَا رِيَّاضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ عَلَيْنَا الْبُزَاةَ الْبَيْضُ حُمَرَ الدَّرَاجِ ^(٢)
 وَلَمْ نَحْمِهَا الْأَذْغَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا أَبَحْنَا حِمَاهَا بِالْكَلابِ النَّوَابِجِ ^(٣)
 بِمُسْتَرَوِحَاتٍ سَابِحَاتٍ بِطُونُهَا عَلَى الْأَرْضِ أَمْثَالُ السَّهَامِ الزَّوَالِجِ ^(٤)
 وَمُسْتَشْرِفَاتٍ بِالْهُوَادَى كَأَنَّهَا وَمَا عَقَفَتْ مِنْهَا رُمُوسُ الصَّوَالِجِ ^(٥)
 وَمِنْ دَالَعَاتٍ أَلْسُنًا فَكَّأَنَّهَا لِحَى مِنْ رِجَالٍ خَاضِعِينَ كَوَاسِجِ ^(٦)
 فَلَيْسَ بِهَا الْغِيْطَانُ فَلَيْسَ كَأَنَّهَا أَنَامِلُ إِحْدَى الْغَانِيَّاتِ الْحَوَالِجِ ^(٧)
 قَرَنَّا بُزَاةً بِالصَّقُورِ وَحَوِّمَتْ شَوَاهِيْنُنَا مِنْ بَعْدِ صَيْدِ الزَّمَامِجِ ^(٨)
 وهو يصور الصقور والكلاب تصويرات بديعة . فننقل الصقر كأنه صوبُ الحان ،

الصوالج : جمع صولجان .

(٦) دالعات : مخرجات . الكواسج : جمع

كوسج وهو من لحيته على ذقنه دون عارضيه .

(٧) فليتنا : فحصنا . الحوالج : اللاتي

يخلصن البذور من القلعن .

(٨) الزمامج : جمع نزع : طير جارح

أصغر من العقاب

(١) ديوان علي بن الجهم ص ١٢٠ .

(٢) الدراج : جمع دراج وهو طير ملون

الريش .

(٣) النوايج : النوايح .

(٤) مستروحات : تشم آثار الصيد .

سباحات : مسرعات . الزوالج : التي تنزل بسرعة .

(٥) الهوادي : الأعناق . عقفت : تعوجت .

والكلاب حين تَدْلَعُ ألسنتها لاهثات كأنما ألسنتها لِحْيَى مرسلة على الذقون ، وقد فحصت المرج البزاة والكلاب فحصاً دقيقاً حتى لكانها أنامل دقيقة اسيدة تفل القطن وتخلص الحب منه ، فلا تبقى حبة مختبئة ، بل كل الحب يُسْتَخْلَصُ ، تستخلصه أنامل مرهفة . ومراً بنا في الفصل الرابع تصوير البحرى لصيد الأسد وكذلك تصويره لصيده الذئب وقد لقيه في فلاة موحشة ، وهما لوحتان رافعتان . ولابن الرومى غير قصيدة في الطَّرْدِ والصيد ، ونكتفي من طردياته بالقطعة التالية التى يصور فيها صَيْدَ صِحابه للطير ، وقد تقلدوا أوعية حمراء من جلد أودعوها كثيراً من البُسْدُق الذى يَرْمَى به ، وأشرعوا أقواسهم مسددين البندق منها للطير الهاجع وقت السحر ، يقول^(١) :

وَجَدْتُ قَيْسَى الْقَوْمِ فِي الطَّيْرِ جِدَّهَا فَظَلْتُ سَجُوداً لِلرُّمَّةِ وَرُكَّعَا
طَرَّاحٍ مِنْ بَيْضٍ وَسُودٍ نَوَاصِعٍ تَخَالُ أَدِيمَ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَبْقَعَا^(٢)
فَكَمْ ظَاعِنٍ مِنْهُمْ مُزْمِعٍ رِحْلَةً قَصَرْنَا نَوَاهِ دُونَ مَا كَانَ أَرْمَعَا^(٣)
وَكَمْ قَادِمٍ مِنْهُمْ مُرْتَادٍ مَنْزِلٍ أَنَاخَ بِهِ مَنَا مُنِيخٌ فَجَعَجَعَا^(٤)
هَنَالِكَ تَغْدُو الطَّيْرُ تَرْتَادُ مَضْرَعَا وَحُسْبَانَهَا الْمَكْنُوبُ تَرْتَادُ مَرْتَعَا
مَبَاحُ لِرَامِيهَا الرَّمَايَا كَأَنَّمَا دَعَاها لَهُ دَاعِي الْمَنَايَا فَاسْمَعَا
لَهَا عَوْلَةٌ أَوَّلَى بِهَا مَا تُصَيِّيه وَأَجْدُرُ بِالْإِعْوَالِ مَنْ كَانَ مَوْجَعَا
وَمَا ذَاكَ إِلَّا زَجْرُهَا لِبِنَاتِهَا مَخَافَةً أَنْ يَذْهَبْنَ فِي الْجَوِّ ضَيَّعَا
وِظْلٌ صِحابِي نَاعِمِينَ بَبُوسِهَا وَظَلْتُ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَّةِ شُرَّعَا^(٥)

ويبش ابن الرومى في وصفه حيوية خافقة ، فالطير ما تنى ساقطة ساجدة راکعة ، منها ما هبط إلى الأرض جُشَّةً هامدة ، ومنها ما هو فى سبيله إلى الهبوط ، وهى مطروحة فى الأرض أبيضها وأسودها ، وكأنما أصبحت الأرض أديمًا مخطَّطًا ،

(١) الديوان ص ٣٠٠ .

(٢) الأبقع : ما به سواد وبياض .

إناخته .

(٣) يريد بالنوى وجهته فى الارتحال .

(٤) شراً : واردة الماء .

مزعم : عازم .

وكم طائر كان يريد الارتحال فحالوا بينه وبين وجهته ، وكم طائر كان يريد المقام سقط دون أمنيته ، وهو يصرخ صراخ البعير عند إناخته ، لقد كان يريد المرتع الخصب فإذا هو يجد المصراع الذي لم يكن له على بال ، وكأنما دعاه ودعا رفيقه من الرمايا داعي الموت فأسمع وأصممتي ، والطير تُعْوِل غير متنبهة للرعى والرماة ، خيفة على بناتها من أن تفضل الطريق في الجو ، على حين تترامى على حياض الموت ، يؤس ما بعده يؤس والصائدون ناعمون نعيمًا ما بعده نعيم . وقد عرضنا في غير هذا الموضع بعض طرديات لابن المعتز ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أكبر شاعر نظم طرديات في العصر . ويذكر مترجموه أنه صنّف كتابًا في جوارح الصيد وضواريه ، ولا يكاد ضار أو جارح يُفُتِل منه في شعره أو قل في طردياته ، فمنها ما يصف فيه كلاب الصيد وفهوده ومنها ما يصف فيه بُزّاته وصقوره ، ومنها ما يصف شباكه وبندقه ، ودائمًا تجرى الكلاب وراء الظباء والأرانب حتى تصيدها وقبلما أفلتت منها ، ومن قوله في كلبة ماهرة في الصيد^(١) :

قد أَغْتَدِي والليلُ كالغُرَابِ دَاجِي القِنَاعِ حَالِكِ الخِضَابِ
بكلبةٍ نَاهَتْ على الكلابِ تفوت سبْقاً لَحْظَةً المرتَابِ
تنساب مثل الأرقمِ المنسابِ كأنما تنظر من شهاب
بمقلةٍ وَقَفٍ على الصوابِ

فهو يخرج بكلبته وقت السحر ، والليل لا يزال في دُجَاه وحلوكته ، تصحبه كلبة تيسّاهة على الكلاب بسرعتها حتى لتسبق لحظة من وقعت في نفسه الريبة ، فهو ينظر خِلْسَةً وفي سرعة يريد أن يتحقق من صحة رَيْبِهِ ، وهي تنساب زاحفة كأنها أفعى ، مسرعة لا تلوى ، ناظرة لا بعين لمسّاحة ، وإنما بشهاب قبس ، مقلة لا تخطئ الصيد ، بل دائماً تصيب وتصيد . ومن قوله في وصف باز من بُزّاته^(٢) :

والمصايد والمطارد الكشاجم ص ٦٧ .

(١) الديوان وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٩ .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص ٢٠٩ .

ذو مقلة تَهْتَكَ أَسْتَارَ الْحُجُبِ كَأَنَّا فِي الرَّأْسِ مَسَارُ ذَهَبٍ
 يعلو الشمالَ كالأمير المنتصبِ أَمَكْنَهُ الْجُودُ فَأَعْطَى وَوَهَبَ
 ذو مِنْسَرٍ مثل السَّنانِ الْمُخْتَضِبِ وَذَنْبٍ كَالذَّيْلِ رَيَّانِ الْقَصَبِ^(١)
 كَانَ فَوْقَ سَاقِهِ إِذَا انْتَصَبَ مِنْ حُلُلِ الْكَتَّانِ رَأْنًا ذَا هُدْبِ^(٢)

وتشبيه مقلة البازي الصفراء بمسار الذهب تشبيه بديع ، ويقول إنه يقف رافع
 الرأس كالأمير يفرق عطاياه ويهب ما يصيد ، ثم يصف منسره بأنه كسنان
 الرمح المخضب بالدماء من كثرة ما يصيد ، ويقول إن ذنبه كالذيل الزاهي بريشه ،
 وكأن فوق ساقه ثوباً أبيض من الكتان تسترسل أهدابه ، وله في باز آخر^(٣) :

فَارْسٌ كَفٌّ مَائِلٌ كَالْإِسْوَارِ ذَوْجُوجُورٍ مِثْلَ الرِّخَامِ الْمَرْمَارِ^(٤)
 أَوْ مَصْحَفٍ مُنَمَّمٍ ذِي أَشْطَارٍ وَمَقْلَةٍ صَفْرَاءٍ مِثْلَ الدِّينَارِ
 تَرْفَعُ جَفْنًا مِثْلَ حَرْفِ الزُّنَّارِ وَمَخْلَبٍ كَمِثْلِ عَطْفِ الْمَسَارِ
 وهو فارس كف لأنه يُحْمَلُ عَلَى الْكَفِّ عَادَةً . ويقول إن صدره مثل
 الرخام الناعم أو مثل المصحف المزخرف بالسطور ، أما مقلته فصفراء مثل الدينار ،
 وأما جفنه فكحرف الزنار الذي يضعه النصارى في أوساطهم تمييزاً لهم ، وأما
 الخلب فكعطفة المسار . وله يصف فهدة^(٥) :

وَلَا صَيْدَ إِلَّا بَوْتَابَةً تَطِيرُ عَلَى أَرْبَعٍ كَالْعَذَبِ^(٦)
 فَإِنْ أَطْلِقَتْ مِنْ قِلَادَاتِهَا وَطَارَ الْغَبَارُ وَجَدَّ الطَّلَبُ
 فزوبعةٌ مِنْ بَنَاتِ الرِّيحِ تُرِيكَ عَلَى الْأَرْضِ شَيْئًا عَجَبَ
 تَضُمُّ الطَّرِيدَ إِلَى نَحْرِهَا كَضَمِّ الْمَحَبَّةِ مِنْ لَا يَحِبُّ
 فأرجلها كالخيوط من خفتها ، وحين تطلق من قلائدها ويجد طلبها لطرائدها

(١) المنسر لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها .

الإسوار : الحاذق في الرمي .

(٢) رانا : ثوباً .

(٥) المصايد والمطارد ص ١٩٢ وأشعار

(٣) الديوان وديوان المعاني ٢ / ١٤٠ .

أولاد الخلفاء ص ١٢١ .

(٦) العذب : خيوط ترفع بها الموازين .

(٤) الجوزجوز : الصدر . المرمار : الناعم .

ويعلوها الغبار لسرعة عَدْوِها تصبح كأنها زوبعة أو عاصفة من بنات الرياح ،
 بما يملؤك عجباً ، وإذا هي قد صادت الطريد وضمته إلى نَحْرِها وصلبرها لا ضمَّ
 حنان ولكن ضمَّ عَدْوَان ، كضم المحبة من لا يحبها . وهو تصوير رائع . وللصنوبري
 طرديات مختلفة ، منها قوله في باز^(١) :

ذو مَنَسِرٍ أَقْنَى وَرُشْعٍ كَزَّ وَمُخَلَّبٍ لَمْ يَغْدُ إِشْفَاً^(٢) الْخَرْزُ
 مُسْرَبِلٌ مِثْلَ حَبِيبِ الْقَزِّ أَوْ مِثْلَ جَزَعِ الْيَمَنِ الْأَرْزَى^(٣)
 لَمَّا لَزَزْنَا الطَّيْرَ بَعْدَ اللَّزِّ بِأَسْفَلِ الْقَاعِ وَأَعْلَى النَّشْرِ^(٤)
 آبَ لَنَا بِالْقَبِيجِ وَالْإَوْزِ مِنْ جَبَلٍ صَلَدٍ وَمَرَجٍ نَزَّ^(٥)

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التي يَنْقَضُ بها على الطير انقضاضاً فلا
 تستطيع منه خلاصاً ، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنها الجزع أو
 الحرز الباني الذي تغنى به امرؤ القيس ، والطير مبثوثة في القيعان وعلى المرتفعات
 وقد آب منها بكثير من الحجل والإوز . ومن قوله في الطَّرْدِ ووصف كلابه وما
 صادت من الوحش^(٦) :

يَا رَوْضَةً مِنْ حُلَلٍ مَا خَاطَهَا خِيَّاطُ
 الْوَحْشِ فِي أَرْجَائِهَا قِبَانِلُ أَخْلَاطُ
 غَادَيْتُهَا وَلَمْ يُقِمَّ أَعْلَامُهَا الْغَطَاطُ^(٧)
 بِأَكْلِبٍ لَوْ لَمْ تَطِرْ أَطَارَهَا النَّشَاطُ
 فَجِئْنَا وَالطَّلُّ عَلَى آذَانِهَا أَقْرَاطُ
 انبَسَطَتْ كَالشَّهْبِ لَا يُعْجِزُهَا انْبِسَاطُ

(١) ديوان الصنوبري ص ١٣٣ .

(٤) النشز : المرتفعات .

(٥) القبيج : الحجل . نز : به بعض

المياه .

(٦) الديوان ص ٢٨٧ .

(٧) الغطاط : القطا .

(٢) إشفا : مخز .

(٣) حبيك : محبوبك . القز : الحرير .

والجزع الباني : خرز . أرزى : أبيض

كالأرز .

وظفقتُ والوحشُ في مجالها بساطُ
صرعى تُشقُّ قُمْصُها عنها ولا تُخاطُ

وهو يبدأ بالحديث عن الروضة مكان الصيد وما انتشر عليها من حُلل الأزهار والأنوار ، ويذكر كثرة الوحش بها وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القَطَا وغيره من الطير مُرسلا عليها كلابه المصرة التي تكاد تطير طيرانًا ، غير آبهة ببرودة الطَّفْس وما قرط به آذانها من الندى ، فقد زحفت وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع كثيرًا من الوحش وتشق عنه جلده وأديمه وتمزقه وتمزقه لا يمكن رتقه . وكما يعرض لصيد البرِّ يعرض لصيد البحر بصنانيره الشبيهة بالأظفار وبالشبكة وعيونها الكثيرة ، وفي ذلك يقول (١) :

أَفْضَلُ ما أَعْدَدْتُهُ مِنَ الْعُدَّةِ وما حَوَى صَحْبِي بِهِ غِنَى الْأَبْدِ
بَنَاتُ قَيْنٍ حَازَ فِي الْحَذَقِ الْأَمْدَ على مَقَادِيرِ مَخَالِبِ الصُّرْدِ (٢)
لَهَا رَعُوسٌ فِي أَعَالِيهَا أَوْدٌ كَمَثَلِ أَنْيَابِ الْأَفَاعِي وَأَحَدٌ (٣)
عُجْنَا بِهَا مِنْ حَيْثُ مَا عَاجَ أَحَدٌ فِي ظِلِّ صَفْصَافٍ عَلَيْنَا قَدْ بَرَدٌ (٤)
شَاطِئُ نَهْرٍ لَا بَيْسَ دِرْعَ زَبَدٌ وَلَمْ تَزَلْ تُرْسَلُ طَوْرًا وَتُمَدُّ
ثُمَّ بَعَثْنَا أَلْفَ عَيْنٍ فِي جَسَدٍ فَجِئْنَا بِمَثَلُهُنَّ فِي الْعَدَدِ
أَلْفٍ مِنَ الْحَيْتَانِ بَيْضٍ كَالْبَرَدِ

وواضح أنه صَوَّرَ الصنانيير والصيد ثم الشبكة وما صورَّ أفاء الله عليهم من الحيتان الكثيرة . ولعل من الخير أن نكتفي بهذا العرض عند أعلام الشعراء ، وأن نتركهم إلى شاعر اشتهر بكثرة طَرَدِ يَّاته في العصر هو أبو العباس الناشي فقد كان . ولعمراً بالطَّرْدِ والصيد ، وله طرديات كثيرة .

(٣) . أود : عوج إذ تشبه حرف الراء .

(٤) عجنا : عرجنا وانعطفنا .

(١) الديوان ص ٤٧٥ .

(٢) القَيْن : الحداد صانمها . الصرد :

طائر ضخم الرأس والمقار وهو من الجوارح .

أبو العباس^(١) الناشئ الأكبر

هو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير ، من أهل الأنبار وفيها ولد ونشأ ، ثم تركها إلى بغداد ، واستقر بها طويلاً ، وفيها تلقن علم الكلام كما تلقن كثيراً من العلوم ، وكان ذكياً ذكاء حاداً ، وصرف ذكائه في مناهضة العباقرة من عالمه والعالم الخارجي ، إذ ألف كتاباً ينقض به منطق أرسطو وكتاباً ثانياً ينقض به آراء الخليل ابن أحمد في العروض ومثل لقواعده بغير أمثله . وحاول أن ينقض علل النحويين . ونظم قصيدة طويلة في فنون العلوم والآداب بلغت أربعة آلاف بيت في روى واحد وقافية واحدة لم تصلنا ، وربما كانت منها الأبيات التي أنشدها الحصري له في موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية . وكان شيعياً ، وربما شيعيته هي التي جعلته يترك بغداد عاصمة الدولة العباسية إلى مصر ويتوفى بها سنة ٢٩٣ للهجرة .

وله كتاب في تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعراً ولا عالماً فقط بل كان أيضاً ناقدًا ، ولعل هذا الكتاب هو الذي جعل أبا حيان التوحيدي يعجب به وينقده للشعر إذ يقول : « ما أصبت أحداً تكلم في نقد الشعر وترصيفه أحسن مما تكلم به الناشئ المتكلم ، وإن كلامه أيزيد على كلام قدامة وغيره ، وله مذهب حلو وشعر بديع واحتفال عجيب » ، وينقل أبو حيان في تضاعيف كتابه بعض ما قرأه له ، فمن ذلك حديثه عن دواعي الشعر وبواعثه ، وهو يجري على هذا النمط : « أول الشعر إنما يكون بكاءً على دَمَن ، أو تأسفًا على زمن ، أو نزوعًا لفراق ، أو تلوعًا لاشتياق ، أو تطلعًا لتلاق ، أو إعدارًا إلى سفينة ، أو تغمدًا لطفوة ، أو تنصلاً من زلَّة ، أو تخضيضًا على أخذ بثأر ، أو تحريضًا على طلب أوتار ، أو تعديداً للمكارم ، أو تعظيمًا لشريف مقام ، أو عتابًا على بطوئية أو متابًا من مقارفة ذنب ، أو تعهدًا لمعاهد أحباب ، أو تحسرًا على مشاهد أطراب ، أو

(١) انظر في الناشئ حياته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٧ وتاريخ بغداد ١٠/ ٩٢ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣/ ١٥٨ وشذرات الذهب ٢/ ٢١٤ والبصائر والذخائر لأبي حيان ٢/ ١١٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٦١٩

ومقالات الإسلاميين ص ١٨٤ ، ٥٠٠ وزهر الآداب ١/ ١٧٧ ، ٣/ ٥٠ ، والمصايد والمطارد لكشاجم (انظر الفهرس) والعمدة لابن رشيقي ١/ ٧ والديارات ص ٢٦ والفهرست ص ٢٥٥ وديوان المعاني ١/ ٢٥٤ و ٢/ ٢٢٨ .

ضرباً لأمثال سائرة ، أو قرعاً لقوارع زاجرة ، أو نظماً لحكم بالغة ، أو تزهيداً في حقير عاجل ، أو ترغيباً في جليل آجل ، أو حفظاً لقديم نسب أو تدويناً لبارع أدب . والقطعة تلم في دقة البواعث النفسية لنظم الشعر ، فهو شاعر بصير بفنه وبصناعته وقد روى له الحصري قطعة في وصفه لشعره يقول فيها :

يتحير الشعراء إن سمعوا به في حُسن صنعه وفي تأليفه
شَجَرٌ بدا للعين حُسنُ نباته ونأى عن الأيدي جناً مقطوفه

ويذكر من ترجموا له أنه كان شاعراً بارعاً غزير الشعر ، وسلكه ابن خلكان في طبقة ابن الرومي والبحري ، ويبدو من بقايا أشعاره أنه نظم في موضوعات شتى ، منها ما يتصل بعلم الكلام وافتخاره بالمتكلمين عامة لما ينيرون من المشكلات الصعبة ، يقول :

مطالع الحق ما من شبهة غسقت إلا ومنهم لديها كوكب يقد^(١)
ومنها ما يتصل بالطبيعة وبالغزل ومجالس الأتس ، وصب أكثر عنايته على وصف الطرد والصيد وجوارحه وضواريه ومصيداته وآلاته . ويكنى لبيان كثرة هذا الجانب عنده واستنفاده لأكثر شعره أن نجد « كشاجم » يجعل أشعاره ركناً أساسياً صنع « كتابه المصايد والمطارد » فقد اعتمد فيه على طرد ياته اعتماداً شديداً ، وأول ما نقف عنده في هذا الكتاب طردية له في صيد أحد الكلاب يستهلها على هذا النمط :

قد أغتدى والفجر في حجابيه لم يحل العقدة من نقابه
بأغضف عيشه من عذابه من صولة بظفرد ونابه^(٢)
يراح أن يدعى ليغتدى به روحة ذى النشوة من شرابه^(٣)
يخط بالبرثن في تراه خط يد الكاتب في كتابه^(٤)

والطريف في هذا الاستهلال أنه جعل الكلب كادحاً لا يقيم أوده إلا بعرق جبينه وصولاته بظفره ونابه ، وأيضاً فإنه جعله يشعر بنشوة ما بعدها نشوة حين

(١) غسقت : دجت وأظلمت . يقد : يشتمل . (٢) يراح : يجد خفة ونشاطا .

(٢) أغضف : سترخي الأذن . (٤) البرثن : الخلب

يئذيه صاحبه للصيد ، وتستحيل الأرض كأنها مَشْتَقٌ أو صحيفة وهو يخطّ فيها بـرأئته ، ويُنْشِجُ كشاجم هذه الطَّرْدِيَّة بطردية أخرى تطَّرد على هذا السياق :

يا ربَّ كلبٍ ربُّه في رزقه يَرى حقوقَ النفسِ دونَ حقِّه
متبعاً بخُلُقِه لِخُلُقِه كأنما يملك عقْدَ رِقِّه
يَصُونُه بِجُلِّهِ ودَقِّهِ كآملٍ من مالِكٍ لِعَتَقِه^(١)
تراه في تَسْرِيعِه ورَبِّقِه كعاشقٍ أضناه طولُ عشقه^(٢)
أصفر يُلْهِى العينَ حسنُ خُلُقِه كذهبٍ أبرزته من حُقِّه
ذو غُرَّةٍ فارقةٍ لفَسْرِقِه وذو حُجُولٍ بَيَّنَتْ عن سَبْقِه^(٣)

وقد جعل الناشئُ ربَّ هذا الكلب وصاحبه يقدِّمه على نفسه في غذائه ، ويأتسى به ، حتى لكأنما يشتق أخلاقه من أخلاق هذا الكلب أو قل السيد المطاع الذى يملك رقه ، وإنه ليرعاه في كل كبيرة وصغيرة . وكأنه عبد يتقرب لمالكه بكل ما يصونه ويحفظه حتى يفك رقبته ويرد عليه حريته . ويعود إلى فكرة عشق الكلب للصيد ، فيجعله حين يكون في ربقة وجله كعاشق طال عليه البسَنُ والهجران ، حتى أصابه ضننى شديد ، ويتحدث عن حسنه وجمال صفرته الأخاذة وغرته في جبهته وحجوله في سيقانه ، وبياضها يلمع في أثناء عدوه كأنه ضوء ساطع . وله في البازي طرديات مختلفة يصور فيها حسنه وما خلع عليه الخالق من ريشه وجماله ، وفيه يقول :

ألْبسه الخالقُ من ديبساجِه ثوباً كفى الصانعَ من نِساجِه
حالٍ من السَّاقِ إلى أوداجِه وشياً يحار الطُّرْفُ في اندراجِه^(٤)
في نَسْتٍ منه وفي انعراجِه وزانَ قَوْدِيَه إلى حِجَاجِه^(٥)
بزينته كفته عَزَّ تاجِه وظُفْرُه يخبر عن علاجِه
لو استضاء المرءُ في إدلاجِه بعينه كفته عن سراجِه
فالخالق جلَّ شأنه كساه ثوباً من الـديباج يملأ النفس إعجاباً بوشيه وخطوطه

(٤) الأوداج : عروق في العنق .

(١) الجل والدق : الكثير والقليل .

(٥) الحجاج : عظم الحاجب .

(٢) الربى : من الربة وهي جبل يشد منه الكلب .

(٣) الحجول : بياض في سيقان الكلب .

ونقوشه من ساقه إلى مفرقه وعلى رأسه ، وكأنما حلاله بتاج الملوك المأثري بحليه وزينته ، ويذكر محالبه الحادة حدة الإبر ، وعينه المضئ ضياء السراج في الليالي الداجية . وينظم في الصقر غير طردية ، وفي إحداها يقول :

سَبَاهَ مَنْ كَانَ بِهِ خَلِيقًا فَرَحًا صَغِيرًا مَا أَقَلَّ مَوْقَا
زَيْنُهُ بِرَأْيِهِ شَفِيقًا كَمَا يَصُونُ الْعَاشِقُ الْمَعْشُوقَا
حَتَّى انْتَهَى وَحَمَلَ الْحَقُوقَا وَنَفَعَ الصَّاحِبَ وَالصَّدِيقَا
وهو يصوّر تدريب صاحبه له ، وكيف أنه ربّاه صغيراً وما زال يرعاه محباً له حب العاشق لمعشوقه ، وما زال يشقّقه ويدربه على الصيد ، حتى مهر فيه ، وحتى أصبح يتجلب من الإوز وغيره ما ينفع به أصدقاء صاحبه وأحبّاءه . ومن قوله في وصف شاهين :

يَظَلُّ مِنْ جَنَاحِهِ الْمَزِينِ فِي قُرْطُكِ مِنْ خَزَرِ الثَّمِينِ^(١)
يَشْبَهُ فِي طَرَاذِهِ الْمَصُونِ بُرْدَ أَنْوَ شِرْوَانٍ أَوْ شِيرِينِ
ذُو مَنَسَرٍ مَحْدِدٍ مَسْنُونٍ وَافٍ كَشَطْرِ الْحَاجِبِ الْمَقْرُونِ
منعطفٍ مثل انعطاف النون

وهو يتحدث عن جمال هذا الشاهين وتلاوين ريشه التي تجعله يلبس قرطعاً أو قباء مفوّساً من الحرير كأنه ثوب أنوشروان أو ثوب شيرين زوج كسرى أبرويز . وإن منسره أو مغلّبه المنحنى كحرف الراء يشبه شطر حاجب مقرون أو كأنه انعطاف حرف النون . وله طردية طريفة في وصف صيد الطير بالجمّلاهي أو البندق ، تحدث فيها عن صيد الكراكي . وهي طير طويل المنقار والرجلين ، مفردة كركي ، ويسمّى الغريق وجمعه غرائق ، ويطرد وصفه عند الناشئ على هذا النمط :

وَمَوْرِدٍ يُجْدِلُ قَلْبَ الْوَامِقِ مَنْظَمٌ بِالْغُرِّ وَالْغَرَانِقِ^(٢)

(١) القرطق : قباء ذو طابقي واحد . الفر : طير الغرائق : الكراكي .

(٢) يجدل : يسر . الوامق : مديم النظر .

وكلُّ طَيْرٍ صَافِرٍ أَوْ نَاعِقٍ مكتهلٍ وبالغٍ ولاحي
مَوْشِيَّةٌ الصُّدُورِ وَالْعَوَاتِقِ بكلِّ وَشْيٍ فَاخِرٍ وَفَائِقِ^(١)
تَخْتَالُ فِي أَجْنَحَةٍ خَوَافِقِ كَأَنَّمَا تَخْتَالُ فِي قَرَاطِقِ
يَرْفُلَانِ فِي قُمْصٍ وَفِي يَلَامِقِ كَأَنَّهُنَّ زَهْرُ الْحَدَائِقِ^(٢)
حُمُرِ الْحِدَاقِ كُحُلِ الْحِمَالِقِ كَأَنَّمَا يَجُلُنَ فِي مَخَانِقِ^(٣)

وهو بصورٍ موروذاً عذباً يسر قلب الناظر إليه رُصِّع بالطير والكرامى من صافرة وناعقة وكبيرة وصغيرة، إذ وُشِّيت في صدورهما وكواهلها بوشى بديع، وقد اكتست أجنحتها بقراطق وأقبية أنيقة، بل إنها لترفل في كُسُوءة ذات تلاوين حتى لكأنها زهر حدائق مختلف الأصباغ والنقوش. وهى هناك بأحداقها الحمر وجفونها المكحولة، تطوق أعناقها القلائد الباهرة. وفي كتاب المصايد والمطارذ بجانب الطرديات السابقة طرديتان في صيد الأسد، ونرى الناشئ يصوره في إحداهما بهذه الصورة الفذة :

رُبَّ ذِي شِبْلَيْنِ قَسُورَةٍ قد أحمُ الحَيْنُ فِي أَجْمَةٍ^(٤)
لَا تَرَى حَيًّا يُطِيفُ بِهِ لَا ، وَلَا يَدْنُو إِلَى حَرَمَةٍ
كَمِجَنِّ الْحَرْبِ هَامَتُهُ وَكَغَوْرِ الْغَارِ رَحْبُ فَمَةٍ^(٥)
وَكَأَنَّ الْبَرْقَ مَا قَدَحَتْ عَيْنُهُ بِاللَّحْظِ مِنْ ضَرَمَةٍ
وَكَأَنَّ الْمَوْتَ مُعْتَرِضٌ بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمُلْتَشِمَةٌ

وهو يقول إن هذا الأسد القسورة هبط به القضاء في عرينه، إذ حان حينه، بعد أن كان الناس لا يلمنون بحرمة مخافة بأسه وسطوته، لما ملأهم به من الرعب والفرع والهللح ، ويقول إن هامتة كانت مثل تُرْس حرب صلابة وقوة ، وكان فمه كالغار

(١) العواتق : الكواهل .

(٢) اليلامق : جمع يلقى وهو نوع من

القلائد .

(٣) الحمالق : جمع حلاق ، وهو باطن

جفن العين . الخائق : القلائد .

(٤) أحم : نزل . الحين : الموت . الأجم :

بيت الأسد

(٥) المجن : الترس .

يسقط فيه كل ما يتقضمه ، أما عينه فمن شدة توقدها كانت كأنها البرق الخاطف ،
وكان الموت كان يحجم على فمه بين لحييه وملثمته .

وللناشي وراء طردياته أشعار كثيرة تدل على أنه حقاً كان صاحب شاعرية
خصبة ، وقد رفدها مبكراً بثقافته الكلامية التي أعدته ليحاور ويداور أرسطو
والخليل بن أحمد وعلماء النحو واللغة ، ولا ريب في أنها وصلته بكل ينابيع الثقافة
في عصره يونانية وغير يونانية ، ويقول من ترجموا له إنه كان يقول في خلاف كل
معنى قالت فيه الشعراء ، غير أنهم لم يوردوا لنا شيئاً من هذا القول ، إنما أوردوا له
هنا وهناك بعض أبيات رائعة الصور من مثل بيتيه اللذين أنشدناهما في الفصل الرابع
وهما في وصف سحاب هاطل .

وفي الحق أنه كان يعرف كيف يولد الصور وكيف يستخرجها من مكانها
وكيف ينظمها شعراً عذباً ، يحفل بكل ما يملأ النفس إعجاباً به على شاكلة
قوله :

متعاشقان مُكَّامانِ هَواهُما قد نام بينهما العتابُ فطابا
يتناقلان اللَّحْظَ من جَفَنِيهِما فكأنما يتدارسان كتابا
وقوله :

يلوح في خدِّه وَرْدٌ على زهرٍ يعود من حسنه غَضًّا إذا قُطِفَا
والزهر في البيت طبعاً هو زهر النرجس الذي تشبه به العيون ، وعبر عن
القبلة بأنها اقتطاف لورد الحدود ، وجعلها تثير فيها من الحمرة ما يعود بها غَضَّةً
إلى أول مُجْتَنَّاها وباكورته . وله :

ليس شيءٌ أحرُّ في مُهْجَةِ العا شق من هذه العيون المراضِ
والحدودِ المضْرَّجاتِ اللسوقي شيب جِرْيَالُها بِحُسْنِ البياضِ
وطروقِ الحبيبِ والليلِ داجٍ حين همَّ السَّمارُ بالإغماضِ

فهذه العيون مع مرضها وفتورها تَدَلُّع في قلب العاشق قطعاً من النار ، وتدلح فيه نفس القطع الحدودُ المشربة بالحمرة ، ويشعله إشعالا ، زيارةُ المحبوبة ليلا ، وقد همَّ السَّمَّارُ بالنوم . والقطعة جيدة ، ويبدو أنه كان قريباً من نفوس الجوارى في بلدته ، فابن المعتز يروى أنه اجتمع مع بعض رفاقه على الشراب في بعض المتنزعات ومعهم قينة محسنة طيبة الصوت ، وما زالت تغنيهم حتى إذا أنشدها مقطوعة له ختمها بقوله :

وقد آذنونا بوقت الرحيل فإن كنت تهويني فارحلي

يقول ابن المعتز : فلما سمعت الجارية هذا البيت وقعت في قلبها النيران ، وكانت تهواه ويهواها ، فقامت وارتحلت معه ، لكلفها به . واجتمع مع رفاق آخرين ، ودعوا مغنية ، فجاءت ومعها رقيقة جميلة ، فلما أخذ الشراب منه ومن صحبه طلب رقعة وكتب فيها ، مرجهاً حديثه إلى تلك الرقيقة :

فديتك لو أنهم أنصفوك لردوا النواظرَ عن ناظرِك
تردين أعيننا عن سواك وهل تنظر العينُ إلا إليك
وهم جعلوك رقيقاً علينا فمن ذا يكون رقيقاً عليك
ألم يقرءوا - ويحهم - ما يروى ن من وحي حُسنك في وجنتيك

ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على روعة الملكة الشعرية عند الناشئ ، وهي ملكة استطاع أن يتخذوها بالثقافات المعاصرة له ، فإذا هي تُصَقِّلُ وإذا هي تزداد خصباً ، وإذا الناشئ لا يزال يُطَرِّف سامعيه بخواطر وأخيلة طريفة رائعة .

شعراء شعبيون

لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العربي دائماً كان موصولاً بالشعب ، اتصل به في العصر الجاهلي ، فقد كان الشاعر وشعره صورةً لقبيلته ، وظلت له هذه الصلة

في العصر الأموي، وإن تحولت أحياناً من الشعور القبلي إلى الشعور الجماعي، أما منذ العصر العباسي الأول فقد أخذ يغلب الشعور بالروح الجماعية ويقلّ الشعور بالروح القبليّة، حتى إذا كان هذا العصر نضب هذا الشعور جداً بينما ظلّ الشعور بالروح الجماعية حياًّ مشتتلاً. وكان من أهم العوامل في ذلك أن جمهور الشعراء كان من الطبقة العاملة، وقلما نبغ شاعر من الطبقة الأرستقراطية. حتى منّ عاش من هؤلاء الشعراء حول موائد الخلفاء وفي قصورهم ظلّ موصولاً بروح الشعب، فهو يتغنّى بتقوى الخليفة وبما ينشر من العدالة التي لا تصلح حياة الرعية بدونها. وكانوا يمدحون أبطال المعارك الحربية معبرين عن روح الشباب والحمية الوطنية والإسلامية. وإذا كان المديح يتصل بروح الشعب على هذا النحو فأولى غيره من أغراض الشعر أن تكون صلته أوثق وأقوى. وحتى حياة المحجون وما اتصل منها بوصف الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية وملاهيها كان يُحسّسها الشعب وتعيشها على الأقل في تلك الأعياد أسراب منه. أما شعر الزهد والتصوف فكان يُلَقَى على العامة وكان من وحيّ حياتها وما يسرى فيها من شظف وضنك وإعسار. وبهذا الأسلوب نفسه يمكن الوصل بين الغزل والفنون الأخرى وبين الشعب، ولكن ليس هذا ما نريده من الشعر الشعبي الذي نتحدث عنه، فنحن نريد منه نوعاً خاصاً، هو النوع الذي يصوّر ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومنّ لحق بهم من بعض المغنين والشعراء يعيشون في النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة أقصى ما يكون الاستمتاع دون أن يبذلوا أي جهد ودون أن يحتملوا أي عناء، على حين ترزّح عامة الشعب تحت أثقال البؤس الممضّة جائعة ظامئة، غير آمنة من العبث والطغيان اللذين صورناهما في فصل الحياة الاجتماعية. وكان طبيعياً أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرّعون ويتجرّعه الشعب من الفقر والإمعان في البؤس والتعاسة. ومن المؤكد أن جُلّ ما نظموه ضاع، لأنهم من أبناء الشعب، وهم عادة لا يهتمهم تسجيل ما ينظمونه، بل هم آخرون من يهتم بمثل هذا الشرف، وحتى ما سُجِّل من هذا الشعر لم يسجّل معه اسم صاحبه إلا نادراً^(١).

وقد هيأ هذا البؤس لظهور طائفة بين الناس تُعرَف بالمُكندين ، وأولُ من تحدث عنهم الجاحظُ في مطالع كتابه البخلاء ، وهو يورد فيه أسماءهم وحياتهم في اقتناص الدراهم من الناس ويصور البيهقي أعمارهم ونواديرهم^(١) ، وهم جماعات من المتساوين وكان ينضم إليهم كثير من الأدباء والشعراء ، وهم يكوّنون في العصر طبقة كبيرة ، طبقة تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس .

ونخير من يصور طائفة الشعراء المكدين حينئذ أبو العبر^(٢) العباسي الذي عاش في هذا العصر إلى خلافة المنتصر وكان قد ظل خمسين عاماً يَحْييًا حياة جادّة إلى أن ولى المتوكل فترك الجِدَّ وعدل إلى الحمق والشهرة به ، ويقال إنه لم يكن في عصره صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى العجين والخَبِزُ وفي بعض أحاديثه ما يدل على أنه كان ببغداد لعصره معلمون يعلمون الأحداث الهزل ، وأنه أخذ عن معلم منهم ما عرّف به من قلب الكلام رقاعة إذ كان يقول له ولرفقائه : أول ما تصنعون قلبُ الأشياء فكنت أقول إذا أصبح كيف أمسيت ؟ وإذا أمسى كيف أصبحت ؟ وإذا قال لي : تعال ، تأخرت إلى الخلف . ويقال إنه حاول أن يسلّف المتوكل إليه فقلب زِيَّه إذ جعل في رجليه قلنسوتين وعلى رأسه خُفًّا (حذاء) وجعل سراويله قميصاً وقميصه سراويل . فلما لمح المتوكل قال علىَّ بهذا المثلة ودخل عليه فقال له : أنت شارب إني أضع الأدهم (القيد) في رجليك وأنفيك إلى فارس ، فقال تَوًّا : ضَعْ في رجلي الأشهب وانفني إلى راجل ، فقال المتوكل أتراني في قتلك مأثوم ؟ فقال : بل ماء بصل ، فضحك المتوكل . ويقال إنه أخذ منه أكثر مما أخذه أي شاعر بالجِدِّ ، وقد اتخذه في مجلسه أضحوكة ، فكان يرمى به في البركة التي وصفها البحترى في بعض مدائحه ، وتُطْرَحُ عليه الشباك ويُسّاد ، ويخرج وهو يقول :

ويأمر بي ذا الملك فيطرحني في البرك
ويصطادني بالشبك كائن بعض السمك

الخلفاء للصوى ص ٣٢٣ والأغاني (طبع)
الساقي ٢٠ / ٨٩ والفهرست ص ٢٢٣
والوفا بالوفيات (طبع إستانبول) ٢ / ٤١ .

(١) المحاسن والمساوي ٢ / ٤١٣
(٢) انظر في أبي العبر وحياته وأخباره وأشعاره
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٢ وأشعار أولاد

وسأله ثعلب العالم النحوى المشهور : الطَّبَّيُّ معرفة أو نكرة ؟ فأجابه : إن كان مشوباً على المائدة فمعرفة وإن كان فى الصحراء فهو نكرة ، فقال ثعلب له : ما فى الدنيا أعرفُ منك بالنحو . وكان يَـجْلِسُ الغلمان « الأدبائية » إليه ليسجلوا كلامه ، مما جعله يصنّف لهم كتابَ جامعِ الحماقات ومأوى الرقاعات وكتاب نوادره وكتاب المنادمة ، ويُروى أن غلاماً سأله : لم صار نهر دجلة أعلى من نهر الفرات والقطن أبيض من الكمأة (ثمرة صحراوية أرضية) فأجابه : لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار . وكان بهذا وأشباهه تروج بضاعته عند المُكَنَدِينَ من الأدبائية وغير المكدين ، وسُئِلَ عن لغته التى يتكلم بها وما فيها من استحالات أى شىء أصلها ؟ فقال : لأننى أبكرُ فأجلس على الجِـسْرِ ومعى دواة وقرطاس فأكتب كل شىء أسمعُه من كلام الذاهب والجالئ والملاحين والمُكَارِين حتى أملأُ القرطاس من الوجهين ، ثم أقطعه عرضاً وألصقه مخالفاً فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحق منه . وكان ما يزال يُغْرِبُ فى كل ما ينظم من شعر ، ملتزماً للغة العامّة وما يشبهها ، ومن قوله فى بعض غزله :

وباضَ الحبُّ فى قلبى فَوَاوَيْلى إذا فَرَّخَ

ويستمر فى مثل هذا الهزل ، وكان ينصح بعض شباب الشعراء من حوله أن يقولوا الشعر جيداً جيداً وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعره ، وما رواه له ابن المعتز من كلامه الهزلى البارد المضطرب الوزن قوله :

أنا أنا أنت أنا أيا أبو العبرنة
أنا الفتى المحقوقو أنا أخو المجنّة
أنا أحرر شعرى وقد يجى برَدْنَة

وواضح أنه أضاف إلى أبياته النون المشددة الهاء هزلاً وطلباً لإضحاك من حوله . وله أشعار من هذا النمط كلها هزل ودعابة ، وقد اتخذها الشعراء « الأدبائية » الذين خلفوه إماماً لهم فى مثل هذا الهزل وما كان يَسْلُكُه فى أشعاره من ألفاظ العامّة وأساليبهم الركيكة .

ومن شعراء الكُندية الذين ذهبوا مذهب أبي العبر في التحامق والهزل أبو العجل^(١) وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى اتخاذ التحامق حرفة ، وأى حرفة ، لقد درت عليه خيراً كثيراً وأموالاً وبغالاً وغلماناً ، يقول :

أيا عاذلي في الحمق دَعَيْ من العَدْلِ فإني رَخِي البَالِ من كثرة الشُّغْلِ
ومُرْنِي بِمَا أَحْبَبْتَ آتِ خِلافَهُ فَإِنْ جِئْتَنِي بِالْجِدِّ جِئْتُكَ بِالْهَزْلِ
وإن قلتَ لي : لِمَ كان ذلك؟ جوابه لأنِّي قد استكثرت من قَلَّةِ العقل
فأَصْبَحْتُ في الحَمَقَى أَمِيرًا مُؤَمَّرًا وما أَحَدٌ في الناس بِمِثْلِهِ عَزَلِي
وصير لي حُمَقِي بِغَالًا وَغِلْمَةً وكنت زمانَ العقلِ ممتطيًّا رِجْلِي
فلا داعي للعذل واللوم فإن حرفة الكُندية جعلته سيداً مطاعاً وأثرته ثراءً
واسعاً ، وأصبح الناس لا يضيقون به ، بل يرحّبون به في كل مكان . وكان الشعراء
المكدون حينئذ يطوفون في بلدان العراق وغير العراق ، جَوَّالين مكثرين من
الأسفار في الاحتيال لطلب الأموال ، وفي ذلك يقول أبو العجل لبعض من عدلوه
على كُنديته وحرفته :

أَعْلَى الحماقة لُئِمْنِي قد كنت مثلك أولاً
فدخلت مصرَ وأرضها والشامَ ثم الموصلا
وقرَى الجزيرة لم أدْعُ فيها لِحْيٌ منزلاً
إلا حَلَلْتُ فِئَاءَهُ بالعقل كي أتمولاً

ومن اتخذ الكُندية حرفةً في العصر أبو عبد الله يعقوبى وكان كثير الموصف
لنفسه بالجوع والفقر والتطفيل ، وروى له المرزبانى أشعاراً^(٢) تدخل في الزهد .
ونقف قليلاً عند جحظة والخبز أرزى وتصويرهما لبعض جوانب النزعة الشعبية .

(١) انظر فيه وفي أشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز (٢) مجمع الشعراء ص ٣٩٩ .

جحظة^(١)

اسمه أحمد بن جعفر من نَسْل البرامكة ، كان شاعراً حسن الشعر ، وكان يحسن الغناء على الطنبُور كما كان يحسن فنوناً مختلفة مثل الطبخ والنجوم ، وله في الطنبُورين كتاب غير كتب أخرى في عدة فنون ، وكان من ظرفاء عصره وصاحب أخبار ومناذمة حاضر النادرة . وابن المعتز هو الذى لقبه بجحظة لقبه الذى اشتهر به إذ كان في عينه نوء شديد ، وكان قبيح الوجه تفتححه العيون ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

وَارْحَمْنَا لِمَنَادِيهِ تَحْمَلُوا أَلَمَ الْعَيْنِ لِلذِّقِّ الْآذَانِ
وكان الخليفة المعتمد يقرّبه منه ، ولكن بيوت الخلفاء لم تَفْتَحْ له بعده ، وفتحت بعض بيوت الوزراء مثل العباس بن الحسن وزير المكتنى وابن مقلة وزير المقتدر . وكان لا يُبْقَى على شيء يَصِلُه من خليفة أو أمير أو وزير ، فأكثر أيامه كانت بائسة ، ولولا صنعتُه الطنبورية لعاش معدماً . وهو من خير من يمثلون حياة الشعب التبعة ، فقد كان كثير من الحكام والوجهاء يزورون عنه لا لدمامته فقط ، بل أيضاً لما قيل من أنه كان دائماً وسخ الثياب ، وكان شيعياً ، فانصرف عنه كثيرون وأغلقوا أبوابهم في وجهه . وكل ذلك كان يدفعه دفعاً للاختلاط بأبناء الشعب وكانوا يتعلقون بشعره ، فما إن ينظم شعراً حتى يدور في بغداد وحتى تتناقله المجالس ويرويه الشباب وغير الشباب ، حدث هو نفسه ، قال : كنت يوماً عند عبد الله ابن المعتز فطلبت نَعْلِي فلم أجده ، فجعلت أقول :

يَا قَوْمُ مَنْ لِي بِنَعْلِي أَوْ فِي مَصْحَفٍ نَعْلِي

يقصد بِنَعْلَا يركبه . يقول : فسار هذا البيت حتى رواه الصبيان . وكان كثير من أشعاره الأخرى يرويها الصبيان أيضاً ، وكثير منها يحكى قصة يؤسه من مثل قوله :

الآداب ١٣٧ / ٢ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ وتكملة الطبرى ص ٨ ، ١٩٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٠ .

(١) راجع في جحظة وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ٦٥ / ٤ والفهرست ص ٢١٤ ومعجم الأدباء ٢٤١ / ٢ وابن خلكان والديارات ص ٢١ ، ٤٧ ، ٩٧ وزهر

أنا الذى دينه إسعافُ سائله والضُرُّ يعرفه والبؤسُ والعَدَمُ
أنا الذى حُبُّ أهل البيتِ أفقره فالعدلُ مستغبرٌ والجورُ مُبتَسِمٌ

وهو يعلِّلُ لبؤسه من بعض وجوهه بتشيعه لأهل البيت كما أسلفنا ، وكأنما عملت
عوامل كثيرة على أن يعيش معيشة بائسة أكثرُ جوانبها ضيقٌ وإقلال فى الرزق ،
وليس المهم أن يعيش تلك المعيشة ، ولكن المهم أن تتعمق أحاسيسه وأن يَصْدُرَ
عنها بمثل قوله :

أَحْمَدُ اللهَ لِمَ أَقْلُ قَطُّ. يَا بَدْرُ وَيَا مُنْصَفَا وَيَا كَافُورَا
لا ، ولا قلت أين أين الشواهِـينُ ووزَّأنا وأين البنورُ^(١)
لا ، ولا قيل : قد أتاك من الضيِّعة بُرٌّ موفَّرٌ وشَعِير
أنا خلَوُ من الممالك والآة. لأك جَلْدُ على البَلَا وصَبُور
ليس إلا كُسيرَةٌ وقَدِيحٌ وخُلَيْقٌ أتت عليه الدهورُ

فهو ليس ممن يخدمهم الغلمان وتكتظُّ بهم داره من مثل بدْرٍ ومُنْصَفٍ
وكافور ، وهو ليس ممن يحتاج إلى ميزان ووزَّان يزن الحصاد ، لأنه ليس من
أصحاب الضياع الذين يَجْنُونَ من ضياعهم البُرَّ والشعير . ليس عنده أملاك
ولا ممالك إنما عنده الجلد والصبر على احتمال حياة الشظف والحرمان ، عنده ما
يَقْوُوه من كِيسرة وقلح ماء وثوب خلَقٍ أَكَلَ الدهر عليه وشرب ، وقلبه يمتلئُ
حسرة ولوعة ، فغيره يتقلب فى أعطاف النعيم وهو يتقلب فى أشواك الحسرات
والشقاء والعناء ، يقول :

الحمد لله ليس لى كاتبٌ ولا على باب منزلى حاجبٌ
ولا حمارٌ إذا عزمتُ على ركوبه قِيلَ جعظلةٌ راكبٌ
ولا قميصٌ يكون لى بدلا مخافةً من قميصى الذهاب
وأجرة البيتِ فهى مُقرحةٌ أجفانَ عيني بالوابل الساكب

إن زارني صاحبٌ عَزَمْتُ على بَيْعِ كتابٍ لَشَبْعَةِ الصَّاحِبِ
فهو ليس من أصحاب الجاه والسلطان فلا كاتب له ولا حاجب ، بل ليس
من أصحاب الوجاهة والثراء فلا حمار له يركبه لقضاء مهمَّاته كَسَيِّ كَسوة حسنة ،
ولا قميص له جديد بدلا من قميصه البالي ، وما أشد كدره ، فأجرة البيت وعجزه عن
سدادهما ينغصانه ، بل يُسْكِيانه ، حتى لقد تفرَّحت أجفانه أكثره بكائه ، ولا من رحيم
يرق قلبه له أو يعطف عليه . وحتى إن زاره صاحب لم يجد ما يغذوه به ويطعمه له
إلا أن يبيع كتاباً من كتبه يشتري له به بعض ما يقيم أودّه . فيا للبؤس وبالله
الصارخ الذى جعل أبناء الشعب يَكْدَحون وَيَضْنون والحكام يَجْسُون ويقطفون
ثمار أعمالهم ولا يُسْقون لهم منها إلا الذلَّ والهوان . ويتأبهُ مراراً الشك فى حرفته
الأدبية وتآليفه وما ينظم من أشعار ، فيقول :

حسبي ضَجِرْتُ من الأدبُ ورأيتُه سببَ العُطَبِ
وهجرتُ إعرابَ الكلا مٍ وما حفظت من الخُطَبِ
ورهنْتُ ديوانَ النِّقا نَصْرٍ واسترحْتُ من التعبِ

فهو قد صمم على أن يهجر حرِّفة الأدب التى لم يكن منها سوى الشقاء والعناء
أما كتاب النقائص بين جرير والفرزدق فمع نفاسه رهته ليسدَّ به رَهَقَه ، وكأنما
أحسَّ فيه وفي غيره من كتب الأدب التى صمَّم على هجرانها أعباء ثقلا كانت
تَبْهَظُ كَتْفِيه ، فهو يتخلص منها ليريح ويستريح .

وكان طبعياً أن يشتد سخطه — مع أبناء الشعب — على فساد الحياة السياسية
فى عصر المقتدر وأن يصبَّ جام غضبه على الوزراء الذين كانوا يعنصرون الشعب
ليعيشوا هم والخلفاء والقواد فى النعيم ، ولا ضَيْرَ من أن يعيش الشعب فى الجحيم ،
لذلك كان طبعياً أن يتمنى للوزراء أن تَحْقِيقَ بهم الكوارث حتى يتخلص الشعب
من ظلمهم وفساد حكمهم . ويُرْوَى أن بعض أصدقائه دخل عليه فى عصر
المقتدر ، فقال له : ما تتمنى ؟ فقال تَوّاً : لم يبق لى مُنَى غير نكبات الوزراء ،
فقال له : قد نُكِبَ ابن الفرات ، فقال جحظة على البديهة :

أحسنُ من قهوة معتقة تخالها فى إنائها ذهباً

من كَفٍّ مَقْدُودَةٍ مَنَعَةٍ تَقْسِمُ فِينَا أَلْحَاطُهَا الْوَصْبَا^(١)
نِعْمَةُ قَوْمٍ أَزَالَهَا قَدَرٌ لَمْ يَحْظَ حُرٌّ فِيهَا بِمَا طَلَبَا

فقد أفرحته نكبة ابن الفرات وانتشى بها كما ينتشى السكارى بالخمير
نشوة لا تتعد لها نشوة . ويشمت به لأن أحداً لم يُصب شيئاً مما كان فيه من
نعمة ، وإنه ليضيق به كما ضاق به الشعب ، إذ كان يملأ الأرض ظلماً وشرّاً
ونكراً ، وإنه ليبغضه ويبغض دولته التي حرمت الأحرار كل برٍّ وكل خير .
وكان يكثر من هجاء البخلاء الأشحاء الذين يقدمون الطعام للضيوف على كره منهم ،
وكثيراً ما يصوغ هذا الهجاء في قالب فكاهة من مثل قوله في صديق :

دعاني صديقٌ لى لأكل القطائفِ فَأَمَعْتُ فِيهَا آمناً غيرَ خائفٍ
فقال وقد أوجعتُ بالأكل قلبه رُوَيْدَكَ مَهْلاً فَهِيَ لِأَحَدِ الْمُتَالِفِ
فقلت له : ما إن سمعنا بهالك ينادى عليه : يا قتيلَ القَطَائِفِ

وكانت القطائف صادفت منه مسغبة وجوعاً شديداً ، فأكل منها أكل النهم
وصديقه ينظر إليه شزراً ، فقال له : إني أخاف عليك التخمة ، بل التلف والهلاك ،
فردَّ عليه هذا الرد الظريف . وله في قوم بخلاء يحفظون القرآن :

قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورة المائدة

وترَوَى له أبيات مختلفة من هذا الطراز تدل على أنه كان حلو الدعابة على
الرغم من قبح وجهه وراثته ثيابه . وله هجاء كثير لاذع يدل على أنه كان سريع
الإحساس طويل اللسان . ولم يكن يخشى أحداً فهو يهجو الوزراء والحججاء وغير
الحججاء والوزراء ، وخاصة البخلاء منهم ، وكانوا يتحامونه لما يعلمون من شيوع
شعره على ألسنة الصبيان في الشوارع والأزقة . ومن قوله في ثقیل :

يَا لَفِظَةِ النَّعْيِ بِمَوْتِ الْخَلِيلِ يَا وَفَقَةَ التَّوَدِّيعِ بَيْنَ الْحُمُولِ

(١) مقدودة : رشيقة القد . الوصب :

يا طلعة النَّعْشِ ويا منزلاً أقفرَ من بعد الأنيسِ الحلولِ
يا نعمةً قد آذنتْ بالرحيلِ ونكسةً من بعد بُرءِ العليلِ

ويستمر طويلاً في وصف الثقيل بمثل هذه الصفات التي تجعله تماثلاً لكل شر ، وكأنما تجمعت له شُرور الحياة في أسوأ صورها ، لكي يصممه بما يشاء منها ، وتتوالى الشرور في أبشع هبئاتها ، ويضع بينها طلعة النعش ونكسة العليل . وكان يلم بالديارات ، وقد روى الشابشتي له بعض أشعار في الخمر كان يغنيها على طنبُوره من مثل قوله في دَيْرِ أَشْمُونِي ولهوه فيه :

سَقِيًّا لِأَشْمُونِي وَلَذَّاتِهَا والعيشِ فيما بين جَنَّاتِهَا
سَقِيًّا لِأَيَّامٍ مضتْ لى بها ما بين شَطِئِهَا وحاتِهَا

ويبدو أن إلمامه بالأديرة كان قليلاً لقلة أشعاره فيها ، وربما كان الذي أقعده عنها بؤسه الذي كثيراً ما كان يرافقه . وله في الغزل بعض قطع وأبيات طريفة من مثل قوله :

فقلتُ لها : بَخِلْتِ عَلَيَّ يَقْظَى فجُودِي في المنامِ لمستهامِ
فقلتُ لى : وصرتَ تنامُ أيضاً وتطمع أن أزورك في المنامِ

وقد توفي سنة ٣٢٣ عن سن عالية ، ويقال إنه عاش نحو قرن ، ولعل فيما أسلفنا من أشعاره ما يصور شاعريته الحسبة . وقد أسقطنا من أشعاره ما كان يستخدمه من الألفاظ والأساليب العامة ، وهي أثر من آثار شعبيته واختلاطه بالعامية في بغداد .

الخبزُ أرزى^(١)

اسمه نصر بن أحمد ، شاعر بصرى ، كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ، وكان يخبزُ خُبْزَ الأرزِ في دُكَّانه بِمِيزَةِ البصرة يتكسب بذلك معاشه ، وفي أثناء عمله كان يُنشد أشعاره المقصورة على الغزل ، والشباب والناس يزدهمون عليه لاستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وأمره ، وشعره يذيع في الناس لقرب مأخذه وسهولته . وعنى بعض معاصريه ممن كانوا يتابون دُكَّانه بجمع أشعاره ، وجمعوا له ديواناً ، وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة منه ، ويقول المسعودى فيه : « أحد المطبوعين المجودين في البديهة المعروفين بالغزل » . ويقول أيضاً : « أكثر الغناء المحدث في وقتنا هذا من شعره » . والخبزُ أرزى بكل ما قلمنا شاعر شعبي بالمعنى الكامل ، فهو من بيئة شعبية ، صاحب صناعة وحرفة ، وهو أُمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وشعره يدور على كل لسان في بلدته والشباب والصبيّة ينشدونه في كل مكان والمغنون يغنون فيه على جميع آلات الطرب . وقدم بغداد فاستقبله أدباؤها وشبابها استقبالا حسناً لما كان قد سبقه إليهم من أشعاره الخفيفة السهلة العذبة . ومن الغريب أن نجد الثعالبي في اليتيمة يقول إنه كان على وشك إهماله وطمى أشعاره لسفسفة كلامه ، لولا أن وجد من معاصريه من اهتم بجمع ديوانه ، فرأى أن يضمّن كتابه « اليتيمة » لُمعاً من شعره علقت بحفظه ، وفي الوقت نفسه رأى الإعراض عن التصفح لباقي شعره وترك الفحص فيه عما لا يصلح للإحاطة باليتيمة من مُلَحِّه . وبذلك فوّت على نفسه عملاً أدبياً ونقدياً جليلاً كان يمكن أن يضيفه لكتابه ولا ينقص منه ، بل لعله يرفعه درجات ، إذ يحتوى مادة شعرية شعبية كان جديراً أن تُعَرِّضَ كاملة ، حتى يَرى مدى ما حدث من تطور في اللغة الشعبية البصرية بالقياس إلى الفصحى ، سواء في جوانبها اللغوية أو الأسلوبية ، ويُرَى أيضاً مدى ما ظل بينهما من تواصل . ولكن هذا غاب عن

٣ / ٢٧٦ وديوان المغانى ١ / ٢٧٢ ، ٢٩٧
وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب
ص ١٤٩ .

(١) انظر في الخبزُ أرزى وحياته وأشعاره
اليتيمة ٢ / ٢٦٧ وروح الذهب ٤ / ٢٥٩
وابن خلكان في نصر بن أحمد والنجوم الزاهرة

ذهنه ، وأكبر الظن أنه إنما اختار أشعاراً ليس فيها عامية . ومع ذلك فنحن نؤمن بأن الفوارق حيثئذ بين العامية والفصحى لم تكن واسعة . ومن مَلَحَهِ التي رواها له قوله :

خَلِيلِيْ هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا بِأَكْرَمِ مَنْ مَوَّلَى تَمْشَى إِلَى عَبْدٍ
أَتَى زَائِرًا مِنْ غَيْرِ وَعَدٍ وَقَالَ لِي أَصَوْنُكَ عَنْ تَعْلِيْقِ قَلْبِكَ بِالْوَعْدِ
فَمَا زَالِ كَأْسُ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَدُوْرُ بِأَفْلَاكِ السَّعَادَةِ وَالسُّعْدِ
فَطَوْرًا عَلَى تَقْبِيْلِ نَرْجِسٍ نَاطِرٍ وَطَوْرًا عَلَى تَغْضِيْضِ نَفَاةِ الْخَدِّ

وفي كلمة أصونك عن تعليق قلبك ما يصور رِقَّتَهُ وأنه يَخْشَى عليه من تعلق قلبه بالانتظار ، والبيتان الثالث والرابع جيدان في التصوير . وما روى له الثعالبي أيضاً من مَلَحَهِ قوله :

كَمْ أَنَا نِسْ وَفَوَّا لَنَا حِينَ غَابُوا وَأَنَا نِسْ جَفَوَّا وَهُمْ حُضَارُ
عَرَضُوا ثُمَّ أَعْرَضُوا وَاسْتَالُوا ثُمَّ مَالُوا وَجَاوَرُوا ثُمَّ جَارُوا
لَا تَلْمُهُمْ عَلَى التَّجَنُّيْ فَلَوْ لَمْ يَتَجَنُّوْا لَمْ يَحْسُنِ الْإِعْتَادُ

والأبيات زاخرة بجناسات وطباقات تدل على أنه كان يَتَقَفَّهُ صنعة الشعر وصناعة البديعيين فيها فحقاً حسناً . فوفوا تقابل «جفوا» وغابوا تقابل «حُضَارُ» وبين كل كلمتين متعاقبتين في البيت الثاني جناس وطباق محكمان ، وحسن التعليل واضح في البيت الأخير . والكلمات عذبة حلوة خفيفة . ومن مَلَحَهِ قواه :

رَأَيْتَ الْهَلَالَ وَوَجْهَ الْحَبِيبِ فَكَانَا هَلَالَيْنِ عِنْدَ النَّظَرِ
فَلَمْ أَذِرْ مِنْ حَيْرَتِي فِيهِمَا هَلَالَ الدُّجَى مِنْ هَلَالِ الْبَشَرِ
وَلَوْلَا التَّوَرُّدُ فِي الْوَجْنَتَيْنِ وَمَا رَاعَنِي مِنْ سَوَادِ الشَّعْرِ
لَكُنْتُ أَظُنُّ الْهَلَالَ الْحَبِيبَ وَكُنْتُ أَظُنُّ الْحَبِيبَ الْقَمَرَ

والخيال جميل ، وأحاله إلى طرفة نفيسة حقاً بتلك الحيرة التي انتابته ، فلم يَدْرِ أين هلال الدُّجَى وأين هلال البشر ، ثم أخذ يتأمل ، وبعد أناة طويلة لاحظ

تورّد الوجنتين وسواد الشعر فعرف أين الهلال وأين الحبيب وإلا ظل غارقاً في حيرته . ومن ملّحه :

قد كان لي فيما مضى خاتمٌ فالיום لو شئتُ تمنّطقتُ به
وذُبتُ حتى صِرتُ لو زُجّ بي في مُقلةِ النائم لم يَنْتبه

وهي مبالغة واضحة فيما أصابه من ضنّا بسبب حبه وشقائه فيه وعذابه . فحتى المبالغة التي كانت قد أخذت تشيع بين الشعراء نجدّها عنده ، وكأنّه توفّر على الشعر في عصره وقبل عصره حتى استقامت له ملكته ، وحتى تمثّله بجميع مقوماته وخصائصه . وكان خفيف الروح فكهنّا مما جعله محبوباً عند أهل البصرة في حياته وبعد مماته . ومن طريف ما له قوله في قلة الطعام على مائدة أحد أصدقائه :

ولعمري كان الخوانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخِوانِ
وجِفانٍ مثل الجِوابي ولكنْ ليس فيهن ما يُرى بالعيانِ^(١)
فإذا ما أدّرتُ فيها بنّاني لم أجدْ ما أمسه بينانِ
لأنّني ما ضُغْتُ على غير شيءٍ غير صكِّ الأسنانِ بالأسنانِ
ترجع الكفّ وهي أفرغ منها عند مدّي لها فدأبي وشاني

والأبيات تدل على روح الدعابة عنده وأنه كان جميل المحضر عذب الفكاهة خفيف الظل على نفوس مواطنيه وعارفيه وعلى الشباب البصري خاصة مما جعلهم يتعلّقون به تعلقاً شديداً . ويبدو أنه نظم بجانب مقطوعاته التي كان ينشدها في خبزه للأرز قصائد طويلة ، فقد أشار من ترجموا له إلى قصيدة طويلة طنانة استهلّها بقوله :

بات الحبيبُ منادى والسُّكّرُ يَصْبِغُ وَجَنَّتِيهِ

وواضح ممّا أنشدناه له أنه كان عذب الشعر رقيقه وهو شعر شعبي بالمعنى الدقيق ، فقد نظمه صانع من صناع الشعب ، لم يكن يحترف صنع الشعر للتكسب

به وعرضه على الخلفاء وغير الخلفاء ليمنحوه الجوائز المالية الضخمة ، فهو ليس ممن يقدمون شعرهم للطبقة الأرستقراطية إنما هو شاعر شعبي يقدم أشعاره للجمهور ، متبغياً لإرضاءه بتصويره لأحاسيسه في الغزل ، وباتخاذهُ لُغَتَهُ السهلة التي لا تجذب في فهمها أي عسر أو مشقة . وقد لبَّى نداء ربه سنة ٣٣٠ للهجرة ، ويقول المسعودي "أشيع أن الوزير البريدي غرقه لأنه كان هجاء ، وقيل : بل فرّ من البصرة إلى هجر والبحرين وتوفي هناك ، ومهما يكن فقد حزنّت البصرة وشبابها لوفاة ، وظلت ذكراه ماثلة لأهلها طويلاً .

الفصل الثامن

نشاط النثر

١

تطور النثر

أبنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن النثر العربي تطور تطوراً خطيراً ، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حِملاً لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان في اللغة العربية طاقات مستكنة لكي تحمل في يُسْر هذه الثقافات ولا تتأبى عليها ، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفي مقدمتهم ابن المقفع . ثم رَعَت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمّى العصر العباسي الأول عصر النقل والترجمة . وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر ، وتحول المترجمون فيه بعيدون النظر في كثير مما تُرجم في العصر الماضي ، وكانت عامة الترجمة فيه حرفية ، فالفقرة من الفقرة في كتاب تُسَرَّجَسُ حرفياً ، اللفظة مقابل اللفظة ، مما قد يصيب الكلام بشيء من الالتواء أو التعرُّ أو الاضطراب في التعبير . وكان ذلك دافعاً للمترجمين أن يعيدوا النظر في كثير مما تُرجم وأن يترجموه ثانية على أساس جديد ، هو ترجمة المعاني لا الترجمة الحرفية ، بمعنى أن المترجم يقرأ الفقرة وينقل معناها كما ارتسم في ذهنه دون التقيد الحرفي حتى يطرّد نسق الكلام ولا يظهر فيه شيء من الاختلال الذي كثيراً ما تدفع إليه الترجمة الحرفية . وحقاً من المترجمين الأوائل من استطاعوا أن ينفلوا إلى هذه الطريقة الثانية للترجمة مبكرين ، على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجماته ، ولكنه كان يُعَدُّ شاذّاً وعُدّاً في الوقت نفسه من بلغاء العربية ، لأننا قلما نحس عنده نشازاً أو التواء أو انحرافاً من شأنه إفساد التعبير ،

إلا ما قد يكون أصاب بعض رسائله لطول المسافة بيننا وبينه ، وما أدخلته أيدي النساخ على مر العصور في كتاباته ، من بعض الخلل . وهو على كل حال خلل قليل جداً ، وبين أيدينا ترجمته لكليمة ودمنة ، وهى من أروع الترجمات القديمة ، وتَدُلُّ بحق على أنه كان أحد بلغاء العربية لعصره . ولكن ابن المقفع يُعَدُّ شخصية نادرة بين مترجمي العصر العباسي الأول ، إذ لم يكن لكثرتهم بلاغته ولا فصاحته ، لذلك أحس المترجمون في العصر العباسي الثاني عندهم غير قليل من الانحراف في التعبير ، وتنبهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية ، فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه . وكان هذا كَسْبًا للنثر العربي فإن الضبيَّ الذي كان يداخل الترجمات أخذ يزايلها . وإتبع حنين بن إسحاق - أكبر مترجمي العصر - منهجاً في ترجمته أن يجمع للكتاب المترجم كل ما يمكنه من مخطوطاته ، وأن يعارضها بعضها على بعض مقابلين عباراتها ، محاولاً أن يستخلص منها المعاني بكل دقة . وهو أستاذ المترجمين والترجمة في العصر العباسي الثاني الذي وضع بقوة فكرة ترجمة المعاني لا ترجمة الألفاظ أو الترجمة الحرفية . وكان يَعْمَلُ بين يديه كثير من الشباب في مقدمتهم ابنه إسحق وابن أخته حبيش ، يترجمون حسب منهجه ، وهو يراجعهم ويُصْلِحُ لهم بعض ما ترجموه على هدى طريقته الجديدة . وكان من الكتب التي أعادت ترجمتها هذه المدرسة كتاب الخطابة لأرسططاليس ، ترجمه إسحق بن حنين ويتنصُّ ابن النديم في الفهرست على أنه كان قد نُقِلَ قبل ذلك نقلاً آخر ، ولا يعيِّن صاحبه ، غير أنه يسميه « النقل القديم » . وقد يقال إذا كانت الترجمة في هذا العصر أصلحت الترجمات القديمة ، وبَدَّتْ في أسلوب عربي مستقيم ، فلماذا يبدو الخلل والاضطراب الشديد في ترجمة مَتَّى بن يونس لكتاب أرسططاليس عن الشعر ؟ وأكبر الظن أن هذا الاضطراب والخلل مصدرهما أن موضوع الكتاب وهو المأساة وما اتصل بها من الشعر القصصي لم يرتسأ في ذهن مَتَّى رسماً بيّناً ، إذ كان السريان - مثل العرب - لا يعرفون شيئاً عن الشعر اليوناني وفنونه التي ظهرت عندهم القصصية والغنائية والتُمثيلية ، وهذا هو السبب فيما أصاب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو عند مَتَّى من تعثر وخلل . وقد يكون الخلل والتعثر موجودين في الأصل السرياني الذي نُقِلَ عنه الكتاب .

على كل حال انتقلت الترجمة في هذا العصر نقلة واسعة ، فقد أخذ المترجمون يتمثلون المعاني التي ينقلونها ويُسيغونها ثم يترجمونها إلى لغة عربية فصيحة لا تشوبها شوائب الترجمة الحرفية القديمة . والذي لا ريب فيه أن معرفتهم بخصائص العربية كانت أدق من معرفة أسلافهم ، إذ ذلّلها لهم علماء اللغة والبيان ، وكانت قد ألُفّت كتب كثيرة في بيان طوابعها ومقوماتها ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع ، فطبيعي أن يتقنها غير مترجم . وهذا نفسه يُلاحظُ فيما أخذ ينشأ منذ العصر العباسي الأول من الأساليب الفلسفية والعلمية ، فإن هذه الأساليب لانت وأخذ يزايها الالتواء ، بل أخذ يجري فيها الاستواء والتناسق ، وكأن الفلاسفة والعلماء أخذوا أنفسهم بإرادة قوية في التثقف بالعربية . وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً بالسيطرة على أساليبها سيطرة تقيم تلاؤماً وتوازنًا دقيقين بين الألفاظ والمعاني التي تؤدّيها ، بل إن منهم من شارك في الشعر والنثر مثل الكندي أول فيلسوف بالمعنى الكامل ظهر عند العرب ، فقد أثرت عنه بعض أشعار ، كما أثرت عنه بعض رسائل جيدة ، سنعرض لها في موضع آخر ، فهو قد اتقن العربية وفقه أسرارها وخصائصها فقهًا جيدًا ، ونضرب لذلك مثلاً من أسلوبه الفلسفي ، وفيه يتحدث عن صانع الكون ومدبره والشواهد العقلية على وجوده ، يقول ^(١) :

« إن في الظاهرات للحواس ، أظهرَ الله لك الخفيات ، لأوضح الدلالة على تدبير مدبرٍ أول ، أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلاً لكل فاعل ، ومكوّنًا لكل مكوّن ، وأولاً لكل أولاً ، وعلة لكل علة ، لمن كانت حواسه الآلية موصولة بأضواء عقله ، وكانت مطالبه وجدان الحق وخواصه [معرفة] الحق وغرضه الإسنادَ للحق واستنباطه والحكمَ عليه . والمزكّي عنده - في كل أمر شَجَرَ بينه وبين نفسه - العقل . فإن من كان كذلك انتهكت عن أبصار نفسه سُجُوف ^(٢) سُدف الجهل ، وعافت نفسه مشارب عكس العُجب ، وأنفَت من ركافة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولّج ^(٣) ظلمة الشبهات ، وخرجت من الرّيب على غير تبين ، واستحيت من الحرص على

(٢) سجوف : أثار . سدف : ظلمات .

(٣) تولج : دخول .

(١) رسائل الكندي انفسية تحقيق الدكتور

محمد عبد الهادي أبي ريدة (طبع مطبعة

الاعتاد بمصر) ص ٢١٤ .

اقتناء ما لا تجد ، وتضييع ما تجد ، فلم تضاد ذاتهما ولم تتعصب لأضدادها . فكُنْ كذلك ، كان الله لك ظهيراً ، أيها الصورة المحمودة والجوهر النفيس يتضح لك أن الله ، جعل ثناؤه ، وهو الإنبيّة (الموجود) الحقّ التي لم تكن ليساً أبداً ، لم يزل - ولا يزال - أبسّ أبداً ، وأنه هو الحى الذى لا يتكثّر بتّةً ، وأنه هو العلة الأولى التى لا علة لها ، الفاعلة التى لا فاعل لها ، المتممة ، التى لا متمم لها . . . وإن فى نظم (انتظام) هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه فى بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته على الأمر الأصلى فى كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير .

والقطعة تدل بوضوح على مهارة الكندى البيانية ، وأنها لا تقف عند فصاحة التعبير ، بل تتعدى ذلك إلى إدخال تلاوين من التكرار ومن الصور البيانية ، وما المعنى الذى يريد أن يوضحه الكندى ؟ إنه يريد أن يقول إن ما يبصره الإنسان من ظواهر الكون وبحسه من مشاهدته ويراه من نظامه واتساق أجزائه دليل على أن هناك مدبراً أعلى للكون ، وضع له قوانينه ، التى تحول بينه وبين أى اختلاط أو اضطراب ، كما يشهد بذلك نظامه الذى يخلو من كل عوج وخلل وفساد ، ولكنه أخرج هذه الفكرة فى صورة فلسفية مُطَنَّبَة ، وهو فى إطنابه لا ينسى خصائص الأسلوب الأدبى وجمال الترادف فيه على نحو ما نرى فى قوله : « أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلاً لكل فاعل ، ومكوّناً لكل مكوّن ، وأولاً لكل أول ، وعلة لكل علة » ، فقد عبّر عن معنى واحد بخمس كلمات متوالية ، ليقوّى المعنى ، وليضيف إليه شيئاً من الجمال الذى يلاحظ فى التكرار الصوتى . وهو لا ينسى أيضاً ما فى الأسلوب الأدبى من روعة التصوير التى تخلب ألباب السامعين ، على نحو ما نقرأ فى قوله : « فإن من كان كذلك انتهكت عن أبصار نفسه سُجُوف سُدُف الجهل ، وعافّت نفسه مشارب عكر العُجْب ، وأنفت من ركافة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولُّج ظُلُم الشبهات » ، والصور متلاحقة فى هذه العبارات ، وكأننا بإزاء كاتب أدبى لا كاتب فلسفى . وفى ذلك ما يدل بوضوح على التقاء الفلسفة بالأدب بل على امتزاجهما ، فهذا الكندى الفيلسوف يعرض فلسفته فى أسلوب أدبى يشتمل على غير قليل من الروعة البيانية . وتلقانا فى أسلوبه اصطلاحاته الفلسفية كاصطلاح (الإنبيّة) بمعنى

(الموجود) واصطلاح (ليس) بمعنى المعلوم و (أيس) بمعنى الموجود . وهذه الاصطلاحات لا تجوز على العبارات في الأسلوب ، بل يندمج فيها لقدرة الكندي كما قلنا آنفاً على المزج بين العبارة الفلسفية والعبارة الأدبية .

وحقاً لم يكن من وراء الكندي من المتفلسفين يبلغون مبلغه في العربية والوقوف على أسرارها وخصائصها الأدبية ولكن من الحق أنهم جميعاً عنوا بفصاحة عباراتهم وسلامتها بقدر ما استطاعوا حتى عند من كان منهم ينادى باتخاذ مقاييس البلاغة اليونانية معياراً للفن البياني في النثر . ومراً بنا في غير هذا الموضوع أنه كانت هناك ثلاثة أذواق: ذوق ينادى بالرجوع إلى اليونان ومعاييرهم البلاغية ، وكان يمثلها المترجمون السريان ومن التف حوّلهم من الكتّاب الذين كانوا يعكفون على النظر في علم النجوم وفي المنطق والفلسفة والذين كانوا يتحدثون دائماً عن الكون والفساد ، وشمع الكيان ، والكيفية والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم مما كانوا يقرءونه في الكتب المترجمة ، على نحو ما يصور ذلك ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » . وكان يقابل هذا الذوق المحدد إلى أبعد حدود التجديد حتى ليرفض المقاييس العربية ذوقاً كان يرتضى هذه المقاييس ، بل كان يرى خطئ الاحتكام إلى سواها ، فالأدب أدب عربي له ملكاته الراسخة ، وله أساليبه الموروثة المصفاة . وينبغي ألا نعدل عن معايير الذاتية إلى معايير أخرى ليست من طبيعته ولا من بيئته . وكان يمثل هذا الذوق علماء اللغة المحافظون ومن سار في فلكهم . وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل ، لا يغلو غلو الأولين في رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين في رفض المقاييس الأجنبية ، بل يقف موقفاً وسطاً بين الطرفين المتعارضين ، فهو يعتد بالمقاييس العربية ويأخذ منها ما يوافق العصر ويلائمه ، وهو ينظر في المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربي . وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحظ في كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وهو فيه يعرض لملاحظات العرب منذ الجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لخطيب عربي إلا ويسجلها ، وينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم — التي استطاع الحصول عليها — في البلاغة دون أن يعلى فريقاً على فريق أو ينصر فريقاً ضد فريق .

وكانت بيئة المتكلمين أسبق من البيئتين الآخرين في وضع قواعد البلاغة الثرية ، إذ أخذت تحاول منذ العصر العباسي الأول وضع هذه القواعد ، وكان من أهم ما دفعها إلى ذلك تدريبُ الشباب على المهارة في الخطابة والبيان وكيف يتغلب على الخصوم في حجاجه وجدله . وكانت المناظرات مندلعة بينها وبين أصحاب الفرق الأخرى ، وكانت تندلع أحياناً فيما بين أفرادها ، فكثر كلامهم عن صفات الخطيب وجهارة صوته ووضوح عبارته وخلابتها وملاءمة كلامه للسامعين وما يحسن من حركاته وإشاراته ودقة أدلته وبراهينه ، وكيف يتقارع حجة الخصم بالحجة الناصعة وكيف ينقض كلامه نقضاً . وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربي ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية وما ينبغي في ألفاظ العبارات أحياناً من رشاقة وعلوبة وأحياناً أخرى من جزالة ورسانة ، وما ينبغي للمعاني من وضوح مهما دقت مسالكها . وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هي التي فرقت بين الحقيقة والحجاز وأعدت لمباحث البيان العربي المعروفة^(١) . ويلقانا في هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذي ذكرناه آنفاً ، وهو يشتمل على كل الملاحظات البيانية والبلاغية التي أوصى بها المتكلمون الأدباء ، حتى يحوزوا لأنفسهم بياناً ناصعاً رائعاً . وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه ، لأنه هو الذي عايش العصر ، وترك آثاراً واضحة فيه ، ومن أهم ما رددّه طويلاً فكرة مطابقة الكلام للسامعين ، فلا يصحّ لمنكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماء الكلام بكلام الأعراب الممتليّ بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسفّ يقول : « قبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام أو في مخاطبة أهله . . . أو في حديثه إذا حدث أو في خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام في صناعة الكلام ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل^(٢) . ولا يعمل الجاحظ من الدعوة إلى الوضوح ، وألا يجوز كاتب ولا عالم في كلامه حتى يصبح ألغازاً ، وقد حمل على كتب الأخفش لما فيها من صعوبة وغموض ، كما حمل على كل تكلف ، يقول : « متى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه ، وأعرب عن فتحواه ، وكان لتلك الحال وفقماً ، ولذلك القدر

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤ .

(٢) الحيوان ٣/٣٦٨ والبيان والتبيين ١/١٤٤ .

لِفَقْهًا، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينًا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع»^(١). وتحدث كثيراً عن جزالة الألفاظ وعذوبتها وعن تلاحمها وتناظرها وعن حسن موقعها في مكان وسوئه في مكان آخر، كما تحدث عن دقة استخدام الكلمات، يقول: «قد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السَّغْب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في مواضع الانتقام، والعامّة وأكثر الخاصة لا يَفْصِلُون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»^(٢). ويتوقف مراراً ليشيد بجمال اختيار الألفاظ ووحدة الصياغة والسبك وحسن الرِّصْف والنظم، وفراه ينوّه بالسجع وأثره في نفوس السامعين^(٣)، كما ينوّه بالازدواج وما فيه من جمال^(٤) صوته، وكأنه هو الذي أعدّ لهذين الأسلوبين كي يشيعا على ألسنة الأدباء منذ عصره، وكان هو نفسه يستخدم الازدواج كثيراً في أسلوبه، واستخدم السجع قليلاً، وتردّدت على لسانه فنون بديعية وبيانية كثيرة، مثل: الأسلوب الحكيم والاحتراس، وكان يسميه إصابة المقدار، والاعتراض، والكناية والحقيقة والحجاز والاستعارة والتشبيه والتشثيل. وبذلك هيأً فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصوراً فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسنات محسناً عقلياً هو «المذهب الكلامي» ويريد به الجاحظ دقة حيل المتكلمين في الغوص على الحجج والعلل والمعاذير. وظلت كتابات الجاحظ في البيان والتبيين وكذلك في الحيوان مخازن لا تنفد للبلاغيين المتأخرين، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية.

وقدّمت بيئة اللغويين كتباً مختلفة، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغريبة وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب، ومنها ما يُعنى بضبط ألفاظ وتفسيرها مثل كتابه «الفصيح»، وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد، وهو معرض جيد لنماذج من الشعر والنثر، لا تبلغ في الغرابة مبلغ نماذج ثعلب في

(١) البيان والتبيين ٧/٢.

(٢) البيان والتبيين ١/٢٨٤، ٢٩٧، ٤٠٨.

(٣) البيان والتبيين ١/٢٠.

(٤) البيان والتبيين ٢/١١٦.

مجالسه ، ولذلك شُغف الأدباء في عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب ، وعدُّوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية . ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان ، فيشير إلى الحقيقة والمجاز والاستعارة ، ويتحدث عن الكناية ويوزعها على ثلاثة أنواع ، فهي إما للتعمية وإما لتحايش اللفظ الخسيس وإما للتفخيم^(١) ، ويجعل التشبيه أربعة أضرب ، فهو إما تشبيه مفرط ، وإما تشبيه مصيب ، وإما تشبيه مقارب ، وإما تشبيه بعيد^(٢) . والكتاب يمثل ذوقاً محافظاً ، فليس فيه أى شيء يتصل بآراء الأجانب في البيان والبلاغة ، وليس فيه أى استضاءة بهذه الآراء . ومن الغريب أن نجد ابن قتيبة ، وسنعرّف في موضع آخر أنه كان مثقفاً بالثقافات الأجنبية المعاصرة ، ينجح في ذوقه إلى هذه البيئة اللغوية المحافظة في كتابه « أدب الكاتب » وقد مضى فيه يعرف الكتّاب بالاستعمالات اللغوية الصحيحة للكلمات ، فمن ذلك الطّرب يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزع ، وليس كذلك إنما الطرب خفة نصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع^(٣) ، ومن ذلك المأثم يذهب الناس إلى أنه المصيبة ، يقولون كنا في مأثم ، وليس كذلك إنما المأثم النساء يجتمعن في الخير والشر ، والجمع مأثم ، والصواب أن يقولوا كنا في مناحة ، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء^(٤) . ويظل يفتح نحو خمسين باباً لتعليم الكتّاب ألفاظاً يجب أن يعرفوا دقة استخدامها ، منها ما يتصل بأسماء الحيوان ومنها ما يتصل بأسماء الأفلاك ، ومنها ما يتصل بأسماء النبات ، ومنها ما يُعرّف واحده ويُشكّل جمعه ، ومنها ما يتصل بالطعام أو الشراب أو الثياب أو السلاح . ويخرج من ذلك إلى أبواب تتصل بكتابة الكلمات من ذوات الألف أو الواو أو الياء إلى غير ذلك . وينتقل إلى أبواب تقويم اللسان ناصراً فيها على ما يسببه السماع للعامة من الوقوع في الخطأ كأفعال تُهَمَزُ والعامة تدع حذفها وما هو بالسين ويقولونه بالصاد وما جاء مفتوحاً وهم يكسرونه إلى جَمٍّ من مثل هذه المسائل . ويمضى إلى أبنية الأفعال ومعانيها وأبنية الأسماء ومعانيها ، وفي أثناء ذلك يعقد باباً طريفاً^(٥) لما يتكلم به العامة من الكلام الأعجبي ، سواء

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٤١٢ .

(٢) (لين) ص ٢٢ .

(٣) (٤) أدب الكاتب ص ٢٤ .

(٢) الكامل ص ٥٠٦ .

(٥) (٥) أدب الكاتب ص ٥٢٦ .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة)

أكان أصله رومياً أم نبطياً أم فارسياً أم سريانياً . والذوق العام في الكتاب ذوق لغوي محافظ شديد المحافظة .

ونلتقى بكتاب بغدادى تخرّج على يد كُتّاب بغداد العظام ورحل إلى قرطبة ثم إلى القيروان والتحق بدواوين الدولة الأغلبية ورأس ديوان الإنشاء بها هو أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني المتوفى سنة ٢٩٨ وقد صنّف على ضوء الذوقين اللذين وصفناها للبيتين السالفتين رسالة^(١) بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، سهاها الرسالة العذراء ، وهى أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر ، وهو يُشيد بهذه الصناعة ، ويطلب ممن يريد حذقها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وأمثال الفُرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ، مع التزود بالنحو والتصريف واللغة والفقه . وأبو اليسر بذلك كله يلتقى بذوق علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاها من الثقافات الأجنبية ، كما يلتقى بعلماء اللغة والتصريف ، فهو يستضىء بهم جميعاً . ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر فى نزع آى القرآن الكريم ووضعها فى مواضعها ، وكذلك الأمثال والأشعار وإن كانت الأخيرة لا تُستَحَبُّ فى مخاطبة الخلفاء ، وهو فى هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة^(٢) وقد استمد منه كثيراً فى رسالته . والمهم أنه يشيد فى تكوين ثقافة الأديب بالثقافة العربية ، ويضعها جنباً إلى جنب مع الثقافات الأجنبية ، مما يدل بوضوح على أنه كان يتأثر ببيئة المتكلمين تأثراً عميقاً . ويتحدث عن زِيِّ الكاتب وحسن هندامه ، ويطلب - فى إلحاح - كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء والكُتّاب وولاة الثغور وقواد الجيوش

صنع أبى اليسر الشيباني المذكور ، بشهادة نصوص
نجا اقتبسها الفلقشندى فى صبح الأعشى
٢ / ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٢ / ٣ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١١٨ .

(١) فى الطبقات السابقة من هذا الجزء الخاص
بالعصر العباسى الثانى نسبت هذه الرسالة إلى الكاتب
إبراهيم بن المديبر متابعه للأستاذ محمد كرد على الذى
نشرها فى كتابه : « رسائل البلغاء » ونسبها إليه ،
وتبين لى أخيراً أن نسبتها إليه مخطئة وأن الرسالة من

والقضاة والعلماء وذوى النباهة والظُرف . ولابد - كما قال الجاحظ مراراً وتكراراً - من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعاني ، حتى توضع الألفاظ في مواضعها وتنزل مواطنها . ثم يتوقف - مهتدياً بابن قتيبة - إزاء أبنية ينبغي تركها واستعمال أبنية أخرى ، فقل الدعاء : « أبقاك الله طويلاً » ليس مُسْتَحَبّاً ، إنما المستحب « أطال الله بقاءك » مع أنه لا فرق في المعنى بين العبارتين ، ولكنهم جعلوا الثانية أرجح وزناً وأنبه قدراً .

ولابد أن يعرف الأديب لكل كلمة مكانها ، ويضرب مثلاً لذلك أن شخصاً كتب إلى داود بن خلف الأصبهاني معاصره صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر على هذا النمط : « وإن قال كذا فقد خرج عن الملة ، والحمد لله » وردّ عليه داود متعجباً عن وضع الحمد في هذا المكان قائلاً : « تحمد الله على أن تُخَرِّج امرءاً مسلماً من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ، وإنما يقال في المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » . ويطلبُ أبو اليسر أن يوضع مع ذكر الشكوى مثل : « والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، ومع ذكر البسْوَى : « نسأل الله دفع المخذور ، ونسأل الله صرفَ سوء » ومع ذكر النعم مثل : « الحمد لله خالصاً ، والشكر لله واجباً » . ويمضى في إثر الجاحظ ، فيقول إنه لا يجوز في الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولا محاكاة الشعر فيما يجري فيه من حذف أو ضرورات . ويحذّر من استعمال كلمة « إياك » ويحسُّ ثقلها في مثل « كلمت إياك » . ويُسَدِّدُ ويُعيد - على ضوء الجاحظ - في أن الألفاظ ينبغي أن توضع في مواقعها بدقة . ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث تشير في صدرها إلى المراد منها ، ويوصى بعدم إطالة المقدمات في الكتابة ، ويقول إنها ينبغي ألا تزيد عن سطرين أو ثلاثة . ثم يُفِيضُ في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة برّيه وأنواعه وأجودها ، ويوصى بعدم إغفال الصلاة على الرسول عليه السلام . ويكتفَى إلى كيفية كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر ، فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قال الكاتب : لكذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقل من النصف قال : لكذا ليلة بقيت . ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطبيعتها . ويشير - على هدى ابن قتيبة - إلى العناية

بميزان التصريف . ويعود إلى وضع الألفاظ في أماكنها ، وينتهى - كما نهى المتكلمون من قبل - مَنْ أيسر له موهبة أدبية عن محاولة الانتظام في هذه الصناعة . وينقل عن أحد المتكلمين ، وهو العتّابي ، رأيه في اختيار الألفاظ وصعوبته . وينصح الكاتب بعرض ما يكتبه في باكورة حياته على المختصين ليرأوا مقدار صلاحيته للصناعة . وينتهى - على هدى الجاحظ - عن الألفاظ الحوشية والمبتذلة ، وينقل عنه إعجابه بالكتّاب إذ قال : « ما رأيت قوماً أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً » . ويعود إلى فكرة الوضوح الجاحظية ، وينقل عنه بعض كلامه . ويذكر أرسطو وينقل عنه بعض ما قاله في النّصبة التي تدل على اللفظ والإشارة والخط والعقد كأعلام الأفراح ، وينقل أيضاً عنه حدّهُ للإنسان وأنه الحى الناطق ، وهو بذلك يقرب من ذوق المتكلمين وانتفاعهم ببعض ما تُرجم دون النوبان فيه . ويبين أهمية الكتب المحبّرة تحبيراً جيداً في استئزال الجبارة وأنها قد تصنع ما لا تصنعه الجيوش اللّجبة . ثم يسوق صفحات جلّسها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة . ولا يكتفى بذلك بل ينقل أيضاً الصحيفة التي دوّنها الجاحظ عن الهنود في البلاغة ، ويتلوها بما دوّنه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخليل بن أحمد ، وكل ذلك دليل واضح على أن أباً اليُسّر وضع نُصَبَ عينه في كتابته لرسائله العذراء ابن قتيبة والجاحظ ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى وأعق أثراً .

وحى الآن لم نتكلم عن كتاب يمثل بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم في الدعوة لمعايير البلاغة اليونانية ، ولعل خير كتاب قلمته هذه البيئة في مجال النثر والكتابة هو الكتاب الذي نُشر باسم نقل النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد تبين فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سليمان ابن وهب ، وهو من أسرة ظلت تعمل في دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون ، وكان جده وزيراً للمهتدى والمعتمد ، وتوفي سنة ٢٧٢ هـ فيبين وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بأخرة من هذا العصر . ونراه في مستهل كتابه يُزرى على كتاب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، وهذا طبيعي لأنه يمثل بيئة المتفلسفة

والمترجمين التي كانت تعارض المتكلمين في مقاييسهم البلاغية ، لأنهم لم يستوعبوا في رأيه كتابات أرسطو في المنطق والجدل والخطابة . وهو يفتح كتابه بمباحث في العقل تدل على أنه شيعي إمامي ، ويعقد فصلاً للقياس يحلله فيه على طريقة أرسطو ، ويقول إنه جعل عماداً وعياراً على العقل كما جعل البركار لتقويم الدائرة والمسطرة لتقويم الخط . ويفيض في مباحث تتصل بالأخبار وبالفقه . ويتكلم عن بعض خصائص التعبير كما يتكلم عن الرمز ويقول إنه أتى منه كثير في كتب المتقدمين من الفلاسفة وكان أكثرهم استعمالاً لأفلاطون . ويعود إلى الحديث عن بعض خصائص العبارات وعن الأمثال والاتفات وعن المبالغة ويرتضيها متأثراً بأرسطو ، ويعرض لمبحث الفصل والوصل بين العبارات وكذلك لمبحث التقديم والتأخير . ويقسم الكلام المنشور إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وينوّه بالإيجاز الذي حذر الجاحظ منه ، ويقول إن أرسطو وإقليدس كانا شديدي الإيجاز ، بينما امتاز بالإطناب جالينوس ويوحنا النحوي . ويعقد فصلاً في نحو عشرين صحيفة ، أجمل فيه كتاب الجدل لأرسطو . وواضح أنه توسّع في تشريعه للنثر العربي ووضعه لمعاييره في الأخذ عن كتابي أرسطو في المنطق والجدل . وهو أخذ يبدو فيه الجفاف وأنه ينبو عن الذوق العربي ، ولذلك لم يسلّق هذا الكتاب ترحيباً من المتأدبين . وكان لذلك أثره في أن نقاد العرب لم ينقلوا عنه شيئاً في كتاباتهم عن الخطابة والنثر ، إذ رأوه يحتكم إلى أشياء غير وثيقة الصلة بأدبهم ، ومن أجل ذلك ظل الكتاب وصاحبه مجهولين من عامة النقاد . ولا نبعد إذا قلنا إن بيئة المتكلمين هي التي سيطرت بما وضعته من معايير على أذواق الكتاب والأدباء في العصر ، وظل ذلك حقباً متطاوأة ، وهي كما قلنا بيئة معتدلة كانت تزوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقوماتها حيّة ، مقومات تعتمد على التراث القديم وتتطور بما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطوراً لا يسجنني على العربية ، بل تجني منه ثماراً رائعة ، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح .

وعلى هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبي العام ، وكان لذلك أثره في أن ازدهر النثر العربي وأخذت موضوعاته تنوّع تنوعاً واسعاً ، وقاد هذا الازدهار الجاحظ المتكلم المشهور ، إذ نراه يُعسّنى بتصوير الطبقات في مجتمعه ، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالى والعرب والنصارى واليهود ، وينفّس

للطبقات العامة ، فيكتب عن اللصوص والمُكذِّبين وحبيبتهم والقيان والمرأة .
وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السَّمر التي كانت تُقَرَأ في كل مكان .
وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية
وقصص البطولة والإسرائيليات . وظل الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية
قائماً ، وكان أهم ما تُرجم في هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية
هزار أفسان أى ألف حكاية . ويُفهم من كلام المسعودي عنه أن حكايات
السندباد لم تكن جزءاً منه في عصره ، بل كانت مستقلة . ويقول إن مؤلفها حكيم
هندي يسمى السندباد ، وهي تشتمل على كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام ،
وامرأة الملك . ويذكر المسعودي أنه كانت هناك حكايات مماثلة تُرجمت عن
الرومية^(١) . ومما تُرجم حينئذ أو قل مما استمدَّ من أصول فارسية كتاب التاج
المنسوب إلى الجاحظ ، وقد ألّفه أحد معاصريه وقدّمه إلى الفتح بن خاقان وزير
المتوكل ، وهو يصور نُظُمَ الساسانيين حُكَّام الفرس قبل الإسلام وتقاليدهم .
ومعنى ذلك أن النقل عن الفارسية ظل محتدماً في هذا العصر ، ولكن أخذت
الشخصية العربية تُثبت وجودها في قوة ، فبمجرد أن تُرجم كتاب ألف ليلة وليلة
ألف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتاباً على نسقه به ألف
حكاية من حكايات العرب وغيرهم . وظهرت في العصر كتب أسمار كثيرة ، كانت
تتلّف عليها العامة ، وخاصة ما دار منها حول الحب وأقاصيصه أو حول الجن
أو حول بعض النساء . وكثرت كتب النوادر والكتب التي تصوّر أحوال الحمقى
وأقوالهم وأفعالهم ، وكتب الندماء والمنادمة ، وكذلك الكتب التي تصوّر أخلاق العامة
مثل كتابات مساوى العوام وأخبار السفلة والأغنام للصيّمري .

وكثرت كتب الأدب التهذيبي ، ومن أكثر منها ابن أبي الدنيا المتوفى
سنة ٢٨١ وقد نُشر في القاهرة مختصر صنعه السيوطي لكتابه الفرج بعد الشدة ،
وكانت له كتب مختلفة في مكارم الأخلاق . ومثله محمد بن خلف بن المرزبان

(١) انظر في ذلك كله مروج الذهب

المتوفى سنة ٣٠٩ وقد ترجم كتباً كثيرة عن الفارسية وله تصانيف حسان في الأخلاق وأحوال الناس ، منها كتابه : « تفضيل الكلاب على كثير من لبس الثياب » ومثلها أبو بكر الخرائطى السامرى المتوفى سنة ٣٢٥ ، وله مكارم الأخلاق ومعالج ومحمود طرائقها ومراضيتها ، نُشر بالقاهرة .

ويجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعاً جديداً ، هو وصف البلدان ، إذ ألّف كتاباً فيه سماه كتاب الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة ، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها^(١) . ويبدو أنه اعتمد في وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ في جوانب من كلامه على نحو ما لاحظ المسعودى إذ يقول : « وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذى هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، ولست أدري كيف وقع له هذا الدليل ، ذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان . . . لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . . إنما كان ينقل من كتب الوراقين^(٢) . وملاحظة المسعودى صحيحة ، ولكنها لا تغض^٣ من أهمية هذا الكتاب الذى فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعاً جديداً للكتابة ، وكان ممن تابعه فيه معاصره يعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ، وكتابه البلدان منشور . وتعاقت بعد ذلك الكتب في هذا الموضوع . والمهم أن الجاحظ أثار في كتابه بقوة فكرة البيئة وطوابعها في السكان ، وقد كتبه بأسلوبه الأدبى البارع .

٢

الخطابة والمواعظ والنثر الصوفى

ضعفت الخطابة السياسية في هذا العصر ، كما ضعفت الخطابة الحفلية ، فكلاهما أصبح شيئاً نادراً ، وحتى ما بقى منهما إنما هو شظايا قليلة كتلك الشظايا

(٢) انظر مروج الذهب ١/ ١١٤ .

(١) راجع كتّاب الجاحظ للدكتور طه الحاجرى (طبع دار المعارف) ص ٣٨٩ وما بعدها .

التي حكاها الطبري عن صاحب الزنج، بل لقد أجمل ما رواه من خطبه^(١) بحيث لا نكاد نثنيها في وضوح. وضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة في المساجد وفي خطب الجمع والعيدين، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتلى الورع الذي ظل في الحكم نحو عام، فإنه كان يذهب إلى المسجد الجامع بسامراء في كل جمعة ويخطب الناس ويؤتمهم^(٢)، ويروى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب في بعض الأعياد، فأرتج عليه ولم تُسمع خطبته^(٣)، ولم يخطب خليفة بعده في العصر سوى الراضى، ولم تؤثر خطبه.

ولكن الخطابة الدينية إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطاً عظيماً في المساجد فقد كانت تُعقد حلقات للوعاظ والقصاص وكان الناس يتحلّقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد، وكان منهم الرسميون الذين تعيّنهم الدولة للخطابة في أيام الجمع ومنهم غير الرسميين، وهم الجمهور الأكبر. وكانوا يستمدّون في وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوي وقصص الأنبياء والمرسلين، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره، وكانوا يُعسّون بعون الضعفاء والمساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين في ذلك بأعمال البر. وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين من مثل أبي العباس الطبري الذي مرّ ذكره والذي كان يعظ ويقص على المجاهدين في طرسوس. ولم يكن يخلو يوم من أيام رمضان من واعظ أو قاص بعد الصلاة. وكانت العامة تشغف بهم شغفاً شديداً، حتى ليحكى عن الطبري أنه تعرّض لقاص بيغداد يُنكر عليه بعض ما يقوله، فصاحت به العامة ورموا باب داره بالحجارة. ولا بد أن نفرق بين هؤلاء القصاص الوعاظ وبين قصّاص آخرين كانوا يجلسون للشباب والغلمان في الطرقات بيغداد ويقصّون عليهم نوادر الأخبار والحكايات الهزلية، وكانوا يُسلّكون في المشعوذين، ويضطرب بعض المستشرقين فيخلط بينهم وبين القصاص الوعاظ،

(١) الطبري ٩/٤١٤ وما بعدها.

(٢) طبري ١٠/٣١.

(٣) مروج الذهب ٤/٩٦.

ولا صلة بين الطرفين إلا في الاسم ، وهؤلاء هم الذين كانت الدولة تطاردهم أحياناً كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، أما قُصَّاصُ المساجد الوعَّاظ فكانوا موضع رعاية الدولة منذ عصر بني أمية ، وظل ذلك بعدهم ، حتى لنجد بعض من يُسند إليهم القصص في المساجد يُسندُ إليهم القضاء^(١) . أما الوعَّاظ فكان منهم دائماً خطباء المساجد في الجمع والأعياد وأتمتها في الصلاة ، وكان منهم كثيرون فصحاء بلغَاءَ ، فكان الناس يحتشدون حولهم ، مكبرين لهم إكباراً عظيماً .

وكانت المساجد دائماً مفتوحة ليلاً ونهاراً ، ودائماً يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس ، فكان الواعظ يختار أى وقت يشاء لموعظته ، وإن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات . ومن كبار الوعَّاظ الذين شهدتهم بغداد في العصر أبو الحسن علي بن محمد الواعظ المصري المتوفى سنة ٣٣٨ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء .

وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعَّاظ ، كانوا يسمون بالمدكِّرين ، ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر أى ذكر الله وتسييحه ، وكانوا من الصوفية ، بل كانوا خطباءهم ووعَّاظهم الممثلين صلاحاً وتقوى وورعاً ، وكانوا يعطون الناس في المساجد وفي الزوايا ، خالطين الخوف بالرجاء ، مستشهدين ببعض آي القرآن وبعض الحديث ، وقد يفسرونهما ويعلقون عليهما ، مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التي تتأسرُ العقول والقلوب . ومن وعَّاظهم في العصر يحيى بن معاذ الرازي المتوفى عام ٢٥٨ ويروى أنه جاء إلى شيراز ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

موعَظُ. الواعِظِ لَنْ تُقْبَلَ حَتَّى يَعْجِبَهَا قَلْبُهُ أَوَّلًا

وانهال الناس عليه بعد ذلك انهياراً . ومن أكبر وعَّاظهم في العصر أبو حمزة الصوفي المتوفى سنة ٢٦٩ وهو — كما مرَّ بنا في الفصل الثاني — أول من تكلم على رموس المنابر ببغداد خالطاً موعظه باصطلاحات

(١) الولاية والقضاء للكندي (طبعة جيست) ص ٤٢٧ .

الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهمِّ والمحبة والعشق والأنس . وكان هؤلاء الوعَّاظ يجذبون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعَّاظ العاديون لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ورَفْض كل متاع .

وتكوَّنت حول هؤلاء الوعَّاظ من المتصوفة سريعاً حكايات كثيرة تصوِّر جهادهم العنيف في قَسَم شَهوات النفس وذاتها وكيف كان الصوفيُّ يَتَقَرَّض على نفسه عَناءً شاقاً مُضْئِلاً لا يُطْبِيقه إلا أولو العَزْم . وعادة تحتوى القصة أو الحكاية ما يلفت الصوفي إلى تقصيره وأن عليه أن يتحمل أهوالاً ثقالاً ، فمن ذلك ما يُروى عن بشر الحافي المتصوف المتوفى قبيل هذا العصر سنة ٢٢٧ من أنه مرَّ ببعض الناس فسمعهم يقولون : هذا الرجل لا ينام الليل كله ولا يُفْطِر إلا في كل ثلاثة أيام مرة ، فبكى حين سمعهم يردِّدون هذا الكلام ، وسأله سائل : ما يُبْكِيكَ ؟ فقال : إني لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صمت يوماً ولم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه ^(١) وكرمًا . ويُحْكِي عن السَّريِّ السَّقَطِي المتوفى سنة ٢٥١ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم انتهى أن يأكل الخبز بالقديد (لحم مقدَّد) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة التي تعودت أكلها ، فعاهد نفسه ألا يتناول أبداً شيئاً من الإدام ^(٢) ! . ويروى ابن أخته الجُنَيْد أنه دخل عليه يوماً ، فوجده يبكي ، فقال له : ما يُبْكِيكَ ؟ فقال : جاءتني البارحة الصبية ، فقالت : يا أبت هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلِّقه هنا ، ثم إني نمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلت من السماء فقلت لها : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرَّد في الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض فحطمته ^(٣) . وهما خبران رمزيان يصوران ما كان يأخذ به السَّريُّ نفسه من الشطلف في العيش والحرمان الشديد . ويحكى عن رُوَيْس بن أحمد المتوفى سنة ٣٠٣ ، وكان مجرداً من الدنيا زاهداً ورعاً ، أنه اجتاز في بغداد وقت الهاجرة ببعض الطرقات وهو عطشان ، فاستقى من دار ، ففتحت

(٢) القشيري ص ١٠ .

(١) رسالة القشيري (طبعة سنة ١٣٤٦ هـ)

(٣) القشيري ص ١١ .

بمصر ص ٢٠ .

الباب صبيّة ومعها كوز ماء ، فأخذه منها وشرب ، فاستدارت له قائلة : صوفى يشرب بالنهار ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط ^(١) .

وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكون ضرباً من ضروب الآداب الشعبية العربية ، إذ كان الناس يتداولونها رجالاً ونساء وشباً وشباناً ، وكأن التصوف كان عاملاً قوياً فى ظهور تلك الآداب وطبّعها بطوايع الشعب ولغته وألفاظه . وتتصل بها الحكايات التى أخذت تؤثّر عن كرامات المتصوفة ، ومربّ بنا فى الفصل الثالث أن الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٣٢٠ صنّف فى تلك الكرامات كتاباً سمّاه « ختم الولاية » يريد ولاية الصوفية وأنهم أولياء الله فى أرضه ، ولذلك تظهر على أيديهم كرامات كثيرة . ومن تكثر إضافة الكرامات إليه فى هذا العصر بُنّان الحمّال المصرى المتوفى سنة ٣١٦ ، فقد قيل إن خمارويه أمر بأن يُطرح بين يدي سبع ، فطرح وبقي ليلته ، وجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أصبحوا وجدوه قاعداً مستقبل القبلة والسبع بين يديه . وعجب خمارويه ، فأطلقه واعتذر إليه ^(٢) . وحكى أنه كان لرجل على آخر دين : مائة دينار ، بوثيقة ، فطلب الرجل الوثيقة فلم يجدها ، فجاء إلى بُنّان ليدعو له ، لعله يجد الوثيقة الضائعة ، فقال له بنان : أنا رجل قد كبرتُ وأحب الحلواء ، اذهب إلى قريح (حلوانى) فاشتر رطل حلواء واثنى به ، أدعوك ، ففعل الرجل ، وجاءه . فقال له بنان : افتح ورقة الحلواء ، ففتحتها ، فإذا هى الوثيقة ، فقال : هذه وثيقتى ، فقال بنان : خذها ، وأطعم الحلواء صبيانك . ولم يكن يؤمن بمثل هاتين الكرامتين إلا عوامُ المتصوفة ، وهو ما يعنينا ، إذ دارت حكايات هذه الكرامات على ألسنة العامة ، وبذلك كان التصوف عاملاً قوياً فى العصر على ذبوع لون شعبى جديد من الأدب ، وهو لون قصصى ، وقد أخذت تؤلف فيه المصنّفات مثل كتاب « ختم الولاية » الآنف ذكره ، وكانت بدورها مصنّفات شعبية تتداولها كثرة من الأيدى . ولعله من المهم أن نعرف أن خاصة المتصوفة وكبارهم فى العصر كانوا ينكرون هذه الكرامات إنكاراً باتّناً ، فيُحكى عن أبي يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ أنه قيل له إن فلاناً يمشى فى ليلة إلى مكة ، فقال :

الشیطان یمشی فی ساعة من المشرق إلى المغرب فی لعنة الله . وقیل له : فلان یمشی على الماء ویطیر فی الهواء ، فقال : الطیر یطیر فی الهواء والسّمک یمر على الماء^(١) . وجاء رجل إلى سهل التستری المتوفى سنة ٢٧٣ ، فقال له : إن الناس یقولون إنک تمشی على الماء ، فقال له : سَلْ مؤذَن الحِلَّة ، فإنه رجل صالح لا یکذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدري هذا ، ولكنه نزل حوض الماء فی بعض الأيام لیتطهر ، فوقع فی الماء ، فلو لم أکن أنا لبقی فيه^(٢) . ویروى عن بعض الصوفیة أنه قال : کان فی نفسی شیء من هذه الکرامات ، فأخذت قصبه من الصبیان وقمت بین زورقین ، ثم قلت : وعزّیک لئن لم تخرج لی سمکه قدرها ثلاثة أرتال لأغرّق نفسی ، قال : فخرجت لی سمکه قدرها ثلاثة أرتال ، فبلغ کلامه الجنّید ، فقال : کان حقّه أن تخرج له أفعی تلدغه .

والمهم أن التصوف نشرَ بهذه الحکایات المتصلة باحتمال المتصوفة لأنقال الشظف وما اعتقدته العامة فیما جرى على أيديهم من الکرامات أدباً شعبياً قصصياً کان يدور بین الناس . ولون ثالث من هذه الحکایات کان یقص أخبار المتصوفة لعل خیر ما یصوره کتاب أخبار الحلاج ، وهو أخبار وحکایات عنه بأسنة تلامیذه ، تحمل أحواله وآراءه ومعتقده ، فن ذلك ما رواه تلمیذه إبراهیم الحلوانی ، قال^(٣) :

« دخلت على الحلاج بین المغرب والعشاء ، فوجدته یصلی ، فجلست فی زاوية البيت . كأنه لم یحسّ بی لاشتغاله بالصلاة ، فقرأ سورة البقرة فی الركعة الأولى ، وفی الركعة الثانية آل عمران ، فلما سلّم سجّد وتکلّم بأشیاء لم أسمع بمثلها ، فلما خاض فی الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذٌ عن نفسه ، ثم قال : یا إله الآلهة ویا ربّ الأرباب ویا من (لا تأخذه سنة ولا نوم) رُدّ إلىّ نفسی لثلاث بفتن بی عبادک . یا هو أنا ، وأنا هو ، لافرق بین إنّیتی (وجودی) وهویّتک إلا الحدوث والقیدم . ثم رفع رأسه ونظر إلىّ وضحک فی وجهی ضحکات ، ثم قال : یا أبا إسحق أما ترى أن ربی ضرب قیدمه فی حدوثی حتى استهلك حدوثی فی قیدمه ، فلم

(٣) أخبار الحلاج ص ٢٠ .

(١) القشیری ص ١٦٣ .

(٢) القشیری ص ١٦٤ .

يبقى لى صفة إلا صفة القديم ، ونُطْقَى فى تلك الصفة . والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث . ثم إذا نطقَتْ عن القدم ينكرون على ويشهدون بكفرى ويسعون إلى قتلى ، وهم بذلك معذورون ، وبكل ما يفعلون بى مأجورون .

والحكاية تصور عقيدة الحلاج فى أنه بتحملة الآلام الثقال أصبح — كما يزعم — فى مرتبة عليا ، بحيث ارتسمت الصورة الإلهية فيه ، إذ ظهر فيه اللاهوت ، وأصبح لا يفرق بين نفسه وربّه ، فقد امتزج الحدث أو الحدّثة فيه بالقدم ، بل إنه لم تبق فيه صفة إلا صفة القدم ، بخلاف من حوله من الناس ، فهم جميعاً يستشعرون الحدث ، أو قلّ كلهم حادثون ، وهو وحده الذى أصبح يستشعر القدم ، فلماذا ينكرون عليه التكلم عن القدم . مع أنه هو — كما يزعم — والقديم شىء واحد ! . وله عبارات تدل على أنه كان فى بعض أحواله يؤمن بتنزيه الذات العلية عن التشبيه بالمخوقات وفى أخباره عن أحمد بن سعيد الإسبينجاني قال ^(١) :

سمعت الحلاج يقول : ألزم (الله) الكلّ الحدث لأن القدم له . والذى بالجسم ظهوره العرض يلزمه . والذى بالإرادة اجتماعه قواها تُمسكه . والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت . والذى يقيمه غيره الضرورة تمسه . والذى الوهم يظفر به التصوير يرتقى إليه . ومن آواه محل أدركه أين . ومن كان له جنس طالبه كسيف . إنه تعالى لا يظله فوق ولا يقله (بحملة) تحت . ولا يقابله حد ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ولا يحده أمام . ولا يظهره قبل ولا يفتنه بعد . ولا يوجد له كان ، ولا يفقده ليس (عدم) . وصنّفه لا صفة له . وفعله لا علّة له . وكونه لا أمّة له . تنزهه عن أحوال خلقه . ليس له من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدثهم .

ويستمر الحلاج فى مثل هذا التنزيه لله ، فهو لا يشبه الكائنات فى شىء ولا يشبهونه فى شىء ، تفرّد بذاته وصفاته عن ذاتهم وصفاتهم فهم حادثون وهو قديم ، لا يلزمه شىء ولا يمسكه شىء ، كل واحد لا أجزاء له ، لا تمسه ضرورة ولا يلحقه وهم ، ولا يؤويه مكان ولا تحتويه صفة ، لا شىء فوقه ولا آخر تحته ، لا يحده حد ولا جهة من الجهات ، موجود قبل كل وجود ، ولا يلحقه عدم

ولا فناء ، ولا يصفه وصف لا يُسأل عما يفعل ، أزلى أبدى ، ليس كمثل شيء ،
قديم والخلق جميعاً حادثون . ومربنا أنه ربما كان أول صوفي دَعَا للانقسام بين
الحقيقة (التصوف) والشريعة ، وفي أخباره أنه قال في رسالة له أرسل بها إلى
بعض تلامذته^(١) :

« اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى مواقف التوحيد ،
فإذا وصل إليها سقطت من عينه الشريعة واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق ،
فإذا ترادفت عليه اللوائح وتناوبت عليه الطوابع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة
عنده هوساً ، فبقى بلاعين ولا أثر ، إن استعمل الشريعة استعمالها رسماً ، وإن
نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهراً » .

وواضح أنه يجعل الشريعة للناس العاديين ، أما أهل الحقيقة من أمثاله فإنهم يسقطون
الشريعة ويسقطون معها الفروض الدينية ! فلا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة ،
بل إن المتصوف إذا ظل راقياً في مراق الحقيقة العليا ، سقطت عنده لا الشريعة وحدها ،
بل كل شيء حتى التوحيد ! . ولعل في الفقرة الأخيرة من كلامه ما يشير إلى لون رابع
من ألوان النثر الصوفي ، هو تصوير الصوفية لمعتقداتهم في مصنفات خاصة ،
على نحو ما يلقانا في كتاب الطواسين له ، ويحسن أن نعرض منه قطعة أو فقرة
نصور كتابته الصوفية ، ولتكن القطعة التي كتبها عن شخصية الرسول صلى الله عليه
وسلم في مستهل الفصل الأول من كتابه ، وهي تجرى على هذا النمط^(٢) :

« طس سراج من نور الغيب بدآ وعاد . وجاوز السراج وساد ، قمر تجلّى
من بين الأقمار ، برّجُه في فلك الأسرار ، سمّاه الحق أمياً لجمع همته ،
وحترّميّاً لعظم نعمته ، ومكيّاً لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ،
وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليامة ، وأشرقت شمس من
ناحية تهامة . . . (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً
منهم ليكتُمون الحق وهم يعلمون) . أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره
ظهرت ، همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان
قبل الأُم . . . وهو سيد البرية الذي اسمه أحمد ، وزَعْتُهُ أوحد ، كان مشهوراً

(١) أخبار الحلاج ص ٧٣ .

(٢) الطواسين ص ٩ - ١٤ .

قبل الحوادث والكوائن والأكوان ولم يزل ، كان مذكوراً قبل القبل وبعد البعد ، هو
النبي جَلَّالَ الصَّدَأْ عن الصدر المغلول ، وهو الذى أتى بكلام قديم لا مُحَدَّث
ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غَمَامَةٌ برقت ، وتحتة برقة لمعت وأشرفت وأمطرت
وأثمرت . العلوم كلها قطرة من بحره ، والحكم كلها غَرْفَةٌ من نهره ، الأزمان كلها
ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، والآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ،
والظاهر بالمعرفة » .

« طس » تبتدئ بهاسور معروفة فى القرآن الكريم ، وقد اختار جمعها اسماً لكتابه!
وهو يشيد بالرسول عليه السلام متمثلاً فيه فكرة اللاهوت ، بل إنه لجعل نوره
الحمدى أول شئ خلقه الله . وقد ظل يظهر فى نبوات الأنبياء منذ آدم ، وليس
ذلك فحسب ، فهو مبدأ الوجود وروحه ، وهو منبع العلم والعرفان والحكمة ، أو هو
الأول السابق فى الوجود لكل وجود ، وهو الآخر فى النبوات وبين الأنبياء ،
وكأنه الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود كله ، فمنها يستمد الكون وجوده وكل
نبي نوره . بل إنه هو المشاهد فى كل نور . وذكر أن الرسول عليه السلام أتى
بكلام قديم ، وبذلك خالف المعتزلة مخالفة صريحة فى قولهم بأن القرآن كلام الله
ليس قديماً بل هو مخلوق وحادث .

وواضح أن الحلاج كان يستخدم فى كتابه الطواسين السجع ، وبذلك لاءم
بين أسلوبه وأسلوب الكتابة فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع فإن السجع أخذ يعم
فى الكتابات الأدبية . وربما كان فى اختياره لهذا الأسلوب ما يدل على أنه أراد أن
يرتفع بكتابه الطواسين عن الطبقة العامة إلى الطبقة الخاصة محاولاً أن يؤثر فيها بما
حشده فيه من السجع تارة ومن الشعر تارة ثانية ، وكأنه كان يعرف قبل
غيره أن العامة لن تفهم أفكاره الصوفية المعقدة ، فقدمها إلى الطبقة الخاصة
مُودِعاً فيها من السجع والشعر ما يَفْسَحُ للرمز والتأويل .

المنظرات

مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول ما يصور اندلاع المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل اندلاعاً هيباً لظهور كثير من كبار المناظرين في شئون الدين والعقل كما هباً لبسط المعاني ومدّها بلخائر جديدة من توليد الأفكار وتشعيبها والتعمق في مساربها الخفية، وقد أسلفنا أن مجد المعتزلة سقط في هذا العصر منذ وقف المتوكل قوالم القائل بخلق القرآن وفسح لآراء أهل السنة، وقد غضب غضباً شديداً على ممثل المعتزلة في بلاط المعتصم والوائق من قبله، ونقصد أحمد بن أبي دؤاد.

لم يعد للمعتزلة مجدهم القديم، ولكنهم لم يراجعوا عن الوظيفة التي ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل، فكانوا بالمرصاد للملاحدة، ومر بنا كتاب الانتصار للخياط المعتزلي الذي ردّ ردّاً مفحماً على ابن الراوندي الملحد. وظل الجدل عنيقاً بين المعتزلة وغيرهم من المتكلمين، على نحو ما يصور لنا ذلك الجاحظ في كتاباته وخاصة في كتابه «فضيلة المعتزلة» وتلاه في رئاسة المعتزلة بالبصرة أبو يعقوب الشَّحَّام، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن حرب المعتزلي، وحكى الخياط مناظرة بينه وبين السَّكَّاك الرافضي في علم الله جلّ جلاله وحدثه وقدمه وإثباته ونفيه^(١)، وفي موضع آخر يحكى المناظرات التي انعقدت بين هذا الرافضي وأبي جعفر الإسكافي المعتزلي قائلاً: «وهذه مجالسة مع أبي جعفر الإسكافي معروفة يعلم قارئها والمناظر فيها مقدار الرجلين وفرق ما بين المذهبين^(٢)». وكانت تدور في مجالس أبي على الجببائي المتوفى سنة ٣٠٣ مناضرات كثيرة أهمها ما دار بينه وبين ربيبه وتلميذه أبي الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤، وكانت ترجح كفة الأشعري غالباً. من ذلك مناظرتهم في الصلاح والأصلح إذ كانت المعتزلة ومعهم أبو على الجببائي يوجبون على الله فعل الأصلح، وقد سأله الأشعري في أثناء احتدام

(١) الانتصار للخياط ص ١١٠.

(٢) الانتصار ص ١٤٢.

المناظرة عن عاقبة ثلاثة : مؤمن وكافر وصبي ماتوا جميعاً ، فأجابه بأن المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبي من أهل النجاة . وأخذ الأشعري يراجعني إلى أن قال له : فلو قال الكافر : يا رب علمت حال الصبي وأنه لو بقي لمصّي وعوقب فراغت مصلحته ، وعلمت حالى مثله ، فهلاً راعيت مصلحتي . حينئذ انقطع الجبائي وألزمه الأشعري أن الله يخص من شاء برحمته ومن شاء بعقابه وأن أفعاله غير معلّمة^(١) .

وكان الخلاف واسعاً بين بعض أصحاب المذاهب الفقهية ، فكثرت المناظرات بينهم ، وفي طبقات الشافعية للسبكي أطراف من هذه المناظرات ، وما يذكره أن أبا العباس بن سريج القاضي رئيس الشافعية ببغداد كان مشغولاً بمناظرة داود الظاهري ، حتى إذا توفي داود مضى ينظر ابنه محمداً في المذهب الظاهري ، يقول : ولهما المناظرات المشهورة والمجالس المروية ، ويحكى أن ابن داود قال لابن سريج يوماً : أبلغني ربي ، فقال له : أبلغتك نهر دجلة ، وقال له يوماً : أمهلني ساعة ، فقال له : أمهلتك من الساعة إلى قيام الساعة^(٢) . وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون ، وشائعة معروفة مناظرات المبرد مع ثعلب بدار محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد في مسائل اللغة والنحو^(٣) . وكان تلاميذ ثعلب يتعرضون أحياناً للمبرد في محاضراته بالمسجد ، فما يزال يناظرهم ويجادلهم ويحاورهم حتى يترعهم من أستاذهم ثعلب ويلحقهم بتلامذته وحلقته^(٤) .

ومن المناظرات التي اشتهرت بأخرة من العصر مناظرة السيرافي ومستي بن يونس المترجم المتفلسف في مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات لسنة ٣٢٠ وكان السيرافي من علماء النحو النابيين ، وله كتاب كبير في شرح كتاب سيوييه . وكان موضوع المناظرة النحو والمنطق أيهما أكثر نفعاً في معرفة صحيح الكلام من سقيمه . وقد روى المناظرة أبو حيان التوحيدى ونقلها عنه ياقوت في معجمه^(٥) ، والطريف أنه يذكر في فاتحتها من كان في المجلس من العلماء والفضلاء ، ويذكر

١ / ١٤١ ومعجم الأدباء ٥ / ١٣٧ .

(٤) معجم الأدباء ١٩ / ١١٧ .

(٥) معجم الأدباء ٨ / ١٩٠ .

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣ / ٣٥٦

وما بعدها .

(٢) السبكي ٣ / ٢٣ .

(٣) تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٨ وإنباه الرواة

أنهم كتبوا المناظرة في ألواح وبمحابر كانت معهم ، مما يعطى صورة عن مجلس المناظرات حيثئذ . وتبدأ المناظرة بسؤال السيرافي لمتى بن يونس عن المنطق ما يعنى به ، حتى يكون كلامه معه فى قبول صوابه ورّد خطئه على سَنَن مرضى وطريقة معروفة ، ويجيبه متى : أعنى به أنه آلة من الآلات يُعرَفُ بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان فإنه يُعرَفُ به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح . ويقول السيرافي :

« أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالعقل . هَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من طريق الوزن مَن لك بمعرفة الموزون أهو حديد أو ذهب أو شبه (نحاس) أو رصاص ؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التى يطول عَدُّها . فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذى كان عليه اعتمادك ، وفى تحقيقه كان اجتهدك ، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيت عليك وجوه ، فأنت كما قال الأول : « حفظت شيئاً وضاعت منك أشياء » وبعد فقد ذهب عليك شيء ههنا ، ليس كل ما فى الدنيا يُوزَنُ ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكَال ، وفيها ما يُنْذَرع (يقاس بالذراع) وفيها ما يُمَسَح ، وفيها ما يُحْزَر . وهذا وإن كان هكذا فى الأجسام المرئية فإنه أيضاً على ذلك فى المعقولات المقروءة ، والإحساس ظلال العقول ، وهى تحكيها بالتبديد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة . ودَعْ هذا إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له قبلوه وما أنكروه رفضوه . قال متى : إنما لزم ذلك لأن المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة والمعانى المُدْرَكة ويتصفّح الخواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس فى المعقولات سواء ، ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم ؟ وكذلك ما أشبهه » . قال السيرافي :

« لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتبانية إلى هذه المرتبة البينة فى أربعة وأربعة أنهما ثمانية زال الاختلاف

وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موهت بهذا المثال ، ولكم عادة في مثل هذا التمرية ، ولكن ندع هذا . إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ .

ويناقش السيرافي مَتَّى في ترجمة المنطق من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية وأنه ربما حدث حَيْفٌ على المنطق في أثناء هذا الطريق الطويل الذي سلكه إلى الفصحى ، ويقول له : كأنك تقول لا حجة إلا عقول يونان ولا برهان إلا ما وصفوه . ويقول مَتَّى إنهم أصحاب عناية بالحكمة ولولاهم ما نشأت العلوم وأصحاب الصناعات . وهو تعميم أكثر مما ينبغي . وَيَحْتَدُّ الجدل ، ويسأله السيرافي عن حرف واحد من الحروف التي يهتم بها النحو يدور في كلام العرب وهو حرف الواو ومعانيه المتميزة عند النحاة ، ويقول له استنبطتها من ناحية منطق أرسططاليس الذي تُدَلِّ به وتباهى بتفخيمه وعَرَفْنَا ما أحكامه وكيف مواقفه وهل هو على وجه واحد أو وجوه . وَيُسَهِّتُ مَتَّى ، ويقول : هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطق إلى النحو ، أما النحو فمحتاج إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فإن مَرَّ المنطق باللفظ فبالعرض وإن عَبَّرَ النحو بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى . وينكر عليه السيرافي قوله ويحاول أن يثبت أن النحو يدور على المعاني ويسأله عن معاني الواو وكيف أنه يجهلها ، وهي حرف واحد ، فما باله لوسأله عن معاني جميع الحروف ، ويصور له معانيها وأن المنطق الذي يُزْهِى به مَتَّى لا يستطيع بيانها . ثم يعرض عليه قولهم : « زيد أفضل الإخوة » ، ويسأله أيحوز أن يقال : زيد أفضل إخوته ، ولا يستطيع مَتَّى التفرقة بين العبارتين فيقول له إن العبارة الثانية لا تصح في الكلام لأن إخوة زيد هم غير زيد ، وزيداً خارج عن جملتهم ، ويُفَسِّحُه في متشابهات نحوية وعبارات موهمة لا يَحُلُّها سوى النحو . ويعرض عليه طائفة من مصطلحات المناطقة والفلاسفة ، ويقول له إن كل ذلك لا حاجة للعقل السليم به . وفي الحق أن لَسَنَّ السيرافي وفصاحته وقدرته على التعبير كل ذلك هو الذي أتاح له الظفر بخصمه في تلك المناظرة الطويلة التي امتدت إلى أكثر من عشرين صحيفة ،

وقد أردنا بعرضها أن نصور احتدام المناظرات في العصر وأنها تناولت كل جوانب المعرفة .

وحى الكتب المؤلفة في العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة ، حتى على عنواناتها ، إذ كثيراً ما تُعَنَوْنَ بكلمة الرد أو كلمة النقض ، فالكتاب يُؤَلَّفُ رداً أو نقضاً لكتاب آخر ، وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات في المساجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات ، ويوضح ذلك الجاحظ في بعض كتبه ورسائله ، فقد بُنيت في جمهورها على فكرة المناظرات إذ نرى « الحيوان » يُبْنَى على مناظرة امتدت إلى أكثر من مجلد بين معبد والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل ؟ . وله كتاب افتخار الشتاء والصيف وهو مناظرة واضحة بين الفصيلين ، وكتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم . وهو مناظرة بين العشيرتين القرشيتين ، وكتاب فخر القحطانية والعذنانية وهو مناظرة بين اليمنية والمضرية . وقد يمدح الشيء في رسالة ثم يذمه في أخرى ، وكأنه يكتب مناظرة في رسالتين مثل رسالته في مدح النبيذ ورسالته في ذم النبيذ ومثل رسالته في مدح الكتاب ورسالته في ذم الكتاب ، ومثل رسالته في مدح الوراق (بائع الكتب) ورسالته في ذم الوراق . وله كتب مختلفة يجعل عنوانها كلمة الرد مثل كتاب الرد على المشبهة وكتاب الرد على التصاري وكتاب الرد على اليهود ، وله كتاب العثمانية وكتاب الرد على العثمانية ، وله كتاب نقض الطب . ومن رسائله التي أدارها على المناظرة رسالته « فخر السودان على البيضان » ورسالته « مفاخرة الجوارى والغلمان » . وقد لا توضع فكرة المناظرة أو الرد والنقض أو المدح والذم على الكتاب والرسالة ، فإذا قرأنا فيهما وجدناهما يأخذان شكل مناظرة كبيرة مثل كتاب الترييع والتدوير ، نراه فيه ينتصر للقصر تارة وللطول تارة ثانية ، وتارة ثالثة للتوسط بين الطرفين المتناقضين .

وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدايمًا مناظرات ومجادلات في كل مكان وفي كل موضوع علمي أو فلسفي أو أدبي ، والمناظر ينتصر تارة ، وتارة يهزم في تلك الساحة الفكرية الكبيرة : بغداد ، وهم لا يكلون ولا يملون ولا يتوقفون فدايمًا جدل وحوار وتشعيب للدقائق المأاني وغوص على خفياتها وكوامنها

المستورة ، ولا يمنع الانهزام يوماً صاحبه من التجمع للمناظرة والتحضر للحوار في يوم ثان أو لقاء ثان ، بل قد ينهزم المناظر وينتصر في المجلس الواحد مراراً ، وفي هذا الحوار الواسع ومعاركه الدائرة دون توقف يقول ابن الرومي مشيراً إلى المتناظرين وجدالهم العنيف :

لنوى الجِدالِ إذا غَدَوْا لجدالهم حُجَجٌ تَفِضُ عن الهدى وتَجورُ
وهمُ كَأَنبِيَةِ الزَّجاجِ تصادمُ . فَهَوَتْ وَكَلُّ كَاسِرٍ مَكسورُ

ويبدو ابن الرومي نفسه في شعره مناظرأ كبيراً ، إذ تُطْبَعُ جوانب من شعره - كما أسلفنا - بطوايع الجدال وما يُطَوَّى فيه من قدرة وبراعة على نَسْجِ الأدلة تارة واقضها تارة أخرى . ومراً بنا ذمه للورد ونقضه لحاسنه وقلبها مساوئ ذميمة في قصيدته « النرجس والورد » وهي مناظرة شعرية طريفة .

وتسرى هذه الروح في قصص وحكايات وأخبار جُمعت ونُسِّقت في الكتاب المسمى بكتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ . لأنه يُفْتَتَحُ بكلمة : « قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » وتتوالى نقول عنه في فضائل الكتب ووصف فوائدها ، نجدها مبثوثة في كتاب الحيوان . ولعل هذا الاستهلال هو الذي جعل القدماء يظنون أن الكتاب من تأليف الجاحظ ، وأيضاً فإنه ينقل عنه في بعض فصوله نقولاً مختلفة . ولكن من يعرف أسلوب الجاحظ المطَّرد في كتبه يعرف تَوَّأ أن الكتاب ليس له ، والطريف أن صاحبه ذكر في مستهله عن الجاحظ قوله في بعض رسائله : « إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والحراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركَّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته ، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والخط والرفع والترهيب والترغيب فإنهم يهتاجون عند ذلك احتياج الإبل المغتلمة . . . وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إلىّ وموسوماً بي . وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن

خالد والعتابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتي أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخه وقراءته على ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه غنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة . ويأتى بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمي ولم ينسب إلى تأليني . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المؤلف رأى أن يحاكي الجاحظ في إنكاره لاسمه أحياناً على بعض آثاره ، فنسبه إليه . ليرى رأى الناس فيه وحكمهم عليه . وربما كان هو نفس مؤلف كتاب المحاسن والمساوي الذي سنعرض له عما قليل . ومما يشهد بأن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو لمؤلف تال عصره أن نجد فيه نقولاً عن عبد الله بن المعتز^(١) ، وكان في الثامنة من عمره حين توفي الجاحظ .

والكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات في الأخلاق والشئال ، فكل خلق أوكل شيء تعرض محاسنه ثم تعرض معاييه ، وتصور المعايير والمحسن في أخبار وأقاصيص وحكايات ، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر . وفي مقدمتها الثقافة الإسلامية ، وهي تتضح في الاقتباس أحياناً من الذكر الحكيم^(٢) والاستشهاد الدائم بالأحاديث النبوية^(٣) . وتتسع الثقافة الدينية لتجلب بعض أقوال الزهاد أو بعض قصص الأنبياء أو بعض وصايا من التوراة من مثل : « اشكر من أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعم إذا شكرت ولا إقامة لها إذا كفرت » . والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير^(٤) . وبجانب ذلك تلقانا عناصر كثيرة من الثقافة العربية في مقدمتها الأمثال^(٥) ، والأشعار وهي أكثر من أن ندل عليها في موضع معين من الكتاب . وتكثر أخبار الجاهليين وأقاصيصهم المصورة لمكارم أخلاقهم أو مذامها . وبالمثل أخبار حكام العرب وحكاياتهم على توالي الحقب من إسلاميين وعباسيين وخاصة حكام بني أمية والرشيد والمأمون ، وتكثر أخبار الأعراب وأقاصيصهم ويلعب فيها اسم الأصمعي .

(١) المحاسن والأضداد (طبع دار مكتبة

العرفان بيروت) ص ١٣٨ ، ١٦٩ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٣٩ ، ٤٢ .

(٣) انظر مثلاً ص ٣٢ .

(٤) المحاسن والأضداد ص ٣١ .

(٥) انظر مثلاً ص ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٧٥ .

وتلقانا بحكم وأقاصيص منقولة عن بعض كتب الهند من مثل : « ليس لكنوب مروعة ولا لضجور رياسة ولا للملوك وفاء ولا لبخيل صديق »^(١) ، وبالمثل تلقانا أقاصيص وأخبار وحكم منقولة عن اليونان من مثل : « كلّم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله ، فقال أنساني أول كلامك طول عهده وفارق آخره فهمي لتفاوته ، ولما قدّم بكت امرأته فقال لها : ما ييكيك ؟ قالت : تُقَتِّلُ ظلمًا قال : وكنت تحيين أن أقتل مظلومًا أو أقتل ظالمًا »^(٢) . وللوكة الفرس ووزرائهم شطر كبير من الأقاصيص والأخبار . ونختار بابًا من أبواب المحاسن نسوق منه ما يصور سيول هذه الثقافات ، وهو باب محاسن السخاء ، وبما جاء فيه^(٣) :

« روى عن نافع قال : لقي يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال له : أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم ، قال : أحبهم إلى كل مؤمن ببخيل وأبغضهم إلى كل منافق سخى قال : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء خلق الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : السخى قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل السخى أحب إلى الله عز وجل من عابد ببخيل ، وأدوا الدواء البخل . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يُسْمَعَانِ الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان : اللهم عجل لمتفق خلفًا ولمسك تلفًا ، وملكان يناديان : أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى . وعن الشعبي قال : قالت أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل قميصًا ما لبسته أو طريقًا ما سلكتها ، وكانت تعتق في كل يوم رقبة (عبدًا) وتحمل على فرس مجاهدًا في سبيل الله . . . وقال بهرام جور : من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلي نظر إلى ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والרגائب النفيسة . . . وقال الموبدان لأبرويز (ملك فارس) : أكنتم تَمُسُّونَ أنتم وآباؤكم بالمعروف وترصدون عليه المكافأة ؟ قال : ولا نستحسن ذلك لعبيدنا ، فكيف

(٣) المحاسن والأضداد ص ٦٢ وما بعدها .

(١) المحاسن والأضداد ص ٣٨ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٢٢ .

نرى ذلك وفي كتاب ديننا (كتاب زرادشت : الأفتنا) من فعل معروفًا خفيًا وأظهره ليتطوّل به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ألا نعدّه من الأبرار ولا نذكره في الأتقياء والصالحين . وسُئل الإسكندر : ما أكبر ما شيدت به ملكك ؟ قال : ابتدأرى إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم . وكتب أرسططاليس في رسالته إلى الإسكندر : اعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتخلقها (فتبليه) وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ في قلوب الناس ، فأودع قلوبهم حبةً بأثرك تُبتقى بها حسنٌ ذكرك وكريم فعالك وشريف آثارك . ولما قدّم بزرجمهر (وزير فارسي) إلى القتل قيل له : إنك في آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة ، فتكلم بكلام تُذكرُ به ، فقال : أي شيء أقول ، الكلام كثير ولكن إن أمكنك أن تكون حديثًا حسنًا فافعل . وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابي في الضيافة فقال الأعرابي : نحن أقرى للضيف ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أحدهما ربما لا يملك إلا بغيراً فإذا حلَّ به ضيف نحره له ، فقال له الأعجمي : فنحن أحسن مذهباً في القرى (الضيافة) منكم ، قال : وما ذلك ، قال : نحن نسمي الضيف : مِهْنَمَان ، ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكنا له . وقال المأمون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . وشكا رجل إلى إياس بن معاوية (قاضي البصرة المشهور في العصر الأموي) كثرة ما يهب ويوصل ويفق ، فقال : إن النفقة داعية إلى الرزق ، وكان جالساً بين بايين فقال للرجل : أغلق هذا الباب ، فأغلقه ، فقال : هل تدخل الريح البيت قال : لا ، قال : فافتحه ، ففتحه ، فجعلت الريح تخرق البيت ، فقال : هكذا الرزق أغلقت البيت فلم تدخل الريح ، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق . ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه ، وقال له : إنك أقرضني ناقتك فاحتكم عليّ ، قال الرجل : راحلتين قال حاتم : لك عشرون أرضيت ؟ قال : نعم وفوق الرضا . . . وقيل في المثل هو أجود من كعب بن مائة الإيادي ، وبلغ من جوده أنه خرج في ركب فيهم رجل من بني النمر في شهر قيظ ، فذلوا وتَصَافَوا (تقاسموا بالحصص) ماءهم ، فجعل النمر يشرب نصيبه ويظهر أنه عطشان ، فكان كعب إذا أصاب نصيبه قال للساق : آثِر أخاك النمرى حتى أضرب به العطش فلما رأى ذلك استحث راحلته وبادر حتى وصل

إلى وِرْد ماء ، وقيل له : رِدْ كعب ، إنك وارد ، ولكن العطش غلبه فأت . . .
ومن قول أبي تمام :

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتنق الله سائِلُهُ »

وإنما سَفَقْنَا ذلك كله لندل على المزيج الثقافي الذى يتكوّن منه كتاب المحاسن والأضداد ، وهو مزيج به عناصر قصصية عن الأنبياء وعناصر إسلامية من الحديث النبوى وعناصر عربية من أخبار العرب رجالا ونساء ، وعناصر فارسية من أخبار الفرس وحكاياتهم وعناصر يونانية من أخبار الإسكندر المقدونى وكلام أرسططاليس . وبين السطور نحسُّ شعوبية المؤلف حين يُعَلِّى ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عُرِف عنهم من خصلة الكرم والجود . ولم يكفه ذلك فقد جعل حاتمًا يذبح ناقة ضيفه ليقدم له الغداء والعشاء ، وإن عاد يقول إنه أعطاه بدلا منها عشرين ناقة ، فكأنه يريد أن يستر شعوبيته . ولعل هذا الجانب فى الكتاب هو الذى جعل المؤلف لا يُظهر اسمه ، حتى لا يؤخذ به . وفى هذه الفقرة الطويلة ما يصور سيول الأخبار وما قد يكون فيها من قصص . ودائمًا نلتقى فى الكتاب بطرائف من الحكم والأخبار ، على نحو ما جاء فى محاسن حفظ اللسان إذ قيل : إنه تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رُميت عن قوس واحد ، قال كسرى : أنا على رَدّ ما لم أقل أقدر منى على رَدّ ما قلت . وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملكتنى وإن كنت أملكها . وقال قصير : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت . وقال ملك الصّين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول^(١) . وفى الكتاب قصص كثير متنوع فى موضوعاته وفى مصادره وموارده ، ويكثر فيه القصص عن المرأة العربية ، وكذلك عن المرأة الفارسية ، فما جاء فيه عن المرأة العربية قصة رواها العُشْبِي على هذا النمط^(٢) :

« قال العُشْبِي : كنت كثير التزوج فررتُ بامرأة فأعجبتنى ، فأرسلتُ إليها ألك زوج ؟ قالت : لا فصرتُ إليها ، فوصفت لها نفسى ، وعرفتُها موضعى فقالت : حسْبُكَ قد عرفناكِ ، فقلت لها : زوجينى نفسك ، قالت نعم :

ولكن ههنا شيء هل تحتمله ؟ قلت : وما هو ؟ قالت : بياض في مفرق رأسي . قال : فانصرف ، فصاحت بي ارجع ، فرجعت إليها ، فأسفرت عن رأسها . فنظرت إلى وجه حسن وشعر أسود ، فقالت : إنا كرهنا منك ، عافاك الله ، ما كرهت منا ، وأنشدت :

أرى شَيْبَ الرجال من الغَوَايِ بموضع شَيْبِهِنَّ من الرجال

وهي قصة طريفة ، وفي الكتاب قصص عن النساء ووفائهن وكيدهن ، تكثر فيها عناصر التشويق ، مما يجعلها قصصاً بدیعة من ذلك قصة أضيفت إلى شیرین الملكة الفارسية المشهورة ملخصها أن زوجها كسرى أبرويز أناه صياد بسمكة كبيرة^(١) فأعجب به وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شیرین : أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فإن أمرت بمثلها لرجل من وجوه حاشيتك قال : إنما أمر لي بمثل ما أمر به للصياد . فقال لها كيف أصنع وقد أمرت له بما أمرت ؟ قالت إذا أتاك فقل له : أخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى ؟ فإن قال : أنثى فقل : لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بالذكر ، وإن قال : ذكر ، فقل له : لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بالأنثى ، فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى ؟ قال : بل أنثى قال : فتأني بذكرها ، قال : عمر الله الملك إنها كانت بكرأ لم تتزوج بعد ، فقال له الملك : حسناً ، حسناً ، وأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمر أن يكتب في ديوان الحكمة : إن الغدر ومطاعة النساء يورثان العُرم . وبعض قصص النساء بها غير قليل من الفحش ، وقد تذكر أشياء غريزية تنبؤ عن الأذواق^(٢) على نحو ما يجري في بعض قصص ألف ليلة وليلة ، وكانت قد تُرجمت ، فربما تأثر المؤلف بها ، وربما تأثر المؤلف في ذلك بالشعر المفحش الكثير الذي كان موجوداً في العصر . وقد يكون ذلك من أسباب تنكر المؤلف وإخفائه لاسمه . ويلقانا قصص ديني عن بعض الزهاد ، وقد نلتقي بحكايات صوفية ، بل قد نلتقي بما يصور كرامات المتصوفة التي سبق أن تحدثنا عنها التي كان ينكرها وشيوخهم الأجلاء ، فمن ذلك ما رواه الكتاب ،

(٢) انظر مثلاً القصة في ص ١٩٣ و ص ٢١٤ .

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٠١ .

قال^(١) : « عن أبي مسلم الحولاني قال : إنه خرج إلى السوق بدرهم يشتري لأهله دقيقاً ، فعرض له سائل ، فأعطاه بعضه ، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقي ، فأتى درب النجَّارين ، فلأ جيرا به أو مزوده من نشارة الخشب ، لمتنع بها امرأته في إيقاد التَّنُور وأتى منزله ، فألقاه ، وخرج هارباً من زوجته . وأخذته فإذا هو دقيق أبيض حُوَّارَى (فاخر) لم تر مثله ، فعجنته وخبزته ، فلما جاء ووجد الخبز سألها : من أين لك هذا الخبز ، قالت له : من الدقيق الذي جثتنا به ! . ويذكر الكتاب كرامة لسفيان الثوري لا تقل غرامة عن الكرامة السابقة . ولا نريد أن نسترسل في نقل هذا القصص الكثير الذي ينخر به كتاب المحاسن والأضداد ، إنما نريد أن نوضح كيف أن هذا القصص يحوى على عناصر مشوقة كثيرة ، وأنه كان يدخل في الأدب الشعبي العام ، ولذلك يخلو من استعمال السجع والأساليب المنمقة ، والطريف أنه عُرِضَ لجسم وجهين متقابلين في كل خُلُق وكل خصلة ، فثلا الصدق له محاسنه ، وهذه المحاسن أفاصيصها وله معاييه ، وهذه المعايير أفاصيصها . وبالمثل كل فضيلة ، فوفاء النساء لمحاسنه أفاصيصها ولعاييه أفاصيص تقابلها وتناقضها أشد المناقضة . وبذلك يأخذ عرض هذه الأفاصيص وما يتصل بها من الأخبار والأقوال والأشعار شكل مناظرات أدبية لا تعتمد على الجدال والحوار بالدليل ضد الدلائل والحجة العقلية ضد الحجة العقلية ، وإنما على الحوار والجدال بالخبر ضد الخبر والشعر ضد الشعر والقصة ضد القصة والحكاية ضد الحكاية .

ويلتقى بهذا الكتاب في موضوعاته وأكثر مادته كتاب المحاسن والمساوي لإبراهيم بن محمد البيهقي ، وقد أغفلت الحديث عنه كتب التراجم ، غير أنه يفهم مما ذكره عن الخليفة المقتدر في آخر حديثه^(٢) عن محاسن المسامرة أنه ألف كتابه في زمته . وهو يستهل كتابه بالحديث عن فضائل الكتب ووصف محاسنها مثل المحاسن والأضداد ، ويمائله أيضاً في النقل كثيراً عن الجاحظ . ثم يفتح طائفة من الفصول لم ترد في الكتاب السالف يتحدث فيها عن محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم

وفضائله ومساوئ المتنبئين ومحاسن الخلفاء الراشدين ومناقبهم ومساوئ من عادي على بن أبي طالب ومحاسن ابنه الحسن والحسين ومساوئ قتلة الأخير ومحاسن السابقين إلى الإسلام ومساوئ المرتدين ومحاسن كلام الحسن بن علي وعبد الله بن العباس وفضائل بني هاشم ومحاسن الافتخار بالرسول . وكل هذه المقدمات ينفرد بها هذا الكتاب بالقياس إلى كتاب المحاسن والأضداد ، وبمجرد أن نفرغ منها نجد الكتابين يلتحمان ، حتى ليصبح كتاب المحاسن والمساوئ كأنه نسخة جديدة لكتاب المحاسن والأضداد ، مما يؤكد أن مؤلفهما واحد ، وكأن البيهقي ألّف الكتاب الأول ، وأقحم فيه ما أقحم من أفكار الشعوبية والفحش في القصص ، ثم رأى أن يخرجها إخراجاً جديداً وينسبه إلى نفسه ، مستحياً منه ما يصور شعوبيته وما ينبو عن الأذواق السليمة من القصص المفحش مع وضع المقدمات آتفة الذكر . ويبدو منها أنه كان يُكِنُّ نزعة شيعية ، وإن لم يبرزها بقوة خوفاً على نفسه من المقندر وحواشيه . وهو في هذه النسخة الجديدة للكتاب يذكر ابن المعتز^(١) على نحو ذكره له في النسخة القديمة أو بعبارة أخرى في المحاسن والأضداد .

وطبيعي أن تكون مصادر هذا الكتاب هي نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ ، لأنه ليس أكثر من نسخة مجددة له ، وغاية ما هناك أنه دخله تنقيح وتهذيب كثير ، وإذن فكل ما قلناه عن المزيج الثقافي في المحاسن والأضداد ينطبق بحذافيره على هذا الكتاب ، وفيه بعض آي القرآن والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة والزهاد ، وفيه أخبار وأقاصيص منقولة عن الأنبياء وعن عيسى وحوارييه ، ومن طريف ما نقله عنه ، قوله^(٢) :

« إن ابن آدم خلُق في الدنيا في أربع منازل ، هو في ثلاثة منها واثقٌ بالله عزَّ وجلَّ ، وهو في الرابعة سيئٌ الظن ، يخاف خذلان الله عزَّ وجلَّ لإياه ، فأما المنزلة الأولى فإنه خلُق في بطن أمه خلائقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرَّحِمِ وظلمة المَشِيْمَةِ ، يُنْزَلُ الله جلَّ وعزَّ عليه رزقه في جوف ظلمة البطن . فإذا خرج من ظلمة البطن وقع في اللبن لا يخطو إليه بقدم

(١) راجع المحاسن والمساوئ ص ٢٧٦/١ ، (٢) المحاسن والمساوئ ١ / ٤٥٩ .

ولا ساق ولا يتناولوه بيد ولا ينهض بقوة ويُسكِّره عليه إكراهًا ، حتى يثبت عليه عظمه ودمه ولحمه . فإذا ارتفع من اللبن وقع في المنزللة الثالثة في الطعام بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام ، فإن مات أبواه من غير شيء عطف عليه الناس ، هذا يُطعمه ، وهذا يسقيه ، وهذا يُؤويه . فإذا وقع في المنزللة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلاً خشياً ألا يُرزق ، فيثيب على الناس ، فيخون أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ويكاثروهم على (يغصبهم) أموالهم مخافة خذلان الله عز وجل إياه .

والنص موجود في المحاسن والأضداد^(١) ، ولكن العبارة هنا نُقِحت وهُدِّبَت بصور مختلفة ، وكذلك النصوص الأخرى حين نعارض الكتابين فيها بعضهما على بعض نجد دائماً هذا التنقيح ، مما يشهد بأن يداً واحدة هي التي كتبتهما ، وأن أولهما كان أشبه بمسودة واتخذ الثاني شكل نسخة مهذبة منقحة قد صُفِّيت وأُخْلِيت من كل الشوائب اللغوية وغير اللغوية ، ودخلتها إضافات من الأمثال والأحاديث النبوية والأشعار والأخبار والأقاصيص ، كهذه الأقصوصة التي تلقانا في الحديث عن محاسن الولايات ، وهي تمضي على هذا النمط^(٢) :

« دخل محمد بن واضح دار المأمون ، وخلفه أكثر من خمسمائة راكب ، كلهم راغب إليه وراهب منه ، وهو إذ ذاك يلي عملاً من أعمال السَّوَاد (الأرض المزروعة) في العراق . فدعا به المأمون فلما حضر بين يديه قال : يا أمير المؤمنين أعفني من عمل كذا وكذا ، فإنه لا قوة لي عليه ، فقال له المأمون : قد أعفيتك . واستعفى من عمل آخر . وهو يظن أنه لا يعفیه . فأعفاه ، حتى خرَّج من كل عمل في يده في أقل من ساعة ، وهو قائم على قدميه . فخرج وما في يده شيء من عمله . فقال المأمون لسالم الحوائجي : إذا خرج فانظر إلى موكبه وأحص من بقي معه . وكان المأمون قد رآه من مستشرق له حين أقبل - فخرج سالم وراء محمد بن واضح وقد استفاض الخبر بعزله عن عمله . فظفر فإذا هو لا يتبعه أحد إلا غلام له بغاشية^(٣) . فرجع سالم إلى المأمون فأخبره ، فقال : ويلهم

(٣) غاشية : غطاء .

(١) المحاسن والأضداد ص ١٢٨ .

(٢) المحاسن والمساوي ١ / ٢٧٣ .

لو تَجَمَّلُوا له رَبِّثْنَا بِرَجْعِ إِلَى بَيْتِهِ كَمَا خَرَجَ مِنْهُ ، ثُمَّ تَمَثَّلْ فِيهِمْ :
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَلَاقِ الَّذِي لَاقَى مُجِبِرُ أُمِّ عَامِرٍ^(١)
ثُمَّ قَالَ : صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَانَ لِلصَّدَقِ أَهْلًا حِينَ قَبِلَ : لَا تَنْفَعُ الصَّنِيعَةُ
إِلَّا عِنْدَ ذِي حَسَبٍ أَوْ دِينٍ .

وَيُفَيِّضُ هَذَا الْكِتَابُ كَمَا تَفَيِّضُ مَسْوَدَّتُهُ : « الْحَاسِنُ وَالْأَضْدَادُ » بِكَثِيرٍ مِنْ
أَحْوَالِ الْعُصُورِ الْعَرَبِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ ، وَخَاصَّةً الْعَصْرَ الْعَبَّاسِيَّ ،
وَنَرَى الْبِيهَقِيَّ يَفْتَحُ فِيهِ - كَمَا أَشْرْنَا إِلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ - فَصْلًا طَوِيلًا عَنْ
أَصْنَافِ^(٢) الْمَكْدِينِ وَأَفْعَالِهِمْ وَهُوَ فِيهِ يَنْقُلُ عَنِ الْجَا حِظِّ وَمَا كَتَبَهُ عَنْهُمْ فِي مَصْنَفِهِ
الْبُخْلَاءِ ، وَقَدْ عَرَضَ فِيهِ حَيْثُ كَلَّمَهُمْ وَتَسَجَّوْا لَهُمْ فِي الْبُلْدَانِ وَنَوَادِرِهِمْ ، فَمِنْ ذَلِكَ^(٣) :

« أَنَّهُ أَتَى سَائِلٌ دَارًا يَسْأَلُ مِنْهَا ، فَأَشْرَفَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ مِنْ غُرْفَةٍ : فَقَالَ لَهَا :
يَا أُمَّةَ اللَّهِ بِاللَّهِ أَنْ تَصَدَّقِي عَلَى بَشِيءٍ ، قَالَتْ : أَيُّ شَيْءٍ تَرِيدُ ؟ قَالَ : دَرَاهِمًا ،
قَالَتْ : لَيْسَ عِنْدِي ، قَالَ : فَدَانِقًا (جُزْءٌ مِنْ دَرَاهِمٍ) ، قَالَتْ : لَيْسَ عِنْدِي ،
قَالَ : فَقَلَسًا (جُزْءٌ مِنْ دَانِقٍ) ، قَالَتْ : لَيْسَ عِنْدِي ، قَالَ : فَكُسُوءٌ ،
قَالَتْ : لَيْسَ عِنْدِي ، قَالَ : فَكَفْأٌ مِنْ دَقِيقٍ ، قَالَتْ : لَيْسَ عِنْدِي ، قَالَ :
فَرَبِثًا . . . حَتَّى عَدَّ كُلَّ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْبُيُوتِ ، وَهِيَ تَقُولُ لَيْسَ عِنْدِي ، فَقَالَ
لَهَا : فَمَا يُجْلِسُكَ عِنْدَكَ ، مَرَّتِي ، اسْأَلِي مَعِيَ . »

وَوَاضِحٌ أَنَّنَا لَا نَعْتَرُ فِي الْمَادَّةِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي يَحْتَوِيهَا هَذَا الْكِتَابُ وَسَائِفُهُ عَلَى شَيْءٍ
مِنِ السَّجْعِ أَوْ التَّكْلُفِ لِأَلْوَانِ الْبَدِيعِ أَوْ لِأَيِّ زَخْرَفٍ أَوْ تَنْمِيقٍ ، فَهِيَ مَادَّةٌ سَهْلَةٌ ،
لَيْسَ فِيهَا أَيُّ حَلِيَّاتٍ لَفْظِيَّةٍ وَلَا غَيْرِ لَفْظِيَّةٍ ، وَلَيْسَ فِيهَا أَيُّ صَعُوبَاتٍ لُغَوِيَّةٍ ،
وَهِيَ لِذَلِكَ تَعَمَّدُ مَادَّةً شَعْبِيَّةً ، أَوْ قَلَّ إِنْ الْكِتَابَيْنِ مُصَنَّفَانِ كَبِيرَانِ مِنَ الْأَدَبِ
الشَّعْبِيِّ فِي الْعَصْرِ ، وَضَعَهُمَا أَدِيبٌ مُمْتَازٌ فِي شَكْلِ مَنَاطَرَاتٍ وَمَحَاوِرَاتٍ ، حَتَّى
يَشَوِّقَ إِلَى قَرَأَتِهِمَا . وَلَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا التَّشْوِيقِ الْعَامِّ ، فَقَدْ أَدْخَلَ فِي الْأَخْبَارِ
وَالْأَقَاصِيصِ عُنَا صِرَ كَثِيرَةً مِنْهُ تَدْفَعُ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ إِلَى الشَّغْفِ بِقَرَاءَةِ
الْكِتَابَيْنِ .

(٣) الْحَاسِنُ وَالْمَسَاوِي ٢ / ٤١٧ .

(١) أُمُّ عَامِرٍ : الضَّمْعُ .
(٢) الْحَاسِنُ وَالْمَسَاوِي ٢ / ٤١٣ .

الرسائل الديوانية

مرّ بنا في العصر العباسي الأول كيف أن الدواوين كانت كثيرة ومتنوعة ، فديوان للخراج ، وديوان للنفقات وديوان للضياع وديوان للرسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش أو دواوين ، ودواوين لشرق الدولة وغربها ، ولكل ولاية ديوان وأحياناً دواوين . وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذي يُشرف عليها . وهذه الصورة العامة للدواوين في سامراء وبغداد كانت تقابلها دواوين أخرى في حاضرة كل ولاية . وكان لأولياء العهد والوزراء دواوين بدورهم ، وكذلك لكبار القواد ، وحتى نساء الخلفاء كان هن دواوين يقوم عليها كُتّاب ينظرون في الدخّل والخرج والنفقات .

وكان ذلك عاملاً قوياً في نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون ، وخاصة أنها كانت تعود عليهم برواتب وأرزاق ضخمة . وكان الكاتب في دواوين الدولة إذا أظهر نبوغاً ارتقى سريعاً ، وما يزال يرتقى حتى يصبح رئيس مجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً يدبّر أمور الدولة كلها ، فإن فاتته الوزارة أصبح والياً لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولي - فيما ولي - البصرة . وكثير من الولاة كانوا يُستقنون الكتابة مثل محمد بن عبد الله بن طاهر وأخيه عبيد الله حاكمي بغداد بالتعاقب .

وكانت الدواوين في سامراء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة ، يتفدّ عليها الشباب ، ويختبرون اختباراً دقيقاً ، فمن نجح في الاختبار وُظّف فيها ، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم . ويدبّج بعض الرسائل ، فإذا نالت رسالة حُظوةً من رئيس الديوان تمّ له سَعْنده . وربما ألحقهم ببعض الولاة أو العمال ، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين . ولا ريب في أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة ، وهو تنافس دفع إلى الشغف

الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفي مقدمتها الثقافة اللغوية ، ومرّ بنا كيف أن ابن قتيبة ألّف لهم في ذلك كتابه « أدب الكاتب » . ولا بد من إتقان الفقه لحاجة الكاتب إليه في شئون الخراج ، وأيضاً لا بد من إتقان الحساب لنفس الغاية . وكانوا يُكسِبُون خاصة على علوم التنجيم والمنطق والهندسة وعلى الفلسفة مما جعل ابن قتيبة يظنُّ بهم الظنون وأنهم يغرقون إلى آذانهم في علوم اليونان وفلسفتهم حتى ليفوتهم إتقان العربية . وتوفّروا على ما تُرجم من الثقافة الهندية من الحكم والقصص وكذلك على ما ترجم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم ووزرائهم . فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزوّدون به ، حتى يستمدوا منه في معانيهم ومنطقهم . وكانوا يلتزمون الوضوح لأن رسائلهم توجه إلى العامة ولا بد أن تفهّم ما تسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان . كما كانوا يلتزمون فيها شيئاً من التجميل حتى تنال استحسان من يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء والقواد . وكانت الرسائل تتناول جميع شئون الدولة من منشورات تنصل بأهل الذمة أو الرعية ومن ولاية عهود أو بيعة خليفة أو خلع أو دعوة إلى الجهاد في سبيل الله أو تولية وزير أو وال أو تنويه بموسم حج أو عيد أو أخبار الولايات أو أمر بمعاينة بعض الجناة . وتفنّنوا في المقدمات وخاصة في التحميدات وما اتصل منها برسالة الحميس التي كانت تُكتب إلى الولايات حين يستولى خليفة على مقاليد الحكم .

ونحن نعرض طائفة من الكتاب مرتّبين على عهود الخلفاء لتبين من خلال كتاباتهم روعة بيانهم من جهة وما حدث من تطور في الكتابة الديوانية وأساليبها في العصر . ومعروف أن أول كاتب نابّه يلاقنا في العصر هو إبراهيم بن العباس الصوري الذي حرّر أكثر ما صدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل في الفتوح ، ولن نقف عنده لأننا سنخصه بحديث مفصل في الفصل التالي . ومن كتّاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي استكتبه سنة ٢٣٦ ، ثم جعله وزيره وللبخري فيه مدائح مختلفة ، وقد احتفظ له الطبري برسالة كتب بها عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد يأمره بضرب رجل ألف سوط لِمَا صحّ من شهادة شهود كثيرين عليه بشتمة لأبي بكر وعمر والسيدة عائشة والسيدة

حفصة زوجى الرسول ، والرسالة تخلص من السجع ومحاولة التنميق^(١) .

ويدخل عصر المنتصر ، ويستوزر أحمد بن الحبيب . وكان كاتباً أديباً ، مما جعله يعهد إليه بكتابة الكتب التى تصدر عنه ، وكان من أوائلها كتاب فى الجهاد كتبه لسبع ليال خلت من المحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتجه وصيف إلى الغزو فى أرض الروم ، وفيه يقول^(٢) :

« قال عز وجل أمراً بالجهاد مفترضاً له : (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . وليست تمضى بالمجاهد فى سبيل الله حال لا يكابد فى الله نصباً ولا أذى ، ولا ينفق نفقة ولا يقارع عدواً ، ولا يقطع بلداً ، ولا يطاء أرضاً ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجر مأمول ، قال الله عز وجل : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ^(٣) فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَبِطُشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ وَلَا يَسْتَفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . . . وليس من شئ يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم ، ويستسعون به فى حظ أوزارهم وفكاك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهاد عنده أعظم منه منزلة ، وأعلى لديه رتبة ، وأولى بالفوز فى العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وممحو بها دون من وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبسببهم ووقتهم (قمعوا) بجهادهم العدو » .

وصياغة الكتاب جزلة رصينة ، وفيها محاولة واضحة للدقة فى التعبير وأن يروق السمع والذهن ، ولكن لا يسجع ، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة . مما يشهد لابن الحبيب بأنه كان كاتباً مجيداً . واحتفظ الطبرى له بكتاب ثان خلع فيه المنتصر أخويه المعتز والمؤيد^(٤) ، نحا فيه منحى الكتاب السابق فى الصياغة . ويتولى المستعين الخلافة ، ويتخذ سعيد بن حميد أحد الكتاب البلغاء على

(٣) مخصة : جوع شديد .

(٤) طبرى ٩ / ٢٤٧ .

(١) طبرى ٩ / ٢٠٠ .

(٢) طبرى ٩ / ٢٤١ .

ديوان رسائله ، وسنخصه بحديث مستقل في الفصل التالى . وسرعان ما يتولى المعتز الخلافة ، ويستوزر أحمد بن إسرائيل ، ويقول الفخرى إنه أحد الكتاب الحذّاق الأذكياء^(١) . وكان من كبار ولاته وأقربهم إلى نفسه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، وكان أديباً بارعاً ، وفى الطبرى رسالة له وجه بها إلى عمّال النواحي حين أعطاهم المعتز الحق فى التنكيل بأعدائه ، وهى تمتلئ وعيداً وتهديداً على هذا النمط^(٢) :

« أما بعد فإن زَيْغَ الهوى صَدَفَ بكم عن حَزْمِ الرأى ، فأقحمكم حبائل الخطأ ، ولو ملّكتكم الحق عليكم وحكمتم به فيكم لأوردكم البصيرة ونقّى غيابة^(٣) الحيرة ، والآن فإن تَجَمَّعُوا لِلْسَّائِمِ تَحَقُّقُوا دِمَاءَكُمْ وَتَرْغِدُوا عَيْشَكُمْ وَيَصْنَحْ أُمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ جَرِيرَةِ جَارِمِكُمْ^(٤) ، وَيُسَبِّحِ النِّعْمَةَ عَلَيْكُمْ ، وإن مضيت على غُلُوءَاتِكُمْ وَسَوَّلَ لَكُمْ الْأَمَلُ أَسْوأَ أَعْمَالِكُمْ فَتَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَعْدَ نَبَذِ الْمَعْذَرَةِ إِلَيْكُمْ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ . وَلئن شُنَّتِ الْغَارَاتُ وَشُبَّ ضِرَامُ^(٥) الْحَرْبِ ، وَدَارَتْ رَحَاهَا عَلَى قُطْبَيْهَا وَحَسَسَتْ^(٦) الصَّوَارِمُ أَوْصَالَ حِمَاتِهَا ، وَاسْتَجَرَّتِ الْعَوَالِى مِنْ نَهْمِهَا ، وَدُعِيتْ نَزَالُ^(٨) ، وَالتَّحَمَّ الْأَبْطَالُ ، وَكَلَمَحَتْ^(٩) الْحَرْبُ عَنْ أَنْيَابِهَا أَشْدَاقَهَا ، وَأَلْقَتْ لِلتَّجَرُّدِ عَنْهَا قَنَاعَهَا . وَاخْتَلَفَتْ أَعْنَاقُ الْخَيْلِ ، وَزَحَفَ أَهْلُ النُّجْدَةِ إِلَى أَهْلِ الْبَغْيِ لَتَعْلَمَنَّ أَيْ الْفَرِيقَيْنِ أَسْمَحُ بِالْمَوْتِ نَفْسًا ، وَأَشَدُّ عِنْدَ الْلِقَاءِ بَطْشًا ، وَلَاتِ حِينَ مَعْذَرَةٍ ، وَلَا قَبُولِ فِدْيَةٍ ، وَقَدْ أَعْذَرُ مِنْ أَنْتَرِ (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مَنْقَلَبُ يَنْقَلِبُونَ) » .

وصياغة الرسالة صياغة مضبوطة محكمة ، ويكثر فيها التقابل بين العبارات ويكثر التفاصح واستخدام كلمات القرآن الكريم وبعض آيه مثل : (فإن تجنحوا للسلم) ومثل : (فتأذنوا بحرب من الله ورسوله) و(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) مما يدل على تمكن الكاتب من العربية والثقافة الإسلامية القرآنية ، وقد استخدم كلمة :

- | | |
|-------------------------------------|---|
| (١) الفخرى ص ١٨٢ . | (٦) حمت : قطعت . |
| (٢) طبرى ٩ / ٣٦٧ . | (٧) استجرت : اجترت . |
| (٣) غيابة : غشاوة . | (٨) دعيت نزال : كناية عن احتدام الحرب . |
| (٤) جريرة جارمكم : جريمة مذنبكم . | (٩) كلمحت : كشرت . |
| (٥) ضرام : وقود . | |

« واستجرت » بدلا من كلمة : « واجترت » دلالة على قدرته في القياس والتصريف ، وأتى بأمثال مختلفة مثل : « ودعيت نزال » وهو مثل يضرب لاحتدام الحرب ، ومثل : « من أعذر فقد أندر » . وثىء أهم من ذلك كله واضح في الرسالة وضوحاً بَيِّنًا ، وهو كثرة الصور فيها مثل غيابة الحيرة وإسباغ النعمة وضرام الحرب و « دارت رحاها على قطبها ، وحسمت الصوارم أوصال حماتها واستجرت العوالى من نهمها . . . وكلحت الحرب عن أنيابها أشداقها وألقت للتجرد عنها قناعها » . صور متراكمة ، قصد إليها الكاتب قصداً ليدل على براعته الفنية ، وأنه ليس الشعر وحده الذى يستطيع أن يحمل حشود الصور ، فالنثر بدوره يمكن أن يحمل منها ما يحمل الشعر ، بل يمكن أن يزداد حملة وأن يصبح صوراً خالصة يأخذ بعضها بزمام بعض .

ويخلف المعتز المهتدى ، وهو أعظم خلفاء العصر سيرة حميدة وتقوى وورعاً وعبادة ، وكان كما مرّ بنا يخطب في الناس كل جمعة يعظهم ويذكرهم الآخرة ، وكان يعمل في دواوينه سعيد بن عبد الملك ، ويقول صاحب الفهرست : البلغاء الحديثون ثلاثة : الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولى وسعيد بن عبد الملك^(١) ، وإله كتاب في التنويه بخليفة وخطابته في عيد الفطر . ولا نرتاب في أنه يريد المهتدى ، لأن من وليه من خلفاء القرن الثالث كانوا يندبون عنهم من يخطب يوم الجمع ، ومرّ بنا ما أصاب المعتضد من حصر حينما حاول الخطابة في أحد الأعياد ، فالمهتدى المقصود بتلك الرسالة ، وفيها يقول^(٢) :

« أدام الله صلاح الأمة ولا أخلاها من بركة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالت في كنف السلامة بسلامته ، وظلّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته . وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين فبا وكتبه الله به في مخرجه إلى عيده من يوم فطره وما وقّعه له من التقرب إليه بوسائل التذلل في طاعته والاجتهاد في شكره والمناسحة في مخاطبة من حضره وإنصاتهم لوعظه وتذكيره ، وما وليه الله به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة ، والعز الموصول بالسكينة . . . منّا من الله خصّ به

خليفته وأعطاه فضل مزيته بما وفقه له من العدل والنصفه ، والبر والمرحمه ،
والعطف والرأفة » .

وفى هذه الفقرة ما يصور كيف أخذ كتّاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن
الثالث الهجرى يصطنعون السجع فى جواب من رسائلهم على نحو ما نرى الآن
عند سعيد بن عبد الملك ، وحقاً أخذ السجع يدخل فى الرسائل الشخصية منذ
القرن الثانى كما صور ذلك كتابنا العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا فى رسالة
ابن سبابة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ظلت تُكتب بأسلوب مرسل ، يشيع
فيه أحياناً الازدواج ، أما السجع فيندر أن نلتقى به فى تلك الرسائل ، وكأن الأذواق
أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره فى الكتابة الديوانية لهذا العصر .

ويخلف المهتدى المعتمد ، ويظل وزيراً له ، كما كان وزيراً لسابقه ، سليمان بن
وهب ، ويقول الفخرى^(١) عنه : أخذ كتّاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة
وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم ، ويروى عنه أنه كان يكتب ، فى أول عهده
بالعمل ، بدواوين الدولة بين يدى محمد بن يزداد وزير المأمون . وكان إذا انصرف فى
الليل إلى داره ناب عنه فى دار المأمون أحد الكتاب الصغار بالنوبة لمهمّ عساه
يعرض فى الليل . يقول سليمان : وبينما أنا نائب عنه فى إحدى الليالى إذ طلبنى
المأمون ، فقال لى : اعمل نسخة فى المعنى الفلافى ، ووسّع بين سطورها وأحضرها
لأصلح منها ما أريد إصلاحه ، فخرجتُ سريعاً وكتبت الكتاب وبسّضته وأحضرتها إليه ،
فلما رآنى قال : كتبت مسودة ؟ قلت : بلى كتبت الكتاب ، فقال : بسّضته ؟
قلت : نعم ، فزاد فى نظره إلى كالمتعجب منى ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على
وجهه ، وقال : يا صبي لا أدرى من أى شىء أعجب أمن سرعة فهمك أم من
من حُسْن خطّك ، بارك الله فيك . ونعجب أن يظل سليمان بن وهب يعمل فى
الدواوين ويكتب رسائل ديوانيه مختلفة حتى عصر المعتمد ومع ذلك لا تحتفظ له
كتب الأدب برسالة واحدة من تلك الرسائل ، وحتى رسائله الشخصية لم تحتفظ
منها إلا بما كتبه شعراً على نحو ما يلاحظ قارئ ترجمته فى الأغانى ، وإلا فقرة
نثرية من كتاب اعتذار على هذا النحو^(٢) :

« أنا مقررٌ معترف ، فما تترك صانعاً بمن أعلمك زمامه ، وأمكنك من قياده ، وحكمك في أمره ، معاقباً له أو متفضلاً عليه بالعفو عنه ؟ لكنى أرجو أن أستقبل طاعة لا تمنع من شكرها ، واغتفار كل تقصير خلاً في جنبها ، فالأيام بما تحب أمامك . »

والقطعة قصيرة ، ولكنها على كل حال تصور صياغةً جزلةً رصينة ، كما تصور ذوقاً مهذباً في الاعتذار والاستعطاف ، حتى يجعل زمامه وقياده بيد صديقه ويحكمه في أمره ، وله الخيار إما أن يعاقب ، وإما أن يتفضل بالعفو . وكان يكتب بين يديه حين وزر للمعتد أبو العباس أحمد بن ثوبة ، وهو من أعلام الكتاب في العصر ، وسنخصه في الفصل التالي بحديث مستقل .

وكان يلي وزارة المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وفيه يقول الفخرى ^(١) :
« من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعاً في صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جليلاً ، مات للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها ، فقال له عبيد الله بن سليمان : « مثلك - يا أمير المؤمنين - تهون المصائب عليه ، لأنك تجد من كل مفقود عَوْضاً ، ولا يجد أحد منك عوضاً ، وكان الشاعر عَنَّاكَ بقوله :

يُبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَطُ أَكْبَاداً مِنَ الْإِلِ
وليس بين أيدينا من رسائل عبيد الله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها في لَعْنِ معاوية ، حتى يقرأ بها الخطباء بعد صلاة الجمعة على المنابر ، وقد استهلها عبيد الله بالتحميد قائلاً ^(٢) :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله العلي العظيم ، الخليم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوحدانية ، الباهر بقدرته ، الخالق بمشيئته وحكمته ، الذي يعلم أسرار الصدور وضائر القلوب لا تَخْفَى عليه خافية ، ولا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرة في السموات العلَا ، ولا في الأرضين السفْلَى ، قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . وضرب لكل شيء أمدأ ، وهو العليم الخبير . والحمد لله الذي برأ خلقه لعبادته ، وخلق عباده لمعرفته ، على سابق علمه في

طاعة مطيعهم ، وماضى أمره فى عصيان عاصيهم ، فبينَ لهم ما يأتون وما يتَّقون ، ونهَجَ لهم سبيلَ النجاة ، وحذَّرهم مسالك الهلكة ، وظاهرَ عليهم الحجة ، وقدَّم إليهم المَعذرة ، واختارَ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وأكرمهم به ، وجعل المعتصمين بحبله والمتمسكين بعُرْوته أولياءه وأهل طاعته ، والعاندين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْئَتِهِ وَيَحْيِيَ مَنْ حَتَّى عَن بَيْئَةِ) وإن الله لسميعٌ عليم) . والحمد لله الذى اصطفى محمداً رسوله من جميع بريته ، واختاره لرسالته ، وابتعثه بالهدى والدين المرتضى إلى عباده أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين ، وتأذَّن له بالنصر والتمكين ، وأيَّده بالعز والبرهان المتين ، فاهتدى به مَنْ اهتدى ، واستنقذ به مَنْ استجاب له من العمى ، وأضلَّ مَنْ (أُخْبِرَ وَتَوَلَّى) حتى أظهر الله أمره ، وأعزَّ نصره ، وقهر مَنْ خالفه ، وأنجز له وعده ، وختم به رُسُلَه ، وقبضه مؤدياً لأمره ، مبلغاً لرسالته ، ناصحاً لأُمته ، مرضياً مهتدياً إلى أكرم مآب المتقلين ، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين ، وعباده الفائزين ، فصلَّى الله عليه أفضل صلاة وأتمَّها ، وأجلَّها وأعظمها ، وأزكاها وأطهرها ، وعلى آله الطيبين .

ويكثر السجع فى مقدمة هذه الرسالة التى كتبت لسنة ٢٨٤ وهو شىء طبعى ، فقد دخل السجع الرسائل الديوانية ، وحقاً لم يطَّرد فيها بعد ، حتى فى هذه الرسالة نفسها فإن عبيد الله تخلص بعد ذلك منه فى الرسالة . وقد مضى يصور استجابة بنى هاشم للرسول عليه السلام حين دعا قومه للهدى ومؤازرتهم له ومناصرتهم بينما كان ممن عانده وناذبه وكذبه وحاربه أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بنى أمية ، حتى علت كلمة الله وهم لها كارهون . ثم يذكر آثاراً فى ذم أبى سفيان وابنه معاوية وما كان من حربه لأفضل المسلمين فى الإسلام مكاناً وأقدمهم إليه سبقاً وأحسنهم فيه أثراً وذكرأ على بن أبى طالب . ويذكر أعمال معاوية وكيف أنه أباح المحارم ومنع الحقوق أهلها وقتل صبراً نفرأ من خيار التابعين ويعرض أعمال يزيد بن معاوية وإيقاعه بأهل الحرَّة وسفَّكه دم الحسين مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل ، اجترأ على الله وكفراً بدينه وعداوة لرسوله ومجاهدة لِعِترته واستهانة بحرمته . ويذكر ما كان من

بنى مروان من تعطيل كتاب الله وأحكامه ونَصَبهم المجانيقَ على بيته ورميهم له بالنيران استباحه وانتهاكاً ، ويختمها بقوله :

« أيها الناس بيننا هداكم الله ، ونحن المستحفظون فيكم أمر الله ، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله ، فقفوا عند ما نقفكم عليه . وانفذوا لما نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى . وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم ، ويسأله توفيقكم ، ويرغب إلى الله في هدايتكم لرشدكم وفي حفظ دينه عليكم ، حتى تلقوه به مُسْتَحْقِين طاعته مُسْتَحْقِين (حاملين) لرحمته » .

وراجع المعتضد نفسه ، وخشى أن يجمع الكتابُ قلوبَ العامة حول العلويين ، لما كان لجدِّهم علي بن أبي طالب من بلاء عظيم في إعلاء كلمة الله وإلقاء كفار قريش له عن يديهم صاغرون . وفي الكتاب إطراء عظيم له ولأبنائه . فأمسك عما كان عزم عليه . ووضح من الفقرة الأخيرة أن عبيد الله كاتبه ، إن كان تخلص من السجع بعد تقديمه فإنه ظل يحتفل بصياغته ، ويبدو أنه كان يستخدم السجع في جوانب من كتابته في الحين بعد الحين ، وخاصة في توقيعاته ، فقد كتب إليه أبو العيناء يذكره بأمره وأنه من زرعه وغرَّس يده ، فودَّع في رقعته^(١) :

« أنا - أسعدك الله - على الحال التي عهدت ، وميَّلى إليك كما علمت ، وليس من أنسيناه أهملائه . ولا من أخرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسامه زماننا ، وكان من حَقِّك علينا أن تذكرنا بنفسك ، وتُعَلِّمَنَا أَمْرَكَ ، وقد وقَّعت لك برزق (راتب) شهرين لتزيج علتك وتعرفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقى أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام » .

والتوقيع - كما هو واضح - سجع خالص . وسرى عما قليل أن سريان السجع في الرسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجرى كان أقوى منه في الرسائل الديوانية ، حتى إذا كان عصر المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) أخذ السجع يعم في جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية ، فليس هناك وزير ولا كاتب في الدواوين إلا وهو يتأنق في كتابته ويبالغ في تأنقه حتى يجعل كتابته سجعا خالصا . وبذلك

أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوثق بالسجع^(١)، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه وفي مقدمتهم ابن الفرات . وكان على بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع ، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة . ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقاني ، فقد كان شغوفاً بالسجع شغوفاً شديداً ، وتروى له في ذلك نوادر كثيرة ، منها أن عامل النيل أحد فروع الأنهار في العراق تأخر في حمل غلّة إليه ، فكتب إليه هذه العبارات : « احمل الغلّة ، وأزح العِلّة ، ولا تجلس متودّعاً في الكِلّة (السر) » ولاحظ أنه قد حشر الكلة في الكلام لاستكمال السجع ، فالتفت إلى الكاتب وقال له : أفى النيل بتى يحتاج إلى كلل ؟ فقال له الكاتب مداحياً مرائياً : إى والله وأى بتى ، ومن أجله يلزم الناس الكليل ليلاً ونهاراً^(٢) . ووقع في رسالة وجه بها إلى بعض عمّاله : « الزم - وفّقك الله المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدّجاج ، إن شاء الله » ، وكان أن حمل العامل إليه دجاجاً كثيراً ، فقال : هذا دجاج وفّرت بركة السجع^(٣) . وكان الولاة يقلدون الوزراء في هذا البدع الحديد فقد ذكر الرواة أن الولى على كُور الأهواز كتب إلى على بن عيسى كتاباً سجع فيه ، فكتب إليه وقد صمّم على عزله : « عولت بنا على كلام ألّفته ، وخطاب سجّعته أوجب صرّفك عما توليته^(٤) » .

وكان كتّاب الدواوين على شاكلة الوزراء يسنّجون في كتاباتهم ، وفي مقدمتهم محمد بن جعفر بن ثوابة القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر والمتوفى سنة ٣١٢ ، وكان في باكوّرة حياته يكتب بين يدي عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وكلّفه أن يجيب على كتاب خمارويه حين أنفذ ابنته إلى المعتضد ، فقال في الفصل الذى احتاج فيه إلى ذكرها :

« وأما الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها ، وحيطة عليها ، ورعاية لمودتك فيها » ، ورآه عبيد الله يعجب بهذه العبارات ،

(١) تاريخ الوزراء للهلال بن الحسن ص ٣٣٧ (٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥ .

(٢) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧ .

فأخذ ينقدها له قائلا : « تفاءلت لامرأة زُفَّت إلى زوجها بالوديعة ، والوديعة مستردّة . وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح ، لأنك جعلت أباهما اليمين وأمير المؤمنين الشمال ، ولو قلت : بمنزلة شيء انتقل من حال إلى حال لكان أحسن . وكان خيراً من ذلك كله أن تقول :

« وأما الهدية فقد حسُنَ موقعها منا ، وجعلَ خطرنا عندنا ، وهي وإن بعدت عنك بمنزلة ما قرب منك لتفقدنا لها ، وأنسنا بها ، واسرورها بما وردت عليه واغتيابها بما ضارت إليه » لكان أحسن^(١) .

وواضح ما حمل نقد عبيد الله بن سليمان إلى الشاب في مطالع عمله بالدواوين من لفت قوى إلى العناية بصياغته ومعانيه وكأنه هو الذى حمّله على أن يأخذ نفسه بتكلف شديد . ومعروف أن عبيد الله توفى سنة ٢٧٨ ، ولا نصل مع محمد بن جعفر إلى عصر المقتدر ، حتى يصبح أكبر كاتب في دواوينه ، وحتى يُعهد إليه بتولى ديوان الرسائل ، ويأخذ حينئذ نفسه بالحرص على السجع في كل ما يصدر عنه ، على نحو ما يصور ذلك منشور وجهته باسم الخليفة المقتدر إلى العمال في البلدان المختلفة ينوّه فيه بابن الفرات في وزارته الثانية لسنة ٣٠٤ ، وفيه يقول^(٢) :

« لما لم يجد أمير المؤمنين غنى عنه ، ولا للملك بدءاً منه ، وكان كتاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم مقرّين برياسته ، معترفين بكفايته ، متحاكين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا ، مدعين بأنه الحوّل القلب ، الحنك الحرج ، العالم بديرّة المال كيف تحلب ، ووجهه كيف تطلب ، انتضاه^(٣) من غمده ، فعاود ما عُرِف من حدّه ، فنفّذ الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودبّر الأمور كأن لم يتخل منها » .

فالسجع أصبح ظاهرة عامة في الرسائل الديوانية ، ويبدو أن ابن مقفلة وزير المقتدر والخلفاء من بعده كان يستخدمه ، إن لم يكن دائماً في الحين بعد الحين . وكان كاتباً بليغاً ، وفيه يقول الصولي : « ما رأيت وزيراً منذ توفى القاسم بن عبيد الله

أخرى له مسجوعة في الهمداني ص ٢٠ .

(٣) انتضاء : سله .

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٩٨ وزهر

الأدب ٢ / ٢٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٩٧ وانظر رسالة

ابن سليمان بن وهب (وزير المكنى) أحسن حركة ، ولا أظرف إشارة ، ولا أملح خطأ ، ولا أكثر حفظاً ، ولا أسلط قلماً ، ولا أقصد بلاغة ولا آخذَ بقلوب الخلفاء من ابن مُقَتِّلَة^(١) وهو صاحب الخط الذي تضرب به الأمثال ، وهو أول من نقله من الوضع الكوفي إلى الوضع الذي شاع في العالم العربي ، وكان أول من رفع من قدره أبو الحسن بن الفرات ، وخاصة في وزارته الثانية آنفة الذكر ، حتى علت حاله وعرضَ جاهه ، ولكنه عاد فاستوحش منه ونكبه . ثم خلاص من المحنة ، واستوزره المقتدر ومن جاءوا بعده ، واحتفظ له كتاب النجوم الزاهرة برسالة أنفذ بها إلى ابن الفرات وقد طالت به المحنة ، تجري على هذا النمط^(٢) :

« أَمَسْتُ . - أطال الله بقاء الوزير - عن الشكوى ، حتى تناهت البُؤْسَى ، في النفس والمال ، والجسم والحال ، إلى ما فيه شفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترم ، حتى أفضيت إلى الحيرة والتبلد ، وعيالى إلى الهشكة والتشرد . وما أبداه الوزير - أيده الله - في أمرى إلا بحق واجب ، وظن غير كاذب . وعلى كل حال فلي ذمام وحرمة ، وصحبة وخدمة إن كانت الإساءة أضاعها فرعاية الوزير ، أيده الله تعالى بحفظه ، ولا مفزع إلا إلى الله بلطفه ، وكنف الوزير وعطفه ، فإن رأى - أطال الله بقاءه - أن يلحظ عبده بعين رأفته ، ويُنعم بإحياء مهجته ، وتخليصها من العذاب الشديد ، والجهْد الجهد ، ويجعل له من معروفه نصيباً ، ومن البلوى فرجاً قريباً » .

وكان السجع أصبح لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع في مكان من رسالته عاد إليه في الأمكنة الأخرى . وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابه ابنه أحمد منذ سنة ٣١٢ ، وظل على ديوان الرسائل من بعده إلى أن توفي سنة ٣٤٩ ، فخلفه عليه أبو إسحق الصابى . ولا ريب في أن أحمد مضى في إثر أبيه يسجع في رسائله وكل ما يصدر عنه من كتابات ديوانية ، وقد بقيت منها بقايا قليلة تصور سجعه وإغراقه فيه من مثل قوله في وصف فتح^(٣) :

(٣) الحمداني: تكملة تاريخ الطبرى ص ١٥٨ .

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .

« فلم يُسفر العَجَاج^(١) إلا عن قتيل مرسل ، أو غريق معجَّل ، أو جريح معطَّل ، أو أسير مكبَّل ، أو مستأمنٍ محصَّل ، أو حقيية ملأها الله بلا تعب ، أو غنيمة أفاءها الله بلا نصَب » .

وواضح من كل ما قدمنا أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين ، فالرسائل تمتلئ بزخارفه وآلئه . إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفني في الكتابة الديوانية ، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله ، ولا بد من تساقق أنغامه وألحانه في الكلام .

٥

الرسائل الإخوانية والأدبية

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن الرسائل الإخوانية ازدهرت حينذاك ، إذ اتخذها الأدباء لتصوير عواطفهم ومشاعرهم في الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والمديح والهجاء والتهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية والاستمناح . وبذلك نafs النثر الشعري مجالاته الخاصة : مجالات الوجدان ، وأظهر الكتاب في ذلك براعة فائقة ، إذ كان كثير منهم بلغ الذروة في الفن الكتابي ، وأيضاً فإن الشعراء أنفسهم أدلّوا بديلاتهم في تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير في نفوس من تُوجّه إليهم . وبذلك توفّر للرسائل الإخوانية كثيرون من الكتاب والشعراء النابيين ، الذين استطاعوا أن يثبوا في النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير ، حتى لنرى قوماً إذا سُئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضّلوا أن يكون نثراً ، فقد روى المسعودي عن أبي العباس المكي نديم محمد بن عبد الله بن طاهر أنه كان ينادمه ذات ليلة في سنة ٢٥٠ للهجرة ، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والحيل ، فقال له : أياكون ذلك منشوراً أو منظوماً ؟ قال : لا ، بل منشوراً^(٢) . فالنثر أصبح له القيدُح المعلّى على

(١) العجّاج : غبار الحرب .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٧٠ / ٤ .

الشعر ، لا لأن أصحابه كانوا يرقون إلى الوظائف العليا في الدولة ودواوينها فحسب ولا لأنه كان يُختار منهم الوزراء فحسب ، بل أيضاً لأنه أصبح يضارع الشعر في التأثير في وجدان القارئ ، بما وفّر له كُتّابه العظام من جزالة الألفاظ ورسائنها ومن حسن تلاؤمها في الجرس . فالكاتب ما يزال يلازم بين لفظة ولفظة ، بل أحياناً بين حرف وحرف ، حتى يتأسر العقول والألباب . وكان أكثر من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يُسرّ تعابيره وما يجري فيها من مرونة ، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه في بعض الأحوال أداة لتصوير خواطرهم ومشاعرهم وأفكارهم ، كما ذكرنا آنفاً . وتحمّل كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتّاب بارعين ، ونحن نعرض طائفة منها تصوّر مدى ما كانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان ، فمن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل في عيد نيروز ، يهنئه بالعيد ، وكلها دعاء وابتهاال ، يقول (١) :

« أسعدك الله — يا أمير المؤمنين — بكرّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك في إقبال الزمان ، وبسّطَ بِسْمُنِ خلافتك الآمال ، وخصّصك بالزبد ، وأبهجك بكل عيد ، وشدّ بك أزر التوحيد ، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع الموق ، بطيب أيام الخريف المغنّدق (كثير المياه) وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة إليها نهاية ضارب المثل ، وعمرّ ببلائك الإسلام ، وفصح لك في القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسرّ بلك (ألبسك) العافية ، وردّك السلامة ، ودرّعك العزّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدّية ، والأزمنة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوه سامية ، تلاحظك عشقاً ، وترفرف نحوه طرباً وشوقاً » .

وكانت قد أخذت تشيع التهنئات بالأعياد الفارسية والإسلامية شعراً فجعلها الحسن بن وهب نثراً ، وفي رأينا أنه لم يعيش طويلاً في عصر المتوكل . وكانوا قد اعتادوا كثيراً في العصر العباسي الأول أن يتهادوا التحف والطرف ، وعادة كانوا يرسلون مع الهدية بعض الأشعار ، وأخذ النثر يزاحم الشعر في هذا الموضوع ، فمن ذلك أن نرى الكندي الفيلسوف المتوفى سنة ٢٦٠ كما مرّ بنا يهدى إلى بعض إخوانه سيفاً ويكتب معه (٢) :

« الحمد لله الذى خَصَّكَ بمَنَافِعَ ما أهدى إليك ، فجعلك تهتَرُّ للمكارم ، اهتزاز الصارم (السيف) ، وتمضى فى الأمور ، مضاء السيف المأثور (المتألق اللامع) وتصون عِرْضَكَ بالإِرْفاد (الإعطاء) كما تُصان السيوف فى الأغمار ، ويظهر دم الحياء فى صفحة خَدِّكَ المَشْوف (المجلو) كما يَشِفُّ الرونق فى صفحات السيوف ، وتَصْفُلُ شرفك بالعطيات ، كما تُصَفِّلُ مُتُون المَشْرِفِيَّات (السيوف) » .

والرسالة تتقدم فى السجع خُطْوَةً عن سابقتها ، فإن الحسن بن وهب كان يترك السجع أحياناً أما الكندى فإنه فى رسالته يتشبث بالسجع ، وكأنما لحق عصرا كانت عنايته به أقوى وأشد من عصر الحسن بن وهب . ومَرَّ بنا أبو على البصير بين الشعراء ، ويقول ابن المعز كان كاتباً رسالياً (صاحب رسائل) ليس له فى زمانه ثان . . . وقد قلنا فى أخبار العتَّابى (وكان شاعراً كاتباً) : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتَّاب ضعيف جداً ، فإذا اجتمعا فى الواحد فهو المنقطع القرين «^(١) . وقد أثرت عن أبى على البصير رسائل كثيرة ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل مادحاً له معدداً فضائله ، وفيها يقول^(٢) :

« إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه ، وانتَمَنَكَ على رعيته ، فنطق بلسانك ، وأخذ وأعطى بيدك ، وأورد وأصدر عن رأيك . . . ولم يزد — أكرمك الله — رفعة وتشريفاً إلا ازددت له هبةً وتعظيماً ، ولا تسليطاً وتمكيناً إلا زدت نفسك عن الدنيا عزُوفاً وتنزيهاً ، ولا تقريباً واختصاصاً إلا ازددت بالعامَّة رافةً وعليها حَـدَّ بَـأ ، لا يُخْرِجُكَ فِرْطُ النصح له عن النظر لرعيته ، ولا إثارة حقه عن الأخذ بحقوقها عنده . . . ولا يشغلك معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها . . . تمضى ما كان الرشد فى إ مضائه ، وتُرجى ما كان الخزم فى إرجائه . . . وتلين فى غير تكبر ، وتعمُّ فى غير تصنع ، لا يشقى بك الحقُّ وإن كان عدواً ، ولا يسعد بك المبطل وإن كان ولياً . . . وكافَّة الرعية — إلا من غمط (بَطِر) منهم النعمة — مُشْنُون عليك بحسن السيرة ، ويُسَمِّن النقيبة » .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ . (٢) زهر الآداب ١ / ٢٤١ .

وقدرة أبي على البصير على اختيار الألفاظ بارعة ، فقد كان يعرف كيف يختار مفرداته وكيف يؤلف بينها تأليفاً حسناً ، يجرى فيه التقابل والتوازن ، وإن لم يتجسّر في هذه الرسالة السجع ، ولكن يجرى فيها ماء ورونق . وهو لم يسق في مديح عبيد الله عبارات طنانة فحسب ، بل ساق معاني سياسية جيدة ، فهو رءوف بالشعب حديد عليه ، وحق كل فرد فوق حق الخليفة نفسه ، مدبر حازم . مترفع عن الصغائر ، في تواضع لا يسف به إلى الدنياه دون تكلف . لا يؤدي محملاً وإن كان عدواً ، ولا يسر مبطلاً وإن كان صديقاً . والرعية جميعها تحبه وتؤثني عليه لسيرته وفضائله الطيبة . وله رسالة مسجوعة تدخل في العتاب أو بعبارة أدق في الهجاء كتب بها إلى أبي العيناء منافسه في مناداة الخلفاء والوزراء ، وفيها يقول (١) :

« من أبي على البصير ، ذى البرهان المنير ، المبالغ في التحذير ، المَعْذِر في النكير ، إلى أبي العيناء الضَّير ، ذى الرأي القصير ، والخطل الكثير ، والإقدام بالتعير ، سلام على المخصوصين بالسلام ، من أجل حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإني أحمد الله إلى نفسه وأوليائه من خلقه ، على ما هداني من دينه ، وعرفني من حقه ، وامنّ عليّ به من تصديق رسله . . . أما بعد فإنك الرجل الدقيق حسبه ، الرديء مذهبه ، الدنيء مكسبه ، الخسيس مطلبه ، البذيء لسانه ، المُبتلى به إخوانه . . . قد صيرت الفجة (الوقاحة) جنة (وقاية) وشتم الأعراض سنة . . . صديقك على وجل منك إن شاهده عافك ، وإن غبت عنه خافك ، تسأله فوق الطاقة ، وترهقه عند الفاقة (الفقر) فإن اعتذر إليك لم تُعذره ، وإن استنظرك لم تُنظره (تمهله) وإن أنعم عليك لم تشكره ، لا تزيدك السن إلا نقصاً ، ولا يفيدك الغنى إلا حرصاً . . . وتعرض للناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملال . . . من أطاعك في ماله حرّيته (سلبته) ، ومن منعك بعدر واضح سببته . . . ومن أكرمك أهنته وتناولت عليه ، ومن أهانك استكنت له ولينّت في يديه . . . إرثك عن أبيك السعاية ، ونقل الأخبار والوشاية . »

والرسالة كلها - على هذا النحو - هجاء وإقذاع في الهجاء ، وقد استهلها لمسحاً إلى أن أبا العيناء لا يؤمن بحلال ولا حرام ولا بفرائض ولا أحكام مخرجاً له من الملة حامداً لنفسه هداه وتصديق الرسل الذين يكفر بهم أبو العيناء. ثم يسبه في حسبه وفي مذهبه ومكسبه واصفاً له بالخسة والدناءة ، وأنه لا يحترم صديقاً مهما أكرمه ، مع الشح والتعرض للناس. بالسؤال والإلحاف فيه . ويقول له في نهاية رسالته : « قد ملئتُ إلى السجع على علمي بخساسة حظه وركاكة معانيه وافظله ، إذ كنت تُلَوِّى به لسانك ، وتشتى إليه عينانك ، قطعاً لحجتك ، وإزاحة لعلتك ». وكان أبو العيناء على شاكلة أبي على البصير يملأ رسائله بالسجع على نحو ما نجد في رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان يشكو له ابنه محمداً إذ أهداه فرساً غير فاره ، وفيها يقول^(١) :

« أعلم الوزير - أيده الله - أن أبا على محمداً أراد أن يبرئني فعقني ، وأن يرُمكبنى فأرجلنى ، أمر لى بفرس كالفصيب اليابس عَجَجاً (هزالاً) وكالعاشق المهجور دَنَقاً (سقمًا). قد أذكر الرواة عُرْوَةَ العُذْرَى ، والجنون العامرى ... قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار ... وإنما أتيت من كاتبه الأعور ، الذى إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أخبث وأنزَر (قلَّلَ) » .

والرسالة سجع خالص ، وكأن من الكتاب من أخذ يصطنعه منذ أوائل هذا العصر فى بعض الرسائل ، فإن لأبى العيناء نفسه رسائل أخرى فى الاستمناح^(٢) وطلب النوال وفى الشكر^(٣) ، يكتفى فيها بالعبارة المصقولة والألفاظ المنتخبة المختارة دون أن يعنى بالسجع وترصيفه وتنميقه . ومن الكتاب البلغاء المعاصرين لأبى العيناء وأبى على البصير محمد بن مكرم ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كاتب بليغ مترسل ، وله كتاب رسائل »^(٤) ، وتداوله فى الكتب مجموعة من الرسائل ، منها رسالة فى الاعتذار لبعض الرؤساء على هذه الشاكلة^(٥) :

(٤) الفهرست ص ١٨٥ .

(١) زهر الآداب ٢ / ١٦٥ .

(٥) عيون الأخبار ٣ / ١٠٥ وزهر

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .

الآداب ٣ / ٣٨٢ .

(٣) زهر الآداب ٣ / ٩٥ .

« نَبَّتْ بِي عَنْكَ غُرَّةَ (غفلة) الْحَدَاثَةِ ، فَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ التَّجَرُّبَةُ ، وَبَاعَدَتْنِي عَنْكَ الثِّقَةُ بِالْأَيَّامِ ، فَأَدْنَتْنِي إِلَيْكَ الضَّرُورَةُ ثِقَةً بِإِسْرَاعِكَ إِلَيَّ ، وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ ، وَبَقْبُولِكَ لِعَذْرِي وَإِنْ قَصَّرْتُ عَنْ وَاجِبِكَ . وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي قَدْ سَدَّتْ مَسَالِكَ الصَّفْحِ عَنِّي ، فَرَاجِعْ فِيَّ بِمَجْدِكَ وَسُؤْدَدِكَ . وَإِنِّي لَا أَعْرِفُ مَوْقِفًا أَذِلَّ مِنْ مَوْفِقِي ، لَوْلَا أَنَّ الْمُخَاطَبَةَ فِيهِ لَكَ ، وَلَا خُطَّةً أَذْنِي مِنْ خُطُئِي ، لَوْلَا أَنَّهَا فِي طَلَبِ رِضَاكَ » .

والرسالة محكمة ، وكل عبارة كأنما حاكمتها أو قل صَبَّتها في قالبها يَدُّ صَنَاعٍ وَحَقًّا لَمْ يُحْلَلِ الرَّسَالَةُ بِالسَّجْعِ ، وَلَكِنْ الْعِبَارَاتُ كُلُّهَا كَأَنَّهَا حَلَى مَخْتَارَةٍ ، سِوَاهُ فِي اصْطِفَاءِ الْأَلْفَاظِ ، أَوْ فِي تَوْشِيَّتِهَا بِالْوَانِ الْبَدِيعِ ، فَالْغُرَّةُ أَمَامَ التَّجَرُّبَةِ ، وَالْبَعْدُ أَمَامَ الدُّنُو ، وَالسَّرْعَةُ أَمَامَ الْبُطْءِ . ثُمَّ تَتَعَاقَبُ الاسْتِعَارَاتُ وَالصُّوَرُ ، فَالذُّنُوبُ قَدْ سَدَّتْ بِحِجَابِ غَلِيظِ دُرُوبِ الصَّفْحِ وَمَسَالِكِهِ ، وَهُوَ يَتَوَسَّلُ أَنْ يَرَاجِعَ فِيهِ مَجْدَهُ وَسُؤْدَدَهُ . ثُمَّ يَأْتِي التَّلَطُّفُ وَقَبُولُ الذِّلِّ وَكَأَنَّهُ يَقْبَلُهُ مِنْ حَبِيبٍ . وَهُوَ رِسَالَةٌ جَيِّدَةٌ فِي تَعْزِيَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ عَنْ أَخِيهِ الْحَسَنِ حِينَ أَبَسَى نِدَاءَ رَبِّهِ ، وَنَكُنْفِي مِنْهَا بِهِذِهِ الْفَقْرَةَ (١) :

« إِنْ الرَّمَضُ (حرق الغيظ) وَالْهَلْعُ إِنَّمَا يَكُونَانِ لِلْمُصِيبَةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي لَا تَعْدُو صَاحِبَهَا ، وَلَا يَجِدُ مُسْتَعْدًّا (معيّنًا) عَلَيْهَا ، وَلَا شَرِيكًَا فِيهَا ، وَقَدْ أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى مُصِيبَتِكَ بِالْوَأَشِيجِ (المشتبك) رَحِمًا بِكَ وَالْبَعِيدِ نَسَبًا مِنْكَ ، وَجَمَعَ فِي ثِقَلٍ مَحْمَلَهَا وَلَمْ فَتَجْعَلْهَا صَدِيقَكَ وَعَدُوَّكَ ، وَكُلُّ مُكْتَسَبٍ مِنْهَا سِرٌّ بِأَلِ وَحْشَةٍ ، وَمَنْظُورٌ عَلَى دَخِيلٍ حَزَنٍ ، وَنَازِرٌ مِنْ أَعْقَابِهَا فِي مَنْظَرٍ وَغَرٍّ ، فَجَمِيعُهُمْ فِيهَا مُشْتَرِكٌ ، وَأَنْتَ بِالتَّعْزِيِّ حَقِيقٌ قَمِينٌ » .

والقطعة كالرسالة السابقة ، أَلْفَاظُهَا مُحْكَمَةٌ ، وَيَجْرِي فِيهَا الطَّبَاقُ وَالتَّقَابِلُ وَالِاسْتِعَارَاتُ وَالصُّوَرُ وَالرَّصْفُ الدَّقِيقُ لِلْعِبَارَاتِ ، فَالنَّسْجُ مَتِينٌ ، وَعَلَيْهِ أَلْوَانٌ وَصُورٌ تَلَفَتْ الْأَذْهَانَ . وَمِنْ الْكُتَّابِ الْبُلْغَاءِ أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ ، وَهُوَ مِنْ بَيْتِ كِتَابَةٍ ، كَانَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ الْحَسَنُ مِنَ الْبُلْغَاءِ الْمَفْهُومِينَ ، وَلَهُ فِي الصَّدَاقَةِ رِسَالَةٌ كُتِبَتْ بِهَا إِلَى بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ ، وَفِيهَا يَقُولُ (٢) :

« ليس عن الصديق الخالص والأخ المشارك في الأحوال كلها مذهب ، ولا وراءه للوائح به مطلب ، والشاعر يقول :

وإذا يُصيبك والحوادث جَمَّةٌ حَدَّثْتُ حَدَاكَ إِلَى أَخِيكَ الْأَوْثَقِ

وأنت الأخ الأوثق ، والوليّ المُشْفِق ، والصديق الوَصُول ، والمشارك في المكروه والمحجوب ، قد عرفني الله من صدق صفائك وكرم وفائك ، على الأحوال المتصرّفة ، والأزمنة المتقلّبة ، ما يستغرق الشكر ، ويستعبد الحر ، وما من يوم يأتي علىّ إلا وثقتي بك تزداد استحكاماً ، واعتمادى عليك يزداد تأكيداً والتثاماً ... وأعينك بالله من العيون الطامحة ، والألسنة القادحة ، وأسأله أن يجعلك في حيرته الذي لا يُرام ، وكشفه الذي لا يُضام ، وأن يحرسك بعينه التي لا تنام ، إنه ذو المنّ والإِنعام .

واستخدامه للسجع واضح ، وليس سجعاً متكلفاً ، مما يدل على أنه خلق صناعته ، حتى أصبح السجع ينحدر عن لسانه انحداراً سهلاً طبيعياً ، لا عوج فيه ولا التواء ، ولا تكلف ولا عثرات هنا أو هناك ، بل أسلوب مستومتناسق . ومن الشعراء الكتاب الذين نبغوا في كتابة النثر والشعر أحمد بن أبي طاهر طيفور ، ومرّت بنا ترجمة له بين الشعراء ، ويحتفظ كتابه : « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة من رسائله ، منها رسالة في شكر على بن يحيى المنجم على بير^١ واسع أغدقه عليه ، تمضي على هذا النحو^(١) :

« إن أحقَّ معروف بأن يُشكّر ، وردّ بارّة بأن لا تُكفّر ، وأحقّ واجب بأن يؤدّى ، وإحسان وبرّ بأن يُجَازَى معروفك - أعزّك الله - عندي ، ويدك قبلي ، وحقك عليّ ، وإحسانك إليّ ، لأن المعروف يحسن عند الأحرار موقعه ، ويجب عليهم شكره ونشره والإشادة بذكره . تتطوّع مبتدئاً ، وتشفع ما تقدّم معقباً ، وتحسن ربّ ما أسديته متفضلاً ، لا أخلاك الله من بير وإحسان ، ولا أخلائنا منك في حال » .

والرسالة فيها سجع قليل ، ولكن له رسائل أخرى يكثر فيها السجع ، وكان

كثير الهجاء للكتّاب ، ويبدو أنه قلما كان أحد يسلم من لسانه ، ومن هجاءهم وأقذع في هجائهم ابن ثوبة وابن مكرم ، ومن قوله في رسالة كتب بها إلى أبي على البصير يلزم له الأخير ويعدد مثالبه^(١) :

« الْمَقْلِيّ الْمَذْمُومُ ، المِهين ابن مكرم . . . العاكف على ذنبه ، الصادف عن ربه ، الوضع في خلائقه ، العاقى على خالقه . . . عدوه آمنٌ من غائلته ، وصديقه خائف من بائقته . . . مَنْ استخفَّ به أكرمه . وَمَنْ وصله صرَّمه (قطعه) . . . يحلف ليحدث ، ويعهد لينكث ، لإسناده عن المذمومين ، وبلاغته في ذم الصالحين ، وطُرفه قَدْ ذُفَّ الْمُحْصَنَات ، وسَعْيُه في كسب السيئات » .
ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة في التهاني والتعازي والاعتذار والشوق والفرار وفي السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء ، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولي في ترجمته ، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب ، ويقل السجع في رسائله الإخوانية ، ولكنه يُعْنَى أشد العناية بصياغة كلامه ، على نحو ما نرى في الرسالة التالية ، وهي في تهنئة صديقه عبيد الله بن وهب وزير المعتمد في يوم عيد^(٢) :

« أَخْرَجْتَنِي الْعِلَّةَ عَنِ الْوَزِيرِ - أَعَزَّهَ اللَّهُ - فَحَضَرْتُ بِالدَّعَاءِ فِي كِتَابِي لِيُنِيبَ عَنِّي ، وَيَعْمُرَ مَا أَخْلَتْهُ الْعَوَاقِقُ مِنِّي ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعِيدَ أَعْظَمَ الْأَعْيَادِ السَّالِفَةِ بَرَكَةً عَلَى الْوَزِيرِ ، وَدُونَ الْأَعْيَادِ الْمُسْتَقْبَلَةِ فَيَايُحِبُّ وَيُحَبُّ لَهُ ، وَيَقْبَلُ مَا تَوَسَّلَ بِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ ، وَيَضَاعِفُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ عَلَى الْإِحْسَانِ مِنْهُ ، وَيَمْتَعَهُ بِصَحْبَةِ النِّعْمَةِ وَلِبَاسِ الْعَافِيَةِ ، وَلَا يُرِيهِ فِي مَسَرَّةٍ نَقْصًا ، وَلَا يَقْطَعُ عَنْهُ مَرِيدًا ، وَيَجْعَلَنِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ فِدَاءَهُ ، وَيَصْرِفَ عَيُونَ الْغَيْرِ (حوادث الدهر) عَنْهُ وَعَنْ حَظِّي مِنْهُ » .

والرسالة أدعية للوزير الصديق ، وهو يُعْنَى فيها أشد العناية بجزالة العبارة ونصاعتها ، ولكن دون أن يلجأ إلى سجع . ويحتفظ له كتاب الأوراق بفصول كثيرة من بعض رسائله ، فمن ذلك فصل في الشوق يقول فيه : « إِنِّي لَأَسْفُ عَلَى كُلِّ يَوْمٍ فَارَغْتُ مِنْكَ ، وَكُلَّ لِحْظَةٍ لَا تَوْنُسُهَا رُؤْيُكَ ، وَسَقَيْتَنِي لِدَهْرٍ كَأَنَّمَا مَوْسُومًا

بالاجتماع معك ، معموراً بلقائك ، جمع الله شمل سرورى بك ، وعمر بقائى بالنظر إليك^(١) . ومن ذلك فصل فى شفاعته : « موصل كتابى فلان ، وقد جعلت الثقة به مطيته إليك ، فلا تُنْضِها (تهزها) بِمِطْلِكَ ، وأسرع رَدَّها بسابق إنجازك ، وتصديق الأمل فيك والظن بك »^(٢) ، ولا ريب فى أنه كان يسجع أحياناً فى بعض فصوله : « قد ملت إليك فما أعتدل ، ونزلت بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل »^(٣) . وفى فصل آخر : « تولّى الله عني مكافأتك ، وأعان على فعل الخير نيتك ، وأصبح بقاءك عِزّاً يبسط يدك لوليك وعلى أعدائك ، وكلاءة (حراسة) تذبُّ عن ودائع مِنته عندك ، وزاد فى نعمك وإن عظمت ، وبلغك آمالك وإن انفسحت »^(٤) . وله فى وصف الكتاب والقلم^(٥) :

« الكتاب والى الأبواب ، جرىء على الحجاب ، مُفْهَم لا يفهم ، وناطق لا يتكلم ، به يَشْخَصُ (يحضر) المشتاق ، ومنه يُدْ آوى الفراق . والقلم مجهزٌ لجيوش الكلام يخدم الإرادة ، ولا يعلّ الاستزادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائراً ، على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضىء ، وكأنه يقبّل بساط سلطان ، أو يفتح نُوراً بستان . »

والوصف يكثر فيه السجع ، كما يكثر التصوير ، فقد شخّص الكتاب وجسّمه فى صور كثيرة ، وبالمثل صنع بالقلم ، وأخرجه مع الصحف التى يكتبها فى صور بديعة :

وكان الكتاب يكثر من الدعوة للزيارة ولقضاء بعض الوقت فى اللهو ولسماع الغناء أو للسمر والطعام . وأكثروا من التهانى فى كل مناسبة فى الأعياد وفى الزواج وفى إنجاب الأولاد وفى ختانهم ، وفى الحج وقضاء مناسكه ، وفى وصف الطبيعة شتاء وفى الربيع . . . وقد تعقبنا انتشار السجع فى الرسائل الإخوانية طوال العصر ، لنل على أن ذوقاً عاماً أخذ يُعْنَى به ، وهى عناية جعلته يعمُّ فى تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث ، بل لقد أخذ يعمُّ — منذ أواسطه — عند أبى على

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصوى ص ٢٩٢ .

(٤) الصول ص ٢٩٤ .

(٢) الصول ص ٢٩٠ .

(٥) الصول ص ٢٩٢ وزهر الآداب .

٣٢/٢ .

(٣) الصول ص ٢٩١ .

البصير وأبى العيناء في بعض رسائلهما . وقد أخذت تنتشر مع ذلك عناية باصطناع الصور البيانية وبعض ألوان البديع على نحو ما لاحظنا في بعض رسائل ابن مكرم ، وكأن الكاتب لا يريد أن يؤلف كلاماً فحسب ، بل يريد أن يصوغ درراً ، مما هيئاً لسيادة السجع وسيطرته على جميع الرسائل سياسية وإخوانية منذ عصر المقتدر ، بل لقد هيا ذلك لظهور كتاب الألفاظ الكتابية التي ألف فيها عبدالرحمن ابن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٣٢٠ كتابه الذي وقفنا عنده في موضع آخر ، وهو يدل بوضوح على أنه أخذت تسود فكرة النموذج في الكتابة : في التهناني والتعازي والبخارة والإنذار والاعتذار ، وأيضاً في كتابة الرسائل الديوانية ، ففي كل ذلك درر من السجع والصور تُحَفِّظُ وتُصَبِّحُ مادة للكتّاب ، تُعِينُهُمْ في كتابة الرسائل ، وكأنما كان صنيع الهمداني نذيراً بجمود النثر العربي وأن يصبح صيغاً برّاقة ، تغلب بما فيها من أسجاع قبل أن تغلب بما فيها من معان .

ولم يقف انتشار السجع وشيوعه عند الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ يشيع في الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع في تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به ، غير أن من تَلَوَّه في القرن الثالث الهجري أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثر منه ، على نحو ما تصوّر ذلك رسالة لابن المعتز كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامراً ويأسى لخرابها ويدم بغداد وأهلها ، وهي أشبه بمناظرة بين البلدين : العاصمة القديمة سامراء ، والعاصمة الجديدة بغداد ، وكان قد انتقل إليها المعتمد منذ سنة ٢٧٦ وانتقل معه ابن المعتز . وأهل من الخير أن نسوق أكثر هذه الرسالة الطريفة ، وهي تمضي على هذه الصورة^(١) :

« كتبت إليك من بلدة قد أنهض^(٢) الدهر سُكَّانُهَا ، فشاهدُ البأس فيها ينطق وحسبُ الرِّجاء فيها يَتَقَصَّرُ ، فكأن عُمُرَانَهَا يُطَوِّى وكأن خرابها يُنَشَّرُ ، وقد وُكِّلَتْ إلى الهجر نواحها ، واستُحِثَّ باقيها إلى فانيها ، وقد تَمَزَّقَتْ بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقُّ جوار ، فالظَّاعِن منها محوُّ الأثر ، والمقيم بها على طَرَف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . . . فعالمُها تصف

(٢) أنهض هنا : يمتد على الرحيل .

(١) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ وجمهرة رسائل

للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جَنَّة الأرض ،
 وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارها ، عليهم أَرْدِيَّةُ السيوف وغلاطل الحديد ،
 كأن رماحهم قرون الوعل ، ودروعهم زَبَدُ السيول ، على خيل تأكل الأرض
 بحوافرها ، وتمتدّ بالنشَق (الغبار) سُرَادِقُهَا ، قد نُشِرَتْ في وجوها غُرَّرَ كأنها
 صحائف البرق ، وأمسكها تحجّيل كأنه أسورة اللجّين ، وفَرَطَتْ عُدْرًا^(١)
 كالشنوف ، في جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صُبَّ عليه
 وقار الصبر ، وهبَّت له روائح النصر ، يصرفه ملك يملأ العيون جمالا ، والقلوب
 جلالا ... قبل أن تَحْبُبَ (تعدو) مطايا الغير ، وتُسْفِرَ وجوهُ الحذر ، وما زال
 الدهر مليئاً بالنواب ، طازقاً بالعجائب ، يُؤْمَنُ يومه ، ويتغد رُغْدُهُ . على
 أنها — وإن جُفِيَتْ — معشوقة السكّنى ، حبيبة المشوَى (المنزل) كوكبها يقظان ،
 وجوها عُرْيَان (صحو) وحَصْبًاؤها جَوَّهر ، ونسيمها معطر ، ورايتها مِسْكٌ
 أذفر (ذكى) ويومها غداة (لطيف الطقس) وإيلها سَحَرٌ ، وطعامها هَنِيءٌ ،
 وشرابها مَرِيءٌ ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فانك (غير محتاج) لا كبغدادكم
 الوسيخة السماء ، الوَمِدة (الزاكدة) الهواء ، جوها نار ، وأرضها خَبَّار (لينة)
 وحيطانها نزوز (تنز بالماء) وتشرينها (أكتوبر) تَحْشُوز (يولية) فكم في شمسها
 من محترق ، وفي ظلها من غَرِق ، ضيقة الدار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان ،
 قليلة الضيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سيّاب ، وسائلهم محروم ، وما لهم
 مكتوم ، لا يجوز إنفاقه ، ولا يُحْتَلَّ خِناقُه (كيسه) وحيطانهم خِصاص
 (أكواخ) وبيوتهم أفاص (ضيقة) ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دُول ، والدهر
 يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم .

والسجع زاخر في الرسالة كما يرى القارئ ، وكأن ابن المعتز أراد أن يجعلها
 رسالة أدبية خالصة ، فهو يختار لها الأسلوب الذى أخذ يشيع في عصره أسلوب
 دُرَّرَ السجع ولآله التى أصبحت موضع إعجاب الكتّاب والى كانت تروثهم
 إلى أقصى حد ، مما هيا الأذواق لأن ترفع اللفظ فوق المعنى ، فالمدار على جمال

(١) العذر : جمع عذار وهو من اللجام ما سال

على خد الفرس. الشنوف : جمع شنف وهو القرط .

الجسد لا جمال الروح ، والعبرة بالشكل لا بالجوهر ، وبالقالب لا بما يحتويه ، وبالبريق الخارجى للمعاني لا بالبريق الداخلى . وعمّ ذلك حتى طغى فى كتابة بعض الأخبار ، وحتى نجد الخليفة القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) يطلب من بعض أصحاب التاريخ وَصَفَ الخلفاء العباسيين الذين سبقوه ، ويقول له : « لا تغيّب عني شيئاً ، ولا تحسّن القصّة ولا تسجع فيها »^(١) ، فهو لا يريد فى وصفهم إدخال زينة السجع ، حتى لا يجرى اللفظ على المعنى . وكأنما أصبح السجع أسلوب الكتابة العامة واطّرد ذلك فى العصر التالى ، وظل آماداً متطاولة .

وابن المعتز لا يكتفى فى هذه الرسالة الأدبية بالسجع ، بل يضيف إلى ذلك ألواناً من البديع ، إذ تطالعنا فيها تَوّاً الطباقات . فالنهوض أو الرحيل يقابل القعود ، واليأس يقابل الرجاء ، والحراب يقابل العمران ، والنشر يقابل الطيّ ، والباقي يقابل الفانى ، والظاعن يقابل المقيم . وبجانب الطباقات ما اشتهر به فى شعره من كثرة التشبيهات وإيراد الصور الطريفة ، فالخيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد من الغبار سرادقاً ضخماً يظل الجيش ، والغرر فى وجوها كأنها صحائف البرق ، والتّحجّيل فى سيقانها كأنه الأساور من فضة تحيط بها ، وما سال على خدودها من اللجم كأنه أقراط فى آذانها ، والحصباء جوهر . والتراب مسك أذفر . وتتوالى الصور والتشبيهات وابن المعتز دائماً يستمد من مخازن لا تنفد ، مخازن تعطيه كل ما يريد من زخارف السجع وزخارف الصور والأخيلة ، وكأنه لم يلبث أن انضم بقوة إلى الرّكّب ، ركب العناية بالوشى . ويُطِيلُ القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبح هى الذوق العام فى الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد أسلوب السجع وما يُطَوّى فيه من زخارف البديع .

الفضل السابع

أعلام الكتاب

١

إبراهيم^(١) بن العباس بن محمد الصولي

كان جده صول حاكماً لجرجان مع أخيه فسيروز ، وكانا تركيين يدينان بالمجوسية ويتشبهان بالفرس ، ودخل صول الإسلام على يد يزيد بن المهلب وإلى خراسان للحجاج ، وأصبح من خاصته ، حتى إذا ثار يزيد على بني أمية في مطالع القرن الثاني الهجري حارب تحت لوائه حتى قُتل معه في موقعة العَقَر بالقرب من الكوفة . وكان ابنه محمد من رجال الدولة العباسية ودُعائها ، ونشأ له ابنه العباس في ظلال تلك الدولة ، ورُزق ولدين : عبد الله وإبراهيم ، وكان عبد الله أكبر سنّاً من أخيه . وقد وُلد لإبراهيم سنة ١٧٦ للهجرة ، وقيل بل سنة ١٦٧ ويقول مترجموه إن أمه كانت أخت العباس بن الأحنف الشاعر المشهور ، وكأنه هو وأخاه تأدباً عليه في باكورة حياتهما ، كما تأدبا على ابن عمهما عمرو بن مسعدة الكاتب المشهور في عصر المأمون . ومن المؤكد أن إبراهيم لزم — على عادة لِداته — حلقات العلماء والشعراء حتى أصبح يُتقن العربية ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة . وكان أخوه عبد الله سبقه إلى العمل مع ابن عمه عمرو بن مسعدة في دواوين الفضل بن سهل الملقب بذي الرياستين وزير المأمون ، حين كانا لا يزالان في مَرَوْقِل تحول المأمون

دارالمعارف) ص ١٣٦ وابن خلكان في إبراهيم وتاريخ الطبري في ترجمة المتوكل وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ، وديوانه بتحقيق عبد العزيز الميمني في كتاب الطوائف الأدبية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(١) انظر في ترجمة إبراهيم بن العباس ورسائله وشعره وأخباره الأغاني (طبع دار الكتب) ٤٣/١٠ والفهرست لابن النديم ص ١٨٢ وتاريخ بغداد ١١٧/٦ ومعجم الأدباء لياقوت ١٦٤/١ ومروج الذهب ٢٣/٤ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع

إلى بغداد . ويبدو أن إبراهيم أراد الالتحاق بأخيه وابن عمه وعلمهما ، فرحل إليهما ، وتصادف حين وصوله أن كان المأمون قد عهد بالخلافة من بعده إلى علي بن موسى الرضا . ويمدح إبراهيم إلى العهد الجديد ، ويهبه عشرة آلاف درهم من دراهم كانت ضربت باسمه ، ويقال إنه احتفظ بها وجعل منها مهور نسائه ، وأبقى بعضها لكفنه فيما بعد وجهازه إلى قبره^(١) . وألحقه الفضل بن سهل بدواوينه ، ومن حينئذ ظل يعمل في الدواوين إلى أن توفي سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضيايع للثوكل ، ويقول صاحب الفهرست : « كان إليه ديوان الرسائل في مدة جماعة من الخلفاء »^(٢) .

وقد ترك الدواوين مدة قصيرة لعهد الواثق جرّت عليه بلاء عظيماً ، ذلك أن ابن الزيات الوزير — وكان صديقاً له — ولّاه على معونة الأهواز وخراجها ، ثم تنكّر له ، فوجّه إليه بمحاسب كبير يسمى أبا الجهم ليكشفه ، فتحامل عليه تحاملاً شديداً ، وقال إن أموالاً كثيرة لم تؤدّ إلى بيت الخراج ، وغضب ابن الزيات ، وأمر بعزله واعتقاله في ولايته . وكانت محنة كبيرة لإبراهيم لم يسبّل فيها صديقه ابن الزيات وحده ، بل بسلاً فيها كثيراً من الأصدقاء ومن كانوا يظهرون له المودة ، إذ قلبت له منهم جماعة ظهر المجنّ مثل أحمد بن المدبر ، الذي كان يبرغر صدر ابن الزيات عليه ويحثه على محاسبة عمّاله واستخراج الأموال منهم ، مما جعله يزهد فيما بعد في صحبة الإخوان والرفقاء وكان إذا سُئل في ذلك قال : « ما مشلّ الإخوان إلا كمثل النار قليلها مقلع وكثيرها محرق أو قليلها متاع وكثيرها بوار » . ولعل ذلك ما جعله ينظم أشعاراً كثيرة في الصداقة والصديق ، كأنما يريد أن يرسم واجباتها ومسئولياتها . ولم يعدم بعض الإخوان الذين كانوا يشفعون له عند ابن الزيات وهو ماض في النكايه به ، وقد كتب إليه شعراً ونثراً كثيراً يستعطفه ، ومن أطرف ما كتب له هذه الرسالة^(٣) :

« كتبتُ إليك وقد بلغت المُدّة المَحَزَّ ، وعدت الأيام بك على بعد
عدوى بك عليها ، وكان أسوأ ظني وأكثرُ خوفي أن تسكن في وقت حركتها ،

(١) الأغاني ١٠ / ٥٢ .

(٢) الفهرست ص ١٨٢ .

(٣) الأغاني ١٠ / ٥٦ ويسمى الأدباء ١ / ١٧٠ :

وتكفَّ عند أذاها ، فصرتَ على أضرَّ منها ، وكفَّ الصديق عن نصرتي
وبادر إلى العدوُّ تقرُّباً إليك . وكتب تحت ذلك :

أخُ بِنِي وبين الله رِ صاحبَ أينا غلبا
صديقي ما استقام فإن نَبَا دهرُ على نَبَا
وَتَبْتُ على الزمان بهِ فعاد به وقد وَثَبَا
ولو عاد الزمان لنا لعاد بهِ أخاً حَلِيبَا ۝

والرسالة توضِّح شخصيته الأدبية فهو كاتب شاعر ، ويقول المصنوع : « كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً ، لا يُعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه »^(١). ويقول ابن الجراح في كتابه الورقة : « أشعر نظرائه الكتاب وأرقهم لساناً ، وأشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعتُ الناس للزمان وأهله غير مدافع »^(٢) ويقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان يقول الشعر ثم يختاره ، ويُسقط ردَّله ، ثم يسقط الوسط ، ثم يسقط ما سُبِقَ إليه ، فلا يدع من القصيدة إلا اليسير ، وربما لم يَدعَ منها إلا بيتاً أو بيتين »^(٣). وشعره مقطوعاتٌ حقاً ، ولكنها مقطوعات ترقى إلى مرتبة رفيعة في البلاغة ، مثلها مثل هذه الرسالة القصيرة التي كتب بها لابن الزيات راجياً أن يخلصه من محنته ، فكل كلمة فيها قد اختارها ذوق أدبي مصفى ، وكل عبارة قد أحكمت ، أحكمتها يد صنَّاع ، فالمدية قد بلغت المحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى ، والأيام تعدو بابن الزيات عليه بعد أن كان يعدو به عليها ، لقد كان ينتصر به عليها ، فإذا هي تقهره به ، وما أدق قوله له في رسالة أخرى^(٤) :

و كنت أعدُّك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمان

فناصره أصبح قاهره . ويتوالى الطباق في الرسالة ، فالسكون يقابل الحركة والكف يقابل المبادرة والصديق يقابل العدو . وظل ابن الزيات لا يعفو عنه ، حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم عرف الوائق تحامله عليه وأنه مظلوم فيما نسبته إليه

(١) مريح الذهب ٤ / ٢٣ .

(٢) الأغاني ١٠ / ٤٣ .

(٣) كتاب الورقة ص ١٣٦ .

(٤) الأغاني ١٠ / ٥٧ وسجع الأدباء ١ / ١٧١ .

أبوالجهم ، فأمر ابن الزيات بردّ حربه إليه وانتظامه في حاشيته وبلاطه مصوناً ، فبسط لسانه في غريمه ونظم فيه أشعاراً كثيرة دامساً هاجياً . وقد يكون ما حدث بينه وبين ابن الزيات هو الذى جعل المتوكل يقرّبه منه منذ أول عهده بالخلافة ، فقد كان بدوره ينقم على ابن الزيات أشياء كثيرة ، فلم يكذب يتقلّد الخلافة حتى صادر أمواله ، وعذبه في تَسْوَر ملىء بمسامير من الحديد حتى مات .

وأصبح إبراهيم بن العباس حَظِيئاً عند المتوكل ، فقلّده ديوان رسائله ودواوين مختلفة ، وظل حتى وفاته يكتب عن المتوكل كل الكتب التى تصدر عنه ، سواء أكانت منشورات أم عهدوداً لأولياء العهد أم فتوحاً أم تهنئات بالأعياد أم تعازى باسم الخليفة ، وأحياناً ينصّ الطبرى أن هذا الكتاب أو ذاك من إنشائه ، وأحياناً لا ينصّ . ومن أوائل ما كتب له المنشورُ الموجه إلى عُمّاله في الآفاق بشأن النصارى وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطَّيِّبِ السَّيِّئَةِ والزَّنائير ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو يستهله على هذه الشاكلة ^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزّته التى لا تحاول وقدّره على ما يريد ، اصطفى الإسلام ، فرَضِيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسله ، وأيدّ به أوليائه ، وكفّه بالبِرّ ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرّأ من الشبهات ، معصوماً من الآفات ، محبوباً بمناقب الخير ، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها ، وأكرم أهله بما أحلّ لهم من حلاله ، وحرّم عليهم من حرامه ، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سعة جزائه وثوابه ، فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ويستنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) . »

وواضح من هذا الاستهلال للمنشور مدى ما كان يأخذ به إبراهيم بن العباس نفسه من الاحتفال بصناعة الكلام . فهو لا يكتب ما يردّ على ذهنه عفواً ،

بل هو يفكر فيما يكتب ، ويختار له الألفاظ الجزلة الناصعة مُحدثاً بينها ضرورياً من التلاؤم بحيث يبدو كلامه مقطّعاً ، وإن لم يتخذ شكل تقطيع السجع ، وهو بذلك أقرب إلى ذوق أسلوب الازدواج الذي يوازن بين العبارات دون أن يُحيلها سجعاً وتنسيقاً خالصين . وكان من أحداث خلافة المتوكل ثورة إسحق بن إسماعيل في شمالي أرمينية وإحراقه لمدينة تغليس سنة ٢٣٨ وقد نازلته جيوش المتوكل ، وهزمت هزيمة ساحقة ، وأُخذَ أسيراً ، فضربت عنقه وصُلِبَ جثته وحُمِلَ رأسه إلى سامراء . ولإبراهيم بن العباس رسالة في هذا الفتح نوّه بها القدماء ، وفيها يقول ^(١) :

« قَدَّمَ اللهُ عِلْوَهُ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً : رُوحًا مَعْجَلَةً إِلَى عَذَابِ اللهِ ، وَجُثَّةً مَنْصُوبَةً لِأَوْلِيَاءِ اللهِ ، وَرَأْسًا مَنْقُولًا إِلَى دَارِ خِلَافَةِ اللهِ ، اسْتَرْلَوْهُ مِنْ مَعْقَلٍ إِلَى عِقَالٍ (أَغْلَالٍ) وَبَدَّلُوهُ آجَالًا مِنْ آمَالٍ ، وَقَدِيمًا غَدَّتْ الْعَصِيَّةُ أَبْنَاءَهَا ، فَحَلَبَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ دَرَاهِمٍ (ابْنَهَا) مُرْضِعَةً ، وَبَسَطَتْ لَهُمْ مِنْ أَمَانِيهَا مَطْمَعَةً ، وَرَكِبَتْ بِهِمْ مَخَاطِرَهَا مُوَضِّعَةً (مُسْرَعَةً) حَتَّى إِذَا وَثِقُوا فَأَمْنُوا ، وَرَكَبُوا فَاطْمَأْنَنُوا ، وَانْقَضَى رِضَاعُ وَأَنْ فِطَامُ ، سَقَتَهُمْ سُمًّا ، فَفُجِّرَتْ مَجَارِي أَلْبَانِهَا مِنْهَا دَمًا ، وَأَعْقَبَتْهُمْ مِنْ حُلُوِّ غَدَائِهَا مُرًّا ، وَنَقَلَتْهُمْ مِنْ عِزٍّ إِلَى ذُلٍّ ، وَمِنْ فَرَحَةٍ إِلَى تَرَحُّنٍ ، وَمِنْ مَسْرَةٍ إِلَى حَسْرَةٍ ، قَتَلُوا وَأَسْرَأَ ، وَغَلَبَ وَقَسَّرَ ، وَقَلَّ مَنْ أَوْضَعَ (أَسْرَعَ) فِي الْفِتْنَةِ مُرْهِجًا (مُثِيرًا) وَاقْتَحَمَ لَهْبَهَا مُوجَّجًا ، إِلَّا اسْتَنْجَمَتْهُ (تَبَعَتْهُ) آخِذَةً بِمُخَنَّفِهِ (بِجَلْفِهِ) وَمُوَهَّنَةً بِالْحَقِّ كَيْدَهُ حَتَّى جَعَلَتْهُ لِعَاجِلِهِ جَزَرًا ، وَلَاجِلِهِ حَطْبًا ، وَلِلْحَقِّ مَوْعِظَةً ، وَعَنِ الْبَاطِلِ مَزْجَرَةً ، أَوَائِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

وبلاغة الصدولى التى اشتهر بها واضحة فى هذه الرسالة ، فهو يُعْنِي بكلامه محملاً له معانى غزيرة ، وسُطْرُفًا فيه بكل ما يستطيع من تقسيم على نحو ما صنع أول هذه الفقرة . وهو يضيف إلى ذلك مقابلة بين المعانى تنتهى إلى الطباق ، فقد كان إسحق بن إسماعيل فى معقل فأصبح فى عقال ، وكان فى آمال وحياة رغدة فأصبح فى آجال وموت رهيب . ويضيف إلى ذلك الصور ، فقد أَرْضَعَتْهُمْ

المعصية من لبنها وأطعمتهم باسطة لهم في الأمان. العذاب ، وأسرت بهم مخاطرهما . وكل تلك صور متلاصقة . ثم يسوق عبارة كأنها مثل من الأمثال ، إذ يقول . انقضى رضاع وآن فطام . والكناية واضحة . وعاد إلى التصوير ، وكأنما يريد أن يرسم لوحة ذات خطوط وظلال وأضواء . ويعود إلى الطباق ، فيضع الرضاع مع الفطام والمر مع الحلو ، والدل مع العز والترحة مع الفرحة والحسرة مع المسرة . ثم يعود ثالثة إلى التصوير ، وكأنما الفتنة جحيم يتأجج باللهب ، وتعم حتى لتأخذ بمخدق كل شخص ، وحتى تجعله في دنياه جزراً وقطعاً من اللحم تنوشها السباع ، أما في الآخرة فتجعله حطباً ووقوداً للنار . ويختم الفقرة بأى من القرآن . والطباق اللون البديعي العقلي الذي كان يروع العباسيين يكثر فيها ، كما يكثر التصوير ، وكان إبراهيم بن العباس يريد أن يثبت إبداعه باستخدام فنون البديع التي كانت تخلق معاصريه ، فهو يبدوها بالتقسيم ، وهو يشيع فيها الجناس كما يشيع الطباق على نحو ما يتضح في مثل : معقل وعقال وآجال وآمال ، وفرحة وترحة وأسرأ وقسراً وعاجل وآجل . ومضى يوغل في الموازنة بين عباراته ، وإذا هو لا يكتفي بما قد يحدث فيها من تقطعات صوتية ، إذ يطلب ازدياداً في التلاؤم وفي الجرس ، فليس يكتفي أن تتقابل العبارات وتتوازن ، بل يحسن أن تلحم نغماتها وإراناتها ، فإذا هو يكثر من السجع وترصيفه . واحتفظت كتب الأدب بتحميده لهذه الرسالة ، وهو يمحى فيه على هذا النحو^(١) :

« الحمد لله معز الحق ومُبدِله (ناصره) وقامع الباطل ومُزِيله ، الطالب فلا يفوته مَنْ طلب ، والغالب فلا يعجزه مَنْ غلب ، مؤيد خليفته وعبيده ، وناصر أوليائه وحِزْبِه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقّه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأثار بهم سبيله ، حمداً يتقبّله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقب نصّره ، وسوايغ نعمائه » .

والتحמיד يحمل نفس الخصائص الماثرة في الرسالة ، وفيه اتجاه واضح نحو السجع وأن الكاتب يريد أن يسلّد كلامه الأسجاع والآذان ، كما يسلّد العقول والأذهان ، بملاّماته بين الكلمة والكلمة في الجرس ، وبما يستخلب من طباقات

وجناسات وتصويرات مختلفة . ولم تصلنا رسالة الخميس التي كتب بها إلى الولايات المختلفة بتولى المتوكل الخلافة ، ولكن وصلنا التحميد الذي وضعه في صدرها على هذا النحو^(١) :

« أما بعد فالحمد لله الذي جعلت نعمه ، وتظاهرت مننّه ، وتتابعت أباديه ، وعمّ إحسانه ، إله كل شيء وخالقه ، وبارئهم ومصورهم ، والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) العالی فی مشیئته والقاهر فوق عباده المتعالی عن شبه خلقه : (ایس کمثلہ شیء وهو السميع البصير) خلق العباد بقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضح لهم السبيل إلى معرفته ، بما نصّب لهم من دلائله ، وأراههم من عيبره ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال جلّ جلاله : (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) . وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويسرّ لهم خواطرهم وفكرهم ، والهيئة التي هيأها لهم ، ليقع الأمر والنهي عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يحشمهم ما يقصّر عنه وسعهم ، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمة بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقوا به رحمته ورضوانه والحاوّد في النعيم المقيم والظلّ المديد والعيش الدائم ، كما قال تعالى ذكره : (إلاّ منّ رحيم ربك ولذلك خلقهم) . وكان من نظره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هداياه ، ويوضحون لهم سبيله ، ويهدونهم إلى رحمته ، ويعلمونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، وييسّطون لهم توبته ، ويحذرونهم سخطه ، ويبينون لهم سنّته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : (ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) وكان من رأفته بهم ونظره لهم أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البَيِّنَة ، والشواهد الناطقة التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها

برهانهم ، وأوضح بها دليلهم ، وأثابهم عمل سواهم ليكون أدعى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأؤكد للحجة على مَنْ أبى ذلك منهم .

والتحميد يدور على موضوعين أساسيين هما : نعم الله وآلاؤه على الناس إذ بسط لهم الأسباب في الهدى والرشاد ، ونعمه أيضاً وآلاؤه إذ أرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين . ونراه في مستهل تحميده يشير إلى تنزيه الله عن شبه خلقه ، وهو أصل من الأصول الأساسية عند المعتزلة ، فهو منزّه عن التحيز في جوهر وعرض ، لا يدركه حس ولا يحيط به خيال ، منزّه عن كل شبه بالآدميين في خلقهم وصفاتهم . وليس من الضروري أن يكون من المعتزلة ، فيكفى أن يكون على صلة بمباحثهم ، وهو ما نريد إثباته ، فالتحميد كله كأنما كتبه اعتزالي كبير إذ كانوا يتكلمون كثيراً عن تنزيه الله في صفاته وذاته وإبداعه للكون والإنسان بما يشهد بعظمته وقدرته . وكانوا يستمدون ذلك كله من القرآن وما دعا إليه من التأمل في النظام الكوني وما بسّ الله فيه من آيات تدل على وحدانيته وقدرته الباهرة . ويصور القرآن كما في آيات خلق الإنسان التي اقتبسها الصولي كيف أنشأ الله الخلق لإنشاء بديعاً وكيف أودع فيهم من ملكات السمع والبصر والأفئدة ما يحقق لهم جميع حاجاتهم وكما لا تنهم ، وإنه لحري بهم أن يستغلوا هذه الملكات ليستقر في نفوسهم الإيمان بالكائن الأعلى . ويبتّ الصولي هذه الفكرة في الشطر الأول من تحميده . ويخرج منها إلى الفكرة التي طالما كررها المعتزلة فكرة أنه كان من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى طريق الحق والخير ، إذ لم يخلقهم عبثاً ولادون غاية سامية ، فقد خلقهم ليتبعوا هداياه ، وليقع الأمر والنهي عابهم ، فكان لا بد لهم من رسل يوضحون لهم سبل الهدى ، حتى يعرفوا العمل الصالح وما ينتظرهم في الآخرة من ثواب وعقاب ، مبينين لهم السنن والشرائع التي تكفل لهم السعادة في الدارين ، وكيف أن من يجور عن الطريق يحق عليه العذاب لإلّا من تاب وأناب فإن الله غفور رحيم . وقد صاغ إبراهيم بن العباس هذه المعاني في ألفاظ جزاة رصينة ، يجري فيها التقطيع الصوري الذي ذكرناه آنفاً ، وإن لم يبلغ مداه في الرسالة السابقة ، إذ لم يتحول به إلى إرنانات السجع التي شاعت فيها ، وكأنما كان مشغولاً هنا عن السجع بالمعاني التي أثارها في تحميده والتي جعلته يتمثل ببعض

آى الذكر الحكيم. وبالمثل كان مشغولاً عن الجناسات والطباقات والصور إلا اجاء فى النادر وعفو الخطر. ومن تحميداته فى أحد الفتوح (١) :

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العِزَّة ، الذى لم يقابل بالحق باطلاً فى موطن من موطن التحاكم بين عبادِه إلا جعل ألياء الحق منهم حِزْبَه وجُنْدَه ، وجعل الباطل بهم فِتْلاً (هزيمًا) منكوبًا ، ودَحِيضًا (باطلاً) هوقًا إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرقةً مَاجُوعَ ، ومبترةً (مسنصلةً) ما أعدَّ ، وقائدةً بأشياعه إلى مَصْرَعِ الظالمين ، حتى يكون الحق الطالب الأعزُّ والباطلُ المطلوبُ الأذلُّ ، وأولياء الحق الأعْلِيَّين يَدَأْ وأَيْدَأْ (قوَّة) وأشياعُ الضلال الأخسرين أعمالاً وكيداً ، قضاءُ الله وسنته ، وعادةُ الله وإرادته ، فى الفِئَةِ المنصورة أن تَعِزَّ فلا تُرَامَ ، وأن يَمَكِّنَ لها فى الأرض كما مَكَّنَ للذين من قبلها ، وفى الفِئَةِ الناكبة عنه أن تذلَّ ، فتكونَ كلمَتُها السفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم . »

ونحسُّ قدرته على اصطفاء الكلمات فى هذا التحميد ، ولا نصل إلى قوله : « وجعل الباطل بهم فِتْلاً منكوباً ودَحِيضاً زهوقاً » ، حتى يتجسَّد لنا هذا الاصطفاء وأن الكاتب يُعْنَى بالموازنة الدقيقة بين العبارات. ويتضح لنا ذلك أكثر حين نصل إلى قوله : « يكون الحق الطالب الأعزُّ ، والباطلُ المطلوبُ الأذلُّ » ، وأولياءُ الحق الأعْلِيَّين يَدَأْ وأَيْدَأْ ، وأشياعُ الضلال الأخسرين أعمالاً وكيداً » وكأن العبارات توضع فى صفوف لا فى سطور ، لتأخذ كل كلمة بيد أختها ، وكأننا فى مرقص للكلمات تتشابك فيه أيديها ، فكل كلمة توشك أن تُمسك بيد أختها فى العبارة التالية لعبارتها . فكلمة الحق تتلاقى مع كلمة الباطل ، وتتلاقى كلمة الطالب مع كلمة المطلوب وكلمة الأعز مع كلمة الأذل . وبالمثل تتلاقى فى العبارتين التاليتين كلمة الحق وكلمة الضلال وكلمة الأعْلِيَّين يَدَأْ وكلمة الأخسرين أعمالاً . فالكلمات فى العبارات تتجاذب تتجاذباً شديداً ، فى الصوت والجرس والأداء وفى المعانى المتقابلة المتناقضة ، فقد عمَّ فيها الطباق وكأنما أحدث بكثرته بينها نوعاً من صلة القرْبى ووشائج الرحم . وانظر كيف وضع إبراهيم بن العباس كلمة « يَدَأْ »

بجانب كلمة «أيدياً» طلباً للتلاؤم في الجرس الذي قد يخفى أحياناً ، وأحياناً يتضح وضوح الشمس في كبد السماء . وفي ذلك ما يدل بوضوح على مدى إحكامه لصناعة الكتابة وقدرته على اختيار اللفظ وانتخابه بحيث يروق اللسان والحنان . ويُسْنِهي الرسالة باقتباس من القرآن الكريم ، ويكثر عنده اصطناعه لبعض ألفاظه الموقفة كقوله في هذا التحميد : «الأخسرين أعمالاً» . ودائماً نحس عنده القدرة على استخدام العبارة المُطْنِبة والأخرى المجملة الموجزة ، حتى لكأنما يصوغ أمثالا كما أشرنا إلى ذلك آنفاً . ومن خير ما يصور ذلك عنده رسالة كتب بها لسنة ٢٤٠ عن المتوكل إلى أهل حمص حين ثاروا على عامل المعونة وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، والرسالة تفيض على هذا النمط ^(١) :

«أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ، مما قوم به من أودٍ (عروج) وعَدَل به من زَيْغٍ ، ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث ، يقدم بعضهن على بعض ، أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التي لا يقع حسَمُ الداء غيرها :

أناة فإن لم تُغْنِ عَقَبَ بعدها وعيداً فإن لم يُغْنِ أَعْنَتَ عَزَائِمَهُ

وقرأ إبراهيم بن العباس الرسالة على المتوكل فلأت نفسه إعجاباً ، وأوماً إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان — وكان حاضراً — أما تسمع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ خبأها الله لك ، وذخيرةٌ ذخَرها لي دولتك . ويقال إن البيت في هذه الرسالة أول شعر نفذ في كتاب عن الخلفاء العباسيين . والمتوكل إنما أُعْجِب بالرسالة لأن إبراهيم أدَّى الغرض الذي كانت تُكْتَسَبُ فيه الرسائل الطويلة بأوجز عبارة دون أى تقصير ودون أى إخلال ، بل مع الوفاء به إلى أبعد حد . وكأننا لا نقرأ صيغاً متعاقبة في رسالة ، وإنما نقرأ حكماً وأمثالا ، لدقة المعاني ودقة أدائها وصياغتها ، وقد أجرى فيها ضروباً من النقطيات الصوتية ، وإن لم تأخذ الصورة النهائية على نحو ما يتضح في أوائلها ، ولم يابث أن أضاف فيها سبعة طريفة ، كما أضاف صورة بديعة إذ عبّر عن الحرب بحسم الداء . والكتاب بحق

يصور مراناً طويلاً على استخدام الكلام ووضعه في مواضعه ، بل قل إنه بصور
خبرة طويلة امتدت عشرات السنين . ومن طراز هذه الرسالة رسالة أكثر منها
قِصراً كتب بها في شفاعته إلى أحد أصدقائه يزكّي رجلاً يستحق العناية به ^(١) :

« فلانٌ ممن يزكو (ينمو) شكره ، ويحسن ذكره ، ويعنّيني أمره ، والصنيعة
عنده واقعةٌ موقعها ، وسالكةٌ طريقها :

وأفضلُ ما يأتيه ذو الدين والحجى إصابةُ شكرٍ لم يضعْ معه أجرٌ »
والرسالة موجزة ولكنها تؤدي الغرض منها أداء واضحاً ، وقد استخدم فيها
إبراهيم بن العباس السجع ، وبلغ من شدة تدقيقه في المعنى أن أخرج البيت الذي
ضمّنته الرسالة مخرج الأمثال . وكان كتّاب الرسائل يكتبون في عيلى الفطر
والأضحى رسائل إلى الرعية يبشرونهم فيها بسلامة الخلفاء ، وقد يوجهونها إلى حكام
الولايات ليحمدوا الله على سلامة الخليفة ويذكّروهم واجبههم ، من ذلك قوله
في رسالة ^(٢) :

« أما بعد فإن لكل فرع أصلاً ، عنه مَوْرِدُهُ ومُسْتَنْبَطُهُ ، وإليه مَرَجْعُهُ
ومَوْئِلُهُ ، ومنى رُجْع من أصول الأمور إلى تأئلهما (تأصلهما) وتمكنهما ، رُجْع
من فروعهما إلى استنباطهما واستقامتهما . وأفضل ما تدبره أمورُ دين الله وخلافته ،
وحقوقُ الله وعباده . فكان الأصلُ وزكاؤه (نماؤه) ما جمع بإذن الله سكون
الدّهماء (العامة) وصلاح البيضة (الولاية) وأمن السرب (الجماعة) وتظاهُر
الشعم فيما قُربَ وبَعُدَ ، ودنا ونأى ... فافعلْ ذاك مُعَانَتاً على أمرِك » .

والترادف والازدواج واضحان في السطور الأولى من الرسالة ، فورده يليها
مستنبطه بنفس المعنى ، وبالمثل مرجعه تليها موئله ، وتأئلهما يليها تمكنتها ، واستنباطها يليها
استقامتهما . وفي ذلك حرص واضح على إرضاء الأذن ، وفي كلامه عن الأصول
والفروع ما قد يشير إلى أنه كان مثقفاً ثقافة فقهية ، وقد جمع الأصول الدالة على
حسن الحكم وتدييره في أربعة : سكون الناس دون إحداث أى فتن أو ثغرات نما
يدل على رضاهم عن حاكمهم ، وصلاح الولاية في شئونها السياسية والاقتصادية

(١) الأغاني ١٠ / ٥٣ ومعجم الأدباء ١ / ١٧٨ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٨٩ .

والإدارية ، وأمن الناس على نفوسهم ، وظهور النعم عليهم وأنهم لا يُعانون البؤس والضنك في الحياة . ويكتب باسم المتوكل وأبنائه تعزيات مختلفة ، من ذلك تعزية باسمه إلى طاهر بن عبدالله واليه على خراسان ، وفيها يقول^(١) :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ أَرْضَى الله في نعمته بشكره وفي مصائبه بالتسليم له ، مَنْ فَهِمَ ما في شكر النعم من استدعاء تمامها ، وما في التذلل للمقادير من استحقاق رضوانه ، وقد جعل الله محلَّك من الحاليتين جميعاً محل المتقدم بنيتته ومعرفته . والله يُمنع أمير المؤمنين فيك بصالح قَسَمه فيمن مضى ، والجارى على من بَقِيَ ويبقى ، حتى يؤدَّى الفناء الذى لا بقاء معه إلى البقاء الذى لا فناء بعده . وأمير المؤمنين يعظك بالله ، وهو أحقَّ مَنْ وعظ به ، ويرشدك من إيثار الله لما نَدَبَكَ له منه . . . فقدَّم حق الله عليك بطاعتك له فيما أمرك به ، واتَّق الله في مواقع أقداره بك ، تَقَنِّصْ بذلك من ثواب الله أفضل عِوَض الصالحين » .

والرسالة تحمل طائفة من دقائق المعاني ، فواجب الإنسان إزاء ربه شكره على نعمه واستسلامه لما يُنزل به قضاؤه فإنه بذلك يستحق رضوانه . والله يتمتع أمير المؤمنين به حتى يطوف به طائف الفناء الذى لا بقاء معه ، والذي ينتقل به إلى البقاء الذى لا فناء بعده . ويقول له : قدَّم حق الله عليك بالطاعة له والرضا بقدره ، وبذلك تستحق ثوابه ، هو خير عوض للراضين المقرَّبين . وفي كتب الأدب قطع مختارة لإبراهيم ابن العباس تزخر بالسجع ، ويبدو أنه كان يستخذه أحياناً في جوانب من رسائله مُسْتَهْبِأً فيه ، على نحو ما نرى في القطعة التالية التى احتفظ بها ياقوت في معجم الأدباء إذ يقول :

« وَوجدَ أعداءُ الله زُخْرُفَ باطلهم ، وغمويهَ كذبهم سَرَاباً بَقِيعةً (يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وكوميضَ بَرَقٍ عَرَضٍ فأسرع ، ولع فأطمع ، حتى إذا انحسرت (انكشفت) مغاربه ، وتشعبت موليةٌ مذاهبه ، وأيقن راجيه وطالبه ، أن لا مَلَادَ ولا وَزَرَ ، ولا مَوْرَدَ ولا صَدَرَ (صدور) ولا من الحرب مفرّ ، هنالك ظهرت عواقبُ الحق منجيةً ، وخواتمُ الباطل مُرديةً ،

سَنَّةُ اللَّهِ فِيهِ أزاله وأداله (هزمه) (ولن تجد لسنة الله تبديلا) ولا عن قضائه تحويلا .

والقطعة سجع خالص ، وتحمل اقتباسات من آى القرآن ، وكللماتها منتخبة انتخبها ذوق مرهف ، وتجرى فيها الحصائص التى ذكرنا لإبراهيم بن العباس ، ففيها الازدواج والتكرار فى مثل : « زخرف باطلهم وتمويه كذبهم » ، ومثل « أزاله وأداله » ، وفى الكلمة الأخيرة جناس ناقص . وتلقانا بعض طباقات مثل : « ولا مورد ولا صدر » ومثل « عواقب الحق وخواتم الباطل » ونعثر على بعض صور مثل زخرف الباطل وتمويه الكذب ومثل تشبيه زخرف الباطل بالسراب . وكأنه كان فى نثره مثل شعره وما وصفه به أبو الفرج ، كما مر بنا ، يكتب ثم يختار ، وما يزال يُصلح ويُسقِط حتى تخرج الرسالة نخبة من الصياغات الأدبية الطريفة . وله توقيعات بدیعة تدور فى الكتب الأدبية ، فمن ذلك أن بعض الكتاب كتب إليه يذم شخصا ويمدح آخر ، فوقع فى الرسالة^(١) :

« إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنِعه ، وللمسئء من النكال ما يَقْنِعه ؛ بذل المحسن الواجب على رَغْبَةٍ ، وانقاد المسئء للحق رهبة » .

والسجع واضح فى التوقيع ، ولكن المهم طرافة التقسيم . ويقول المسعودى : « ولإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت ، وفصول حسان من كلامه قد جمعت » . ويروى عنه أنه كان يقول : « مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا ثم وقعوا منه ، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى الارتقاء »^(٢) . ويذكر ياقوت له ديوان شعر وديوان رسائل ، وفى الحق أنه كان كاتباً بليغاً بلاغة رائعة .

الملاحظ (١)

اشتهر بلقبه الدال على نوره حَدَقْتَيْهِ وجحوظهما ، واسمه أبو عثمان عمرو بن بحر . وقيل إنه من كنانة ، وقيل بل هو كناني ولأه وإن جَدَّه فزارة كان عبداً أسود جَمَّالاً لعمرو بن قلع الكناني . واختلف في السنة التي وُلِدَ فيها ، على حين اتفق الرواة على أنه توفي سنة ٢٥٥ للهجرة ، والمظنون أنه وُلِدَ في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويُروى عنه أنه قال في أواخر حياته يشكو من الفالج (الشلل) والنقرس (الروماتزم) : « أنا في هذه العلل المتناقضة التي يتخوَّف من بعضها التلف ، وأعظمها ست وتسعون سنة »^(٢) . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة مصقظ رأسه ، وفي مطالع الجزء الثاني من كتابه « الحيوان » ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع لِداته من الصَّبِيَّة ، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من النحو والفقهِ والحساب ، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار ، حتى إذا شَبَّ عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، وكانوا يحاضرون في كل فن ، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس . وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات ومحاورات بين المتكلمين من كل الفرق . وكان يختلف إلى المِرْبَد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة بعض ما ينشدونه من الأشعار ، وكان المِرْبَدُ سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ

الاعتدال ٢٤٧/٣ وضحي الإسلام لأحمد أمين
١ / ٣٨٦ وكتابتنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي
ص ١٥٤ والملاحظ لطله الحاجري (طبع دار المعارف)
والملاحظ لشارل بلات (طبع دار البقعة العربية
للتأليف والترجمة والنشر) .

(٢) تاريخ بغداد ٢١٩/١٢ ومجمع الأدباء
١١٣ / ١٦ .

(١) انظر في الملاحظ وحياته وأخباره
وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد
١٢ / ٢١٢ ومروج الذهب ٤ / ١٠٩ ومجمع
الأدباء ١٦ / ٧٤ وزهرة الألباء لابن
الأنباري وابن خلكان في عمرو ورملة الجنان
اليفاضى ٢ / ١٥٦ وأمال المرتضى ١ / ١٩٤
ولسان الميزان ٤ / ٣٥٥ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان

العصر الأموي . وفي أخباره أنه كان يبيع الخبز والسّمك بسيّحان^(١) أحد نهيرات البصرة ، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة ، وأنه كان في حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويروى أن أمه ضاقت بانهماكه في الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق مليء بكراريس أوّدعها البيت ، وقالت له : ليس عندي من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التّكسب . فذهب إلى الجامع مغتمّاً ، ولقيه مؤيّن بن عمران أحد رفاقه الأثرياء في الدرس ، فسأله ما شأنك ؟ فحدّثه بحديث أمه ، فأخذته إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ، ودخل السوق ، واشترى الدقيق وحمله الحمّالون إلى داره ، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التي قدّمْتُها لي^(٢) . وكان مؤيّن بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء .

ولم تقف ساحات ثقفه عند المسجد والمربد وما كان يأخذه عن جلّة العلماء أمثال الأصمعي وأبي زيد والأخفش وأبي عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبي الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس والنظام من المعتزلة ، ولا عند كبار الفقهاء والمحدثين في عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة ، عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلّف أو يترجم في البصرة أو في بغداد تنكاثر نسخه في أيدي الورّاقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلّة ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسططاليس ، وبهذه الثقافة العلمية التي حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع علم النحو وقوانينه النهائية ، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزلة أصحاب الفكر الحر في الدراسات الدينية ، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقرّرة معروفة ، ولذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا في بغداد^(٣) بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون ، فقد كانت تحت بصره في دكاكين

(٣) الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفي مواضع متفرقة .

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠ .

الوراقين ، ولم يكن يكتفى بقراءة كتاب أو كتب في اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر^(١) . ويقول أبو هيفان : « لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان »^(٢) . وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرتسم في ذهنه ، ويظل في ذاكرته آماداً متطاولة . ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدمة الطويلة التي وضعها بين يدي كتابه الحيوان ، وهي نحو مائة صفحة في تمجيد الكتب ، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التي صنّفها قبل الحيوان .

وكان من أهم ما شغف به الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته في عصره ، ويستوعب كل ما كان عندهم ، بادئاً بأبي الهذيل العلاّف ، وكلما اشتهر معتزلي لزم حلقة ، وكان من أهم من أزمهم النظام^(٣) ، وكان لا يبارى في المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة ، فتلقّن ذلك عنه ، وسراه يطبقه في كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة ، وفيه يقول : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنهج لهم سبباً وفتح لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة »^(٤) وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة ، وكأنه هو الذي دفع الجاحظ دفعاً للتزود من جداولها بكل ما استطاع . ويبدو أنه هو الذي غرس في نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه في كتابه « الحيوان » يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات في عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهداه طول تفكيره في آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كوّنّت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه ، ويعرض الخياط المعتزلي في كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء ، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلاً^(٥) . ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته

(٥) الانتصار ص ١٠٣ وانظر في آراء

الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق

للبغدادى ص ١٧٥ .

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٤) الحيوان ٤ / ٢٠٦ .

ويبدو أنه كان يَلَفَقَى كثيراً من الإهمال في أول أمره ، حتى كان يُضْطَر حين يُوَلِّف كتاباً أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابيين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العتّابي أو سلّم صاحب بيت الحكمة ، حينئذ كان الكتاب يروج ، ويأق الناس لروايته^(١) عنه . وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله ، وفي مقدمتهم بشر بن المعتز وشماعة بن أشرس ، حتى إذا شغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مرو إلى بغداد أشار عليه شُماعة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة في هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حَدَّ له بما كتب^(٢) ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد ، ولكن لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة ، ونظن ظناً أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ ، ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام^(٣) ، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، مكتفياً — فيما يبدو — براتبه . وربما كان قبحه الذي عُرِف به هو السبب الحقيقي في أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه . وفي بغداد طاب له المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية في النوادي والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتحول الخلافة إلى سامراء في عهد المعتصم ، ويتحوّل معها الجاحظ ، ويتخذ سامراء دار مقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور ، وفيها يتعرّف على كثير من الأدباء ، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثال أبي العيساء والجسمّاز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء ، وجعلته صلاته بابن الزيات يقف في صفه ضد خصمه أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة ، ولا يلبث المعتصم أن يتوفى ويتبعه ابنه الواثق وتصبح الخلافة إلى المتوكل ، وكان يَمُضْطَغِنُ على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذّبه في تَسْوَر محمى بالنار حتى يموت . ويقرب المتوكل في هذه الأثناء ابن أبي دؤاد ، ويرسل في طلب الجاحظ ، ويأتونه به مقيّداً ، يأخذ في تعنيفه ، ويقول له الجاحظ :

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٢ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٨ .

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨ .

« خَفَضَ عَلَيْكَ - أَبَيْدَكَ اللَّهُ - فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَكُونَ لَكَ الْأَمْرُ عَلَى خَيْرٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي عَلَيْكَ ، وَلَأَنْ أَسَىءَ وَتَحَسَّنَ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ أَحْسَنَ فَتَسِءَ ، وَأَنْ تَعْفُو عَنِّي فِي حَالِ قَدْرَتِكَ أَجْبَلُ مِنْ الْإِنْتِقَامِ مِنِّي » . وعفا عنه ابن أبي دؤاد^(١) . ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفاً به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر من المتوكل أن يصنف رسالة في الرد على النصارى^(٢) ، ويغلب أن يكون هذا التكليف في سنة ٢٣٥ ، وهى السنة التى أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالس كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وكأن مهمته كاتباً رسمياً للدولة ظلت قائمة منذ مطالع القرن الثالث الهجرى حتى هذا العام . ولا بد أن الدولة كانت تكفيه عيشه كما كانت تكفى كثيرين من العلماء والشعراء ، وكان حين يُهْدَى الوزراء والقُوداد وكبار الكتّاب بعض كتبه يُهْدُونَهُ بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدَّمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبي دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولى حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسدُّ حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد ، إنما هو وجاريتان ، وهذا كل ما هناك . ويظهر أن مرض الفالج (الشلل) ألمَّ به مبكراً ولكنه لم يُقْعِدْهُ عن الحركة ولا عن الكتابة ، فقد ألَّفَ كتاب الحيوان الذى قدَّمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ للهجرة وهو مفلوج^(٣) ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقرس وطال به العُمر ، وإذا صحَّ أنه صاحب الفتح بن خاقان فى زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظاً بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ . وحين اشتدَّ به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه . فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون مَنْ نصفه مفلوج لو حَزَّ بالمنشير ما شَعَرَ به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلَمَهُ » . ووجَّه إليه المتوكل فى سنة ٢٤٧ شخصاً يحمله إليه ، فقال : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شِقِّ مائل ، ولُعَاب سائل ، وعَقْل حائل^(٤) ؟ ! » .

(٣) ذيل زهر الآداب للحصرى ص ١٦٥ .

(٤) انظر فى الخبرين السابقين معجم الآداب ١٦ / ١١٣ .

(١) معجم الآداب ١٦ / ٧٩ .

(٢) معجم الآداب ١٦ / ٩٩ وما بعدها
وزاه فى كتابه إليه يشير إلى راتب شهرى
معلوم كان يجرى على الجاحظ .

ويُعَدُّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر في العصر العباسي ، وهو في الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبية التي نهض بها المعزلة ، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوليد للمعاني ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفد ، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامي في كتاباته^(١) ، ويريدون به قوة الحجة المنطقية والقدرة على التسبب والتعليل ، وكأنما يأخذ من نهر لا ينضب ، نهر لا يزال يجلب منه الحجة ونقيضها ، تُسَعِّفه في ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » بما يستنبطه من خفيات المعاني وما يثيره من دقائق الفكر في الروح والجسم والحواس والخير والشر والجوهر والعرض ، بل أيضاً من خفايا المجتمع الذي عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومُكْدِنٍ ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين في الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وما يتصل بالحيوان والنبات وبالغرب والعجم وفضائل الشعوب ، وكأنك تدور في كتاباته بمتحف لاتزال تفضؤك فيه الطرف والصور . وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة ، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية في البصرة أو في بغداد أو في سامراء ، ومرة يطوف بك في ردهات الفكر العميق أو في بعض آي القرآن ، ومرة يطوف بك في شوارع المدن السابقة وأزقتها وحوالياتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الجوارى ، وهو في هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس .

ويجانب هذا الفكر المنطلق في البحث وفي الوصف وفي الرواية الذي ينقل لك الواقع بكل شياته وسماته ، وكأنك بإزاء أشرطة سينمائية تعرض عليك كل ما في مدن العراق الكبيرة من صور الحياة في أشدها ترفاً وزخماً وأشدّها بؤساً وضنكاً ، حتى وكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق . ويبلغ من نقله لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أى شيء حتى

(١) كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشة ونسكى) ص ٥٢ .

العورات أحياناً ، ويعلم ذلك في صراحة صريحة دون أى موارد إذ يقول : «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر (العورات) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فلنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ونمالة متمكنة .^(١)»

وبجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطفاءك بالنوادر المضحكة ، وكان القدماء يلاحظون ذلك بوضوح ، حتى ليقول المسعودى : «كتب الجاحظ مع انحرافه المشهور (يريد خصومته للشيعه ، وكان المسعودى متشيعاً) تجلو صدى الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف مال القارئ وسامة السامع خرج من جيد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»^(٢) ويصور ذلك الجاحظ نفسه فيقول : « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يُحْمَلَ أصحابها على الجحد الصَّرف وعلى العقل الخض وعلى الحق المرّ وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية واللاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل»^(٣) . وخصّ الهزل والنوادر بكتابه المشهور «البخلاء» وهو مجموعة كبيرة من الأفاصيص الفكاهة عن الأشحاء البخلاء في عصره . وبنتى رسالة له في هجاء أحد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب ، وهى رسالة الترييع والتدوير ، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئاً ، فجعل يصفه في رسالته وصفاً مضحكاً ، ثم حوَّله إلى دراسة واسعة في الجمال ، وهل يكون في القصر أو يكون في الطول أو يكون في النحافة أو يكون في الامتلاء أو يكون في الترييع والتدوير ، وهى تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلى بالدعابة تارة وبالسخرية تارة أخرى ، وفيها يقول مدافعاً عن المزاح : « ولو استعمل الناس الرصانة في كل حال والجحد في كل مقال . . . لكان السفه الصَّراح خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم . . . ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه»^(٤) .

(١) الحيوان ٣ / ٤٥ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ١٠٩ .

(٣) رسالة في النساء مجموعة رسائل الجاحظ .

نشر السدوي ص ٢٦٦ .

(٤) رسالة الترييع والتدوير (طبعة شارل

بلات بدمشق ص ٥٢ .

العصر المباسى الثانى

وجرّت رغبةُ الجاحظ في أن يتخلّل كتاباته بالنوادر وما يُطَرْف القارئ رغبةً مماثلة في أن يورد في تضاعيف كتاباته بعض آى القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم ، مما أشاع في رسائله وكتبه كثرة الاستطراد ، وكان يقصد إليه قصداً ويتخذ مذهباً في كتابته ، حتى لا يملّ القارئ ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه ، وهو يعلن ذلك مراراً في كتبه ، كقوله في كتاب الحيوان : « قد عزمتُ — والله الموفق — أنى أوشّح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فلأنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التى إذا طالت أو رثت الغفلة »^(١) . ويقول في موضع آخر : « ومتى خرج (القارئ) من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد ... حتى يُفضى إلى مَزَح وفكاهة ، وإلى سُخْف وخرافة »^(٢) .

ودائماً يُعنى الجاحظ بصياغته ، بادئاً بموادها من الألفاظ ، فهى تارة ألفاظ جزلة رصينة ، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة ، ولكل لفظه موضعها من الكلام ومن المعنى الذى تؤدّيه ، وهو يصيح في البيان والتبيين وغيره من كتاباته : التلاؤم التلاؤم ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، أو بعبارة أخرى لاسمعيه ، يقول : « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوَحْشِيَّ من الكلام يفهمه الوحش من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى »^(٣) . ودائماً يبدى ويُعيد في أن الأسلوب ينبغي أن يكون وسطاً بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشفّ الألفاظ عن المعانى حتى تَلَدَّ الأسماع والقلوب ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليلاً يُغْنِيكَ عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه . . . وإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً . . . صَنَعَ في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة »^(٤) . وأكثر من

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .

(٤) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

(١) الحيوان (طبعة الحلبي) ٣ / ٧ .

(٢) الحيوان ١ / ٩٣ .

الحديث في البيان والتبيين عن حسن الصياغة وجمال العبارات ، وهو بحق الذي أعدّ في قوة لشيوخ أسلوب جديد في الكتابة ، هو أسلوب الازدواج ، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق في صفوف متقابلة ، دون أن تتحد نهاياتها على نحو ما هو معروف في السجع . هي تتقابل وتتبادل صوتياً ، ولكن دون أن تحقق التوازن الصوتي المألوف في السجع ، ومع ذلك تحقق ضرورياً من الإيقاع ، فالكلمات تتوازن وتتبادل ، ودأن كل كلمة في عبارة تقابلها كلمة في العبارة التالية على شاكلة قوله : « لا أعلم قريناً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ، ولا أخفّ مثونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرة » ، ولا أقرب مُجْتَنَسِي ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجدَ في كل لبّان من كتاب ، ولا أعلم زيتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ويرخص ثمه وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأهم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب ^(١) . وبمثل هذا الأسلوب المتدفق الذي يحفّ به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنّف الكتب الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات ، دون أن تتأبى عليه كلمة أو صيغة ، فقد أصبحت اللغة مرنة في لسانه وعلى قلمه إلى أقصى حد ، لغة شفافة يَشيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصنّى الذي يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره .

ودائماً تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ ، إذ يُعنى دائماً بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاءمتها لمعانيها وموضوعاتها وقرائنها ، كما يُعنى بيسرّيان روح الدُّعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية إلى فائدة إلى بيان سِمة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يُحصى من المعارف

وأحوال مجتمعه . وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل أدبه أدباً واقعياً بصور مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائماً تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأدلة ودقائق المعاني والأفكار خائضاً بك في أعماق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقات أو الكلام عن صفاته أو في المعرفة أو في الاستطاعة ، مع ذكر أطراف مما يجرى فيه الناس ويخوضون فيه ، ومع التنقل في كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات .

١

ولسنا بصدد البحث العام في الجاحظ ، إنما نريد أن نقف قليلاً عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصي ونوادر ، ومربناً أنه طبع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار في مدح الشيء وذمه ، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومعبّد في الكلب والديك أيهما أفضل ، إذ شغلت نحو مجلّد ونصف من كتاب الحيوان ، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدييره في الكلب والديك ، يقول : « إنما تنتظر (نجادل) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صنّعه وعلى عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسخّر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلّ بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما ويُعتبر بهما ويسبح الله عز وجل عندهما » . وهو يردّد ذلك في جوانب من المناظرة ليبين الغاية منها والغرض . وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله النظام ومعبّد في ذمه ومدّحه ، ولخص ذلك يقول ^(١) :

« باب ما ذكر صاحب الديك من ذمّ الكلاب وتعداد أصنافها ومعايها ومثالبها من لؤمها وجبّئها ، وضعفها وشرّها ، وغدّرها وبذّائها ، وجهلها وتسرعها ، ونسئتها وقذّرها ، وما جاء في الآثار من التّهنى عن اتخاذها وإمسакها ومن الأمر بقتلها وطردّها ، ومن كثرة جناياتها وقلة ودّها ، ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها ، وقبحها وقبح ملازمتها ، ومن سماجة نباحها وكثرة أذاها ، وتقذّر المسلمين

من دنوّها وأنها تأكل لحوم الناس ، وأنها كالخسلتق المركب ، والحيوان الملقق :
 كالبعغل في الدواب وكالراعي في الحمام ، وأنها لا سيع ولا بهيمة ، ولا إنسية
 ولا جنسية ، وأنها من الجنّ دون الجنّ ، وأنها مطايا الجنّ ونوع من المسخ
 وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى ، وأنها يعترها الكلب من أكل لحوم الناس .
 فإذا حكينا ذلك حكينا قول من عدّد محاسنها ، وصنّف مناقبها ، وأخذنا في
 ذكر أسمائها وأنسائها وأعراقها ، وتقديّة الرجال إيّاها ، واستهتارهم بها ، وذكر
 كسبها وحراستها ، ووفائها وإلفها وجميع منافعها ، والمرافق التي فيها ، وما أودعت
 من المعرفة الصمحيحة ، والفطن العجيبة ، والحسّ اللطيف ، والأدب المحمود .
 وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم ، وذكر حفظها ونفاذاها واهتدائها ،
 وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصبرها ، ومعرفتها بحقوق الكرام ، وإهانتها
 اللئام ، وذكر صبرها على الجفّاء ، واحتمالها للجوع ، وذكر ذمامها وشدة
 منعتها معاهد الذمار منها ، وذكر يقظتها وقلة غفلتها ، وبُعد أصواتها ،
 وكثرة نسلها وسرعة قبوها . . . مع اختلاف طبائع ذكورها . . . وتردّها في
 أصناف السباع ، وسلامتها من أعراق البهائم ، وذكر لغتها وحكايتها ، وجودة
 ثقافتها ومهنتها وخِدْمَتها ، وجِدّها ولِيعبها في جميع أمورها ، بالأشعار
 المشهورة والأحاديث الماثورة ، وبالكتب المنزاة ، والأمثال السائرة ، وعن تجربة
 الناس لها وفراستهم فيها ، وما عاينوا منها ، وكيف قال أصحاب الفأل فيها
 وأخبار المتطيرين عنها ، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها ، وعدد جرائها ، ومدة حملها
 وعن سِماتها وشيائها ، وعن دوائها وأدوائها وسياستها ، وعن اللاتي لا تَلَقْسُنُ منها ،
 وعن أعراقها والخارجي منها ، وعن أصول مواليدها ومخارج بلّدها . »

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التي تَدُمُّ بها الكلاب ، فيذكرها على
 لسان صاحب الديك وينقضها على لسان صاحب الكلب ، ثم يأتي بمحاسنها ومحاولات
 صاحب الديك في نقضها ، وفي أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآي القرآن والحديث
 ومعارف العرب ، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادرهم ونوادر اليونان . مع الرجوع دائماً
 إلى التجربة . وهو في تضاعيف ذلك سسترد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضاً من عادات العرب . والمناظرة في رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يُرَى في قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم في منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزلين اسمان اختارهما الجاحظ ليقم مناظرته ، أما في حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التى تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد في حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والنيل^(١) ، فدائماً الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رصداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذى أهده إلى إبراهيم بن العباس الصولى ، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، في كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلاً وفي كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من دم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته وردّ صاحب الكلب عليه ، وهى تجرى على هذه الصورة^(٢) :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللص بالنهار كسيرة خُبْرٍ خَلَاءَ ، ودار حواه ليلاً ، فهو في هذا الوجه مُرْتَشٍ وآكلٌ سُحْتٍ ، وهو مع ذلك أَسْمِجُ الخلق صَوْتًا ، وأحْدَقُ الخلق يقظة ونومًا ، ينام النهار كله على نفس الجأدة (الطريق) وعلى مَدَقِّ الحوافر ، وفي كل سُوقٍ وملتقى طريق . . . وقد سَهَرَ الليل كله بالصباح والصخب ، والنَّصَب والتعب ، والغَيْظ والغضب ، وبالْجَبْءِ والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إاليه ، فإن وَطِنَتْهُ دابة فأسوأ الخلق جَزَعًا ، وألأمه لَوْمًا ، وأكثره نُبْحًا وعُواءً ، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وَطِنَتْهُ إنسان فليست تَمُّ له السلامة ، لأنه في حالٍ متوقعٍ للبلية ، ومتوقعٍ البلية في بليّة . فإن سلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالاً منه ، لأنه أسوأهم جَزَعًا وأقلهم صبرًا ، لأنه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الحالية له معرّضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلَّ خَلْقٍ فارق أخلاق الناس فإنه

مذموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا . قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلَةٌ ملوكية لقلنا . ولو كان خلاف ذلك أَلَدٌ لكانت الملوك بذلك أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية ، وعيبتموه به من نومه على شوارع الطرق والسكك العامة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلمُ بشأنه ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتَّاب من رَضٍ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائمًا فى طريق خال ليس بحضرته رجالٌ يُهابون ، ولا مشيخة يرحمون ويزجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتريه فى مجامع الأسواق لقلَّ خلافه عليك ولما رَقَدَ فى الأسواق . وعلى أن هذا الخلق إنما يعتري كلاب الحُرَّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها ، وبعْدُ فمن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباع أخلاقَ الناس وعاداتِ البهائم ؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتَسْرَحُ وتلتبس المعيشة ليلا ، لأنها تبصر بالليل . . . أما تركه الاعتراض على اللصِّ الذى أطعمه أيامًا ، وأحسن إليه مرارًا ، فإِنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له . فإذا كان عهده ببرِّ اللصِّ أحدث من عهده ببرِّ أهله لم يكلف الكلب النظر فى العواقب وموازنة الأمور . والذى أضمر اللص من البِشَاتِ غَيْبٌ قد سُرَّ عنه ، وهو لا يدرى أجاء ليأخذ أم جاء ليعطى . . . ولعل أهله أيضًا أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضرب والإجاعة ، وبالسبِّ والإهانة . وأما سماجة الصوت فالبغل أسمعُ صوتًا منه ، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به . وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من القمارى والدَّباسى وأصناف الشفانين (ضرب من العصافير) فأما الأسد والذئب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك ، وإنما لك أن تدم الكلب فى الشيء الذى لا يعم . . . وربما كان من الناس — بل كثيرًا ما تجده — مَنْ صوته أقبح من صوت الكلب ، فلم يَخْصُصْ الكلب بِشَيْءٍ عامةُ الخلق فيه أسوأ حالًا من الكلب . وأما عُواوُه من وَطْءِ الذبابة وسوء جَزَعِه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عَدَبَةِ (طرف) السوط أسوأ من جَزَعِه » .

وواضح كيف أن صاحب الديك ثلّب الكلب مثالب مختلفة في وفائه لأصحابه وفي غلظ صوته وفي نومه بالنهار على الطرق وفي الأسواق ، وفي كثرة نباحه وعوائه حين تطوّه دابةً . ويتنقّضُ صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين ، وفي الأماكن الجامعة لما يلقى من السفهاء والصبيان ، حتى يزجرهم الناس ، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد في الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة ، وهذا طبعي لأن الأسواق دورها ومنازلها . أما أنه لا يني لأصحابه حين يلتقي له لصٌ بكسرة خبز ، فإن محاسبه على ذلك لإحسانهم إليه ، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم ، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله ، ولا يدري أجاأ ليأخذ أوجاء ليعطى ، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة . وسماجة صوته ليست مثلبة ، فالبغل أسمع صوتاً منه ، وكذلك الطاووس الجميل المنظر ، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم . وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته في القبح درجات عن صوت الكلب ، وذلك لا يعيهم . أما جزعه من وطء والدوابّ ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السباط أسوأ من جزعه . وهكذا تسقط جميع المثالب التي وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها في يده شيء . وهي براعة فائقة في الحوار وفي الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتياط له بالعقل الثاقب ، مع التأني والتمكين للحجج ، وهي توضع في صورة أدبية بديعة ، هي صورة الأسلوب المزدوج الذي تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتعاذل إيقاعاتها تعادلاً محكمًا . وتمتد المناظرة في الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ في الجزء الأول من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثاني فتشغل بذلك مجلداً ضخماً ، ثم تبدأ المناظرة في مساوئ الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثاني . وما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل في الفجر وغير الفجر ، حتى كأنه فوق الإسطراب الذي يرصد الفلك ومنازل القمر ، ويردُّ عليه صاحب الكلب هذه المحمدة ، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه في الأسحار ، يقول^(١) :

(١) الحيوان ٢ / ٢٥٥ وما بعدها .

« لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل في الجهل يقوم في الصباح وفي ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولاً ومنهجاً غير مردود ، ولو أن متفقداً تفقد ذلك من الحمار لوجده منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم ، وأوجد ذلك مقسوماً على ساعات الليل ، ولكان لقائل أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت : ليس تجاوباً وإنما ذلك شيء يتسوّى معاً ، لاستواء العلة ، فلم تكن لديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار . . . والحمار أجهل الخلق ، فليس ينبغي لديك أن يُقضى له بالعرفه ، والحمار قد ساواه في يسر علمه » .

وعلى هذا النحو لا يدلى صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه صاحب الكلب نقضاً ، وبالمثل ينقض صاحب الديك محامد الكلب . ويشد الحوار بين المتناظرين ، ونُصِّح وكأننا بإزاء بائنين لحصون من الأدلة والبراهين لاتلبث حين تقوم أن تنقض . وكما قلنا ليس البائنان والناقضان سوى الجاحظ نفسه ، فهو الذى أقام تلك المناظرة التى ظاهرها كلب وديك وباطنها عرب وشعوبية ، وكان يتعصب للعروبة في أعماقه ، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامه ومثالبه ويضفى عليه كثيراً من المحامد والمحاسن في حماسة بالغة .

وهذا لون من ألوان أدبه . ولون ثان هو رسائله الإخوانية ، وهى تموج بطرف فكره وبلاغته ، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلون له وتنكّر فترةً إذ أحسّ انشغاله عنه ، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية ^(١) :
« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرّاف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجّح في قلبك لإيثار الأناة (الحلم) فقد خفتُ — أيّدك الله — أن أكون عندك من المنسويين إلى نثرق السفهاء ، وبجانبه سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإنّ امرأً أمسى وأصبح سالماً
من الناس إلا ما جنّى لسعيد
وقال الآخر :

ومن دَعَا الناسَ إلى دَمِّهِ
دَمَّوه بالحق وبالباطل

فإن كنتُ اجترأتُ عليك - أصلحك الله - فلم أجترئُ إلا لأن دوام تغافلِكَ
عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعَفْوُ المتتابع يُؤمن من المكافأة
(الحجزة) ولذلك قال عيمنة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان
خيراً لى منك : أرهبنى فأثقتانى ، وأعطانى فأغثنانى . فإن كنت لا تهب عقابى
- أيتدك الله - لحرمة ، فهبته لأباديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النعمة ،
وإلا تفعل ذلك لذلك فعُدْ لحسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحداث ،
وإلا فأت ما أنت أهله من العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان
مَن جولاك تغفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المُصير ، حتى إذا صرت
إلى مَن هموته بكثر (أولى) وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا
الإنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة . واعلم - أيتدك الله - أن شين غضبك
على كزَيْن صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياة
ذكرى مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية ، ففيها شعر ونخبر ،
وفيه الماهرة العقلية على التدليل واستنباط الأفكار ، فابن الزيات هو الذى طال
تغافله عن الجاحظ ويشبه التغافل بالإهمال ضرباً من القياس ليصل إلى إغفاله له ،
ويسوق دليلاً ملزماً ، فهو دائماً يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل المعفو عنه آمناً من
الحجزة وأن يصاب بسوء . ثم مضى يُلزمه الرضا عنه . بمنازل متعددة منه ، إما
لمنزلة حرمة منه ، وإما لما تتابع عليه من أياديه ، والنعمة تشفع فى النعمة ، برهاناً
ساطعاً ، وإما لحسن العادة ، وإما لحسن الأحداث ، وإما لأنه أهل للعفو عن
المستحقين للعقوبة من أمثاله . ويتلطّف له قائلاً إنه أول ذنب لى وأيس ذنبى إلا
النسيان ، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإنعام إلا منك . فإذا يملك ابن الزيات
إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام ؟ وتتقابل عبارات الرسالة فى
صفوف ، وكأن كل كلمة فى عبارة سابقة تجذب قريبتها فى العبارة اللاحقة ، دون
محاولة لسجع أو نغم ممتلئ فى نهايات الجمل المتلاحقة ، وهكذا الجاحظ دائماً
يكتفى بجمال التوازن العام فى أسلوبه المزدوج . وانظر إلى التوازن الدقيق فى العبارات
الأخيرة من الرسالة ، « فشين غضبك » توازن « زين صفحك » ، و « موت ذكرى

مع انقطاع سببي» توازن «حياة ذكرى مع اتصال سببي». وتكامل مثل هذا التوازن في أسلوبه يتيح له وفرة في النغم، مع ما يتسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة.

واون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية، وهي تُعَدُّ بالعشرات، ويكفي أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمغنين غير ماله من رسائل في حجاج النبوة واستحقاق الإمامة وخلقت القرآن. وكثير منها مكتوب بأسلوب الجدل والمناظرة، إن لم نقل إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفي بعرض رسالة منها ولتكن رسالته^(١) في فخر السودان على البيضان، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة في شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذي قتله الحجاج وبلال الحبشي والمقداد الصمخاني الجليل أول من عدا به فرسه في الإسلام، ومثل مكحول الفقيه والحسين طان الشاعر الذي يفتخر بقومه، ويذكر قصيدة له تحتج بها العجم والحبش على العرب، ويشرح أبياتها، ومثل سننح بن رباح المعاصر لحرير ويروي قصيدته في الفخر بالزنج، ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنترة الفوارس. ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقبال (تابعة) حمير، ويذكر مشاركتهم في بعض الأحداث والحركات السياسية في العصرين الأموي والعباسي، ثم يقول:

«الناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم وعليها أغلب من الزنج... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم. وليس في الأرض أحسن حُلُوفاً منهم، وليس في الأرض أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب (أفصح) السنة، ولا أقل تمطيطاً منهم... والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بلمعة ولا بستكة حتى يفرغ من كلامه. وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيهما، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه

(١) انظر الرسالة في مجموعة رسائل الجاحظ.

(نشر مكتبة الخانجي) ١ / ١٧٧ - ٢٢٦.

الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف . والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحوك السن حسن الظن ، وهذا هو الشرف » .

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالية أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولا . ويقول لخصومهم إنكم أقررتهم لهم بالسخاء وادعيتهم عليهم ما لا يُعرف من ضعف العقل ، ولو كان هذا القياس صحيحاً لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشي الذي أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم :

« ونحن أهولُ في الصدور وأملأ للعيون ... كما أن الليل أهولُ من النهار . . . ودُهْمُ الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أثنى وأنفع وأبقى ، والحُمُرُ (ج حمار) السود أثنى وأحسن وأقوى ، وسودَ الشَّاءِ أدَسَمُ ألباناً وأكثر زبداً . . . وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، وأشدَّ يبوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شيء ، وليس من النمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ولا أعم منفعة ولا أبهى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سودَ الجذوع . . . وأحسن الحضرة ما ضارع السواد ، قال الله عز وجل : (ومن دونهما جَنَّاتان) ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما : (مُدْهَمَّتَان) قال ابن عباس : خضراوان من الرى سوداوان ، وليس في الأرض عودٌ أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً . . . ولا أجدر أن ينشب فيه الخطُّ من الآبنوس . . . والإنسان أحسن ما يكون في العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم في الجنة ، وأكرم ما في الإنسان حلقاه وهما سوداوان ، وأكرم الكحل الإثمد ، وهو أسود . . . وأنفع ما في الإنسان له كبده » .

ونحس كأن الكلام سيول تتدافع ، وهي سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها محصية لإحصاء دقيقاً مواقعه في الطبيعة وفي الحيوان وفي الجماد وفي الثمار والأشجار وفي الزروع والأعواد والأخشاب وفي الإنسان وفي الجنة ونعيمها الخالد . وكل ذلك

يسوّى فى أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للأذان والأسماع . ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدة والصلابة والصرامة ، وأنه لا يوجد لون أرسخ فى جوهرة من السواد ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من ساداتهم سوداً دهماً . ويتحدث عن كثرة عدد الزنج ، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات . ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام . ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تشويهاً خلقهم ، وإنما فعلت بهم ذلك البيئة ، ويسلك فيهم من العرب بنى سليم بن منصور وكل من نزل الحرة لسريان السواد فيهم ، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحرة (حرة بنى سليم) أن ظباءها ونعامها ، وهوامها وذبابها ، وثعالبها وشاءها ، وحميرها وخيلها ، وطيرها ، كلها سود .

ونحس فى حرارة دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صحَّ أن جده كان عبداً أسود . وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان فى عصره ، وكأنما أصبح لهم شيء من الخطر فى الحياة الاجتماعية العباسية ، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع . ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصى ، إذ كان بارعاً فى تصوير الشخصيات والنفس ، ولو أنه عرف الأدب التمثيلى لأسعفته ملكته فى المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو بحق لا يبارى فى وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ، ومن خير ما يصور هذه النزعة القصصية عنده أقصوصته فى كتابه الحيوان عن «القاضى والذباب» وهى تجرى على هذه الصورة الرائعة ^(١) :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سَوَّار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زِمِيَّةً ^(٢) ولا رَكِيناً ^(٣) ، ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه ، وملاك من حركته ، مثل الذى ضبط وملاك . كان يصلّى الغداة ^(٤) فى منزله ، وهو قريب

(١) الحيوان ٣ / ٣٤٣ .

(٢) ركيناً : رزيناً .

(٣) زميّة : وقوراً .

(٤) الغداة : صلاة الضحى النافلة .

الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه ، فيَحْتَبِي ، ولا يَتَكَي ، فلا يزال مُسْتَضَبًّا ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحلُّ حُبُونَهُ^(١) ، ولا يحول رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقْبَيْهِ ، حتى كأنه بناء مبنًى أو صَخْرَةٌ منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوحز ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواله وفي السماطين^(٢) بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المُكْنَثَ ، ثم تحول إلى مُؤَقِّ^(٣) عينه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عَصْصِهِ ونفاذ خُرْطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أُرْنَبَتَهُ^(٤) أو يغضن وجهه أو يذب بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جَفَنَهُ الأعلى على جَفَنِهِ الأسفل ، فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن وآتى بين الإطباق والفتح ، فتنحى رِثْمًا سَكَنَ جَفَنَهُ ، ثم عاد إلى مُؤَقِّهِ بأشد من مَرَّتِهِ الأولى ، فغمس خُرْطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتمال له أضعف وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى . فحرك أجفانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقلر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلِجُّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بُدًّا من أن يذب عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحى عنه بقلر ما رَدَّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم أَلْجَأَهُ إلى أن ذبَّ عن وجهه بطَرْفِ كُمِّهِ ، ثم أَلْجَأَهُ ، إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضَرَهُ من أُمَمَائِهِ وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب أَلَسَّ من الخُنْفُسَاءِ وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا . وقد علمت أنى عند الناس من أُرْمَتِ

(٣) المؤق : طرف العين مائل الأنف .

(٤) أُرْنَبَتِهِ : طرف أنفه .

(١) يحتبى : من الحبوة ، وهى أن يجمع

الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) السماطين : مشى سباط وهو الصف .

الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعفُ خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإن يَسْتَلْبِثْهُمْ
الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْ ضَعْفِ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ) .

والأقصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة ، أما الجزء الأول فيصف فيه
الجاحظ وقار القاضي عبد الله بن سَوَّار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة - التي
لم يبلغها أحد - على نفسه وحركته . وهي سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من
الغداة حتى صلاة المغرب ، بل لكأنما أصبحت له فطرةً ثابتة ، فإذا هو يجلس
مُحْتَبِئًا غير متكئ في المسجد ، منتصبًا كأنه سارية أو عمود من أعمدته ،
لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يغيّر وضعًا له في جلسته ،
حتى لكأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة . ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا في يوم
من أيام السنة ، بل في جميع أيامها طولها وقصارها ، وشيء منه لا يتحرك ،
لا رجل ولا يد ولا رأس ، حتى إذا اجتمع الناس له في سماطين وعظهم وعظًا بليغًا .
وهذا هو الجزء الأول في القصة أو الأقصوصة ، يليه جزء ثان يصور فيه الجاحظ إلحاح
الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانة وهو يسترسل في
العظة ، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة ، ثم تأخذ قواه في الوهن شيئًا فشيئًا ،
والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصورًا أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف
تحول من أنف القاضي إلى مؤقته ، والقاضي يستشعر وقاره صابرًا صبرًا عظيمًا
على عَضِّ الذباب لمؤقته ونفاذ خرطوميه فيه دون أن يُغْنِضَ طرفه أو يغضن
وجهه أو يذبّه . ويظل على وقاره صابرًا يوجهه الذباب ويجرقه ، حتى
إذا نفد صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنحّ الذباب وظل في
إحراقه وإيجاعه ، فوالى بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره . وتنحى الذباب
قليلاً ثم عاد بأشد مما كان ، لأن المكان كان قد وهى ، فكان احتمال له أضعف ،
فحرك أجنانه وزاد في شدة الحركة وفي تتابع الفتح والإطباق . فتنحى الذباب عن
المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه ، وما زال يلحّ على القاضي حتى نفد صبره ،
فذبّ عن عينيه بيده وعيون الجالسين أمامه ترمقه . وتنحى عنه بقدر ماردٍ يده
وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه . حينئذ خرج عن وقاره المألوف إذ لم يجد بداً
أن يذبّ عن عينيه بطرف كفه . وعأوده مراراً ، وهو يتابع ذبّه بطرف الكف . وتنتقل
مع الجاحظ إلى الجزء الثالث من الأقصوصة وفيه يصور تعلق أعين السامعين ،

الذين شهدوا المنظر بالقاضى ، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة .
ويبدأ ببيان إلحاح الذباب ، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله ، ويصرّح
بأن الذباب غلبه وقهره وفضحه ، وأنه لا يختلف فى ذلك عن بنى جنسه بشهادة
الآية القرآنية الكريمة . والأفصوصة محبوبة حبكاً دقيقاً بما أودعها الحاحظ من
دقائق التصوير والتفاصيل ، وكأنها مشاهد نراه بأعيننا إذ نقله لنا بحذافيره نقلاً واعياً ،
أو قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شيء فى الرؤية الحسية ولا فى الرؤية النفسية .

ولون خامس فى كتابات الحاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نوادر
ترويحاً عن نفس القارئ وتنشيطاً له ، على نحو ما صور ذلك بنفسه فيما أسلفنا
من الحديث عن خصائصه ، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغير ولا تبدل
صورته اللفظية ، سواء جرّرت على السنة البدو أو السنة العامة ، يقول^(١) :

« ونى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن
تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها
وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل
كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلححة من مُلحاح الحشوة والطغام
فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك
مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى
أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحتهم لها » .

وطبق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً ، فالنادرة تُروى بألفاظها كما
نُدت من السنة أصحابها ، وإذا كان لفظها عامياً أو أعرابياً مسرفاً فى البداهة
ظلت كما اجتلبت دون أى تعديل ، فإنها إن عدلت مُسخت وأصبحت مشوهة
الخلق ، وفارقتها طبيعتها ، ولم تعد مضحكة . وتكثر النوادر فى البخلاء بل كل
الكتاب نوادر إن صح هذا التعبير ، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع الغلة
الفلسفية والكلامية وعركاته من شعبية وغير شعبية وكثيراً من تقاليده ومطامعه
وملاپسه ، فكل ما فى المجتمع البصرى من صور حياة يعرض عرضاً دقيقاً بكل
شيائه وسمائه . وله فى المعلمين كتاب ملاءه بنوادرهم ، ونسوق له هذه النادرة
التي صور فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم للازمتهم الصبئية ، قال :

« كنت ألفت كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمتُ على تقطيع الكتاب ، فدخلت يوماً قرية ، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسلمت عليه فردّ عليّ أحسن ردّ ، ورحّب بي ، فجلست عنده ، وباحثته في القرآن ، فإذا هو ماهر ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوِّى عزى على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته وطرقت الباب ، فخرجت إلى جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيّدك . فدخلت وخرجت ، وقالت : باسم الله ! . فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس كئيباً ، فقلت : عظم الله أجرك (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) ، (كل نفس ذائقة الموت) ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذه أول المناحس ، فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أنظن أنى رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت منّ لم تَرَ ؟ فقال : اعلم أنى كنت جالساً في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق (النافذة) إذ رأيت رجلاً عليه بُردٌ (ثوب) وهو يقول :

يا أمّ عمرو جزاك الله مكرمةً رُدّي على فؤادى أينما كانا
لا تأخذين فؤادى تلعبين به فكيف يلعبُ بالإنسان إنسانا

فقلتُ في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قبل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه ، وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأُمّ عمرو فلا رجعتُ ولا رجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فعزنتُ عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست في الدار ، فقلت : يا هذا : إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قوّيت عزى على إبقائه ، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله .

والنادرة طريفة منتهى الطرافة ، والمعلم فيها يأخذ سمّاً جاداً . يزيّنه في أول الأمر علمه الواسع بالقرآن وتفسيره وبالفقه والنحو وبأشعار العرب وما شدا من علوم الأوائل أو علم المعقول كما يقول الجاحظ ، حتى ظن أنه كامل الأدوات وعزم على تقطيع كتاب كان ألّفه في نوادر المعلمين وغفلتهم وحمقهم . ويصحبه فترة ، ويلاحظ أنه أغلق كتّابه فيزوره في داره ، وإذا هو جالس جلسة حزين مكتئب ، فظن أنه فقد عزيزاً لديه ، وأخذ يسأله عنه ، وهو يجيب جاداً ، حتى عرف أنه فقد معشوقته . وكأنما أطلّ حمقه على الجاحظ ، وإذا هو يقول له إنه لم يرها ، وتتوالى غفلته في هذا الحب الأحرق الذي تهوى فيه كل قواعد المنطق ، وكأننا في مسرح هزلي نفضي فيه إلى الضحك ، وكلما مضينا في النادرة أغربنا فيه ، لا نتوقف ، وكأنما اختلّ توازننا ، أو كأنما نندفع في انحدار بقوة ولا نملك الوقوف أو السيطرة على أنفسنا من هذا السيل الجارف للغفلة المجسمة وما يُطَوَى فيها من حمق فظيع ، حمق يدفعنا إلى الضحك العريض . ولعل من الطريف أن الجاحظ كان يتندّر على كل شيء حتى على نفسه وشكله القبيح ، ويرَوَى عنه أنه قال : « ما أخجلني إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيتُ مبهوتين ، ثم سألت الصائغ فقال : هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان ، فقلت : لا أدري كيف أصوره ، فأنت بك لأصوره على صورتك » .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شخصية الجاحظ الأدبية وخصائصه الفنية في كتاباته . ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتباً فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت في الجاحظ الذي ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة ، وما وصلها به من ذخائر الثقافات الأجنبية ، وما جسّدها فيه من طوابع عقلية ومن جدّ وهزل ومن نقل لكل صور الحياة في مجتمعه ومن استطرادات تحمل كثيراً من الطُرف والنوادر ومن أسلوب مليء بالنغم ، يجري فيه دائماً الازدواج الذي يروع القارئ بجبرسيه ، إذ يُسمع الألسنة حين تنطق به والآذان حين تُصغى إليه ، كما يُمنع بمضامينه العقول والأفئدة .

ابن قتيبة (١)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ولد سنة ٢١٣ للهجرة ببغداد وقيل بالكوفة ، أصله فارسي أو تركي من مرو بخراسان ، ومن ثم نسب إليها ، فقيل المروزي ، اختلفَ في صباه إلى الكتاب ، فحفظ شيئاً من القرآن الكريم والحديث النبوي والأشعار وشدا شيئاً من الفقه والنحو والحساب ، ولم يكن يشبَّ عن الطوق حتى أخذ يختلف إلى المساجد الجامعة بموطنه بغداد يأخذ عن علمائها كل ما عندهم من علوم اللغة والشريعة والحديث ، وعكف على المترجمات يقرأ فيها ويستوعب ، وخاصة ما تُرجم عن الفارسية ، ولعل اسمه في بيعة الفقهاء ، فتولَّى القضاء بدِينُور ، ولذلك يقال له الدِينُوري . وعاد إلى بغداد مؤثراً الاشتغال بالتدريس والتعليم حتى توفي سنة ٢٧٦ للهجرة . وقد أكبَّ على كتب الجاحظ يدرسها ويمثلها ، مع أنهما كانا على طرفي نقيض ، فقد كان الجاحظ معزلياً كما مرَّ بنا ، وكان ابن قتيبة سُنِّيّاً ، وله كتابان : مشكل القرآن وتأويل مختلف الحديث ، وفيهما وخاصة في الثاني يحمل على الجاحظ والمعتزلة حملات شعواء ، وهما منشوران . وله بجانبهما كتب كثيرة منها كتاب في الفقه وكتاب في دلائل النبوة وغريب القرآن وكتب غيرها كثيرة في مختلف الميادين سقطت من يد الزمن . ومن كتبه المنشورة المعارف وفيه يتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان نقلاً عن ترجمة للتوراة ، ويعقب ذلك بتاريخ الأنبياء والرسل والعرب الجاهليين وسيرة الرسول عليه السلام ، ثم أخبار موجزة عن العلماء في كل فن وعن الفرس قبل الإسلام . وله كتاب الأشربة وهو منشور بدمشق وكتاب الميسر والقيداح وهو منشور بالقاهرة وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبّهة وهو منشور أيضاً بالقاهرة ونُشر

وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٥ والديباج

لابن فرحون طبع القاهرة ص ٣٥ وشذرات الذهب

٢ / ١٦٩ ومراة الجنان لليافعي ٢ / ١٩١ .

(١) انظر في ابن قتيبة الفهرست ص ١٢١

والأنساب للسمعاني الورقة ٤٤٣ وتاريخ بغداد

١٧٠ / ١٠ وإنباء الرواة للقطبي ٢ / ١٤٣

وروضة الألباء (نشر دار نهضة مصر) ص ٢٠٩

باسمه كتاب الإمامة والسياسة وهو منحول عليه . ومن أهم كتبه كتاب الشعر والشعراء وهو تراجم قصيرة لشعراء العرب حتى عصره ، وهو منشور مراراً . وله كتاب معاني الشعر الكبير . وألف طائفة من الكتب لتثقيف الكتّاب الناشئين ؛ منها كتابه « أدب الكاتب » ، الذي عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو يمدُّ الكاتب فيه بثقافة لغوية واسعة ، وأهم منه كتابه « عيون الأخبار » وهو يمدُّ الكاتب فيه بكنوز الثقافات التي تُسَعِّفه في مادة عمله .

وابن قتيبة يُعَدُّ أكبر مؤلف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ ، وهو سني محافظ ولذلك يكون من المنطوق أن تتضح محافظته في آرائه النقدية ، غير أنه كان فيما يبدو يوازن بين النزعة المحافظة لعصره والنزعات المجددة المعتدلة عند الجاحظ وأمثاله من المعتزلة . ويتضح ذلك في مقدمته الطويلة لكتابه « الشعر والشعراء » إذ نراه يعلن أنه لن ينظر إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، فإن الله لم يقصر البلاغة على زمن دون زمن ولا خصَّ بها قوماً دون قوم . وهي نظرة مُنصفّة ، ولكنه يعود فيقول : « ليس متأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين . . . فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يبرّد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطوامي ، أو يقطع إلى الممدوح منابت الترجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على ذكر منابت الشَّيْخِ والْحَسَنَةِ ^(١) والعَرَارة » وهي لا شك نظرة محافظة تستمد من الجوّ السُّنِّي في العصر الذي حل محل جَوِّ الاعتزال منذ فاتحة عهد المتوكل . وكانت هذه النظرة تلتقي مع النظرة السابقة التي لا تضع في موازين القيمة الشعرية قدم الشعر وحداثته ، حتى لا يكون محافظاً جامد العقل ، بل هو محافظ أميل إلى روح التجديد والمعاصرة . ومراً بنا في غير هذا الموضع أنه كان أحد خصوم الشعوبية ، بل كان ثاني اثنين خاضا معركة حامية مع أصحاب هذه النزعة ، وعرضنا هناك لمصنّفه : « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وكانت له وراء ذلك في نفس الموضوع كتب مختلفة .

(١) الحنة والبرية : من أزهار البادية .

وأهم من هذا الموقف له ضد الشعوبية أن نجده يُدخل بقوة الثقافات الأجنبية : اليونانية والفارسية والهندية على الثقافة العربية الإسلامية ، ويعمل على تكوين مزيج موحد منها جميعاً ، بحيث لا يُشغَلُ أصحاب كل ثقافة بالدعوة والترويج لها ، مما أحدث هذا الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب الذي طال عليه الأمد منذ عهد المهدي حتى عصره . وحققاً حاول ذلك الجاحظ من قبله ، ولكن غلبة النزعتين الكلامية والأدبية عليه حالت دون النفوذ إلى نهاية الغاية ، وكانت الثقافة اليونانية أكثر شئاً يشغله ، حتى ليقول : « لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة »^(١) وأشار غير مرة إلى أن كتابه « أخذ من طُرْفِ الفلسفة » . ولم يكن اليونانيون أصحاب النزعة الشعوبية في العصر ، فقد كان الفرس هم الذين يحملون علمها ويبذلون قصارى جهدهم في الدعوة لها مشيرين دائماً إلى كتب الآداب الفارسية . فكان لا بد كي يُقَضَى على هذه النزعة الحادة من أن تلتقي — على يد كاتب عظيم — ثقافتها وكذلك الثقافة اليونانية والهندية بالثقافة العربية الإسلامية ، وتدخل جميعها في مجرى النهر العربي الإسلامي بحيث تتلاشى فيه نهائياً ، ولا يصبح لها وجود مستقل ، فوجودها جزء لا يتجزأ من وجود الثقافة العربية الإسلامية العامة .

وهو ما نهض به ابن قتيبة في أروع صورة ، إذ مضى ينسّق مختارات ومقتطفات من الآداب الفارسية ، مع مقتطفات ومختارات من الآداب العربية الخالصة ومع مقتطفات ومختارات من الثقافتين الهندية واليونانية ، وكانت ثمرة ذلك أربعة مجلدات ضخمة ألّف كتابه « عيون الأخبار » ، وقد وزعه على عشرة كتب ، أولها كتاب السلطان ، وفيه يتحدث عن سيرته وسياسته وصُحْبته واختياره للعمال والقضاة والحجّاب والكتّاب ، ويبدوّه بأحاديث نبوية ، ثم يذكر بعض وصايا لشخصيات عربية في الحكم وسياسة السلطان ، ولا يلبث أن يقول : « قرأت في كتاب من كتب الهند : « شر المال ما لا يُنْفَقُ منه ، وشرُّ الإخوان الخاذل ، وشرُّ السلطان من خافه البريء ، وشرُّ البلاد ما ليس فيه خِصْب ولا أمن . . . » وخير سلطان من أشبه النّسر

حوله الجيفُ لا مَنْ أشبه الحيفة حولها النسورُ » ويذكر أقوالا لابن مسعود وعمر بن الخطاب ، ثم ينقل فصلاً طويلاً من كتاب اليتيمة لابن المقفع وما يصور من الأدب الأخلاقي في عهد ملوك الفرس الساسانيين ، ثم يقول : « وقرأت في التاج (وهو في سيرة أنوشروان) لبعض الملوك : هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شيء يتجلى ، وألباب السُّوق مشغولة بأيسر الشيء » . ويعود إلى النقل عن بعض النابهين من العرب ، ثم يقول : « وقرأت في بعض كتب العجم كتاباً لأردشير بن بابك إلى الرعية ، وينقل الكتاب جميعه ، ويعقب عليه بكتاب من أرسططاليس إلى الإسكندر وفيه : « املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالحبة منها ، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك ، هو أدوم بقاء منه باعتسافك ، واعلم أنك إنما تملك الأبدان ، فتخطئها إلى القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت على أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل » . ويتخلو ذلك بقوله : « وقرأت في كتاب الآيين (في أنظمة الملك والدولة الساسانية) أن بعض ملوك العجم قال في خطبة له : « إني إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر » ويذكر أخباراً عن أنوشروان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر الفاروق وعن سياسة الحجاج في رعيته ، ثم يقول : « وقرأت في كتاب التاج : قال أبرويز لابنه شيرويه وهو في حبسه : « لا توسعنَّ على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تضيقنَّ عليهم فيضجوا منك ، أعطهم عطاء قصداً ، وامنعهم منعاً جميلاً ، ووسع عليهم في الرجاء ، ولا توسع عليهم في العطاء » . ويروي عن عمر بن الخطاب « إن للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفذ والآخرة تبقى . . . وإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة بهيمة مرّت بواد خصب فلم يكن لها هم إلا السمن ، وإنما حتفها في السمن » . ثم أخبار عن عبد الله بن الزبير في الرعية ، ولا يلبث أن يقول : وفي كتاب من كتب العجم أن أردشير قال لابنه : « يا بُنى إن الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أسُّ والملك حارس ، وما لم يكن له أسُّ فهو دود ، وما لم يكن له حارس فضائع » ثم يذكر صفات ذميمة لا يصح

أن تكون في السلطان . ويتحدث عن اختيار العمال ويختم حديثه بقوله : قرأت في كتاب للهند « السلطان الحازم ربما أحبَّ الرجل فأقصاه واطَّرحه مخافة ضرره ، فعَلَّ الذي تلسع الحية إصبعه ، فيقطعها لثلا ينتشر سُمُّها في جسده ، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغَسَاء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه » . ويعرض لصحبة السلطان وآدابها وتغير السلطان وتلونه ، ويقول : « قرأت في كتاب للهند : صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطار ، وإنما تُشَبَّه بالجلجل الوعر في الثمار الطيبة والسباع العادية ، فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد . . . ولا خير في الشيء الذي في سلامته مال وجاه ، وفي نكته الجائحة والتلف » . وينقل عن بعض العرب ورجالهم وعن آداب ابن المقفع وعن بعض النساك والمعتزلة والوعاظ وعن بعض كتبه التي كتب بها إلى الحكام والوزراء وعن بعض الكتاب وعن أبرويز في بعض ما كتب به إلى ابنه شيرويه وعن بعض رجال الحكم من العرب ، ويستشهد ببعض الأشعار للقطامي وبشار وغيرهما ، ويعرض لحيات العُمَّال ، وينقل من كتاب التاج : أن أبرويز قال لصاحب بيت المال : « إني لا أحتملك على خيانة درهم ، ولا أحمذك على حفظ ألف ألف درهم ، لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتعمَّسُ به أمانتك ، فإنك إن خُنْتَ قليلاً خنت كثيراً » . ويُكثِّر في فصل القضاء المعقود في هذا الكتاب من النقل عن العرب وأحكام الإسلام ، ويروى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، وهو دستور عظيم في عدالة القضاء ونزاهته . وتتوالى فصول عن الأحكام والشهادات والظلم ، وفيها يُكثِّر من النقل عن العرب ثراً وشعراً ، ويعود في الفصول التالية إلى النقل عن كتب الهند والفرس .

والكتاب الثاني كتاب الحرب ، وفيه يتكلم عن آدابها ومكايدها وأوقاتها وحيلها وعُدَّدها وسلاحها ، ويبدؤه بحديث عن الرسول عليه السلام وبيعض وصايا أبي بكر وعمر للجيش وقوادها عند عقد الألوية ، ويذكر بعض ما قرأ في كتب العجم والهند ، وبما قرأه في الأخيرة : « الحازم يحذر عدوه في كل حال ، يحذر الموائبة إن قرب ، والغارة إن بُعد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولَّى ، والمكر إن رآه وحيداً ، ويكره القتال ما وجد بُدّاً ، لأن النفقة فيه من الأنفس ، والنفقة في

غيره من المال». ويذكر بعض حبيلى الفرس والعرب فى الحرب ، ويتحدث عن آداب الفروسية عند الأمتين ، ويُفِيضُ فى الحديث عن الشجعان وإنشاد الشعر الحماسى .

والكتاب الثالث كتاب السؤدد ، ويتكلم فيه عن مخايله وأسبابه ، ويعرض لخواص كثيرة من الشرف والأخلاق الرفيعة ، ويفتح فيه فصلاً للمزاج والرخصة فيه ، ويدعو إلى التوسط فى الدين والحلم والعقل والغنى والإنفاق ، وكأنه يتأثر بنظرية الأوساط المعروفة عند أرسططاليس . ويُفرد الكتاب الرابع للطبائع والأخلاق المذمومة من مثل الحسد والغيبة والسعاية ، وفيها يقول : وقُرأت فى كتاب للهند : « قلما يُمنَع القلب من القول إذا تردّد عليه ، فإن الماء ألين من القول ، والحجر أصلب من القلب ، وإذا انحدر عليه وطال ذلك أثر فيه ، وقد تُقَطَّعُ الشجرة بالفتوس فتَسَنَّبْتُ ، ويُقَطَّعُ اللحم بالسيوف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه والنصول تغيب فى الجوف فتُسَرَّعُ ، والقول إذا وصل إلى القلب لم يُسَرَّعْ ، ولكل حريق مطفى : للنار الماء ، وللسم الدواء ، وللحزن الصبر ، وللعشق الفُرقة ، ونار الحقد لا تخبو » . ويذكر أن واشياً وشى برجل إلى الإسكندر فقال له : « أتحب أن أقبل منك ما قلت فيه على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال فكُفَّ عن الشرِّ يكفّ عنك الشر » ، وينقل فى هذا الكتاب عن كثيرين من العرب شعراً ونثراً ، ويستطرد إلى الحيوانات وطبائعها متأثراً بالملاحظ ، ويعرض للحشرات وينقل فيها عن أطباء العصر ، كما يعرض للنبات . ويعقبة الكتاب الخامس للعلم والبيان ، ويستهلّه بحديث عن الرسول ويقول : فى كتاب للهند : العالم إذا اغترب فمعه من علمه كاف كالأسد معه قوته التى يعيش بها حيث توجه ، ويذكر عن بُزُرْجِمَهْر أنه قيل له : بِسْمَ أدركت ما أدركت من العلم ؟ فقال بيكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار » ويذكر عن أفلاطون أنه قال : « لولا أن فى قول لا أعلم سبباً لأنى أعلم لقلت إنى أعلم » . ويروى بعض كلمات للمسيح عليه السلام ، ويفتح فصلاً للقرآن الكريم والحديث الشريف والفرق والأهواء فى الدين ، ويعرض لبعض صور الكلام والشعر ، كما يعرض طائفة كبيرة من الخطب منذ الرسول عليه السلام إلى المأمون .

والكتاب السادس كتاب الزهد ، وفيه تبرز بجانب مواظب كبار النسك والوعاظ والزهاد المسلمين ثقافة ابن قتيبة الدينية لا الإسلامية وحدها ، بل أيضاً ثقافته بالكتب السماوية وكيف أنه عكف عليها وعلى كل ما يتصل بها يقرأ وينقل ، تارة مما كتبه أمثال وهب بن منبه عما أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أنبيائه . وينقل من التوراة ومن الإنجيل ، من ذلك قوله : « قرأت في الإنجيل : لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسدُها السوسُ والدود وحيث ينسقب السراق وأكن اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم » ويذكر أن رجلاً من الحواريين قال للمسيح : أتأذن لي أن أدفن أبي ؟ فقال له : دع المرقى يدفنون موتاهم . ويذكر له دعاء طويلاً حين أخذه اليهود ليصلبوه بزعمهم فرفعه الله إليه ، كما يذكر دعاءً لداود وتحميداً طويلاً ودعاءً ليوسف ، ويرَوِي عن المسيح أنه قال : حبُّ الدنيا أصلُ كلِّ خطيئة ، والمال فيها داءٌ ؛ قيل : ما دأؤه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الفخر والكبر ، قيل وإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله . وبذلك يكون ابن قتيبة قد أضاف إلى الثقافة الإسلامية ثقافة عامة بالكتب السماوية وأقوال أنبيائها المرسلين . والصلة بين هذا الكتاب وكتاب الزهد في البيان والتبيين للجاحظ واضحة .

والكتاب السابع كتاب الإخوان ، وفيه يتحدث عن اختيارهم وما ينبغي أن يكون بينهم من الوشائج والصلات والاشتراك في السرِّاء والضرَّاء . ، وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم ، كما تلقانا أحاديث نبوية وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين . والكتاب الثامن كتاب الحوائج واستنجاحها والمواعيد وتنجزها ، ويظل فيه ينقل عن كتب العجم مثل قول بزرجمهر : « إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لا تفسدني ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى » . والكتاب التاسع كتاب الطعام وفيه يعرض صنوفه وأخبار العرب في ماكلهم وآداب الطعام والضيافة وأخبار البخلاء وأواني الأكل والحيمية وشرب الدواء والتخمس والمياه والأشربة ومنافع بعض النباتات والبقول . وتلقانا نفس الثقافات العربية والفارسية واليونانية ، ويصرح بأنه ينقل في هذا الكتاب عن الجاحظ وأثر كتابه البخلاء واضح فيه ، ويذكر في الحيمية عن الطبيب اليوناني جالينوس أنه قيل له : إنك تُقِلُّ من الطعام ؟ قال : غرضي من

الطعام أن آكل لأحياء وغرض غيرى من الطعام أن يحيا ليأكل . وبالمثل ينقل عن أبقراط اليونانى نقولا ، كما ينقل عن أطباء العصر العباسى مثل ابن ماسويه وعن كتاب الآيين الأعجمى . والكتاب العاشر كتاب النساء ، وفيه يتكلم عن أخلاقهن وما يقبلُ منهن وما يُكرهُ والجمل والقبح والمهور والزواج وسياسة معاشرتهم والجوارى والقيان ومساوى النساء ، ويحكى هنا قصة حصار أردشير لمدينة الحضر الأسطورية التى يقال إنها كانت قائمة فى الزمن القديم بين دجلة والفرات ، وكيف أن فتاة ملك الحضر رآته فعمشقه ، وسرعان ما أرسلت إليه أن تدله على موضع يفتح منه المدينة إن هو وعدّها الاقتران بها ، ووعدّها ، فدلته على الموضع ، ودخل المدينة هو وجنوده .

ولعل فيما قلنا ما يصور بوضوح كيف مزج ابن قتيبة بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وكذلك ثقافة أهل الكتاب ، فكل الثقافات الأجنبية والعربية من مدنية ودينية استحالت عنده إلى هذه الصورة الجديدة التى نقرأها فى عيون الأخبار . وبلغت هذه الصورة من النجاح أنه خفّت صوت الشعوبية ، فإن الكنوز التى كانت تباهى بها تحوّلت إلى عالم العروبة على يد ابن قتيبة وأصبحت من لبّه ، بحيث لم يعد هناك مجال للفخر بها ، إذ لم تعد مستقلة ولم تعد تشقّ لنفسها جداول تجرى فيها وحدها ، فقد صبّت فى نهر العروبة الكبير وذهبت فيه ، أذابها ابن قتيبة ببصيرته النافذة وقلمه الباهر ، وأكبر الدلالة على ذلك لا تضالّ صوت الشعوبية تضالّ شديداً مع السنين فقط ، بل أيضاً أنا لانعود نسمع عن ترجمات لكتابات الفرس الأدبية والتاريخية ، فقد أصبحت غير ذات موضوع بعد أن تداولت الأيدى كتاب عيون الأخبار ، وبعد أن أصبح المصدر الأساسى لكل من يريد التعرف على الآداب الفارسية وما يمكن أن يفيد الأدب العربى منها ومن الثقافتين الهندية واليونانية وثقافة أهل الكتب السماوية . فكل ذلك قد أصبح تحت أيدى العرب وأبصارهم ، ولم يعودوا فى حاجة إلى مزيد منه ، ولذلك لم يهتموا فيما بعد بما دون الفردوسى فى الشاهنامه من شعر قصصى ولا بما كتب حافظ الشيرازى وغيره من شعر صوفى . وكان من آثار ذلك أن أعداء العرب لم يعودوا يوصفون بوصف الشعوبية والزندقة معاً ، فقد أصبحوا غالباً يوصفون بالزندقة والإلحاد

فحسب، وشاع ذلك على ألسن العرب وعلمائهم منذ أواخر القرن الثالث الهجري، مصوّرين بذلك بواعثهم وحقائقهم النفسية .

ولا نغلو إذا قلنا إن من أهم الأسباب في أن كتاب عيون الأخبار أخذ هذه المكانة الممتازة أسلوب ابن قتيبة فيه ، فإن كل هذه المواد الثقافية التي نسّقها سبكها في أسلوب أدبي رائع ، أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحياناً ؟ وأحياناً يسترسل دون محاولة الازدواج ، ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملاءمة بينها بحيث لا تجد فيها أى نشاز ولا أى اضطراب أو انحراف ، فقد كانت اللغة مرنة في يده ، وكان لا يتأبى عليه أى لفظ ، ولا تستعصى عليه أى كلمة . وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجرى فيه من استواء صنّف كتابه عيون الأخبار جميعه ، بحيث غدا كأنه مصبوب في قوالب مماثلة ، قوالب تستريح لها الأذن ، وتجد فيها القلوب والعقول متاعاً لا ينفد ، واقرأ سطره الأولى في المقدمة ، فإنها تطرد على هذا المنوال :

« الحمد لله الذي يُعجز بلاؤه صفة الواصفين ، وتفوت آلاؤه عدد العادّين ، وتوسع رحمته ذنوب المسرفين ، والحمد لله الذي لا تُحجب عنه دعوة ، ولا تخيب لديه طلبه ، ولا يضل عنده سعى ، الذي رضى عن عظيم النعم بقليل الشكر ، وغفر بعقود الندم كبير الذنوب ، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين . والحمد لله الذي ابتعث فينا البشير النذير ، السراج المنير ، هادياً إلى رضاه وداعياً إلى محبته ، ودالاً على سبيل جنّته ، ففتح لنا باب رحمته ، وأغلق عنا باب سخطه ... أما بعد فإن لله في كل نعمة أنعمَ بها حقاً ، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة ، فزكاة المال الصدقة ، وزكاة الشرف التواضع ، وزكاة الجاه بدّله ، وزكاة العلم نشره ، وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحدها مغبّة ، وأحدها مغبّة ما تُعلم وعلم لله وأريد به وجه الله تعالى . »

وهذه القطعة في مستهلّ الكتاب تصور ضرباً من العناية بالألفاظ فيه يشبه عناية الجاحظ ، فالجاحظ يعتمد إلى الازدواج أو العبارات المتقابلة ، وقد يجرى السجع على لسانه في غير تكلف بالضبط كما نرى الآن عند ابن قتيبة . والعبارات الأخيرة التي ردّها فيها ابن قتيبة كلمة الزكاة ، وتعقّب فيها الكلمة الأخيرة وردّها

كما في كلمة «أنفعها» و «أحمدها» هذا الأسلوب بعينه نجده عند الجاحظ ، وكأن ابن قتيبة تمثل أسلوبه بجميع خصائصه ونمطه في المقدمة ، فراه يقول :

« وهذه عيون الأخبار نظمناها لمغفيل التأدب تبصرةً ، ولأهل العلم تذكرةً ، ولسمائن الناس ومسوسهم مؤدباً ، وللملوك مسترأحاً ، وصنّفناها أبواباً ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وعلى الناشد طلبها ، وهي لقاح عقول العلماء ، ونسّاج أفكار الحكماء ، وزُبدة المَخْض ، وحليّة الأدب ، وثمار طول النظر ، والمنخّير من كلام البلغاء ، وفِطْن الشعراء ، وسيرُ الملوك ، وآثار السلف » .

ولو أننا لم نعرف أن ابن قتيبة هو الذي كتب هذا الكلام ، وسألنا عن صاحبه لأجبنا توّاً الجاحظ ، إذ نشعر كأنما فصلّ من أسلوبه بخواصه من الموازنات والمعادلات بين العبارات ، بحيث تتقابل الكلمات في صفوف ، وكل كلمة كأنما تمسك بميلتها في العبارة التالية ، وكل عبارة كأنما تصافح أختها السابقة ، فهي على ونيرتها ومن نفس جنسها ونوعها ، وكان هذا يحدث تماسكاً شديداً في أسلوب الجاحظ ، لولا ما يداخله أحياناً من استطراد . أما عند ابن قتيبة فلا استطراد ولا خروج من دائرة الفكرة التي يعالجها ، وكتابته من هذه الناحية مرتبة مبوّبة في أدقّ نسق . ويكفي أن ننظر في فهرس عيون الأخبار فنسرى الكتاب من كنه العشرة يُفتّحُ ، ولكل كتاب فصوله المترابطة معه ، وكأنها حلقات في سلسلة متتابعة وليس في داخلها ما يوهن العلاقات المنطقية بين الكلام ، بل الكأنا الكتاب خيط ممتدّ أحكمت فصوله ونُسّقت موادّه تنسيقاً دقيقاً . وابن قتيبة يخطو بالتأليف الأدبي من هذه الناحية بعد الجاحظ خطوات واسعة ، إذ لا يسمح لأي فصل داخلي في كتاب فضلاً عن الكتاب نفسه بأي استطراد يُخلخل الكلام أو يُفقد سياقه . ولكن إذا كان قد تفوّق على الجاحظ من حيث نسق التأليف فإن الجاحظ يتفوق عليه في وصله الأدب بمجتمعه ، على نحو ما صورنا من صنيعه في هذا الجانب . وحقّاً نجد عند ابن قتيبة أشعاراً معاصرة له ، ولكنه لم يسجّل أخبار الخلفاء والوزراء الذين عاصروهم على نحو ما حكى الجاحظ ، ولا حكى أخبار

طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العامة . وهو لذلك لا يُعَدُّ كاتباً واقعياً على نحو ما يُعَدُّ الجاحظ ، وإن كان قد حاول أحياناً أن يقتفى أثره . ومَرَّ بنا أنه بلغ من واقعية الجاحظ أنه لم يكن يجد أى حرج فى أى شىء يخجل منه المتزمتون ، حتى الصُّورَات كان لا يرى فى ذكرها أى بأس ما دام الكلام يستلزم ذكرها ، ويتابعه ابن قتيبة فى تقديمه لعيون الأخبار قائلاً : « إنما مثلُ هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مَدَاقِطُ الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، وإذا مَرَّ بك حديثٌ فيه إفصاح بذكر عَوْرَةٍ أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاضع على أن تصعّر خَدَّكَ ، وتُعَرِّضَ بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تُؤثِّمُ ، وإنما المَسَائِمْ فى شَتَمِ الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب » . ومع ذلك فإنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ فى صراحته ، إذ كان فى حقيقته محافظاً متزمتاً لا يستطيع أن يترك لنفسه — مثل الجاحظ — العنان فى الصراحة دون أى مواربة .

ومرَّ بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجلد بالهزل خاصية قوية من خصائص كتابته ، ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السُنَّةِ المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار نراه فى مقدمته لعيون الأخبار يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج فى كتابته ، يقول : « ولم أخله من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة .. لأروِّحَ بذلك عن القارئ من كَدِّ الجِدِّ وإتعاب الحق ، فإن الأذن مَجَّاجَةٌ ، وللنفس حَمَمٌ ، والمرح إذا كان حقاً أو مقارباً ، ولأحايينه وأوقاته ، وأسباب أوجبه مُشَاكِلًا ، ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما رُوِيَ عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مَرَّ بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به » .

وإذا انتهينا — كما يقول ابن قتيبة — إلى باب المزاح والفكاهة وهو من أبواب كتاب السُّودِّد لاحظنا تَوَّأً أن فكاهاته ونوادره من طراز آخر غير طراز الجاحظ ، فمنها كثير لا يثير ابتساماً ، وما يثير الابتسام قليل جداً ، ويكفى أن يقول إنها مما رُوِيَ عن الأشراف والأئمة لنعرف مقدماً أنها نوادر وفكاهات يمسح عليها الوقار وأنه يَسْتَلِدُّ أن ترتسم معها ابتسامة على الشفاه . ونسوق منها هذه النوادر عن الشَّعْبِيِّ (من علماء الكوفة) لتُعَرِّفَ طوابعها ومدى ما فيها من المزاح :

« دخل رجل على الشعبي ومعه في البيت امرأة ، فقال لهما : أيكما الشعبي ، فأجابه الشعبي : هذه . وسأل سائل الشعبي عن لحم الشيطان هل يجوز أكله ؟ فأجابه : نحن نرضى منه بالكفاف . ودخل على الأعشى زميله يعود به في مرض ، ونظر من حواه إلى المنزل وما فيه من أثاث بسيط ، ثم قال له : أما أنت فتعترف في منزلك أنك لست من أهل القرَّيتين (مكة والطائف) عظيمًا . »

وأين هذه النوادر ، من نادرة المعلم الأحمق التي رويناها آنفًا ، والتي مثَّل فيها الجاحظ حُسنه تمثيلًا هزليًّا مضحكًا ؟ . ولا ريب في أن هذا يرجع إلى اختلاف مزاج الشخصيتين ، فالجاحظ أديب فكاه بطبعه منحرر من كل قيد ، يُضحك وتستغرق في الضحك ولا تستطيع أن تعود منه وتسترد نفسك إلا بعد ضحك عريض ، وابن قتيبة أديب وقور تغلب عليه المحافظة وإن حاول التحرر ، ويغلب عليه استعمار الجدل ، وكأنه إذا هزَلَ أو تندَّر خرج عن طبعه ، أو قل كأنه إنما كان يريد أن ينشبه بالجاحظ . ومن بقية هذا التشبيه عنده في باب النوادر والمزاح أن نراه يزعم في تقديمه لكتاب العيون أنه سيحكى النوادر العامة بلفظها وبما فيها من لحن ، ومربنا كلام الجاحظ في هذا الموضوع وأنه ينبغي أن تظل النادرة العامة بصيغتها ولحنتها وإلا ضاع ما فيها من فكاهة إذا انقلبت ألفاظها من العامة إلى الفصحى وتبدلت صورتها الفكاهية ، ويقول ابن قتيبة محتجًّا لذلك : « اللّحنُ إن مرَّ بك في حديث من النوادر فلا يذهب عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تعمدته ، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة جلاوتها ، وسأمثل لك مثالا ، قيل لمُزَبَّد المدني (المضحك) — وقد أكل طعامًا كظَّه (أتخمه) — في (قِيء) فقال : ما أقي ، أقي نَقًا (مخًا) ولحم جندى ! مررتي طالق لو وجدت هذا قيًا لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ، ولاستبشعها سامعها » . والنادرة نفسها التي تمثَّل بها ابن قتيبة ثقيلة وتدلُّ — هي وما سبقها بوضوح — على أنه من مزاج آخر غير مزاج الجاحظ .

والجاحظ في الواقع قمة بعيدة المنال في الأدب العربي كله ، ومن الظلم لابن قتيبة أن نزنه به ونقيسه إليه ، فقد كان فريدًا في عصره والعصور السابقة جميعها ، ويكفي ابن قتيبة مجددًا أدبيًّا أسلوبه الواضح الناصع الذي وصفناه وأنه أخرس إلى الأبد

أصحاب الشموبية بما سوى العربية في عيون الأخبار من هذا الأدب العربي الرفيع الذي وسَّعَ مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة .

٤

سعيد بن حميد^(١)

أبوه حُمَيْد بن سعيد فارسي الأصل ، كان من أهل النباهة في بغداد ووجهًا من وجوه المعتزلة وكان يُحسِّن نظم الشعر ، ولا نعرف متى وُلد له سعيد ، ويبدو أنه عُنِيَ به عناية شديدة منذ نعومة أظفاره ، فألحقه بكتّاب حفظ فيه شيئًا من القرآن والفقه والحديث والنحو واللغة والأشعار والحساب ، حتى إذا خطا خطوات في العقد الثاني من عمره دفعه إلى حلقات الدرس في المساجد ، ويروى أنه عُنِيَ خاصة بأن يلحقه بحلقة ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣٦ وأنه سمع منه أرجوزة في نحو عشرين بيتًا وحفظها بمجرد سماعها ، مما يدل على ذكائه وقوة ذاكرته . ولم يكن سعيد بحلقة هذا العالم اللغوي الكبير ، فقد مضى يختلف إلى حلقات العلماء من كل صنف ، مُكَيِّبًا عليها ناهلاً منها متمثلاً لما يقدّم فيها من غذاء أدبي وفكري ، مما جعل المسعودي يقول عنه : « كان سعيد حافظًا لما يُسْتَحْسَن من الأخبار ويستجاد من الأشعار متصرفًا في فنون العلم ، مُسْتَعِجًا إذا حدث ، مُفِيدًا إذا جالس » . ولعل ذلك ما جعل فضلًا الشاعرة تُعْجَبُ به ، وتعتقد بينها وبينه مودة ظلت فترة طويلة ، وظلا يتبادلان فيها الرسائل الشعرية ، على نحو ما مرّ بنا في حديثنا عن فضل . وكان قدملاه الطموح بالنجاح في سامراء عاصمة الخلافة فتحول من بغداد إليها . ولا ريب في أن حلاوة محضره وعذوبة أحاديثه جعلتا كثيرين من أدباء عصره تشرّب أعناقهم إلى صحبته ، وكانت فيه دُعاة تجعل مجلسه خفيف الروح ، مما جعل أبا علي البصير وأبا العيّناء نديمي المتوكل بألفانه ويختلفان إلى مجالسه ، وتلدور بينهما مداعبات ومعاتبات ومكاتبات ، كما قال الرواة . ويبدو

رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ليونس
أحمد السامرائي (طبع بغداد) وجمهرة
رسائل العرب لأحمد زكي صفوت .

(١) انظر في ترجمة سعيد ورسائله الفهرست
ص ١٨٥ والأغانى (طبعة الساسي) ١٧ / ٢
ومروج الذهب ٤ / ٦١ وابن خلكان وكتاب

أنه كان ينتظم بين كُتَّاب الدواوين لعهد المتوكل ، إن لم يكن قد انتظم فيها قبل ذلك ، وإنما يدفعنا إلى هذا الرأي ما اشتهر به من تعصبه على آل علي بن أبي طالب تعصباً شديداً حتى ليقول ابن المعتز : « كان سعيد من أشد الناس نصباً (عداً) لعل وانحرافاً عن آل الرسول عليه السلام »^(١) ويقول المسعودي : « كان ينتصب ويظهر التسنن والانحراف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الطاهرين من ولده » . وصراً بنا في غير هذا الموضع موقف المتوكل من العلويين وأمره بهدم قبر الحسين في كربلاء وانحرافه عن علي وآله ، وكأن سعيداً اعتنق أفكاره إما حقيقة وإما رياء للخليفة الموظف بدواوينه . على كل حال نظن في هذا الانحراف عند المتوكل وسعيد معاً أنه كان يعمل في ظله ، وأنه استحال بوقاً من أبواقه . ويقول صاحب الفهرست إن له كتاب انتصاف العجم من العرب ويُعرف بالتسوية ، والكتاب لم يصلنا ، ولا ندري هل كان ينحرف عن العرب بدورهم انحرافاً شديداً أو انحرافاً خفيفاً ، على أن في كلمة ابن النديم أن الكتاب يُعرف بالتسوية ما قد يشير إلى أنه لم يكن شديد العصبية فيه على العرب وأنه إنما كان يطالب بالتسوية بينهم وبين الأعاجم ، والتسوية كما مرّ بنا في هذا الكتاب وكتاب العصر العباسي الأول لا تدخل في العصبية المنحرفة لدى بعض الأعاجم والمعروفة باسم الشعوبية . وفي أشعاره ما يدل على أنه كان معتزلياً مثل أبيه على نحو ما نرى في قواه^(٢) :

قد قلتُ بالعدل ولكنني عدلتُ في الحبِّ عن العدلِ
فقلتُ بالإجبار مستغفراً لله من قولي ومن فعلي

فهو يؤمن بنظرية العدل على الله المعروفة عند المعتزلة ، والتي تتيح للإنسان حرية الإرادة والاستطاعة ، حتى يكون ثوابه وعقابه جزاء لما قدمت يده ، بينما يذهب أصحاب الجبر إلى أن كل شيء بقضاء وقدر وأنه لا مفر من الاستسلام للمقادير .

ولعل في ذلك كله ما يصور شخصية سعيد وأنه كان مثقفاً ثقافة واسعة ، ثقافة بالعربية وبمواد المعرفة الأجنبية ، وهياً له ذلك أن يصبح من كُتَّاب الدواوين

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص (٢) كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره

مبكراً . وما يزال يرقى فيها وأعين رؤسائها تَرْمُقُهُ وتلاحظه ، إذ كان شاعراً بارعاً وكاتباً نابغاً .

وكانت أولُ حادثةٍ لَمع فيها اسمه البيعةَ للمتتصر بعد مقتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧ ، فقد ذكر أن أحمد بن الحبيب وزير المتتصر قال له : ويلك يا سعيد ! أمعلك كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة ؟ قلت : نعم وكلمات ، وعملتُ كتابَ البَيْعَةِ . وهو كتاب طويل استهله بقوله^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . تباعون عبد الله المتتصر بالله أمير المؤمنين ببيعة طُوع واعتقاد ورضاً ، ورغبة بإخلاص من سرائركم ، وإنشراح من صدوركم ، وصدق من نيّاتكم لامُكْرَهِيْنَ ولا مُجْبَرِيْنَ ، بل مقرّين عالمين بما في هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه ، وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله واجتماع الكلمة ، ولَمَّ الشَّعْثُ ، وسكون الدّهماء ، وأمن العواقب ، وعزّ الأولياء ، وقَمَمْعُ الملّحين . . . لا تشكّون ولا تُدْهِنون (تمالّثون) ولا تُميلون ، ولا ترتابون ، وعلى السمع له ، والطاعة والمسالمة ، والنصرة والوفاء والاستقامة والنصيحة في السر والعلانية ، والخُفُوفُ والوقوف عند كل ما يأمر به . »

وأكبر الظن أن صوت سعيد اتضح في هذه السطور القليلة ، فهو يُعَنِّي أشد العناية باختيار لفظه ، وهو لا يطيل عباراته ، بل يجعلها قصيرة ، حتى لتصبح كلمة مثل : « طوع واعتقاد ورضاً » ، ومثل « اجتماع الكلمة » ، ولَمَّ الشَّعْثُ ، وسكون الدّهماء ، وأمن العواقب ، وعزّ الأولياء ، وقَمَمْعُ الملّحين » فالكلمات تتعاقب ، جزلة حقاً ، ولكنها خفيفة على الأفواه والشفاه ، إذ لا تلبث أن تحملها حتى ترسلها . ويظل كاتباً لأحمد بن الحبيب طوال خلافة المتتصر ، حتى إذا ولى الخلافة بعده المستعين لسنة ٢٤٨ عزل ابنَ الحبيب من الوزارة ، واستوزر مكانه أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وسرعان ما عزله واستوزر محمد بن الفضل الجرجاني ، فجعل رياسة ديوان الرسائل لسعيد بن حميد^(٢) ، وبذلك أصبح الكاتب الأول في الدولة الذي تَصُدَّر عنه جميع رسائلها الديوانية ، ومما كتبه حينئذ رسالةٌ خطيرة عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد ، وكان المستعين قد

(١) انظر الطبري ٢٣٥ / ٩ وما بعدها . (٢) طبري ٢٦٤ / ٩ .

نزلها سنة ٢٥١ بُعْداً عن سامراء مدينة الترك وبَغْيِهِمْ ، فبايعوا المعز ، ونازلوا ابن طاهر ببغداد فهزمهم ، حينئذ نراه يأمر سعيد بن حميد بكتابة رسالة تذكر الواقعة حتى تُقَرَأَ على أهل بغداد في مسجد جامعها ، وهي رسالة طويلة طويلاً شديداً نقتطف منها بعض الفقر التالية :

« ساروا نحو مدينة السلام (بغداد) معلنين للْبَغْيِ والاقتدار ، مظهرين للْغَى والإصرار ، فتأنَّاهم أمير المؤمنين (المستعين) وفسح لهم في النَظَرَةِ ، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهم الرشد . . . وأن يبين لهم ما سلف من بلائه عندهم من أسنَى المواهب ، وأرفع الرِّغائب ، والاختصاص يَسْنَى المراتب ، والندم في المحافل ، فأبوا إلا تمادياً ونفاراً ، ونمسكاً بالْغَى وإصراراً . . . وقابلوا الموعظة بالإصرار على الذنب ، وعارضوا التبصير بالاستبصار في الباطل . . . وصَدَّقَهُمْ أولياء الله (جنود المستعين وابن طاهر) في لقائهم بقلوب مستجمعة لهم ، وعلم بأن الله لا يُخْلِف وعده فيهم ، فجالت الخيل بهم جولةً ، وعادت كُرَّةً بعد كُرَّةً ، طعنًا بالرماح ، وضربًا بالسيوف ، ورَشَقًا بالسهام ، فلما مسَّهم ألم جراحتها وكَلَمَتَهُمْ (جرحتهم) الحرب بأنيابها ، ودارت عليهم رَحَاهَا ، وصمد لهم أنباؤها ظمًا إلى دمائهم ، ولتوا أدبارهم ، ومنح الله أكتافهم ، وأوقع بأسه بهم ، فقُتِلَ منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة ، ولم يتحصنوا من عقابه بإنابة . . . فن قَتِيلٍ غُودِرَتْ جثته بمصرعه ، ونُقِلَتْ هامته إلى مصير فيه معتبرٌ لغيره ، ومن لاجيء من السيف إلى الغرق لم يجره الله من حذاره ، ومن أسير مصفود (موثق بالأغلال) يقاد إلى دار أولياء الله وحزبه ، ومن هارب بحُشاشة نفسه . . . فِرَقًا أربعًا تجمعها النار ، ويشملها عاجل النكال عِظَةٌ ومعتبرٌ لأولي الأبصار » .

وواضحٌ تقطيع العبارات وتقابل الكلم في الرسالة ، وكأننا بإزاء حائل ، يقيس ثياباً مماثلة مقدرة على معانيها . وقد يتكامل التقطيع ، فيظهر السجع ، ولكنه ليس سجعاً متكلفاً ، فليس مرده إلى محاولة صَنَعَةٍ ، وإنما مرده إلى دقة التقطيع ، حتى لتأخذ العبارات شكل سجعيات متوالية . وما نزال ننقل بين تقاطيع طريفة ، حتى نصل مع سعيد إلى تقسيم الجيش الذي دارت عليه الدوائر أقساماً أربعة :

فهم بين قتيل وغريق وأسير وفار على وجهه لا يلوى .

ولسعيد تحميدات طريفة كان يضعها بين يدى رسائله الديوانية ، فن ذلك تحميد كتب به في فتح نهض به التماثل التركي وصيف ، يستهله بقوله (١) :

« أما بعد فالحمد لله الحميد الخبير ، الفخار لما يريد ، الذى خلق الخلق بقدرته وأمضاه على مشيئته ، ودبره بعلمه وأظهر فيه آثار حكمته ، التى تدعو العقول إلى معرفته ، وتشهد لذوى الأبواب برؤيته ، وتدل على وحدانيته ، لم يكن له شريك فى ملكه فينازعه ، ولا معين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه ، فليس يتصرف عباده فى حال إلا كانت دليلاً عليه ، ولا تقع الأبصار على شيء إلا كان شاهداً له بما رسم فيه من آثار صنّعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إعداراً بحجته ، وتطوياً بنعمته ، وهداية إلى حقيقته ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته . . . والحمد لله العزيز القهار ، الملك الجبار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارضاء وطهره ، وأعلاه وأظهره ، فجعله حجة أهله على من شاقهم (خالفهم) ووسيلتهم إلى النصر على من عسده (مال) فى حقهم ، وابتغى غير سبيلهم » .

والسجع كثير فى هذا التحميد ، وهو داليل على أنه ظهر ثمرة لكثرة التقاطيع فى العبارات ، وإحساس الكتاب بأنه لا بأس من استكمال هذه التقاطيع ، ولكن لا على أساس الجور على المعانى ، وإنما على أساس الوفاء بها . وسعيد يستوفى فى أول تحميده صفات الله جل شأنه من خلق وتقدير وعلم وحكمة فى تدبير الكون ، مما يشهد بوحدانيته . ونحس أثر قراءته لمباحث المتكلمين حين يلم بالوحدانية إذ يقول : لو كان هناك إلهان أو آلهة لتنازعت فيما بينها على السلطان ، وأيضاً فإن هذا يؤول إلى أن يكون هناك آلهة تُعينه فى الخلق وتساعد ، ولو صح ذلك لأصبح الله محتاجاً إليها وانتفت عنه ألوهيته ، إذ يمس الضعف والعجز من بعض الوجوه ، ويعرض حجة على ربوبيته التأمل فى خلق الإنسان وفى نظام الكون مما يهدى إلى طريق الرشاد .

ولسعيد بجانب الرسائل الديوانية التى كان يكتبها فى أثناء عمله بالدواوين رسائل إخوانية كثيرة ، منها تهنئات بعيد النسيروز وشوق وعزاء واعتذار ودعوة إلى

مجالس الأنس وشكر وهجاء واستمناح لبعض الأشخاص وتوصيات ، ونعروف طائفة منها بادئين بتهنئاته في عيد النيروز ، فمن ذلك رسالة إلى أبي صالح بن يزداد وزير المستعين^(١) :

« النفسُ لك ، والمالُ منك ، والرجاءُ موقوفٌ عليك ، والأمرُ مصرُوفٌ إليك ، فما عسانا أن نُهدي لك في هذا اليوم ، وهو يوم سَهَّلت فيه العادة ، سبيل الهدايا للسادة ، وكرهتُ أن نخليه من سُنَّته فنكون من المقصرين ، أو نَدَّعَى أن في وسعنا ما يَنفِي بحقك علينا فنكون من الكاذبين ، فاقصرنا على هدية تقضى بعض الحق ، وتقوم عندك مقام أجمل البرِّ ، وهي الثناء الجميل ، والدعاء الحسن ، لا زلتُ أيها الأمير دائم السرور والغبطة في أتم أحوال العافية ، وأعلى منازل الكرامة ، تمر بك الأعياد الصالحة ، والأيام المفرحة ، فتُخلِّقها وأنت جديد ، وتستقبل أمثالها ، فتلقاك ببهاثها وجمالها . وقد بعثت الرسول بالسكَّر لطيبه وحلاوته ، والسفرجل لفأله وبركته ، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه ، ولا زلتُ حُلُوَ المذاق على أوليائك ، مُرّاً على أعدائك ، متقدِّماً عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك وتحسن أفئدتهم (ساحاتهم) بمثلك » .

والرسالة تحمل أسلوب سعيد وما يميزه من التقطيعات المتوالية والمعاني المتقابلة ، فالنفس يقابلها المال ، والرجاء يقابله الأمر . ويسقط السجع سقوطاً طبعياً ، كأنه ثمر يسقط من شجرة مورقة . ويمسح على ذلك لطف الحضارة ، وما يمتاز به أهلها من دقة الحسِّ ورهافة الذوق ، على نحو ما يتضح في المعاني التي تحملها الهدية ، فالسكر رمز للحلاوة والسفرجل رمز للبركة والدرهم رمز لبقاء الوزير في عِزِّه . ويكتب برسالة ماثلة إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد على هذا المنوال^(٢) :

« أيها السيد الشريف ! عشت أطول الأعمار بزيادة من العمر ، موصولة بقرائنها من الشكر ، لا ينقضي حق نعمة ، حتى تجدّد لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصراً عما بعده ، مؤفياً على ما قبله . إني تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة ، فالتمست التأسي بهم في الإهداء ، وإني إن

(١) العقد الفريد ٦ / ٢٨٢ وديوان المعاني
(٢) عين الأخبار ٣ / ٣٩ ، والعقد
الفريد ٦ / ٢٨١ وديوان المعاني ١ / ٩٤ .

اهدبت نفسى فهى ملك لك ، لاحظ فيها لغبك ، وإن رميتُ بطرفى إلى كرامتِ
مالى وجدتها منك . . . وفزعتُ إلى مودتى فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة
فرايتُ إن أنا جعلتها هديتى لم أجدد لهذا اليوم الحديد بَرّاً ولا لَطَفاً (هدية)
ولم أقس منزلةً من شكرى بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق ، والنعمة
زائلةً على ما تبلغه الطاقة ، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك ،
والإقرار بما يجب لك بَرّاً أتوصّل به .

والرسالة تحمل فى جوهرها معانى الرسالة السابقة ، وفيها نفس التلطف ، وإن
كان قد ازداد رقة فى الدعاء وفى التعبير عن الاعتذار بالتقصير ، فليس هناك
ما يستطيع تقديمه حتى نفسه ومودته قدّمهما من قبل ، ولم يبق فى طاقته سوى الحمد
والثناء والشكر الذى لا يماثله شكر ، وتتوافر التقطيعات فى الرسالة ويظهر السجع
أحياناً فى خفة وبدون أى تكلف بلهد أو عناء . ويكتب لصديق عزّل عن عمله ،
مسلياً له ^(١) :

« حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام إليك إحسانه ، إن سرورى
بِصَرَفِكَ أَكْثَرُ من سرور أهل عملك بما خُصُّوا به من ولايتك . وقد كنت - أعزّك
الله - فيما يُربّأ بك عنه بما أنت عليه فى قدرك واستثالك ، ولكننا رجونا أن يكون
سبباً لك إلى ما تستحق ، فطَبْنَا نَفْساً بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلّمك
منه ، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أملك وآمالنا فيك وشَفْعُ
(قَرْن) ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرف المراتب ، ثم خَصَّكَ الله
بجميل الصُنْع ، وبلَّغَكَ غاية المؤمنين . إن من سعادة الوالى - حفظك الله - وأعظم
ما يُخَصَّصُ به فى عمله وولايته السلامة من بوائِق (دواهي) الإثم ، ونوائب الدنيا
وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ، وقد خَصَّكَ الله منها - بِمَنِّهِ وَطَوْلِهِ (إنعامه)
ما نرجو أن يكون سبباً لك إلى نيل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعلك
(إلهامك) شكر ما مَنَّ به عليك ، وتبليغك غاية أملك فى جميع أمورك ،
برحمته وفضله . »

والرسالة طريفة غاية الطرافة إذ عكس سعيدُ الغزاء عن العمل ، وجعله تهنتة

خليقة بأن تُنْصَبَ لها أعلام السرور . ومضى يصوّر سروره وأنه يزيد على سرور أهل عمله حين جاءهم نبأ تولية هذا العامل عليهم . ويؤكد سروره بقوله إنه طاب نفساً ، وقد أحسن اختيار هذه الكلمة . ثم أخذ يحمّد له السلامة من هذا العمل ويعدّ ذلك نعمة ليس فوقها نعمة ، ويدعو له بأن يبلغ أعظم الدرجات وأشرف المراتب ، كما يدعو له بأن يعرف حق هذه النعمة ويشكر الله عليها أصدق الشكر ، ويتمنى له أن يبلغ غاية آماله . وكأنما الرسالة ضرب من الحيل العقلية التي كانت تدور في المجالس ، والتي كانت تعرض محاسن الشيء ومساوئه . فقد يكون حسناً وينقلب سيئاً ، وقد يكون سيئاً وينقلب حسناً ، ولا يرى فيه إلا الحسن ، بفضل الذخائر العقلية التي حازها لنفسه العصر العباسي . وله من رسالة تعزية (١) :

« إذا استوى المعزى والمعزّى في النائية استغنى عن الإكثار في الوصف لموقع الرزية ... وأنا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقراراً له بالهلكة ، واعترافاً بالمرجع إليه ، وتسليماً لقضائه ، ورضاً بمواضع أقداره ، وأسأل الله أن يُصَلِّيَ على محمد صلاة متصلة بركاتها ، وأن يُوفِّقك لما يُرضيه عنك قولاً وفعلاً ، حتى يُكْمِلَ لك ثواب الصابر المحتسب وجزاء المطيع المتجنّز للوعد ، ويَرْحِمَ فلاناً ويُحِلِّه أعلى منازل أوليائه الذين رضى سعيهم ، وتطول بفضلهم عليهم ، إنه وليّ قدير » .

والحيلة أيضاً في هذه الرسالة واضحة ، فقد جعل وفاة الشخص شركة بينه وبين المعزى ، فهو أيضاً حرى بأن يُعزّى فيه ، وكأن المصيبة فيه مصيبة عامة ، والحزن عليه لا يقف عند من أرسل له هذه الرسالة ، بل يشمل كثيرين هو أحدهم . وقد أخذ يَحْتال على أن يَسْلُوَ عنه صاحبه ، تسليمًا للقضاء ، واعترافاً بأن كل من عليها فان ، ورضاً بالمقادير ، وإنه ليدعو الله أن يوفق صاحبه للصبر على المصيبة ، حتى يحوز ثواب المحتسب الصابر ، ويدعو للمتوفى أن يرحمه الله ويتزله مع أوليائه وأصفيائه في الدرجات العلية . وله يهنئ بعض إخوانه بولاية (٢) :

« أنا أهني بك العمل الذي وليته ، ولا أهنتك به ، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب ، ويصُدِّره مصادر الحجة ويصونه من كل خلل وتقصير ، ويمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة . قرّن الله لك كل نعمة بشكرها ،

وأوجب لك بطّوله المزيد منها، وأوزعَكَ (أهلك) من المعرفة بها ما يصونها من الفن ويحوطها من النقص .

والرسالة مع إيجازها تبدأ بحيلة من حيل الفكر العباسي الحصب الحافل بما يلفت السامع ويروعه ، وهي أن العمل هو الذى يهنأ بهذا الوالى ، لا أن الوالى هو الذى يهنأ به ، إمعاناً فى المدح والإطراء ، فقد كان من حسن حظ هذا العمل أن صار بيد من يدبره على خير وجه ممكن فى الإيراد والإصدار ، ومن يصونه ويحفظه من أى خلل أو تقصير ، مع الفكر الحصيف والمعرفة التامة . ويدعوله بالأمن فى عمله والسلامة من الفتن والثورات ، وهو خطاب مقتضب ، ولكنه جامع شامل ، مع اللفظ المتقن والأسلوب المصفى . وله من رسالة فى ذم بعض الأشخاص وهجائه ^(١) :
 « رجلٌ يَعْنِفُ بالنعم عُنْفَ من قد ساءته بمجاورتها ، ويستخفُّ بحقها استخفافاً من لا يخفُّ عليه حملها ، ويقصّر فى الشكر تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها . . فكيف يتسع الصدر للصبر عليه ؟ إن الله لا يخاف الفوت فهو يُسهله ، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جلّ وعزّ إلى سلطان غيره فيعاجله . »

وهذه الكلمات على قصرها من ألدع الهجاء ، وهل هناك شخص تسوؤه النعم سوى هذا الشخص الذى لا يعرف قدرها ، بل إنه يعنف بها عنف عدوّ غاشم ، وإنه ليستخفُّ بحقوقها استخفافاً مَنْ ثقل عليه النهوض بها وحملها ، وهو لذلك كله يطّرح الشكر عليها اطراح الجاهل بأن الشكر هو الذى يكفل لها البقاء ، وهو لا يدري أنه مع طغيانه وبخيه على نعمة ربه سيلقى جزاءه ، إنه يُسهله ، لأنه لا يعرف أنه لن يخرج حين يموت عن دائرة سلطانه . والكلمات والعبارات مختارة بدقة . وله فى الدعوة إلى يوم أنس من رسالة ^(٢) :

« لا عُدْرٌ فى التخلف عنك ، وإن حال الاشتغال بيننا وبينك ، فإن كنت ساءت على العُدْر قبل الاعتذار ، وسبقت إلى فضيلة الاعتذار ، فلا زلت على كل خير دليلاً ، وإليه داعياً ، وبه آمراً ، وقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قَطْرًا (دموعاً منهمرة) وهاج شوقاً ، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام ، فننال حظاً من محادثتك والأنس بك . »

وهو يعترف بأنه مقصر وخليق بالاعتذار لتخلفه عن زيارة صديقه ، ويعتذر بكثرة أعماله ، ويتلطف معه ، فيجعل له قَبِيلَ عذره قبل تقديمه وغفر له تقصيره . وانظر كيف عبّر عن مدى تأثرهما عند اللقاء بقوله إنه لقاء أحدث قَطَرًا . ودائمًا لافوته الكلمة الموجزة المعبرة أدق تعبير وأقواه . ومن رسالاته عن فضل محبوبته وقد ظن بها الظنون وأنها تعثرت في حبال غيره^(١) :

« أصبحتُ — والله — من أمر فضل في غرور ، أخادع نفسي بتكذيب العيان ، وأمنيتها ما قد حيل دونه . والله إن إرسالي إليها — بعد ما قد لاح من تغييرها — للذلُّ ، وإن علمي عنها — وفي أمرها شُبُهَةٌ — لعجز ، وإن نصبري عنها لمن دواعي التلف . »

والقطعة محبوكة العبارات ، وقد عمد فيها إلى بيان حالته النفسية لإزاء تغيير فضل عليه ، متصوراً ثلاثة مواقف ، فهو إن راسلها كان ذلك ذلاً له وهواناً ما بعده هوان ، وهو إن انصرف عنها ولا يزال مشتبهاً في أمرها لم يتبين بالضبط قطيعتها له كان ذلك عجزاً منه وتقصيراً ، وهو إن أخذ نفسه بالصبر عنها كان ذلك فوق طاقته وأدّى به إلى التلف والهلاك . ودائمًا نحسُّ عنده دقة التعبير ، وكأن الكلمات سهام تصيب مرماها . وله فصول بديعة تدور في كتب الأدب من مثل قوله في رسالة لصديق مصوراً مودته^(٢) :

« إني أهديت مودتي إليك رغبةً ، ورضيت بالقبول منك مثوبةً ، فصرت بقبولها قاضياً لحق ، ومالكاً لرقٍ ، وصرتُ — بالتسرع إلى الهدية والتخير للمثوبة — مُرْتَهَنَ اللسان بالرضا ، واليدين بالوفا . »

وانظر تصويره لمودته بأنها هدية أهداها لصاحبه ، ودائمًا تُردُّ الهدايا ، وهو لا يريد لها رداً ولا جزاءً سوى قبول الصديق لها ، ويقول إنك إن قبلتها أصبحت ناهضاً بحق ومالكاً لعبد ، جعل رِقَهُ في يديك وحرّيته طوع مشيتك ، وكل ذلك كناية عن مدى إخلاصه في أخوته وصدافته . وهو يصور نفسه ، وقد قدّم الهدية وتخير جزاءها مودة صديقه بل قبوله لها ، قد أصبح لسانه مرتهناً بحرمتها ويداه مقيدتين بالوفاء لها ونفسه مستعبدة له . ولا تُعرَف بالضبط السنة التي توفي فيها سعيد ، وأكبر

الظن أنه عاش إلى أواسط عصر المعتمد (٢٥٦-٢٧٨ هـ) . ولعل في كل ما قلنا ما يصور مهارته البيانية في الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد كان يُعنى أشد العناية باختيار ألفاظه وتقطيع عباراته حتى لينتهي التقطيع أحياناً إلى السجع ، كما كان يُعنى بمعانيه وجسلب ما يروق منها بدقته وطرافته .

٥

أبو العباس بن ثوبة ^(١)

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوبة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أسرة أصلها مسيحي ، عملت في دواوين الخلافة ، منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع . وأول من لمع اسمه منهم محمد بن ثوبة وكان يعمل في دواوين الدولة ، وهو من ممدوحى البحترى ، وكان ابنه جعفر يتولّى ديوان الرسائل في أيام عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير بأخرة من عصر المعتمد ، وقد توفى سنة ٢٨٤ للهجرة ، وخلفه على رئاسة هذا الديوان ابنه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوبة ، وسبق أن عرضنا له في الفصل الماضى وقلنا إنه كان يسجع في رسائله الديوانية ، وقد توفى سنة ٣١٢ فخلفه على رئاسة الديوان ابنه أحمد حتى سنة ٣٤٩ للهجرة . ويبدو أن السجع نما على أيدي هذه الأسرة وكانت عاملاً من عوامل انتشاره في الكتابتين الديوانية والإخوانية .

وليست بين أيدينا معلومات واضحة عن نشأة أبي العباس بن ثوبة ، ولكن لا بد أن أباه وكان يشغل في الدواوين أخذه مبكراً بالدرس والتحصيل ، بادئاً معه من الكتاب ، ومنتهياً به إلى حلقات العلماء في المساجد ، حتى إذا غزرت ثقافته تحول به إلى الدواوين الرسمية ونراه متألقاً فيها منذ عصر المهتدى ^(٢) (٢٥٥-٢٥٦ هـ) ، وما زال نجمه في صعود حتى اختير لرئاسة ديوان الرسائل لأوائل عصر المعتمد . وكانت لا تُعقد إلا لمن أثبت كفاءته وعُرف ببلاغته . وكان طبيعياً أن تكثر الصلات والمودات بينه وبين سعيد

رسائل العرب ٣٢٣/٤ وما بعدها .
(٢) الأغاني (طبعة الساسى) ٦٩ / ٢٠ .

(١) انظر في أبي العباس بن ثوبة الفهرست ص ١٩٣ ومجميع الأدباء ١٤٤ / ٤ وجهرة

ابن حميد وغيره من كتّاب عصره وشعرائه، ولابن الرومي فيه مدائح مختلفة ، وكذلك للبحرّى ويُرْوَى له توقيع وقّع به في قصيدة له ، استمنحه فيها قضاء حاجة على هذا النحو : « مقضية ولو أتلفت المال ، وأذهبت الحال ، فقل - رعاك الله - ما شئت منبسطاً ، وثيقٌ بما أنا عليه لك مغتبطاً ، إن شاء الله تعالى » . ويبدو أنه ظلّ على ديوان الرسائل حتى تولى إسماعيل بن بلبل الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥ ، وكانت بينهما وحشة شديدة . ودخل عليه أبو العباس ووقف بين يديه ، ثم قال أيها الوزير : (لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) ، فقال له ابن بلبل : (لا تريب عليكم) يا أبا العباس ، ورفع مجلسه ، غير أنه صرفه عن الديوان وولاه نواحى بابل وسواد بغداد الغربى ، فضاعف - وزاد - في الدعاء له ، ويقال إنه ظل على تلك النواحى حتى وفاته .

وأبو العباس أحد كتّاب العصر وبلغائه ، وفي أخباره أنه كان شديد العناية بأناقته وبكل ما يتصل بحياته شديد التكلف ، ويضرب الرواة لذلك مثلاً بعبارات له شديدة الغرابة ، وأنه قال يوماً وقد استمع إلى حاجم : علىّ بماء الورد أغسِل في من كلام الحاجم . وأثير له عهد طويل إلى أحد الولاة من الموفق ولى عهد المعتمد ، ومرّبنا أنه كان الخليفة الحقيقي طوال عصر أخيه ، ولذلك كانت الجهود إلى الولاة تصدر عنه ، والعهد يبتلى على هذا النمط ^(١) :

« هذا ما عهد به أبو أحمد الموفق بالله ولىّ عهد المسلمين إلى فلان حين ولاّه الصلاة بأهل كورة الرّىّ ودُنْباوند ونواحيتها ، والحرب والأحداث فيهما . أمره بتقوى الله وطاعته ، وخشيته ومراقبته ، في سرّه وعلايته ، وظاهر أمره وباطنه والعمل بما أمر الله به ، والانتهاى عما نهى عنه فيما وافقه وخالفه ، وأرضاه وأسخطه فلمنه من يتق الله يتق الله ، ومن يعتصم به يهتد به ، ومن يطعنه يتوانه ويتكفّه (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . وأمره أن يملأ قلبه خيفة الله وهيبته والتفويض إليه ، والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عزّ وجلّ له إماماً ، وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم مثلاً ، فإن فيهما دلالة وتبَيّاناً ، وضياء ونوراً وشفاء لما فى الصدور وهُدًى ورحمة للمؤمنين . وأمره أن يكون أولُ

ما يُعْنَى به ويقدمه، ويراعيه ويؤثره، إقامة الصلاة لمواقيتها بإتمام ركوعها وسجودها وأداء فَرْض الله فيها ، إذ كانت عماد الدين ، وأفضل ما تقرب به المؤمنون ، وكان مَنْ أَضَاعَهَا وقصّر في واجبها ، أشدّ تضييعاً لما سواها من حقوق الله عزّ وجلّ وفرائضه ودينه وشرائعه (وإنها لكبيرةٌ لإلا على الخاشعين) . وأمره أن يُلْهِم نفسه في كل حال من حالاته وصغير وكبير من أمره ، ذكرَ الله جل ثناؤه ، وألا يُمْضِيَ أمراً إلا بعد استخارة الله عزّ وجلّ فيه ، واستقصائه في ذلك بالذی هو له أرضى ، وعنده أركى ، فإن العاقبة للتقوى ، وإن أفضل الأمور خيبرُها عاقبةٌ ، وأحمدُها مغنبةٌ ، وما التوفيق إلا بالله ، عليه يتوكل المتوكلون .

وقد استهلَّ أبو العباس بن ثوبة العهد — كما يلاحظ الفارّی — بالسجع ، ثم رآه سيطول إذ يمتد نحو ثمانى صفحات ، فانصرف عنه مكتفياً بتقطيع العبارات وباصطفائها واصطفاء الألفاظ التي تتألف منها . وقد حاول أن يُنهي كل أمر بآية أو كلمة من القرآن تناسبه . وهو يمضی في العهد ، فيأمر الوالی بحسن سياسته لأهل عمله وأخذهم بالعدل والنصفه وإحقاق الحقوق ، وأن يتخذ مساعديه في إدارة الحكم من أهل العفاف والكفاية ، وأن يقدم أهل الفضل والصلاح والمشايخين للدولة ويتخذ منهم مستشاريه ، وأن يقيم الحدود متبعاً لما جاء في محكم التنزيل والسنة النبوية وما نصّ عليه الفقهاء ، وأن يجعل دبراً أذنه ما قد يكون بينه وبين بعض الرعية من حقد وضغينة ، وأن يقمع أهل الدعارة والفساد بإقامة الحدود عليهم دون إفراط ، فإن لكل شيء قدرًا ، وأن يصرف عنايته إلى أطراف ولايته ، وخاصة التي تقابل الأعداء فيسدّ خللها ويرتق فتقها ، ويعاجل أى متسرع للفتنة أو الثورة بها . ويطلب إليه أن يراقب التجار ولا يدعهم ينقلون زاداً ولا عتاداً من الأسلحة إلى ديار العدو ، وينزل العقاب بمن يخالف منهم هذا الأمر ، وهو يدلّ على يقظة الدولة . ويأمره أن يحسن التعاون مع صاحب الخراج وأن يقدم له ما يريد من المساعدين ، حتى يدبّر الخراج ويكثر حيلابه ، كما يأمره أن يتفقد مَنْ في السجون ، ويكثر عَرْضهم والنظر في أمورهم والأسباب التي حُبِسوا بها ، آخذاً بمشاورة أهل الفقه فيهم . ومن أطرف ما في العهد أن نراه يأمر الوالی بالأمانة في

ولايته ، وألا يأخذ أى ضرائب استثنائية من الرعية ، لا بحجة الضيافة ولا بأى حجة أخرى . ومرّ بنا فى الفصل الأول كيف أن الولاة تحولوا لصوصاً وقُطّاع طرق يختلسون الأموال من الناس دون أى رحمة أو شفقة ، وكأن أبا العباس بن ثوابه يشير إلى ذلك على لسان الموفق إذ يقول للوالى إنه :

« أمره ألا يَنقسم على أهل عمله قسمةً بسبب نُزُل (ضيافة) ولا غيره ، مما كان شرار العمال يُوظّفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنّب الطّعَمَ (وجوه المكاسب) الشائنة ، والمكاسب الرديئة . ويحذر أن يعرض لشيء منها ، أو يطلقه لأحد من كُفّاته (معاونه) فيترد عليه من النكير ما هو حرى بتوقيه والتصوّن عنه » . ويعرض فى العهد لوظيفة الحِسبة . وكان المحتسب يراقب الأسعار فى الأسواق ، ويقوم فيها مقام رجل الشرطة والقاضى معاً ولذلك كان يُختار من رجال الفقه والشرعة . فهو يحقق ويحكم ويدين ويردّ عن المظلوم الظلم ، ويراجع المكايل والموازين ، ويعاقب الغاشّ المخادع ، وفى ذلك يقول عن لسان الموفق لواليه :

« وأمره أن يتخيّر للحسبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات (السلع) فى عمله مَنْ يُعرّف بالقصد فى مذهبه ، والسّتر فى نفسه ، والعفاف فى طعمته (وجه مكسبه) واستيفاء الحق فيما يقلّده ويُسْتَكفَى القيام به ، ويتقدّم إليه فى أخذ كل طبقة من أهل الطبقات التى يقع عمله فى الحسبة فيها بتصحيح المعاملة ورفع الغشّ ، وتجنب كل ما عاد بمضرة على المسلمين أو تحييف (تنقص) لهم ، وتعبير (قياس) المكايل والموازين فى سائر عمله ، وإقامتها على الرّفاء والعدل ، ونحسّمها بالرصاص ، وحسّم المبتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يرسمه ، ويتقدم بامثاله فى سائر وجوه الحسبة ، حتى لا يخالف شيء منه إلى غيره ، ومعاينة مَنْ عسى أن يُقدم على مخالفته فيه ، يردّعه ، ويعظ مَنْ سواه ، فإن الله عزّ وجلّ يقول : (أوفُوا الكَيْلَ ولا تكونوا من المُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) » .

وهى قطعة طريقة فى العهد ، إذ تصوّر أعمال رجال الحسبة فى العصر وما كان

يُسْتَرَطُّ فِيهِمْ مِنْ مَعْرِفَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَحُدُودِهَا وَأَنْ يَكُونُوا مِنَ التَّقَاةِ أَهْلُ السَّتْرِ وَالْعَفَافِ حَتَّى لَا يَتَحَوَّلُوا إِلَى ذُنُوبٍ فِي الْأَسْوَاقِ فَارْضِينَ عَلَى التَّجَارِ وَأَصْحَابِ الصَّنَاعَاتِ هَدَايَا وَرِشَاوَى ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَفْسُدَ الدِّمُ فَسَادًا لَا حَدَّ لَهُ ، وَبِالتَّالِي تَفْسُدَ الْأَسْعَارُ وَالْبَيْعُ وَالشَّرَاءُ . وَيَصَوِّرُ مَهْمَةً الْمُحْتَسِبُ بِأَنَّهَا تَصْحِيحُ الْمَعَامَلَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَرَفْعُ الْغُشِّ وَالْخَدَاعِ وَالْمَرَاجَعَةُ الدَّائِمَةُ لِعِيَارِ الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ وَخَتْمُ الدَّقِيقِ مِنْهَا خَتْمًا يَدُلُّ عَلَى صِلَاحِهِ ، بِحَيْثُ لَا يَسْتَعْمَلُ سِوَى الْمَوَازِينِ وَالْمَكَايِيلِ الْمُخْتَوِمةِ الَّتِي أَقْرَها الْمُحْتَسِبُ ، وَكُلُّ مَنْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِمُخَالَفَةِ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُنْزَلَ بِهِ الْمُحْتَسِبُ عِقَابًا رَادِعًا . وَقَدْ كُتِبَ الْعَهْدُ بِدُونِ سَجْعٍ ، وَكَانَ ابْنُ ثَوَابَةِ يَفْزَعُ إِلَى السَّجْعِ كَثِيرًا ، وَلَعَلَّهُ لَاحِظٌ أَنَّهُ مُوجَّهٌ لِلرَّعِيَةِ كَمَا جَاءَ فِي نَهَايَتِهِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فِي لُغَةٍ وَاضِحَةٍ لَا يَحْجُبُ السَّجْعُ بَعْضَ مَعَانِيهَا ، وَلَا يَحُولُ بَيْنَ الْعَوَامِ وَتَبَيَّنَ مَا فِيهَا .

وَأَثَرَتْ لَهُ رِسَائِلُ إِخْوَانِيَّةِ كُتِبَ بِبَعْضِهَا إِلَى نَقَرٍ مِنَ الْوُزَرَاءِ ، وَهُوَ فِيهَا تَارَةً يُكْثِرُ مِنَ السَّجْعِ وَتَارَةً يَتَخَفَّفُ مِنْهُ بَلْ قَدْ يَهْمِلُهُ تَمَامًا عَلَى نَحْوِ مَا نَجَدُ فِي الرِّسَالَةِ التَّالِيَةِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا إِلَى الْوَزِيرِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ بُلْبُلٍ يَهْتَشِرُ بِمَصَاهِرَةِ الْمَوْفِقِ وَلِيَّ عَهْدِ الْمُعْتَمَدِ وَفِيهَا يَقُولُ ^(١) :

« بَلَّغْنِي لِلْوَزِيرِ - أَيْدَهُ اللَّهُ - نِعْمَةً زَادَ شُكْرُهَا عَلَى مَقَادِيرِ الشُّكْرِ ، كَمَا أَرَبَيْ مَقْدَارُهَا عَلَى مَقَادِيرِ النِّعْمَةِ ، فَكَانَ مَثَلُهَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيِّ :

بَنُوكَ - غَدًا - آلُ النَّبِيِّ وَوَارِثُوهُ خِلَافَةُ وَالْحَاوُونَ كِسْرَى وَهَاشِمَا

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهَا مُوَهِّبَةً تَرْتَبِطُ مَا قَبْلُهَا ، وَتَنْتَظِمُ مَا بَعْدَهَا ، وَتَصِلُ جَلَالَ الشَّرَفِ ، حَتَّى يَكُونَ الْوَزِيرُ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - عَلَى سَادَةِ الْوُزَرَاءِ مُوَفِّيًا ، وَبِالْجَمِيلِ الْعَادَةِ مُسْتَحَقًّا ، وَلِحَمْدِ الْعَاقِبَةِ مُسْتَوْجِبًا ، وَأَنْ يُلْبِسَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ هَذِهِ الْحُلُلِ الْغَالِيَةِ مَا يَكُونُ لَهُمْ ذِكْرًا بَاقِيًا وَشَرَفًا مُخْلَدًا » .

وَالرِّسَالَةُ تَخْلُو مِنَ السَّجْعِ ، وَلَكِنَّهَا تَحْوِي الْكَثِيرَ مِنَ الْمَهَارَةِ الْفَنِيَّةِ ، وَخَاصَّةً فِي تَقْطِيعِ الْجَمْلِ وَتَقَابُلِهَا وَاسْتِيفَاءِ مَعَانِيهَا ، عَلَى نَحْوِ مَا يَنْضَحُ فِي الْعِبَارَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ

منها ، واقتبس فيها بيتاً لإبراهيم بن العباس الصولى شديد الصلة بما تريد الرسالة أن تؤدّيه من معان . ويُعقبه عبارات مقطّعة متقابلة ، وكأنما الكلمات تتشابك بالأيدى ، فقد كان يعرف كيف يضمُّ اللفق إلى اللفق والنظير إلى النظير ، بحيث تماسك الكلمات وكأنها فى بناء متراس . وأشرنا فى الفصل السابق إلى إنكار إبراهيم بن المدبر فى رسالته العذراء التى وجّه بها إلى الكتّاب أن يقولوا فى رسائلهم : « جُعِلْتُ فداك » وإنما أنكر العبارة لاشتراك معناها كما يقول واحتمالها أن تكون فداء من الخير أو فداء من الشر ، ويقول إن كتّاب العسكر (الجيش) وعوامهم أوعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم وجعلوها دأبهم فى مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . وكأنما صدر أبو العباس بن ثوبة عن روح هذا النقد ، إذ كذب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان رسالة خالية من قوهم : « جُعِلْتُ فداك » فعاتبه عبيد الله ، ولم يكذب يسمعه عتابه ، حتى كتب إليه برسالة ثانية ، يصوّر فيها نقد إبراهيم بن المدبر السالف ، وفيها يقول^(١) :

« الله يعلم - وكفى به عليمًا - لقد أردت مكاتبتك بالتفدية ، فرأيت عيباً أن أفنديك بنفس لا بد لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومنّ أظهر لك شيئاً بضمر خلافه فقد غشّ ، والأمر إذا كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملك لا يتحقّق ، وعطاء لا يتحصّل ، لم يجز أن يخاطب به مثلك ، وإن كان عند قوم نهاية من نهايات التعظيم ، ودليلاً من دلالات الاجتهاد ، وطريقاً من طرق التقرب » .

وقد التمس أبو العباس بن ثوبة لإنكار التفدية علة أخرى غير علة ابن المدبر ، اعلمها أكثر منها تعبيراً عما أصاب الذوق الأدبى فى العصر من رقة بالغة عند بعض الكتّاب ، حتى لتؤذيه الكتابة بالتفدية بنفس فانية غير باقية ، وهو إفراط فى الحسن والشعور والرقّة والدماثة . وبذلك نفهم عبارة أبى العباس السابقة حين استمع إلى كلام حاجم ، فقال : علىّ بماء الورد أغسل فى من كلام الحاجم ، وكأن سماع الكلام الذى لا يعجبه لا يؤذى أذنه فحسب ، بل يؤذى فمه ، وإنه لإيذاء غريب ، ولكن لا غرابة أن يصدر من أبى العباس ، فقد كان يتكلف

الدعائية والحسن المفرط والشعور الحاد . وله من فصل في رسالة كتب بها إلى نفس الوزير عبيد الله بن سليمان ، يقول فيه ^(١) :

« لم يؤت الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوت من عدم وسيلة ، وغُلِّتْ (حرارة) الصَّادى (العطشان) تأبى له انتظار الوارد ، وتُعَجَّل عن تأمل ما بين الغدير والوادى ، ولم أزل أترقب أن يُخْطِرْنى بباله ، ترقب الصائم لفظه ، وأنتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن يرح (انكشف) الخفاء وكُشف الغطاء ، وشَمِتَ الأعداء ، وإن فى تخلفى وتقدم المقصرين لآية للمتوسمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والفصل مكتوبٌ بكل دقة ، فالوزير لم ينسه نقصاً فيه إذ اكتملت فضائله وأوفت على الغاية ، وهو لم يؤت من نقص ، فبلاغته ذائعة معروفة يعرفها القصي والداني ، وإذن فليبحث عن علة ، ويقول إن الحرارة المشتعلة فى صدر العطشان تدفعه إلى عدم الانتظار لما قد يرد عليه ، وتُعَجِّله عن النظر فيما بين الغدير والوادى من خيرات ومياه وطيبات . ويمضى فيقول إنه كان يترقب لإقباله ترقب الصائم الجائع لفظه والسارى بالليل الداجى لفجره ، غير أن أضواء الصباح العابس تفسدت من الأفق ، فاتضح الخفاء وانكشف الغطاء وأن الوزير لن يشمل برعايته ، وشمّت الأعداء . وكأنما يعاتب عبيد الله بكل ذلك عتاباً رقيقاً وهو يختمه بقوله إنه أصبح فى عداد المتخلفين ، بينما تقدّمت فى رحاب الوزير كثرة من المقصرين الذين لا يبلغون شأوه ، ويقول إن فى ذلك لآية للناظرين ، ولا ينسى حمد الله رب العالمين الذى لا يُحْمَدُ فى مكروه سواه . والعبارات فى الفصل متسقة اتساقاً وثيقاً ، إذ لاءم أبو العباس بينها بقسطاس دقيق ، ونحس أنسجاماً بين الكلمات منذ العبارتين الأولىين ، وهو انسجام انتهى بهما إلى أن تصبحا سجتين . ويضيف إلى ذلك فى العبارتين التاليتين مادة تصويرية طريفة ، حتى إذا سَوَّاهما تلاهما بعبارات يلتحم فيها السجع والتصوير معاً . وبذلك يَبْلُغ أبو العباس بن ثوبة صاحب الدعائية المفرطة والرقّة المتناهية كل ما كان ينتظر له من تأنق فى التعبير الأدبى ، إذ يتحول عنده إلى زخرف خالص ، زخرف يحمل كل ما يريد من وشى السجع ووشى الصور النادرة . وله من جواب عن تغزية ^(٢) :

« وصل كتابك بالتعزية عن أخى ، وقد جَلَّتْ مصيبتى به وعظمت ، فنَكَاتَ (جرح) القلب ، وهَدَّتْ الركن ، وأذهبت القوة ، ونَغَصَّتْ العيش ، وأزْرَتْ بالأمل . فعند الله أحْتَسِبْه ، وإياه أسأل تفضلاً عليه ، وصفحاً عنه ، وتغمداً (غفراناً) لذنوبه ، وصَبْرًا على حادث قضائه فيه ، واستعداداً للموت وتأهباً له ، فلمَّانَه مَصْرَعٌ لا بُدَّ منه ، وموردٌ لا مَحْيَصَ عنه » .

والانسجام واضح بين الكلمات والعبارات ، فقد صوِّرَ حزنه على أخيه بجمل متناسقة ، ولا شك فى أنه بذل جهداً عنيفاً فى اجتلابها ووضعها متلاحقة ، وكل جملة تضيف خطباً إلى لوحة الحزن السوداء ، فعبارةٌ تحمل جرح القلب ، وثانية تحمل انهداد الركن ، وثالثة تحمل ذهاب القوة ، ورابعة تحمل تنغصص العيش ، وخامسة تحمل الإزراء بالأمل . ويتجه إلى الله بجمل مماثلة يدعو فيها لأخيه ولنفسه أما أخوه فيدعو له بالتفضل عليه والصفح عنه ، والغفران لذنوبه ، ثلاث دعوات ويقابلها لنفسه ثلاث أيضاً : الصبر على حادث القضاء ، والاستعداد للموت بالعمل الصالح ، والتأهب له . وهكذا كل عبارة وكل كلمة كأنما توضع بميزان دقيق يزنها فى عبارتها ، ويزن عبارتها بالقياس إلى قرينتها أو قرانها . ويذكر صاحب معجم الأدباء أن البحرى هجا بنى ثوبه فى قصيدة له فبعث إليه أبو العباس يرضاه بهدية نفيسة فردّها وقال لحاملها قلّ لأبى العباس : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم ، فكتب إليه :

« أما الإساءة فغفورة ، والمعدرة مشكورة ، والحسنات يُذْهِبُنَ السيئات ، وما يأسُو (يداوى) جراحك مثلُ يدك ، وقد رددتُ إليك ما رددته علىّ ، وأضعفته ، فإن تلافيت ما فَرَطَ منك أثبتنا وشكرنا ، وإن لم تفعل احْتَمَلْنَا وصبرنا » .

فَقَبِلَ البحرى ما بعث به ووعد أبا العباس أن يأتيه ثناؤه ومديحه . والكلمات التى كتب بها إلى البحرى تحمل نفس خصائصه من وزن الكلام بقسطاس ، وجعله القسطاس هذه المرة يلائم أشد الملاءمة بين العبارات ، فإذا هى تأخذ صورة سجع خالص ، وهو سجع حافل بالعدوبة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العباس كان أحد من أعدوا بقوة فى القرن الثالث الهجرى لشيوخ السجع وانتشاره .

خاتمة

هذا الجزء خاصٌ بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، وقد بدأته بالحديث عن الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول خطير ؛ إذ غرب نجم الفرس ولم يعد لهم شيء من السلطان والنفوذ ، فقد أصبح النفوذ كله والسلطان كله بيد الجند الأتراك وقوادهم ، وكانوا بدواً رُحَلَاءً ، لا علم لهم بصناعة ولا بزراعة ولا بتجارة ، ولا بفنون ولا بآداب ، ولا بنظم ملك وسياسة ، وكانوا قد قبضوا على زمام الحكم في أواخر العصر السابق ، وظلوا مسيطرين عليه طوال هذا العصر . وعبثاً حاول المتوكل التخلص منهم ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، ولولا مكانه المنتصر ، ومضوا يوتون ويعزلون ويقتلون في الخلفاء ، وزادوا عنفهم بهم بأخرة من العصر ، فكانوا يسملون أعينهم . وطبيعي أن تتدهور الخلافة ، وزاد في تدهورها انغماس الخلفاء في اللهو والترف واشتداد سفههم ، إذ مضوا يبنون القصور بالأموال الطائلة ، غير مفكرين في خزائن الدولة ولا فيما ينبغي أن تُنفقَ فيه الضرائب من مرافق الشعب ومصالحه وإعداد الجيوش بالعتاد المادى والحربى . وفسد الحكم فساداً لا حدة له فقد تحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة ، وتؤخذ منهم الملايين ويصادرون ولا رادع ولا زاجر ، والشعب يقاسى كل صنوف البؤس والشقاء . وتشبّ ثورة الزنج في البصرة وتظل أربعة عشر عاماً ، وتشبّ ثورات القرامطة وتظل سنوات متطاولة ويُقتضى عليها في العراق والشام ، ولكن تظل منها شعبة في البحرين ، تهدّد الدولة وتكلفها كثيراً من الأموال والرجال حتى نهاية العصر . وتكاثرت الأحداث ، وكان من أهمها إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ووقف القول بخلق القرآن وامتحان الفقهاء فيه . وكانت الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين لا تزال ذاهبة آية ، وتكاثرت ثورات العلويين في الكوفة وطبرستان ، وثار الصفاريون في سجستان وكرمان وفارس ، واستسلموا آخر الأمر . ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، وكأن ذلك كان إيذاناً بانتهاء هذا العصر وانتهاء

الحكم التركي معه ، إذ استولى بنو بويه الفرس على بغداد ، وصار لهم السلطان فيها والصوبلخان .

وكان المجتمع العباسي يتألف من ثلاث طبقات : طبقة تنعم بكل أسباب الترف والنعيم ، وهي طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار موظفي الدولة وأصحاب الإقطاعات ورعوس التجار . وطبقة وسطى ، معيشتها بين الترف والشظف وهي طبقة رجال الجيش وصغار الموظفين ومتوسطى الدخل من التجار والصناع . وطبقة دنيا ، معيشتها بؤس وضنك وإعسار ، وهي الطبقة العامة من الزّراع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق . ومن يطلع على ما كان يُنفَقُ حينئذ في قصور الخلفاء والوزراء يُخَيَّلُ إليه أنه يقرأ في أقاصيص ألف ليلة وليلة ، إذ يبلغ ما كان يُنفَقُ على المطابخ أحياناً ثلاثين ألف دينار شهرياً ، أما القصر فكان يبلغ ما ينفق عليه أحياناً مليونين ونصفاً . والقصور الباذخة تشيّد ، والشعب يكدح ويتصبّب من جبينه العرق ليصبح ما يملكه وزير أكثر من عشرة ملايين دينار ، ولكل وزير حرسه الذي يزيد عن المئات على حين يزيد حرس الخليفة عن الآلاف . وكان كثير من أهل الطبقة الوسطى تسيل إليهم من هذا الترف وأمواله سيول ، وخاصة الأطباء والمغنين والمترجمين والشعراء ، أما الطبقة الدنيا فكانت مع بؤسها تُبَسِّرُ منها الأموال بكل الطرق ، واضطّرّ كثيرون منها إلى أن يصبحوا قسراً دين وحوّاثين ومتسولين بطرق شتى . وكان أهل الذمة يعاملون معاملة سمحة ، وكان كثير من النصارى يعملون في البيمارستانات أطباء وفي الدواوين كُتّاباً . وكان قصر الخلافة كثيراً ما يتحول إلى مقصف كبير للهو والغناء ، ولم يتوقف فيه البذخ والترف طوال العصر . وكان الرجال والنساء جميعاً يبالغون في الأناقة : الأناقة في الملبس وكل ما يتصل به من طيب وعطر . وتفنّنوا في المطاعم إلى غير حد كما تفنّنوا في الحلواء وفي الشراب . وعُنُوا بالسر والمنادمة وضروب كثيرة من الملاهي . وكان الرقيق - وخاصة رقيق الجوارى - يملأ الدور والقصور ، وكانت النخاسة قائمة على ساق ، وكانت دورها في الكرخ وغير الكرخ تكتظُّ بالقيان . ولم يُعَنَّ المجتمع العباسي بفن كما عُني بالغناء والموسيقى وكانت فيهما مدرستان : محافظة ومجددة ، وكانت المدرسة المحافظة أكثر أنصاراً . وأثّر الجوارى حينئذ آثاراً كبيرة في شيوع الظرف والركة واللطف . وظلت موجة المجون

والشعوبية والزندقة حادثة في العصر ، وكانت ضاحية الكرخ والبساتين والأديرة تمتلئ
 بحانات الخمر ، وكان الناس يقصفون ويمرحون في أعياد الإسلام والمسيحية والمجوس .
 وكانت نار الشعوبية لا تزال مُتَّقِدَةً ، وَصَبَّ عليها الجاحظ وابن قتيبة مياهاً كادت
 تطفئها إلا قليلاً ، ولذلك قلما نسمع بها بعد هذا العصر إنما نسمع عن الإلحاد
 والزندقة ، ومن رموس الزنادقة الملحدين في العصر ابن الرأوندي ومحمد بن زكريا
 الرازي . ولم يكن هذا كله الصوت القوي في الأمة ، إنما كان الصوت القوي هو
 الانصراف عن المحن وكل ما يتبعه من إثم والعكوف على الدين الحنيف والاستماع
 لوعاظه والالتفاف حول عباده ونسأكه ، وهياً ذلك لاتساع حركة التصوف ،
 وكانت قد بدأت مع أواخر القرن الثاني الهجري ولكنها تأخذ حقاً في الازدهار بهذا
 العصر ، إذ أتيح لها أعلامٌ أرسوها ، بحيث أصبحت لها قواعد وأصول ثابتة .

ونشطت الحياة العقلية نشاطاً واسعاً ، وكانت المساجد أشبه بجامعة حرة ،
 والطلاب يفلدون عليها من كل صوب متحويين من حلقة إلى حلقة ناهلين ما يشاؤون
 من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية . وقامت بحوار المساجد دكاكين الوراقين
 التي كانت تحفل بكتب العلماء من كل صنف وبما تُرجم من علوم الأوائل
 وثقافات اليونان والفرس والهند . وتأسست مكتبات كثيرة منها ما كان
 عاماً مثل خزانة الحكمة ، ومنها ما كان خاصاً لبعض الأفراد .
 وتُرَوَّى أفاصيص كثيرة عن شغف الناس بالعلم ورحلتهم في سبيله
 وانقضاضهم — حتى العامة منهم — عليه انقضاض الأسد على فريسته ، ولعل ذلك
 ما جعل الجاحظ وابن قتيبة يحاولان تقريب الثقافة إلى الشعب ، حتى يتزوّد منها
 بطرق يسيرة سهلة . ويظل نقل الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية محتدماً ،
 ويتطور النقل من النقل الحرفي إلى نقل معاني الفِقَر بحيث تصبح صياغة الكتب
 المترجمة ناصعة شديدة النضوج . ونهضت العلوم الطبيعية والطبية حينئذ نهضة
 واسعة ، وليس ذلك فحسب ، فقد أصبح للعرب بدورهم فلاسفة نابهون مثل الكندي
 في أوائل العصر والفارابي في أواخره . وتزدهر العلوم اللغوية والنحوية ، فتُشرَحُ
 النصوص القديمة شروحاً موسّعة ، وتوضَّع بعض المعاجم ، وينشط تلامذة المدرستين
 البصرية والكوفية في النحو ، وتنشأ المدرسة البغدادية . وتكثر حينئذ المباحث البلاغية

في بيئات اللغويين المحافظين والمترجمين والمتفلسفة المجددين والمعتزلة المعتدلين ، ويتم الغلب للأخيرين ، ويكتب ابن المعتز كتابه الطريف « البدیع » ويخطو النقد خطوات نحو تقنين مبادئه ، ويشاطر فيه الجاحظ مشاطرة قوية يتأثره فيها ابن قتيبة ، ويصنّدر قدامة كتابه « نقد الشعر » . وتنشط الكتابة التاريخية في السيرة النبوية وفي تاريخ الأمم والدول وتاريخ المدن وسير الرجال وتراجم الشعراء . وينهض علم القراءات ويفرض ابن مجاهد القراء السبعة المشهورين على العالم العربي الذي ارتضى ما أَدَّى في ذلك من جهد علمي خصب . ونهض التفسير بدوره على يد أهل السنة والمعتزلة والصوفية ، وبالمثل نهض تدوين الحديث ، ووُضعت فيه كتب الصحاح الستة . وظلت الدراسات الفقهية مزدهرة ، وظهرت فيها مذاهب صغرى أهمها مذهب داود الظاهري الذي كُتِب له الذبوع في الأندلس والمغرب وخاصة في عصر دولة الموحدين . وعلى الرغم من إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ظل لهم نشاطهم ، وظهر بينهم أئمة مرموقون على رأسهم أبو علي الجُببائي وابنه أبو هاشم ، وتفرّع حينئذ من الاعتزال المذهب الأشعري الذي يتوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، والذي كُتِب له الانتشار في العالم الإسلامي .

ويظل للشعر نشاطه وازدهاره ، ويظل اللغويون يقدّمون للشعراء دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية ، ودعّمَ هذا الوقوف مباحثُ النقاد والبلاغيين وملاحظاتهم على الخصائص الجمالية للبيان العربي . وأخذت تنشأ عربية مولّدة ولكنها لم تَجَرُ على السنة الشعراء ولا أدخلت على أساليبهم شيئاً من الضميمة ، إذ كانوا يتمثلون العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً . وتعمق الشعراء الثقافات الأجنبية والمباحث الفلسفية ، مما جعل عقولهم تحفل بلذائخ خصبة من الأفكار الدقيقة والتقسيمات الطريفة والبعاد في الخيال إلى درجة الوهم وكثرة التوليدات العقلية ، وحتى البحري الذي اشتهر بمحافظته على أصول الصياغة الموروثة للشعر العربي يمسّه حظ من الثقافات المعاصرة . وكان حظ ابن الرومي وافرأ ، ولذلك كثرت عنده العلل والأقيسة والأخيلة المبتكرة والقدرة على مدح الشيء وذمه . وظل الشعراء يبالغون في مديح الخلفاء حتى ليسبغون عليهم صفات قدسية ، وسجّلوا في مدائحهم البطولات الحربية ،

واحفظوا فيها أحياناً بوصف الأطلال نافذين إلى خواطر بديعة . وظلوا يستطردون إلى وصف الصحراء ، واتسعوا في وصف الربيع والطبيعة الحضرية والأعياد وملاهيها . ونشط الهجاء ، وكانوا يعمدون فيه إلى التهوين والتحقيق ، ونفذ فيه ابن الرومي إلى نوع جديد من الهجاء الساخر . وظل الفخر نشطاً ، واحتدم الرثاء ، وتفجّعوا على أبنائهم تفجّعاً مريراً ، كما تفجّعوا على البصرة حين هوت تحت أقدام الزنج . ولابن العلاف مرثية في هير تُعَدُّ من عيون الرثاء ودُرَره . وصوّروا في عتابهم واعتذاراتهم رقة أهل الحضر ودمائهم . وظل للغزل ازدهاره سواء الغزل العفيف الطاهر أو الغزل المادى الماجن ، ونفذوا فيه إلى كثير من دقائق المعاني والأخيلة ، ولكثيرين منهم خمريات تطفح بالمتاع الآثم . ونشط شعر الزهد نشاطاً واسعاً . وأكثروا من التهاني والتراسل بالأشعار مع الهدايا ، وللبحتري وصف رائع لإيوان كسرى . ولهم أشعار كثيرة في وصف قصور الخلفاء وبذخهم في البناء ، وأكثروا من وصف الطبيعة والورود والرياحين ، كما أكثروا من وصف الوحش والصيد وكلابه والأطعمة على اختلاف ألوانها والملاهي ، وفَسَّحُوا للشكوى من الزمن ولوصف الأخلاق ولشعر التصوف وللشعر التعليمي على نحو ما يلاحظ عند ابن الجهم وابن المعتز في نظمهما للتاريخ ، وعند ابن دُرَيْد في نظمه للمعارف اللغوية .

وأعلامُ الشعراء في العصر على بن الجهم والبُحْتَرى وابن الرومي وابن المعتز والصنوبري ، فأما ابن الجهم فقرش الأصل وُلِدَ ونشأ ببغداد ، وفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فمدح المعتصم والواثق ويتخذ المتوكل جليساً ونديماً بينما يتبع فيه المدائح والأشعار وقد اندفع وراء المتوكل في الهجوم على المعتزلة والعلويين والنصارى ، فتكاثر خصومه ، وسعوا به عند المتوكل فأمر بحبسه عاماً ، ثم نفاه إلى خراسان . وعاد منها إلى بغداد ثم رأى الاشتراك في نضال البيزنطيين ، ولكنه قُتِلَ دون غايته . وأروع أشعاره ما نظمته في الاستعطاف وليالي الأنس بالكسرخ ، وأكثرها توهجاً تصويره لصلابة نفسه حين سُجِنَ وصَلَّى نَارَ النَّفَى ، وكأنما كان صخرة عاتية لا تستطيع الكوارث والحن أن تمس نفسه .

وكان البحتري عريباً شامياً من طيء ، سأل الشعر على لسانه مبكراً ، وفي حلب تعرّف بفتاة تسمى عُلُوَّة ، ظلت لا تَبْرَحُ ذاكرته ، ولقى في حمص أبا تمام حامل لواء الشعر في عصره غير مدافع ، واستمع إلى شعر الفتي الناشئ ،

فشجّعه ، وأهداه بعض نصائح كان لها أثر بعيد في شعره . وقد عكف البحرى على شعر هذا الشاعر الكبير يدرسه ويتثله . وقدّمه أبو تمام إلى ممدوحه ، ونزل سامراء وأصبح شاعر البلاط الرسمى من عهد المتوكل إلى عهد المعتمد . ولم يكد يترك وزيراً ولا موظفًا كبيراً ولا أميراً ولا والياً إلا صاغ فيه مديحه . وهو ممن يمثلون النزعة المحافظة في عصره ، ويعدُّ بحق أستاذ الفن الموسيقى في الشعر العربى ، وكأنما وقف على جميع أسرارهِ ودقائقهِ ، وأكثر شعره في المديح ، ومن روائع مدائحه مدحته لأحمد بن دينار وفيها صور معركة بحرية بقيادته دُمِّر فيها الأسطول البيزنطى . ولم يكن بارعاً في الهجاء ، وله فخر ضعيف . ومراثيه قوية ، وله غزل يترقق فيه الوجد كما يترقق الماء في الغصن ، وكان ماهراً في وصف مظاهر العمران والحضارة والطبيعة .

وكان ابن الرومى يونانى الأصل وُلد ونشأ ببغداد ، وكانت ملكاته خصبة أروع ما يكون الحصب ، وكان شديد الحساسية إلى درجة التطير ، وتروى عنه فيه أفاصب كثيرة . وكان يتشيع ، ولعل ذلك ما جعل كثيرين يزورون عنه ، كما جعل أبواب الخلفاء والوزراء تُغلقُ دونه ، ويَبُلُّ لمن كان يهجوهِ . وتردّد في ديوانه أسماء ممدوحين كثيرين وكذلك أسماء كثيرات من الجوارى والقيان ، واستطاع بملكاته الحصبة أن ينفذ إلى لون ساخر جديد في الهجاء كما أسلفنا ، وله مراث تفيض بالحسرات واللوعات ، وعتابه لأبى القاسم التّوزىّ وحواره مع هَنّاته من أطرف ما نظمهُ شعراء العربية ، وله في الغزل معان وأخيلة نادرة وكان يُشغَفُ بالطبيعة وله فيها أشعار رائعة ، وهو يُكثّر من وصف مجالس الأُنس واللوان الطعام ، وله أشعار بدّعة في الزهد .

وكلُّ الشعراء السالفين من أبناء الشعب ، أما عبد الله بن المعتز فكان أبوه ابن الخليفة المتوكل وظل في الخلافة نحو ثلاثة أعوام ، وقبّله الترك ونفوا أمه قبيحة وابنه عبد الله إلى مكة ، وأعادهما المعتمد إلى سامراء وفيها مضى عبد الله ينهل من كل الثقافات ، وله مصنفات مختلفة أهمها كتابه البديع ، وكان يحسن الضرب على الآلات الموسيقية ، وله أصوات حملتها العصور بعده ، وله مدائح مختلفة في عميه المعتمد والموفق وفي المعتضد وابنه المكتفى . وكانت مأساته في أبيه وجَدّة تصرفه عن التفكير في الخلافة ، ولكن حدث أن تولّاها المقتدر وهو

غلام ، وتُجمع طائفة كبيرة من رجال الدولة على خَلْعِهِ والبيعة لابن المعتز ، ويكون في ذلك حَسَنَةً . وآثار بيئته المترفة واضحة في أشعاره ، وخير مدائحه ومراثيه ما نظمه في ابن عمه وصديقه المعتضد ، وله فخر كثير وفيه يلوح من حين إلى حين في وجوه العلويين ، بأن أسرته أحقّ منهم بميراث الخلافة . وله أشعار كثيرة في الغزل واللهو والخمر وذم الصُّبُوح ، وتكثر في شعره التشبيهات والاستعارات كما يكثر وصف الصيد وكلابه وآلاته .

وكان الصَّنَوْبَرِي من أهل أنطاكية ، ولكنه نشأ وتربَّى في حلب ، وعاش حياته بها إلا فترات كان يتردّد فيها على الموصل . وأكثر من المديح ، وكان شيعياً ، وهو لا يَغْلُو في تشيعه ، وانعقدت صداقة بينه وبين كشاجم مواطنه الذي ينزل منه منزلة التلميذ من أستاذه . وفي أشعاره عناية واضحة بصناعاتها ونثر فنون البديع فيها ، وله مدائح كثيرة ، وأروع مراثيه بكاءؤه على آل البيت وتفجعه على ابنته ليلي ، وله غزل في فتاة مسيحية . ويكثر من وصف الخمر ، وله أشعار في الزهد ، وأهم موضوع شغله واشتهر به وصف الطبيعة حتى ضرب المثل بروضياته ، وله غناء كثير بالثلجيات ، ويُعَدُّ فاتح هذا الباب في العربية ، وله أشعار بديعة في وصف الديك والصيد والهِرِّ والجُرْذَان ، مما يشهد بملكته التصويرية الدقيقة .

وتكاثر شعراء السياسة والمديح والهجاء في العصر ، وفي مقدمتهم شعراء الخلفاء العباسيين ، إذ كانت أموال الدولة بأيديهم ، فكثر مدائحهم حتى بين الشيعة ، ولكل خليفة شعراؤه الذين أشادوا به وبأحقية بيئته في ميراث الخلافة ، ومن أهمهم مروان بن أبي الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي ، أما مروان فكان يسير سيرة جدّه مروان بن أبي حفصة في الطعن على البيت العلوي ، مما جعل المتوكل يغمره بعطاياه ، وكان يُعْنَى مثل جدّه بصقل أشعاره . وكان على بن يحيى المنجم من أصل فارسي ، وهو مثال للنديم المثقّف ثقافة واسعة ، وله شعر كثير في مديح الخلفاء والوزراء وفي تصوير سمو نفسه . وكان أبو بكر الصولي التركي الأصل من بيت علم وكتابة ، وفتحت له ثقافته الواسعة ومهارته في لُعبَةِ الشَّطْرَنْج أبواب القصور العباسية منذ خلافة المعتضد ، وخير مدائحه ما نظمه في الخليفة الراضي ، وله غزل رقيق كثير . وكان شعراء البيت العلوي يقفون مدافعين منافحين عنه ، وأهمهم

في العصر محمد بن صالح العلوي والحماني والمفجع البصري ، وكان محمد بن صالح قد ثار بالحجاز ، وزجَّ به المتوكل في غياهب السجون ، ثم عفا عنه وعاش في سامراء يمدحه ، وله أشعار طريفة في زوجه وفي بعض أصدقائه . وكان الحماني نقيب العلويين في الكوفة وله مرث كثيرة ليحيى بن عمر العلوي يبكيه فيها بكاء حاراً . وكان المفجع شيعياً إمامياً ، وكان يُكثَّر من مديح علي وأبنائه . وكثرت الثورات السياسية في العصر ، وكان بعض الثوار شاعراً مثل صاحب الزنج فله أشعار تدور في كتب التاريخ والأدب ، ومثله يحيى بن زَكَرَوَيْه القرمطي الثائر بالشام وأبو طاهر الجنباني صاحب الأحساء والبحرين . وأهم شعراء الثورات محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دلف ، أما ابن البعيث فثار بأذربيجان ، واستطاع حين أتى به أسيراً إلى المتوكل أن يستلَّ غضبه بشعره فيعفو عنه . وأما حفيد أبي دلف فثار بأعمال الجبل بين همدان وأصفهان ، وله أشعار مختلفة يتهدَّد بها قواد المعتضد وينذرهم - إن هاجموه - إنذارات خطيرة . ويكثُر كثرة مفرطة شعراء الوزراء والولاة والقواد ، وفي مقدمتهم أبو علي البصير وابن أبي طاهر وابن دريد ، ولأولهم مدائح كثيرة في الفتح بن خاقان وله مداعبات ومعان طريفة في الغزل وفقد بصره وشيخوته . ولابن أبي طاهر مدائح كثيرة في الوزراء ، وله أهاج لاذعة . واشتهر ابن دريد بمدائحه لابن ميكال وإلى الأهواز ، وخاصة بمقصودته فيه وقد شُرحت مراراً وتكراراً . ومحمد في العصر الهجاء القبلي ، وظل الهجاء الشخصي محتدماً ، ومن أكبر الهجائيين في العصر الصَّيْمَرِي ، وخبره مع المتوكل والبحترى مشهور . وأشد إيلاماً وخزراً منه في الهجاء الحمدوني ، وقد دارت على كل لسان في عصره أهاجه في طيلسان ابن حرب وشاة سعيد بن أحمد . وهجاء العصر غير منازع ابن بَسَّام ، وله في أبيه أهاج كثيرة ، ولم يكد يترك خليفة ولا وزيراً ولا أميراً ولا كبيراً في عصره دون أن يَكُوِّيه بميسم هجائه .

ويكثُر شعراء الغزل وشاعراته ، ويظل الغزل العفيف حياً حياة خصبة بجوار الغزل المادى الصريح ، ويكثُر الناضمون للغزل من كل الأوساط ، وكثيرات من الجوارى في العصر كن يَنْظُمْنَهُ ويتقنَّ نظمه ، وأشهر شعراء الغزل حينئذ خالد ابن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهري وفضل الشاعرة وكان خالد كاتباً في الدواوين ، وله رقائق غزلية كثيرة يصوِّر فيها حباً ظامئاً لا يَرَوَى أبداً ، أما

محمد بن داود فكان فقيهاً ظاهرياً وغزله أفلاطوني نقي طاهر ، وكانت فضل من مولدات البصرة ، وهي أشعر الجوارى في عصرها ، ولها معاتبات ومراسلات كثيرة مع سعيد بن حميد . وكان كثير من الشعراء ينغمس في اللهو والمجون ، وكانوا يترافقون في الديارات وفي الخانات وفي دور التَخَاسِين ومن أكثرهم خلاعة ومجوناً الحسين بن الضحاك وأبو الشَّيْبَلِ البُرْجُمِيِّ وعبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع . ونادم الحسين غير خليفة ، وهو فارسي الأصل ، وتَشَبَّعَ في غزلياته وخمرياتة عدوبة مفرطة ، ولا يلحقه أبو الشَّيْبَلِ في تلك العدوبة ولا في خفة روحه . وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يُسَرِّفُ في الخلاعة والمجون ، وله أشعار في نصرانية هام بها هياماً شديداً ، وشعره مثل شعر الحسين بن الضحاك وافر الموسيقى . وكان يقابل شعراء الحمر والمجون شعراء الزهد والتصوف ، وكانوا أقرب منهم إلى قلوب العامة التي كانت تعيش على شظف العيش وتعرف ربها وتتيقن في السر والعلن ، ويتغنَّى كثيرون بأشعار زاهدة ، ويتكاثر المتصوفة ويتكاثر شعرهم في المحبة الإلهية والفناء في الذات العلية . ويظهر الحلاج الذي تمثل في نفسه الحقيقة الإلهية ، مع إيمانه بتنزيه الله واتحاد الناسوت وهو الروح الإنساني في اللاهوت وهو الروح الإلهي على نحو ما يصوِّر ذلك كتابه الطواسين وما فيه من حديث عن هذا الاتحاد ، وهو أول من أَعَدَّ لفكرة الحقيقة الحمديدية وأن الأديان جميعاً تؤدِّي إلى الله جلَّ جلاله . وكان الشَّيْبَلِيُّ الصوفي لا يغلو غلوه ، إذ كان تصوفه سُنْبِيّاً ، مما جعله ينحى عن نفسه أفكار الاتحاد والشهود ، ومع ذلك كان يكثر من الحديث عن الأحوال والمقامات ، وكان يؤمن بفكرة الفناء في الذات الإلهية . وبلغا في العصر شعراء كثيرون ينظمون في الطرد والصيد ، وكان هُؤُلاَ ومتاعاً للخلفاء والوزراء وعلية القوم ، وكانوا يخرجون إليه في مواكب ومعهم الشعراء وكادوا لا يركون ضارياً من ضواري الصيد ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه ، كما نعتوا الصيد من حُمُر الوحش وأنته وثيرانه وبقرة وظبائه ونعامه وأرانبه والطير والإوز ، وبالمثل نعتوا آلائه من النَّبَلِ والسَّهَامِ والفِخَاخِ والشِّبَاكِ والبندق . ومن أهم الشعراء الذين شغفوا بوصف الصيد والقَنَصِ أبو العباس الناشي ، وكان من المعتزلة ، وكان عالماً وناقداً كما كان شاعراً بارعاً ، وقد اعتمد كشاحم على أشعاره في صنع كتابه المصايد والمطارد مما يدل بوضوح على كثرة نظمه في الطَّرْدِ والصيد ، وله أشعار

بديعة في وصف الكلاب والبزاة والشاهين والطير أيضاً في وصف الأسد وكانوا يفتخرون طويلاً بصيده . ويكثر في العصر شعراء النزعات الشعبية ، وخاصة شعراء البؤس المكدين وغيرهم ممن صوروا ضيق الحياة وما يجري فيها من ضنك شديد ، وصور كثير من التحامق في صور هزلية . ولا يبارى جحظة البرمكي - الضارب على الطنبور - في تصوير تعاسة الطبقة العامة ، وكثيراً ما صبَّ سياطه على الحكام الفاسدين . ويمثل الخُبْزُ أرزى هذه الطبقة فقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولغته حلوة خفيفة ، وكان مواطنوه في البصرة يشغفون بأشعاره شغفاً شديداً .

وازدهر في العصر النثر ازدهاراً عظيماً ، وقد ظلت حركة الترجمة ناشطة ، وشاع الاستواء والتناسق فيما تُرجم من آثار ، وظهر الكندي أول فيلسوف للعرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة ، وكان شاعراً وناثراً ممتازاً إذ كان يتمثل العربية ودقائقها وخصائصها تمثلاً بارعاً . وأخذت بيئات مختلفة تتجادل في معايير البلاغة العربية ، فكانت هناك بيئة محافظة مثلها اللغويون ، وبيئة تفرط في التجديد مثلها المترجمون ، وبيئة معتدلة مثلها المتكلمون ، وهي التي كُتِبَ لها السداد والنجاح ويمثلها الجاحظ وما وُضِعَ للبلاغة والبيان العربي من مقاييس فنية . وأبلى اللغويون بلاء حسناً في تثقيف الناشئة والأدباء باللغة والشعر ويتأثر بهم ابن قتيبة في كتابه « أدب الكاتب » الذي وضعه نبراساً للكتاب يهتدون به . ويصنّف إبراهيم بن المدبر رسالة بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة . وتحاول بيئة المترجمين والمتفلسفة أن تضع تشريعاً لمقاييس البلاغة العربية في النثر على ضوء المقاييس اليونانية ، ويكتب في ذلك ابن وهب كتابه : « البرهان في وجوه البيان » ولا يقف عند الاحتكام إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، بل يحتكم أيضاً إلى كتابيه في المنطق والجدل . غير أن الأدباء في عصره وبعد عصره ازوروا عن كتابه ومنهجه ، وساد بينهم منهج المدرسة الكلامية وذوقها الأدبي العام الذي مثله الجاحظ في كتاباته خير تمثيل . وضعفت الخطابة في العصر ، ولكن المواظ لم تضعف ، بل ازدادت اضطراباً على أيدي المتصوفة ، وأخذت تنتشر لهم حكايات وأقاصيص كثيرة تصور جهادهم في قمع شهوات النفس ومطالبها من لذات الحياة ، وتداولها الناس بحيث أصبحت ضرباً من ضروب الأدب الشعبي حينئذ ، كما تداولوا عنهم حكايات كثيرة عن كراماتهم وأخبارهم . وليس ذلك فحسب ، فإن

بعض المتصوفة كتب في تصوفه مقالات نثرية بجانب ما كتب من أشعار على نحو ما يلاحظ في كتاب الطواسين للحلاج . وكثرت المناظرات في العصر بين المتكلمين وكذلك بين الفقهاء ، ومناظرة الحسن بن عبد الله السيرافي ومتي بن يونس في النحو والمنطق مشهورة ، وبالمثل مناظرات اللغويين . وكأنما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى يُعَنِّونُ كثير من الكتب باسم الرد أو النقص ، وشاعت هذه الروح في قصص وأخبار جمعت ونُسقت في كتابي المحاسن والأضداد والمحاسن والمساوى ، وهما كتابان نفيسان ، تلتقى فيهما الثقافات العربية والإسلامية والأجنبية ومأثورات قصصية كثيرة عن الفرس والهند واليونان . وطبيعى أن تظل الرسائل الديوانية ناشطة في العصر فقد كانت الدواوين تجذب إليها كتّاب العصر البارعين من أمثال عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وأحمد بن الحصبب وزير المنتصر . ونبغ بعض الولاة في كتابة تلك الرسائل مثل محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومن كتابها النابهين إمام المهتدى سعيد بن عبد الملك . وارتقى كاتب من كتابها المرموقين إلى مرتبة الوزارة في عصر هذا الخليفة هو سليمان بن وهب ، وكان ابنه عبيد الله وحفيده القاسم من كبار الوزراء ونابهى الكتّاب . ويشيع السجع في الرسائل الديوانية لعصر المقتدر ، ويصبح منذ هذا التاريخ ظاهرة عامة لا تخلو رسالة من وشبه وزخارفه . ويظل للرسائل الإخوانية نشاطها بدورها ، ولا تترك موضوعاً للشعر إلا وتشاركه فيه ، ويشيع فيها السجع مبكراً ، وتلقانا بعض رسائل مسجوعة سجعاً خالصاً ، منها رسالة طويلة لأبي على البصير كلها هجاء مرير . وكان أبو العيّناء يسجع في رسائله الشخصية . وكان ابن مكرم لا يُشيع السجع في رسائله ، ولكن ألفاظه كأنها درر غتارة سواء في اصطفاء اللفظ أو فيما يوشيهها به من زخرف البديع . وكان أحمد بن سليمان بن وهب يسجع في رسائله بينما كان يتخفف منه ابن أبي طاهر ، ومثله ابن المعتز . وتنشط كتابة الرسائل الأدبية ، وكان الجاحظ يشيع فيها أسلوب الازدواج ، على حين نجد ابن المعتز في رسالة طريفة يمدح فيها سامراً ويذم بغداد يملؤها بالسجع وألوان البديع وزخارفه . وكأن ذلك كله كان إرهاباً بأن السجع سيم مع أواخر القرن في جميع الرسائل سواء أكانت أدبية أو إخوانية أو ديوانية .

وأعلامُ الكتاب في العصر لإبراهيم بن العباس الصولي والجاحظ وابن قتيبة وسعيد ابن حميد وأبو العباس بن ثوبة . وقد ولد إبراهيم بن العباس ونشأ ببغداد ، وظهرت فيه مخايل الأدب مبكرة ، فالتحق بدواوين الفضل بن سهل ، وظل يعمل في دواوين الدولة وولاياتها حتى نكبه ابن الزيات وزير المعتصم والوائق وسجنه ، وعفا عنه الوائق ، حتى إذا كان عهد المتوكل ابتسمت له الدنيا ، فقلّده ديوان الرسائل ودواوين مختلفة ، وظل يكتب كل ما يصدر عن المتوكل من منشورات وفتوح وعهود لأولياء العهد وتهنئات بالأعياد . وكثير من ذلك كله احتفظ به الطبري ، وهو يصور عنايته بتقطيع العبارات واصطفاء الألفاظ واستخدام بعض ألوان البديع دون إفراط ، وقد يضيف إلى ذلك أحياناً اجتلاب بعض الأسجاع . وفي تحميداته ما يدل على ثقافة اعتزالية واضحة . وكان يوازن بين عباراته موازنات دقيقة في الصوت والجرس والأداء ، كما كان يعنى أشد العناية بمعانيه ، حتى تروق كتاباته اللسان والحنان ، وقد تصبح بعض القطع عنده سجعاً خالصاً .

والجاحظ أكبر كتّاب العصر ، بل أكبر كتّاب العربية قاطبة ، وقد نشأ بالبصرة وتمثّل كل ما كان فيها من معارف ، وهو معتزلي كبير بل صاحب مذهب اعتزالي قائم بنفسه سُمّي الجاحظية نسبة إليه . وهو لا يبارى في وضوح كتاباته وقدرته على التوليد في المعاني ، واستنباط خفياتها ودقائقها . وقد صور في أعماله مجتمعه بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا . وكان يُعسّي بصياغته عناية كاملة ، واستطاع أن يفرض على العربية أسلوبه الذي ابتكره ، ونقصد أسلوب الازدواج ، وحقاً نجد له مقدمات عند غيره ، ولكنه هو الذي استمسك به وأشاعه في جميع آثاره ، مع روح الدعابة التي يتميز بها ومع الاستطرادات الكثيرة حتى لا يمل القارئ . وقد عرضت خمسة ألوان من كتاباته : اللون الأول المناظرات واخترت مناظرة معبد والنظام التي وضعها في أوائل كتابه الحيوان واحتلت فيه نحو مجلد ونصف ، وهي لاشك من عمله إذ جميعها بصياغته وأسلوبه . واللون الثاني رسائله الشخصية وهي حافلة بمهارته في استنباط الأفكار وجمال أسلوبه . ومثلها اللون الثالث وهو رسائله الأدبية الباهرة . واللون الرابع والخامس هما القصص والنوادر ، إذ كان قصصاً ممتازاً كما كان بارعاً في سرد النوادر .

وأكبر مؤلف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ ابن قتيبة ، وهو بحكم

ثقافته الدينية يبدو محافظاً في بعض آرائه النقدية ويشتهر بسياطه التي ألهم بها ظهور الشعوبيين ، وأهم أسلحته الحربية التي اتخذها ضدهم في رأينا أنه حاول في كتابه « عيون الأخبار » المزج بين الثقافات الإسلامية والعربية والفارسية واليونانية والهندية مزجاً أسقط به الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب ، فليس هناك ما يسمى فارسيّاً مستقلاً أو هنديّاً أو يونانيّاً أو إسلاميّاً أو عربيّاً ، بل هي ثقافة واحدة ، وهي ثقافة تشمل أيضاً ما عند أهل الكتاب ، فكل الثقافات دينية ومدنية تستحيل إلى هذه الصورة الجسدية التي صاغها ابن قتيبة ، بحيث خفّت صوت الشعبوية ، فكل ما كانت تفتخر به على العرب أصبح من صميم العربية . وصاغ ابن قتيبة ذلك في أسلوب أدبي ناصع يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة واستخدام الازدواج محاكاة للجاحظ أحياناً والاسترسال أحياناً أخرى . وقد يجرى السجع على لسانه ، ولكن دون أى تكلف ، ويتشبه بالجاحظ أحياناً في نقل الواقع وفي خلط الجدل بالهزل وإيراد بعض النوادر .

وسعيد بن حميد من أصل فارسي ، عني أبوه بثقيفه والتحق بالدواوين وتألّق نجمه فيها حتى أصبح رئيساً لديوان الرسائل في عصر المستعين ، وبنص الطبري على بعض ما كتبه من رسائل ديوانية ، وكان يُعنى أشد العناية بانتخاب ألفاظه وتقطيعها وتقابل الكلمات ، وقد يتكامل التقابل والتقطيع حتى يصبح الكلام سجعاً ، وله بجانب رسائله الديوانية رسائل لإخوانية بنفس الأسلوب الذي وصفناه ، ونحس عنده دائماً رغبة قوية في النفوذ إلى أفكار مبتكرة ، حتى لتصبح الرسالة ضرباً من الحيل العقلية يروع بطرافته ، مع دقة التعبير وجماله .

وأبو العباس بن ثوبة من أسرة أصلها مسيحي ، عملت في دواوين السدولة العباسية ، وتميّز هو من بين أفرادها في منتصف القرن الثالث الهجري إذ التحق بدواوين الدولة ، وما زال يصعد في مراتبها حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل ، وله عهد طريف إلى أحد الولاة كتبه عن الموفق ، وهو يصور فساد الحكم حينئذ ، كما يصور عمل صاحب الحسبة ، وله رسائل لإخوانية مختلفة ، يتضح فيها الحس المفرط والشعور الحاد كما يتضح السجع مضيفاً إليه مادة تصويرية بديعة .

فهرس الموضوعات

صفحة

٧-٥	مقدمة
٥٢-٩	الفصل الأول : الحياة السياسية
٩	١- استيلاء الترك على مقاليد الحكم
١٧	٢- تدهور الخلافة
٢٦	٣- ثورة الزنج
٣٣	٤- ثورة القرامطة
٤٣	٥- أحداث مختلفة
١١٤-٥٣	الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية
٥٣	١- طبقات المجتمع
٦٧	٢- الحضارة والترف والملاهي
٨٠	٣- الرقيق والحواري والغناء
٩١	٤- المجنون والشعبية والزندقة
١٠٤	٥- الزهد والتصوف
١٧٩-١١٥	الفصل الثالث : الحياة العقلية
١١٥	١- الحركة العلمية
١٢٩	٢- علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف
١٤٢	٣- علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ
١٦٠	٤- علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه
١٧٠	٥- الاعتزال وانبثاق المذهب الأشعري
٢٥٤-١٨٠	الفصل الرابع : نشاط الشعر
١٨٠	١- علم الشعراء بأسرار العربية
١٨٩	٢- ذخائر عقلية خصبة

صفحة

- ٣ - التجديد في الموضوعات القديمة ٢٠٣
 ٤ - نمو الموضوعات الجديدة ٢٢٨
 ٥ - نمو الشعر التعليمي ٢٤٦

الفصل الخامس : أعلام الشعراء ٢٥٥ - ٣٦٨

- ١ - علي بن الجهم ٢٥٥
 ٢ - البحتري ٢٧٠
 ٣ - ابن الرومي ٢٩٦
 ٤ - ابن المعتز ٢٢٤
 ٥ - الصنوبري ٣٤٧

الفصل السادس : شعراء السياسة والمديح والهجاء ٣٦٩ - ٤٤٢

- ١ - شعراء الخلفاء العباسيين : مروان بن أبي الجنوب أبو السمط ،
 ٣٦٩ علي بن يحيى المنجم ، أبو بكر الصولي
 ٢ - شعراء الشيعة : محمد بن صالح العلوي ، الحيماني العلوي ،
 ٣٨٥ المفتح البصري
 ٣ - شعراء الثورات السياسية : محمد بن البعيث ، بكر بن
 ٣٩٩ عبد العزيز بن أبي دلف
 ٤ - شعراء الوزراء والولاة والقواد : أبو علي البصير ، أحمد بن
 ٤١١ أبي طاهر ، ابن دريد
 ٥ - شعراء الهجاء : الصيمري ، الحمدوني ، ابن بسام ٤٢٨

الفصل السابع : طوائف من الشعراء ٤٤٣ - ٥١٢

- ١ - شعراء الغزل وشاعراته : خالدة بن يزيد الكاتب ، محمد بن
 ٤٤٣ داود الظاهري ، فضل
 ٢ - شعراء اللهو والمجون : الحسين بن الضحاك ، أبو الشبل
 ٤٥٨ البرجمي ، عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع

- ٣ - شعراء الزهد والتصوف : الحلاج ، الشبلى . . . ٤٧٣
- ٤ - شعراء الطرد والصيد : أبو العباس المناشىء الأكبر . . . ٤٨٦
- ٥ - شعراء شعبيون : جحظة ، الخبز أرزى . . . ٤٩٩

الفصل الثامن : نشاط النثر ٥١٣ - ٥٧٣

- ١ - تطور النثر ٥١٣
- ٢ - الخطابة والمواعظ والنثر الصوفي ٥٢٦
- ٣ - المناظرات ٥٣٥
- ٤ - الرسائل الديوانية ٥٥٠
- ٥ - الرسائل الإخوانية والأدبية ٥٦٢

الفصل التاسع : أعلام الكتاب ٥٧٤ - ٦٤٠

- ١ - إبراهيم بن العباس بن محمد الصولى ٥٧٤
- ٢ - الجناحظ ٥٨٧
- ٣ - ابن قتيبة ٦١١
- ٤ - سعيد بن حميد ٦٢٣
- ٥ - أبو العباس بن ثوبة ٦٣٣

خاتمة ٦٤١ - ٦٥٣

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

في الدراسات القرآنية

• الوجيز في تفسير القرآن الكريم

الطبعة الثانية ١٠٥٢ صفحة

• سورة الرحمن وسور قصار

عرض ودراسة الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

• عالمية الإسلام

الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة

• الحضارة الإسلامية في القرآن والسنة

الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة

في تاريخ الأدب العربي

• العصر الجاهلي

الطبعة الحادية والعشرون ٤٣٦ صفحة

• العصر الإسلامي

الطبعة الثامنة عشرة ٤٦١ صفحة

• العصر العباسي الأول

الطبعة الخامسة عشرة ٥٧٦ صفحة

• العصر العباسي الثاني

الطبعة الحادية عشرة ٦٥٧ صفحة

• عصر الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

الطبعة الرابعة ٦٨٨ صفحة

• عصر الدول والإمارات

الشام

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

• عصر الدول والإمارات

مصر

الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة

• عصر الدول والإمارات

الأندلس

الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة

• عصر الدول والإمارات

ليبيا - تونس - صقلية

الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة

• عصر الدول والإمارات

الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان

الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية

• الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة

• الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة

• التطور والتجديد في الشعر الأموي

الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة

• دراسات في الشعر العربي المعاصر

الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة

• شوقي شاعر العصر الحديث

الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة

• الأدب العربي المعاصر في مصر

الطبعة الثانية عشرة ٣٠٨ صفحة

• البارودي رائد الشعر الحديث

الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحة

• الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية

الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة

• البحث الأدبي:

طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره

الطبعة الثامنة ٢٧٨ صفحة

• الشعر وطوائفه الشعبية على مر العصور

الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

• في التراث والشعر واللغة

الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

• في الشعر والفكاهة في مصر

الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة

في الدراسات النقدية

• في النقد الأدبي

الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة

• فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

• في الأدب والنقد

الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية

• البلاغة : تطور وتاريخ

الطبعة العاشرة ٣٨٠ صفحة

• المدارس النحوية

الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة

• تجديد النحو

الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

• تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا

مع نهج تجديده

الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة

• تيسيرات لغوية

الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

• تحريفات العامية للفصحى

الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة

في مجموعة نوايا الفكر العربي

• ابن زيدون

الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

• الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

• المقامة

الطبعة السابعة ١٠٨ صفحات

• النقد

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

• الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

• الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

في التراث المحقق

• المغرب في حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة

• كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

• كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

• الدرر في اختصار المغازي والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

السيرة النبوية

• محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى ٤٨٠ صفحة

في سلسلة اقرأ

الطبعة الثانية

• معنى (١)

الطبعة الأولى

• معنى (٢)

الطبعة الأولى

• القسم في القرآن الكريم

الطبعة الخامسة

الطبعة الثانية

الطبعة الثانية

• العقاد

• البطولة في الشعر العربي

• الفكاهة في مصر